من مصر إلى صنعاء

رحلة في بلاد العربية السعيدة (1927)

نزيه مؤيد العظم

حققها وقدم لها

عبد الله السريحي

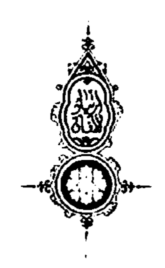


من مصر إلى صنعاء

رحلة في بلاد العربية السعيدة

1630–1633 م

نزيه مؤيد العظم

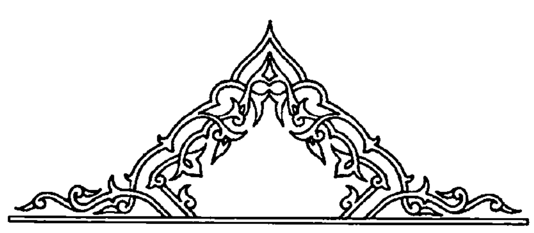


من مصر إلى صنعاء / رحلة في بلاد العربية السعيدة
نزيه مؤيد العظم /مؤلف [حققها وقدم لها: عبد الله بن يحيى السريحي]
الطبعة الأولى، 2011
حقوق الطبع محفوظة



دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص. ب: 44480
الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6322079، فاكس: 6312866

تصميم الغلاف: الفنان ناصر بخيت
الصف الضوئي: المركز العربي للأدب الجغرافي - لندن/أبو ظبي



من مصر إلى صنعاء

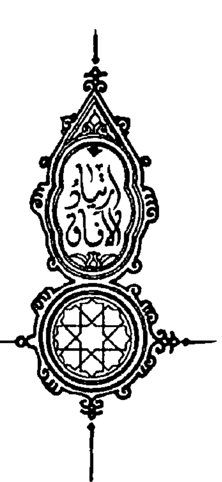
رحلة في بلاد العربية السعيدة

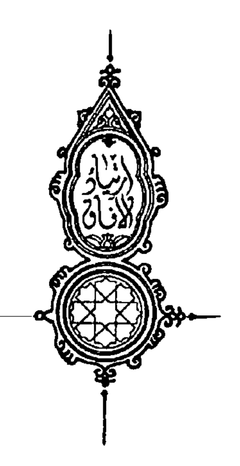
1630–1633 م

نزيه مؤيد العظم

حققها وقدم لها: **عبد الله السريحي**

الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات 2008 – 2009





يشرف على هذه السلسلة

نوري الجراح

مستشار التحرير:

علي كنعان

أمانة التحرير:

أيمن حجازي

الإشراف الفني:

ناصر بخيت

"شاهدت في أحد الأعياد موكباً يوهم بعض رجاله الناس أنهم يأكلون النار ويسيرون فوقها، ويضرب بعضهم أنفسهم بالخناجر والمدى، ويقوم البعض بالرقص ولعب الخيل، ويشترك في حضور هذه الحفلات جميع الطبقات نساء ورجالاً، ومما يؤسف له أن أكثرية الوطنيين العرب أصبحوا خداماً للأجانب، فلا يتعاطون من الأشغال إلا الدنيئة.".

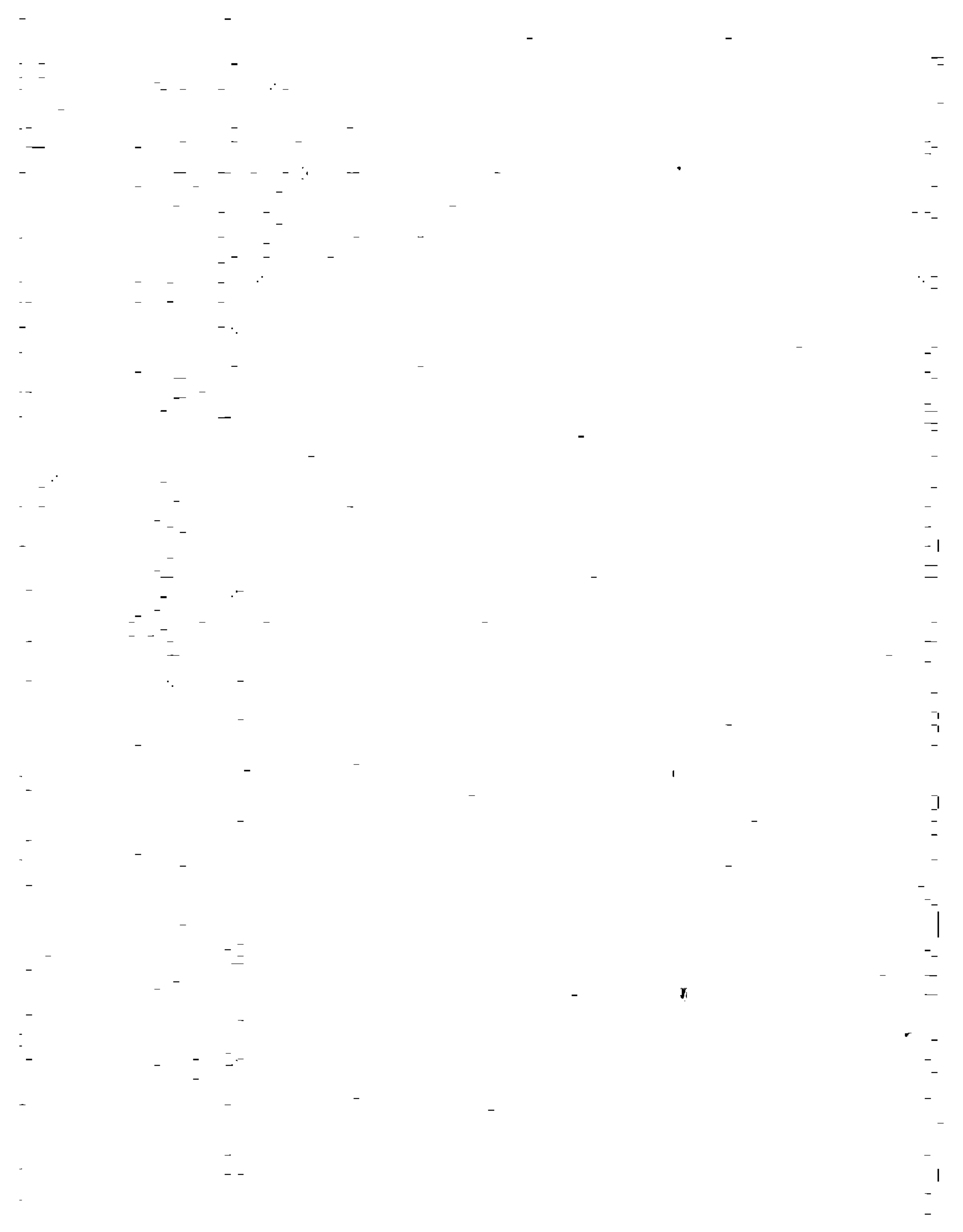
من نص الرحلة ص 30

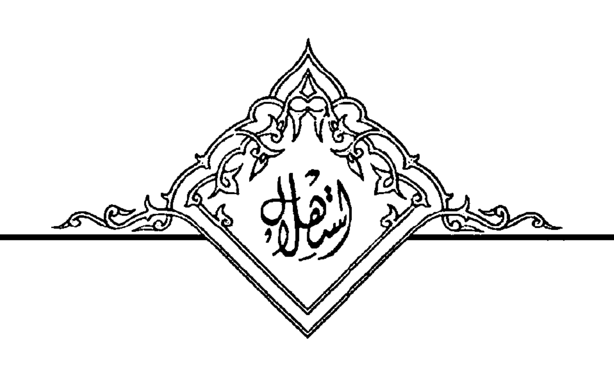
"ويوجد في احديدة تاجر واحد يوناني ألّف شركة دعاها شركة (ليفراتو)، وهو يبتاع معظم محصول البن في اليمن ويصدره إلى أميركا وفرنسا وبريطانيا، وتوجد شركة إيطالية، وهذه شبه حكومية، وتوجد أيضاً وكالة روسية، وهذه أيضاً حكومية سياسية أكثر منها تجارية، ويقوم رجالها بدعاية شيوعية واسعة النطاق".

من نص الرحلة ص 44

"ومررت بطريقي ببعض الحمامات وهي كثيرة في صنعاء لأنه لا توجد في المنازل حمامات خاصة، وربما بلغ عدد الحمامات في صنعاء أكثر من العشرين وهي مبنية على الطراز التركي القديم المعروف عندنا في الشام".

من نص الرحلة ص 146





أعلن عن جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي سنة 2003 وتهدف إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات واليوميات، وهو ميدان خطير ومهمل، وقد تأسست الجائزة إيماناً من "المركز العربي للأدب الجغرافي -ارتياد الآفاق" و"دار السويدي" بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز، وتكريساً لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية، وإخراجه إلى النور، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان، والسفر فيه، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي، لم ينل اهتماماً يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات. مع التنويه بتزايد أهمية المشروع وجائزته في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن "الآخر" في مختلف الجغرافيات التي ارتادها رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم وتصوراتهم الخاصة بهم عن الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري حيثما حلّوا.

في دورتها هذه كما في دوراتها السابقة تواصل الجائزة التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب

الجغرافي بصورة عامة، من جهة، وتشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياقم المعاصرة في السفر، وحض الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة.

مكتبة عربية لأدب الرحلة... من كان يصدق؟ موسيقى لا تهدأ، وصخب لا ينتهي، وسطور الرحالة مدونات هي لوحات فنية مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات، حدس شاعري وابتكار فني وجمال في التعبير، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة فيأتي بالممتع والمدهش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة وزوايا لم تستكشف يرتادها عاشق مغامر كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة. وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها، بل يستغرق في ملامحها، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها وكأنه يتأمل نفسه في مراياها... تلك هي الرحلة، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان.

بدأنا برحلة، وقلنا إننا سنختتم معاً مائة رحلة، أما وقد وقفنا على أعتاب الكتاب المائة فأي معجزة هذه.. ولم يمضِ عل مشروع "ارتياد الآفاق" أربعة أعوام؟!

إنني لأحيي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة، فرسانا امتطوا صهوات الجياد واقتحموا غمار الموج، سالكين دروب الدهشة والخطر؛ وأتطلع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرحالة المعاصرين، الذين واكبوا مشروع "ارتياد الآفاق" وتألقوا في مسالكه. أطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكتب، وهي تنقلنا بين المدن والبلدان والقارات، هؤلاء هم غواصو لآلئ الرحلة العربية ومبدعو أدبها الروائي الجميل. إنهم ثروة الأمة من الناظرين في كل جهات الأرض، وسفراؤها إلى

العالم، العائدون بالرؤى والمعارف والخبرات، أهل المشاهدة وأهل الحوار مع الآخر بصفته أنا أخرى وشريكا على هذا الكوكب.

في أسواق المدن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطات القطار نمر بألوان من كتيبات السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السفر. هذا شيء آخر غير أدب الرحلة؛ واليوم، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها، بل أفردت لها رفوفا خاصة بها.

الرحلة، كما آلت إليه، سفر في الأرض وسفر في المخيلة، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود.

تَهْدفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحَّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً ستملأُ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السّحري والأيروسيّ والعجائبيّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها.

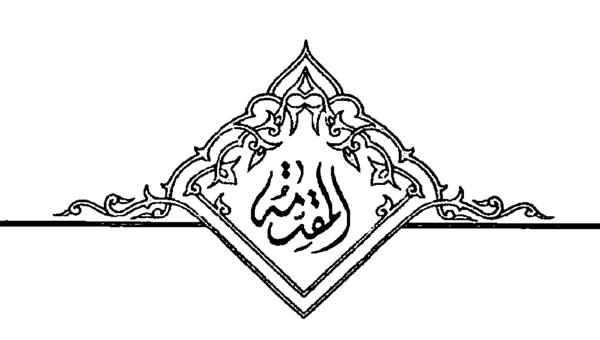
أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسة التي شارفت اليوم على المائة كتابٍ أسست، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعداده للمغامرة من بابِ

نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

ختاما، أحيي رحالة من طراز آخر، أولئك المثقفين المبدعين القائمين على مشروع ارتياد الآفاق والعاملين فيه والمتحلقين حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية بقدرات المغامرين من العلماء ودأب المستكشفين، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم ورجعوا بها كما يرجع الغواصون باللآلئ، وسهروا على فك رموزها وتحقيقها وإخراجها إلى النور ليكون لنا من وراء جهودهم المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة ما تزال عناوينها تتوالى وسلاسلها تتعدد، ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تبرهن من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب أنها ثقافة إنسانية فتحت نوافذها على ثقافات العالم وتجارب شعوبه، ودون رحالتها مشاهداتهم وثائق أدبية وتاريخية ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين، فأنجزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السفر.

فهنيئا للقارئ العربي الجاد بهذه المكتبة الجديدة، وللأجيال التي ستقرؤنا بعد مائة عام .

محمد أحمد السويدي



ينتمي المؤلف نزيه مؤيد العظم[1] إلى أسرة شامية عريقة كان لها على مدى قرنين من تاريخ الشام الحديث دورها المميز، فقد برز من أبنائها عدد من المفكرين والولاة والأمراء. ولد المؤلف في دمشق سنة 1890م، تلقى تعليمه الأولي (الابتدائي) في دمشق، ثم انتقل بعدها إلى بيروت فأتم فيها تعليمه الثانوي والجامعي وحصل على شهادة البكالوريوس في الآداب من الجامعة الأمريكية في بيروت سنة 1913م.

انخرط بعدها في صفوف الجيش العثماني (الذي كان يسيطر على بلاد الشام آنذاك) والتحق بالفرقة العسكرية المرابطة في (عاليه) برتبة ملازم، ولكنه سرعان ما بدأت تتكشف له مساوئ الاستبداد التركي في المنطقة في عهد الوالي جمال باشا فقرر الاشتراك في صفوف (الثورة العربية) التي كانت متأججة هناك ضد الوجود التركي، فأصدرت السلطات العثمانية ضده حكما بالإعدام ففر سنة 1916م إلى فلسطين ومنها إلى مصر، وكان جمال باشا قد نكَّل بعديدٍ من أفراد أسرة آل العظم، فأعدم عمه شفيق بيك مؤيد العظم في أيار/مايو سنة 1916م، ونفى الكثير منهم إلى أقاصي الأناضول.

وفي مصر اعتقل مع عددٍ من الثوار والمفكرين الذين فروا إليها، وأودع معتقل "سيدي بشر"[2] بجوار الإسكندرية، وفي هذا المعتقل ترسخت لديه ولدى زملائه

---

(1) اسمه كما ورد في الكتاب المنشور عن أسرة آل العظم: نزيه بن تقي الدين بن عبد القادر المؤيد العظم. انظر: الأسرة العظمية، لعبد القادر العظم، دمشق: مطبعة الإنشاء، 1960م، ص84.

(2) انظر: صبري فريد البديوي: مقدمة كتاب "صفحات من حياة نزيه مؤيد العظم"، تحقيق د. دعد الحكيم، دمشق: وزارة الثقافة 2006م، ص16، ولم يبين كاتبها، وهو ممن رافق المؤلف في هذا

المعتقلين مبادئ الثورة ضد الوجود الأجنبي في العالم العربي بكل صوره وأشكاله، وأفرج عنه بجهود سياسية من زعماء النهضة العربية في مصر.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، سنة 1920م، وإعلان استقلال سورية عن الحكم العثماني، وتنصيب الملك فيصل بن الحسين (في شهر مارس/آذار 1920م) ملكاً على سورية، عاد المؤلف إلى دمشق، ولكن سورية لم تنعم بهذا الاستقلال فما كادت تخرج من مأزق السيطرة العثمانية حتى وقعت في مأزق أكبر منه، فقد ظهرت النوايا المبيتة للاستعمار الغربي من خلال مؤامرة (سايكس- بيكو) و(وعد بلفور)، فأعلنت فرنسا انتدابها على سورية، وجهزت جيشا قوامه مائة ألف جندي، واحتلت دمشق بعد معركة ميسلون التي استشهد فيها يوسف العظمة في 1920/7/24م، وكانت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال غورو.

حينئذٍ دخل المؤلف مع نخبة من الغيارى والوطنيين مرحلة جديدة من النضال ضد الاستعمار الفرنسي، وبدأوا في تنظيم جهودهم وصفوفهم، فأسس مع صهره (زوج أخته) الدكتور عبد الرحمن الشهبندر "حزب الشعب"[1].

وعندما انطلقت الثورة ضد الاستعمار الفرنسي من جبال الدروز سنة 1925م، قرر المؤلف مع عدد من الوطنيين وزعماء حزب الشعب الانضمام إلى الثوار، وكان له دور مشرف في هذه الثورة، وفي المعارك التي خاضها الثوار ضد الفرنسيين، فقد قاد هو بنفسه عددًا من المعارك وأبلى فيها بلاء حسنا، وجرح عدة مرات، وشهد له رفاقه بالبطولة والبسالة[2]، وكان لمقالاته وخطاباته دور مؤثر وفعال في شد همم الثوار ورصّ صفوفهم، فكان بحق خطيب الثورة.

المعتقل، سبب اعتقاله، أو السلطات التي اعتقلته، والمدة التى مكثها في هذا المعتقل، والأغلب أن الإنجليز هم الذين اعتقلوه.

(1) كان حزب الشعب من أوائل الأحزاب السياسية العربية الداعية إلى الوحدة العربية، فقد كان من أهدافه: السعي لاستقلال سورية الطبيعية (سورية ولبنان والأردن وفلسطين) عن الاستعمار، وإقامة جمهورية سورية في إطار اتحاد مع جميع البلدان العربية المستقلة.

(2) انظر: عبد الرحمن الشهبندر، الثورة السورية الوطنية (مذكرات الدكتور عبد الرحمن شهبندر)، تحقيق محمد كامل الخطيب، دمشق: وزارة الثقافة، ط2، 1992م، ص34 وما بعدها؛ صفحات من الأيام الحمر (مذكرات القائد سعيد العاص)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1988م، ص65-103؛ منير المالكي: من ميسلون إلى الجلاء: (سيرة سياسية)، دمشق: وزارة الثقافة، 1991م، ص115 وما بعدها؛ أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (د-ت)، 3/ 310 وما بعدها.

ونتيجة لدوره في هذه الثورة، أصدرت سلطات الاحتلال الفرنسي ضده وضد طائفة من قيادات الثورة حكما بالإعدام في أواخر سنة 1925م، ففر إلى مصر عبر فلسطين، وهناك التقى بالسياسي الأمريكي شارلز كرين (سنشير إلى ذلك بعد قليل) فاتفق معه على مرافقته في رحلته إلى الحجاز واليمن.

وأقام بمصر إلى سنة 1930م، عندما سمحت له سلطات الاحتلال بالعودة، وبعد عودته إلى سورية انخرط في العمل السياسي، وترشح مستقلاً للانتخابات النيابية التي أجرتها سلطات الاحتلال سنة 1931م، ولكن لم يحالفه الحظ فيها لأنه جاء إلى دمشق متأخرا، واستقر بعد ذلك في دمشق متابعا نضاله ضد كل أشكال الاستعمار في العالم العربي عامة وسورية خاصة، وتزوج سنة 1939م، وخلال هذه الفترة كتب عدة مقالات عن رحلته إلى اليمن في عديدٍ من الصحف والمجلات السورية، وكانت تلك المقالات نواة كتابه هذا، وبعد استقلال سورية سنة 1946م قرر نزيه العظم اعتزال السياسة وتفرغ للزراعة في (ضيعته) الخاصة حتى وفاته سنة 1977م، ولم يظهر له خلال هذه الفتره أي نشاط عام سوى ما ورد في المذكرات والوثائق المنشورة بالكتاب الخاص عن حياته (ص309-302)، أنه كان سنة 1956م أمينا عاما لهيئة المجاهدين بدمشق والغوطتين.

أعماله الفكرية:

أشرنا من قبلُ إلى أنه كان للمؤلف دور مهمٌّ في النضال ضد الاستبداد العثماني، ثم بعد ذلك ضد الاحتلال الفرنسي، فجاهد بنفسه وقلمه ولسانه، من خلال خطبه ومقالاته، كما أشرنا سابقا[1]، وترجم عن الإنجليزية كتاب: (القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق) للمؤلف البريطاني ج. دي. ف. لودر، ويبين الكتاب وجهةَ نظر الغرب ورؤيتَه للعرب وقضاياهم وتاريخهم، وخصص العظم في خاتمة ترجمته للكتاب فصلا أوضح فيه زيف كثير مما ورد في الكتاب من معلومات مضللة عن العرب، ونشره في دمشق على حسابه سنة 1925م.

---

(1) نشرت بعض مقالاته في الكتاب الذي صدر عن حياته: "صفحات من حياه نزيه...."ص24 وما بعدها.

وفي الفترة الأخيرة تنبهت الجهات الرسمية السورية إلى الاهتمام بهذا الرجل المناضل وتقدير دوره وجهاده، فأصدرت وزارة الثقافة السورية سنة 2006م، كتابا عنه بعنوان: "صفحات من حياة نزيه مؤيد العظم" تحقيق د. دعد الحكيم، ضمن سلسلة الكتب الصادرة عن الوزارة بمناسة اختيار حلب عاصمة للثقافة الإسلامية (1427هـ/2006م)، وضم الكتاب ترجمة موجزة لحياته ومسيرته، ونشر مجموعة من مقالاته ومذكراته ورسائله، وبعض الرسائل التي تلقاها من رفاقه وأصدقائه، ومن بعض رجال الفكر والسياسة في سورية وخارجها، ولكن الكتاب جاء خاليا من الصور التي أُشير إليها في مقدمة الكتاب، وكنت أتمنى نشرها، وأن يكون من بينها الصور المنشورة في هذه الرحلة لأنها ضعيفة لا تكاد تتبين ملامح أصحابها.

هذا الكتاب:

هذا الكتاب هو حصيلة ثلاث رحلات قام بها المؤلف إلى اليمن بين سنتي 1927م و1936م.

كانت الرحلة الأولى في مطلع سنة 1927م بصحبة السياسي ورجل الأعمال الأمريكي شارلز كرين[1]، في رحلته التي قام بها إلى السعودية واليمن، وكان المؤلف قد التقى السيد كرين في دمشق عندما قدم الأخير إلى المنطقه موفدا من الرئيس الأمريكي ويلسون على رأس لجنة لتقصي الحقائق بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى[2] وقابله مرة أخرى في منفاه في القاهرة، فاختاره السيد كرين لمرافقته في رحلته هذه مترجمًا، وقاما بزيارة السعودية واليمن في أواخر عام 1927م.

---

(1) سيأتي التعريف به في مقدمة المؤلف.

(2) سميت هذه اللجنة باسم لجنة (كينج-كرين) باسم المبعوثين الأمريكيين هنري كينج (Henry King) وشارلز كرين (Charles Craine)، وقد شكلت هذه اللجنة في مؤتمر الصلح بباريس سنة 1919م بناء على اقتراح الرئيس ويلسون، لدراسة مطالب ورغبات الشعب في سورية وفلسطين في ممارسة حق تقرير المصير، وكان المفروض أن تتشكل هذه اللجنة من مندوبين من كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا، إلا أن بريطانيا سحبت مندوبها من اللجنة، ورفضت فرنسا تعيين مندوب عنها، فاقتصرت اللجنة على المندوبين الأمريكيين فقط، وقامت اللجنة بزيارات ميدانية لمعظم المدن في سورية وفلسطين. وتوصلت إلى إجماع الشعب العربي على المطالبة بالاستقلال التام، ورفض مشاريع الانتداب، ولكنها رُفضت من جانب بريطانيا وفرنسا، وظلت توصياتها حبراً على ورق. انظر: الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد 2/47-83؛ القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات، محمد عزت دروزة، بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، 1984م، 2/37؛ تاريخ فلسطين الحديث، عبدالوهاب الكيالي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979م، ص135-138.

وكانت الرحلة الثانية في العام الذي يليه 1928م، مندوباً عن السيد كرين لمرافقة البعثة التي أرسلها كرين إلى اليمن على نفقته الخاصة لمساعدة اليمن في تخطيط بعض الطرق وللكشف عن المعادن والبترول فيها، برئاسة المهندس والجيولوجي كارل توتشل (K.S.Twichell). وأرى إتماما للفائدة هنا أن أذكر ما أورده عبد القادر العظم في كتابه "الأسرة العظمية" في ترجمة المؤلف، عن هذه البعثة ودور المؤلف فيها، قال[1]: "وأعلمني نزيه بك أنه هو الذي اكتشف البترول في جزيرة العرب، وكان ذلك بطريق الصدفة. كانت أولى رحلاته إلى اليمن برفقة المستشرق الأمريكي الشهير شارلز كرين؛ وبينما هو يمر في إحدى النواحي في جزيرة بريم شاهد عددا من العمال يحفرون الآبار وعندما يصلون إلى عمق معين يشمون رائحة التراب في قعرها ثم يردمونها، فاشتبه بالأمر وأخذ حفنة من تراب إحدى الآبار فشمها فإذا برائحة البترول تملأ أنفه، واستقصى الخبر فعلم أن الإنكليز هم الذين يقومون بهذا العمل، فتحقق لديه أنهم يتحرون البترول في جزيرة العرب، فأخبر المستر كرين بذلك، وهذا بدوره أخبر الإمام يحيى والملك ابن سعود بالأمر حينما التقى بهما، ثم اتفق معهما على أن يرسل بعثة من المهندسين الفنيين من قِبَله وعلى نفقته الخاصة لتحري البترول فوافقاه على ذلك. وبالفعل أرسل المستر كرين البعثة عام 1928م، ورافقها نزيه بك مندوبا من قبله في اليمن فاكتشفت البعثة البترول في مملحة الصليف بالقرب من الحديدة، وعلى أثر ذلك طلبت بعض الشركات الأجنبية منحها امتيازا باستخراج البترول والمعادن في اليمن، ولكن الإمام يحيى رفض هذا الطلب عملا بنصيحة صديقه المستر كراين الذي أوصاه بأن لا يمنح الشركات الأجنبية امتيازا ما في بلاده[2] لأن ذلك يسبب له الكثير من المتاعب بل الأخطار في المستقبل، فذهب المهندسون إلى ابن السعود في نجد فمنحهم الامتيازات التي طلبوها وكان ذلك طليعة لبروز شركة أرامكو في جزيرة العرب".

وذكر المؤلف، أن هذا المهندس قام بتخطيط طريق (صنعاء- حجة- الحديدة)، ولكن المؤلف تجاهل هذه الرحلة فلم يكتب عنها أي شيء، ولم يذكر المناطق التي زارها هذا الفريق.

---

(1) الأسرة العظمية، لعبد القادر العظم، ص86.

(2) قلت: واضح أن الشركات التي تقدمت بطلبات لمنحها مثل هذا الامتياز لم تكن أمريكية، وإلا كيف يرسل المستر كراين مثل هذه البعثة على نفقته الخاصة ثم يعرقل عملها؟!

أما الرحلة الثالثة: فكانت في أواخر سنة 1935م وأوائل سنة 1936م، ولعله جاء بصحبة كارل توتشل الذي قدم إلى اليمن ممثلا عن بعض الشركات الأمريكية لعقد اتفاق مع الإمام يحيى لاستخراج ملح الصليف، بعدما ثبت جدواه اقتصاديا، وفي هذه الرحلة تمكن المؤلف من زيارة مأرب.

وكان المؤلف بعد عودته إلى سورية سنة 1930م، قد نشر مقالات عن رحلته الأولى إلى اليمن في جريدة (الجزيرة) الدمشقية، وبعد عودته من رحلته الأخيرة سنة 1936م، جمع هذه المقالات، مع ما استجد في رحلته الأخيرة إلى مأرب ونشرها في كتاب (وهو الذي بين أيدينا والمكون من جزأين) نشر في القاهرة بمطبعة البابي الحلبي سنة 1357هـ/1937م.

وقد حظي الكتاب باهتمام في الأوساط العربية بعد صدوره لأنَّ المعلومات المتاحة لديهم عن اليمن في ذلك الوقت شحيحة جداً، وبعضها كان عن طريق الرحالة (من الموظفين أو التجار أو المغامرين) الأجانب الذين قدر لهم اختراق أسوار اليمن، ولأن المؤلف عربي مسلم كان وصفه لليمن وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم وأسلوب عيشهم أكثر دقة وواقعية من كتابات الرحالة الأجانب الذين كان معظمهم يجهل طبيعة البلاد العربية والإسلامية وعاداتها وتقاليدها بصورة عامة، واليمن بصورة خاصة، فعجَّت كتاباتهم بالكثير من سوء الفهم وتشويه الحقائق والسخرية من المجتمعات الشرقية والإساءة إلى معتقداتها وعاداتها، إما لجهلٍ وعدمِ معرفةٍ، وإمَّا لإثبات رقي الغرب وتفوقه، وتخلف الآخرين . والثغرات التي وقع فيها المؤلف في رحلته هذه -كما سنشير إلى ذلك بعد قليل- أتت من سعي المؤلف لتملق الإمام يحيى وإلقاء اللوم في أسباب التخلف على الشعب.

سجل المؤلف (في الجزء الأول من الرحلة) وصفاً دقيقاً لتفاصيل رحلته الأولى إلى اليمن سنة 1927م، منذ وصوله إلى عدن قادماً بطريق البحر من بورسعيد ومنها إلى الحديدة، بطريق البحر أيضا، ثم وصف رحلته من الحديدة إلى صنعاء، وسجَّل مشاهداته وانطباعاته في أثناء رحلته، ووصف القرى والمدن التي مرَّ بها، والأشخاص الذين التقاهم في طريقه، وكذلك لحظات وصوله إلى صنعاء، وفترة إقامته بها، ومقابلته للإمام يحيى ولكثير من السياسيين والعلماء والتجار..الخ، ووصف مدينة صنعاء ومبانيها ومنشآتها...الخ. مستخدما في ذلك لغة سهلة غير متكلفة، هي أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى، ولهذا شاع فيها كثرة اللحن وعدم الاهتمام

بقواعد اللغة، واستخدم كذلك عددا من الألفاظ التركية والإنجليزية والفرنسية، وخاصة في أسماء الأدوات والآلات.

واستكمل هذا القسم أيضا بوصف رحلة مغادرته صنعاء إلى عدن عبر لحج بأسلوبه المذكور آنفًا. ثم أضاف إليه بعد ذلك ما استجد في رحلته الأخيرة من مقابلات لبعض الشخصيات والوفود الأجنبية التي وصلت إلى صنعاء للتفاوض مع الإمام يحيى من أجل عقد بعض الصفقات (السياسية أو التجارية)، وزود هذا القسم بنصوص بعض الاتفاقيات والمعاهدات التي عقدتها اليمن مع عدد من الدول العربية والأجنبية خلال عقد الثلاثينيَّات من القرن العشرين[1].

أما الجزء الثاني من الكتاب فقد خصصه المؤلف لأخبار رحلته إلى مأرب، وكان هذا الجزء مهماً جداً، لأنه أول شخص يقوم بمثل هذه الرحلة إلى مأرب، وأول رحالة بعد إدوارد جلازر الذي زار مأرب في نهاية القرن التاسع عشر.

ولم يذكر المؤلف أي شيء عن رحلته الثانية إلى اليمن سنة 1929م برفقة البعثة الجيولوجية الأمريكية التي أرسلها شارلز كرين، ولم يذكر شيئا كذلك عن رحلته إلى السعودية.

ملاحظات عامة على الرحلة:

قام المؤلف بهذه الرحلة مرافقا للسياسي ورجل الأعمال الأمريكي شارلز كرين ومترجماً له، وقد ذكر المؤلف ذلك في توطئة الرحلة، وفيها إشارات خفيفة له فى نص الرحلة، ولكن دور السيد كرين اختفى تماما وأصبح المؤلف هو بطل الرحلة وصاحب القرار فيها، ويتحدث في الجوانب المهمة والرئيسة في الرحلة مستخدِمًا ضميرَ المتكلم (المفرد): وصلت.. قابلت.. زرت.. أذن لي جلالة الإمام.. الخ. وفي المسائل المعتادَة واليسيرة يتكلم بضمير (الجمع): سافرنا.. وصلنا، لبيانِ أن معه مرافقين من الإمام: حراسًا وخدمًا..

---

(1) معظم نصوص تلك المعاهدات والاتفاقيات وردت في كتاب المؤرخ عبدالواسع الواسعي: تاريخ اليمن، المسمى "فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن". ولا أدري من منهما نقل عن الآخر، لأن الطبعة الثانية المتاحة لدي من كتاب الواسعي هي إعادة طبع (حديثة) للنشرة السابقة.

وعلى الرغم من أن المؤلف قد استبعد رفيقه من الرحلة ظلت بصماته مهيمنة على الرحلة بشكل كبير.

كنت قد قرأت الرحلة في مرحلة مبكرة من العمر (ربما كنت آنذاك في المرحلة الإعدادية) واستوقفني حينئذٍ أمران:

الأول: ورود جزء كبير من نصوص الرحلة على شكل حوار، (سؤال وجواب). والأمر والآخر: اهتمامه المبالغ فيه باليهود في كل مكان ينزل فيه على طول خط رحلته. وتبادر إلى ذهني-حينئذٍ-عندما ذكر المؤلف أنه نشر معظم مادة الرحلة في جريدة (الجزيرة) الدمشقية أنه يعمل صحفيا، لذا جاءت بعض النصوص على شكل حوار صحفي (سؤال وجواب)، ثم عرفت فيما بعد -عند اشتغالي بتحقيق الكتاب- أن المؤلف كان يدون معظم يوميات الرحلة مباشرةً، ولأنه كان يقوم بدور المترجم، فقد كان يدون الحوار بنصه قبل أن يضيع من ذاكرته. أما الأمر الثاني (الاهتمام باليهود) فلم أجد له -حينئذ- أي تفسير منطقي، فحالة اليهود في اليمن لا تختلف كثيراً عن حالتهم في معظم الدول العربية، ومنها سورية، أي أن هذا لم يكن محور اهتمام المؤلف، بل هو من اهتمام شارلز كرين؛ فقد كان من مهام رحلته الطويلة في الدول العربية استطلاع الرأي العام العربي ومدى تقبله لمسألة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. ولذلك حرص السياسي الأمريكي على زيارة اليهود في محطات رحلته في اليمن، وسؤالهم عن أحوالهم وعلاقتهم باليهود في فلسطين والوكالة اليهودية.. الخ.

وكان السيد كرين بعد عودته إلى القاهرة من رحلته إلى الحجاز واليمن سنة 1927م قد ألقى محاضرة عن رحلته تلك في "جمعية الرابطة الشرقية"، ونشرتها مجلة "المنار" في ثلاث حلقات[1]، ومن مقابلة بعض ماذكره شارلز كرين في محاضرته، بماذكره المؤلف، يتبين لنا كيف نسب المؤلف أحداث الرحلة إلى نفسه، ومثالٌ على ذلك ما ورد في محاضرة السيد كرين:

---

(1) انظر نص المحاضرة في ملحق هذه الرحلة.

"وفي اليوم الثاني (لمقابلة محمد راغب بك) قابلنا الإمام على انفراد، في غاية الحفاوة والإكرام، فقال لي إنه يُؤذن لي أن أذهب حيث شئت بتمام الحرية، وأن آخذ رسم (صورة) ما أريد أيا كان ماعدا رسم شخصيته..."[1].

وذكر العظم هذا الخبر بالصيغة الآتية:

"بعد مضي ثلاثة أيام على وصولنا إلى صنعاء، أذن لي جلالته بالمثول بين يديه... فقال: هل من حاجة تريدون قضاءها؟ وهل أنتم مستريحون في داركم؟ قلت: الحمد لله والشكر لمولانا الإمام، إننا بحسب أنظاركم والتفاتتكم على غاية ما يرام، ونرغب أن نصور بعض الصور في صنعاء وضواحيها لنحفظها كذكرى لزيارتنا البلاد السعيدة، فقال: لك أن تصور ما شئت ومن شئت ما عداي أنا..." (ص 158)

وحتى زيارة مأرب فقد كانت تلك الزيارة من أمنيات السيد كرين ورغباته التي لم تتحقق له، إما بسبب شك الإمام يحيى في الأجانب، أو لأن الأمن لم يكن مستتباً هناك فعلا كما أقنعه الإمام يحيى. قال شارلز كرين: "كنت شديد الرغبة في الرحلة إلى سبأ، وعلى الخصوص لمشاهدة السد القديم الذي كان مصدر خصبها وزهوها.. وأما الإمام، فمع أنه شديد الحرص على إعطائي كل ما أطلب، إلا أنه قال لي في شأن هذه الأمنية: إن هذه الرحلة من المستحيلات.. لأن قبائل تلك الناحية على أعظم جانب من التعصب.. فلا يأذنون لأجنبي أن تطأ قدمه أو يقترب منها... ومما قال لي الإمام: إن بعثة ألمانية ذهبت للبحث في تلك الناحية قبل الحرب العالمية، فلم يبق البدو على أحد من رجالها". (ص 440)

وهذه الرغبة في زيارة مأرب تحققت لنزيه العظم عند زيارته الأخيرة لليمن سنة 1936م.

ولعل المؤلف عندما نسب الدور الرئيسي في الرحلة لنفسه واستبعد دور السيد كرين فيها ينطلق من أسباب نفسية عند تحريره الجزء الأول من الرحلة ونشره على شكل حلقات في إحدى الصحف في دمشق، فربما استحيا، وهو سليل أسرة آل العظم العريقة، وله دوره النضالي المشرف في النضال ضد الوجود العثماني أولا، ثم ضد الاحتلال الفرنسي بعد ذلك، أن يكون مجرد تابع ومرافق لشخص أجنبي.

---

(1) محاضرة المستر كراين عن جزيرة العرب – أو – الحجاز واليمن في جمعية الرابطة الشرقية، مجلة المنار، م 28، ج3 (شوال 1354هـ/ مايو 1927) ص498، وانظرها في ملحق هذا الكتاب.

وأعتقد أن الإمام يحيى أعطاه من الاهتمام والتقدير أكثر مما أعطاه للسيد كرين، لما نعرفه من شخصية الإمام يحيى الذي لا يثق بالأجانب، ولا سيما غير المسلمين منهم، لأسباب سياسية ودينية. وقد ألمح إلى ذلك شارلز كرين في محاضرته عن أسلوب مقابلة الإمام يحيى له، قال: "ثم إن الإمام، وإن أبدى لي حين مقابلته مزيد المجاملة، وأباح لي الحديث على غاية الإخلاص، لم ير من الحكمة أن يظهر لي قط العناية أمام الجمهور، إذ كان من الضروري له أن يحتفظ بمقام الاستقلال العظيم بل بشيء من الاستخفاف بالأجانب مراعاة للقبائل العربية المتعصبين في الحدود الشرقية.."[1].

وربما أغراه اهتمام الإمام يحيى به، ودفعه إلى تضخيم دوره في الرحلة واستبعاد دور رفيقه شارلز كرين، وأرجح أن المؤلف كان يرسل للإمام ما ينشره عن رحلته، وموقف المؤلف هذا سيحظى برضى الإمام يحيى ومباركته بلا شك، فنشر حديثه ومقابلته مع عربي مسلم أفضل من أن ينسب ذلك لأجنبي غير مسلم. وهذا السبب أيضاً هو الذي دفع المؤلف إلى الانحياز إلى الإمام يحيى والدفاع عن سياسته، حتى وهو يصف في رحلته مظاهر البؤس والتخلف والفقر الذي يعيشه عامة الشعب، بل وصل به الحال إلى إلقاء اللوم على اليمنيين واتهامهم بعرقلة جهود الإمام يحيى وحكومته الرامية إلى تطوير اليمن، وبخاصة في المجال الزراعي. قال في وصفه للأراضي الزراعية في اليمن: "وتصلح زراعة الأرز في سهل جهران الذي يبعد عن صنعاء نحو 30كم، كما تصلح زراعة الأرز في أراضي الجوف وغيرها من الأراضي الكثيرة المياه، ولكن ويا للأسف لم يهتم اليمانيون برغم جهود إمامهم وحكومتهم لترقية الزراعة الاهتمام الكافي الذي يعود عليهم بالأرباح الطائلة. وجلالة الإمام يبذل جهوداً حسنة في ترقية الزراعة، ولكن من الواجب على الشعب أيضا أن يؤازر إمامه وحكومته لتحصل الفائدة المطلوبة". (ص 232)

وفي حواراته مع مختلف الفئات الاجتماعية نجده يثبت نص الحوار كاملاً إذا كان فيه مدحٌ للإمام، وما أكثر هذا الحوارات في الرحلة، وإذا كان في الحوار شيءٌ من النقد للإمام أو سياسته فإنه يتهرب منه، أو ينقله مختصرا. أما إذا سمع نقداً صريحا لسياسة الإمام فإنه يتصدى للمنتقد ويرد عليه كما حدث مع أحد اليهود الذين قابلهم المؤلف في (المخادر) في طريقه إلى عدن، إذْ شكا اليهودي من

---

(1) المصدر السابق، ص499.

الضرائب المفروضة (على المسلمين) والتعسف في تحصيلها، فنهره المؤلف وبين له أن الضرائب التي يأخذها الإمام تعد يسيرة مع الضرائب التي كان يدفعها المواطن في ظل الحكم العثماني.

وعلى الرغم من سعة اطلاع المؤلف وتخرجه في أهم جامعة في ذلك الوقت (الجامعة الأمريكية في بيروت) وتجربته السياسية والفكرية، وتنقله بين عدة دول كانت تعد آنذاك متقدمة موازَنَةً باليمن، نجدُ أنَّ انحياز المؤلف إلى جانب الإمام يحيى جعله يتجنب أي نصح مباشر للإمام لتطوير اليمن والنهوض به والخروج من عزلته كما فعل غيره من العرب الذين زاروا اليمن، وتمكنوا من لقاء الإمام يحيى، وجاءت نصيحته الوحيدة في الكتاب على شكل نصيحة عامة موجهة لكل الملوك والزعماء العرب داعياً إياهم لنشر التعليم والأخذ بأسباب الحضارة والانفتاح على الغرب بإرسال البعثات العلمية إلى البلدان الغربية لدراسة العلوم الحديثة التي تؤهلهم للنهوض ببلدانهم.. وإذا لم يرغبوا في إرسال أولادهم إلى الغرب فيمكنهم الاستفادة من خبرات إخوانهم العرب في مصر والشام. قال المؤلف بعد ذكر أهمية التعليم والانفتاح على الغرب: "ولذلك صار من الواجب على ملوك العرب وأمرائهم أن يفكروا في هذه الأمور وأن يديروا وجوههم شطر الغرب فيرسلوا بعثات من أولادهم ورعاياهم إلى البلاد الغربية ليدرسوا فيها العلوم والفنون الضرورية لترقية بلادهم وتقدمها، فهم بحاجة إلى زُرَّاع ومهندسين وأطباء وصيادلة وعسكريين وغيرهم، فلا ضير عليهم ما دام لا يوجد عندهم مدارس تخرج هؤلاء الأخصائيين أن يرسلوا بعثات من فلذات أكبادهم إلى ديار الغرب ليتعلموا في مدارسها ومعاملها هذه الفنون والعلوم. وإذا كانوا لا يرغبون في إرسال أولادهم إلى الغرب فليستعينوا بمصر والشام لتقدما لهم الأطباء والصيادلة والمهندسين والعسكريين والطيارين.. الخ. إن نظرية العزلة التي لا يزال أمراؤنا وملوكنا محافظين عليها ظناً منهم أنها تبعدهم عن الخطر وتحمي بلادهم من التعديات أصبحت في هذا العصر عصر الكهرباء والطيران نظرية بالية لا تسمن ولا تغني من جوع". (ص 228)

ومن بين السلبيات ومظاهر التخلف الكثيرة التي لاحظها المؤلف في زياراته المتعددة لليمن، فإن النقد الوحيد الذي وجهه المؤلف بصورة مباشرة وصريحة كان للسادة الهاشميين؛ وذلك سماحُهم للناس بتقبيل أيديهم ورُكَبِهم. قال في أثناء حديثه عن رحلته إلى مأرب: " وبينما كنت عائدًا إلى الدار رأيت العامل (عامل مأرب) قد

خرج، وخرج القوم خلفه وأخذوا يقبلون يديه وركبتيه وهو يردّ تحيتهم بلطف ووداعة، وفي الحق هذه عادة غريبة عند هؤلاء العرب الصناديد، وأنا واثق أنهم لا يقبلون يدي العامل تزلفًا إليه أو خوفًا منه، لأنهم قوم لا يفهمون معنى الزلفى، ولا يهابون الموت أو يرهبون الردى، وما دفعهم لهذه المظاهر سوى احترامهم لنسب هذا السيد الشريف الذي ينتمي لسيد البشر محمد بن عبد الله ﷺ ولكني ألوم السادة ومن حذا حذوهم في إعطاء يدهم لغيرهم لتقبيلها، وأخصّ السادة باللوم لأن سيّد البشر جدهم الأعظم صلوات الله عليه كان يكره هذه العادة وينهى عنها، وجدير بهم أن يحذوا حذوه" (ص 361). وقد اختار المؤلف هنا التعريض بعامل مأرب، دون الإمام يحيى وأولاده وكبار رجال دولته.

عملي في التحقيق:

. حاولت قدر المستطاع تصحيح الأخطاء التي وقع فيها المؤلف في رحلته ولا سيما أخطاؤه في أسماء الأعلام والبلدان، وكذلك أسماء بعض الأدوات والأشياء.. الخ.. ويرجع ذلك إما إلى تسرع المؤلف في النقل عن بعض المصادر التي نقل عنها مثل (الإكليل) و(صفة جزيرة العرب) للهمداني و(تاريخ اليمن) للواسعي[1]، وإما إلى الاعتماد على بعض المعلومات الشفوية التي تلقاها من بعض من لقيهم وقابلهم خلال تنقُّلاته في اليمن؛ وأعتقد أن بعض تلك الأخطاء التي نقلها عن مصادر شفويه ترجع إلى اختلاف اللهجات، ولا سيما لدى العامة غير المتعلمين في مختلف مناطق اليمن التي مرَّ بها، فهولاء -عادة- يتكلمون على سجيتهم، وبلهجتهم المحلية، وما أكثر اللهجات آنذاك قبل اختلاط اليمنيين بغيرهم من العرب، وقبل شيوع وسائل الإعلام التي قربت ليس بين أصحاب اللهجات المحلية في اليمن فقط، بل بين مختلف اللهجات في العالم العربي.

(1) قال الأب أنستاس ماري الكرملي في تعليقه على هذه الرحلة بعد صدورها: "ومن معايب [الرحالة] أنه لا يضبط ضبط قلم، ولا يضبط عبارة، كثيراً من أعلام الرجال والمواضع، فهذا عيب عظيم.. وقد يستعين بعبارات اقتبسها ممن تقدمه، لكنه لا يشير إلى أصحابها، وحينما ذكر المصنف الذي استعان به، غيَّر عبارته تغييراً مخلا، حتى إنك إذا قابلتها بالأصل الذي اقتبس منه لاتكاد تعرفه، راجع مثلا ما كتبه في (238/1) وما نقله عن تاريخ اليمن للواسعي، فإنك لا تتمكن من أن تحكم أن الأصل واحد..". انظر: بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، للقاضي حسين بن أحمد العرشي، تحقيق الأب انستاس ماري الكرملي، القاهرة: البرتيري، 1939م، ملحق الكتاب ص 265-266.

- عرّفت ببعض الأعلام الذين ذكرهم المؤلف أو التقاهم في رحلته، وكذلك بعض القرى والنواحي التي زارها المؤلف، ولم يتيسر لي التعريف بجميع الأعلام، وبخاصة غير المشهورين منهم، لأن بعضهم لم تذكره مصادر التاريخ والمراجع اليمنية الحديثة المتاحة لدي، لأنني حققت هذه الرحلة وأنا خارج اليمن في (دولة الإمارات العربية المتحدة) فلم أتمكن من سؤال كبار السن، أو أقاربهم عنهم.

- صنعت فهارس فنية للكتاب: فهارس الأعلام، والأماكن والأدوات الحضارية.. الخ التي تيسر الإفادة من الكتاب.

. أشرت في ما سبق إلى أن المؤلف قام بأولى رحلاته إلى اليمن برفقة السياسي الأمريكي شارلز كرين، وأن هذا الأخير ألقى محاضرة عن رحلته تلك في جمعية الرابطة الشرقية بالقاهرة، ونشرت "مجلة المنار" ترجمة لتلك المحاضرة على ثلاث حلقات في المجلد الثامن والعشرين، لسنة 1927م، ونظراً لأهمية هذه المحاضرة بوصفها جزءًا مكملاً لهذه الرحلة، رأيت نشرها ملحقًا لهذا الكتاب.

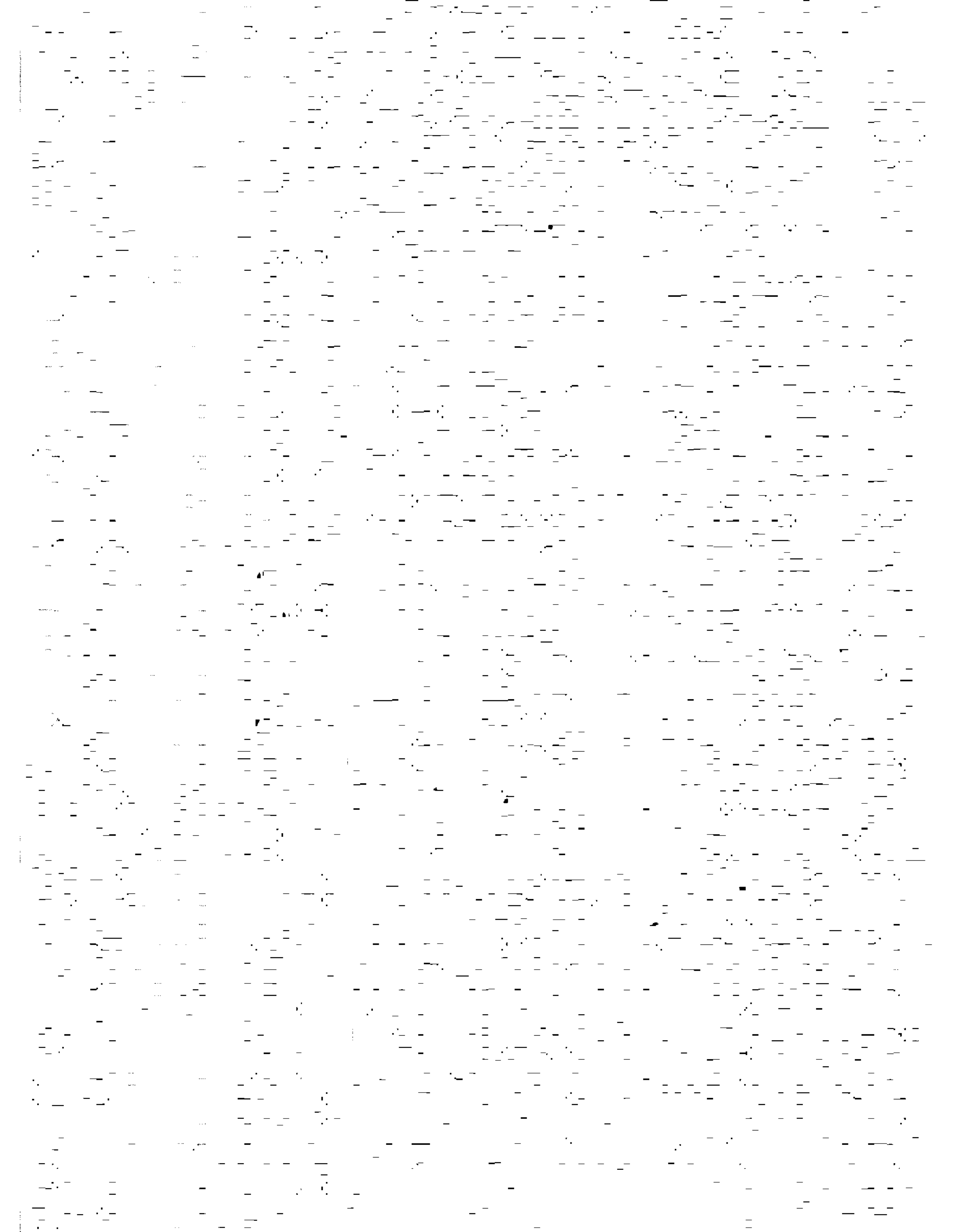
وفي الختام أتوجه بالشكر الجزيل للشاعر محمد أحمد السويدي صاحب الفضل في نشر هذا الكتاب ضمن المشروع التنويري المهم "ارتياد الآفاق" الساعي لإحياء الأدب الجغرافي (المهمل والمنسي) في تراثنا العربي بصورة عامة، وأدب الرحلات منه بصورة خاصة، ومعه اشكر الصديقين العزيزين: الشاعر نوري الجراح والشاعر علي كنعان، وكافة العاملين في هذا المشروع الريادي العربي.

والحمد لله في البدء والختام.

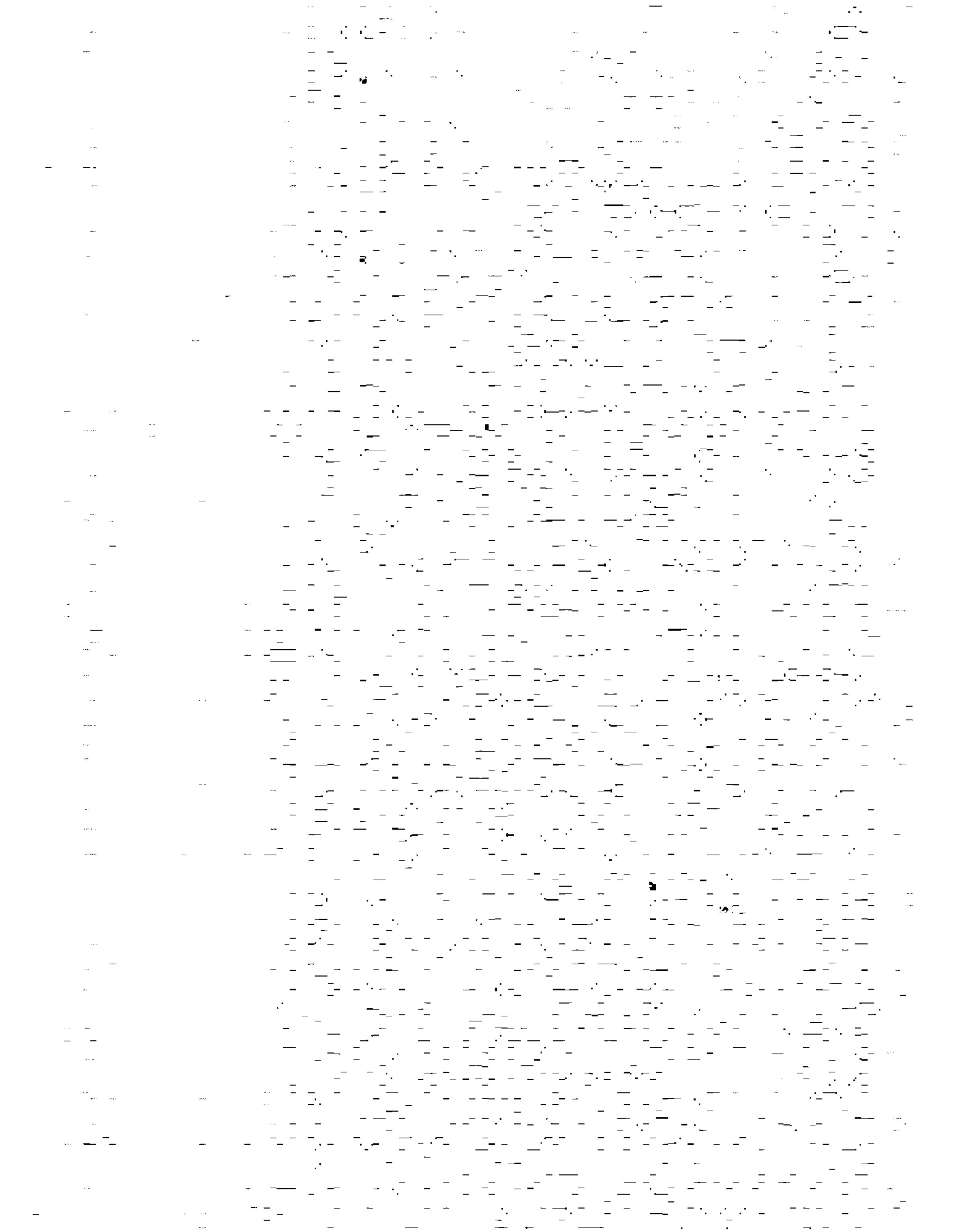
أبو ظبي، في الثالث من شهر شعبان سنة 1430هـ

الموافق: الخامسَ والعشرين من شهر يوليو/ تموز سنة 2009م

عبد الله يحيى السريحي



نص الرحلة



توطئة

عرفت المستر شارلس كرين[1] المثري الأميركي الكبير، وصديق الشعوب المظلومة العظيم، عندما قدم إلى سورية بعد الحرب العالمية على رأس لجنة الاستفتاء التي أوفدها الحلفاء لدرس حالة البلاد العربية التي انفصلت عن الدولة العثمانية، ولتقِفَ على رغبات أهلها في تقرير مصيرهم، وقد قابلته يومئذ في فندق دمسكوس

---

(1) شارلز كرين Charles R. Crane: سياسي ودبلوماسي ومستعرب ورجل أعمال أمريكي، من كبار أثرياء أمريكا، ولد في مدينة شيكاغو 1858م جمع ثروته من شركاته المتخصصة في إنتاج لوازم الحمامات والتجهيزات الصحية المبتكرة مثل شركة (كرين باثروم إكويبمنت كومباني أف شيكاغو) المدمجة اليوم في شركة (كرين كومباني أف نيويورك)، تعود علاقة كرين بالمنطقة العربية إلى عام 1919 عندما زار سوريا وفلسطين ولبنان، وأقام فيها عدة أسابيع خلال شهري يونيو ويوليو من ذلك العام، ضمن بعثة تضم بالإضافة إليه الدكتور هنري تشرتشل كنج، وهو بروفسور في كلية أوبرلين، التي شكلها الرئيس ولسون بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة 1919م لدراسة أوضاع الدول التي كانت تحت السيطرة العثمانية واستطلاع أراء شعوبها في تقرير مصيرها، واختيار مستقبلها السياسي، وعرفت هذه اللجنة بلجنة (كنج . كرين) وذلك قبيل بحث مشروع الانتداب البريطاني الفرنسي على بلاد الشرق الأوسط في مؤتمر الصلح في باريس (مؤتمر فرساي)، وعادت البعثة بتقرير يشير إلى رغبة السكان في الاستقلال، والعمل على وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين،، لكن الحلفاء سيما بريطانيا وفرنسا لم يلقوا بالا إلى ذلك التقرير، ولكن تشارلز كرين استفاد كثيرا من تلك الرحلة في التعرف على طبيعة الشعب العربي، وطريقة تفكيره وعناصر القوة والضعف في شخصيته، ونظرته إلى الاجانب سيما الغربيين، وكانت هذه المعلومات ثمينة في نظر كرين إلى درجة اعتبرها بمفردها تستحق الجهد الذي بذل في تلك الرحلة، ولذا أصبح كرين بعدها مستشارا للرئيس الأمريكي في الشؤون العربية، وهو الذي مهد للنفوذ الأمريكي وللشركات الأمريكية في المنطقة، وخاصة شركات البترول، قام بعدة زيارات لليمن والحجاز (السعودية فيما بعد) بين عامي 1922 و 1931م، وكانت أول زيارة له لليمن في منتصف شهر يناير 1927م، وفي ربيع العام نفسه 1927م زار كرين القاهرة والقى في جمعية الرابطة الشرقية في القاهرة محاضرة عن رحلته إلى اليمن والحجاز، نشرها السيد محمد رشيد رضا في مجلة (المنار) على ثلاث حلقات، الأولى في الجزء الثاني، المجلد الثامن والعشرون، لسنة 1927م، ص132-139، والثانية: ج3، م28،[1227م]، ص 202-208، والثالثة: ج4، م28، [1927م]، 289-292، وأعاد نشرها الدكتور حسين عبد الله العمري في كتابه: المنار واليمن، دمشق: دار الفكر، 1987م، ص486-508، ويعود لشارلز كرين الفضل في تحقيق أولى الاكتشافات النفطية في السعودية، توفي سنة 1939م. انظر: أحمد توفيق باشا: مذكراتي في نصف قرن، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1936م، 3/313-323، روبرت ليسي: المملكة، ترجمة دهام الطعاونة، لندن، 1987م،ص169-178، إريك مورو: اليمن والغرب، ترجمة حسين العمري، ط2، دمشق: دار الفكر، 1987م، ص145-146، السياسة الأمريكية والعرب، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، 1982م، ص26-32.

بالاس بمدينة دمشق الشام، وكان لي معه حديث طويل ومناقشات شديدة حول الانتداب، إذ كنت في مقدمة الذين رفضوا الانتداب رفضاً باتاً بالرغم من جميع الدعايات التي كان يقوم بها مُدّعو الوطنية في ذلك العهد الذين طلبوا انتداب أميركا، وإن لم تكن أميركا فبريطانيا، ورفضوا انتداب فرنسا رفضاً باتاً، ووصموا دون حياء أو خجل كل من يرفض الانتداب بأنه من أصدقاء فرنسا.

تعجب المستر كرين من موقفي هذا، وقال لي بصراحته المعروفة ولطفه المشهور: إنك أول شخص قابلته في هذه البلاد من خريجي الجامعة الأميركية في بيروت، ومن القائلين برفض انتداب أميركا وغيرها من الدول، ولكنه سرّ من موقفي وصراحتي معه، وتمكنت عرى الصداقة بيننا لأول اجتماع وأعطاني عنوانه وأخذ عنواني، وفي أواخر سنة 1926 قابلته بمصر في أثناء التجائي إليها بعد الثورة السورية، فطلب إلي إن أرافقه في رحلة إلى الحجاز واليمن، فرضيت بالقيام بهذه الرحلة. وبالفعل سافرنا في آخر كانون الأول سنة 1926 إلى الحجاز فقضينا هنالك مدة في ضيافة صاحب السمو الأمير فيصل آل سعود. ثم ولينا وجهنا شطر اليمن الميمون، فوصلنا إليه في منتصف شهر كانون الثاني سنة 1927 وحللنا ضيوفاً في رحلتنا هذه على صاحب الجلالة الإمام يحيى حميد الدين – المتوكل على الله رب العالمين – وكنا كل مدة مكثنا باليمن موضع حفاوته وعطفه، وقابلناه مراراً وأوضح له المستر كرين عن الاستعمار والمستعمرين الشيء الكثير، وقدم له من النصائح الثمينة ما جعلني أحترم هذا الرجل كثيراً، وثبت لي بصورة أكيدة حبه للعرب وتفانيه في نصرة الضعيف.

وعقب عودتنا من اليمن طلب إلي الكثيرون من الأصدقاء الأوفياء أن أكتب لهم شيئاً عن رحلتي هذه، فكتبت بعض المقالات في الجرائد المصرية والفلسطينية والسورية، وفي تلك الأثناء ارتحلت إلى اليمن ثانية وثالثة ودرست أحواله كثيرا، فواصلت الكتابة عنه في جريدة (الجزيرة) الدمشقية، فصار لي من هذه المقالات وصف لرحلتي من أولها إلى آخرها، وقد حبذ إلي كثير من إخواني طبع هذه المقالات في كتاب خاص، ونزولاً عند إرادتهم وضعت هذا الكتاب، ورائدي فيه وصف البلاد العربية السعيدة وصفاً صحيحاً كما رأيتها وشاهدتها، وقصدي من ذلك الخدمة العامة، والله من وراء القصد.

في عرض البحر الأحمر

"عدن وأهميتها التجارية والعسكرية"

قمت منذ بضعة أعوام برحلة من مصر إلى صنعاء اليمن، فركبت باخرة إيطالية من بور سعيد، وعبرت بها قناة السويس، تلك القناة العجيبة التي أبدعتها يد الإنسان فقربت المسافات وسهلت المواصلات وجاءت معجزة من معجزات هذا الزمان، ولكنها أوجدت ويا للأسف بين بعض الشعوب أحقاداً ومنافسات لا محل لذكرها الآن، وهي في ذاتها حقيرة لصغر حجمها وضيقها، ولكنها عظيمة بمركزها، لأنها الطريق المختصر الموصل بين الشرق والغرب.

خرجت الباخرة من القناة إلى بحر الله الواسع، ذلك البحر الذي سموه أحمر لوجود شعاب صخرية كثيرة تتخللها شعب مرجانية حمراء على بعض سواحله الصخرية كجدة وعدن والخليج العربي، ويرى الإنسان على سطح مياه هذه الشعاب في معظم جهاتها أوراق نبات مائي لونها أحمر قاتم، وربما كان لهذا النبات تأثير في ما يعيش حوله من الأصداف الحمراء والأسماك المرجانية التي توجد بين الصخور بكثرة. ويزعم البعض أنه سمي البحر الأحمر لأن الإنسان يشاهد قبل شروق الشمس وقت الجزر الذي يحصل يومياً لوناً أحمر قاتماً مشرباً بالزرقة، ويظل كذلك إلى أن يتصل بكتلة الماء الكبرى في عرض البحر العظيم.

اجتازت باخرتنا هذا البحر في أربعة أيام ولم تعرج فيها على ميناء واحدة من موانيه الكثيرة كينبع وجدة على الساحل الآسيوي، وبور سودان وسواكن ومصوع على الإفريقي، وذلك لأن هذه البلاد – ما خلا بور سودان – ما زالت منذ القرون الأولى على فطرتها الطبيعية فلا صناعة فيها ولا تجارة، ولا تقصدها السفن إلا في أزمنة معينة وظروف خاصة.

وصلنا إلى عدن – وهي اليوم ميناء إنكليزية بحت – في المساء، وبعد التفتيش الصحي والجمركي ومراقبة جوازات السفر سمح لنا بمغادرة الباخرة والنزول إلى البر،

فدخلنا المدينة آمنين، وقصدت تواً إلى فندق كبير يسمى "جرند أوتيل" فوجدته على الطراز الأوروبي الحديث وجُلّ ساكنيه من البريطانيين والأجانب.

بكرت في الصباح فنزلت من الفندق وأخذت أطوف في ذلك القسم من المدينة الذي يقال له "التواهي"، وهو مركز البريطانيين والأوربيين وبعض الجنود، وقد عُبّدَت طرقه تعبيداً جيداً وفرشت بالإسفلت، وبنيت منازله على طراز يخفف وطأة الحر الشديد، وغرست على جوانب الطرق بعض الحدائق وأقيمت ملاعب كرة القدم والتنس وغيرهما من الألعاب الرياضية.

ومن ثم صعدت إلى مدينة الوطنيين التي يقال لها بالإنكليزية "كريتر" أي فوهة البركان، وهي تبعد عن التواهي بضعة كيلو مترات، فوجدتها منظمة تنظيماً حسنا، وفيها كثير من الوكالات الأجنبية التي تبتاع البن والجلود بكثرة وتعدّهما للشحن إلى الغرب.

وأهل عدن خليط من الهنود والزنوج والصومال والعرب، وتنحصر تجارة البلد في الهنود واليهود والغرباء، ولا يزال السكان الأصوليون متمسكين بعاداتهم القديمة وخرافاتهم الغريبة، فقد شاهدت في أحد الأعياد موكباً يوهم بعض رجاله الناس أنهم يأكلون النار ويسيرون فوقها، ويضرب بعضهم أنفسهم بالخناجر والمدى، ويقوم البعض بالرقص ولعب الخيل، ويشترك في حضور هذه الحفلات جميع الطبقات نساء ورجالاً، ومما يؤسف له أن أكثرية الوطنيين العرب أصبحوا خداماً للأجانب، فلا يتعاطون من الأشغال إلا الدنيئة كالخدمة في المنازل وصيد السمك والحمالة ومسح الأحذية ونقل البضائع وخصوصاً الفحم والكاز من السفن التجارية إلى البر. وفي الحقيقة إن عدن قاعدة للفحم تفد إليها جميع البواخر المارة بالبحر الأحمر لتمون نفسها منها. وعلاوة على أنها قاعدة للفحم فهي أيضاً قاعدة للحرب، وقد أسس البريطانيون فيها مطاراً لطياراتهم، يسيرونها إلى اليمن ولحج وحضرموت وغيرها من البلاد المحمية، كما أنهم أقاموا على جبالها العالية قلاعاً حصينة عززوها بالمدافع الضخمة لتدرأ عن عدن كل هجوم من البر والبحر، وتحول دون اجتياز البواخر عند اللزوم مضيق باب المندب، ويوجد إلى الجنوب الغربي من مدينة عدن سلسلة من الجبال العالية بنى الأقدمون بين شعابها السدود والصهاريج العظيمة يسع الواحد منها

الألوف المؤلفة من الغالونات، ويأخذ بعضها برقاب بعض، فحينما يمتلئ الأعلى تفيض مياهه إلى الأسفل، وهكذا دواليك إلى أن تمتلئ بأجمعها.

ويجري الماء إلى هذه الصهاريج من الأمطار التي تمطر في الجبال، فيبقى مخزوناً فيها إلى أيام القيظ فيستعمله الناس لقضاء حوائجهم.

ويوجد على إحدى الروابي القريبة من مدينة عدن هيكل أقامته طائفة من المجوس يصلّون فيه، ويضعون جثث أمواتهم على سطحه فتأتي جوارح الطير وتلتهمها بسرعة عظيمة.

أقمت في عدن عدة أيام أنتظر باخرة تقلني إلى الحديدة، وتسافر عادة بين عدن والحديدة بواخر صغيرة كل عشرة أيام مرة. وقد أسعدني الحظ فركبت أفخر باخرة لدى شركة القهوجي "وهي شركة هندية للملاحة" واسمها "أفريقيا" وحمولتها 500 طن وتتقاضى هذه الشركة عن الراكب في الدرجة الأولى 45 روبية، وفي الدرجة الثانية 30، وعلى الظهر عشر روبيات، ولا تقدم الباخرة طعاماً لركابها، بل جميعهم يزودون أنفسهم بطعام كاف لسفر ثلاثة أو أربعة أيام، ومع أن المسافة بين عدن والحديدة لا تزيد على 235 ميلاً تجتازها السفن الكبيرة في أقل من يوم فسفينتنا اجتازتها في يومين ونصف اليوم، وقد قيل لنا أنها تبقى أحياناً خمسة أو ستة أيام إذا كان البحر مضطرباً.

الأمير سيف الإسلام محمد يستقبل ضيوفه خير استقبال

وبعد صراع عظيم بين السفينة والبحر أقبلنا على الحديدة، وهي في الحق جميلة جداً من الخارج، وكان الوقت صباحاً، وقد ألقت الغزالة أشعتها الذهبية على جدران المدينة البيضاء فانعكست تلك الأنوار انعكاساً يأخذ بمجامع القلوب، وكأن هذا المنظر الجميل لذّ لسفينتنا فأخذت تسير الهوينا وتقترب من البر ببطء لا مزيد عليه، وذلك لأن عمق الماء كان يتناقص شيئاً فشيئاً والرياح تشتد اشتداداً عظيماً، وكان أحد بحارتنا يقيس عمق الماء بآلة خاصة كلما اقتربنا من المرفأ، ولا أستطيع أن أسميه مرفأ، لأنه حوض صغير يشبه حمامات البحر الاصطناعية في المدن الكبيرة، ولا يمكن لأكثر من عشرين زورقاً شراعياً أن تلتجئ إليه إبان الزوابع والعواصف.

ألقت السفينة مرساها على مسافة بعيدة من المرفأ خشية الأمواج الكبيرة التي كانت تتقاذفها، وكنت منتظراً أن تأتينا المراكب من البر حالاً لأني طيرت قبل يوم وصولنا برقيه لاسلكية إلى عامل الحديدة المرحوم محمد سيف الإسلام أنبئه فيها بمجيئنا، ولكن لسوء الحظ خاب ظني ولم يأتنا أول مركب إلا قرب الساعة التاسعة والنصف، ولم يحضر الطبيب عليها فلم يأذن لنا القبطان بالنزول، فكتبت رسالة إلى سيف الإسلام وأرسلتها مع ربان المركب وبينت لسموه فيها حقيقة الخبر، فذهب الربان بها إليه، وبعد قليل شاهدنا المراكب الشراعية تتطاير إلينا على جناح الريح، فامتطينا إحداها[1] وسرنا باسم الله، وكان ربانها يقودها بدقة غريبة كما يقود الفارس جواده، وليس من العجيب أن يحسن البحار العربي هذا العمل لأن الحديدة مشهورة منذ القديم بسفنها الشراعية، وهم إلى هذا اليوم يصنعونها بكثرة، ولها عندهم أسماء متعددة مرتبة بالنسبة لحجم المراكب، فيقال لأصغرها: الهوري، ثم القطيرة، فالزعيمة، فالسنبك، فالساعية، فالبغلة، فالسفينة. وما كدنا نبتعد بزورقنا الشراعي عن سفينتنا "أفريقيا" حتى قابلتنا سفينة شراعية فأشار ربانها إلى رجل ألقى بنفسه منها في اليم وأخذ يسبح بخفة ويقبل نحونا، فالتقطه بحارتنا، واذا به رسول سيف الإسلام يحمل لي رسالة منه يقول فيها: إنه لم يأخذ برقيتنا اللاسلكية التي أرسلتها إليه من الباخرة، ويذكر أن الوصول إلينا صعب بسبب شدة الرياح، وأنه أمر بإعداد السنابيك وسيّرها إلينا رغم جميع الصعوبات، وحرر إلى قبطان المركب تحريراً خاصاً يأذن له فيه بأن يسمح لنا بالنزول إلى البر رغم عدم مجيء الدكتور.

في ميناء الحديدة

وصلنا المرفأ والتعب قد أنهكنا، فنقلنا بعض الرجال من المركب إلى البر حملاً على الأكتاف، فقابلني محمد أفندي رضا مدير شرطة الحديدة، وقال إنه موفد من قبل الأمير محمد سيف الإسلام لاستقبالنا، فصعدت وإيّاه إلى مقر سمو سيف الإسلام، فتبادلنا التحيات الطيبة والمجاملات المألوفة، وشربنا شيئاً من القهوة، ثم ذهبنا إلى الدار المعدة لنزولنا. وأول شيء لفت نظري في الطريق بعض الدور المهدومة فسألت مدير الشرطة الذي رافقنا إلى الدار عن سبب انهيارها؟ فقال: هذا عنوان

---

(1) المركب مذكر، وقد تركناها كما وردت في النص.

المدنية الغربية وأثر من آثارها الفنية، فقلت: أفصح! فقال: هذه بقايا ضرب الطليان والبريطان للمدينة في سنة 1912 وسنة 1915 أي قبل الحرب العظمى وبعدها.

وصلنا إلى الدار المعدة لنزولنا فوجدناها داراً فسيحة ذات ثلاثة أدوار: الدور الأول مخصص للحيوانات، والثاني والثالث للسكن، وتشبه دور الحديدة بعض دور جدة في الحجاز، وجميعها مبنية بالحجر والكلس ذات نوافذ كبيرة وكثيرة لتخفف وطأة الحر.

جلست في إحدى النوافذ فرأيت منها مكتب المرحوم محمد سيف الإسلام حاكم الحديدة وهو قصر فخم ذو أربعة أدوار يرفرف على بابه علم أحمر اللون في وسطه سيف وإلى جوانبه خمسة نجوم وهو علم الحكومة المتوكلية.

طلبت إلى الطاهي أن يأتيني بكأس من "الشاي" ويطلقون عليه في اليمن كلمة "شاهي" ولما جاء بها إليّ شربتها مرغماً لأن ماء الحديدة مالح ولا تذهب ملوحته حتى مع الشاي والسكر، وبينما كنت جالساً أسرِّح البصر في الحديدة وضواحيها وإذا برئيس البلدية يأتي لزيارتنا والترحيب بنا، وبعد ما استراح قليلاً وشرب الشاهي نزلنا بصحبته إلى المدينة فطفنا في أزقتها وشوارعها وأسواقها، فوجدتها صغيرة بالنسبة إلى بلادنا، ولكنها نظيفة، وذلك بهمة رئيس بلديتها السيد عبد القادر الشّراعي، وهو شاب في مقتبل العمر ذكي ونشيط، وشاهدت في أثناء طوافي مخازن البُن، وهي عبارة عن خانات كبيرة لها صحن فسيح في أطرافها غرف كبيرة تعمل في بعضها النساء في تنظيف البن وتقشيره وتحضيره للخزن أو الشحن، وصاحب المخزن يجلس عادة على كرسي كبير يشبه السرير على باب مخزنه يدخن أركيلته.

وبعد الظهر دعانا سمو الأمير– رحمه الله – لزيارته زيارة رسمية في مقره فرحب بنا بما عُهد فيه من البشاشة واللطف وقال: إنه تلقى أوامر مشددة من مولانا الإمام بوجوب إكرامنا والعناية بنا وتأمين راحتنا، واعتذر لنا مقدماً عما قد يبدر منه أو من أهل البلاد من التقصير نحونا قائلاً: إنهم لا يزالون على فطرتهم الطبيعية.

العناية بزراعة البن والتنباك والقطن في اليمن

الزامل أي النشيد الوطني

بحثت مع سموه عن الزراعة والصناعة فقال: إن من أهم مزروعات اليمن البن والتنباك والحبوب، لذلك فهو يهتم بها اهتماماً زائداً ويعممها في جميع البلاد الواقعة تحت نفوذه وحكمه، وقد توصل بعد التجارب الكثيرة إلى غرس أنواع متعددة من البن والتنباك في جهة زبيد وغيرها من البلاد التي لم تكن معروفة فيها، فنمت نمواً حسناً، وقال: إن جلالة مولانا الإمام يهتم جداً بغرس القطن ويجلب البذور من مصر وأميركا وغيرهما من البلاد، وقد نمت هذه الأنواع الجيدة الغريبة عن البلاد نمواً حسناً في بعض الأصقاع، وسيكثرون من غرسها تدريجياً، كما جلب الإمام بعض الآلات والأدوات لحلج القطن، وأخذ يشجع الشعب على غرسه، ولا بد من أن يأتي يوم يعمم فيه زرعه في جميع أطراف البلاد.

هذا ولقد دهشنا من فخامة قصر سيف الإسلام وترتيبه وزخرفة أبوابه ونقوش نوافذه وزينة جدرانه بالآيات القرآنية والأشعار العربية ودهان سقوفه بأدهنة زيتية لم أشاهد مثلها في جميع دور الحديدة واليمن، فسألت أحد الأهلين عن أمر هذا القصر، فقال: بنى هذا القصر أحد أغنياء حضرموت الذي جاء الحديدة كتاجر، ولما طاب له المقام فيها استوطنها وجلب العمال الذين بنوه له من خارج اليمن فجاء آية في الإبداع بالنسبة إلى دور اليمن وقصورها.

وقد زارنا أمير جيش الحديدة "أي قائد الجيش العام" القائمقام العسكري سليم بك فاخوري، فسألته عن أصله وعن المدرسة التي تلقى فيها دروسه العسكرية؟ فأجاب: إن أصله من الناصرة من آل الفاخوري، وإنه درس العلوم العسكرية في القسطنطينية وبقي في تركيا 14 عاماً ضابطا، وبعدها جاء إلى اليمن، وكان كل مدة الحرب العظمى فيها، وهو مسرور جداً بخدمته في الجيش المتوكلي، أي جيش الإمام المتوكل على الله، فسألته هل الخدمة العسكرية في اليمن إجبارية أم اختيارية؟ فأجاب إنها اختيارية أيام السلم، ولكن جميع أهل البلاد جنود بطبيعة الحال أيام الحرب، وقد ألفوا القتال واستعمال البنادق منذ نعومة أظفارهم، والحكومة تدفع للجندي ستة ريالات في تهامة، وخمسة في الجبال، مشاهرة، وتعطيه ألبسة مرتين في السنة، كما أنها

تقدم له طعاماً وشرابا، أما اللباس الرسمي فهو ثوب من الشيت الأبيض أو المصبوغ بالأزرق، ولباس الرأس عمامة صغيرة يختلف لونها باختلاف ذوق صاحبها، فمنها البيضاء ومنها الزرقاء ومنها الملونة والمزركشة، وأما الأحذية العسكرية الضخمة فليست معروفة في اليمن، فبعضهم يلبس الصنادل الخفيفة وبعضهم لا يلبسون شيئاً.

وقد شاهدت استعراض الجند يوم الجمعة بعد الصلاة، ويجري استعراض الجند يوم الجمعة في بلاد اليمن من أقصاها إلى أقصاها، فعندما يعود العامل "أي الحاكم" في أي منطقة من مناطق اليمن من صلاة الجمعة يمر الجيش أمامه. والحق يقال، إنني وجدت في هذا الاستعراض مسحة خاصة من الرونق والبهاء، وقد رأيته بادئ بدء ماشياً مشيته العسكرية وموسيقاه تعزف أمامه بعض الأنغام التركية ورؤوس الجنود تلمع فوقها العمائم، ثم رأيته يعود أمام العامل ثانية وهو يمشي مشيته العادية وينشد أناشيد وطنية يقال لها "الزامل" ويرقص بالسيوف والخناجر رقصاً جميلاً. أما نشيد الزامل فهو رهيب جداً يشبه الحداء عند العرب والدروز، وللإمام زامل خاص، ولسيف الإسلام زامل خاص، تنشده عكفته[1] "أي حرسه" في أثناء خروجه للصلاة أو طوافه في أطراف البلاد، وهذا زامل عكفة سيف الإسلام:

سيف الإسلام الذي يدق على المراتب

طالعة سعد السعود

من يعاند دولته

من كبير لأقل كافر يسجنه

هو عمود ترتعب منه الجزائر والمراتب

والنصارى واليهود

وجميع المسلمين قايم وقاعد

طاعته واجبة علينا

فرض واجب

بعد توثيق العهود

---

(1) في (ط): عقفة، بالقاف، وصواب نطقها بالكاف.

لا بد لمن شل رأسه أو يعاند

يستقى نار الوقود

تحت أمره الجن تخدم والمناصر

ما تعلق بالجنود

الطبقات الاجتماعية

السادة والتجار والعمال والبربر

مستشفى الحديدة

مرض أحد خدمنا فسألنا إذا كان يوجد طبيب في البلد، فقيل لنا: نعم، يوجد طبيب إيطالي، ويوجد مستشفى للحكومة يشرف عليه هذا الطبيب، وهو موظف رسمي في حكومة الإمام ويتناول راتبه من بيت مال المسلمين، والحكومة تنفق على المستشفى وتأذن لجميع الأهلين بدخوله مجاناً، كما أنها تعطى الفقير منهم الأدوية مجانا. وقد زرت هذا المستشفى فوجدته في غاية من النظافة والترتيب وفيه غرفة فنية للعمليات الجراحية وأدوات جراحية كاملة وصيدلية كبيرة مملوءة بالعقاقير، ويساعد الطبيب الإيطالي بعض المساعدين من الأحباش جلبهم حضرته معه من مُصوّع. استدعينا هذا الطبيب فوجدناه على غاية من الظرف واللطف، أنيس المعشر، رقيق العبارة، وبعد أن طبب مريضنا وأعطاه الأدوية اللازمة دار حديث طويل بيننا وبينه سألناه فيه عن الصحة العامة في اليمن، فأجاب: صار لي عدة سنوات أخدم في حكومة الإمام، وقد طفت كثيراً في بلاد اليمن ووقفت على أحوال أهلها وأمراضهم، ولا شك أنهم أقوياء جداً وأجسامهم تقاوم جميع الأمراض مقاومة عنيفة لأنه لا طب فيها ولا دواء منذ القديم، والأمراض المتفشية في اليمن تفشياً مريعاً هي الجدري وحمى التيفوئيد والملاريا، والأهالي فقراء ولا يحصلون على قوتهم الضروري إلا بشق الأنفس، وأنهم يتزوجون نساء متعددة، وأن وفيات أطفالهم تبلغ ثمانين في المائة.

وقال: إن أهالي اليمن ثلاث طبقات: الطبقة الأولى وهم الشرفاء من نسل الحسن والحسين، وهم محترمون في نظر الأهلين جداً، وكل من رآهم يقبل أيديهم، والطبقة الثانية وهي الوسطى: تتألف من التجار والعمال وما أشبه، والطبقة الثالثة: تتألف من البربر وهذه منحطة للغاية، ومعظم أفرادها يشتغلون بنقل البضائع من البحر وإليه على ظهورهم، ويقال لهم "الأخدام" ومواطنوهم لا يزوجونهم من بناتهم

ولا يتزوجون منهم، وأصلهم مجهول، ولكن هيأتهم تدل على أنهم من بقايا البربر الذين افتتحوا بعض أطراف اليمن قديماً.

والحديدة في هذه الأيام هي ميناء اليمن الوحيد الذي تقف عليه بعض البواخر التجارية، وأما المخا التي كانت فيما مضى ميناء أعظم من الحديدة فقد أكل الدهر عليها وشرب، وأصبحت حقيرة للغاية لا تمر بها البواخر التجارية الكبيرة أبداً، وتنحصر صادرات اليمن في البن والجلود وبعض أصناف الحبوب، وأما وارداته فكثيرة كالأقمشة بأنواعها والتنباك والكاز والزيت والكبريت وجميع المصنوعات الأوربية "خردوات" ومعظم هذه الواردات تأتي عن طريق عدن فالحديدة، وبعضها يأتي عن طريق البر إلى عدن فلحج فاليمن.

وأكثرية سكان الحديدية من المسلمين الشوافع إلا إن بينهم بعض الزيود والغرباء من سوريين وهنود وهؤلاء يحترفون التجارة.

خرجت ذات يوم في الأصيل بعد أن خفت وطأة الحر لأن الحر في الحديدة شديد جداً – وكنت في أواسط شهر كانون الثاني أنام على سطح الدار التي نزلنا بها من شدته – وأخذت أطوف شوارع البلد باحثاً مدققا، فاسترعى نظري في بعض الأسواق المعدّة لبيع المأكولات والحلويات كثرة الذباب بشكل رهيب، وفي أثناء طوافي رأيت مشهداً غريباً جداً، رأيت رجلاً مكتوف اليدين يحرسه بعض الجند وقد شدوا إلى ظهره طبلاً صغيراً، وأخذ أحد الجنود يضرب على ذلك الطبل، وكان جمع غفير من الأولاد والرجال يتبع هذا الموكب كيفما سار ساخطاً صاخباً منادياً: بخ بخ يا شارب الخمر.

تطبيق الجزاء الشرعي على السكير

فسألت عن أمر الرجل، فقيل لي إنه سكير، وقد ألقي عليه القبض وهو يعاقر بنت الحان، وسيق إلى المحكمة الشرعية وهو سكران، فحكمت عليه بالجلد والتشهير وطريقة التشهير هي هذه الصفة، فقلت في نفسي: يا حبذا لو كانت تطبق هذه القاعدة على السكارى في بلادنا..

المحكمة الشرعية في الحديدة

وعلى ذكر المحكمة الشرعية أقول: إني زرتها في أثناء طوافي المدينة لأطلع على كيفية المحاكمة وإصدار الأحكام، وصادف يوم زيارتي لها أن تقدم إليها رجل يشكو أحد أقاربه لاغتصابه داره، وكان القاضي الشرعي يجلس في صدر المحكمة، ويجلس إلى جانبه كاتبه، وأمامهما المدَّعِي والمدَّعَى عليه، ولا أثر للمحامين - والحمد لله فيها - وبعد أن استجوب القاضي بدقة زائدة المدَّعِي والمدَّعَى عليه، وطرح عليهما أسئلة كثيرة سجلها الكاتب الشرعي في سجل خاص، لفظ القاضي حكمه في نهاية الجلسة التي لم تستغرق أكثر من نصف ساعة، ولا أثر للتكلف أو التصنع في هذه المحكمة، ولا يدخلها التماس ولا محسوبية من بين يديها أو من خلفها، وحكمها مبرم، ويحصل الإنسان عليه في جلسة أو جلستين على الأكثر، وينفذ في الحال.

خرجت من المحكمة وأردت أن آخذ بعض الصور الفوتوغرافية في المدينة، فتبعني جمهور غفير من الأولاد والرجال، بعضهم يقول: صورني صورني، وبعضهم ينادي بأعلى صوته: بخشيش بخشيش! وويل للمرء إن غلط وأعطى أحدهم شيئاً فإنه يصبح عرضة لهجوم الجمهور عليه، ولا يتخلص من بين أيديهم إلا بقوة الجند، ولذلك اعتاد جلالة الإمام أن يصحب ضيوفه ببعض الجند في أثناء طوافهم باليمن، وإذا صور المرء أحداً فإنه للحال يطلب صورته، وإذا أفهمه إنه لا يمكن إخراج الصورة فوراً يغضب ولا يصدق.

شيوخ من البدو

مررت في أثناء طوافي بدائرة الشرطة فعرّجت على المدير لأرد له الزيارة، فوجدت عنده كلا من: الشيخ إسماعيل البغوي شيخ عشيرة الجمادي بقبيلة القحرا، والشيخ إبراهيم الصغير شيخ عشيرة الضامر بقبيلة القحرا، فعرّفني حضرته بهما قائلاً: إنهما هما اللذان أسرا الكلولونيل جاكوب[1] سنة 1919م في (باجل) عندما كان ذاهباً من الحديدة إلى صنعاء لمقابلة جلالة الإمام.

---

(1) الكولونيل: هارولد ف. يعقوب (جاكوب) ضابط وسياسي ومستشرق إنجليزي، ملم باللغة وآدابها، ودارس للقرآن والحديث الشريف، وله كتاب في العطور العربية، عمل مساعدا للمنوب السامي

والكولونيل جاكوب هو أحد الضباط الإنكليز المستشرقين والمرتبطين بوزارة الخارجية البريطانية، فسألتهما: لماذا أسرتما ضيف الإمام؟ وهل هذا العمل مشروع في عرفكما؟ فأجاباني: اتصل بنا[1] أن هذا الرجل جاسوس إنكليزي أتى لبلادنا ليتآمر علينا وعليها، فخيفة من شره وحرصاً على البلاد والعباد أبقيناه عندنا رهينة ريثما تفاهمنا مع جلالة الإمام عن حقيقة أمره، ولما جاءنا رسول الإمام ينبئنا بأنه ضيف أتى للمشاورة والمخابرة مع جلالته أطلقنا سراحه في الحال.

أعجبني - والحق يقال - منطق الرجلين ومنظرهما وألبستهما وسذاجتهما، وهما حليقا الشاربين حليقا[2] اللحيتين - على السنة - عاريا الجسدين خلا مئزرين يشدانهما إلى وسطهما قصد التستر، ولونهما أسمر نحاسي، وعضلاتهما مفتولة تدل على الشدة والبأس، وقبيلتهم مشهورة منذ أيام الترك بعدم الطاعة وعظيم السطوة، وهي تقطن التهامة وجميعها من الشوافع، وقد انقض الشيخ إسماعيل البغوي على الإمام يوم ثورة الزرانيق[3]، وانضم مع عشيرته إليهم، ففتك رجال الإمام بعشيرته وقتلوه شر قتلة لخيانته وغدره.

البريطاني في عدن، ومعتمدا سياسيا للمحميات جنوب شبه الجزيرة العربية المجاورة لعدن (المحافظات الجنوبية والشرقية المحتلة من اليمن)، لعبا دورا هاما في تدعيم أسس السياسة البريطانية في المنطقة، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى (1914-1919م) عمل مستشارا سياسيا للمندوبين السياسيين البريطانيين في مصر (ريجنالد ويجنت) و(وفسكونت اللنبي)، لعب دورا بارزا في تلك الحرب وقام برحلات إلى عدة مناطق لكسب ود زعمائها لصالح الحلفاء، فعقد معاهدتين مع الشريف الإدريسي حاكم عسير جعلته ينظم إلى الحلفاء ويعلن الحرب على الدولة العثمانية، ولكنه لم يفلح في إقناع الإمام يحيى، وأثناء زيارته لليمن عام 1919م، عن طريق الحديدة أسرته قبيلة القحراء بالقرب من باجل، وظل في أسرها أربعة أشهر. كتب فصلا عن قصة أسره في كتابه الذي ترجم إلى العربية بعنوان: "ملوك شبه الجزيرة العربية" ترجمة السفير أحمد المضواحي، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ودار العودة، بيروت (1983م)، ص263 وما بعده، وانظر أيضا: عبد الواسع بن يحيى الواسعي: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن. القاهرة: المكتبة السلفية، 1346هـ، 4262-263، أمين الريحاني: ملوك العرب، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر (1980م) 197/1-205، وسيذكر المؤلف بالتفصيل أخبار بعثة الكولونيل جاكوب فيما بعد.

(1) اتصل بنا: أي بلغنا.

(2) كذا وصوابها: طليقا.

(3) سيذكر المؤلف فيما بعد ثورة الزرانيق، وقبيلة الزرانيق من أشهر وأعرق قبائل تهامة، وينتسبون إلى الأشاعرة، ومنهم قبائل المعازبة وفروعهم، بنو محمد وبنو مقبول وبنو مشهور وبنو الجنيد والهبالية والبهادرة وغيرهم، ومركز بلادهم مدينة بيت الفقيه، ويسمى الذين جنوب بيت الفقيه: أهل الطرف اليماني، ويسمى الذين في شمالها: أهل الطرف الشامي، وتمتاز قبائل الزرانيق بالشجاعة والشهامة. مجوع بلدان اليمن وقبائلها 394/1، 636/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 739/1-740.

خرجت من دائرة الشرطة وأتممت طوافي بالمدينة فرأيت بعض الصناع والعمال يشتغلون بفتل الحبال الغليظة ولفها، ويصنعون الحبال من نبات القنب الهندي، ويشبه هذا النبات القنب عندنا ويتبعون في صناعته نفس الطريقة التي يتبعها صناعنا في عمل الحبال من قشر القنب، ويستعملون هذه الحبال الغليظة من أجل السفن الكبيرة.

وبالقرب من مكان صناعة الحبال يوجد على شاطئ البحر مكان فسيح يعمل فيه النجارون طيلة النهار في بناء المراكب الشراعية، ويجلبون الخشب لبناء هذه المراكب من (آنس) وغيرها من الأصقاع اليمانية المشهورة بأحراجها الكبيرة، وبالقرب من هذا المكان رأيت أيضا صناعة الكلس ويقولون للكلس في اليمن (نورة) ويصنعونه من بعض الحجارة البحرية التي تقذفها الأمواج إلى الشاطئ بنفس الطريقة التي يصنعون بها الكلس عندنا، أي بواسطة الأتون البسيط، وهذه هي أهم الصناعات التي شاهدتها في الحديدة.

بعد انتهائي من هذه المشاهدات أقبل الظلام فسألت أحد المارة إذا كان يوجد مقاه من الحديدة، فأجاب: نعم، وأشار لي إلى جهتها، فيممت وجهي شطر تلك الجهة، فأقبلت على عدة مقاه قريبة بعضها من بعض فانتخبت أكبرها وأكثرها أنوارا وجلست فيها فوجدت الناس جالسين فيها بنسبة أجناسهم وبلادهم، رأيت الهنود المسلمين جالسين في ناحية، والهنود "البنيان"[1] أي غير المسلمين جالسين في ناحية أخرى، ووجدت أهل تهامة جالسين وحدهم بعيدين عن الزيود، والزيود جالسين وحدهم بعيدين عن الجميع، ولم أشاهد أحداً يلعب الورق أو النرد أو الطاولة،

(1) البنيان: كذا أوردها المؤلف، وصوابها: البانيان، مفردها بانياني، وهي من اللغة السنسكريتية (بانيو)، وتعني التاجر أو صاحب الحانوت، وكان المصطلح يطلق بصورة خاصة على التجار الهنود (الهندوس)، ثم أصبحت تطلق فيما بعد على التجار الهنود أو الذين من أصل هندي بغض النظر عن دينهم، وكان لهذه الفئة أنشطة اقتصادية متعددة في المدن الساحلية اليمنية، وكذلك في سواحل شرق إفريقيا، وكان لهم حي في عدن منذ القرن الرابع عشر الميلادي. انظر: بول بونانفان: أثر الهند في مدينة زبيد، مجلة حوليات يمنية، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الإجتماعية (صنعاء)، العدد 2 (2003م)، ص76-77.

فسألت عن سبب ذلك؟ فقيل لي: إن محمد سيف الإسلام- رحمه الله - منع جميع الألعاب منذ تسلم زمام الحكم في الحديدة وتهامة، وذلك خوف انتشار الميسر.

وأخبرني محدثي أن جميع الألعاب كان مسموحاً بها أيام الترك، وأيام كان السيد حسين عبد القادر عاملا للإمام بالحديدة. وفي أيام الترك كانت المشروبات الروحية أيضاً تقدم إلى الزبائن في القهاوي بصورة علنية للمسيحيين واليهود والمسلمين على السواء، وكان عدد نفوس الحديدة وقتئذ يربو على السبعين ألفاً ومعظمهم من الغرباء، وأما اليوم فإنها لا تزيد على 12 ألفا بحسب الإحصاء الأخير.

عدت من القهوة إلى الدار وأنا أفكر فيما رأيت وما سمعت من الغرائب في ذلك النهار، وجلست إلى طاولة صغيرة فدونت مذكراتي عن ذلك اليوم، ثم تناولت شيئا من الطعام وصعدت إلى سطح الدار لأنام، ولكن جيوشا من البعوض هاجمتني وحرمتني النوم فاضطررت لوضع ناموسية واستلقيت ثانية في الفراش فنمت عندئذ نوما هادئا.

ضيوف الإمام

وفي الصباح نهضت مبكرا، وشاهدت شروق الشمس خلف جبال تهامة، ثم شربت قليلا من الشاي وأكلت الطعام ونزلت إلى الدار، وعلى ذكر الطعام أقول: إننا كنا ضيوفا على جلالة مولانا الإمام، فكنا نعامل أفضل معاملة، وقد تكرم صاحب السمو محمد سيف الإسلام - رحمه الله- فأرسل إلينا الخدم والحشم لخدمتنا، والجند لحراستنا ومساعدتنا، وكانوا يقدمون لنا كل يوم: اللبن والبيض والقهوة والشاي والسكر والأرز واللحم والخضار وجميع ما نحتاج إليه من اللوازم الضرورية، وهذا هو شأنهم في تكريم ضيوفهم فإنهم يقدمون جميع لوازمهم، وإذا لم يكن مع الضيف طاه فإنهم يرسلون له طباخا خاصا.يعمل له طعامه حسب إرادته لا حسب عادة أهل البلاد.

منازل الحديدة

تأملت وأنا جالس إلى النافذة في منزلنا والمنازل التي تحيط به فلاحظت أن جميعها مبنية من الآجر الأحمر والطين والكلس، وجدرانها مكلسة من الداخل والخارج بالنورة "أي الكلس الذي يصنعونه من حجارة البحر" ومن محسنات النورة أنها بيضاء ناصعة البياض لا تلصق بالألبسة إذا اتكأ المرء عليها، ولاحظت أن أرض غرف المنزل من الداخل مصنوعة من "العدسة"[1] وكذلك السطوح وهي كبيرة ومتسعة ومسطحة ولها مزاريب كثيرة.

وسقوف البيوت في اليمن مصنوعة من الخشب المدهون بألوان بارزة جميلة، والأبواب مصنوعة من الخشب أيضاً، ومحفورة حفراً جميلا، وكذلك أخشاب النوافذ فهي أيضاً محفورة حفراً جميلاً، وعليها حواجز خشبية (أخصاص) كالحواجز التي تستعمل في دمشق، وزجاجها في أغلب الأحيان ملون، وهم يرغبون اللون الأحمر والأخضر والأزرق كثيرا، وجميع المنازل مبنية على طراز هندسي يمكن معه دخول الهواء بكثرة لأن صيف الحديدة حار جداً

وفي داخل المنزل توجد فسحة مفتوحة ممتدة من السطح إلى الدور الأول لجلب الهواء، ويستعمل الدور الأول غالبا كمخزن، وأما الدور الثاني والثالث والدور الرابع في بعض الأحيان فتستعمل جميعها للسكن، ويوجد في جدرانها كثير من الخزائن أي (الدواليب) تستعمل لوضع الملابس، ويصعد إلى الدور الثاني غالبا بدرج مبني من الآجر والطين، وأما سلم الدور الثالث والرابع فتصنع من الخشب، وهذه السلالم عريضة تحيط بها نوافذ كثيرة لتضيئها.

---

(1) العدسة: من المفردات العامية الدمشقية، ويقابلها في عامية أهل اليمن: (القضاض)، وهو مزيج من النورة والحصى تطلى به جدران وسطوح المنازل والسدود لحمايتها من التشقق وتسرب المياه، قبل ظهور الإسمنت، ولكنه كان أقوى من الإسمنت، وأجمل شكلا منه، فما تزال كثير من الجدران المتبقية من سد مارب – على سبيل المثال – قوية متماسكة وكأن (القضاض) المستخدم بها لم تمض عليه إلا بضعة عقود، وتعتمد جودة ورداءة القضاض على طريقة تحضيره وإعداده، إذ يحتاج تحضيرة لعدة أيام، يستمرون خلالها في خلطه وتقليبة، وكذلك يتعاهدونه بعد طلاء الجدران أو الأرضيات به عدة أيام يالتدليك بأدوات ملساء حتى يجف. انظر: الموسوعة اليمنية، ط2، مؤسسة العفيف ومركز دراسات الوحدة العربية(1423هـ/2003م) 3/2200-2403.

الأجانب في الحديدة

خرجت من الدار لأتمم طوافي في البلد، فطفتها جميعها، وهي تتألف من عدة شوارع أقيمت على جانبها المنازل، وثلاثة أسواق تجارية متصل بعضها ببعض، تحيط بها المنازل من كل ناحية، وتعرض في هذه الأسواق البضائع المختلفة من أقمشة إلى تنباك إلى نشأ وسكر وخردوات.

ويوجد في الحديدة تاجر واحد يوناني ألّف شركة دعاها شركة (ليفراتو)، وهو يبتاع معظم محصول البن في اليمن ويصدره إلى أميركا وفرنسا وبريطانيا، وتوجد شركة إيطالية، وهذه شبه حكومية، وتوجد أيضاً وكالة روسية، وهذه أيضاً حكومية سياسية أكثر منها تجارية، ويقوم رجالها بدعاية شيوعية واسعة النطاق، ولا يوجد تاجر أوربي واحد خلاف هذه الشركات الأجنبية الثلاث، ولكن هناك كثير من التجار الهنود المسلمين و(البنيان)، وبعض التجار من الأتراك، وواحد من السوريين.

ومن دواعي الأسف أنه بالرغم من إقبال اليمانيين على ابتياع الأقمشة المصنوعة في سورية بكثرة كـ(الصايات الحريرية) و(الديما) لا يهتم السوريون بتوسيع تجارتهم مع اليمن، ولا يقومون بأي نوع من الدعاية لها، ولا أبالغ إذا قلت أن السواد الأعظم من سكان اليمن من الطبقة الوسطى يلبسون (ديما) بلادنا، وجميع الأشراف والسادة من الطبقة العليا يلبسون (صاياتنا) الحريرية، ويباهون بها، ومع ذلك فنحن مقصرون جدا في الدعاية لمصنوعاتنا، وذلك ناتج أولا عن فقدان من يمثلنا تمثيلا خارجياً رسمياً في تلك البلاد، وثانياً لأن تجارنا كما يقول المثل العامي: "يريدون قطا من خشب يصطاد ولا يأكل" فلا يقومون بدعاية ما لبضاعتهم، ولا يشرفون على الأسواق بأنفسهم، حتى ولا يوجد لهم وكلاء في الحديدة ولا في عدن، وإني على مثل اليقين بأنهم لو اهتموا قليلا بهذه الشؤون لاستولوا على أسواق اليمن بأجمعها. ومتى أدرك القارئ الكريم أن سكان اليمن يبلغ عددهم نحو خمسة ملايين يدرك أهمية التجارة مع تلك البلاد وأهمية أسواقها.

زيارة المسجد الكبير

بعد طوافي الأسواق عرجت على المسجد الكبير ويقولون له الجامع، وقد بنته امرأة من أهل مسقط منذ ثلاث مائة سنة، ويقال لها فاطمة ابنة الزراف، وهو خلو من السجاد والبسط وغيرها، ولكنه متسع وجميل، ولا يوجد فوق محرابه نقوش وغيرها، بل يوجد شبه دولاب صغير له نافذة زجاجية تحفظ فيها بعض الآثار القديمة من عهد النبي "صلى الله عليه وسلم"، قد جلب هذه الأشياء الوالي محمود نديم بك من الحجاز إرضاء للشوافع أيام الدولة العثمانية.

الصيد البحري

خرجت من الجامع وسرت نحو البحر فرأيت جماهير من صيادي السمك يحملون صيدهم ليبيعوه في الساحة العامة، وصيد السمك في الحديدة مهنة لا يستهان بها، والسمك جيد ورخيص للغاية، لأن الطلب عليه قليل لرخص اللحم.

وصلت بطوافي إلى الميناء وزرت رئيس المينا ويدعى أحمد إبراهيم، ويلقب بأمير البحر، وهو رجل مسن يتقن التركية جيدا، وأخاله من أصل تركي.

في المكتب الرشدي

ثم زرت المكتب[1] الرشدي المتوكلي، ومديره سليم بك الفاخوري، وأساتذته: أحمد أفندي الكثيري، والفقيه حمود الكستبان، ومحمد أفندي صادق البخاري، وسليمان صادق البخاري، وغيرهم، ويبلغ عدد الطلاب فيه نحو مائتين، يتعلمون

---

(1) المكتب: هو ما يعرف في الوطن العربي بـ(الكُتّاب) وجمعه (كتاتيب)، ويعرف في اليمن أيضا باسم (المعلامة)، وكان الأطفال يتعلمون فيها مبادئ القراءة والكتابة ويحفظون القرآن ويجودونه وكذلك يتعلمون مبادئ الفقه والحديث والتفسير وأوليات الحساب، وكان المكتب أو المعلامة، يتكون في الغالب من غرفة واحدة ملحقة بالمسجد أو بجواره. قلت: ثم عرفت بعد ذلك أن (المكتب الرشدي) من المصطلحات التركية، وتعني المدرسة الثانوية. انظر: القاضي إسماعيل الأكوع: كلمات تركية في اللهجة اليمانية، مجلة المجمع العلمي العراقي، 13[1980م]، ص149.

القراءة والكتابة والصرف والنحو والقرآن والفقه والحساب والجغرافية، إلى غير ذلك من العلوم الابتدائية، وقد أبدى لي سمو سيف الإسلام محمد - رحمه الله - رغبته الشديدة في جلب بعض المعلمين من سورية ليدرِّسوا الأولاد ويشرفوا على هذا المكتب وغيره من المكاتب، وعند عودتي إلى مصر أقنعت الأخ الصديق المجاهد عادل الحامدي الطرابلسي بلزوم ذهابه إلى اليمن وتسلم مديرية مكتب الحديدة، فلبي طلبي - حفظه الله - وسافر لليمن فوراً، وأخاله لا يزال هناك إلى يومنا هذا.

خرجت من المكتب بعد أن استعرضت طلبته وحادثت بعضهم فوجدتهم على جانب عظيم من الذكاء الفطري والنباهة الغريزية، ثم ذهبت إلى إدارة الجمرك فقابلت القاضي محمد الحَجْري[1]، وتحادثت معه طويلا بشأن الرسوم، والحَجْري رجل من القبائل المعروفة، ذكي ونشيط وشجاع، وكان المرحوم محمد سيف الإسلام يحبه محبة جمة ويستعين به عند الملمات والشدائد، وقد عينه مديراً للجمارك فقام بهذه الوظيفة أحسن قيام، وكان يعامل الناس باللين واللطف، وقد سمعت عنه أعطر الثناء والمديح من جميع التجار الذين صادفتهم.

---

(1) محمد بن أحمد الحجري: قاض وفقيه، ومؤرخ، ونسابة، نسبته إلى حجر ذي رعين، ولد في (ذي بشرع)، من أعمال خبان، قضاء يريم، وتفقه وتأدب في بلده ثم في ذمار، فالأهنوم، فيريم، وتولى أوقاف يريم. وتقرب من الإمام يحيى حميد الدين، فوجهه في بعض المهمات وولاه رئاسة المحاسبة العامة للدولة، وانتدبه سنة 1340هـ / 1922م للتفاوض في شأن الحدود اليمنية السعودية. ولما قتل الإمام يحيى وخلفه ابنه الإمام أحمد، حفظ للحجري مكانته، واختاره لتمثيل بلاده في منظمة الامم المتحدة، وأوفده في عدة مهمات دولية، وشارك في بعض اجتماعات الجامعة العربية والمجامع العلمية، وأوفد في رحلة صداقة على طائرة سوفياتية إلى بكين (الصين) فاحترقت الطائرة في جو أوكرانيا، وتوفي كل ركابها، وأنقذ جثمانه فحمل إلى اليمن ودفن في صنعاء سنة 380هـ/1960م، وكان إلى جانب أعماله الحكومية قد صنف كتبا، منها (مساجد صنعا) طبع بصنعاء عام 1940م، و(خلاصة من تاريخ اليمن قديما وحديثا) طبع سنة 1944م، و (مجموع بلدان اليمن وقبائلها) طبع في مجلدين بتحقيق القاضي إسماعيل الأكوع. انظر ترجمته وأخباره في مقدمة تحقيق القاضي إسماعيل الأكوع لكتاب مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ط2، 1416هـ/1996م، 1/7-14، حسين العمري: المنار واليمن، دمشق: دار الفكر المعاصر، 1987، الأعلام للزركلي 24/6، الموسوعة اليمنية 2/1000-1001

مرفأ فرنسي يبنى بجوار الحديدة

الطليان يضربون المرفأ والخط الحديدي بالقنابل

جمرك الحديدة

والجمرك في الحديدة منظم ونظيف، وهو يتألف من (وكالة) فيها فسحة واسعة مكشوفة للشمس والهواء، وعلى جوانب هذه الفسحة بنيت عدة بنايات وغرف كبيرة وصغيرة، وكل غرفة أو بناية معدة لخزن نوع من أنواع البضائع والحاجيات.

ويأخذون في الحديدة رسماً جمركياً قدره اثنان ونصف من المائة على جميع الصادرات، وأما الواردات فلا يأخذون عليها رسما، بل يأخذون هذا الرسم وقدره اثنان ونصف في المائة أيضاً في مكان الاستهلاك.

في مدرسة الصناعات

ذهبت من الجمرك إلى ظاهر المدينة فزرت مدرسة الصناعات التي كان بناها الترك أيام الدولة العثمانية فوجدتها قد تهدمت ولعبت بها يد الزمان والإنسان، إذ قامت حولها معارك بين جيش الإمام وجيش الإدريسي بعد الحرب العامة، فدكت بعض معالمها دكا ودَرَست أطلالها درساً.

ولكن سيف الإسلام محمد - رحمه اللّه - اعتنى ببعض أبنيتها وحدائقها، وبنى بناية صغيرة في الحدائق وأقام فيها (شادروانا) أي بحيرة، وغرس بعض الأشجار والنباتات، وحصّن الحدائق بحصون من القش والنباتات اليابسة ليمنع عنها تيارات الرمال الجارفة التي تكتسح الحديدة وأطراف تهامة بين آونة وأخرى، وبهذه الطريقة دفع عنها هجوم الطبيعة.

وبالقرب من حديقة مدرسة الصناعات يوجد مركز التلغراف اللاسلكي، ويراسل هذا المركز مصوّع وأسمرة في الساحل الإفريقي، ويدير التلغراف اللاسلكي بعض الأخصائيين من الطليان ويدعون اللاسلكي باليمن بـ (طار الهواء).

عند آبار المياه

وبجوار (طار الهواء) توجد عدة آبار للماء تدعى آبار "الحالي"[1] ويبلغ عمقها خمسة أمتار وتعوّل الحديدة على هذه الآبار للشرب وهي أقل ملوحة من ماء الآبار في المدينة لأنها أبعد من شاطئ البحر.

وقد أقام سيف الإسلام -رحمه اللّه- عليها حرساً من الجند، وبنى لهم بناية خاصة يقيمون فيها لحراستها، وتبعد هذه الآبار عن الحديدة نحو كيلو مترين، وينقل الناس الماء منها على الحيوانات والعربات، ويستخرجون منها الماء بدلاء يدوية على الطريقة القديمة المعروفة عندنا، ولو اهتمت الحكومة قليلاً بها لأمكن رفع الماء منها بالمضخات وسحبها إلى المدينة بأنابيب حديدية، وبذلك توفر على الناس عملاً كثيراً وعناء عظيما

في رأس الكثيب

يوجد على بعد عشرة أميال من الحديدة رأس في البحر يقال له: (رأس الكثيب) وقد استحصل الفرنسيون في أيام الدولة العثمانية على امتياز يخولهم بناء مرفأ فيه، وقد أصابوا جداً باختيارهم إياه لأنه موقع طبيعي واسع يصلح لبناء مرفأ أمين، ودخوله سهل على المراكب الشراعية الصغيرة والسفن التجارية الكبيرة.

وقد باشر الفرنسيون عملهم فيه، فجلبوا بعض الآلات والأدوات، وحفروا أرض الحوض وزادوا في عمقه حتى صار في إمكان أعظم السفن أن ترسو فيه، كما مدوا بجانبه خطاً حديدياً ضيقاً - كالخط الحديدي بين دمشق وبيروت - إلى الطنمية، وهي قرية صغيرة بالقرب من باجل، وسارت القطارات على هذا الخط بالفعل مدة وجيزة، ولكن لما أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية سنة 1912م أرسلت بعض سفنها الحربية وضربت هذا المكان فخربت جميع ما بناه الفرنسيون، وقد شاهدت بأم العين بعض بقايا القاطرات المكسرة

---

(1) في المطبوع: الحلي، والصواب: الحالي. وهو باللهجة العامية بمعنى الحلو، أي (العذب) غير المالح لأن أغلب مياه الحديدة فيها بعض الملوحة نتيجة قرب تلك الآبار من مياه البحر، كما أشار من قبل.

وفي أيام الحرب العظمى اقتلع اليمانيون الخط الحديدي واستعملوه في بعض أبنيتهم. والخلاصة أن تهامة اليمن قد خسرت مشروعاً كبيراً كان في الإمكان أن يعود عليها بالأرباح الطائلة والخيرات الكثيرة.



السفر إلى صنعاء

بعد مضي ثلاثة أيام على وصولنا إلى الحديدة، وهذه هي أقل مدة للضيافة طلبنا من سيف الإسلام - رحمه اللّه - الإذن لنا بالسفر إلى صنعاء، وبعد "اللتيا والتي" أجابنا إلى طلبنا.

ولكن يجدر بي قبل أن أترك الحديث عن الحديدة أن أوفي صاحب السمو الملكي المرحوم محمد سيف الإسلام شيئاً من حقوق الصداقة التي تربطني به، فأصفه للقارئ الكريم، وأذكر بعض أعماله ليرى الخسارة الجسيمة التي أصابت اليمن بفقد هذا الرجل الفذ العظيم فأقول:

الأمير سيف الإسلام

نشأ رحمه اللّه في صنعاء، وتربى في حجر جلالة والده الإمام، وتلقى دروسه على علماء أعلام، فبرع في العلوم الدينية والحديث والشعر، وكان على جانب عظيم من الذكاء والدهاء، فولاه والده على الحديدة لما لهذا المرفأ من الأهمية السياسية في نظر اليمانيين ونظر الأجانب على السواء، وقد أحسن سموه إدارة وظيفته كل الإحسان، وكان صلة الوصل بين حكومة اليمن وبعض الحكومات الأجنبية كالإنكليز والروس، وقد حال - رحمه اللّه - في ظروف عديدة دون وقوع كوارث كثيرة، ومهّد بحكمته ودهائه السياسي الطريق لعقد المعاهدة الإنكليزية اليمانية، واهتم بالمدارس فجلب لها المعلمين من الخارج، واهتم بالزراعة فجلب أدوات زراعية حديثة، وأقام عدة حدائق في الحديدة والزيدية وغيرهما من البلاد، جرب فيها غرس بعض النباتات الغريبة عن اليمن كالشاي والقطن والكلاريدس والتتن .. الخ

وكان رحمه اللّه شفيقاً رحيماً حكيماً يكلم الناس على قدر عقولهم: وقد اجتذب إليه قلوب جميع الرعية بهذه الاخلاق والطباع الحميدة، وكان لفقده رنة

أسف وأسى في اليمن لم نسمع بمثلها منذ القديم، وقد كتبت لجلالة مولانا الإمام يوم وفاته كتاب تعزية، ومن الاطلاع على جواب جلالة الإمام يظهر للقارئ الكريم فداحة المصيبة التي انتابت اليمن بفقد ذلك الراحل العظيم: قال جلالته بعد التحية ما نصه:

"وقد تناولنا كتاب تعزيتكم في المصاب العظيم والخطب الجسيم بوفاة من اختار الله له ما عنده، عند ما بلغ أشده، فنقله إلى جواره وهو لم يبعد عن عهد الشباب وطراوة الإهاب، والتقدم بين ذوي الأحلام الراسخة وعلو الجناب، وهذا حال الدنيا وشأن من فيها من الأحياء، ولم نتذرع بغير الصبر ولا تمسكنا إلا بالرضا والتسليم لحكم من له النهي والأمر، ونسأل الله تعالى للفقيد العزيز واسع الرحمة، ولكم المكافأة بالحسنى على الوفاء وحسن العزاء والسلام".

كيف مات سيف الإسلام

وأخذت أيضاً كتاباً من صاحب السمو الحسين نجل مولانا الإمام الذي تولى الحكم على الحديدة بعد أخيه المرحوم محمد سيف الإسلام، وهو كتاب رقيق ينعى فيه أخاه، ويصف شدة المصاب عليه وعلى اليمن، قال – حفظه الله– ما نصه:

"السلام عليكم ورحمه الله وبركاته، وبعد: فإننا نحمد الله إليكم على حلو القضاء ومرّه، إذعاناً لحكمه وطاعة لأمره، وإن كان القلب خافقاً، والدمع دافقاً، والكرب مطبقاً، والأسى محدقاً، من خطب عظيم أناخ بالمعالي، ورزء جسيم هو علم المكارم العالي، وفاة بدر الدين، ونابغة المجددين، المصلح الكبير، والمجاهد في سبيل الملك القدير، الشفيق على كل أحد من العباد، المجد في نشر رايات الإرشاد، والمجتهد في النهوض إلى أوج السعادة بالبلاد، سيف الإسلام، وحسنة الأيام، محمد نجل أمير المؤمنين الذي إن فارقت ذاته الدنيا فقد خلدت منها صفاته العليا، وإن فقد شعبه ووطنه مساعيه الجليلة، فما فقدت آثاره الجميلة وان رفعت عن دار الا كدار روحه الطاهرة، فما ارتفعت منها بلسان ذكراه العاطرة، أفاض الله على تربته الزكية سحائب رحمته الصيبة، وسلم على روحه الزكية تحية من عند الله مباركة طيبة، وجعل في أعلا الغرفات وطنه وأجزل له ثواب من سن سنة حسنة.

وإنه رحمه الله وغفر له وأكرم مثواه مات شهيدا: شهيد الرأفة والرحمة، شهيد الإنسانية والمروءة، شهيد الشجاعة والنجدة، وذلك أنه خرج في 16 من شهر ذي الحجة للتنزه في جزيرة بقرب الساحل، وكان يجيد السباحة، ومعه رفقاؤه للاستحمام في نحو الساعة الخامسة، فبينما هم كذلك إذ اضطرب البحر، وكان من رفقائه ثلاثة قد أوغلوا إلى القعير، فحال الموج بينهم وبين رجاء السلامة، فألقت نفسه العالية جثمانه الطاهر في لجج البحر المتلاطم لينقذ أولئك من مخالب المنايا، فأنقذ الأول ثم الثاني، ثم لما عاد إلى الثالث تعلق به، فقضى الرب ما سبق في علمه ونفذ حكمه، ولا معقب لحكمه، فالحمد لله على ما قضاه، وإن أورى القلوب وأجرى العيون، وانا لله إليه راجعون".

تهامة

في اليوم الذي عزمنا فيه على شد الرحال إلى صنعاء، أرسل لنا صاحب السمو المرحوم محمد سيف الإسلام حرساً من الجند وعدة بغال لتحمل حوائجنا، وسارت البغال مساء لتتمكن من قطع تهامة ليلاً، وتهامة هي السهل الممتد من البحر الأحمر حتى أول الجبال، ويختلف اتساعه اختلافاً بيناً في أماكن متعددة، فيبلغ في بعضها من عشرين كيلومتراً إلى خمسة وعشرين فثلاثين كيلومتراً، وتقطعه القوافل ليلاً تجنباً لحرارته الشديدة، وتلطف سمو الأمير كذلك فارسل الينا سيارة لتوصلنا إلى باجل، ومن البديهي إن السيارات في الحديدة غير موجودة إلا عند سموه، وعند الشركة الايطالية التجارية، وفقدان السيارات ناشئ عن فقدان طرق صالحة لسيرها.

امتطينا السيارة على بركة الله، وكانت في مجموعها سيارة دولية، رغم إنها من مصنوعات معامل فورد، كانت عجلاتها الامامية من صنع إيطاليا، وكاوتشوكها الداخلي من صنع فرنسا، وواحدة من العجلات الخلفية إنكليزية، وأما الأخرى فكانت أميركية، وصندوقها الخشبي وسقفها كانا مصنوعين من بقايا صناديق الكاز الإنكليزية والأميركية والإيطالية، ولما كان الدهر قد أناخ عليها بكلكله، فما كادت تخرج بنا من الحديدة حتى سارت سير المتثاقل، وقد اضطررنا إلى إصلاحها و"تربيطها" وتغيير مائها وتزييتها مرات كثيرة، فأدركنا الليل قرب قرية صغيرة من قرى تهامة يقال لها (دير سهيل)، فنزلنا منها، وقررنا قضاء تلك الليلة إلى جانب الطريق،

لان سيارتنا لم تكن على استعداد لسير الليل إذ لا مصابيح لها، ولا طريق معبدة تسير فيها، فقضينا ليلتنا نفترش الأرض وتلتحف السماء، ولما أصبح الصباح نهضنا مبكرين فشاهدنا إلى جانبنا بعض الأشجار الغريبة التي لا توجد إلا في البلاد الحارة، وهي نوع من أنواع الميموسا "Mymosa" وشاهدنا أيضاً بعض الأعشاب البرية وبعض النباتات المحلية كالدخن والذرة، فسألت أحد القرويين عما إذا كانت الجمال والماشية تأكل من تلك الأعشاب البرية وتلك الأشجار الغريبة، فأجاب بالإيجاب.

وقد شاهدنا بالقرب من القرية بئر ماء يبلغ عمقها 55 متراً ويستعمل ماؤها للشرب فقط، وهو أفضل من ماء الحديدة إذ لا ملوحة فيه، تذكرت هاهنا أقوال بعض المستشرقين من الفرنجة وأقوال بعض أبناء العرب الذين زاروا بلاد اليمن وقالوا عن تهامة في مؤلفاتهم إن تربتها قاحلة مالحة أي "Sterile" فأيقنت من هذا الكلام أنهم لم يكونوا على علم بما يقولون، لأن الأراضي المالحة بالمعنى العلمي هي التي لا حياة فيها ولا ينبت فيها نبات.

وليس العجيب إن نجد أمثال هذه الأغلاط في كثير من المؤلفات الغربية، ولكن من العجب العجاب أن نجد السائح أو الرحال الأجنبي يمر ببلاد لا يعلم من لغتها شيئاً ولا يدرك من عادات أهلها وأخلاقهم إلا النزر اليسير، فيمكث فيها شهراً أو بعض شهر، يجتمع فيه غالباً ببعض التراجمة ومن حذا حذوهم من المرتزقة في تلك البلاد، فيسألهم أسئلة كثيرة، ويدون أقوالهم في مذكراته، ثم يذهب إلى بلاده ويضع تلك الأقوال في مؤلف ضخم، فيشوه سمعة أمة بأسرها بقلة درايته وسوء عنايته.

سيدات يلبسن القبعة والأثواب القصيرة

وشاهدت في تهامة أشجاراً برية تشبه النخيل، ولاحظت أن الهواء لا ينقطع فيها إلا في الصباح، ويوجد فيها آبار قديمة على أبعاد مختلفة، ولا يستعمل ماؤها لغير الشرب لأنها عميقة، واستخراجه منها بكميات كبيرة صعب، ولكن لو وجد المال الكافي لدى القرويين لتمكنوا من استعمال المضخات الميكانيكية أو "الطلمبات" الهوائية في استخراج هذا الماء الكثير واستعماله في غرس النخيل والقطن وغيرهما من نباتات المناطق الحارة، التي لا شك إنها تنمو في تهامة نمواً جيداً كما هي

الحال في بعض جهات كاليفورنيا التي تشبه تهامة كل الشبه، والتي تمكن الأميركيون بعملهم ومالهم أن يحولوها من صحراء جرداء مقفرة إلى غوطة مشجرة مأهولة بالحيوان والإنسان.

وقد شاهدت كثيراً من المزروعات في أطراف تهامة القريبة من الجبال كالذرة بأنواعها البيضاء والصفراء والحمراء والسمسم ويسمونه هنا (جلجل) أو (جلجلان)، وشاهدت أيضاً نباتاً يقولون له (السنى) ويستعملونه كمسهل، وهو يشبه كثيراً عرق السوس، ويعرف في بلادنا وفي مصر بـ(السنمكي)[1].

بعد تناول ما تيسر من الطعام في صباح ذلك اليوم، ركبنا سيارتنا وسرنا باسم الله إلى (باجل)، فوصلنا إليها قبل الظهر، ووجدنا حاكمها السيد عبد الكريم بن إسماعيل كوكبان في انتظارنا أمام سراي الحكومة، وقد صُفّ ثلة من الجند على باب السراي، فاستعرضناها ودخلنا إلى السراي في أثر العامل، وكان أحد الجنود يحمل سيف العامل، ويسير أمامه آخر يحرسه من خلفه، سرنا في السراي إلى إن وصلنا إلى غرفة فسيحة حيث أداروا علينا أكواب (الشاهي)، ثم سألنا العامل: "أتتقشرون؟" فلم نفهم قصده، فسألته: وما معنى تتقشرون؟ فقال: ألا ترغبون في شرب شيء من القشر؟ فلم ندرك أيضاً ما يقصد، فاستزدته إيضاحاً، فأمر حضرته جندياً قريباً منه، إن يجلب لنا القشر، وما هي إلا لحظة حتى عاد الجندي يحمل بيده إبريق فخار صغير يتصاعد منه البخار، وصب منه فنجاناً ودفعه إليَّ، فشربته بصعوبة كأني أشرب دواء، لكني وجدت فيه طعماً كطعم القهوة، فقلت: هل هذه قهوتكم؟ فأجاب: نعم هذه قهوتنا، ولكنها ليست مصنوعة من اللبن كما هي العادة عند الترك وغيرهم، بل من قشره، وهنا أدركت معنى "تتقشرون" أي تشربون القشر.

وفي جميع أطراف اليمن لا يشربون القهوة بل يشربون القشر، بعد ما تقشرنا جميعاً مدت الاسمطة وجيء إلينا بالطعام، وكان أرزا ولحماً ودجاجاً وخضراً وحلوى، وضعت جميعاً بعضها إلى جانب بعض، فجلسنا حول السماط ورحنا نزدرد الطعام بأيدينا، وكدت مراراً أختنق وأنا ابتلع اللقمة، لأن في الأطعمة كلها كميات كبيرة من الفلافل الحارة، ويميل اليمانيون إلى تناول المأكولات الحارة و"يلتهمونها" بسهولة!!

---

(1) أي السنى المكي، نسبة إلى مكة المكرمة.

خرجت من السراي بعد تناول الطعام وطفت حولها متجولا فشهدت موكباً من الناس سائراً نحو بيوت مصنوعة من القش تشبه بيوت الشعر عند البدو الرحل، فتبعت ذلك الموكب، ولما وصل إلى البيوت خرجت منها نساء كثيرات، وأخذن يزغردن بأصوات عالية غريبة، والتف الجمهور حول بيت من تلك البيوت وأخذ بعض الرجال يرقصون بالعصي والسيوف والمدى على ضرب الطبول، كما أخذ البعض ينشد أناشيد مختلفة بأنغام لطيفة، ولكني لم أتمكن من فهم شيء منها.

حفلة زواج

وشاهدت أيضاً بعض الفتيان والفتيات راكبين على الهجن، كل فتى وفتاة على هجين، وكان بينهم فتى وفتاة لا يتجاوز سنهما الثانية عشرة راكبين هجينا وأمامهما طفلان صغيران، فسألت عن أمرهما، فقيل لي: هما عريس وعروس، قادمان من بيت العروس، فقلت: وما شأن الطفلين الراكبين أمامهما؟ فقيل لي هذه إشارة معنوية لطلب البنين، وقد زاد جمال هذا الموكب الوطني وبهاءه اختلاف الأزياء وتنوعها، فبعض الرجال كانوا عارين من الثياب خلا مئزر في وسطهم، وبعضهم كانوا يلبسون ألبسة مزركشة ملونة، وبعض السيدات كن يلبسن سراويل طويلة وقمصاناً طويلة الأكمام ولكنهن سافرات الوجوه، وبعضهن كالرجال عاريات إلا من مئزر بسيط، وبعضهن كن لابسات أكماماً قصيرة "ديكولته" وبعضهن وضعن على رؤوسهن حجاباً اسود، وبعضهن وضعن فوق هذا الحجاب قبعة "برنيطة" مصنوعة من قش القمح والشعير[1] ذات حجم كبير لترد أشعة شمس تهامة المحرقة، وهي من صنعهن، وقد علمتهن الحاجة التي هي أم الاختراع أن لا يتقيدن بعادة أو قانون، بل يلبسن ما يوافق محيطهن واحتياجاتهن.

دامت الأناشيد ودام الرقص مدة طويلة، ثم مدت الاسمطة فأكل جميع المدعوين هنيئاً مريئاً، وعند الغروب تفرقوا إلى منازلهم بعدما هنئوا والدي العروسين وتمنوا للعروسين كثرة البنين والحياة الطيبة.

---

(1) قلت: بل هي مصنوعة من سعف النخيل.

الزامل

عدت بعد مشاهدة هذا الموكب إلى السراي وتناولت طعام العشاء، ثم صعدت إلى السطح لأقضي الليلة في ضوء القمر والنجوم، وأتمتع بالنظر إلى السماء، وأنفرد بنفسي قليلاً، ولكنني وجدت على السطح المقابل لسطحنا شرذمة من الجند ومعها موسيقاها، ولما بلغت الساعة الثامنة زوالية أخذت الموسيقى تعزف بعض الأنغام التركية، وكانت على بعد بضعة كيلو مترات منا قلعة حصينة قائمة على رأس رابية، وهي معسكر لإحدى الفرق التهامة، وكان الجنود فيها يعزفون أيضاً بعض الأنغام التركية كلما توقفت موسيقى السراي عن العزف، واستمر العزف هكذا نحو نصف ساعة، ثم أخذ الجنود بالقرب مني ينشدون (زاملهم) الخاص — أي نشيد فرقتهم- هو كما يأتي:

والعـــز يـــا صـــبيان قومـــي ... مـــا يـــأتي إلا بالغصـــايب[1]

والـــذي يجنـــي بـــأول شـــبابه ... مـــا حصـــله والـــرأس شـــايب[2]

(قرار)

يـــا مـــن تمنـــى حربنـــا ... لابـــد مـــا يطلـــب عـــوافي[3]

أو ينـــــادي بالصـــــلاح[4]

شعرت وأيم الحق بينما كان الجنود ينشدون نشيدهم الوطني إن كل شعرة في رأسي قد وقفت وكاد قلبي يخرج من فمي، كأني قادم على معركة حربية عظيمة وذلك بالرغم من أنني لم أفهم كلمة واحدة مما كانوا ينشدون، ولكن الأنغام والنبرات كان في مقدورها أن تدفع حتى الجبان إلى إلقاء نفسه في أشد المعارك هولاً وفظاعة.

---

(1) بالقوة (المؤلف).

(2) قلت: كذا أورده المؤلف، والمشهور في روايته:

ذي (الذي) ما يجي في اول شبابه ... ما يجي والراس شايب

(3) العفو (المؤلف).

(4) الصلح (المؤلف)

ولما انتهى جند السراي من النشيد بادر جند القلعة إلى مجاوبتهم، وبعد الانتهاء من الأناشيد أتى دور ضرب الطبول فضرب جند السراي الطبول ضرباً يستفز الشعور ويهيج الأعصاب، فجاوبهم جند القلعة بضرب كضربهم ثم ختمت الحفلة عندنا وعندهم، بالمناداة بكلمة (وامتوكلاه) على النغم... "بادشاهم جوق يشا!" إشارة إلى دوام صحة صاحب الجلالة الإمام يحيى حميد الدين المتوكل على رب العالمين.

وفي هذه الساعة الرهيبة لا يسمع المرء في بلاد اليمن من أقصاها إلى أقصاها إلا نداء الجنود في ثكناتهم وقلاعهم وحصونهم: (وامتوكلاه) وبعدئذ يضرب بوق النوم فيذهب جميع أهل المدن إلى النوم ويصبح الخروج من المنازل إلى الأزقة والشوارع محظوراً على الجميع ما خلا الجند!

لفظت سيارتنا في باجل أنفاسها الأخيرة فترحمنا عليها وركبنا البغال، والبغال هي أفضل حيوانات الركوب في اليمن، أولاً لأنها قوية، وثانياً لأنها تتسلق الجبال الشامخة الوعرة بسهوله تامة خلافاً للخيل التي تصعد الجبال الوعرة ولكن بصعوبة، ويجلبون البغال إلى اليمن من بلاد الصومال بحراً.

سرنا على البغال مسافة أربع ساعات في سهول واسعة خصبة مغروسة سمسماً وذرة، وأقبلنا نحو الظهر على قرية صغيرة مبنية من القش يقال لها (البحيح)، وهنا شاهدت جمعاً من السيدات من ذوات القبعات قد أحطن بفتاة صغيرة لا تتجاوز سنها الثالثة عشرة، وكن يغنين لها ويضربن على الدفوف وهي ترقص رقصاً جميلاً فسألت عن أمرها، فقيل لي: هذه عروس ترقص صباح عرسها تسلية لضيوفها وزوارها!

تناولنا طعامنا في قهوة، ويقال للقهوة في تهامة: (مقهاية)، وقضينا فيها ساعة من الزمان طلباً للراحة، والمقاهي في الحديدة وتهامة هي المطاعم والفنادق، إذ لا يوجد في بلاد اليمن جميعها فندق واحد بالمعنى الذي نفهمه نحن معاشر السوريين، بل فنادق اليمن هي مقاه و خانات يأوي إليها المسافر هو وراحلته!..

الرق لا وجود له في اليمن

بينما كنا جالسين في المقهاية أقبل علينا كثير من الأهلين للفرجة فلاحظت أنهم يختلفون اختلافاً كبيراً من جهة اللون والهيئة وتركيب البنية عن أهل الحديدة، ويغلب على ظني أنهم أنقى دماً من سكان الساحل، وهذا أمر بديهي لأنهم لم يختلطوا كثيراً بأهل القارة الأفريقية الذين كانوا يأتون إلى سواحل اليمن بقصد التجارة وبيع الرقيق. وما دمت في ذكر الرقيق، فإنه يحضرني الآن أنني كنت قرأت في بعض الصحف والكتب أن تجارة الرق ما زالت موجودة في اليمن، وهذا افتراء باطل فلا أثر للرق في بلاد اليمن في هذا الزمن، لأن الإمام – حفظه الله – منع هذه التجارة منذ تولى الحكم، وكان عنده عبد يدعى صمصام فأعتقه لوجه الله وزوجه من فتاة كانت في خدمته ووظّفه إحدى الوظائف.

طبيعة اليمن الفاتنة

بيوت اليمن تشبه القلاع

ركبنا بعد الظهر من (البحيح) إلى (عُبَال) وهي محطتنا الثانية، كان برفقتنا حرس من الجند، فاقترب مني أحدهم وأخذ يسألني عن بلادنا، وعن الحكم فيها، وعن الإسلام والمسلمين، والترك ومصطفى كمال، فكنت أجيبه عن أسئلته أجوبة مختصرة توافق عقليته، وأشار لي في الطريق إلى جبل وعر عال واقع إلى الغرب، وقال: هذا هو جبل بُرع، وفيه كثير من البن والقات والموز وغير ذلك من النبات، وقد وقع فيه بعد الحرب العامة — أي حينما كانت الحديدة وتهامة بيد السيد الإدريسي– معارك كثيرة بين جنود الإمام وجنود الإدريسي، وفي أربع مرات متواليات انتصرت جنود الإدريسي على جنود الإمام ولم تمكنها من احتلال القلعة الكائنة في رأس الجبل، ولكن منذ بضع سنوات احتل الإمام الساحل وأحاط بجبل برع من الجهات الأربع، وحاصر قوة الإدريسي فقتل معظمها وفر منها القليل، ويقال أنه قتل في هذا الجبل نحو ألفين من جنود الإمام وثلاثة آلاف من جنود الإدريسي.

وبعد البحث الدقيق عن أسباب الحرب الطاحنة التي وقعت بين الإمام والادريسي مدة من الزمن، ظهر لي أن البريطانيين كانوا يحرضون الإدريسي على قتال الإمام ويمدونه بالمال والسلاح والعتاد، ويغرونه بعدم التخلي عن تهامة التي تركها الترك فراراً من جنود الإمام فاحتلها السيد الادريسي من غير مقاومة، ولا يزال البريطانيون إلى هذا اليوم يحرضون ملوك العرب وأمراءهم على التقاتل لتضعف قواهم ويصبحوا لقمة سائغة لكل أجنبي طامع!

قضينا ليلتنا في (عبال) في "مقهاية" فسيحة أعدت خصيصاً لنزولنا، وكانت مبنية من الحجر والقش، وتوجد إلى جوانبها بعض "المصاطب" ينام عليها المسافرون ويربطون حيواناتهم إلى مذاود في وسطها، وهذه "المقهاية" كغيرها من مقاهي اليمن خالية من كل شيء يقال له أثاث أو رياش، ولا يوجد فيها سوى بعض الكراسي المعمولة من قشور النباتات، وهي تشبه "الفوتيل".

وفي الصباح نهضنا مبكرين وركبنا البغال ووجهتنا (الحجيلة)، فوصلنا إليها بعد بضع ساعات، وكانت تبدو لنا طيلة الطريق مياه جارية وأشجار وأطيار كثيرة غريبة وطروش عظيمة من الماعز والبقر والغنم، و(الحجيلة) قرية صغيرة فيها دار للحكومة وعامل ومركز للجند ومركز للتلغراف، وهي واقعة في أول الجبال وبيوتها مبنية من الحجر لا من القش.

ابتداء من الحجيلة ينقسم الطريق إلى فرعين: فرع يذهب إلى (وسل) و(مناخة) وهو وعر ولا يسلكه غير البغال، وفرع يذهب عن طريق (بيت القابلي) ويقال له: "طريق القوافل" لان قوافل الجمال الذاهبة إلى صنعاء والعائدة منها تسير فيه، وهو أبعد من الأول وأسهل منه! وقد عبد منذ برهة جلالة الإمام طريقاً جديدة للسيارات عن طريق معبر فصار بالإمكان قطع المسافة بين الحديدة وصنعاء بيوم واحد، بعد ما كانت تستغرق ستة أيام على البغال.

بعد ما استرحنا من وعثاء السفر وأطعمنا بغالنا قليلاً سرنا إلى (وسل) بين الجبال والأودية، ولم يكن هنالك طريق نسير عليها لأن الأمطار والسيول جرفت الطريق وجعلتها أثراً بعد عين منذ عدة سنين، وكنا نهتدي إلى بقايا الطريق بأحد جنودنا الذي اتخذ لنفسه وظيفة دليل، وقد شاهدت في الطريق أحراجاً عظيمة وأطياراً غريبة وقردة كبيرة من نوع "البابون"، ودام طريقنا في صعود بين تلك الجبال

الوعرة بضع ساعات، ولكننا لم نشعر بطول الوقت لان وطأة الحر الشديد التي كادت تخمد أنفاسنا في تهامة خفّت هنا كثيراً، ومنظر الجبال الشاهقة وصوت تغريد الأطيار الناطقة كالدرة والببغاء كل ذلك حوّل اهتمامنا عن وعثاء الطريق إلى جمال الطبيعة فمضت الساعات دون أن نشعر بها ودون أن نعبأ بالتعب.

قضينا ليلتنا في (وسل) إلى جانب مقهاية كبيرة، ووسل قرية صغيرة، بيوتها من الحجر، وتختلف عن غيرها من البيوت التي رأيناها حتى الآن كثيراً، فهي تشبه القلاع وفي جدرانها (رمايات)[1] ونوافذها صغيرة وقليلة، بعكس نوافذ الحديدة، وسلالمها لولبية ضيقة، وهذا شأن البناء في جميع القرى الجبلية في اليمن فهي تشبه القلاع، لأن اليمانيين منذ الأزل كانوا في قتال دائم بعضهم مع بعض، ولذلك كانوا يختارون تلالاً منيعة يبنون عليها مساكنهم، ويحصنونها على الطريقة الآنفة الذكر فلو مر المرء ولو على بعد بضع مئات من الأمتار، في جانب القرية فإنه لا يكاد يتبينها، أولاً: لأنها من لون الجبل المبنية عليه، وثانيا: لأنها في الغالب تبنى في زاوية مستورة من التل لكي لا تتعرض للأبصار كثيراً، وغرف معظم منازل الجبال صغيرة وذوات منافذ قليلة، وقد قِسْتُ مرة إحدى الغرف في قرية معبر فوجدت ارتفاع بابها ثلاثة أقدام ونصف، وفي الغرفة عادة ثلاث أو اربع نوافذ صغيرة وكبيرة، أما الصغيرة فطولها سبعة قراريط، والكبيرة فطولها ثلاثة عشر قيراطاً، وعرضها ثمانية، وطول الغرفة ثلاثة عشر قدماً، وعرضها ثمانية أقدام، وارتفاع سقفها سبعة أقدام.

نهضت في (وسل) مبكراً وصعدت إلى سطح عال فشاهدت منظراً لم أر مثله في حياتي - إلا في قمة جبال الشيخ، ورأس ظهور أبو الحن في جبل سرغايا - وذلك أني وجدت نفسي أعلى من الغيم الذي كان يمر تحتي بسرعة زائدة، ورأيت حولي جبالاً عظيمة تناطح الجوزاء يعلو رأسها فوق السحاب تيهاً واستكباراً، وكان القمر يرسل أشعته الضعيفة من خلال الغيوم في الجهة الغربية فيكسبها لوناً تحار في جماله العقول، وإن هي إلا برهة من الزمن حتى ودّعتني البقية الباقية من حشاشة أنواره اللطيفة، وبزغت من الشرق أشعة الغزالة القوية الكثيفة، فأخذت تبدد جموع تلك الغيوم وتضيء الجبال والأودية والسهول فتظهر عظمة الخالق الجبار في هذه الديار.

---

(1) رمايات: فتحات صغيرة في الأسوار تسمح للحراس بالرماية بالسهام أو البنادق أثناء الحروب.

وتعلو قرية (وسل) عن سطح البحر 4410 أقدام، وقد سرنا منها عقيب طلوع الشمس، وكانت طريقنا فوق الجبال وعرة، شاهدنا في وديانها وعلى منحدراتها شجر القات وشجر البن والصبارة والياسمين البري والرياحين وأنواعاً مختلفة من الأزهار ذات الروائح العطرية الذكية، وأنواعاً كثيرة وغريبة من الأطيار وفي جملتها البلبل والعندليب والهزار.

وصلنا نحو الظهر إلى قرية صغيرة بين (وسل) و(مناخة) ويقال لها: (العتّارة)[1] فشاهدت قربها منظراً خالف الأمثال السائرة، وأثبت أنه لابد لكل قاعدة من شواذ إذ يقولون في الأمثال: "إن الصيف والشتاء لا يجتمعان على سطح واحد" وهنا شاهدت صيفاً وشتاء وخريفاً في آن واحد، رأيت حقولاً من القمح والشعير، بعضها خضراء يانعة وبعضها صفراء يابسة، وبعضها تزرع زرعاً جديداً، وقفت بالقرب من تلك القرية الجميلة، وسرّحت نظري في ذلك الوادي الصغير فاذا به آية من آيات الجمال، تظهر فيه مقدرة الإله العظيم المتعالي، فالفصل فصل الشتاء، ولكن لا برد هنالك ولا أمطار[2]، ونحن فوق جبال عالية كجبال (بلودان)[3]، هواؤها عليل، وماؤها سلسبيل، وشجرها كثير وبناؤها جميل، تنساب بين هضابها عين ماء لا تسقي من الزرع إلا القليل، ولكنها تشفي العليل وتروي الغليل.

ودّعت هذا المنظر وبودي ألاّ أودعه، وصعدنا في طريقنا إلى (مناخة)، فرأيت جبالاً مزروعة ذرة وحنطة وشعيرا، ولا يكاد الإنسان يرى فيها قطعة صغيرة صالحة للزرع لم يحولها القرويون إلى حقول زراعية، غرسوها حنطة أو شعيراً أوقاتاً أو بنا، وهذا مما يدل على أن اليمانيين منذ القدم أهل جد ونشاط، وإذا رأيناهم اليوم متأخرين عن غيرهم من الأمم فلا شك أن ذلك يعود إلى الإمبراطورية العثمانية التي أهملت شأن اليمن كما أهملت غيره من الأقطار العربية كل الإهمال، وكانت تعتبر بلاد اليمن مستعمرة حقيرة، وتعامل أهلها معاملة سيئة، ولم يكن لها همّ غير جباية الضرائب وإرسالها إلى العاصمة العثمانية إشباعاً لبطن عاهلها ورجاله.

---

(1) العتارة: بلدة وحصن في جبل (مسار) الواقع غربي (مناخة) في حراز، وهو حصن يسيطر على خط الطريق ما بين مناخة والحجيلة النازلة إلى تهامة. معجم البلدان والقبائل اليمنية 1013/2.

(2) أمطار اليمن صيفية.

(3) بلودان: من أهم مصايف سوريا في المنطقة الجنوبية، وتقع على السفح الغربي لسلسلة جبال لبنان الشرقية، شمال غرب دمشق بنحو 45كم،وتطل بلودان على سهل الزبداني، وترتفع عن سطح البحر أكثر من 1500 متر، وتحيط بها حقول الأشجار المثمرة، و تجري فيها جداول المياه طوال العام.

وإذا طاف المرء بلاد اليمن من أقصاها إلى أقصاها لا يجد للدولة العثمانية أثراً من آثار المدنية غير الحصون والقلاع وبعض المستشفيات العسكرية والأسلاك البرقية ومدرسة أو مدرستين للصناعة، وكان رجال العهد البائد في تركيا لا يرسلون إلى اليمن إلا كل مغضوب عليه من الموظفين الملكيين والعسكريين، غير ناظرين إلى المقدرة العلمية والأهلية الشخصية، فكان هؤلاء الموظفون يسيئون استعمال وظائفهم، ويرتكبون الموبقات والمحرمات، ويتناولون الهدايا والرشوات، وهذا مما أثار خواطر اليمانيين وجعلهم في احتراب دائم مع الحكومة العثمانية، ولم يتمكن الترك من صيانة الأمن في اليمن مدة حكمهم، أما اليوم فبفضل صاحب الجلالة الإمام يحيى حميد الدين ورجال حكومته الأفذاذ أصبحت بلاد اليمن من أفضل بلاد العالم أمناً، ويمكن للمرء أن يسير بمفرده في طول البلاد وعرضها فلا يعترضه أحد ولا يعتدي عليه أحد، والسر في ذلك شدة حرص الإمام على تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية الغراء على جميع من تحدِّثه نفسه بالإخلال بالأمن أو التعدي على الغير، ولا فرق عند جلالته بين الحقير والرفيع والفقير والغني؛ فالقاتل يقتل حالاً، والسارق تقطع يده بلا رحمة أو شفقة، والزاني يجلد ويشهر، وهلم جرا...

أساطير وترهات... يذيعها الأوربيون

لا خلاف ديني بين الزيود والشوافع؟

وكان رجال الدولة العثمانية في جميع أيام حكمهم لليمن يسعون إلى بذر بذور الشقاق بين أهل البلاد، فتارة كانوا يستميلون إليهم الشوافع ويضربون بهم الزيود، وتارة كانوا يستعينون ببعض الزيود لضرب الشوافع، وقد بثوا داخل بلاد اليمن وخارجها دعاية باطلة، خلاصتها أن الزيود والشوافع لا يحب بعضهم بعضاً، وأنهم يتحينون الفرص لإيقاع بعضهم ببعض، وأن هنالك اختلافاً في العقائد الدينية بينهم، ومما يؤسف له أن نجد بعض كتاب العرب في هذا الوقت يأخذون بهذه الدعاية فيكتبون عن العرب فصولاً في هذا الباب كلها أباطيل.

أنا لا أنكر أن هنالك بعض اختلافات مذهبية ثانوية بين الشوافع والزيود، ولكني لا أعيرها أية أهمية، لأنه لا شأن لها من الوجهة القومية ولا من الوجهة الدينية وإليك بعض الأمثلة:

يجوز عند الزيود تحليف اليمين للمدعي والمدعىَ عليه، ولا يجوز عندهم أن يقال آمين في نهاية قراءة فاتحة القرآن الكريم. وفي الطلاق، لا يعتبر قول الرجل لامرأته: طلقتك ثلاثاً، الاّ بمثابة قوله: طلقتك مرة واحدة، فيجب على من أراد طلاق امرأته ثلاثاً أن يعيد هذه العبارة ثلاث مرات، ولا يعترف الزيود بخليفة ما لم يكن من آل البيت، إلى غير ذلك من الاختلافات اليسيرة. والزيود: جمع (زيدي)، نسبة إلى زيد بن علي، ومذهب زيد بن علي فرع من فروع مذاهب المعتزلة، فلا يجوز والحالة هذه أن يطعن في الزيود من الوجهة الدينية، وما من عاقل من المسلمين يجرؤ على الطعن في مذهب زيد بن علي، وقد قال أحد الأدباء الذين زاروا اليمن في كتاب كتبه عن رحلته: إن حكم الإمام يحيى في اليمن حكم زيدي لا حكم عربي، وإن الشوافع ليسوا راضين عنه وانهم محرومون من الوظائف، وهذه الأقوال مبالغ فيها كثيرا، فجلالة الإمام يحكم جميع البلاد على السواء ولا يفرق بين حقوق رعيته لاختلاف مذهبهم أو دينهم، وهو لا يحترم الشوافع فقط، بل يحترم اليهود أيضاً الذين هم أقلية ضئيلة ويعاملهم كمعاملة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم في صدر الإسلام لأهل الذمة، وأما الشوافع فهو يحترمهم كثيراً، ويعتمد على بعض كبار رجالهم وقد عين منهم الكثيرين في وظائف مختلفة، فالمزجاجي[1] من الشوافع وهو عامل الإمام في (اللحية) وأخوه عبد الله عامل في (زبيد) ومحمد باسلامة[2] عامل (إب)[3] وهو أيضاً من الشوافع، ومأمور خزينة الإمام من الشوافع واسمه الحاج لطف، كما أن كثيرين من أئمة الجوامع هم من الشوافع، والمثال على ذلك الشيخ طاهر إمام جامع (بئر العزب) في صنعاء، وجميع من ذكرت هم من الموظفين الكبار، وأما الموظفون الصغار من الشوافع المستخدمون في اليمن لا يحصى عددهم، كما أن وزير خارجية الإمام القاضي محمد راغب[4] هو من الشوافع أيضا، وينسب إلى أصل تركي.

---

(1) المزجاجي: لم أهتد إلى اسمه لشحة المصادر اليمنية لدي أثناء تحقيق الكتاب في (أبو ظبي)، وآل المزجاجي نسبة إلى بلدة (المزجاجة) القريبة من زبيد، وهم من البيوت المشهورة بالعلماء في تهامة. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 707/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1405/2

(2) محمد باسلامة: كذا ورد في المطبوع، والصواب: إسماعيل بن محمد باسلامة، سيذكره المؤلف عند ذكر رحلته إلى إب.

(3) في ط: آب، بالمد، والصواب: إب، بالكسر، سيأتي وصفها بالتفصيل في هذه الرحلة.

(4) هو محمد راغب بن توفيق راغب بك، سياسي، وإداري، ودبلوماسي محنك، تركي الأصل، ولد في استانبول في أسرة ميسورة الحال أتاحت له فرص التعليم في المدارس الحديثة، فأجاد اللغة العربية وبعض اللغات الأوربية، عمل في السلك الدبلوماسي العثماني في فيينا وبطرسبورج (روسيا)، وعينته

ويجدر بالذكر هنا أن معظم الكتاب الذين كتبوا عن اليمن عقيب الحرب العامة لا تخلو كتاباتهم من الدعايات والأغراض، وذلك لأن بعض الدول الأجنبية أخذت تتزاحم على هذه البلاد، ولا تمر سنة إلا ونجد في صنعاء مندوبين كثيرين أوفدتهم دول مختلفة أو شركات أجنبية لمفاوضة جلالة الإمام في بعض الشؤون السياسية والاقتصادية، وقد اتفق أنني عندما زرت صنعاء في إحدى رحلاتي المتعددة كانت فيها وفود ألمانية وأميركية وإيطالية وبريطانية وروسية، وبكل أسف أقول: أن هذه الدول وتلك الشركات وجدت لنفسها خارج بلاد اليمن بعض الدعاة المأجورين الذين أخذوا يكتبون عن اليمن أشياء كثيرة تسويدا لصفحته، ومعظم هذه الأشياء افتراء واختلاق.

عفواً أيها القارئ الكريم لقد شططت بك عن سبيل الرحلة وطرقت أبواباً سياسية وذلك لتكون على بينة مما يحاك للبلاد العربية المستقلة من الدسائس الأجنبية لتمزيقها والاستيلاء عليها.

هؤلاء يهود من أهل الذمة

يطيلون سوالفهم ويحللون الخمر ولا يحملون السلاح

ويحظر عليهم أن يركبوا الخيل لأنها علامة الفروسية!!

وفي الطريق ظهرت لنا (مناخة)[1]، وهي تشبه صهوة الفرس من حيث شكل بنائها، ولما وصلنا إليها ذهبنا تواً إلى دار الحكومة فوجدنا العامل وثلّة من الجند في

الإدارة العثمانية في اليمن متصرفا بلواء الحديدة، ولما انسحب الجيش التركي من اليمن بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى، كان ممن اختار البقاء في اليمن، وعمل مع الإمام يحيى حميد الدين، مستشارا له ووزيرا للخاجية طيلة حكم الإمام يحي، تقاعد عن العمل بعد مقتل الإمام يحيى سنة 1948م، واليه يرجع الفضل في حث الإمام يحيى على إقامة بعض العلاقات الخارجية، توفي سنة 1378هـ/1958م. انظر: الموسوعة اليمنية 2/1372-1373، وسيذكره المؤلف لقاؤه به في رحلته هذه.

(1) مدينة مناخة في منتصف الطريق تقريبا بين صنعاء والحديدة، وتقع غرب صنعاء مع ميل نحو الجنوب، وتبعد عنها زهاء 120كم، وتقع مناخة في رأس جبل حراز، وترتفع عن سطح البحر نحو 2500متر، على خط الطول43/43، وخط العرض15/03، وموقعها في أعلى قمة الجبل، وتشبه صهوة الفرس- كما قال المؤلف -وسفوح جبالها شديدة الإنحدار، وتشرف من جميع أنحائها على أودية عميقة، وهي مركز مديرة مناخة من أعمال محافظة صنعاء، وكانت في التقسيم الإداري السابق مركز قضاء حراز. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 1/253-255، 2/719، معجم البلدان والقبائل اليمنية 2/1636.

انتظارنا وقد أُعدت لنا في (السراي) نفسها غرف للاستراحة والنوم، ولكن رغبتنا في رؤية البلدة، حملتنا على تقصير مدة الاستراحة، فما كدنا نستريح قليلاً، حتى خرجنا لمشاهدة البلد.

تبعنا في الطريق جم غفير من الرجال والأولاد[1]، وقد لاحظت أن بينهم أشخاصاً يختلفون عن غيرهم، سواء بالسوالف الطويلة، أو بالألبسة و(الجنبيات)[2] —أي الخناجر— وبينما كنت أشاهد أهل تهامة وأهل القرى التي مررت بها في أول الجبال يلبسون عمائم مختلفة، وجدت هنا جماعة يلبسون عمائم وغيرهم يلبسون (لبدا) بعضهم لف عليها قطعاً من القماش، ولا يشدون إلى وسطهم كغيرهم من أهل البلاد (الجنبيات) أي المدي، ولا يحملون عتاداً ولا سلاحاً، فسألت عنهم، فقيل لي: هؤلاء يهود من أهل الذمة، فقلت: ولماذا يرخون سوالفهم ولا يحملون سلاحاً؟ فقيل لي: أمّا إطلاق السوالف فعادة من عاداتهم، وأما حمل السلاح فمحظور عليهم من قبل الحكومة، ومحظور عليهم أيضاً ركوب الجمال والخيل، لأنها علامة الفروسية ولكن يسمح لهم بركوب البغال والحمير، بشرط أنهم إذا قابلوا أحداً من السادة ينزلون عنها احتراماً لهم وتعظيماً.

طفتُ أسواق البلد فوجدتها ضيقة وحقيرة، وشاهدت في مخازنها كثيراً من الأقمشة والتبغ والتنباك والخردوات الأوربية، وأكثرها من مصنوعات ألمانيا، وكميات وافرة من السكاكر والحلوى والفواكه، وصلت إلى طرف البلد الشمالي الشرقي فوجدته في عزلة عن البلد، وتختلف هندسة أبنيته عن غيرها من الأبنية، وهي أصغر منها وأحقر، فسألت عن هذا الحي الحقير، فقيل لي: هذا هو حي اليهود وقد شاهدت فيه كثيراً من السيدات والأولاد، فرأيت ألبستهم تختلف عن ألبسة أولاد المسلمين ونسائهم، فالسيدات اليهوديات يسدلن على رؤوسهن نقاباً أسود، ويلبسن

---

(1) كانت عادة تجمهر الصبية والأولاد الصغار وراء الزائر الأجنبي في القرى والمناطق النائية بسبب قلة الغرباء الذين يصلون إليها، سواء أكانوا عربا أم أجانب، وندرة حدوث مثل هذه الزيارات إلى تلك المناطق، وخاصة إذا كان الزائر يلبس زيا غريبا غير مألوف لديهم، وهذا ماحصل مع المؤلف في أكثر من منطقة زارها.

(2) الجنبيات: جمع جَنْبية، وهو جمع قلة، وتجمع على جنابي، والجَنْبية: هي الجنجر اليمني المعروف، وتطلق التسمية على الخنجر ونصله ومقبضه وحزامه..إلخ، والجنبية جزء مكمل للباس اليمني التقليدي، وهي أيضا هي سلاح للدفاع عن النفس في الأوقات الحرجة، وتتعدد أشكالها وأنماطها بتعدد المناطق وتفاوت الطبقات الإجتماعية، فكل منطقة وفئة إجتماعية كان لها شكل مميز من الجنابي يميزها عن غيرها، ويحدد قيمة أو ثمن الجنبية رأسها (مقبضها)، ونصلها، ومدى نقاوته وصفائه، بالإضافة إلى قدمها. انظر لمزيد من التفاصيل: مادة (الجنبية) في الموسوعة اليمنية 2/904-910

فوق هذا النقاب قبعة (مزركشة) بالقصب والفضة، وتبقى وجوههن سافرة، بينما المسلمات القرويات وحدهن سافرات، وأما المسلمات في المدن فيضعن حجاباً يستر رؤوسهن وعيونهن ووجوههن، وتنسدل أطرافه حتى الكواهل فلا يظهر منهم شيء محرم أو محلل، وقد لاحظت أن اليهوديات القرويات تختلف هيأتهن كثيراً عن هيئة السيدات المسلمات، وذلك لاختلاطهن بغير جنسهن أيام الدولة العثمانية.

أردت أن أصور ولداً يهودياً فغضب أحد أولاد المسلمين الذي كان مرافقاً لموكبي المختلط وشتم اليهودي بقوله له: أذهب يا خبيث، يا شارب الخمر! فغضب اليهودي لهذه الإهانة، وقال لرفيقه المسلم: تعال معي نذهب إلى العامل فأشكوك إليه، وهذا الغريب — وأشار إلي— يشهد عليك، وإذا كنتَ شجاعاً حقاً فاعترف أمامه بهذه الشتيمة! فلم يجسر الولد المسلم أن ينبس ببنت شفة، أمام هذا التهديد لأن قانون اليمن الخاص بمعاملة أهل الذمة صارم جداً. فكل من يشتم ذمياً أو يعتدي عليه يسجن ويغرم بتقديم ذبيحة أما بقرة أو جمل أو نعجة لتذبح وتوزع على الفقراء. ويا حبذا لو كان اليهود الصهيونيون الذين أمُّوا فلسطين يتخذون من هذه المعاملة درساً وعظة.

ويوجد لليهود في مناخة كنيس خاص، ولهم أيضاً مدارس خاصة، وهم يمارسون صلاتهم وعباداتهم على الطريقة التي يريدونها، ويعلمون أولادهم وبناتهم في مدارسهم كما يشاءون لا وفقاً لبرامج الحكومة المحلية. وتوجد في كل معبد من معابدهم توراة قديمة مكتوبة على رق الغزال باللغة العبرية، وعندهم أيضاً بعض كتب التوراة من مطبوعات النمسا أرسلتها لهم الجمعيات الصهيونية من الخارج، ولقد سألت كثيرين من اليهود الذين قابلتهم في اليمن هل هم مسرورون من معاملة المسلمين لهم أم لا؟ فأجابني الجميع انهم مسرورن جداً، وانهم يتمتعون بحقوق لا يتمتع بها المسلمون أنفسهم، فهم لا يدفعون ضرائب ولا أعشاراً ولا فطرة ولا رسوماً بل يدفعون الجزية وهي شيء زهيد بالنسبة إلى ما يدفعه المكلف المسلم إلى حكومته من أنواع الضرائب المختلفة، وجميع الصناعات اليدوية في أيديهم، فترى النجار والحداد والصائغ والبناء والمعمار والتاجر والصيرفي الخ منهم، وهم يصنعون الخمر ويشربونها فلا تمنعهم الحكومة، ولكنها لا تأذن لهم أن يبيعوها للمسلمين.

اليماني يجوع في سبيل "القات"

مجلس القات، كيف يمضغونه، وما هي لذته؟

عدت من طوافي في البلد، وذهبت إلى دار العامل لأرد له الزيارة فوجدت عند باب داره بعض الجنود، فطلبت إلى أحدهم أن يبلغه أني بالباب أريد زيارته، وما هي إلا لحظة حتى عاد الجندي قائلاً: تفضل! فدخلت خلفه، إلى ردهة كبيرة ولكنها مظلمة لفقدان النوافذ فيها! ولشدة النور في خارجها وضعفه في داخلها صرت أتخبط في الظلام لا أعرف طريقي، فقادني الجندي كما يقود صحيح البصر الأعمى إلى درج لولبي ضيق يشبه درج المآذن عندنا، فصعدته بعناء إلى أن وصلت إلى الدور الثالث، وهنالك كانت بعض الأشعة تبعث من نوافذ صغيرة، ورأيت باباً كبيراً مقفلاً فقرعه الجندي فما لبث أن فُتح فدخلته، فوجدت حضرة العامل وحوله بعض كبار الموظفين في الحكومة ووجوه البلد، وكانوا جالسين على طنافس صغيرة مفروشة بسجاد عجمي، وجميعهم يدخنون (الأركيلة) ويمضغون القات[1]، فقلت: السلام عليكم، فأجاب الجميع: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ونهضوا على الأقدام، وتقدم العامل إلي وصافحني مرحباً بي ترحيباً جميلاً وأجلسني إلى جانبه، وقال: أرجو غض النظر عن استقبالك هنا "أي في هذه الغرفة الصغيرة" فنحن بمجلس القات! فقلت: إني مسرور جداً بأن أشاهد القات ومجلسه، فقدم لي حضرته رزمة من القات وقال: (هَيّا كُلْ!) وهم يقولون: أكل القات وخزَّنه بمعنى مضغه، فشكرته على هديته وأخذت بضع أوراق من هذا النبات العجيب ووضعتها بفمي وأخذت أمضغها فوجدت فيها طعماً غريباً لم أذق مثله في حياتي، ولكني لم أجد فيه لذة ما، بل بالعكس نفرت منه نفسي.

سرّحت طرفي في تلك الغرفة الصغيرة، فرأيت فيها أربع نوافذ جميعها مقفلة، وفي وسطها إناء (صدر) كبير من النحاس الأصفر وضعت عليه الأراكيل، وتصنع الأراكيل في الغالب من النحاس، ويُعنون بها عناية عظيمة ويسمونها (مَدَاعة) ولها عندهم أسماء متعددة، منها: المِدْعِي (بكسر الميم والعين) و(المزة)، وتصنع من الفخار و(الفرشي) وتصنع من الحديد، والكُركُر (بضم الكافين) إلى غير ذلك من

---

(1) يلفظون "القاف" كالجيم المصرية (المؤلف)

الأسماء الغريبة وأما (النربيش)[1] المستعمل في اليمن فيبلغ طوله نحو أربعة أمتار، وله غلاف من الحرير المزركش يباهي صاحبه به ويبرهن عن مقدار ذوقه في اختيار الألوان الجميلة، وكان الدخان في غرفة العامل يتصاعد من هذه الأراكيل بكثرة وقد فسد هواء الغرفة من النفس المحصور ودخان الاراكيل، فشعرت بانقباض في صدري، فسألت العامل لماذا لا تفتحون هذه النوافذ فيتغير هواء الغرفة؟ فقال: من البرد، إننا نخشى البرد كثيراً، وجبالنا كما تراها باردة، والبرد مضر بالصحة، وأردف قائلاً: وهل عندكم في بلادكم برد كبردنا؟، فقلت: نعم إن بلادنا أبرد من بلادكم كثيراً، وفي الشتاء تهطل الثلوج على جبالها مراراً، ومع ذلك فنحن نفتح نوافذ بيوتنا كل يوم أكثر من مرة لتغيير هوائها. فقال حضرته: إن برد اليمن مضر، فإذا تعرض له الإنسان فلا شك أنه يمرض فوراً. فسكتُّ لهذا الجواب بالرغم من عدم قناعتي به، وحولت نظري إلى بعض الجلوس فرأيتهم منهمكين بمضغ القات وأمام كل واحدة منهم رزمة كبيرة، وإلى جانب إبريق فخاري ومبصقة فضية، أما الإبريق فيستعمله ماضغ القات لغرغرة[2] فمه بين حين وآخر، وأما المبصقة فيستعملها للبصاق ولطرح بقية أوراق القات التي يمضغها والتي لا يبلعها بل يمص ماءها ثم يطرحها من فمه في المبصقة. ويدوم مجلس القات من بعد الغذاء ظهراً حتى المساء.

والقات نبات غريب فيه مادة مخدرة ويقال له بالإنكليزية (كاتا اديوس) أو (فورسكالي)، ومن خصائصه أنه يؤثر في الأعصاب فيخدرها فيشعر المرء ببسط وانشراح. ويقول الأطباء أنه مضر بالصحة كثيراً لأنه يقلل من شهية الإنسان للطعام، ويزيد فيه الميل إلى شرب الماء ويضر بالأسنان ويسودها، وبالمعدة فيقلل من عصيرها، وبالنسل فيضعفه. وبالرغم من جميع هذه المضار، وبالرغم من علم أهل اليمن بها فهم يمتدحونه، وينشدون القصائد بمزاياه، ويستعملونه بأجمعهم، ما عدا صاحب الجلالة الإمام يحيى فقد منعه طبيبة الخاص عن استعماله منذ عدة سنوات، ولا يزال جلالته ممتنعاً عنه إلى هذا اليوم.

---

(1) النربيش: هي القصبة أو الأنبوب الموصل للدخان بين النارجيلة (المداعة) وبين فم المدخن، ومن خلالها يسطيع جر الدخان بالشهيق من المداعة إلى فم المدخن ورئته.

(2) قلت: إبريق الفخار يستخدم كإناء للماء المستخدم للشرب أثناء جلسة المقيل وتناول القات، ولاتكون الغرغرة (المضمضة) بالماء إلا في ختام المجلس بعد إخرج القات من الفم لتنظيفه من بقايا القات في الفم.

وبكل أسف أقول: إن اليمانيين يضيعون ثروتهم ووقتهم في القات، لا فرق في ذلك بين سيد ومسود وغني وصعلوك، وتجد الصانع الذي يشتغل كل نهاره بفرنك واحد ينفق معظمه على القات، ويهتم للحصول عليه أكثر من اهتمامه للحصول على قوته الضروري، وقد سمعت الكثيرين يقولون: أنهم يفضلونه على الطعام والشراب.

ويغرس شجر القات كما يغرس البن في الأودية المرتفعة التي لا تتعرض لحرارة الشمس الحادة إلا بضع ساعات في اليوم، وتوجد منه أنواع مختلفة، تختلف أسماؤها باختلاف المكان الذي ترد منه وتغرس فيه، فهنالك قات الوادي، والقات التعزى والبرعي، والريمي، نسبة إلى قرى الوادي، وتعز، وبرع، وريمة، ويشبه القات بعض الشبه الحور الصغير عندنا، ويبلغ طول شجرته أحياناً خمسة أمتار، ويمتاز بعض الأنواع عن بعضها بالحلاوة والطول. والقات أثمن وأغلى نبات في اليمن، وتساوي الرزمة الصغيرة من غصونه نحو ثلاثة فرنكات، ومن ألطف ما سمعت عن القات أن اللصوص أيام الدولة العثمانية كانوا يتعرضون للقوافل وينبهونها، ولكنهم كانوا دوماً يسمحون لتجار القات أن يمروا في طريقهم دون أن يتعرضوا لهم بأذى.

جلست في مجلس القات نحو ربع ساعة كدت أفقد فيها صوابي لشدة الدخان واحتباس الهواء، وأخيراً استأذنت العامل بالانصراف، فأذن لي بعد أن استوضحني عن راحتنا وعن ما أكلنا ومشربنا، وهل نحن في حاجة إلى أي مساعدة؟ فقلت: إننا والحمد لله على غاية ما يرام وعدت إلى السراي.

ثورة الزرانيق على اليمن

أولاد الأمراء والوجوه رهائن عند الإمام

رأيت من نافذة غرفتي في السراي صبية يلعبون في صحن دار متسعة ظننتها لأول وهلة مدرسة، ولكن سرعان ما تبدل هذا الظن إذ رأيت بالقرب منهم جندياً حاملاً بندقيته، وواقفاً لحراستهم، وقد دهشت لهذا المشهد الغريب، وسألت البعض عن أمر هؤلاء الصبية، فقيل لي: هؤلاء من الرهائن!

وقد اعتاد أئمة اليمن وغيرهم من أمراء العرب وملوكهم في العصور الأولى أن يحكموا البلاد على طريقة الرهائن، فكانوا يأخذون ممن يولونه الحكم في صقع من الأصقاع ولداً من أولاده أو أخاً من اخوته فيحفظونه عندهم رهينة لكي يأمنوا شر ذلك الحاكم أو العامل فلا يقدم على العصيان أو التمرد إذا قويت شوكته وعظمت دولته، حفظاً لحياة ابنه أو أخيه، ويأخذون أيضاً الرهائن من معظم وجوه البلاد النائية وشيوخها ليأمنوا شرهم، وقد عاب البعض على جلالة الإمام هذا النوع من الحكم ونعتوه (بالدمل)، ولكنهم لو أنصفوا لعذروه عليه، لأن بلاد اليمن بقيت في حكم الدولة العثمانية 400 سنة وهي في فوضى دائمة، القوي يأكل الضعيف، والناس في حرب مستمرة بعضهم مع بعض، وهم بطبيعتهم ميالون إلى الغزو فلا يستطيع الحاكم أن يخضد شوكتهم إلا بشيء من الإرهاب والشدة، وطريقة الرهائن هي من جملة الطرق التي استعملها الإمام حتى قضى على الفوضى في البلاد، وهي معروفة عند الغربيين ومستعملة عندهم إلى هذا اليوم ويسمونها "بالإقامة الإجبارية[1] — ريزيدانس فورسيه".

مدير المال

قابلت في (مناخة) مدير المال، فسألته عن واردات قضائه[2]؟ فقال: إن مناخة مركز لقضاء (حراز) وهذا القضاء من أغنى أقضية اليمن وأكبرها، وفيه شيء كثير من البن والقات وخصوصاً في الجبل القريب المدعو (صعفان)[3] وقال: إن عائداته تبلغ في السنة 30.000 ألف ريال نمساوي، أي ثلاثة آلاف جنية إنكليزي، ويقصدون

---

(1) الإقامة الجبرية: ليس لها علاقة بنظام الرهائن على الإطلاق، فالإقامة الجبرية: هي إجبار شخص على الإقامة في منزله، لتحد من حريته في التنقل، وقد تفرض عليه المراقبة والحراسة إذا كانت السلطة تخشى خطره، أما الرهائن فكانوا يؤخذون من زعماء القبائل ويوضعون في السجون لضمان ولاء وطاعة هؤلاء الزعماء للنظام.

(2) كانت مناخة مركز قضاء حراز، كما أشرنا سابقا.

(3) صعفان: جبل مشهور يقع في الجهة الغربية من (مدينة مناخة) ويبعد عن جبل مسار بمسافة 8 كم، على خط الطول 43/33، وخط العرض 15/11، ويرتفع عن سطح البحر نحو 3000متر، وهو يشكل مديرية من أعمال صنعاء، ومركزها حصن متوح، ويضم الحصن عدداً من المنازل القديمة قوام بنائها الأحجار المهندمة، ويحيط به سور تتخلله الأبراج الدائرية الشكل، ويمكن الوصول إلى الحصن عبر طريق مرصوفة بالأحجار تؤدي إلى البوابة الوحيدة للحصن الذي يطل على قرى وحصون مديرية صعفان، وعلى المدرجات الزراعية الجميلة التي تشتهر بزراعة البن. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 254/1، معجم البلدان والقبائل اليمنية 910/1.

بالعائدات واردات الجمارك، وأما بقية الضرائب فتبلغ ألوفاً متعددة من الريالات تختلف في بعض السنين بحسب جودة الموسم وكثرة الأمطار أو قلتها. وتستوفي الضرائب عينا أو بدلاً، ومنها الأعشار والزكاة و(الويركو)[1]. وجميع البضائع التي تدخل مناخة يستوفون عنها اثنين ونصفاً بالمائة ضريبة جمركية، هذا إذا لم تكن مرسلة (ترانزيت) إلى صنعاء.

أطلعت على دفتر حسابات مدير المال فإذا به من دفاتر الترك القديمة، ويقيد حضرته حساباته فيه من دخل وخرج بالعملة الفضية والعملة الذهبية، ولم تعن حكومة اليمن إلى هذا اليوم بطبع أوراق خاصة بمعاملاتها وهي لا تزال تستعمل دفاتر الدولة العثمانية وأوراقها.

جبل صعفان

جبل صعفان جبل مشهور بالقرب من مناخة، وهو غني ببنه وقاته وموزه، وغير ذلك من الأثمار والنباتات، وقد تنازعه الإمام يحيى والإدريسي عقب الحرب العامة[2]، ووقعت فيه معارك كثيرة، وقد حدثني البعض عن هذه المعارك قال: احتل الادريسي هذا الجبل عندما انسحبت جيوش الدولة العثمانية من اليمن، وجرت فيه معارك تشيب من هولها الأطفال، وخاصة في إحدى قراه الغنية التي يقال لها قرية (الجراح)، وكان النصر تارة للزيود وطوراً للشوافع، وقد تجلى هاهنا مقدار تأثير طبيعة الأراضي في المحاربين، فالزيود رجال الإمام من أهل الجبل، والشوافع من أهل السهول، فكان النصر في الجبال دائماً حليف الزيود، وكان النصر في تهامة غالباً حليف الشوافع.

وقد أدرك كل من الفريقين المتحاربين نقطة الضعف في خصمه، فكان الزيود أحياناً يتقهقرون أمام الشوافع في أسفل جبل صعفان، ويفسحون لهم المجال للتوغل فيه، ثم يحملون عليهم ويقتلونهم على بكرة أبيهم، وهكذا كان الحال مع الشوافع فكثيراً ما أفسحوا المجال للزيود في تهامة وتغاضوا عنهم إلى وقت الظهر، أي إلى وقت

(1) الويركو: لفظة تركية، وهي نوع من الضرائب العقارية التي فرضتها الدولة العثمانية منذ سنة 1839م، فرضت على أملاك الأفراد من أراض زراعية أو أبنية، ويبدو أن الإمام يحيى أبقى على هذه الضريبة في المناطق التي كانت تحت سيطرة العثمانيين.

(2) يقصد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

اشتداد الحر، عندئذ يهاجمونهم، وفي أغلب الأحيان ينتصرون عليهم، وبديهي أن أهل الجبال قد ألفوا اعتدال الهواء والماء، وليس بمقدرتهم أن يتحملوا شدة حرارة تهامة كما يتحملها أهلها الذي شبوا وشابوا فيها، ولذلك طال الحرب بين جنود الإمام وجنود الادريسي وكان النصر بينهما سجالاً ولكن في نهاية الامر تغلب رجال الإمام على رجال الادريسي، ومزقوهم شر ممزق، واستولوا على باجل والحديدة وجميع تهامة إلى حدود إمارة الادريسي في عسير.

ثورة الزرانيق واحتلال الإنكليز للضالع وقعطبة

ولما كان الشيء بالشيء يذكر، ما دمنا أتينا آنفاً على بيان حروب الإمام والإدريسي فلا بأس من أن نذكر شيئاً عن ثورة الزرانيق، تلك الثورة العظيمة التي قتل فيها ألوف كثيرة من المسلمين الأبرياء في سبيل المطامع الأجنبية، وقد وقعت هذه الثورة سنة 1929، وصادف أني كنت في تلك السنة في اليمن، وقد شاهدت الجنود المتوكلية تساق لمقاتلتها من كل حدب وصوب.

تقطن قبيلة الزرانيق[1] في تهامة ما بين الحديدية وزبيد، وأهم مدنها (بيت الفقيه)[2]، ويقال أن عدد نفوسها يبلغ نحو 90.000 جميعهم من الشوافع، ولم تستطع الدولة العثمانية كل مدة إقامتها باليمن إخْضاع هذه القبيلة لشدة بأسها

---

(1) سبق التعريف بالزرانيق.

(2) مدينة بيت الفقيه: من أهم مدن تهامة، ما بين زبيد والحديدة، وتقع على بعد نحو 60 كيلومتر في الجنوب الشرقي من مدينة الحديدة في منتصف المسافة تقريباً بين ساحل البحر الأحمر وحواز ريمة، سميت المدينة باسم الفقيه "أحمد بن موسى بن عجيل" (ت 690 هـ) الذي قام باختطاطها في (منتصف القرن السابع الهجري)، فسميت في أول الأمر " بيت الفقيه ابن عجيل " تميزاً لها عن القرية " بيت الفقيه ابن حشيبر " المجاورة لمدينة الزيدية، وبعد اندثار قرية " بيت الفقيه ابن حشيبر " أصبح يطلق عليها مدينة " بيت الفقيه " واشتهرت بهذه التسمية، وكانت في أول الأمر عبارة عن بيت ومسجد بناهما الفقيه المذكور في منطقة تسمى " كثيب شوكة " – وهو عبارة عن كثبان رملية مترامية الأطراف ذات طابع صحراوي تكثر فيها الأشجار الشوكية . فجاء الناس وسكنوا إلى جوار بيت الفقيه " ابن عجيل "، فاكتسبت المدينة لذلك ومُنذ تأسيسها أهمية دينية وعلمية باعتبارها مركز إشعاع يتوافد إليه طلاب العلم، فأخذ المكان يتسع بسكانه إلى أن توفى الفقيه رحمه الله سنة (690 هـ) وقبر في مسجده الذي بناه بالقرية، فنمت مدينة بيت الفقيه حول ضريحه الذي كان ولا يزال مزاراً للعديد من سكان تهامة، وتعتبر مدينة بيت الفقيه أحد أهم معاقل قبيلة الزرانيق وعاصمتهم الثقافية والروحية والاقتصادية. انظر: السلوك في طبقات العلماء والملوك للقاضي بهاء الدين الجندي، تحقيق محمد بن علي الأكوع، صنعاء: مكتبة الإرشاد (1993م)، 1/415–423، مجموع بلدان اليمن وقبائلها 2/636–638، معجم البلدان والقبائل اليمنية 2/1221–1222.

ومراسها، وكانت كثيراً ما تضطر إلى التساهل معها بشأن تعديها على القوافل والمسافرين، وتقدم لكبار شيوخها المال والهدايا باسم الأخوة والصداقة، ولما استولى جلالة الإمام على تهامة والحديدة ترك هذه القبيلة وشأنها ولم يتعرض لها بخير أو بشر، وهي بدورها حافظت عدة سنوات على السكينة التامة، ولم تعتد على القوافل ولا على المسافرين، ولكن لما وقعت الواقعة بين جلالة الإمام وجيرانه البريطانيين واختلفوا على حدود ولاية عدن المحمية، وادعى البريطانيون أن الضالع وقعطبة وغيرهما من البلاد الواقعة إلى جنوب اليمن، والتي هي بيد جلالة الإمام هي ضمن الأراضي التي وافق الترك على ضمها لنواحي عدن التسع المحمية بموجب معاهدة، فطلبوا من الإمام التنازل عنها، فرفض الإمام ذلك الطلب، لان هذه البلاد في عرف جلالته وعرف حكومته جزء لا يتجزأ من اليمن، وبناء على تمسكه ورفضه التسليم بما ادعى الإنكليز هاجموه بطيارتهم وجيوشهم على حين غرة، وانتزعوا هذه البلاد منه وأخذوها عنوة، والسر في أخذهم لها هو أنها غنية بالمعادن كالزئبق والرصاص، وهواؤها عليل، ومناخها جيد، وهم يريدون أن يبنوا فيها مستشفى لجيوشهم المحتلة لعدن، ويتخذونها مصيفاً لهم ولعائلاتهم القاطنة في عدن، وقد أتموا تعبيد طريق بينها وبين عدن حالما استولوا عليها.

وفي نفس الوقت الذي هاجم فيه الإنكليز جنوب اليمن، قدَّم الشيخ أحمد الفتيني كبير شيوخ قبيلة الزرانيق إلى جمعية الأمم احتجاجاً على استيلاء جلالة الإمام يحيى على تهامة والحديدة، بدعوى أن هذه البلاد جزء متمم لأملاك الزرانيق، ويقول بعض العارفين: أن هنالك علاقة بين هجوم البريطانيين على اليمن وبين حركة الزرانيق، والله أعلم.

وقد أخذت عصابات من الزرانيق تسلب وتنهب على الطرقات في رابعة النهار، وبلغ من جرأتهم أن هاجموا مخفراً من مخافر جند الإمام في جنوب الحديدة وقتلوا جنديين من جنوده، فغضب جلالة الإمام من تصرفات الزرانيق غضباً شديداً وأرسل حملة بقيادة أحد السادة للتنكيل بالعصاة، فاجتمع شيوخهم بالسيد المشار إليه ومكروا به ووعدوه بتسليم العصاة والمجرمين ودعوه إلى مكان قريب من (بيت الفقيه) وهناك غدروا به وبجنوده وقتلوهم شر قتلة.

لم يطق جلالة الإمام صبراً على هذه الخيانة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ العرب، فانتدب ولي عهده صاحب السمو أحمد سيف الإسلام لتأديبهم والاستيلاء

على بلادهم، فسار سموه على رأس قوة كبيرة من مركزه في (حجة)[1] في طريقه إلى بلاد الزرانيق، ومر بالحديدة ولكنه لم يدخلها إذ بلغه أن الأهلين قد أقاموا له الزينات واستعدوا لاستقباله له استعداداً فخماً، وكان جوابه لهم إنه من العار علينا أن نقوم بمثل هذه التظاهرات وننام على الفرش الوثيرة والى جانبنا عدونا يعيث في الأرض فساداً ويسلب راحة الأهلين ويعتدي على أرواحهم وحلالهم، ومن المشهور عن سموه شدة ديمقراطيته، وعلو همته، وعظيم بسالته وشجاعته، وميله وعطفه على المظلوم وكرهه للظالم، وهو ربع القامة حنطي اللون ذو عينين سوداوين تتقدان ذكاء ونشاطاً، محبوب من جنده ومن الطبقة العامة حباً جماً، ولكنه محسود... يحسده بعض الخاصة لبروز هذه الصفات الكريمة فيه، إذا رآه المرء في معسكره راكباً أو جالساً فلا يفرّق بينه وبين أي جندي من جنوده لأنه يلبس لباسهم ويأكل طعامهم ويتزيا بزيهم، سار سموه إلى بلاد الزرانيق فاحتل بلاد (المراوعة)[2] و(الدريهمة)[3] بعد مصادمات عنيفة، وشعر بأن الزرانيق متصلون بأكثر من واحدة من الدول العظمى عن طريق البحر، وأنهم يجلبون منها العتاد والسلاح، فأدرك للحال خطورة الموقف وبدلاً من أن يوجه أفكاره نحو داخلية البلاد استولى أولاً على شواطئها البحرية فاحتل الجاح[4]

---

(1) مدينة حَجَّة: بفتح الحاء وتشديد الجيم، مدينة جميلة، مركز محافظة حجة، وتقع شمال غرب العاصمة صنعاء على بعد حوالي 127 كم، تنسب إلى " حجة بن أسلم بن علي بن زيد بن جشم بن حاشد "، وتشتهر بقلاعها الحصينة المطلة عليها مثل قلعة القاهرة، الواقعة وسط المدينة على رأس جبل صغير مطل على مركز المحافظة، وحصن نَعْمَان الواقع على ربوة جنوب حجة، وقلعة الجاهلي في الشمال الغربي من المدينة، وترتفع مدينة حجّة عن سطح البحر الأحمر نحو 1900 متر، وتطل غرباً على مناطق السهل الساحلي (تهامة). انظر: معجم البلدان: (حجة)، مجموع بلدان اليمن وقبائلها 242/1-246، معجم البلدان والقبائل اليمنية 423/1-425، الموسوعة اليمنية 994/2.

(2) مدينة المراوعة: مدينة عامرة بوادي سهام، من أعمال محافظة الحديدة، وتقع شرق مدينة الحديدة على بعد حوالي 30 كم، على خط الطريق الرئيسي بين الحديدة وصنعاء، ازدهرت في القرن الثالث الهجري بعد اندثار مدينة الكدراء التاريخية، كما أنها اشتهرت كمعقل للعلوم الدينية وخاصة في عهد دولة بني رسول والدولة الطاهرية. انظر: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية 103/1، السلوك في طبقات العلماء والملوك 384/1، 361/2، مجموع بلدان اليمن وقبائلها 638/2، 704،، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1482/2.

(3) الدريهمة: كذا كتبها المؤلف، والصواب: الدريهمي: تصغير درهم، وهي مدينة تهامية عامرة، تقع في وادي رِمَانْ . بكسر الراء وفتح الميم وسكون النون . بالقرب من ساحل البحر الأحمر في الجنوب من مدينة الحديدة، ومن أعمالها، وتبعد عنها نحو 20 كيلومتر، وشمال غرب بيت الفقيه بنحو 35كم، اختطاطها السيد " علي بن أحمد بن يحيى بن إبراهيم بن محمد بن عمر بن علي بن أبي بكر بن علي الأهدل " المتوفى عام (815 هجرية). مجموع بلدان اليمن وقبائلها 330/1، معجم البلدان والقبائل اليمنية 611/1.

(4) الجاح: بلدة ساحلية تقع جنوب مدينة الحديدة بنحو 58 كم، وغرب مدينة الحسينية بنحو 15كم، وتتبع مديرية بيت الفقيه، وتقع على خط الطول 43/03، وخط العرض 14/17، ويعتبر شاطئها من أجمل

والطائف[1] -وهي غير طائف الحجاز طبعاً- وميناء غليفقة[2]، وأقام فيها حصوناً وحرساً للشواطئ، واستولى على مراكب الزرانيق الشراعية وأرسلها إلى الحديدة، وبذلك تم له ما يريد ومنع الزرانيق من الوصول إلى البحر، وأحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم، وقطع عنهم كل مدد خارجي.

أدرك الزرانيق شدة الخطر المحدق بهم، ففر شيخهم الأكبر مسبب هذه الثورة أحمد الفتيني، والتجأ إلى أصدقائه الإنكليز في جزيرة قمران[3] التي تقع على مسيرة يوم

الشواطئ اليمنية، يمتاز بكثبان رملية ناعمة تظلله أشجار النخيل الباسقة، فهو عند مصب وادي رمع الذي يقسم الجاح إلى قسمين الجاح الأعلى، والجاح الأسفل الذي تعرض في عهد الدولة الطاهرية (858 – 923 هجرية) إلى حرق نخله، ثم استصلحت أرضه فيما بعد وزرعت نخلاً، ويقدر عدد نخل الجاح حالياً بحوالي مليون نخلة حيث يمكنك السير بضع أكيال تظللك غابات أشجار النخيل، وتنتشر في الجاح عدد من القلاع والحصون الحربية التي تمثل المعالم التاريخية للمدينة، وتميزت بطرازها المعماري القديم الذي ما تزال آثاره باقية، وقد جدد عمارتها الإمام يحيى بعد حربه مع قبيلة الزرانيق سنة (1349هجرية). مجموع بلدان اليمن وقبائلها 171/1، معجم البلدان والقبائل اليمنية 271/1، موقع المركز الوطني للمعلومات على شبكة الإنترنيت. www.nic.gov.ye/

(1) الطائف: بلدة وميناء قديم على ساحل البحر الأحمر جنوب الحديدة بنحو 25كم،، وشمال غرب بيت الفقيه بنحو 37كم، وتقع على خط الطول 34/00، وخط العرض 14/37. مجموع بلدان اليمن وقبائلها 557/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 953/1.

(2) غليفقة (بالتصغير): كانت تسمى قديماً: غُلافقة، وهي بلدة ساحلية على البحر الأحمر، وتقع شمال غرب زبيد بنحو 42كم، وغرب مدينة بيت الفقيه بنحو 35كم، على خط الطول 42/00، وخط العرض 14/16. انظر: معجم البلدان: (غلافقة)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (بتحقيقنا)، 272/2، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي للقاضي إسماعيل الأكوع 219.

(3) قمران: والمشهور في نطقها: كَمَران: . بفتح الكاف والميم وقبل الألف راء مهملة وبعده نون . وهي من الجزر اليمنية المأهولة بالسكان في البحر الأحمر، قبالة شبه جزيرة وميناء الصليف، وبينهما مجاز عرضه نحو ميل واحد، وتقع شمال غرب مدينة الحديدة بنحو 60كم، وجنوب مدينة اللُّحية بنحو 45كم، على خط الطول 42/34، وخط العرض 15/19، وتبلغ مساحتها35 ميلاً مربعاً، وكانت في عهد المؤلف تحت الاحتلال الإنجليزي، وقد احتلها البرتغاليون بضعة أيام سنة 1513م، وذلك بعد أن استعصت عليهم مدينة عدن، كما دخلها المصريون المماليك بقيادة "حسين الكردي" عام 921 هـ/ 1515م، وبنى بها حصناً ومسجداً وجبانة، وفي عام 1517 م، استولى عليها البرتغاليون بقيادة " لوب سوليز " وبنى بها حصناً وظل بها ثلاثة أشهر، فغادرها متجهاً إلى مدينة عدن فالهند، وبعد انضواء قوات المماليك المتواجدة في اليمن تحت الحكم العثماني ظلت جزيرة كمران تحت سيطرة حكم العثمانيين حتى احتلتها بريطانيا في عام 1867م، وفي عام 1882م سيطر الأسطول العثماني على جزيرة كمران وطرد البريطانيين منها، وفي نفس العام أسسوا بها محجراً صحياً للحجاج، فاستفاد سكانها من مرور الحجاج بها، وفي عام 1895 م قام العثمانيون ببناء محطة تقطير الماء العذب من ماء البحر، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى أنتزع البريطانيون الجزيرة من العثمانيين وظلت تحت سيطرة الاحتلال البريطاني حتى جلاء المستعمر البريطاني عام 1967 م. انظر: معجم البلدان، بتحقيقنا: (جزيرة كمران)، مجموع بلدان اليمن وقبائلها187/1-189، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي للقاضي إسماعيل الأكوع 77، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1352/2، موقع المركز الوطني للمعلومات على شبكة الإنترنيت. www.nic.gov.ye/

إلى شمال الحديدة، واستسلم بعض الشيوخ إلى سيف الإسلام دون قيد أو شرط، وأسر سموه خلقاً كثيراً من أعدائه، وأكره معظمهم على الالتجاء إلى بيت الفقيه وحصرهم فيها، ولما رأى جلالة الإمام شدة الضرر الذي لحق بهذه القبيلة أمر ولي عهده بحصار بيت الفقيه وهي أعظم مدنهم وعدم مهاجمتها، وذلك رحمة بأرواح الجميع، فامتثل سموه لإرادة والده وشدد الحصار عليها فبلغ ثمن رطل الحليب ريالاً إمامياً، أي خمسين ضعف ثمنه في الأوقات العادية، وبلغ ثمن رطل الخبز أربعين ضعفاً، فلم يطق الزرانيق الدوام في هذا الحصار فاستسلموا إلى سيف الإسلام وأعطوه الرهائن[1] أسوة بغيرهم من القبائل.

نقيل الشجة

نزلنا من مناخة التي يبلغ علوها 7330 قدماً في نقيل يقال له نقيل الشِّجَّة[2] ويطلق لفظ النقيل في اليمن على الطريق الجبلية الوعرة، وكانت الأمطار تهطل رذاذاً، وقد شاهدت في هذا الطريق الجمال الجبلية الضخمة تنقل أثقالاً عظيمة غير مبالية بالصعود والهبوط ولا مكترثة بالوعر والجبل، ولا شك أن القارئ يدهش متى علم أن الجمال تصعد إلى علو 10.000 قدم بأحمالها الثقيلة على طريق لا تسلكها غير القردة والبغال والماعز، وشاهدت أيضاً في هذا النقيل نسوة ينقلن حطباً على رؤوسهن من أسفل الوادي السحيق إلى مناخة، ولو أن القرويين شجروا جبلهم لوفروا على نسائهم عناء كثيراً، ومما لا ريب فيه أن الأشجار تنمو في هذا الجبل نمواً حسناً، ولا شك إنها كانت كثيرة في الزمن الغابر لأني شاهدت بقاياها على جنبات الوادي.

---

(1) في الأصل: الرهان.

(2) نقيل الشجة: عقبة (طريق) في شرقي جبل حراز، وهو طريق للقوافل اختطته الدولة العثمانية يربط بين حراز (مناخة) وبين حجرة ابن مهدي في الحيمة، واستبدل حاليا بطريق آخر للسيارات محاذٍ له من جهة الشمال. انظر: صفة جزيرة العرب 106، مخاليف اليمن للقاضي إسماعيل الأكوع، أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2002م، ص 51، مجموع بلدان اليمن وقبائلها 446/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 850/1-851.

حصن المكارمة

في منتصف هذا الوادي رأيت على رابية قريبة من الطريق حصناً كبيراً حوله بعض المنازل، فسألت أحد الجنود عنه فقال لي: كان هذا الحصن أيام الدولة العثمانية مخفراً للجنود، وهو يخص رجلا من المكارمة يقال له إسماعيل، والمكارمة فئة من الإسماعيلية أتوا اليمن من الهند وتوطنوا في قضاء حراز، ويقطن معظمهم في جبل مناخة الشرقي، ويبلغ عدد نفوسهم في هذا الجبل نحو عشرة آلاف، ولهم عادات خاصة وعبادات خاصة، وقد حاربوا الإمام مدة من الزمن، ولكنهم غُلبوا أخيراً على أمرهم، ودخلوا في طاعة الإمام، فأكرههم على تجديد إسلامهم والإقلاع عن عاداتهم الغريبة المخالفة للشريعة الإسلامية الغراء، ومن بعض خرافاتهم أن الواحد منهم يذهب إلى شيخه وينقده مبلغاً من المال يبتاع منه به ذراعاً في الجنة وبمبلغ آخر يغفر له خطاياه، ولكن بفضل الإمام زالت هذه الخزعبلات إذ أرسل جلالته إلى هؤلاء الناس أئمة صالحين من أهل العلم والفضل فلقنوهم قواعد الدين الحنيف وأرشدوهم إلى عبادة الواحد الأحد فأقلعوا عن خرافاتهم وكفرهم.

ولا يأخذ الإمام منهم جنوداً نظامية، ولكنهم عند الحاجة يدعون للجندية فيتطوعون من تلقاء أنفسهم لمقاتلة أعداء الإمام، ويجدر بالذكر هنا أن شرف التجنيد في الجيش المتوكلي لا يحصل عليه في الدرجة الأولى إلا من كان من حاشد أو بكيل، وحاشد وبكيل هما اكثر قبائل اليمن نفوساً وأعلاهم كعباً وأغناهم زرعاً وأكثرهم ضرعاً، وهما ذراعا الإمام اليمين واليسار وعليهما يعول عند الشدائد والملمات.

وصلنا إلى أسفل نقيل الشجة بعد أن مشينا ساعة ونصف ساعة هبطنا فيها 2530 قدماً وما أكثر الصعود والهبوط، على طريق الحديدة صنعاء، وما أسخف القائلين بأنه في الإمكان الاستيلاء على صنعاء عن طريق الحديدة حرباً، وقد شاهدت بعيني رأسي أماكن متعددة وعرة وحصينة لا أغالي إذا قلت أن عشرة جنود يحولون دون سير حملة منظمة كثيرة العدة والعدد.

سارت بنا الطريق من أسفل نقيل الشجة بين وديان وتلال لا تعد ولا تحصى، وكان جبل الخميس[1] أمامنا، وجبل مناخة خلفنا، وهذان الجبلان عظيمان شاهقان، يرتفع الأول 10.000 قدم عن سطح البحر ويعلو الثاني 8000 قدم، وبينهما وديان وآكام وسلاسل من الجبال آخذ بعضها برقاب بعض، وفيهما بعض الأشجار المثمرة ويقال لها سدر، وثمرها أحمر يشبه الزعرور، ويأكله القرويون، ويوجد فيها أشجار غير مثمرة يقال لها الفطر والعسق وهي تصلح للوقود.

انقطعت الأمطار عندما وصلنا إلى أسفل الوادي، وأشرقت الشمس، وأرسلت أشعتها الذهبية في الفضاء فأعادت إلى أجسامنا الحرارة الطبيعية فانشرح صدر أحد جنودنا لهذا المنظر واخذ ينشد بصوت رخيم نشيداً جميلاً بنغم لطيف، ولكني لم أفهم من ألفاظه شيئاً، إنما طربت كل الطرب لتلحينه وترتيله وخلت نفسي في حضرة محمد عبد الوهاب اليمني، ولما استقر بنا الجلوس بعد برهة وجيزة سألته: ماذا تنشد؟

فقال: كنت انشد نشيداً خطر في بالي لوقته، فقلت اسمعني شيئاً منه فقال:

بالله عليكم يا جبل مناخة	**عد حد يجد بعد الفراق راحة**
غبني على قلبي وكم حنينه	**يبقى زمان ما عد يرى حبيبه**

شاهدت بين هذه الوديان والآكام حقولاً من الذرة البيضاء، ويدعونها هنا "شامي" أو "رومي" نسبة إلى الشام وبلاد الروم، لأن أصلها من هذه البلاد. وكان شريط التلغراف ويقولون له باليمن "سلك" يسير إلى جانب طريقنا وهو ممدود منذ عهد الدولة العثمانية، ولكن حالته الحاضرة غير مرضية ولا فنية، فهو مربوط في بعض الأماكن إلى أغصان الأشجار ومربوط في بعضها إلى عواميد ولكنها خالية من الفناجين الخزفية التي تستعمل لهذه الغاية، ولذلك كثيراً ما تتوقف المخابرات أيام هطول الأمطار.

سرنا على هذا المنوال بين الآكام والوديان نحو ساعتين ونصف الساعة، إلى أن وصلنا إلى مقهاية، وهنا توقفنا عن السير لتناول الطعام والاستراحة، فنظرت إلى

---

(1) جبل الخميس: يسمى خميس مذيور، تمييزا له عن المواضع الأخرى التي لها الاسم نفسه، ويقع في منطقة المخلاف، من أعمال الحيمة الخارجية، شمال شرق مناخة بنحو 25كم، وجنوب غرب صنعاء بنحو 40كم، على خط الطول 43/57، وخط العرض 15/08. مجموع بلدان اليمن وقبائلها 310/1، معجم البلدان والقبائل اليمنية 581/1.

(الالنيمتر) أي قائمة العلا، فوجدت إننا هبطنا إلى علو 5000 قدم، أي أننا كنا أوطأ من مناخة بـ 2330 قدماً، وكانت درجة الحرارة في الساعة الواحدة بعد الظهر 83 درجة في ميزان فارنهيت بينما كانت في مناخة في مثل هذا الوقت من اليوم الماضي 70 فارنهيت.

يصبغون بالنيل وجوههم

استرحنا من وعثاء السفر قليلاً، ثم سرنا إلى (مفحق)[1] على طريق غير معبدة، بين وديان وهضاب كثيرة، ولم تتغير طبيعة الأرض ولا طبيعة النباتات تغيراً يذكر، إنما صرنا نرى هنا في هذه النواحي عدداً عظيماً من الغنم والماعز والجمال، والجمال كالزراف تأكل أوراق الأشجار قبل الأعشاب، أما الأراضي فهي خلو من القرى الكبيرة العامرة، وأصحابها يقطنون في بيوت صغيرة كبيوت البدو الرحل متفرقة بين الأشجار، يكاد المرء لا يراها لصغر حجمها وتواريها عن الأنظار!

وهذه الأراضي تابعة لناحية الحيمة[2]، ويغرس في أرض الحيمة خلاف الذرة: العدس والشعير والحنطة، ويغرس في وديانها الشمالية شيء كثير من البن والقات والموز والمنكو[3]، ويقال للمكان الذي يقطنه عامل الحيمة (مفحق)، وهو حصن قائم على أكمة عالية في أسفلها بعض الدور اتخذها العامل مكتباً له، وخصص واحدة منها للمسافرين النازلين في ضيافة الإمام، وقد قضينا ليلتنا فيها، ولكن لم يذق جفننا طعم الكرى لان جيوشاً من البق "الأكلان" والنمل الأحمر هاجمتنا هجوماً مستميتاً.

وتصلح مفحق أن تكون مشتى أيام البرد لان درجة حرارتها في الليل والنهار معتدلة، وليس كما قال عنها الأستاذ الريحاني في كتابه[4]: "قبو اليمن وجحيمة

---

(1) مفحق: بلدة في جنوب غرب صنعاء، وتبعد عنها زهاء 47كم، وهي مركز مديرية (ناحية) الحيمة الخارجية، من أعمال محافظة صنعاء، وتقع على خط الطريق بين صنعاء ومناخة. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 715/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1601/2.

(2) الحيمة: المراد بها الحيمة الخارجية، تمييزا لها عن الناحية الأخرى (الحيمة الداخلية)، وهي من نواحي محافظة صنعاء، وكانت سابقا من أعمال قضاء حراز، وتقع في الجهة الغربية من حضور وشرقي حراز. انظر الحاشية السابقة.

(3) المنكو: أي المانجو.

(4) انظر وصف أمين الريحاني لمفحق في كتابه: ملوك العرب1/239-241.

ومقره" لان ارتفاعها عن سطح البحر 5530 قدماً ودرجة الحرارة فيها بلغت بعد الظهر 77 فارنهيت.

قمنا من (مفحق) نحو الساعة السابعة صباحاً وكانت وجهتنا قرية (متنه)[1] فسرنا صعوداً نحو ساعتين على طريق معبدة بين الجبال والوديان كانت الحكومة العثمانية عبدتها لسحب المدافع ونقل الجنود إلا إنها بسبب الثورات المتواصلة لم تتمكن من إنجازها وهي الآن مخربة من جرف السيول والأمطار، وبعد مسير ساعتين ونصف ساعة من (مفحق) وصلنا إلى قرية (الخميس)[2] وهي قرية صغيرة فيها بعض المقاهي للمسافرين، وكانت قبلاً مركزاً لعامل الحيمة، إلا أن العامل انتقل منها أخيراً إلى (مفحق) بأمر جلالة الإمام لأهمية (مفحق) من جهة واردات الدولة.

لم نقف بـ(الخميس) طويلاً إذ كان الصباح جميلاً والهواء عليلاً فشعرنا بنشاط شديد ساعدنا على مداومة السير، وكان يقابلنا بين حين وآخر على الطريق بعض المسافرين من الأشراف، أي السادة، فكانت تفوح علينا منهم رائحة عطرية جميلة بخلاف العامة من الناس الذين كانوا يمرون بنا، فتهب علينا منهم رائحة ثيابهم المنيلة الزرقاء التي نستعملها نحن لتنييل البياضات الداخلية لتنييل أثوابهم القطنية الخارجية، ولكنهم ينيلونها إلى حد عظيم فتصبح زرقاء غامقة الزرقة، كما أنهم ينيلون وجوههم وأيديهم وجسدهم بهذه النيلة أيضاً.

وسألت بعض الناس: لماذا تنيلون ثيابكم وأجسادكم على هذه الصورة؟! فقالوا: إن بلادنا باردة جداً والبرد يضر بنا كثيراً، وقد وجدنا بعد التجربة أن أفضل طريقة يحفظ فيها الإنسان نفسه من البرد هي تنييل الثياب والأجساد[3]. فاقتنعت بهذا الجواب المنطقي!!! قائلاً في نفسي لا حول ولا قوة إلا بالله، والفرق بين ألبسة السادة والعامة عظيم جداً كالفرق بين ألبسة الأغنياء والفقراءفي سائر البلاد، فالسادة

---

(1) متْنه: قرية ومركز تجاري في طرف حقل سهمان في منطقة بني مطر، وتقع غرب صنعاء بنحو 20كم، وشرق الحيمة.

(2) الخميس: سبق التعريف بها.

(3) هذه الإجابة غير صحيحة، ويبدو أنهم سخروا من سؤاله فأجابوه بهذا الجواب، فهولاء البسطاء من الناس لا يصبغون أنفسهم بالنيلة، ولكن كانت هذه الثياب المصنوعة محليا والمصبوغة بالنيلة ركيكة وألوانها غير ثابتة، فقد كانت تتأثر بعرق الشخص الذي يلبسها، وخاصة في المناطق التي يحتك بها هذا النوع من اللباس مباشرة بالجسم دون وجود ملابس داخلية تحتها مثل الرقبة والجبهة، فتبقى آثارها في هذا الجزء من الجسم فقط، وقد رأيت في طفولتي المبكرة هذا النوع من الثياب في بعض بوادي اليمن.

عدا الصايات الحريرية التى يرفلون فيها، يلبسون الأصواف الجميلة والأجواخ الغالية في البلاد الباردة، وعامة الشعب في البلاد الباردة، يلبسون الديما وفوقها جلود الأغنام وما أشبه.

كانت طبيعة الأراضي والمزروعات بين (مفحق) و(الخميس) كطبيعة ما رأينا قبل من الأراضي والمزروعات، وعلاوة عليها شاهدنا أنواعاً من الصبير، ومن (الخميس) ابتدأت الطريق تصعد بنا صعوداً كبيراً ويمكن أن يقال عنها انها معبدة جزئياً، وكانت تسير على رؤوس التلال وأطراف الجبال بشكل لولبي، ودمنا على هذه الحال برهة من الزمان، أي إلى أن بلغنا قمة جبل (الخميس) أو (جبل بوعان)[1] ويقال لها (القرن) وعلوها عن سطح البحر 10.000 قدم وكانت درجة الحرارة هنا وقت الظهر 67 فارنهيت، وأعلى قرية في هذا الجبل تدعى (بيت السلامة) وعدد سكانها نحو مائتين، ومنازلها نحو الثلاثين منزلاً، جميعها مبينة بالحجر على شكل الحصون، وقفنا بالقرب من هذه القرية وسرحنا البصر إلى جهة الغرب فرأينا على الأفق البعيد قرية مناخة تتلألأ منازلها فوق رؤوس الجبال كالنجوم في السماء، وبيننا وبينها من الوديان والجبال والآكام ما لا يعد ولا يحصى، فكأننا أمام بحر زاخر من اليابسة لا يدرك الإنسان أوله من آخره، أمواجه الآكام والتلال وسطحه السهول والوديان، وفوق هذه الأمواج شيدت معاقل المكارمة وحصونهم، وفي أعلى رؤوس تلك الجبال، منازل الزيود وقلاعهم وجميعها تشبه ببياضها السفن الشراعية من ماخرات البحار.

وهنا شهدت منظراً في الجبال لم أر مثله في بلاد الشام، وذلك من حيث عظمة هذه الجبال وكثرتها واختلاط بعضها ببعض اختلاط الحابل بالنابل، وكأني بأعظم وديان الشام وجبالها لا تساوي نقطة من هذا البحر الخضم ولا ذرة من ذراته.

والفرق بين هذه وتلك شاسع من حيث حرارة الشمس، فشمس اليمن في جميع فصول السنة وفي أعالي الجبال شديدة محرقة، بينما هي في جبال الشام لطيفة

---

(1) جبل بوعان: جبل شامخ من جبال ناحية (مديرية) بني مطر من أعمال محافظة صنعاء، ويقع غربي صنعاء بنحو 30كم، وفي قمته قلعة شاهقة قديمة البناء، وفيها يقام سوق شعبي يتسوقه يوم الخميس أهالي بني مطر والحيمة وما جاورها من المناطق، سيصفه المؤلف بعد قليل. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 120/1، معجم البلدان والقبائل اليمنية 204/1-205.

دافئة، وبديهي أن سبب ذلك عائد إلى قرب بلاد اليمن من خط الاستواء وبعد الشام عن هذا الخط.

الفحم الحجري والخط الحديدي

سرحنا البصر إلى الجهة الشرقية التي نسير نحوها فرأينا قمة في جبل (سنان باشا)[1] تناطح السحاب، وإلى الجنوب رأينا سلاسل عظيمة من جبال (بني مطر)، وبينما نحن منهمكون في مشاهدة هذه المناظر البديعة إذا بأحد جنودنا يتقدم منا ويقول انظروا إلى هذا التل الأسود اللامع هو من الفحم الحجري! فاتجهنا بأبصارنا نحوه فرأيناه أسود يلمع لمعاناً يسترعي الأنظار وذلك لشدة سواده وانعكاس النور عنه، فسرنا إليه فإذا به تل حجري بركاني من نوع "ابسديون" فقلنا للجندي ومن أخبرك أن هذا فحم حجري؟ فقال كنت أيام الترك جندياً في الجيش العثماني، وقد رافقت بعض المهندسين الغرباء الذين جلبهم الترك لهندسة طريق السكة الحديدية المزمع بناؤه وقتئذ، وقد قال لنا أحدهم: إن هذا التل من الفحم الحجري، وإذا حفرتم إلى عمق يخرج لكم نوع أفضل من النوع الذي على سطح الأرض، فضحكنا من جهل هذا المهندس وقلنا للجندي ولمن حولنا الناس الذين تجمعوا ليشاهدوا الغرباء لكي نقنعهم أن هذا الصخر ليس فحماً: اجلبوا لنا شيئاً منه وأضرموا ناراً، فأتوا بقطعة منه وأضرموا ناراً حامية فطرحنا تلك القطعة في النار وبطبيعة الحال لم تحترق ولا فعلت بها ألسنة اللهيب شيئاً، ولما خمدت النار وبردت القطعة الحجرية أخذها الجندي بيده فوجدها كما هي، فقلنا له: شمها، فشمها فلم يجد أثراً لرائحة الفحم فيها، وقد أخذ العجب من جميع الناس وساروا ينظرون بعضهم إلى بعض مستهزئين، فسألهم - وكان معظمهم من سكان قرية بيت السلامة- أحقيقة قال المهندسون الأجانب الذين جلبهم الترك أن هذا التل من الفحم الحجري؟ فأجاب بعضهم أنهم

---

(1) جبل سنان باشا: هو جبل حضور نسبة إلى حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة بن حمير بن سبأ الأصغر، ويسمى أيضا جبل النبي شعيب، لأن قبره في قمة الجبل، وهو غير النبي شعيب – صاحب مدين– المذكور في القرآن الكريم، وهوشعيب بن مهدم بن المقدم بن حضور الذي نسب الجبل إليه، وجبل حضور من أعلى الجبال في اليمن والجزيرة العربية عامة، يرتفع عن مستوى سطح البحر حوالي (3760 متر) تقريباً، ويقع غرب صنعاء مع ميل يسير نحو الجنوب، ويبعد عنها زهاء 30كم، على خط الطول 43/57، وخط العرض 35/19، وسمي أيام الدولة العثمانية جبل سنان باشا، نسبة لأحد الولاة العثمانيين في اليمن الذي أصلح طريقه وبنى فيه مسجدا.

كانوا بأنفسهم يرافقون بعثة المهندسين بصفتهم من أهل الخبرة بتلك الأراضي ليرشدوهم إلى جميع الطرقات، وأكدوا لنا أن المهندسين قالوا هذا القول مراراً.

ومما يوجب الاستغراب أن هؤلاء المهندسين لما أتوا إلى اليمن لمد خط حديدي من الحديدة إلى صنعاء أخطأوا كثيراً في أجزاء من الطريق التي كانوا يتعقبونها، ودليلنا على ذلك أنهم أرادوا أن يصعدوا بهذا الخط إلى علو 10,000 قدم في قمة جبل القرن، ثم يهبطوا إلى صنعاء لعلو 7500 قدم، وهم في غنى عن هذا الصعود لو أرادوا أن يتجنبوه وينحرفوا إلى طريق ثانية غير هذه الطريق، وقد اكتشف الطريق الثانية القاضي محمد راغب وزير خارجية اليمن وبعض المهندسين الأميركيين الذين أرسلهم شارلس كرين إلى اليمن على نفقته ليساعدوا الإمام في بعض المشروعات العمرانية.

والخطيئة الثانية التي ارتكبتها الدولة العثمانية ومهندسوها الغرباء، وربما تعمدوا ذلك تعمداً لكي يستولوا على جزء من مالية اليمن بصفة الضمانة الكيلو مترية كما حدث ويحدث في كثير من الخطوط الحديدية الخاضعة لهذا الترتيب في سورية وغيرها من بلاد العالم، هي فكرة مدهم خطاً حديدياً إلى صنعاء فمن البديهي أن الخط الحديدي في هذه الجبال الوعرة الشاهقة التي لا يُعرف لها أول من آخر يحتاج إلى رأس مال كبير لبنائه، ومتى تم بناؤه فإنه يحتاج إلى نفقات باهضة للمحافظة عليه ولتسديد مرتبات الموظفين، وهو أبداً معرض للخطر لكثرة السيول في الجبال أيام المطر، ومن عرف اليمن وعرف مقدار الصادرات والواردات التي يمكن شحنها على هذا الخط يدرك إنه من المستحيل عليه أن يسدد نفقاته. لذلك فمن الجهل أن يفكر أحد في الوقت الحاضر في مد خط حديدي كهذا في الجبال، وأما في تهامة: أي ما بين الحديدة والحجيلة وبيت الفقيه والزيدية وغيرها فبالإمكان أن تبنى الخطوط الحديدية بنفقات بسيطة ولا تكون عرضة للأخطار، ولذلك اقترح المهندسون الأميركيون الذين أوفدهم المستر كرين إلى اليمن على الإمام أن لا يقوم بهذا المشروع وان يكتفي في الوقت الحاضر بتعبيد طريق تصلح لسير السيارات فقط، وقد أصغى جلالته إلى هذه النصيحة وعمل بها، وكلف أحد هؤلاء المهندسين أن يتولى كشف طريق صالحة للسيارات، وقد وُفِّق هذا المهندس المدعو المستر توتشل[1] في هذه المهمة وخطط طريقاً من صنعاء إلى حجة إلى الحديدة، وقد أتم جلالة الإمام تعبيد الطريق

(1) هو كارل س. توتشل (K.S. Twichell)، سيأتي التعريف به لاحقا عند ذكر زيارته لليمن، والتقارير التي حررها للإمام يحيى عن المعادن في اليمن

وأصبحت اليوم صالحة لسير السيارات ونقل البضائع، وأخبرني أحد القادمين من اليمن حديثا بأن السيارات في الوقت الحاضر صارت تروح وتغدو عن هذه الطريق بصورة مستمرة، وقد ازداد عددها فصارت بالعشرات بينما كانت تعد بالآحاد قبل بضع سنوات.

سوق بوعان

هبطنا من (بيت السلامة) في واد ضيق ثم في نقيل يقال له (نقيل بوعان) إلى أن وصلنا إلى بعض المقاهي وسوق كبيرة يقال لها (سوق بوعان)، وهي تتألف من عدة أزقة ضيقة بنى فيها الاهلون (عششاً)[1] حقيرة من الحجارة والطين لا نوافذ لها ولا أبواب ولا سقوف، ويأتي إليها الناس كل أسبوع مرة، أي كل يوم خميس، ويجلبون معهم بضائع مختلفة فيبيعونها هناك، ويشترك في هذه السوق سكان القرى القريبة والبعيدة، وقد رأيت البعض قد أتوا إليها من بلاد سنحان وخولان، أي من مسافة ثلاثة أيام، وشاهدت فيها معرضاً للبضائع المختلفة التي يحتاج إليها الأهلون من قشر بن وحنطة وشعير وعدس وخردوات وبترول وأقمشة مختلفة وحيوانات بأنواعها وتبغ وتنباك إلى غير ذلك من الأشياء، وكانت تعج بالناس عجيجاً، ومن ألطف ما رأيت أن أهل القرى القريبة يأتون إلى هذه السوق ويبتاعون زيتا في كل أسبوع مرة ويحملونه في أباريق مصنوعة من التنك لا يزيد حجم الواحد منها على حجم زجاجة صغيرة تسع مائة غرام، وهذه الكمية تكفي أحدهم أسبوعاً كاملاً، وهم يشعلون البترول للتنوير في مصابيح صغيرة مصنوعة من الصفيح "ضواية" ويستعملون للغاية نفسها زيت الزيتون فيشعلونه في مصابيح مصنوعة من حجر المرمر، وفي البيع والشراء يستعملون النقود أو يستعملون ''الحاجيات'' بعينها، ولأول مرة في حياتي شاهدت هذه القاعدة الاقتصادية الأولية تطبق بحذافيرها كما يصفونها في كتب الاقتصاد، أي قاعدة "المقايضة" فيأتي الفلاح إلى السوق مثلاً وهو لا يملك غير شوال من الحنطة فيأخذ بهذا الشوال كازاً وبنا أو خاماً إلى غير ذلك من لوازمه من دون أن يستعمل النقود.

---

(١) العِشش: بكسر السين، جمع عشّة: الكوخ.

أنواع البن

والى جنوب (بوعان) تقع بلاد بني مطر وهي مشهورة بجودة بنها ويقال له: "الصافي" وهو أفضل أنواع البن في اليمن ثم يليه البن الحيمي — من الحيمة- فالبرعي من جبل برع، فالريمي من بلاد ريمة. وقد شاهدت شجر البن، وهو يشبه في بعض الوجوه شجر الليمون، وثمره أحمر اللون يشبه حب المرجان، وعندما يتم نموه وينضج تماماً تجمعه النساء، ويأخذنه إلى دورهن فينشرنه على السطوح إلى أن يجف ويصبح لونه أسود فيجرشنه بطواحين يدوية فتخرج منه القشرة السوداء ويبقى حب البن الصافي، ويستعمل اليمانيون القشر لمشروبهم الخاص ولا يستعملون الحب أبداً، ويقولون أن القشر مرطب ومفيد للجسم جداً ويغلون معه أحياناً حب الهال أو القرفة في أباريق فخارية خاصة من صنع اليمن.

وأهم صادرات اليمن البن، وكان قديماً يشحن إلى البلاد الخارجية من ميناء المخا فأطلق عليه بعض الشعوب الغربية كالأميركيين مثلا اسم (المخا)، أما اليوم فمعظمه يرسل إلى الحديدة أو إلى عدن من أعالي اليمن عن طريق البر، ويسميه البعض البن العدني، لأنه آت بطريق عدن، ويوجد بالحديدة بعض التجار الأجانب كإخوان ليفراتو، وهؤلاء يبتاعونه من الوطنيين وينظفونه وينقونه ثم يخلطون الأنواع المختلفة بعضها ببعض ويرسلونها إلى الخارج من الحديدة وعدن، ويتراوح ثمن الفراسلة في الحديدة بين 9ر11 ريال أي بين الأربع والخمس ورقات سورية، وتزن الفراسلة عشرة كيلو غرامات ونصفاً، ويتلاعب هؤلاء التجار الأجانب بأثمان البن كما يشاؤون وتشاء أطماعهم لأنهم هم الواسطة الوحيد التي يتمكن القرويون من بيع بنهم بواسطتها للخارج، وذلك لان رأس مال التجار الوطنيين قليل ومعرفتهم بالعالم الخارجي وأسواقه محدودة.

البلشفيك في اليمن

ولكن أبى الله أن يستنزف هؤلاء التجار المحتكرون أموال الناس فسخر لليمن أخيراً الشركة التجارية الروسية التي أتت سنة 1928 وأخذت تضارب تجار البن

وغيرهم من التجار بشتى البضائع، وقد رأيت سماسرتها في الطريق يبتاعون البن رأساً من القرويين، وقد جلبت شيئاً من السلع المختلفة كالسكر والأرز والدقيق والكاز والخشب والكبريت والأقمشة إلى غير ذلك من البضائع الكثيرة، واستولت على الأسواق التجارية وثبتت أثمان الحاجيات بعد ما كان التجار يتلاعبون بها كيفما شاءوا، وقد كان لهذه الدعاية البلشفية اثر بعيد في اليمن، وقد أخذ بها معظم الناس وصاروا يمتدحون هذه الشركة ويثنون عليها أطيب الثناء، وقد اهتمت الحكومة الروسية كثيراً بأمر اليمن وصارت تسير بواخرها من أوديسا في البحر الأسود إلى خليج فارس في العجم، فتمر هذه البواخر بالبحر الأحمر وتقف بالحديدة في ذهابها وإيابها وتنقل البضائع والحجاج بأثمان بخسة لا تزاحم، وقد ضربت بعملها هذا السفن التجارية الصغيرة التي تسير بين شواطئ البحر الأحمر ضربة قاضية لان أصحاب هذه السفن كانوا يستنزفون أموال التجار ويتقاضون منهم أجوراً غير معقولة لنقل بضائعهم ولا أكون مغالياً إذا قلت أنهم يتناولون أجرة الطن من عدن إلى الحديدة كما تتناول السفن الكبيرة أجرة الطن ما بين عدن ونيويورك، ولذلك لما أتت هذه الشركة الروسية حوّل التجار نظرهم نحوها وانصرفوا عن غيرها ولا تأتي سفينة روسية إلى الحديدة إلا وهي ملأى بشتى البضائع والحاجيات وتعود من الحديدة ملأى بالجلود والبن.

سرنا من (بوعان) إلى (متنة) على طريق معبدة يمكن في الوقت الحاضر للسيارات أن تسير عليها إلى صنعاء بسهولة تامة، وكان إلى جانبها سهل لا بل واد متسع تخترقه في بعض المحال جداول صغيرة ويزرع فيه الشعير والحنطة والذرة، وبعد مسيرة ساعتين تقريباً وصلنا (متنة) وهي قرية صغيرة لا يزيد عدد منازلها على الثلاثين وقد بنت الدولة العثمانية فيها ثكنتين ولكنهما تخربتا في الوقت الحاضر من عدم الاعتناء بهما، وكأني بالطبيعة قد أدركت أنه لم يبق لزوم لهما في ظل حكم جلالة الإمام يحيى، فمالت عليهما برياحها وأعاصيرها ومطرها وسيولها فجعلتهما أثراً بعد عين، والحق يقال إنه لا حاجة للثكنات العسكرية ولا للمخافر في ظل حكم صاحب الجلالة الإمام، لأنه بفضل حب الأهلين لجلالته وتعلقهم بعرشه وسدته لا يسمع الإنسان إذا جاب البلاد من أقصاها إلى أقصاها بحادثة سلب أو نهب أو قتل إلا ما ندر، والأمن مستتب في كل ناحية من نواحي اليمن، ويمكن للمرء كما يقولون أن يحمل الذهب ويسير بأمان واطمئنان أينما شاء دون أن يعترضه معترض أو

يتعدى معتد، وقد سرت بنفسي مرة دون حرس أو جند من الحديدة إلى صنعاء ومن صنعاء إلى عدن واستغرقت هذه الرحلة معي نحو عشرين يوماً فلم أشهد ما يكدرني أو يخيفني، وطفت مرة في شمالي صنعاء وشرقها لوحدي، وكنت أقابل أينما ذهبت بالحفاوة والإكرام وكان القوم يستأنسون بي ويسألونني في أشياء كثيرة عن العالم الخارجي وخاصة عن الترك وتركيا ومصطفى كمال.

الجندي اليمني

وصلنا (متنة) مساء وكان البرد شديداً وليس ذلك غريباً لان علو متنة 9180 قدماً عن سطح البحر، وأما جنودنا فلم يصلوا معنا لأنهم وقفوا في الطريق لتناول الطعام والقشر والقات وذلك على الرغم من توصيتنا لهم بلزوم السرعة وعدم التوقف في الطريق، ولكن من البديهي أن كل يماني مغرم بالقشر والقات حتى إذا ما حان وقتهما لا يلتفت لأمر ولا يصغي لنهي مهماً يكن شأن الآمر أو الناهي، وأما فيما عدا ذلك فالجندي اليمني مطيع جداً وهو صغير الجسم، خفيف الحركة، قليل الأكل صغير اليدين والرجلين، يتحمل الأتعاب، وينقل الأثقال من سلاح وعتاد دون أن ينبس ببنت شفة، بل يسير كل يوم في أثناء السفر عشر ساعات متواليات إلى جانب الخيل أو البغال ولا تبدو عليه علامات التململ أو التذمر مهما تدم هذه الحال ولا يتناول وقت السفر من الطعام إلا كمية قليلة ولا من الراحة إلا قسطاً يسيراً، وقد فر ذات يوم فرس من خيلنا عقب وصولنا إلى مكان معين بعد سفر سبع ساعات فما كان من ثلاثة من جنودنا إلا أن اخذوا يعدون خلفه وظل الفرس يعدو وهم يعدون إلى منتصف الليل وأخيراً تمكنوا من القبض عليه وجلبه إلى "المقهاية" ثانية.

وأما من جهة الشجاعة فحدث عن الجندي اليمني ولا حرج، فهو من أبسل جنود العالم إذا لم يكن أبسلهم، وقد سمعت عن حروب الجندي اليمني مع الترك من النوادر والحكايات ما يشيب لهوله الأطفال، وأقل ما يقال أن الجندي اليمني كان يهاجم الجيش التركي بالخناجر والشباري والعصي، وكان يتغلب على تلك الجيوش ويستولي على سلاحها وعتادها في كثير من المعارك والأحوال، وهو يعتمد على هذه البسالة ويستعملها في جميع حروبه.

واليمانيون أذكياء جداً بفطرتهم، ويميلون إلى المزاح بطبيعتهم، ويحبون النكات اللطيفة، وجلهم خفيف الروح لا يمل الإنسان معاشرتهم، وكلهم أحرار في مبادئهم مستقلون في رأيهم لا يقيمون على الضيم ولا يرضون بالذل والخنوع، فترى أصغرهم قدراً يأتي إلى أرفعهم مقاماً من الأشراف والسادة ويقبل يديه أو ركبتبه أو طرف ثوبه حباً واحتراماً ثم يقول له وجهاً لوجه دون ما خوف أو وجل وفي كثير من الصراحة والجرأة: أريد هذا، ولا أريد ذاك، وهذا حقي وليس حقك، وإني لن أتنازل عن حقي لك أو لسواك، وإن أبيت فنحتكم إلى كلام الله، فيجاوبه السيد المخاطب بلهجة لطيفة مؤيداً طلباته أو ناقداً لها بأسلوب جميل، والرفيع يحترم الوضيع احتراماً زائداً، وما ذلك إلا لكبر نفس الوضيع وعدم إذعانه للذل والهوان، وليس تقبيل الأيدي أو الركب أو الثوب بنقيصة عند اليمانيين بل هي عادة ألفوها منذ القديم أباً عن جد، ولكنهم لا يقبلون إلا أيادي السادة الشرفاء الذين يمتون إلى الحسن والحسين بأنسابهم وهؤلاء يبادلونهم تقبيل الأيدي عند التحية.

لم نستطع أن ننام داخل المقهاية في متنة لكثرة (البق) الذي هاجمنا هجوماً عنيفاً فالتجأنا إلى السطح ونمنا نوما هادئا وكانت درجة الحرارة تحت الصفر فاضطررنا إلى تغطية أنفسنا بجميع الأغطية الموجودة معنا والنوم بثيابنا، وفي الصباح نهضنا قبيل بزوغ الشمس فشعرت بنشاط زائد فنزلت إلى المقهاية لا تفقد جنودنا وخدمنا فوجدتهم جميعاً نياماً وقد لفت نظري غطاء بعضهم.

النوم في الأكياس

دنوت منهم فإذا هم نيام داخل أكياس مصنوعة من الخام، وكل واحد منهم رابط كيسه فوق رأسه ومدخل رأسه فيه، ناديت أحدهم ففك رباط كيسه وخرج منه متأبطا بندقيته فقلت له ما هذا؟ فقال هذا كيسي أنام فيه ليقيني من البرد، فقلت ألا تشعر داخله بانقباض في صدرك؟ وهلا تتضايق بالتنفس؟ فأجاب كلا إني أنام فيه مستريحا ولا يدخل البرد من هذا الكيس فانظر إليه، فأخذته بيدي وتأملته فإذا هو مصنوع من الخام السميك وخياطته قوية جداً، وجميع أهل الجبال في اليمن على ما علمت يستعلمون هذه الأكياس فينامون فيها بعد أن يخلعوا جميع ملابسهم، ولا اعلم ماذا يقول حضرات الأطباء في تفسير عدم اختناقهم أو على الأقل عدم

تسممهم من الغازات الكربونية التي تفرزها أجسامهم لأنه من البديهي أن الهواء لا يتجدد داخل هذه الأكياس لأنهم يحكمون رباطها ويصنعونها من القماش الذي لا يمكن للهواء أن يدخل بين مسامه، خرجت من المقهاية فشاهدت خارجها مسجداً صغيراً وسبيل ماء وما أكثر هذه المساجد في اليمن! فأينما سار الإنسان يجد سبل ماء أقيمت في الطرقات ليرتوي منها المارون والمسافرون، ومساجد بناها أناس من أهل الخير والإحسان ووقفوا عليها الأوقاف وأقاموا الأوصياء لينفقوا عليها من ريعها، وأجمل مسجد رأيته في الطريق هو مسجد (سنان باشا) وفيه بركة ماء كبيرة وثكنة للجند، ويقال أن فيه قبر النبي (شعيب)، وقد سمي هذا المكان سنان باشا باسم أحد الباشوات العثمانيين الذين أتوا إلى اليمن، وجامع سنان باشا هو آخر مرحلة إلى صنعاء.

أسماء الأشياء

سرنا من (متنة) بعد طلوع الشمس وكان الهواء بارداً جداً، ودرجة الحرارة تحت الصفر، ففضلنا المشي على الأقدام بدلاً من الركوب لتنشيط الدورة الدموية.

وكانت طريقنا تمر في قلب الوادي المتسع (سهمان)[1] وقد تخللها في بعض الأماكن صعودا وهبوطا، وما زلنا كذلك إلى أن وصلنا قمة (جبل عَصِر)[2] . وقد شاهدنا في الطريق الزراع يبذرون حبوبهم في الأرض فسألت أحد جنودنا ماذا يزرعون؟ فقال لي: (بُر)، فلم أدرك معنى البر فدفعني حب الاستطلاع إلى الذهاب إلى أحد الزراع لرؤية ما يزرع فلم يبخل عليّ المزارع لذلك وأعطاني شيئاً من حبه فإذا هي حنطة بيضاء.

وهكذا كنت أصنع دائماً كي أعرف أسماء الأشياء لان هنالك اختلافاً عظيماً بين لغتنا ولغة اليمن، ولأول وهلة لا يمكن للشامي أن يفهم اليمني ولكنه بالتدريج يتعلم الألفاظ الغريبة عنه فيصبح في إمكانه التفاهم مع اليمانيين، والى القارئ الكريم بعض الأمثلة في اختلاف الألفاظ عندنا وعندهم: فهم يقولون للنقود: (ظلط)

---

(1) في الأصل المطبوع: سهيمان، بالتصغير، والصواب ما أثبتناه، وهو قاع سِهْمَان، بكسر السين المهملة، وهو سهل فسيح بين جبلي حضور وعيبان غربي صنعاء يزرع الحبوب بأنواعها. معجم البلدان والقبائل اليمنية 823/1.

(2) جبل عصر: جبل كبير مطل على صنعا من الغرب، وقد وصل عمران مدينة صنعاء إلى اسفله.

وللحيوانـات: (قُـراش)، وللبئـر: (بحـر)، وللحـم (شِـرْكَة)، وللسـكين: (الجنبيـة)[1] وللعمـال: (الشـقاة)، ولسـاقية المـاء: (الغيـل)، ولكـل مـن يـتقن الكتابـة والقـراءة: (قاضي) وللقاضي الشرعي: (الحاكم الشرعي)، وللأقمشة: (البز). الخ.

سلام عليك يا صنعاء يا مقر الخلافة!

جبل عصر أو السنينة[2]

وقفنا على قمة (جبل عصر) برهة من الزمان، ومن هنا رأينا صنعاء تحتنا تمتد في سهل واسع وتحيط بها الجبال من كل حدب وصوب على أبعاد مختلفة، وكان الوقت قبل الظهر وقد أرسلت الشمس أشعتها الذهبية على منازل المدينة القديمة وجوامعها ومآذنها فبدت آية من آيات الجمال وانعكست تلك الأنوار على جدرانها البيضاء وزجاج نوافذها الملون فزادتها جمالاً على جمال، وكم وددت لو كنت رساماً لأرسم هذه الصورة بالألوان.. وأكثر ما يسترعي الأنظار في صنعاء عن بعد مآذنها الكثيرة المختلفة الألوان والأشكال والارتفاع.

ولما وصل جنودنا إلى قمة الجبل وأروا صنعاء نادوا بلسان واحد: "السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله!" فناديت أيضاً معهم "السلام عليكم ورحمة الله" دون أن أدرك السر في ذلك، ولكن بعد هنيهة سألت أحد الجنود على من تسلمون؟ فقال: ألا تعلم أن صنعاء هي دار الخلافة ومقر الحضرة الشريفة؟ فأجبت نعم، الحق معك، وسلمت للمرة الثانية عن علم: "السلام عليكم ورحمة الله السلام عليكم ورحمة الله".

بعدما أدركت هذه الحقيقة اللطيفة سررت غاية السرور وتناثرت دموع الفرح من عيني وغبطت الجندي اليمني، لا بل راعى البقر في اليمن، لان له خليفة يفتخر به ولأنه يملك الحرية والاستقلال ويعلم أن هذه الجبال والوديان والسماء والماء والأشجار والهواء هي ملكه ووطنه لا يزاحمه فيها مزاحم ولا ينازعه عليها منازع!

---

(1) الجنبية غير السكين، فالجَنْبية: هي الجنجر اليمني المعروف، وتطلق التسمية على الخنجر ونصله ومقبضه وحزامه..إلخ، والجنبية جزء مكمل للباس اليمني التقليدي. سبق التعريف التعريف بها.

(2) في الأصل المطبوع: السنيتة، بالتاء بعد الياء، والصواب السنينة، بالنون بعد الياء، وتنطق غالبا السنينات (بالجمع)، وهي منطقة في سفح جبل عصر مما يلي صنعاء. معجم البلدان والقبائل اليمنية 822/1.

هنيئاً لك أيها اليمني السعيد! السعيد بحريته، السعيد بخلافته والسعيد ببذله مهجته في المحافظة على أمته ووطنه.

بورك فيك يا أمير المؤمنين ويا حفيد الرسول الأمين يا من ضحيت منذ نعومة أظفارك براحتك وجسدك وقاتلت قتال المستميت حتى حررت شعبك من نير الاستعباد والاستعمار.

بهذه العبارة المؤثرة ختمت مذكراتي في ذلك اليوم وكانت نفسي تذوب شوقاً إلى رؤية الشام وأهل الشام!!

هبطنا من جبل عصر على طريق لولبية كان الترك قد عبدوها قديماً لنقل المدافع. ففضلت المشي على الركوب تجنباً لكثرة دورانها فتركت بغلتي وسرت رويداً رويداً على الأقدام.

العرب يغارون على الشام

حديث الرجل الغساني

جاءني رجل مرتد فروة من جلد الغنم ومئزراً من الديما وقفطاناً منيلاً، وقال: السلام عليكم، فأجبته: وعليكم السلام والرحمة والإكرام، فقال: هل أنتم آتون من بلاد مدخل؟ فقلت: لا نحن لسنا آتين من داخل اليمن، بل آتون من خارجها، ونحن غرباء عن هذه البلاد. فقال: نعم، أعلم من هيئتكم بأنكم من بلاد مدخل، أي من خارج اليمن، ولكن أين بلادكم؟ فقلت: هل تسمع بالشام فنحن من الشام، فقال: نعم، أسمع بالشام، وأصلنا نحن أيضاً من الشام من بني غسان جاء جدودنا قديماً إلى اليمن واستوطنوا بلاد خولان، وكنا أيام الدولة العثمانية براحة واطمئنان عاصين عليها، فلا ندفع لها عشوراً "أي عشر" ولا ضرائب لان الترك كانوا ضعفاء لا يقوون على تحصيل شيء من القبائل إلا بالقوة وإخراج الجيوش الجرارة والحملات، وهذا العمل كان متعذراً في أغلب الأحيان، وكنا قبل خروج الحملات نعلم بها فنرحل عن مضاربنا ريثما تمر الحملة فنعود ثانية، وأما الآن فقد تبدلت الأرض ومن عليها، والله يحفظ الإمام، إنه استولى على البلاد والعباد وضرب أهل الشرق بأهل الغرب وأهل الشمال بأهل الجنوب، وأخذ من الجميع الرهائن

وأخضعهم لسلطانه فأصبحوا لأمره طائعين ولجميع ما يريد من الضرائب والتكاليف دافعين، فقلت وهل تحبون الإمام أم تفضلون الدولة العثمانية عليه؟

فأجاب: أي والله نحبه ولا نحب أحداً غيره، لأنه بعكس الدولة قوى وقادر أن يأخذ لنا حقنا من شيوخنا إذا ساورتهم أنفسهم بالتعدي علينا، والضعيف والقوي والغني والفقير عنده بسع بعض "أي بعضهم مثل بعض" فهو لا يفضل واحداً من أجل ماله وجاهه أو حسبه ونسبه على الآخر، بل يسمع شكاية المظلوم ولا يهاب الظالم، بل يجازيه ويسجنه ويقفه عند حده مهما كان شأنه. فسألته وكيف حالكم مع الجند والعمال؟ فأجاب: لا شغل للجند معنا مادمنا ندفع ما علينا ولا نخالف شريعتنا، وأما العمال فأحياناً يظلموننا ويأخذون منا زيادة عن حق بيت المال ولكن الله يحفظ الإمام فكل من يشكوا أمره له ينصفه حتى من العمال أنفسهم.

ثم سألني هو بدوره عن بلادي الشام، وعن بعدها عن اليمن، وعن الترك، وهل نحن مسرورين بحكمهم أم لا؟ ولما قلت له أن الترك قد رحلوا عن الشام بعدما رحلوا عن اليمن وأن الفرنسيون استولوا على الشام والإنكليز على القدس، غضب وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله!.

ثم قلت له: ولكن السورين ثاروا على الفرنسيون وحاربوهم نحو سنتين، فبدت على أسارير وجهة علامات الفرح والسرور. ولكن لما قلت له: إن الشوام غُلبوا في النهاية على أمرهم وخضعوا للقوة، غضب واحتد وقال: "الله اكبر الله اكبر! أين المسلمون في الدنيا؟! بلاد الشام مقدسة، وفيها القدس ثالث الحرمين الشريفين! لماذا لم يأتوا ويخلصوا القدس والشام ويحاربوا معكم؟ والله إحنا "أي نحن" نروح ونجاهد من أجل المسلمين في آخر الدنيا، روحي فدا المسلمين وفدا الشام والقدس، فقلت: القدس بيد الإنكليز، والإنكليز جيرانكم وأصحابكم في عدن. فقال لا والله الذي يأخذ بلادنا ما هو بصاحبنا والجهاد فيه لازم.. وأردف بكلام كثير كله غيرة و حمية، ولا يسعني ذكره الآن لأسباب بديهية .. إنما يمكنني القول بأن معظم أهل اليمن من زيود وشوافع يغارون على إخواهم المسلمين في جميع المعمورة غيرة دينية صحيحة ويرغبون كثيراً في سماع أخبارهم والاستفسار عن أحوالهم، وقد سمعت من بعضهم أقوالاً أشد حماسة من أقوال صاحبنا الغساني هذا من جهة عامة الناس غير المسؤولين عن السياسة، وأما من جهة الخاصة وجهة المسؤولين عن سياسة الدولة فجميعهم أيضاً يشعرون نفس الشعور ويظهرون عين الميل، ولكنهم لبعدهم عن البلاد

الإسلامية ولعدم وجود الدعاية الكافية لتوحيد كلمة العرب وعدم معرفتهم بشؤون العرب معرفة صحيحة يميلون إلى سياسة العزلة والانفراد.

النساء القرويات والنساء المدنيات

وفي أثناء الطريق كان يمر بنا كثير من النساء القرويات ذاهبات بمفردهن أو مع رجالهن إلى الحقول والجبال لقضاء الأعمال المختلفة، والنساء القرويات في اليمن كغيرهن من نساء القرى في جزيرة العرب يقمن بمعظم أعمال الرجال من زراعة وحراثة ونقل وذهاب إلى الأسواق لبيع الحاصلات وجلب البن وتقشيره إلى غير ذلك من الأعمال الخشنة، وعلاوة على مشاركتهن للرجال في هذه الأعمال فإنهن يقمن بأعمال منزلهن خير قيام، ويعنين بتربية أطفالهن، وقد لاحظت أنهن نشيطات جداً على العمل ويشتغلن ليل نهار دون كلل أو ملل، ولا يتناولن من الراحة إلا قسطاً يسيراً.

ويميل لون النساء في الجبال إلى السمرة، وفي السهول إلى الصفرة وهذا خلاف ما يتبادر إلى ذهن الإنسان في مثل هذه الأحوال، لان النساء في الجبال عادة يميل لونهن إلى البياض والحمرة، ولكن حرارة شمس اليمن تغير الألوان وتحرق الأجسام، ومن اللطيف في بعض نساء اليمن أنهن يزدن في سوادهن أو صفارهن سواداً أو صفاراً يوضع الأخضبة والأدهان على وجوههن وأذرعهن وهن يعتبرن أن الجمال "التواليت" بالسمار والصفار كما يعتبر نساء الغرب أن الجمال "التواليت" في الحمرة والبياض.

وتختلف أزياء نساء اليمن اختلافاً بيناً لم أر مثله في جزيرة العرب: فبينما يشاهد الإنسان نساء قبائل تهامة نصف عاريات يرى نساء صنعاء متحجبات من أعلى الرأس إلى أخمص القدم بشكل لا يمكن معه للمرء أن يرى من تركيب أجسامهن شيئاً، حتى ولا يقدر أن يفرق بين ظهورهن ووجوههن إلا من حركة سيرهن إذا كن مقبلات أو مدبرات، ويكثر نساء اليمن من التزيين بالحلي المختلفة وعندهن حلي للرأس وللعنق وللأذن وللأنف وللمعصم وللزند وللكاحل وللصدر، وبالاختصار لجميع أعضاء الجسم. وقد رأيت كثيراً منهن يلبسن أثواباً بلا أكمام ولا تختلف عن عادة "موضة" سيدات بلادنا كثيراً، ويلبسن فوق زنودهن الأساور

الضخمة المصنوعة من الفضة ومعظم الحلي مصنوعة من الفضة ويقولون لها "مُخْلَصْ" وبعضها مطلي بالذهب، وبعضها من الذهب الخالص، وتختلف أسماؤها عندهم عن أسمائها عندنا، ويقوم بصناعتها اليهود ويتقنونها اتقانا بديعاً، وقد نقلوا عن رسوم الحلى التركية رسوما متعددة فجاءت نادرة الجمال.

ومن المشهور عن سيدات اليمن شدة عفافهن وتمسكهن بدينهن، والقيام بجميع فروضهن وإطاعتهن لأزواجهن ولذويهن بالرغم من ضغط هؤلاء عليهن ضغطاً شديداً، ويكثر الرجال في اليمن من الزواج، وقلما يجد الإنسان رجلاً متزوجاً بأقل من زوجين أو ثلاثة، وكثيراً ما يطلّق الزوج زوجاته ويتزوج من غيرهن، وربما بلغ عدد زوجات بعضهم من مطلقات وغير مطلقات الثمانية أو العشرة أو أكثر، وقد روى لي أحدهم عن نفسه أنه تزوج من تسع زوجات طلق منهن ستا وبقى عنده ثلاث، وقد رزقه الله من جميع زوجاته 25 ولدا مات منهم 16 وبقى عنده تسعة. فسألته وكيف كان بإمكانه أن يعدل بينهن؟ فقال: إن الأمر سهل جداً لان النساء في اليمن قد ألفن تعدد الزوجات فلا تجد الغيرة إليهن سبيلاً ولا يؤاخذن رجالهن على الزواج ولا يلمنهم، ويعيش غالباً زوجات الرجل في منزل واحد دون أن يحدث بينهن شجار أو خصام.

إمام اليمن يعطف على المرأة

لم تهتم الدولة العثمانية بتعليم نساء اليمن وتثقيفهن —شأنها في جميع البلاد العربية التي كانت تحت حكمها— وندر أن يجد الإنسان في اليمن امرأة متعلمة، وأظن أن هذا الإهمال كان من حسن حظ الرجال.. فلا يتنازع الرجل هناك مع المرأة كما يتنازع معها في البلاد الراقية! ولكن يظهر أن الإمام لم يكن راضياً عن هذا الإهمال ولذلك أعار النساء شيئاً من عنايته، فقد شاهدت في صنعاء وغيرها من المدن الكبيرة كتاتيب "أي مدارس" تأتي إليها البنات ليدرسن القراءة والكتابة وشيئاً من العلوم الدينية.

ومن ألطف ما سمعت عن النساء اليمن في جهة نجران أنهن يرقصن مع الرجال أزواجاً أزواجاً على نغمات الرباب وضرب الدفوف رقصاً يشبه "فوكس تروت"

و"الفالس" وقد الفن هذه العادات من أجيال عديدة، ويشارك بعض النساء اليمن رجالهن في شرب القشر و"تخزين" القات.

وصلنا إلى أسفل جبل عصر بعد هبوط دام نحو ساعة من الزمان، فالتفت إلى الوراء وإذا بالجبل يبدو أسود قاتماً فوق السحاب، وهو جبل بركاني يأخذ منه أهل صنعاء حجارتهم السوداء التي يستعملونها في بناء دورهم، والمشهور عن أحجار هذا الجبل إنها صلبة جداً.

طبقات الأرض

ويجدر بنا قبل أن ندخل بالقارئ الكريم إلى صنعاء أن نلتفت إلى خلفنا حتى الحديدة، ونبين طبيعة الأراضي التي اجتزناها من حيث الجيولوجيا والمراحل التي قطعناها من حيث الوقت فنقول:

من الحديدة إلى باجل مرحلة، يوم كامل على البغال، وأرضها سهول رملية يقال لها بالإنكليزية "سيديمنترى" فيها شيء كثير من المتحجرات.

من باجل إلى الحجيلة – أرض رملية وكلسية، وفيها شيء من المتحجرات– وهي مرحلة يوم واحد على البغال.

من الحجلية إلى مناخة مرحلة يوم واحد، في جبال وعرة لا طريق فيها، وكلها بركانية.

من مناخة إلى مفحق مرحلة يوم كامل، في وديان وجبال بركانية.

من مفحق إلى متنة مرحلة يوم كامل، في جبال ووديان بركانية.

من متنة إلى أبواب صنعاء مرحلة نصف يوم تقريباً، في جبال بركانية ووديان متسعة خصبة.

وقد شاهدت في بعض الأماكن على طول الطريق بين الحجيلة وصنعاء نوعاً من الصخور التي يقال لها "كونكلامرت" "Conglamerete" وهي كناية عن أحجار بركانية صغيرة التصق بعضها ببعض بالتراب والطين بفعل المياه والسيول وهذه تشير إلى كثرة المياه التي مرت فيها.

وشاهدنا أيضاً في بعض الأماكن تبر الحديد ويقال له "Hematitie" وشاهدنا في أسفل جبل مناخة نوعاً من الأحجار ويقال له "Rhigolite" وهو مائل إلى الخضرة، وفي أحيان كثيرة يوجد النحاس إلى جانبه، ولكننا مع الأسف لم نجده هاهنا، ويقول الناس، ويذكر بعض المؤرخين أنه يوجد باليمن معادن كثيرة، وأما نحن فلم نشاهد شيئاً بطريق الحديدة وصنعاء، ولكننا وجدنا بعض المعادن الثمينة بعد وصولنا إلى صنعاء وسنأتي على ذكرها فيما بعد.

سهل عصر

من أسفل جبل عصر امتطينا بغالنا وسارت الطريق في سهل متسع يقال له سهل عصر[1]، ومررنا في منتصفه تقريبا بقرية صغيرة فيها سبيل ماء ومسجد بناهما إلى جانب الطريق أحد أصحاب الخير لراحة المسافرين، وهنا وقفنا قليلاً فسقينا بغالنا وشربنا وسرّحنا نظرنا في هذا السهل الواسع الذي يظهر من لون تربته ونعومتها وعمقها أنها خصبة، ولكني رأيت معظم هذا السهل بوراً لا زرع فيه فأخذني العجب لهذا الأمر، لأن أهل اليمن وخصوصاً سكان الجبال نشيطون ويحبون العمل، وقد رأيناهم في الطريق - كما يذكر القارئ الكريم - قد حولوا الجبال إلى حقول مغروسة، فما بالهم قد أهملوا هذا السهل الخصب الواسع؟ هذا سؤال كان يدور في خلدي عندما مررت بهذا السهل، وقد وجهته إلى واحد من الناس الذين كانوا يرافقونا في الطريق، فقال لي: إن البحر هنا بعيد، وإخراج الماء منه متعسر، فلم أفهم شيئاً من هذا التصريح، وبعد أخذ ورد وسؤال وجواب علمت أن البحر معناه نبع الماء في داخل الجب، أي البئر، وبعيد أي عميق. وبعبارة أوضح، قال: إننا لو أردنا أن نحفر آباراً في هذا السهل لعز علينا ذلك، أولا لان البئر ستكون عميقة جداً، وثانياً لأن إخراج الماء منها سيكون صعباً ومتعباً للغاية، وقد تحققت فيما بعد صحة قول هذا الرجل بنفسي فقست عمق أول بئر رأيتها في هذا السهل فوجدت عمقها مائة قدم ونيف، أي 35 متراً، وبما أن وسائط استخراج الماء بالآلات الرافعة من أعماق سحيقة غير متوفرة في اليمن لذلك اكتفى اليمانيون في مثل هذه الأحوال

---

(1) قلت: هذا السهل الفسيح الذي يصفه المؤلف (الواقع بين جبل عصر وصنعاء القديمة) قد امتد إليه في الوقت الحاضرعمران مدينة صنعاء وغطاه بالكامل، بل وبدأ العمران حاليا يمتد إلى سفح جبل عصر.

بغرس هذا السهل وغيره من السهول التي على شاكلته أيام المطر فقط، أي اكتفوا بالزراعة البعلية كما هي الحال عندنا في جبل الدروز وحوران.

ويوجد في أطراف هذا السهل الممتد إلى شمال صنعاء، وفي صنعاء نفسها كثير من المزروعات والحدائق الغناء فيها من كل فاكهة زوجان، ويوجد في شمالي هذا السهل نوع من أنواع الشجر غير المثمر ويقال له الأثل، وينمو هنا بكثرة عجيبة ويستعملونه للوقود، ولكنه شجر صغير الحجم لا ينمو كثيراً ولا يفي بالمراد، ويوجد في هذه الجهة ماء كثير وقريب من سطح الأرض ولو أنهم غرسوا عوضاً عن الأثل أنواعاً جيدة من الأدواح والأشجار الضخمة في هذه الجهات كـ(اليكاليبتوس) مثلاً لكان لهم منه فائدتان: الأولى حطب الوقود، والثانية خشب البناء، وفي الحق أنهم في صنعاء بحاجة ماسة إلى خشب البناء الذي يكاد يكون مفقوداً بالمرة ويجلبونه إليها من مسافات بعيدة، وقد شاهدت في صنعاء بعض شجر اليكاليبتوس، كان الترك قديماً قد غرسوه في المستشفى العسكري وفي مكتب الصناعات وفي بعض الدور، ولذلك فأنا متيقن بأن هذا الشجر ينمو نمواً جيداً في صنعاء وضواحيها.

تابعنا السير في هذا السهل الواسع إلى أن وصلنا نحو العصر إلى أحد أبواب صنعاء المسمى (باب قاع اليهود) وسمي بذلك لأنه قائم في آخر السهل الممتد إلى حي اليهود، وهنا وافانا شرطي فكتب أسماءنا وأخذ سلاح جنودنا لأنه لا يسمح لغير جنود صنعاء وحرسها أن يحملوا سلاحاً داخل المدينة، وسألنا الشرطي بعد كتابة أسمائنا: هل أنتم قادمون من مدخل "أي من خارج اليمن" ضيوفا على مولانا الإمام؟ فأجبناه بالإيجاب، فقال: على الرحب والسعة، هيا تفضلوا.

أبواب صنعاء وسورها

ولصنعاء ستة أبواب وسور يحيط بها من جميع أطرافها وتدعى هذه الأبواب: (باب البلقة)، فـ(باب الشقاديف)، فـ(باب اليمن أو عدن)، فـ(باب شعوب)، فـ(باب خزيمة)، فـ(باب الروم)، وأجمل هذه الأبواب وأتقنها صنعاً وأكثرها عرضاً وترتيباً (باب عدن) وأما، سورها فمبنى من جدران غليظة معمولة من الطين واللبن "أي الآجر غير المشوي" ويوجد في هذا السور على أبعاد متناسبة بروج "كركونات" خاصة بالجنود الموكول إليهم حراسة البلد وهذه البروج قائمة على مسافات هندسية

متساوية من الأبواب، وفيها رمايات كرمايات المنجنيق، وأماكن خاصة للمراقبين يقف فيها الحراس ليل نهار، ولهم في الليل نظام خاص يتأكدون بواسطته من تيقظهم وانتباههم، وذلك بواسطة الصياح بعضهم على بعض وترديد بعض العبارات المعروفة عندهم والتي لم أتمكن من فهمها، ويبتدئ بالصياح عادة الحارس القريب من سراي جلالة الإمام، فينادي بعبارته المعروفة فيرددها في الحال حارس المخفر القائم إلى جانبه، وهكذا دواليك إلى أن يردد جميع الحراس بالمخافر هذه العبارة ويصل الدور إلى حارس السراي فينادي بعبارة أخرى فيرددها الجميع، وأحياناً زيادة في الحرص وفي ظروف خاصة يستعملون الأبواق في تبليغ الأوامر العسكرية وفي إبلاغ بعضهم إلى بعض وقت الصلاة أو الساعة إلى غير ذلك من الأمور المهمة.

موكب الغرباء في قاع اليهود[1]

النساء في اليمن آلة التصوير تخيفهن اكثر من البندقية

ما كدنا نسير في قاع اليهود مسافة يسيرة حتى تبعنا من الأولاد والرجال جمهور كبير، وأخذت نوافذ البيوت تفتح وستائر النوافذ تكشف قليلاً، وقد وقَفَتْ خلفها بعض السيدات اليهوديات يستعرضن موكب الغرباء وينظرن إليهم بأعينهن الفاتنة حتى إذا ما وقعت العين على العين أقفلن النوافذ وأرخين الستائر، ويشردن هاربات داخل غرفهن، ورأينا بعضهن في الطريق يسدلن على رؤوسهن غطاء أزرق أو أسود، ويلبسن تحته طاقية مزركشة بالخرز والفضة، ويلبسن عادة أثوابا "فساتين" زرقاء وتحتها سراويل طويلة تبلغ إلى الكواحل، محلاة بالأشغال اليدوية من قصب وفضة، ويلبسن في أرجلهن أحذية ذات كعب قصير من دون جوارب، وجميعهن يخرجن في الأسواق سافرات الوجوه، ولكن إذا صادفن غريباً، أي أجنبياً مثلنا بالطريق، فإنهن يسدلن قسما من غطاء رؤوسهن على وجوههن فلا يتمكن الغريب من رؤية شيء منهن غير أعينهن. وأردت مراراً أن أصور بعضهن فكن ينفرن مني ولكني تمكنت من تصوير بعضهن خلسة صوراً عديدة وأرسلتها في البريد إلى مصر "ولكن سامح الله الذي أوصل أكثرها إلى حيث لا أعلم...".

---

(1) قاع اليهود: من أحياء صنعاء القديمة، في الغرب منها، سمي بعد الثورة: قاع العلفي، باسم الشهيد عبد الله العلفي.

ومن الغريب أن جميع النساء اليمن مسلمات ويهوديات بخلاف الرجال والأولاد كن ينفرن من التصوير نفوراً غريباً، واتفق مرة أني أردت تصوير إحدى القرويات الجبليات، ولما رأتني فتحت آلة التصوير ووجهتها نحوها أخذت تصيح وتستغيث وتبكي بكاء مراً كأني سددت إليها بندقية أو مدفعاً. وعبثاً حاول أحد رفقائي من اليمانيين أن يخفف من روعها وعويلها فلم تسكت حتى سرنا وابتعدنا عنها بعشرات الأمتار، وهذا بخلاف الأولاد والرجال الذين كانوا يضايقوننا كثيراً كيفما سرنا، ويتبعونا من مكان إلى آخر منادين بأعلى صوتهم: صورني صورني.

صنعاء قطعة من جنة عدن

وهي ثالثة الجنان بعد دمشق!! ...

وما كادت أرجلنا تطأ أرض صنعاء حتى أوفدوا إلى "المقام الشريف" أي إلى سراي جلالة الإمام يعلمونه بوصولنا، وقد قابلنا في آخر قاع اليهود جندي من عكفة الإمام "أي حرس الإمام" أتى موفداً من قبل المقام الشريف ليهدينا إلى الدار التي أعدت لنزولنا، وبعد أن قدم نفسه إلينا وعرفنا بمهمته قال: هيا تفضلوا معي، وسار أمامنا إلى دار كبيرة فسيحة قائمة في أول حارة (بئر العزب) يقال لها (دار الزيدي).

أما حديقة الدار فتشبه في كثير من الأحوال بساتين وادي النيربين في أرض الصالحية، ففيها من كل فاكهة زوجان، وقد رأيت شيئاً كثيراً من شجر التفاح والمشمش والخوخ والسفرجل والدراق والكرمة والرمان والأجاص، ومن النباتات والخضر شاهدت القرنبيط واليخنة والكرنب والسبانخ والسلق والقرع والفاصوليا والجزر والبصل والثوم إلى غير ذلك، وقد جلب الترك معظمها من سورية فوافقتها الأقاليم وصارت في جملة الخضراوات الوطنية، وأول شيء استرعى نظرنا عندما دخلنا الدار من باب الحديقة هو (الشادروان) القائم في وسطها، و(الشادروان) هو البحرة في المنزل يجري إليه الماء في "نوافير" جميلة، وقد ذكرتني هذه النوافير عند ما رأيتها لأول مرة بنوافير الربوة بدمشق.

ويقال لهذه الدار (دار الزيدي) وقد دخلناها من بوابة خشبية كبيرة تشبه أبواب الحدائق عندنا، وفيها باب صغيرة (باب خوخة) يدخل منه الناس، والباب

الكبير خصص لدخول الحيوانات بما فيها الجمال، وأول شيء شاهدناه خلف البوابة هو منزل عامل الحديقة "الجنايني" الموكول إليه حراستها وغرس حديقتها، وهو كناية عن غرفتين أرضيتين فوقهما غرفة صغيرة في حوش كبير يسكن وعائلته فيها.

وإلى جانب منزل الجنايني يوجد صالون كبير خصص للزوار، وخلفه غرفتان خصصتا لخدم الضيوف الذين ينزلون بهذه الدار، وإلى جانب هذا الصالون الكبير توجد حديقة كبيرة قائمة في وسطها دار جميلة مبنية على الطراز التركي من الحجر الأبيض والأسود.

وأول ما يسترعي نظرك في صنعاء النواعير[1] والمياه الجارية فيها، فإن المياه تجلب إليها من مسافات بعيدة عالية حيث تجمع من مياه الأنهر، وأما النوافير فماؤها يأتيها من خزانات (برك) مرتفعة، وتملأ هذه الخزانات من الآبار بواسطة الحيوانات كالحمير والبقر والجمال، إذ يربطون دلواً كبيراً من الجلد يسع نحو أربع تنكات (صفائح) ماء إلى بكر ويدلونه في البئر ويربطون حبل البكر إلى حيوان ويجعلون هذا الحيوان يمشي من حافة البئر مسافة مساوية لعمق البئر إلى الإمام فيسحب الدلو من قعر البئر إلى سطحها، ومتى وصل الدلو إلى سطح البئر يفرغ ماؤه في الخزان، فيعود الحيوان أدراجه نحو البئر فيسقط الدلو بالبئر رويداً رويداً وهلم جرا، وقد قست عمق بئر دارنا فوجدته 82 قدماً ومتى امتلأ الحوض الذي يختلف حجمه باختلاف مساحة الحديقة التي تشرب منه يستعملون ماءه لسقاية الأشجار والخضراوات، ويوجد في صنعاء مئات من المنازل فيها حدائق على هذه الصورة تشرب من ماء الشادروان، ويوجد فيها أيضاً حدائق كثيرة تشرب من ماء (الغيول) والغيول جمع غيل — أي قناة الماء الصغيرة– ويسوق الحيوانات على البئر في أكثر الأحيان أولاد صغار لا تتجاوز سنهم الثانية عشرة، ولهم في ذهابهم وإيابهم مع الحيوان غناء وأناشيد خاصة ينشدونها طيلة النهار، أما موسيقى هذا النشيد فهي صوت احتكاك الحبال على البكر، وفي الحقيقة تتولد من غناء الأولاد وصوت الحبال أنغام لطيفة لا يسمعها الإنسان في غير صنعاء، ولكن من المتعذر على الغريب أن يفهم هؤلاء الاولاد.

---

(1) قلت: لعل المؤلف يقصد النوافير التي هو بصدد ذكرها، إذ لا توجد نواعير في صنعاء.

أنشودة البئر

ولدى الاستفهام من بعض رفاقي عما ينشد هؤلاء الأولاد عرفت أنشودة البئر وهذه هي:

بالله عليك يا طالعي من البير البنت شمعة والوليد[1] قنديل

بالله عليك يا طير يا رمادي صف الجناح وردني بلادي

وقد شاهدنا في بعض الأماكن البعيدة عن صنعاء رجالا ونساء يعملون على البئر عوضاً عن الحيوانات: وقيل لنا: إنه في إمكان الواحد منهم أن يشتغل على البئر عدة ساعات متوالية، ولكن ماء الآبار هنالك قريب من سطح الأرض لا يحتاج إلى عناء كثير لاستخراجه، ويوجد خلف الشادروان غرفة جميلة لها نوافذ زجاجية ذات ألوان مختلفة كالأحمر والأصفر والأزرق الأخضر يستعملها رب البيت كصالون للإستقبال ويعقد فيها مجلس القات، أما نحن فاستعملناها كغرفة للطعام، وكانت هذه الدار تخص أحد قواد الجيش العثماني أيام الحكومة العثمانية، ولما غادر العثمانيون اليمن باعها صاحبها إلى بيت المال، وقد سكنها جلالة الإمام مدة من الزمان قبل أن تبنى سرايه العامرة، وهي مؤلفة من ثلاثة أدوار: الدور الأول وفيه غرفة فسيحة للاستقبال وبعض الغرف للمؤونة والمطبخ، والدور الثاني فيه أربعة غرف فسيحة للسكن والنوم، والدور الثالث فيه غرفتان صغيرتان للنوم أيضا، وفوق هذا الدور يوجد غرفة صغيرة يقولون لها المنظرة، أي طيارة، مكتوب على جدرانها: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ومحفور عليها بعض الآيات القرآنية، وهي مطلقة من جميع الجهات حيث يمكن للإنسان أن يشرف منها على جميع المدينة، وفيها عدا نوافذ الزجاج الملون نوافذ صغيرة مصنوعة من حجر المرمر، واستعمال المرمر للنوافذ كزجاج شائع جدا في اليمن ويجلب المرمر كأحجار كبيرة إلى صنعاء من مكان يقال له الغَرَاس[2] وقد حفروا هنالك مقالع عظيمة يقلعون منها هذه الأحجار ويجلبونها إلى

---

(1) في الأصل: الولد، والصواب: الوليد، بالتصغير، حتى يستقيم الوزن.

(2) غي الأصل: الفراس، بالفاء، والصواب: الغَرَاس، بالغين، وهي منطقة زراعية وأثرية في الشمال الشرقي من صنعاء، بنحو 25كم، في أطراف بني حُشيش، ومازال مشهورة بمقاطع (مقالع) الحجر الجيري المستخدم في صناعة الجبس (القص).

صنعاء حيث ينشرونها ألواحاً رقيقة كألواح الزجاج بمناشير خاصة كما ينشر النجار الخشب ويستعملونها عوضا عن الزجاج، وينطبق وصف هذه الدار على جميع دور الحي المعروف بحي بئر العزب، وقد بنى هذا الحي رجال الحكومة العثمانية أيام دولتها وهو في الحقيقة حي جميل ودوره متقنة ومريحة.

قائد الروضي

ما كاد يستقر بنا المقام ساعة من الزمان في هذه الدار حتى جاءنا رجل يدعى قائد الروضي موفداً من قبل المقام الشريف ليؤمن راحتنا، وقد جلب لنا معه أسرة حديدية وفرشاً وثيرة وسجاداً عجمياً وبعض الكراسي والطاولات إلى غير ذلك من لوازم البيت، وبعد التحية قال: عفواً يا حضرات الضيوف الكرام ما كنا متوقعين وصولكم اليوم، بل ظنناكم ستصلون غداً، لذلك لم نُعدّ لكم الدار قبل الآن، وإنما الخيرة في الواقع، وهاأنذا قد جلبت لكم معظم لوازمكم، وقد أمرني جلالة مولانا أمير المؤمنين أن أحضر لكم جميع ما تشتهون، فما عليكم إلا أن تطلبوا ما تشاءون وأنا رهن إشارتكم، وعلمت فيما بعد أن هذا الرجل مأمور إعاشة سراي الإمام ويهتم بخدمة ضيوفه، وإن هي إلا نصف ساعة حتى نظفت دارنا وكنست ورشت من ماء الشادروان ووضع الأثاث في مواضعه فصار لنا صالة استقبال وغرفة طعام وغرف نوم ومطبخ وكراسٍ لنجلس عليها ومائدة نتناول عليها طعامنا وملاعق وسكاكين الخ.

ولا أنكر عليك أيها القارئ الكريم بأن سرورنا كان عظيماً بهذه الأشياء لأننا في الطريق –كنا لا يخفاك- كنا محرومين منها "وفي الحقيقة لا يجد الإنسان لذة في استعمال شيء من الأشياء من ضروريات هذه الحياة إلا متى حرم من استعماله زمناً طويلاً".

جلسنا في غرفة الطعام وقد أعد لنا طاهينا شيئاً من الحليب والشاي وكان الشادروان بنوافيره ومائه يزين المكان برونق خاص وبهجة خاصة، ومن خلفه الحديقة وقد ماست فيها أغصان الصفصاف والمشمش والكرمة، وغنى على أفنان بأنها البلبل والشحرور فزاد هذا المنظر اللطيف جمالاً على جماله وأنساً فوق أنسه، فشربنا الشاي بلذة منقطعة النظير، وكاد نسيم صنعاء الجاف العليل ينسينا الدنيا ومن عليها، وخلنا أنفسنا في قطعة من جنات عدن، فذهبت عنا جميع مشاق الطريق ومتاعبه وثبت لنا

صحة ما كنا نسمعه في أثناء السفر على ألسنة بعض الناس من أن صنعاء هي ثالث الجنان، وأما الجنة الثانية فهي دمشق، والأولى جنة عدن.

وبعد أن فرغت من شرب الشاي جاءني قائد الروضي — وكان ينتظر انتهاءنا من تناول الشاي على مسافة بعيدة عنا— وقال بلطف: أنتم ضيوف جلالة مولانا أمير المؤمنين، وأنا مكلف عن المقام الشريف أن أجلب لكم كل شيء تحتاجونه من المواد الغذائية وغيرها، وان كنتم بحاجة إلى طاه فإني مكلف أيضاً بجلبه لكم، وعندنا طاه حاذق جداً ويعرف الطبخ على الطريقة التركية. فقلت له: أما الطاهي فلا حاجة لنا به لأن طاهينا معنا ومعتاد على الطبخ، وأما المواد الغذائية فإننا نتقبل مع الشكر الجزيل كل ما يتكرم به جلالة الإمام، فقال: ناهي —أي حسن— غداً صباحاً سأجلب لكم حاجاتكم أن شاء الله، فإلى اللقاء، والسلام عليكم، فقلت: وعليكم السلام وحمة الله وبركاته.

خرج الرجل من الدار مسرعاً وبقيت أتتبعه ببصري وأنا أفكر في أدبه ولطفه وعدم إزعاجه إيانا وقت تناول الشاي رغم إنه كان مشغولاً يريد الإنصراف، وقد لاحظت في كثير من المواقف والمناسبات أدبا جما عند اليمانيين ودقة في الملاحظة وميلا شديداً إلى عدم التدخل في مالا يعنيهم.

بستاني الحديقة

بعد ما انصرف الروضي نهضت من مكاني وأنا لا أزال أفكر فيه، وأخذت أتمشى في الحديقة فوقع نظري على البستاني فذهبت إليه، وقلت له: أسعدت مساء يا عم! فأجاب: مساكم الله بالخير والعافية، فسألته: من يكون قائد الروضي؟ وما هي وظيفته؟ فأجاب إنه من أهل صنعاء وهو مأمور الإعاشة في المقام الشريف، وموكول إليه الاهتمام بشأن الضيوف وتأمين راحتهم ومأكلهم ومشربهم، وهو يجلب لهم حاجياتهم من نفس الحاجيات التي تقدم لسراي جلالة الإمام، ويأتي لزيارتهم يومياً، وكان يكلمني وهو مهتم بقلع بعض الأعشاب الغريبة التي كانت تنمو بكثرة بين الخس، وقد لاحظت أن المعول الذي كان يستعمله لقلع الأعشاب بسيط جداً، فأخذته وقلبته بيدي فوجدته من مصنوعات صنعاء وهو طويل مصبوب من حديد واطئ ويده الخشبية قصيرة للغاية تكاد تكون بطول الحديد فقط، وهم يستعلمون

هذا المعول ويقولون له "مفرس" للحفر والردم ولكل شيء في الحديقة، وليست سائر أدواتهم الزراعية بأفضل من المفرس، فمحراثهم لا يبلغ طول القسم الحديدي منه — أي السكة التي تدخل في الأرض- بضعة سنتمترات، وفي أغلب الأحيان يصنعون السكة من الخشب عوضاً عن الحديد، إنما شدة خصب أراضيهم تجعلها تدر خيرات كثيرة بالرغم من هذه الوسائط الزراعية الابتدائية.

وقد روى لي غير واحد من أهل بلاد الجوف الواقعة على مسير بضعة أيام إلى شرقي صنعاء أنهم لا يستعملون هنالك المحاريث والسكك أبداً حتى ولا يعرفونها، بل يجلبون البقر إلى الحقل ويجعلونها تمشي فيه ذهاباً وإياباً مرات متعددة، ثم يطرحون بذورهم تحت أرجلهم فتطأها وتغرسها في الأرض. ومن الغريب أنهم يحصدون من هذا الزرع الابتدائي كميات عظيمة من الحنطة والذرة، وينتج المد عندهم على أقل تعديل خمسين مداً. وقد روى لي واحد من أهالي قرى الجوف أنه لا يوجد عندهم في قريتهم سوى معول واحد يستعملونه في حفر القبور لدفن الموتى.

طفت الحديقة بصحبة البستاني فرأت كثيراً من الأغصان اليابسة باقية على الأشجار ورأيت بعض الأشجار كالسفرجل والتفاح والخوخ والرمان صغيرة الحجم وكثيفة الأغصان ولاحظت أيضاً في كثير من حدائق صنعاء وحدائق قرية وادي القابل "وهي عندهم بمثابة الغوطة عندنا" وتبعد عن صنعاء نحو ساعة بالسيارة وإن أشجارها تشبه الأشجار البرية في قلة الإعتناء بها وعدم قطع أغصانها التي لا فائدة منها وتركها وشأنها تنمو حسب الطبيعة حتى أصبحت الحدائق كالغابات البرية يتعذر دخولها إلا بصعوبة. وقد سألت بعض القرويين والفلاحين لماذا تتركون أشجاركم على هذه الصورة من قلة الاعتناء؟ فقالوا: هذه هي العادة عندنا ألفناها منذ القديم وورثناها أبا عن جد! فأجبتهم: إنكم مخطئون بهذا العمل فلو أنكم قلمتم الأشجار وقطعتهم الأغصان اليابسة التي لا فائدة منها وغرستم أشجاركم بعيدة بعضها عن بعض لغدت أشجاراً كبيرة ونمت نمواً جيداً وفاضت عليكم بمحصول أفضل بكثير من محصولها الحالي، فأجابوا: والله ما عرفنا هذا من قبل الآن أحد ولا علمنا كيفية الزراعة، إن شاء الله سنجرب هذه الطريقة لعل فيها خيراً....

انتشار زراعة الفواكه والثمار في صنعاء

ومن اللطيف عند اليمانيين أنهم إذا رأوا رجلاً أعلم منهم ببعض الشؤون وأبدى لهم بعض الملاحظات التي لم يألفوها والتي لا تتفق مع عاداتهم ورأوا احتمال صوابها لا يدافعون عن نظرياتهم القديمة ولا يقولون كما يقول كثير غيرهم: لا! إن طريقتنا أفضل وإننا وجدنا آباءنا وأجدادنا عليها فلا يمكننا أن نغيرها! بل بالعكس هم يأخذون بالنظريات الحديثة ويجربونها فإذا وجدوها أفضل من نظرياتهم وعاداتهم اتبعوها وإلا رفضوها. وهم بطبيعتهم أذكياء ويفرقون بالبداهة بين الغث والسمين.

وبالرغم من عدم الاعتناء بالأشجار اعتناء فنياً وبالرغم من تركها على هذه الحال من الإهمال فهي تأتي بأثمار جيدة وشهية. كل ذلك عائد إلى جودة المناخ وطيبة الأرض، ولا شك أنهم لو عنوا بها عناية فنية لزادت وارداتهم زيادة كبيرة، وقد رأيت بحديقة منزلنا بعض أشجار المشمش مطعمة بالأجاص والدراق، فاسترعت نظري كثيراً، ومع أن دمشق مشهورة بفاكهتها فلم أشاهد فيها حتى ولا سمعت بأن المشمش يطعم بالأجاص والدراق ولا قرأت في الكتب الزراعية أنه يطعم بهذه الأنواع من الثمار، فسألت البستاني: من الذي هداكم إلى تطعيم الأشجار على هذه الصورة؟ فأجاب أن بعض الموظفين الترك أيام الدولة العثمانية جلبوا معهم من بلاد مدخل – أي خارج اليمن- أنواعا مختلفة من الأشجار والطعوم والبقول وجربوها في صنعاء وغيرها من البلاد، فبعضها وافقها الهواء والتربة فنمت وازدهرت وعمت زراعتها، وبعضها أحرقتها شمس اليمن الحارة فماتت لوقتها.

غيل آلاف والغيل الأسود والآبار

وشاهدت بين حديقتنا وحديقة جارنا جدول ماء صغير وهو أول جدول ماء رأيته في صنعاء، فسألت البستاني عنه فقال لي: هذا (غيل آلاف) – والغيل يعني الجدول- وماؤها الآن قليل لقلة الأمطار ولكنه يزداد بموسم المطر كثيراً ويسقى معظم حدائق بئر العزب وبعض الأراضي الزراعية بأطراف صنعاء، ونبعه في الجبال على مسافة بضع ساعات من صنعاء، و يوجد بصنعاء غيل آخر غير هذا الغيل واكبر منه

ويمر بباب الشرارة ويدخل حديقة سراي جلالة الإمام ويستعمل الأهلون ماءه للشرب ولري المزروعات، وهو صغيراً أيضاً بالنسبة لأنهر دمشق، ويقال له (الغيل الأسود)، وفي الحقيقة لا يوجد باليمن أنهر كبيرة بالمعنى المفهوم من النهر ولكن يوجد بعض الأنهر التي تعادل أنهرنا وتزداد أيام الأمطار زيادة متناسبة مع الأمطار، وفي وقت المطر تسيل سيول عظمية في الشعاب والوديان بشدة عدة ساعات أو أيام ثم تشح وتنشف عقيب انتهاء الأمطار، وهذا ما حدا بالحميريين في العصور الأولى لبناء سدود وخزانات عظيمة وقد شاهدت في أماكن مختلفة سدوداً كثيرة.

بيد أن المياه في اليمن موجودة بكثرة في جوف الأرض وعلى أعماق مختلفة تتراوح بين متر واحد وثلاثين أو أربعين متراً، وفي بعض المحال الجبلية يبلغ عمقها خمسين متراً وأكثر، والدليل على كثرتها أنني شاهدت المئات من الآبار في أماكن مختلفة بعضها قريب من بعض وينبع ماؤها من طبقة ترابية تدعى بالإنكليزية "ترف" لا من طبقات صخرية، وهذه الينابيع قريبة من سطح الأرض وتدل على كثرة وجود المياه في الأرض وفي أغلب الأحيان تنضب هذه الينابيع إذا أكثر الإنسان من سحب مائها، لان الماء يرشح إليها رشحاً من الأراضي الترابية المجاورة، ولكن إذا اخترق الإنسان هذه الطبقات الترابية إلى أن يصل إلى الصخر الأصم عندئذ ينفجر الماء بكثرة ولا ينضب معينه مهما أخرج منه، ولكن أصحاب الآبار والمزارعين في اليمن لما يدركوا ذلك حتى الآن. والغريب إنني لم أشاهد بئراً واحدة تنبع من الصخر رأساً، ولهذا فالآبار تنضب كل يوم ثم يتنظرونها حتى تمتلئ ثانية فيعيدون الكرة عليها.

وقد طلب إلينا الكثيرون أن ترشدهم إلى طريقة تزداد معها مياه آبارهم دون أن يحفروها إلى الصخر فقلنا لهم يمكنهم أن تحفروا عدة أقبية جانبية في قعر البئر لا يزيد عرض الواحدة منها على ربع متر وطولها متر ونصف وهي تضمن لكم زيادة ينابيعكم فعمل البعض بهذه النظرية البسيطة فازداد الماء كثيراً.

مناورات الإنكليز للتحالف مع الإمام

حديث المعاهدة الإنكليزية مع البستاني

وفي أثناء تحدثي إلى البستاني وجه لي أسئلة متعددة، فكنت أجاوبه عليها بالتفصيل، ومما قاله لي: يظهر من كلامك وأسئلتك عن الأشجار والخضر أنك من

بلاد تكثر فيها هذه النباتات فاستحلفك بالله من أي بلد أنت؟ فقلت أنا آت من القطر المصري ولكن أصلي سوري دمشقي، فقال: مرحى بك وألف مرحى! وهل أنت مسلم أم نصراني؟ فقلت مسلم مؤمن موحد بالله، والحمد لله على دين الإسلام ولا إله إلا الله محمد رسول الله، فقال: الحمد لله ولا إله إلا الله محمد رسول الله.

وبعد ما نطقت أمامه بالشهادتين رأيت أمارات وجهة قد تبدلت وظهرت ابتسامة لطيفة على فمه وتغيرت لهجة كلامه وزاد اهتمامه بي واطمئنانه إلى، ثم أردف قائلاً: اخبرني بالله عليك ما دمت قادماً من بلاد "مدخل" فلا شك أنك مررت بعدن وقابلت أناساً كثيرين هناك، فقلت: نعم مررت بعدن وتقابلت مع بعض الناس فسل ما تريد فإني أجيبك على كل شيء أعلمه، فقال: ما الذي جرى بين مولانا الإمام والإنكليز؟ هل اتفقوا على الحدود وعلى الأمور المختلفة عليها بجهة عدن أم لا؟ فقلت: لا أظن أنهم اتفقوا تماماً ولكن بينهم في الوقت الحاضر شبه هدنة وربما تدور أثناءها بعض المفاوضات لحل جميع المشاكل، ثم سألته: ومن أنبأك أن هناك اختلافاً بين الإنكليز وجلالة الإمام؟ فقال: سامحك الله أتظن أنني وأنا فقير وبستاني لا أعلم ولا أهتم بشؤون بلادي!؟ تأكد أننا نحم معشر اليمانيين من غني إلى فقير نهتم كثيراً بشؤون بلادنا وخصوصاً مع جيراننا الإنكليز، وفي الربيع الماضي كان عندي هنا بهذه الدار ضيف إنكليزي اسمه "جاكوب" وقد أتى من عدن خصوصاً ليقابل مولانا الإمام وكان برفقته رجل نصراني وآخر هندي وقد مكثوا هنا مدة طويلة وتخابروا مع مولانا الإمام كثيراً وقد علمت من الهندي أنهم أتوا ليتفاوضوا مع جلالة الإمام في الأشياء المختلف عليها.

وبعد سفرهم إلى عدن أتت طيارة إنكليزية وضربت (ماوية) و(قعطبة) و(تعز) و(إب) وغيرها من البلاد بالقنابل فقتلت خلقاً كثيراً ودمرت بيوتاً متعددة، وقد خاف أهالي صنعاء منها وفر قسم كبير منهم إلى بلاد المشرق وبلاد الشام (أي الشمال) وتوقفت حركة التجارة وقلّ الأخذ والعطاء في المدينة واستعدت الحكومة لمواجهة الطوارئ استعداد عظيما فأرسلت الجيوش إلى الحدود ووضعت المدافع بهذا الجبل: أي (جبل نقم) فوق صنعاء، ونقلت الذخائر والعتاد والسلاح إلى الكهوف والمغاور حتى لا تصيبها الطيارات بسوء، وكنت كل يوم ترى ألوفاً مؤلفة من أهل الجبال الأشداء يأتون بسلاحهم الكامل إلى أمام سراي مولانا أمير المؤمنين فيسلمون عليه ويعرضون تطوعهم للدخول في الجيش والاشتراك في الحرب، لذلك تراني وسوف

ترى كل يماني يهتم لمعرفة حقيقة الخبر مع الإنكليز وجميعاً والله ثم والله مستعدون أن نفنى عن آخرنا قبل أن ندع إنكليزياً واحداً يدخل بلادنا، فقلت له: لا تخش شراً ولا تخف بأساً لان حكمة صاحب الجلالة الإمام واسعة ومقدرته عظيمة وفي إمكانه أن يحل جميع الصعاب والمعضلات بالتي هي أحسن، وأظن أنه انتهى كل شيء بين جلالته وبين الإنكليز ووضعوا اتفاقية مؤقتة، وسيسعون لعقد معاهدة، ولا اعتقد أن الطيارات الإنكليزية ستغزو اليمن مرة ثانية، فقال: الحمد لله الحمد لله، الله يحفظ الإمام روحي فداه.

ولم يكن الرجل كاذباً فيما رواه لي عن شعور أهل اليمن نحو الإنكليز ونحو كل من تغريه نفسه بغزو اليمن، لأني في صِلاتي الكثيرة واختلاطي مع جميع طبقات الشعب من موظفين وسادة وعامة أفراد الأمة وجدت فيهم نزعة إلى الاستقلال والمفاداة بكل عزيز وغال لم أجدها بين الشعوب الراقية لا في الشرق ولا في الغرب.

من هو الكولونيل جاكوب[1]؟

وفي الواقع كان الرجل محقاً في تخوفه من الحرب لأنها كانت على قاب قوسين أو أدنى، وقد جاء الكولونيل جاكوب موفداً من قبل الحكومة البريطانية ليحل مشكلة حدود عدن بين جلالة الإمام وبين حكومته وليحث في عقد معاهدة مع الإمام والكولونيل جاكوب هو ضابط بريطاني مشهور بحب الفتح والاستعمار وقد وضع بالإنكليزية كتاباً سماه "ملوك العرب"[2] بحث فيه في تاريخ اليمن وكيفية احتلال البريطانيين لعدن ولسائر المحميات التسع، ومن يطالع هذا الكتاب بدقة وإمعان يجده محتوياً على إطناب الكاتب في مدح نفسه وافتخاره بأعماله التي قام بها عند ما عينته حكومته معاوناً لحاكم عدن، وقد سبق له أن زار اليمن للمرة الأولى قبل هذه الزيارة في آب سنه 1919 وأسره شيوخ القحرا في تهامة، وقد أتينا في مقالة سابقة على كيفية هذا الأسر، ولولا تدخل الإمام وفكه من الأسر لقضوا عليه.

---

(1) الكولونيل هارولد ف. يعقوب (جاكوب)، سبق التعريف به وذكر قصة أسره في تهامة.

(2) ترجم الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان: "ملوك شبه الجزيرة العربية" ترجمه السفير أحمد المضواحي، ونشره مركز الدرسات والبحوث اليمني في صنعاء بالاشتراك مع دار العودة (بيروت)، 1983م.

وكانت غايته من الزيارة الأولى أن يتعرف إلى الإمام ويدرس أحواله ويحاول أن يتفق معه على حدود بعض المحميات ولكنه عاد بخفي حنين ولم يوفق إلى حل شيء من الأمور التي انتدب لحلها، وقد جاء في المرة الثانية في سنة 1928 للغرض نفسه ولعقد معاهدة فأخفق في مساعيه ولم يتنازل جلالة الإمام للبريطانيين عن شبر أرض واحد، ولذلك هاجم البريطانيون اليمن على أثر عودته إلى عدن واحتلوا ما احتلوا من البلاد عنوة، وبقي الأهلون متخوفين إلى ما بعد الاحتلال لأنهم ظنوا أن البريطانيين سيواصلون زحفهم ويستمرون في تعدياتهم، لذلك هاجت البلاد وماجت وقامت كرجل واحد وأخذ المتطوعون يتوافدون لصنعاء أفواجاً أفواجا ليسيروا إلى قتال الإنكليز، ولكن جلالة الإمام حفظه الله رأى أن الأراضي التي احتلها الإنكليز ليست ذات قيمة زراعية أو حربية لذلك غض طرفة على مضض حتى لا يزج باليمن في حرب مع الإنكليز لا يعرف مداها أحد، وأعتقد إنه لولا سقوط حكومة المحافظين في لندن في تلك السنة من الحكم وقيام حكومة العمال عوضاً عنها لغزا البريطانيون اليمن حتى صنعاء وخصوصاً بعد ما تم الاتفاق والتفاهم بينهم وبين الطليان في مصوع على السياسة التي يجب اتباعها والسير عليها في جزيرة العرب.

وقد زار حاكم عدن الإنكليزي حاكم مصوع الطلياني في أوائل هذا العام أي عام 1928 ورد الثاني الزيارة للأول في نفس العام، وقد حسب الناس لهذه الزيارات ألف حساب وأبدى اليمانيون كثيراً من التخوف، ولا أخالهم مخطئين في ذلك، لان التجارب علمتنا أن نحذر الغربيين وان نتوقع ظهور محالفات سرية وتقسيمات أساسية لبلاد الشرق عموماً ولجزيرة العرب خصوصاً في أي وقت كان، وليست معاهدة "سايكس–بيكو" المعلومة التي قسم الحلفاء بموجبها الأراضي التي انسلخت عن الدولة العثمانية فيما بينهم ببعيدة العهد عنا.

اليمانيون يهمون بقتل الكولونيل جاكوب

وقد قص علي البستاني شيئاً كثيراً عن معاملة الكولونيل جاكوب ورفيقه العربي المسيحي للأهلين والجنود الذين كانوا في خدمته، فقال: إن الجميع كانوا يشكون من فظاظته ولا يرغبون في مرافقة أو مجالسته، وكان دأبه أن يكتب الشكاوي إلى جلالة الإمام عنهم لأقل حركة تبدو منهم، وكان يمتنع عن الطعام إذ مر أحدهم بباب غرفة

طعامه أثناء تناوله الطعام، ويطلب إليهم أن يحيوه بتحية عسكرية كلما دخل أو خرج، وقد أثار بأعماله هذه حقداً في صدور جميع جيرانه وسرت أخباره بين الناس في صنعاء سريان النار في الهشيم فابتعد الجميع عنه وصاروا يفرون من وجهه إذا قابلوه على قارعة الطريق، ولم يكن رفيقة بأكثر تأدباً منه بل كان أيضاً يحتقر الوطنيين وينظر إليهم نظرة السيد للعبيد، وهذا شيء لا يمكن لليمانيين أن يحتملوه لأنهم خُلقوا أحراراً وتربوا تربية استقلالية طبيعية، فمن البديهي أن يشمئزوا من هذه المعاملة وان يبتعدوا عن هؤلاء الضيوف الثقلاء كل الابتعاد حتى في الطرقات، وصاروا على الرغم من قلة ميلهم للثرثرة والإفراط في الكلام لا يتركون فرصة سانحة تمر إلا شكوا منه وذكروا سيئاته.

وقد ذكرني تصرف هذا الرجل الإنكليزي الشاذ مع أهل اليمن بتصرف زملائه الإنكليز أصحاب البواخر التي تعبر البحر الأحمر إلى الشرق الأقصى مع الشرقيين فانهم لا يجلسون الشرقيين مع البريطانيين على مائدة واحدة للطعام! ويعتبرون الشرقيين من الأجناس البشرية الملونة التي لا يجوز لها أن تحصل على شرف المساواة مع البريطانيين حتى في الطعام!!

القومندان كروفرد وتقريره السري

وقبل مجيء الكولونيل جاكوب إلى اليمن جاء رجل إنكليزي آخر يدعى القومندان كروفرد، ويظهر إنه كان موفداً ليمهد الطريق أمام الكولونيل جاكوب ليعقد المعاهدة مع الإمام، وقد تظاهر هذا الرجل إنه تاجر جاء إلى اليمن من تلقاء نفسه كي يشتغل بالتجارة ورفع إلى حكومته تقريراً سرياً، وقد وقعت بيدي مسودة هذا التقرير.

وقبل أن أترجم هذا التقرير السري للقارئ الكريم أقدم له القوامندان كما عرّفته جريدة "الإيمان" التي تصدر في صنعاء حيث قالت بعددها 31 ما يأتي:

"قدم العاصمة في غرة ذي القعدة الحالي المستر (كروفر) المتقاعد من أركان الضباط البحرية لدولة إنكلترا وهو الذي تكرر وصوله قبلاً إلى عاصمتنا، والموما إليه كان سابقاً قائداً للسفينة الحربية الإنكليزية الشهيرة (ميلتون) وقد قام بأسفار عديدة في البحار الأمريكية والأسترالية والهندية ولا سيما سواحل الجزيرة العربية، إذ بقي فيها

مدة طويلة دعته الرغبة لزيارة اليمن مرة أخرى فوصل إلى عدن ثم قصد العاصمة وحل ضيفاً بصورة خصوصية، والموما إليه من عائلة إنكليزية أصلية الخ".

وأما التقرير فهذه صورته:

"سيدي

"لي الشرف أن أعرض ما يأتي:

"طلب مني إمام اليمن أن اقدم تقريراً غير رسمي إلى الحكومة البريطانية بشأن بعض المقاطعات المختلف عليها والتي يدعوها البريطانيون مقاطعة عدن المحمية.

"إنني في صنعاء أسعى للحصول على اتفاقية تجارية مع جلالته، وقد أجابني أن مسألتك سهلة ويمكن الاتفاق عليها بصورة مرضية متى تمكنا من حل القضية السياسية، وإني شخصيا واثق أن مسألتي لا تحل كما أرغب إلاّ أذا حلت القضية السياسية، وبناء على ذلك أقدم هذا التقرير غير الرسمي متوسطاً في حل هذه القضية.

"قضيت في مقاطعة عدن المحمية نحو خمسة عشر عاماً، أي منذ سنة 1912 ومضى علي في خلال هذه المدة شهور طويلة كثيرة لم أشاهد فيها رجلاً بريطانياً واحدا، فمن البديهي إذا أن يكون لي من الخبرة التامة بشؤون مقاطعة عدن المحمية أكثر مما لأي رجل بريطاني حتى لم تسمح له الصدف أن يأتي إلى هذه البلاد ويعيش فيها بعيداً عن البريطانيين، وإنني لا أتقن العربية مع إنه من الضروري لي أن أعرفها معرفة جيدة كي أتمكن من إتمام مقاصدي.

"وإني أعتقد بفائدة المقابلات الشخصية وأراها أفضل وسيلة للتفاهم، وهاأنا ذا أجني نتيجة مقابلتي الشخصية مع الإمام في كتابة هذا التقرير وإني أشعر إنه يختلف كثيراً عن التقارير السياسية الرسمية.

"إن الفريقين الداخلين في هذا التقرير هما:

(1) البريطانيون في عدن، وهم يمثلون الحكومة البريطانية.

(2) عرب اليمن وبعض العرب في مقاطعة عدن المحمية، ويمثلهم إمام اليمن الذي ينتمي إلى أصل معروف منذ ألف سنة.

"وقبل أن نبت في النزاع القائم بين الفريقين يجدر بنا أن نعود إلى التاريخ فنرى أن البريطانيين شعب طموح يميل إلى التوسع، فإذا وجدوا بقعة من الأرض كثيرة الخيرات مالوا بكليتهم إلى الاستيلاء عليها منتحلين لأنفسهم الأسباب الوهمية لانتزاع ملكيتها من أصحابها الشرعيين، وبديهي أن البريطانيين يدّعون أنهم محقون في أعمالهم وأنهم يحافظون على حقوقهم، وهم أبداً مستعدون لأن يستعملوا جميع قواهم لتأييد حقوقهم الموهومة، ولا شك أن سلوكهم القديم غير المرضي في الصين والهند وأفريقية ومعظم المستعمرات البريطانية قد أدى في الوقت الحاضر إلى الاضطرابات في هذه البلاد، وهذه الاضطرابات تدفعني إلى بيان الحقائق عن البلاد عن البلاد العربية التي كثيراً ما ينخدع المرء بظواهر الأمور فيها، إذ يخيل إلى الباحث أن العرب لا يفقهون معنى الوطنية، وانهم يحاربون بعضهم بعضاً حرباً دائمة، ولكن إذ أنعمنا النظر في حقيقتهم نرى أن جميع العرب في هذه الدنيا يميلون إلى غاية وطنية واحدة هي أن جزيرة العرب للعرب، وهي في نظرهم مقدسة كل التقديس، وقد أكد لي صحة هذه النظرية محمد بن إدريس حاكم عسير، ولا شك أن عدد نفوس المسلمين في هذه الدنيا يعادل عدد المسيحيين، هذا إن لم يزد عليهم.

"لا جدال أن هنالك اختلافات بين المسلمين كما توجد اختلافات بين المسيحيين، ولكن في كثير من الأمور المهمة يتفق المسلمون، ولا شك في أن البريطانيين سيلاقون صعوبات جمة إذا بقوا متمسكين ببعض الأماكن في جزيرة العرب، وقد أثبت لنا التاريخ أن العرب لا يسكتون على الضيم، وأنهم يحقدون، وإذا حقدوا فلا بد لهم من أن يثأروا مهما كان خصمهم عنيدا، وقد أدرك السلطان سليمان القانوني هذه الحقيقة أكثر من البريطانيين فترك اليمانيين وشأنهم بعد ما كاد يعلن الحرب عليهم، وإني أنصح حكومة جلالة الملك أن تدقق في هذا الأمر بإمعان.

إن مقاطعة عدن المحمية تكتسب أهميتها في الأمور الآتية:

أولا- إن الضالع (اسم مكان) ضروري للبريطانيين من الوجهة العسكرية، وفي إمكاننا أن نحتفظ به دون صعوبة عظيمة ودون أن نتمسك بجميع مقاطعة عدن المحمية.

ثانياً- ليس في وسعي وأنا رجل مدني وضابط بحري أن أبدي رأياً عسكرياً ولكن حباً بصراحة هذا التقرير أبسط بعض آرائي الخاصة وهي بطبيعة الحال عرضة

للانتقاد: إن مقاطعة عدن المحمية ليست من الأهمية في شيء بالنسبة إلى عدن نفسها، لأن عدن كمضيق جبل طارق منيعة من كل هجوم داخلي، وأهل مقاطعة عدن لم يخلصوا يوماً من الأيام لحكومة عدن ولا يمكننا أن نحافظ على صداقتهم إلا ببذل الأموال الطائلة، ونحن نخالف في عملنا هذا القول المأثور: "إن الجيش يجب أن يعيش على البلاد التي يحتلها"، ولا يمكن تطبيق هذا القول في مقاطعة عدن أبداً، فنحن نجلب اللحم الذي نأكله هناك من الصومال ونجلب الحنطة من بلاد الهند، ولا أشك بأن عدن ستبقى دائماً عرضة لدسائس العرب وقد تنتقض علينا على حين غرة كما ثبت لنا في أيام حربنا مع الترك في سنة 1916.

ثالثاً- يوجد بعض أملاح الزئبق في مقاطعة عدن المحمية لكن لا يمكن الانتفاع بها قبل أن يستتب الأمن، ولا يمكن أيضاً الاستفادة من حاصلات عبيان ولحج الزراعة إلا متى أعدت طرق الموصلات الجيدة، وبإمكاني أن أصرح بكل وضوح أنا لا نستفيد فائدة تجارية تذكر من مقاطعة عدن المحمية إلا إذا قبضنا عليها بيد حديدية وحميناها حماية حقيقية وذلك يقتضي أموالاً طائلة لا تتناسب معها واردات المقاطعة أبداً.

"ورب سائل يسأل: هل تساوي مقاطعة عدن المحمية هذه النفقات الطائلة؟

فالجواب: كلا. وللإمام بطبيعة الحال نظريته الخاصة في هذه المسألة وهي تستحق العناية إذا أردنا الإنصاف، وأما إذا شئنا المكابرة في المحسوس فيمكن للبريطانيين أن يحتفظوا بمقاطعة عدن المحمية ويوهموا أنفسهم أنهم على حق في دعواهم لأنه من البديهي أن السياسة لا عدل فيها.

"أنا رجل بريطاني مخلص لحكومتي وأعتقد أنها أفضل حكومة في العالم وخصوصاً للبريطانيين، وقد قضيت السنين السبع الأخيرة بين العرب وإني أؤكد لكم عن علم بأنكم لا تستفيدون من مقاطعة عدن المحمية، بل بالعكس تخسرون كثيراً من النفقات على حمايتها، وإني واثق أنه لا يوجد عندكم في عدن أحد من أهل الخبرة التجارية ليطلعكم على هذه الحقيقة ويهتم بترقية التجارة، ولا يمكنكم إدراك حقيقة تجارة مقاطعة عدن المحمية ما لم تحصلوا على مكان عسكري أمين تحافظون بواسطته على عدن، ولا يمكنكم الحصول على هذا المكان الأمين إلا إذا كان إمام اليمن مسالماً لحكومة صاحب الجلالة.

"ويمكن لإمام اليمن أو لمن يأتي بعده أن يهب عدن موقعاً عسكريا وعندئذ تحل مشكلة مقاطعة عدن المحمية وتترك، وفي إمكاننا أن نتنازل عنها دون أن نخسر شيئاً من نفوذنا ودون أن نضيع حقوق غيرنا أو حقوقنا، وأما إن ادعيتم غير ذلك فلا شك أن كفة ميزان العدل الراجحة لا تكون في جانبكم.

"وإني أوجزت في بيان طلبات البريطانيين لأنها معلومة لكم ولا تحتاج إلى زيادة إيضاح، ولكن لا تخفي عليكم أن لكل قضية وجهين، وحباً في الإيضاح أعرض عليكم تاريخاً مختصراً للنزاع القائم بينكم وبين الإمام منذ سبع سنوات: أما نظريتكم فأنتم أعلم بها، وأما نظرية الإمام فإنكم لم تطلعوا عليها بحذفيرها، ففي سنة 1914 حافظ الإمام علي الحياد التام، لو لم يكن في وسعه وقتئذ أن يفعل أكثر من ذلك، ولما طرد الترك من جزيرة العرب في سنة 1918 أمل جلالته أن ينال المكافأة وقد صرح البريطانيون على رؤوس الأشهاد في خلال سنة 1914 وسنة 1918 أنهم لا يمدون أيديهم إلى شبر واحد من أراضي جزيرة العرب وأن بلاد العرب للعرب.

" كانت منطقة عدن المحمية قديماً تابعة لبلاد اليمن ولم يعترف أحد من أئمة اليمن للترك بملكيتهم لها أو لعدن، ولم تكن عدن من أملاك الحكومة التركية فتهبهما لمن تشاء، ولذلك كان الإمام ينتظر بفارغ الصبر إعادة مقاطعته الجنوبية له، ولكنه لما خاب ظنه في الحكومة البريطانية في عام 1920 احتل بعض أجزاء المقاطعة وظن إنه سيوفق إلى نيل مطالبه بصورة عادلة، ولما جاءته بعثة كليتون كان يرجو أن تزول الاختلافات بطرق حبية إلى أن أفهمته هذه البعثة أن البريطانيين يريدون موقعاً حربياً في الضالع فتيقن الإمام من هذا الطلب أنهم متى حصلوا على موقع حربي يمكنهم أن يحصنوه وينتقلوا منه لغيره فيحتلوا ما يريدون من بلاده، فاضطرب لهذا النبأ، وعبثاً حاول أن يرضي البريطانيين وفي النهاية فشلت بعثة كليتون.

"ولما وصلت إلى هنا لـ(صنعاء) ظن الإمام في أول الأمر أنني موظف، ولكنه غير هذا الظن عندما أكدت له أني لست مأموراً ولا موظفاً بل تاجراً يبتغي قضاء بعض المصالح التجارية، فوسطني لأسعى لإبلاغ رغائبه إلى حكومتي، وقال: إنه سيعطيني مذكرة يبين فيها طلباته، وقد صرح لي تصريحاً غير رسمي أنه لا يرى صعوبة في وضع شروط مرضية بشأن جعل الضالع مركزاً عسكرياً بريطانياً، ويبين أنه بصفته حاكما عربياً وإماماً لا يمكنه أن يسحب جميع قواته من مقاطعة عدن المحمية، ولكنه إذا أعطي الوقت الكافي ليحافظ فيه على عظمته يمكنه عندئذ أن يسحب قواته

بالتدريج، هذا إذا اقتضت الضرورة ذلك، وقد قال لي هذه الأقوال شفاها، ولكنه كان قبلاً مستعداً أن يكتبها على الورق، وقد سرني أنه لم يفعل ذلك، إذ لا فائدة من إحراج الإنسان وقد كتبت هذا التقرير قبل أن أحصل على مذكرة الإمام غير الرسمية أو على ترجمتها.

"حاشية: تلقت مذكرة من إمام اليمن أملاها جلالته على أمين سره الخاص، ولأسباب بديهية لم يمضها، وقد كلفني شفاها أن أهتم بها اهتماماً كثيراً وأن أقدمها مع الشروح الكافية إلى حكومة صاحب الجلالة، وهاأنذا أقدم شروحي مصحوبة بالمذكرة وبترجمتها المعنوية لا الحرفية، وفي إمكانكم أن تحصلوا على ترجمة صحيحة في دائرتكم" — انتهى

اللورد لامنسكتون واليمن

وعقب عودتي لمصر من رحلتي هذه في اليمن كان الإنكليز قد شرعوا في التعدي على اليمن وضرب بعض المدن بقنابل الطيارات فرأيت من الواجب أن اكتب شيئاً في هذا الموضوع وأبين هذه التعديات للشعب البريطاني الذي لا يوافق بكل تأكيد على تصرفات حكومته هذه، فأرسلت صورة تقرير القومندان كروفرد مع كتاب مطول وشرح أطول عن حوادث اليمن إلى فخامة اللورد لامنسكتون صديق العرب ونصير الضعيف، ورجوته نشر الجميع للرأي العام البريطاني، ولدى وصول كتابي لفخامته احتج فخامته على تصرفات حكومته وطلب منها إيضاحات عن أعمالها في اليمن وأرسل إلى كتاباً يشكرني فيه على رسالتي، وهذه ترجمة بعض ما جاء في ذلك الكتاب:

"أشكركم على كتابكم المهم الذي أرسلتموه إلي وعلى التقرير المرسل طيه وإني أكون ممتناً لكم إذا عرفتموني بما يجري باليمن وبموقفنا وعلاقتنا معه وأيضاً بموقف الدول الأوروبية الأخرى وعلاقاتها به. ولا أرى من المناسب أن أنشر تقرير كروفرد ولكني بكل تأكيد سأنصح حكومتي بعقد اتفاقية مع اليمن، وقد أوضحت أسس هذه الاتفاقية في مجلس اللوردات البريطاني". انتهى.

ومن دواعي سروري أنه تم أخيراً عقد اتفاقية بين الإنكليز وجلالة الإمام وانتهت مسألة الحدود بين اليمن والمحميات على إبقاء كل شيء على حاله، وبذلك فازت السياسة اليمانية فوزاً لا غبار عليه ورضى البريطانيون بالأمر الواقع.

أستميح القارئ الكريم العذر بولوجي وإياه في مفاوز السياسة والشطط عن سير الرحلة لأني رأيت من الضروري أن يفهم العرب حقيقة موقف الإنكليز معهم.

والآن أعود بالقارئ الكريم إلى دارنا في صنعاء وأصف له ما تم لي فيها يومئذ فأقول: صعدت قرب الغروب إلى سطح الدار لأرقب مغيب الشمس، وأجلت نظري أولا في جهة الشرق وإذا بصنعاء المدينة الأزلية الخالدة تبدو أمامي بمآذنها الجملية وبناياتها الملونة العجيبة كأنها حسناء من حسان هذا الزمان قد ازدانت باللؤلؤ والمرجان، ومن خلفها "يشمخ" حارسها الأعظم جبل (نقم) برأسه فوق السحاب، وتتلألأ في قمته أنوار تنعكس عن جداران الحصون فتزيده بهاء على بهاء، ونظرت بالقرب مني فإذا بالحدائق مزدهرة بأنواع البقول والأعشاب التي أكسبت أرضها لوناً سندسياً أخضر ينفذ جماله إلى القلوب قبل الجلود، وكان النسيم عليلاً وحرارة الشمس خفيفة والأولاد على الآبار ينشدون أناشيدهم الجميلة، وبالاختصار كان كل شيء فتاناً يهيم فيه الإنسان، وبقيت أمتع النفس بهذا النظر الخلاب إلى أن اصفر قرص الشمس وأخذ يتوارى شيئاً فشيئاً خلف الجبال، وما كاد يغيب عن بصري حتى هاجمني الظلام بخيله ورجله، وما أسرع دخول الظلام بعد غياب الشمس في هذه الجهات القريبة من خط الاستواء.

شعرت في الحال ببرد يتسرب إلى جسمي فهرولت نازلاً من فوق السطح إلى (المنظرة) –وهي الغرفة في أعلا المنزل– وأمرت الخدم أن يعدوا لي سريري، وفتحت صندوقاً فأخرجت منه معطفاً ثقيلاً فارتديته وجلست إلى (الخوان) وقد وضعوا لي عليه مصباحاً مضاء بالبترول، وأخذت أطالع في كتاب جلبته معي، وهذه هي أول ليلة بعد خروجي من الحديدة تمكنت فيها من المطالعة، وبعد مدة من الزمان قرع أحد الخدم الباب – وهذه عادة غير مألوفة في اليمن ولكن خادمنا هذا كنا أحضرناه معنا من عدن وقد تعلم من الإنكليز بعض عاداتهم، فصار لا يدخل إلى الغرفة إلا بعد الاستئذان– وقال لي: "العشاء طيار" أي جاهز، فقلت: حسناً، وهرولت خلفه قافزاً كل درجتين قفزة واحدة لان المعدة كانت خاوية، ولا غرابة في ازدياد شهية المرء للطعام بعد رحلته عدة أيام على ظهور البغال بين الوديان والآكام والجبال! جلست

وأصحابي إلى المائدة وتناولنا طعاماً على الطريقة الغربية بملاعق وشوكات وسكاكين.. الخ. ولكننا كنا نبتلعه ابتلاعاً لشدة جوعنا، وقبل أن ننتهي منه شعرنا باشتداد البرد كثيراً ولما لم تكن عندنا وسائل للتدفئة، انسحبنا من غرفة الطعام وذهب كل منا إلى فراشه.

الليلة الأولى في صنعاء

ونمت ليلتي الأولى في صنعاء على سرير حديدي وفراش وثير ناعم، ولم أستيقظ في الليل كما كنت أستيقظ مراراً في أثناء السفر على صوت الجنود ينشدون (الزامل) وعلى صوت النزاع بين بعض ضيوف (المقهاية) وهم يربطون (قراشهم) أي حيواناتهم أو يطعمون جمالهم، وعلى نداء صاحب (المقهاية) لزوجته: "يا عتيقة أضرمي النار، ويا عتيقة اغلي القشر" وعتيقة اسم شائع في اليمن بين النساء كثيراً، وأظن أن أصله مشتق من تعدد الزوجات فصار الزواج ذو الزوجات المتعددات ينادي زوجه الأولى "بعتيقة" للتفريق بينها وبين غيرها من الزوجات الجديدات، وبعد استعماله على هذه الصورة مدة من الزمن أصبح اسماً علماً. نهضت من نومي قبل طلوع الضوء فشعرت ببرد قارس جداً فبقيت غارقاً في فراشي الوثير إلى أن بزغت الشمس، وسمعت وأنا في سريري بعض المؤذنين يحيون على الصلاة وعلى الفلاح وعقبتهم أبواق الجند في مخافر سور المدنية بإيقاع عن أوامر مختلفة يدعون الجند إلى الصلاة، وقد أبصرت وأنا في غرفتي أحد الجنود الموكول إليهم حراسة دارنا يتوضأ في ماء (الشادراوان) المتجمد فاقشعر جسدي من البرد ولازمت الغرفة، وجميع اليمانيين كهذا الجندي يصلون الصبح حاضراً ولا يهملون وقتاً واحداً من أوقات الصلاة، وهم متمسكون كل التمسك بفرائض الدين الحنيف لا يحيدون قيد شعرة عن جميع ما أمر الله به ورسوله. وليس تمسكهم بدينهم مظهراً من المظاهر الخارجية "الميكانيكية" التي يتبعها بعض المسلمين من غير اليمانيين بقوة العادة والاستمرار، بل هي عقيدة ثابتة متمكنة في نفوسهم وليس ذلك بالغريب فـ"الإيمان يمان والحكمة يمانية". وما كادت الشمس ترسل أشعتها الذهبية من أعلى جبل (نقم) حتى ابتدأت موسيقى البئر تعزف أنغامها الشجية، وأخذ الأولاد ينشدون أناشيدهم المعلومة اللطيفة تسلية لأنفسهم وتنشيطاً لحيواناتهم، وقد ذكرني هذا الصياح بأيام طفولتي بدمشق الشام في عهد السلطان عبد الحميد، فكثيراً ما كنا نصحوا أيام الشتاء في فرشنا ولا نجسر على مغادرتها من شدة

البرد، وكان في الوقت نفسه بوق الجيش الحميدي يرسل في الثكنات ألحاناً هي نفس الألحان التي يرسها بوق صنعاء، نهضت بعد طلوع الشمس من فراشي ونظرت إلى مقياس الحرارة (ترمو متر) فإذا به أربع درجات تحت الصفر، ولكنه كان وقتئذ آخذا في الصعود، ويكاد المرء لا يصدق أن درجة الحرارة في الظل تختلف بين الليل والنهار ثلاثين درجة فارنهيت، فبعد أن كانت بالليل أربعاً أو أكثر تحت الصفر بلغت في النهار في الظل 60 فوق الصفر وفي الشمس 97 فوق الصفر، ويسبب اختلاف درجة الحرارة في الشتاء على هذه الصورة كثيراً من الرشوحات الصدرية وخصوصاً بين الأولاد. وقد دام البرد على هذه الحال نحو شهر من الزمان كان الماء فيه يجمد كل ليلة، وقد أضر الشجر كثيراً، وأتلف الخضار الشتوية كالقرنبيط والكرنب والسبانخ الخ. وأخبرني الكثيرون من المتقدمين في السن أنهم لم يروا برداً كهذا البرد منذ ثلاثين سنة أو أكثر. نزلت بعد طلوع الشمس إلى غرفة الطعام فتناولت منه ما تيسر وجلست أتمتع بجمال الطبيعة وأتدفأ بحرارة الشمس وأراقب الشادروان كأني في منام، وبينما أنا كذلك إذ بقائد الروضي (مأمور الإعاشة) حضر وقال: (أصبحتم): أي أسعد الله صباحكم، فأجبناه بلغة اليمن "صبحكم الله بالخير والعافية". وكان يحمل في إحدى يديه فخذ كبش من الضأن وبيده الثانية سلة كبيرة، وقال: "هو ذا تعيين يومكم" فلم أفهم ماذا يعني وقلت له: وما هذا التعيين؟ فأجاب نحن هنا نجلب للضيوف كل صباح ما يحتاجون إليه من الطعام في مدة أربعة وعشرين ساعة، فقلت حسناً غير أن حب الاستطلاع دفعني إلى أن أرى ماذا كان يحمل، فقلت له: أرني ماذا جلبت؟ فوضع السلة أمامي فإذا هي طافحة بالسمن والسكر والأرز والبن والبيض والبطاطس والملح والفلفل، وباختصار بجميع ما تحتاج إليه عائلة كبيرة في عدة أيام، وكان خلفه غلام يحمل لبناً وفحماً، وقال: إنه سيجلب لنا حطباً، للوقود والطبخ، فقلت له: يا قائد أدام الله تعالى بقاء مولانا الإمام وأكثر عليه الخيرات، نحن لا نحتاج إلى جميع هذه الأشياء، فقال: لا والله هذا غير ممكن، ومقامكم عند مولانا الإمام كبير فلا يمكن أن نتأخر عنكم بشيء وسنجلب لكم كل يوم سع -أي مثل- هذا التعيين أو أكثر منه، أما الخضر، فمروا البستاني أن يجلب لكم من حديقة داركم ما تشتهون، فشكرناه شكراً جزيلاً على هذا الكرم العظيم ودعونا لجلالة الإمام بطول العمر، ثم قال لي قائد: لابد أن يرسل مولانا بعض أخصائه للترحيب بكم، ولكن بطبيعة الحال هو يعلم إنكم متعبون من مشاق السفر والطريق، وربما يبطئ رسوله فسامحوا -أي غضوا النظر- فقلت: حسناً بارك الله فيكم، وأدام لنا حياة

مولاكم، وجاءنا قبيل الظهر القاضي أحمد الآنسي[1]، وهو من رجال حكومة الإمام، ويعتمد جلالته عليه كثيراً وقد وفد مرة إلى أنقرة لكي يفاوض الغازي مصطفى كمال باشا[2] وحكومته في بعض الشؤون السياسية، وهو يشغل اليوم بصنعاء وظيفة مدير المعارف، وهو رجل أسمر اللون ربع القامة، نحيف الجسم، تبدو على محياه أمارات الذكاء، فرحبنا به ودعوناه إلي صالة الاستقبال، ولما أستقر به المقام قال: حيا الله من قد جاء، أمرني جلالة مولانا أمير المؤمنين أن أحضر لزيارتكم للترحيب بكم، وإبلاغكم سلام جلالته، وللإطمئنان على أحوالكم وصحتكم، فكيف انتم؟ عساكم معافين وبخير، وكيف وجدتم بلاد اليمن وإقليمها وماءها وهواها؟

فقلنا: الحمد لله، والشكر لجلالة مولانا الإمام على لطفه وعطفه نحونا، إننا على أتم ما يرام من الراحة والهناء، وقد سررنا بكل شيء شاهدناه في هذه البلاد السعيدة، وما أخطأ من سماها (السعيدة) لأن كل شيء فيها مريح وسعيد وجميل، وإننا نتمنى لها كل خير ونجاح في ظل جلالة مولانا الإمام وحكومته المتوكلية، فقال: شكراً لكم على هذه العواطف النبيلة، وهل لكم من خدمة أو حاجة نقضيها لكم؟ فقلنا: كلا! إنما نريد أن نحصل على شرف المثول بين يدي جلالة الإمام، فأجاب سأعلم جلالته بذلك، ولكن لابد لكم من تناول قسط من الراحة بعد سفركم الطويل وعنائكم الكثير، فاستريحوا يومين أو ثلاثة وأخرجوا إلى صنعاء وشاهدوا أسواقها وآثارها ومبانيها وأعلموني بكل غرض يلزم حتى أقوم بتأديته حالاً، وقد أمروا لكم بجنديين كي يكونوا في خدمتكم، ويحرسوا داركم وأشياءكم في وقت غيابكم. فقلت: أخشى أن يكون هذان الجنديان مراقبين علينا، كما وصف ذلك بعض الذين أتوا اليمن، وألفوا كتاباً عن رحلتهم؟ فأدرك حضرته للحال قصدي، وقال: عافاكم الله أنتم شيء وأولئك الذين تعنونهم شيء آخر، وما هذان الجنديان إلا مظهر من مظاهر الحفاوة والاحترام، فكونوا براحة بال، واذهبوا أينما شئتم، وافعلوا ما أردتم،

---

(1) هو أحمد بن علي الآنسي، فقيه وحافظ وقاض وإداري قدير، كان عالما بالعربية وعلوم القرآن، وأجاد اللغة التركية، فعمل في مجلس الولاية، وقام بمهمة إلى الأستانة عام 1315هـ/1897م، وعاد منها بصحبة الوالي الإصلاحي حسين حلمي باشا الذي خلف المشير أحمد فيضي، وبعد الانسحاب التركي من اليمن بعد الحرب العالمية الأولى، كان ممن عوّل عليه الإمام يحيى في إدارته، وكلفه بمهمة إلى الرئيس التركي مصطفى كمال سنة 1345هـ/1926، ورغم تقدمه في السن فقد قام بعد سنة 1948م بمسؤلية إدارة المعارف والصحة والمواصلات، وينوب عن وزرائها من أخوة الإمام أحمد، وقد عرف بالحنكة والنزاهة، توفي سنة 1383هـ/1963م، وقد ناف عن التسعين. انظر: الموسوعة اليمنية 400/1 (بقلم الدكتور حسين العمري).

(2) هو المعروف بمصطفى كمال أتاتورك.

فأنتم على الرحب والسعة، وأنتم منا ونحن منكم، فقلت: أصبحنا وأيم الحق مغمورين بلطف جلالة الإمام وفضله وكرمه، وليس بنا حاجة إلى شيء، ثم تناول حديثنا أحوال الجو فأحوال السياسة، وغيرها من الشؤون العالمية، فوجدناه عالماً بها كأحد أبناء مصر والشام، ممن يعنون بهذه الأمور، وأخبرنا حضرته بأنه يقرأ كثيراً من الجرائد المصرية والشامية، ويتابع سير النهضات الوطنية، في العراق ومصر والشام وفلسطين وباهتمام شديد، وسألته: هل يأتي إلى اليمن كثير من الجرائد، وهل تباع في المكاتب العمومية؟ فأجاب: كلا! إن لبعض الجرائد العربية بعض المشتركين، فتصل لهم كميات في كل بريد يأتي إلى صنعاء، فقلت: متى يأتي البريد؟ ومتى يسافر؟ فأجاب: يقوم البريد، من الحديدة ومن صنعاء في كل أسبوع مرة واحدة، ويستغرق وصوله إليهما أربعة أيام، ويسافر يوم الربوع "أي الأربعاء" من كل أسبوع، فقلت: وكيف يرسل؟ فقال يتسلمه أمير الجيش "أي قائد الجيش" ويرسله مع جندي نجاب من مركز، ويسير الجندي النجاب في الليل والنهار، ولذلك يصل في أربعة أيام من الحديدة إلى صنعاء عوضاً من أن يصل في سبعة أيام، وبديهي أن الجندي النجاب يتغير كل مركز في أثناء الطريق.

مصلحة البريد

ويوجد باليمن مصلحة للبريد لا بأس بها، ويتقاضون فيها على الرسالة العادية الداخلية، من عامة الناس، نحو غرشين سوريين، ومن الجند غرشاً واحداً، وعندهم نوعان من الطوابع بيضاء وصفراء، فالبيضاء بقرشين، والصفراء بقرش واحد، وهي مصنوعة في صنعاء من الورق العادي، ومن ينظر إليها لا يتبادر إلى ذهنه لأول وهلة إنها طابع بريد لغرابة شكلها، وقد كتب عليها في أعلاها (صنعاء) وفي وسطها "الحكومة المتوكلية الإسلامية" وفي أسفلها ثمنها واسم جلالة الإمام.

ويأتي البريد الداخلي إلى صنعاء اليمن من سائر أنحاء البلاد في كل أسبوع مرة، وأما البريد الخارجي فيأتي غالباً كل أسبوعين مرة واحدة، وذلك متوقف على مجيء إحدى بواخر شركة القهوجي من عدن إلى الحديدة، وهذه البواخر تحمل البريد الذي يجتمع في عدن من جميع أطراف العالم بصورة غير رسمية، لان اليمن غير مشتركة في مؤتمر البريد الدولي ولذلك لا يضمن أحد وصول البريد إلى هذه البلاد، ويضطر المرء

الذي يريد أن يرسل كتاباً من صنعاء إلى العالم الخارجي أن يضع عليه نوعين من الطوابع: الطابع الأول يماني، وهذا يكفل وصوله من صنعاء إلى الحديدة، والطابع الثاني هندي وهذا يضمن وصوله إلى العالم الخارجي، والسر في أنه هندي هو أن عدن تابعة لحكومة الهند، ولما كنت في صنعاء للمرة الأخيرة علمت أن الحكومة مهتمة بالإشتراك في مؤتمر البريد الدولي، وقد تم لها الأمر منذ بضع سنوات ودخلت اليمن بصورة رسمية في اتحاد البريد الدولي وصار بالإمكان إرسال الرسائل من صنعاء إلى جميع أطراف العالم بوضع طابع يماني فقط، وقد صنعت حكومة اليمن كمية كبيرة من طوابع البريد في ألمانيا منذ دخلت باتحاد البريد الدولي، وصار لليمن كما لغيرها من الدول طوابع بريد بالمعنى المفهوم عندنا والشكل المعروف لدى جميع الناس.

مصلحة التلغراف

وتوجد في صنعاء مصلحة للتلغراف تابعة لمصلحة البريد ويمكن للمرء أن يتخابر بالتلغراف مع من شاء في جميع أطراف اليمن بسهوله تامة وبأجور بخسة، ويوجد في صنعاء أيضاً مركز للتلغراف اللاسلكي (طار الهواء) أسسه الطليان بأمر جلالة الإمام منذ بضعة أعوام، وصار من السهل أن يتخابر الإنسان من صنعاء مع العالم الخارجي عن طريق (ماركوني مصوع) ولكن من دواعي أسفي أن الموظفين الطليان في هذه المصلحة لا يقومون بمهمتهم حق القيام، فقد أرسلت من صنعاء ثلاث برقيات عن يدهم باللغة الفرنسية في رحلتي الأولى إلى اليمن سنة 1927 وتقاضوا مني أجوراً باهظة عنها وأعطوني وصلاً بالقيمة المدفوعة، ولكن تلك التلغرافات لم تصل، ولسبب من الأسباب غضب جلالة الإمام على هذه المصلحة وأمر بإغلاقها مدة من الزمن، ثم زالت تلك الأسباب وعاد لاستعمالها مرة ثانية، وهي اليوم مستعملة بصورة رسمية، وعلاوة على هذا الماركوني اشترك جلالة الإمام مؤخراً في التلغراف الدولي (كابلو) عن طريق الشيخ سعيد[1] وصار بالإمكان مخابرة اليمن من جميع أطراف العالم عن هذا الطريق.

---

(1) الشيخ سعيد: جبل وحصن في باب المندب يرتفع عن مستوى سطح البحر حوالي 300 متراً تقريباً (في معجم البلدان والقبائل اليمنية: 3000متر، خطأ)، ويوجد في شرقه جبل المنهلي، وهو أعلى منه، ويتبع مديرية (نباب)، محافظة تعز، ويقع على خط الطول 43/28، وخط العرض 12/43. معجم البلدان

حي بئر العزب

بعد ذهاب القاضي أحمد الآنسي تناولت طعام الغداء واسترحت ساعة من الزمن ثم خرجت لأشاهد المدنية وصحبت برفقتي جندياً من جنودنا ليهديني إلى الطريق ويكون لي خير رفيق، خرجت من الدار في زقاق ضيق لا يبلغ عرضه أكثر من مترين، وأرضه غير معبدة، وتقوم إلى جانبه جدران بنيت من اللبن والطين على طراز بناء (دكوك) حدائق دمشق إلى علو متر ونصف، أو مترين، ويوجد خلف هذه الدكوك حدائق غناء، ومنازل جملية على شكل -فيلات- مكشوفة الأطراف، إلا من سور في آخر حدائقها، مررنا بمنتصف الزقاق بكتّاب الأولاد الصغار، وكان صوت قراءتهم بالغاً عنان السماء، فهم كغيرهم من الأولاد في كتاتيب البلاد الشرقية بما فيها دمشق الشام يقرؤون بالجملة لا بالمفرد، وانتهينا في آخر الزقاق بميدان واسع يقال له ميدان باب الشرارة[1] ويوجد في جهة هذا الميدان الشمالية المدرسة العلمية المتوكلية وبعض الشوارع المتجهة نحو حي بئر العرب، وتوجد في جهة باب الشرارة من الجنوب ثكنة عسكرية كانت أيام الدولة العثمانية مكتباً للصناعات[2]، والى جانبها توجد طريق واسعة تؤدي إلى قاع اليهود[3]، ويوجد على جانب هذه الطريق حانوت كبير لتاجر يهودي قيل لي إنه من أغنى تجار صنعاء، ويوجد في جهته الشرقية المستشفى الملكي، وقد وضعت عليه لوحة كتب عليها باللغة التركية -صنعاء خسته خانه سي- أي مستشفى صنعاء، ويوجد في هذه الجهة أيضاً سور ثان -غير سور صنعاء العمومي- وهو يحيط بسراي جلالة الإمام وحدائقها، وفيه باب صغير خاص للحرم الشريف، وفيه على بعد بضع مئات من الأمتار باب آخر يقال له باب الشرارة، وهو المدخل العام إلى أحياء المسلمين، وشوارع مدنية صنعاء القديمة، إذ يمكننا أن نطلق على حي بئرالعزب اسم مدينة صنعاء الجديدة، لأن هذا الحي بني أيام الترك فقط، ويوجد فوق باب الشرارة بناء فخم بناه الترك، ويستعمله حاكم صنعاء كمكتب له وفيه أيضاً مكاتب لبعض الضباط المستخدمين في الحرس الملكي.

والقبائل اليمنية 887/1، موقع المركز الوطني للمعلومات على شبكة الإنترنيت: /www.nic.gov.ye، Microsoft Encarta Premium Suite 2005 DVD

(1) ميدان باب الشرارة: هو المعروف حاليا باسم (ميدان التحرير) في قلب العاصمة صنعاء.

(2) هي المتحف الحربي حاليا.

(3) شارع جمال عبد الناصر في الوقت الحاضر.

حانوت اليهودي والنسيج الشامي

دخلت حانوت اليهودي المثري في باب الشرارة لأرى ماذا يوجد فيه من البضائع والسلع، فرحب بي صاحبه أجمل ترحيب وقدم لي كرسياً لأجلس عليه، فجلست وأجلت نظري في أطراف الحانوت فإذا بمساحته تبلغ نحو ثمانية أمتار مربعة، وعلوه نحو مترين ونصف متر وقد كدست فيه البضاعة بعضها فوق بعض بصورة منتظمة، وأهم تلك البضائع وأكثرها صايات الحرير الشامية، ويقولون لها في صنعاء "الصايات المصرية" لأنها تأتي عن طريق السويس المصرية وصايات الديما الشامية ومعظمها من مصنوعات حلب، وقد قرأت أسماء بعض الحلبيين عليها، ورأيت أيضاً أنواعاً مختلفة من الحرير الملون بألوان زاهية كالأحمر والأصفر والأخضر، ومعظمها من مصنوعات فرنسا، وهذه الأقمشة الحريرية تستعملها السيدات المسلمات الغنيات لملابسهن، وقيل لي أن بعضهن ينفقن عن سعة على ملابسهن، ويبلغ أحياناً ثمن ثوب السيدة منهن مع شغله وتطريزه وتحليته بالخيوط القصبية أو الفضية والذهبية، من ثلاثين إلى خمسين جنيها إنكليزياً.

وشاهدت أيضاً كثيراً من الشيت والكتان وغيرهما من الأقمشة القطنية الرخيصة، التي لا تعي الذاكرة أنواعها ويوجد على بعضها رسوم ونقوش غريبة الأشكال تستعملها النساء في صناعة احجبتهن (حبارتهن) ورأيت أيضاً أنواعاً مختلفة من الجوخ والأقمشة الصوفية، وجلها من الأصناف الواطية، المصنوعة في بريطانيا العظمى. سألت التاجر من أين تستوردون بضاعتكم؟ وهل لكم عملاء في خارج اليمن؟ فقال: كلا، لا يوجد لنا عملاء خارج اليمن، إنما نستورد بضائعنا من عدن. فقلت: لماذا لا تستوردونها رأساً من معاملها فتوفرون على أنفسكم القومسيون وغيره، فقال: أن (مقطوعية) محلي قليلة بالدرجة الأولى، ولا توجد عندنا بنوك لنحول عليها لأصحاب المعامل في الخارج، لذلك نضطر إلى نذهب بين آونة وأخرى إلى عدن ونشتري بضائعنا منها ونشحنها معنا ونأتي بها إلى هنا.

البنوك

وفي الحقيقة أن مشكلة البنوك مشكلة مهمة في اليمن إذ لا يوجد بنك واحد في هذه البلاد التي يبلغ سكانها خمسة ملايين، وقد سعى بعض المثرين كالخديوي عباس وغيره لفتح بنوك في اليمن ولكن جلالة الإمام لم يقبل بالشروط التي عرضوها عليه فباء مشروعهم بالفشل وظلت البلاد إلى هذا اليوم تخبط خبط عشواء في مبادلاتها التجارية وحالاتها المادية في حوالاتها المالية فتارة تستعين بالشركات التجارية الأجنبية وطوراً تلجأ إلى وكلاء الوابورات البحرية[1]، وسألت التاجر اليهودي: وعن أي طريق تجلبون بضائعكم من البر أم من البحر؟ فقال عن طريق إب برا مع القوافل لاعن طريق البحر، ونفضل هذه الطريق بالرغم من أخطارها ونفقاتها لعدم وجود بواخر تسافر من عدن إلى الحديدة في أوقات معينة منتظمة. فقلت: وأي أخطار ونفقات تعنون؟ فقال: نفقات النقل الباهظة وأخطار السلب والنهب ما بين عدن وماوية[2] في أراضي الحواشب[3]، والصبيحة[4]، وغيرهما من القبائل الخاضعة للحكم البريطاني في المحميات التسع إسماً لا فعلاً، ونضطر إلى دفع ضرائب لسلطان لحج وخوات لغيره من أمراء المحميات لكي يأذنوا لنا في المرور في أراضيهم، وخاصة إلى سلطان المسيمير[5] الذي يأخذ رسماً على كل حمل دون أن يهاب سلطة أحد. ومتى وصلنا إلى ماوية وهي أول حدود بلاد جلالة الإمام ندفع ضريبة جمركية ثانية على

---

(1) أي وكالات الشحن البحري.

(2) ماوية:بلدة مشهورة، وناحية واسعة من أعمال محافظة تعز، تتصل من شمالها بمنطقة (الحشا) و(ذي السفال) و(الجند)، ومن شرقها ببلاد الضالع وقعطبة ومن الجنوب بنواحي محافظة لحج، وتقع جنوب الجند وشرق مدينة تعز على بعد حوالي48 كيلومتراً، على خط الطول 44/21، وخط العرض 13/34، وكان بها مركز قضاء القماعرة، وأصل القماعرة من السكاسك، عرفت قديماً باسم مخلاف خُمر نسبة إلى جبل خُمر في ماوية، وهي مركز مديرية ماوية، وتسيل مياه ماوية في وادي لحج. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 688/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1394/2، موقع المركز الوطني للمعلومات على شبكة الإنترنيت. /www.nic.gov.ye، Microsoft Encarta Premium Suite 2005 DVD.

(3) الحواشب: إحدى السلطنات الست التي كانت في لحج، وكان مركزها المسيمير الواقعة شمال غرب الحوطة مركز محافظة لحج حاليا بنحو 54كم، وجنوب الضالع بنحو 20كم. انظر: موقع المركز الوطني للمعلومات على شبكة الإنترنيت. /www.nic.gov.ye.

(4) الصبيحة: إحدى السلطنات الست التي كانت في لحج، وكانت تقوم على أراضي مديرية طور الباحة. انظر: المصدر السابق.

(5) هو سلطان سلطنة الحواشب المذكورة آنفا.

هذه البضائع، ولكنا هنا ننجو من السلب والنهب ولا ندفع خوات لأحد، ويستغرق وصول القوافل من عدن إلى صنعاء عن هذه الطريق أكثر من خمسة عشر يوماً.

ومما يؤسف له أن البريطانيين في أيام الحرب العامة عملا بقاعدة فرق تسد استمالوا بالوعود والمال أمراء النواحي التسع المحمية، وحملوهم على أن يشقوا عصا الطاعة على أئمة اليمن ويثوروا عليهم وينفصلوا عنهم، ونصبوهم أمراء وسلاطين على هذه البلاد، وأخذوا يغدقون عليهم العطاء والنياشين، ويضربون لهم المدافع إذا جاءوا إلى عدن[1]، ففسد أمرهم، وظنوا أنهم سلاطين حقيقة، وصاروا يستبدون بأتباعهم ورعيتهم ويسومونهم سوء العذاب، ولما قطع البريطانيون عنهم المرتبات والعطاءات بعد الحرب العظمى ندموا على ما فعلوا ولات ساعة مندم، ومن شدة ضغط البريطانيين عليهم ثار بعضهم على البريطانيين بزعامة أمراء قبيلة الصبيحة وصاروا يسلبون وينهبون على قارعة الطريق، وفي وضح النهار فاضطر الإنكليز مراراً أن يرسلوا أسراباً من طائراتهم الحربية في عدن فتقذفهم بقنابلها، ولكن من دون نفع أو جدوى.

تلامذة المدرسة العلمية المتوكلية

سرت من دكان اليهودي نحو المدرسة العلمية المتوكلية، فرأيت التلاميذ يأتون إليها أفواجاً افواجاً، وجميعهم بعمائم بيضاء، ويلبسون ألبسة جميلة وثمينة تدل على أنهم من أبناء الطبقة الغنية، وقفت أنظر إليهم وأتأمل بملامحهم فجاءني بعضهم يمشون مرحاً وسألوني من أين أنت آت؟ وكيف وجدت اليمن؟ فقلت أنا آت من مصر، وقد أحببت اليمن كثيراً، لأنه أصبح في هذه الأيام القطر العربي الوحيد المستقل الذي لا نفوذ للأجانب فيه، وإني أغبطكم على هذه النعمة التي تفردتم بها من دون العرب بفضل حكمة جلالة الإمام وكياسته، فقالوا: سبحان الله، سبحان الله، الحمد لله، ثم سألني أحدهم عن الأزهر ومصر والشام والحجاز فأجبته باجوبة توافق المقام، وبدأت بدوري أسألهم عن عدد الطلبة وعن العلوم التي يدرسونها وأوقات الدرس إلى غير ذلك من الأسئلة، فأجابني أحدهم: أنهم يدرسون

(1) كانت السلطات البريطانية في عدن تستقبل هؤلاء السلاطين استقبال رؤساء الدول، وتطلق لهم المدفعية 21 طلقة لتغذي لديهم حب الزعامة.

من الصباح إلى الظهر ومن ثم يستريحون نحو ساعة من الزمان فيتغدون خلالها، فيذهب الطلبة النهاريون إلى بيوتهم، ويتعشى الطلبة الداخليون في المدرسة، وقالوا: إن عدد الطلبة يبلغ نحو خمسمائة طالب، والقسم الكبير منهم داخليون وهم رهائن عند جلالة الإمام، ويدرسون القرآن، والصرف، والنحو، والفقه، والحديث، وجميع العلوم الدينية، والإنشاء، والبيان، والعروض والحساب، والجغرافيا، إلى غير ذلك من العلوم والفنون. فقلت: حسناً جداً، وطلبت منهم أن يسمحوا لي بأخذ صورتهم فوقف رهط منهم أمامي فصورتهم، ومن ثم ودعتهم وأردت الانصراف فاعترضني أحد قائلاً: هل طبعتنا؟ "أي صورتنا" فأجبت نعم. فقال: اعطني الصورة، وأخذ الجميع يرددون قوله: اعطني صورة اعطني صورة، فقلت: لا يمكنني أن أعطيكم الآن صوراً لأنها تحتاج إلى عملية طويلة إلى إخراجها، وأخذت اشرح لهم كيفية التصوير، محاولاً إقناعهم بعدم تمكني من إخراج الصورة فوراً فلم يقنعوا بذلك، وعبثاً حاولت أن أغير فكرهم، وهكذا كان الحال معنا كلما صورنا واحد من الناس، ودّعتهم ثانية وانصرفت فدخلت صنعاء من باب الشرارة، وكان واقفاً بالباب جندي حارس فبادرنا بالسلام العسكري ببندقية فرددت عليه السلام برفع اليد على الطريق العسكري التركية.

وأول شيء استرعى نظري في أحياء صنعاء الوطنية هو صيدلية البلدية التي تبعد بضعة أمتار عن باب الشرارة، وقد وضعت عليها لوحة مكتوب عليها باللغة التركية: "بلدية أجزخانة سي"، دخلت إليها فرأيت رجلاً نحيف الجسم، أسمر اللون، براق العينين متوسط الطول، يرتدي ألبسة عسكرية تركية، ويحمل (رتبة قائد)، جالساً إلى كرسي وأمامه غلام يقرأ ورقة، فقلت: السلام عليكم، فأجابني باللطف اليماني المشهور: وعليكم السلام ورحمة الله، ونهض واقفاً، فقلت: أين مدير الصيدلية؟ فقال: هاأنذا!، قلت: من قراءة اللوحة التي على بابكم خلت أن صيدليتكم ملكية، ولكني أراها عسكرية الآن! فقال بلهجة يمانية: "ما فيش خلاف" أنا جندي، ولكن الصيدلية ملكية وعسكرية في آن واحد، ونحن نقدم العلاجات لجميع الناس لا فرق عندما بين الملكيين والعسكريين، فطلبت منه بعض العلاجات، مثل كينا وأسبرين، وصبغة يود، وملح إنكليزي الخ. فقدمها لي حالا فنظرت إلى زجاجة أقراص الكينا، فإذا بها من معمولات شركة ويلكم الإنكليزية، فقلت: يظهر لي أنكم تجلبون

عقاقيركم من بريطانيا العظمى، فقال: عندنا علاجات مختلفة جلبنا بعضها من بريطانيا وبعضها من فرنسا وبعضها من إيطاليا وألمانيا.

أجلت البصر في هذه الصيدلية الوحيدة من نوعها في صنعاء، فرأيتها على غاية من النظافة والترتيب لا تقل رقياً وترتيباً عن متوسط الصيدليات في بلادنا، فقلت له: من دواعي سروري أن أرى صيدليتكم تضارع الصيدليات الراقية في ترتيبها، فقال: أشكرك على هذا التقدير، هلم تفصل وانظر مستودع العلاجات في الدور العلوي وصعد أمامي في سلم حجري نظيف، فصعدت خلفه فوجدت ثلاث غرف كبيرة قد كدست فيها أنواع مختلفة من العقاقير والأجزاء الطبية، وجميعها مرتبة أحسن ترتيب فقلت بارك الله فيكم وفي صيدليتكم، من أين استحصلتم على شهادتكم؟ وأين بلادكم؟ فقال: أنا يماني، صنعاني، واسمي حسين الروضي وتعلمت فن الصيدلية على الصيدلي التركي الذي كان يشتغل هنا أيام الدولة العثمانية، وليس بيدي شهادة مدرسية، وهاأنذا اليوم أعلم ابني هذا الفن، فقلت وأين ولدكم؟ فقال هو الغلام الذي رأيتموه في الأسفل، فقلت: ما شاء الله، ونزلت وإياه إلى الصيدلية فوجدت الغلام مكباً على قراءة وريقة، فأخذتها بيدي وتأملتها جيداً، فإذا فيها أسماء علاجات كثيرة مكتوبة باللغة الإيطالية، وإلى جانبها الحروف الرمزية (سيمبول) التي تنوب مناب الأسماء في علم الكيمياء، ويتقن هذا الغلام ووالده اللغة الطليانية، وقد تعلماها عقيب مجيء الدكاترة الطليان إلى اليمن، سألت الصيدلي: كم ثمن هذه العلاجات التي أخذتها؟ فقال: كذا- بالعملة اليمنية- فقدمت له المبلغ وهو في الحقيقة زهيد جداً إذا قسناه بالمبلغ الذي تتقاضاه الصيدليات المتوسطة عندنا، فقلت له: يظهر لي أن أثمانكم بخسة جداً، فقال: يجب أن تكون بخسة لأننا لم نفتح هذه الصيدلية بقصد الربح، الله يحفظ جلالة الإمام وحكومته لأن قصدهما من فتحها المنفعة العامة ليس إلا، ونحن لا ندفع على علاجاتنا جمركا لأنها تخص الحكومة، وقد أمرتنا هذه الحكومة بأن نعطي العلاجات إلى الفقراء مجاناً، وأن نتقاضى من الأغنياء ثمن العلاج دون أقل ربح، لذلك تجد أثماننا بخسة إلى هذه الدرجة، فقلت: شكراً لهذه الحكومة الحكيمة التي تهتم بشأن رعاياها هذا الاهتمام، ثم سألته: هل يوجد في جميع أطراف بلاد اليمن صيدليات على هذه الصورة؟

فأجاب: كلا لا توجد صيدليات ولكن يوجد أطباء طليان في الحديدة، وحجة وتعز، وغيرها من المدن الكبيرة، ويرافق كل طبيب خبير كيماوي يمكنه أن

يركب بعض العلاجات بحسب أمر الطبيب، وقال: إن أهل اليمن لا يزالون غير متمدنين فلا يعنون كثيراً بالأطباء والعقاقير، وخصوصاً القبائل البدوية التي لا تعرف عن الطب شيئاً، وتداوي معظم الأمراض بالكي والنار وببعض الوصفات البدوية التي توارثها الأبناء عن الآباء.

الأطباء في اليمن

تحتاج اليمن إلى كثير من الأطباء حاجة ملحة، وبرغم تصريح الصيدلي بأن اليمانيين لا يتطببون، فأنا اعتقاداً جازماً بأنهم يقدمون على التداوي تدريجياً متى وجدوا عندهم أطباء من بني جنسهم ودينهم، ولكن الأطباء في بلادنا العربية ويا للأسف، لا يقدمون على المهاجرة كما يقدم الأوروبيون، لذلك نرى الكثيرين منهم يقنعون بالعمل اليسير في بلادهم ويرجحونه على تكليف أنفسهم السفر إلى بلاد بعيدة ولو كانت لهم من وراء هذا السفر أرباح طائلة! أما الأطباء الموجودون في اليمن الآن فهم من الطليان، وقد أتوا إلى اليمن عقب زيارة والي أسمرا السنيور غاسبريني لليمن وعقده المعاهدة الطليانية اليمانية المعلومة مع حكومة جلالة الإمام، وهم يتناولون رواتب ضخمة من الحكومة المتوكلة، ويبلغ مرتب الواحد منهم ما ينوف على 600 ريال إمامي، أي نحو ستين جنيها إنكليزياً في الشهر، وتقدم لهم الحكومة أيضاً داراً لسكنهم، وحيوانات لركوبهم وجنوداً لحراستهم ومرافقهم، وخدماً لخدمتهم وطعاماً لمأكلهم، وقد زرت المستشفى الذي أسسوه في صنعاء فوجدته في حالة ابتدائية تنقصه معظم لوازم المستشفيات الحديثة، وقد أدركت حكومة الإمام هذا النقص وأمرت الأطباء أن يبذلوا جهدهم لتحسين هذا المستشفى وغيره من المستشفيات، وجعلها على أقل تقدير كالمستشفيات المتوسطة في بلاد العالم، وقد تقابلت مع أكثر من واحد من الأطباء الطليان وسألتهم لماذا لا تهتمون بالمستشفيات وأنتم المسؤولون عنها بالدرجة الأولى؟ فقالوا: إن هذه المستشفيات كثيرة على اليمانيين ولا يستحقون أفضل منها، وشكوا كثيراً من قلة اهتمام اليمانيين بصحتهم، وعدم إصغائهم لنصائح الأطباء، وعدم مراجعتهم لهم إلاّ في الحالات الخطرة جداً، وذلك مما يسبب كثرة الوفيات، ويزيد في انتشار الأمراض بسرعة ويجعل مقاومتها صعبة وخصوصاً أمراض الجدري وحمى الملاريا، والتيفوئيد وغيرها من الأمراض السارية، التي تكثر في المناطق الحارة، وأظن أن الأطباء على شيء من الحق

في شكواهم، ولكن من البديهي أن هذه الشكوى المريرة لا تنطبق على اليمانيين فقط بل تنطبق على معظم سكان جزيرة العرب الذين لا يأبهون للطب والتطبيب، وذلك بالرغم من أن أول من اشتغل بالطبابة هم العرب ولكني أعود فأكرر ثانية أن اليمانيين لو وجدوا عندهم أطباء مسلمين عرباً لكان موقفهم منهم غير موقفهم من الدكاترة الطليان، والسر في ذلك بديهي لا يحتاج إلى إيضاح وبيان.

سراي الإمام

رأيت خلف صيدلة البلدية، أي في الجهة الشمالية من باب الشرارة، مسجداً وبالقرب منه حماماً على طراز حمامات دمشق، وخلفة سراي جلالة الإمام، التي لا يتمكن المرء أن يراها كاملة ولا من جهة من الجهات الأربع، لأنها كما ذكرت سابقاً محاطة بسور خاص عال، فلا يرى الإنسان منها إلا ما ارتفع فوق هذا السور ولها بوابة خارجية في السور، ضخمة مبنية بالحجر الأبيض، والأسود، وبترتيب جميل، وفيها باب كبير خشبي أسود، وفيه باب صغير (خوخة) ويوجد بالقرب من هذه البوابة بناء مستدير الشكل، يشبه مخافر الجنود في السور العمومي، مبني من اللبن والطين وبابه من داخل السراي يستعمله بعض الموظفين كمكتب لهم، وأما الجامع القريب من السراي فقد جدد بناءه ووسعه، جلالة الإمام، وهو يصلي فيه في بعض الأحيان وقد ذكر لي أحد البناءين الذين بنوا هذا الجامع، إنه لم يكلف سوى مبلغ يسير، وأن نفس سراي جلالة الإمام كلفت نحو عشرة آلف من الجنيهات، وفي الحقيقة هذا مبلغ زهيد جداً بالنسبة إلى ضخامتها وفخامتها، وهي مبنية جميعها من الحجر الأبيض والأسود والمرمر، ولكن البناء في صنعاء ككل شيء آخر فيها رخيص جداً، إذ لا تكلف الدار العادية المكونة من أربعة أدوار، والمبنية من الحجر والمرمر والخشب الجيد أكثر من ألف جنية، والإيجارات هناك رخيصة للغاية إذا يمكن للمرء أن يستأجر داراً فسيحة مؤلفة من ثلاثة أدوار، بمبلغ ثلاث ورقات سورية شهرياً، وقد لاحظت في صنعاء أن أهلها كغيرهم من أهل الجبال يخشون البرد كثيراً فلا يكثرون من النوافذ الحقيقية ويصغرون حجمها ولكنهم يكثرون مما أسميه بالنوافذ الخلابة الكذابة، وأسميها كذابة لأنها لا تفتح ولا تغلق، وأسميها بالخلابة لأنها جملية الشكل

تكسب الدار جمالاً خاصاً وبهجة خاصة، وتصنع من أنواع رقيقة من المرمر الأبيض الصافي بأشكال هندسية مختلفة يمكن منها دخول النور ولا يمكن دخول الهواء[1].

دور اليمن

وتبنى الدور في صنعاء وغيرها من بلاد اليمن على شكلين: الأول من الحجارة فقط يضعون بعضها فوق بعض ولا يستعملون في بنائها الطين، بل يبنونها بشكل يركب معه الحجر الواحد فوق الحجر الآخر، والشكل الثاني: يبنونه من الحجارة فقط أو من الحجارة والآجر والطين العادي -ويسمونه اليمن (خلب)- أو الطين المضاف إليه شيء من الكلس ويبيضون هذه المنازل بما يسمونه ''قص''[2] وهو يشبه الكلس ويصنعونه من جحر خاص يجلبونه من مكان واقع في شرقي صنعاء يقال له الغراس[3]، وهو المكان الوحيد الموجود فيه هذا الحجر فيجلبونه منه إلى صنعاء ويحرقونه كما تحرق أحجارنا الكلسية في أفران خاصة ثم يخرجونه ويطحنونه طحناً فيصبح جاهزاً للعمل، ويجلبون أحجارهم من الجبال الشرقي المدعو (نقم)، "وهي بيضاء" ويجلون أيضاً أحجاراً من جبل (الجراف) الواقع غربي الروضة "وهي سوداء" ويجلبون أيضاً أحجاراً بركانية سوداء من جبل عصر أو السنينة[4] الواقع غربي صنعاء، وهي أصلب من حجارة الجراف، ومعظم البناءين في صنعاء من اليهود، وبعضهم من المسلمين، وآلات البناء وأدواته ابتدائية بسيطة للغاية، يصنعونها هم بأنفسهم في صنعاء من الحديد، أو من الخشب، ولكن بناءهم قوي جداً ويبقى قائماً مئات من السنين. وقد شاهدت بنفسي بعض الأبنية القديمة لا أشك في أن عمرها أكثر من مائة سنة على أقل تقدير ولا تزال متينة وقوية، وليس هذا بغريب على اليمانيين لأنهم ورثوا فن البناء عن أجدادهم أهل سبأ ومأرب المشهورين بالبناء القوي في العصور الخالية. وقد شاهدت في بعض الأماكن بجهة وعلان[5] آثاراً لسد حميري قديم لا تزال

---

(1) يقصد المؤلف بهذه النوافذ: القمريّات، المشهورة في البناء اليمني عامة والصنعاني بصورة خاصة.

(2) القص: هو الكلس، أو الجص، حسب اختلاف مسمياته في البلدان، والمسمى واحد.

(3) الغراس: سبق التعريف بها.

(4) في المطبوع: السنتية، والصواب: السنينة، سبق تعريفها.

(5) وِعْلان، بكسر الواو وسكون العين المهملة: بلدة في الجنوب من صنعاء، وتبعد عنها زهاء 25كم، وهي مركز ناحية (مديرية) بلاد الروس، من أعمال محافظة صنعاء، وتقع على خط الطول 44/16، وخط العرض 15/03، وفيها الكثير من الآثار الحميرية القديمة. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية 1880/2.

بادية للعيان كأنها من بناء أمس وأول من أمس على الرغم من أنه مضى عليها ألوف السنين، وقد رأيت شيئاً قبيحاً في بعض أبنية صنعاء أوجه إليه نظر رجال الحكومة المتوكلية وهو أنه لا يوجد للدور مجار وأنابيب مغطاة لتصريف الماء القذر، حتى ولا مجاري لبيوت الخلاء، وقد استعاضوا عن الأنابيب بمجاري ماء مكشوفة ومبنية إلى طرف جدار الدار فينزل فيها الماء على مرأى من الناس إلى الشوارع والأزقة ويسيل بصورة قبيحة وتفوح منه رائحة كريهة، وربما كان هذا الماء من جملة الأسباب في انتشار الأمراض، فأوجه نظر أهل الحل والعقد في صنعاء ثانية إلى هذا الخلل راجياً أن يتداركوه بحكمتهم لأنه يضر كثيراً بالصحة العامة.

سرت من أمام الصيدلية ومسجد الإمام الذي يقال له (مسجد المتوكل) ماراً بباب الشقاديف[1]، الذي يخرج منه جلالة الإمام يوم الجمعة لتأدية الصلاة، ورأيت عنده الغيل الأسود الذي يسقى بعض حدائق صنعاء -وقد مر بنا ذكره- جارياً في نفق صغير عمقه نصف متر عن وجه الأرض، وفيه حفرة تأتيها النساء فيملأن جرارهن، ويوجد فوق باب الشقاديف مخفر للجند مخصص لفصيلة من حرس جلالة الإمام مبنى على شكل مستدير وله درج لولبي ورمايات كرمايات الحصون وتقوم إلى جانب هذا الباب الشوارع الكبيرة والأحياء الوطنية وأول شيء شهدته فيها سوق فسيحة معظم دكاكينها كانت مقفلة فخلت نفسي بدمشق في أحد أيام اضرابنا، وتنتهي هذه السوق بمجرى سيل واسع[2] يفصل الأحياء بعضها عن بعض، وتجرى فيه المياه أيام المطر بكثرة مبتدئة من أسفل جبل نقم بالجهة الشرقية، ومنتهية بقاع شعوب[3] الذي يحيط بصنعاء في الجهة الشمالية، ولكن مجرى السيل في هذه الأيام كان جافاً لا ماء فيه، لان الفصل فصل شتاء وفي الشتاء يقل المطر في اليمن!

---

(1) باب الشقاديف: أحد أبواب صنعاء القديمة (غير الرئيسية)، وهو باب باتجاه الشمال ويعُرف . أيضاً . باسم (باب الحديد) وكان هذا الباب في السور الخاص بحي بئر العزب.

(2) يعرف هذا المجرى في صنعاء باسم (السائلة)، وكانت تقسم أحياء المدينة القديمة إلى قسمين: شرقي، وهو الأقدم، وغربي وهو الأحدث.

(3) في المطبوع: شعب، والصواب: شُعوب، بزيادة الواو، وهو أحد أحياء صنعاء حاليا، ويقع في الشمال منها، وكان في زمن المؤلف سهلا زراعيا واسعا.

الأحجار الكريمة

رأيت إلى جانب هذا السيل مسجداً يقال له (قبة المهدي عباس) وكان هذا المسجد مفروشاً بالسجاد العجمي القديم، ولكن تجار السجاد الغرباء أتوا إلى اليمن بكثرة وأخذوا يبتاعون السجاد القديم بأثمان باهظة فباعهم متولي الجامع السجاد القديم الموجود عنده، وابتاع سجاداً جديداً فرش الجامع به، وتوجد إلى جانب هذا المسجد سوق صغيرة، فيها بعض الدكاكين، يصقلون فيها الأحجار اليمانية الكريمة وكانت يومئذ مغلقة، وتختلف ألوان هذه الحجارة اختلافاً عجيباً، فمنها البيضاء والسوداء والخضراء والصفراء والحمراء، ومنها ما هو مزيج من هذه الألوان جميعاً أو من بعضها وعلى بعضها رسوم بأشكال الطيور والسمك والزحافات وأغصان الاشجار، إلى غير ذلك من الأشكال، وهم يجلبونها من جبل (نقم) ومن جبل (الغراس) وغيرهما من الجبال القريبة من صنعاء، ويصقلونها بالماء والتراب الناعم على أحجار رملية، ويصنعونها بأشكال مختلفة ويستعملونها في صناعة الحلي، كالخواتم والحلق والأزرار وغير ذلك، ويجب أن لا يتبادر إلى الذهن القارئ من أشكال هذه الحجارة بأنها من المتحجرات لأنها ليست منها بل هي نوع من أنواع الصخر يقال له بالإنكليزية (كورتز) وتمتاز هذه الحجارة عن غيرها بصلابتها، فهي صلبة إلى درجة لا تخدشها ولا تعمل فيها الأدوات الحديدية الحادة بل هي كالماس تقطع الزجاج ولا يقطعها شيء. وتستعمل الأحجار الكبيرة منها -وهي نادرة- في صناعة بعض الأجران الكيماوية الصلبة التي يستعملونها في الصيدليات لسحق العلاجات، وفي أحيان كثيرة يوجد الذهب كعروق في هذه الأحجار، إلا أننا لم نشاهد عروقاً من الذهب في طوافنا باليمن، ولكن رُوي لنا أن الذهب موجود في بلاد الشرق.

سرت من هنا بين أزقة ضيقة قائمة إلى جوانبها دور فخيمة شاهدت في جداران بعضها أحجاراً قديمة عليها كتابة (حميرية) نقلها الأهلون من الأبنية القديمة المتداعية فبنوا فيها دورهم وحوانيتهم.

الأسواق المغلقة والإضراب بالرصاص

ثم مررت بسوق البقر وسوق الحطب وسوق البز (أي الأقمشة) وسوق القمح وسوق الزبيب والجوز وغيرها من الأسواق الكثيرة وكانت معظمها مقفلة، ولم أشاهد فيها إلا بعض الناس، فحرت في أمرها وسألت رفيقي الجندي هل عندكم اليوم عيد؟ أم عندكم إضراب عام؟ فقال: لا يوجد عندنا عيد، قلت: إذا إضراب؟ فلم يفهم معنى الإضراب، وعند ما أفهمته معنى الإضراب ضحك حتى كاد يغشى عليه من الضحك ويستلقي على قفاه، وقال: نحن لسنا بحاجة إلى هذه الأمور ولو احتجنا إليها لا نستعملها بل نستعمل هذا (البندق) وأشار إلى البندقية التي يحملها على كتفه، أكبرت في الجندي هذا الشعور الوطني، وقلت في نفسي: "آكل العصي ليس كالذي يحصيها" ثم سألته ثانية: إذا لماذا أغلق الناس حوانيتهم ومخازنهم؟! فأجاب: سامحك الله، الوقت وقت الظهر والناس يأكلون القات. فقلت: حسناً! وعدت أدراجي نحو الدار وأنا أفكر بالقات وأكله، وكنت أصادف بعض المارة في الطريق فأرى أفواههم وأحناكهم منهمكة في مضغ القات وأيديهم ملأى بغصونه، فقلت لرفيقي الجندي: ما شاء الله الناس (يخزنون) القات حتى في الطرقات! فأجاب: نعم يا سيدي إنهم يخزنون القات في كل مكان، والقات ناهي "أي جيد" خذ وكل، وأخرج من بين ثيابه رزمة من القات ابتاعها في الطريق وقدم لي بعض الأغصان. فشكرته وقلت بلطف: لا أريد. فقال: الله يسامحك، الغني والفقير يأكل القات عندنا وينفق الفقراء أحياناً ريالاً أو ريالين ثمن القات، فقلت: حسناً هنّاكم الله بالقات، وصرت أتعجب في نفسي وأفكر في أمر ذلك الفقير الذي ينفق في يومه ريالا ثمن قاته كل يوم، في حين يعيش رب العائلة مع أهل بيته في اليمن ولا ينفق في يومه نصف ريال لأن ثمن المأكولات والحاجيات رخيص جداً، فالبيض مثلاً العشرون منه بفرنك، والدجاج الواحدة بفرانك، ورطل اللحم بأربعة إلى خمسة فرنكات، وعلى ذلك فقس، وأما القات فغال جداً بالنسبة إلى غيره من الحاجات، أولاً لشدة الطلب عليه، وثانياً لأن الحكومة تعتبره من الكماليات وتتقاضى علية رسوماً باهظة. ولا يوجد في صنعاء نفسها قات بل يجلب إليها من الضواحي مثل الروضة والوادي وعافش.. الخ الخ.

ومن الغريب أن إخواننا اليمانيين بما فيهم المتعلمون والراقون، ما خلا نفر قليل منهم يُسلِّمون بضرر القات ويعلمون حق العلم الخسائر المادية والمعنوية التي تعود عليهم من استعماله ولكنهم يأنفون ويغضبون من سماع كلمة نقد فيه ويدافعون عنه بكل قواهم.

البرد في صنعاء

وصلت إلى الدار قبل الغروب وقد أخذ الهواء يبرد وابتدأت قائمة الحرارة "ترمومتر" تهبط هبوطاً سريعاً فشعرت بالبرد يتسرب إلى جسمي فلبست معطفي وجلست أطالع في بعض الكتب قصد التسلية وانتظاراً لوقت العَشاء، وبعد العَشاء شعرت بالبرد أكثر فصعدت إلى غرفة النوم واندسست في سريري هرباً من البرد إذ لا يوجد في منازل صنعاء وسائط للتدفئة ولم أشاهد دفاية واحدة، وبعد التجربة العملية وجدت أن الفراش أفضل مكان للتدفئة، ولاحظت أن برد اليمن كبرد بلودان[1] لا يضر بالجسم كما يضر به برد مصر ودمشق، وذلك لان هواء اليمن كهواء بلودان ناشف جداً بخلاف هواء مصر والشام المشبع بالرطوبة.

قضيت ليلتي على أحسن حال ونمت نوماً هادئاً استيقظت خلاله مرة أو مرتين على صياح الحرس في مخافر السور وهم ينادون بعضهم بعضاً بأصوات غريبة عذبة وأنغام أعذب تجتذب الأسماع، وقبيل الفجر صحوت على صوت المؤذنين الذي كان يرن صداه في هدوء ليل صنعاء البهيم فيزيده حرمة ورهبة ويشعر بفرار جيوش الظلام ويبشر بقرب طلوع جحافل النهار باسم الواحد القهار، وقد لاحظت أن الأذان في صنعاء تختلف نغمته عن الأذان في مصر والشام وخصوصاً أذان "التذكير" المشهور في يومي الجمعة والاثنين فهو عندهم مختصر جداً ولا يرتلونه ترتيلاً كما يرتلونه في الشام ومصر.

---

(1) بلودان: من أهم المصايف السورية، سبق التعريف بها.

الدلالون والعاديات

بعد تناول طعام الصباح أتاني أحد الجنود الذين بالباب وقال لي: يوجد كثير من الدلالين بالباب يريدون الدخول عليك، قلت: وما شأننا والدلالون؟ فقال: هذه عادتهم في صنعاء متى علموا بوصول غرباء فانهم يجلبون لهم ما خف حمله من العاديات (الانتكيات) ليعرضوها عليهم بقصد البيع والشراء فإذا أذنتم لهم بالدخول أدخلناهم وإن لم تأذنوا نصرفهم. فقلت: لا بأس من دخلوهم، فدخلوا فإذا بهم يحملون (مفارش) – أي سجاداً عجمياً– وأدوات نحاسية ودراهم فضية وذهبية قديمة و(فصوصاً) يمانية، وهي أحجار غريبة الأشكال والألوان بعضها قديم وبعضها جديد يستعملونها في صياغة الخواتم، وأحجار حميرية منها ما هو منحوت بشكل أشخاص وتماثيل ومنها ما هو على شكل الحيوانات ومنها ما هو مكتوب كتابة غريبة، قيل لنا إنها حميرية ومسمارية. فتأملنا في هذه الأشياء الغريبة ولم نشتر سوى بعض الفصوص لعدم معرفتنا بالأشياء الأخرى، وسألنا الدلالين عن السجاد القديم؟ فقالوا: لقد أخذه التجار الترك بأثمان بخسة ورووا لنا أن تاجراً ابتاع سجادة عجمية قديمة من آل السنيدار بمبلغ مائة جنية إنكليزي وباعها بمصر بألف وخمس مائة جنية مصري. ومما قالوه: أن الجامع الكبير كان مفروشاً بالسجاد القديم فابتاعه الترك وفرشوا عوضا عنه سجاداً جديداً. وأما النحاس فبعضه كان جميلاً جداً ومكتوباً علية كتابة عربية وفيه رسوم سمك وأسماء بعض الملوك والأئمة المعاصرين له وتاريخ حكمهم وجله مصنوع من النحاس الأصفر وبعضه من النحاس الأحمر، والدلالون في صنعاء كغيرهم من الدلالين والباعة في أقطار الشرق يطلبون في الحاجة عشرة دنانير فيبيعونها بدينار واحد وهم كثيرون جداً لا يأتي غريب أو أجنبي إلى صنعاء إلا وينهالون عليه من كل فج عميق ويجلبون له كل شيء تصل إليه أيديهم من طبول وزمور وبنادق وسيوف وجنبيات ومسدسات وساعات ونقود وزجاج فارغ ...الخ.

وبعد التجربة والدراسة وجدنا أن معظم النقود والتماثيل التي كانوا يأتوننا بها والتي يدعون أنها قديمة من عهد حمير ليست إلا جديدة ومزيفة بصنعاء منذ عهد قريب جداً، ويقوم بعملية التزييف رهط من الصناع اليهود ولكن معظم النحاس قديم جداً وخاصة النوع الذي يقولون له غساني.

قاع اليهود

بعدما انتهيت من الدلالين خرجت من الدار وبصحبتي أحد الدلالين اليهود لزيارة قاع اليهود، وأصل معنى القاع: السهل، وسمي محل اليهود بالقاع لأنه واقع في سهل واسع، ولم أصطحب معي أحد من الجنود لأن اليهود لا يميلون إلى الجنود ولا يحبونهم ولا يتكلمون أمامهم غير الكلام المباح، أما إذا اختلوا بالغريب فإنهم يتكلمون معه بحرية تامة، طفت بالقاع من أوله إلى آخره ودخلت منازل كثيرة من منازله ورأيت بعض غانياته وتحدثت إليهن فلم يفررن مني كما كن يفررن يوم دخولنا إلى صنعاء، ومنازل اليهود من داخلها نظيفة وأنيقة للغاية رغم حقارتها وصغر حجمها ولكنها من الخارج قذرة وأطرافها ملأى بالأوساخ والأوحال، ويوجد في القاع عدة أسواق فيها جميع أنواع البضائع والخردوات من أقمشة وأدوات منزلية إلى غير ذلك من لوازم هذه الحياة، وفيها فرن (اتون) لصنع الآجر الأحمر وآخر لصناعة الأدوات الخزفية والفخارية كالأباريق والشربيات والتنانير إلى غير ذلك من المصنوعات المشوية.

حديث مع الحاخام يحيى إسحاق

تقابلت في القاع مع عدة أشخاص من كبار اليهود وعيونهم وسألتهم أسئلة متعددة عن أصل اليهود اليمانيين وعن أحوالهم وأشغالهم، وها أنا أنقل حديثاً جرى بيني وبين حاخامهم الأكبر المدعو يحيي إسحاق في داره، سألته ماذا تعرف عن أصل اليهود في اليمن وعن مدنيتهم؟

فقال: كانت لليهود مدنية عظيمة، وكان لهم ملك فخم في شرقي صنعاء، وقد أسس ذلك الملك وتلك المدينة الملك سليمان بن داود، وكان سلام الله عليه سيد البلاد بلا منازع ودامت مملكته من بعده زمناً طويلاً.

(س) هل قامت تلك الملكية في نجران؟

(ج) لا أعلم بالضبط أين كانت، ولكني لا أشك أنها كانت في شرقي صنعاء، ومن المحتمل أنها كانت في نجران، وأنا واثق بأن صنعاء حديثة العهد بالنسبة إلى تلك المملكة العظيمة القديمة.

(س) كم عدد اليهود في صنعاء وكم هو في جميع أنحاء اليمن؟

(ج) يوجد في صنعاء نحو عشرة آلف يهوي من الذكور ومثلهم تقريباً من الإناث، ويوجد كثير من اليهود في جميع أطراف اليمن، ولا أعلم عددهم بالضبط لأنهم يتنقلون من مكان إلى مكان ضاربين بأرض اليمن الواسعة فلا يستقرون إلا حيث يجدون عملاً.

(س) كيف كانت معاملة الترك لليهود أيام الدولة العثمانية؟ وكيف معاملة اليمانيين لهم الآن؟

(ج) لم تكن معاملة الترك لنا حسنة، كما أن معاملة اليمانيين ليست حسنة، ولكنها على كل الأحوال أفضل من معاملة الترك، والله يحفظ الإمام إنه يدافع عنا وينصفنا ويمنع جميع التعديات علينا ويجازي كل من يتجرأ فيتعدى علينا جزاء صارما.

(س) هل لكم علاقات بالعالم الخارجي، وهل تأخذون أخبار إخوانكم اليهود في هذه الدنيا؟

(ج) نعم يوجد لنا علاقات ومخابرات دينية مع القدس ويافا والقاهرة والإسكندرية، ونأخذ دوماً جرائد من القدس، ويوجد يهود يمانيون بكثرة هنالك، ولي ولد في يافا والمكاتبات تجرى بيننا وبين أصدقائنا في جميع البلاد بصورة منظمة.

(س) هل يوجد بينكم يهود صهيونيون ويهود غرباء عن اليمن وهل تعطفون على الحركة الصهيونية وتؤيدونها أم لا؟

(ج) لا يوجد عندنا يهودي غرباء ولا يهود صهيونيون، إنما منذ عهد بعيد أتى إلى اليمن بعض التجار اليهود الغرباء وما لبثوا أن قفلوا راجعين من حيث أتوا، وأما الصهيونية فليس لنا أقل علاقة بها ولا ننظر بارتياح إلى بعض مبادئها، وكانت ولا تزال جريدة من جرائد الصهيونيين ترسل إلينا من القدس هدية من دون أن نطلبها.

(س) هل يوجد عندكم مدارس وكنائس، وهل يعارضكم أحد في ممارسة طقوسكم الدينية؟

(ج) عندنا 15 مدرسة و19 كنيسة في صنعاء، ونمارس طقوسنا الدينية كما نشتهي، نطبق شريعتنا اليهودية كما نرغب، فلا يعترضنا معترض ولا ينتقدنا منتقد، وقلما يراجع أحد الحكومة المحلية بشأن من الشؤون، ونعلم أولادنا في مدارسنا العبراني ولا نعلمهم العربي، وجميعنا نتكلم العبراني في دورنا وبين ذوينا، ولا أحد من المسلمين يتدخل في أمر مدارسنا أو أي شأن آخر من شؤوننا الدنيوية والدينية ما دمنا محافظين على الأمن والسكينة.

(س) هل لكم ارتباط خاص مع الحاخامين بالخارج من الوجهة الدينية؟

(ج) ليس لنا ارتباط بأحد من الحاخاميين بصورة رسمية، ولكن كثيراً ما تأتينا أسئلة من حاخام مصر أو القدس مثلاً عن موسى من الناس اليماني الأصل، وهل هو متزوج أم أعزب؟ وإذا كان متزوجاً فكم ولد عنده؟ وهل له أملاك أو تجارة في اليمن أو لا؟ فنجيب على هذه الأسئلة بحسب الظروف، وبديهي أن هذه الأسئلة تتعلق بالزواج والطلاق وأعمال العزوبة الخاصة التي يجب على كل رئيس ديني أن يعرفها.

(س) هل تعلمون حقيقة السر في عزلة حي اليهود عن أحياء المسلمين؟

(ج) لا يوجد سبب جوهري، ومن المعلوم أن اليهود في اليمن كانوا تحت رحمة أئمة المسلمين وولاة الترك، وبحسب الظاهر أن أحد الأئمة أو الولاة غضب على اليهود بسبب من الأسباب فأمر بلزوم ابتعادهم عن المسلمين وعزلتهم عنهم فصارت عادة من ذلك الحين، وأنا لا أشك أنهم كانوا قديماً أي قبل 200 سنة يقطنون بعضهم مع بعض في أحياء واحدة ودليلي على ذلك أنه توجد في بعض أطراف اليمن على حدود عسير بلدان كثيرة يقطن فيها المسلمون واليهود أحياء قائمة جنباً إلى جنب، ومن الغريب أن المسلمين هنالك يعيدون في أعياد اليهود كما أن اليهود يعيدون في أعياد المسلمين وكانوا في قديم الزمان أيضاً يتزوجون بعضهم من بعض.

(س) من المسموع في الشرق والغرب أن الترك كانوا يعطفون عليكم فهل هذا حقيقي؟

(ج) كلا! إن حالنا مع الترك مثله مع الأئمة إذا صادف أن عطف علينا أحد الولاة أو أحد الأئمة يوماً من الأيام فلا شك أن يأتي يوم آخر يقوم به وال أو إمام فيسيء إلينا بقدر ما أحسن إلينا سلفه.

(س) هل تعلمون شيئاً عن أصل اليهود في اليمن! وهل أتوا من فلسطين؟ وهل هم من سكان البلاد الأصليين؟ وعن أي طريق أتوا إلى اليمن؟

(ج) ليس اليهود من سكان اليمن الأصليين ولكنهم أتوا من أرض كنعان قبيل أن يتشتت شملهم من القدس وقد جاءوا اليمن مهاجرين عن الطريق الشرقية.

(س) هل عندكم كتب تاريخية قديمة تبحث في أحوال اليهود بعد خراب الهيكل في القدس؟ وكيف تشتت شملهم؟!

(ج) كان يوجد عند حاخامي اليهود كتب تاريخية قديمة كثيرة، ولكن معظمها تلفت في الحروب التي حصلت باليمن بين اليهود والمسلمين وبين الترك والعرب.

(س) هل كان اليهود يساعدون مواطنيهم العرب على الترك في حروبهم؟

(ج) كلا، هم دائماً على الحياد لا يلتزمون جانباً دون الآخر ولا يناصرون فريقاً على فريق.

(س) أرى عندكم فوق الرفوف بعض الكتب المطبوعة فهل توجد عندكم مطابع؟

(ج) كلا، لا توجد عندنا مطابع بل نحن نجلب كتبنا المطبوعة من القدس، وأما الكتب الخطية فإننا ننسخها عن بعض الكتب القديمة التي لا تزال محفوظة عندنا.

يشوع إبراهيم عوض

حضر حديثنا رجل يهودي طاعن في السن، بيضت الأيام جميع شعر رأسه ولحيته، فسألت محدثي عن هذا؟ فقال: هو نسيب لي يدعى "يشوع إبراهيم عوض" وهو في العقد العاشر من العمر وقد زار أميركا منذ خمسين سنة.

فملت بنظري نحو هذا الرجل الهرم الكبير وسألته: أي ولايات أميركا زرت؟ فقال: إني ذهبت إلى مدينة نيويورك نفسها وبقيت فيها ثلاث سنوات اشتغلت فيها كعامل بسيط في أحد المعامل.

فقلت: هل تعلمت اللغة الإنكليزية؟

فقال: تعلمتها قليلاً ونسيتها الآن.

قلت: ولماذا عدت من أميركا؟

قال: حب الوطن قتال، والشوق إلى الأهل والخلان حملاني على مغادرة نيويورك وحياتها الرغيدة والعودة إلى صنعاء وحياتها الشاقة.

طلبت إلى الحاخام أن يقف إلى جانب الرجل العجوز لأصورهما فامتنع من ذلك، وقال: إنه لا يحب التصوير، ولكن العجوز لم يمانع في ذلك.

مخابرة الصهيونيين السرية

إني أعتقد بأن الحاخام الأكبر كان صادقاً في جميع أقواله ولم يتصنع في أجوبته اللهم ما عدا تصريحاته عن الصهيونية فإني لاحضت عليه الارتباك عند ما كنت أسأله بعض الأسئلة التي تتعلق بالصهيونية، فقد علمت فيما بعد بأن للصهيونيين مخابرة طويلة عريضة مع صنعاء ولهذه الجمعية صناديق للإعانة في كل دار من دور اليهود في معظم مدن اليمن. واليهودي الذي يريد أن يتصدق بشيء مهما يكن زهيداً يضعه في هذا الصندوق ورب الدار ليس مأذوناً بفتح هذا الصندوق بل يفتحه وكيل الجمعية كل شهر مرة ويخرج ما فيه فيجتمع لديه مبلغ وافر يرسله إلى صندوق الجمعية بالقدس ويدعون هذا الصندوق بصندوق الأمة.

واخبرني محدثي عن الصهيونية خارج اليمن بأن لها طوابع بريد خاصة بثمن زهيد جداً يضعها كل صهيوني على كل خطاب يرسله إلى صهيوني آخر، وإذا ورد لأحدهم كتاب وليس عليه الطابع الصهيوني فيرده المرسل إليه إلى المرسل ولا يفض غلافه مهما تكن خطورة ذلك الكتاب، ولهم أيضاً حدائق خاصة بالمواليد فإذا رزق أحدهم مولوداً يغرس له شجرة باسمه في تلك الحديقة ويدفع لقاء ذلك مبلغاً من المال، ولهم أيضاً حدائق باسم الأموات فإذا مات شخص غرسوا شجرة لذكراه في حديقة الأموات ويذهب ريع هذه الحدائق إلى صندوق الأمة.

أكبرت هذا الترتيب والتنظيم في هذا الشعب المضطهد في سائر أقطار المعمورة، وقلت في نفسي: يا حبذا لو كان زعماء الحركة الوطنية في الشرق يقتدون باليهود ويأخذون هذا الدرس عنهم.

المدارس والكنائس

بعدما انتهيت من الحديث مع الحاخام الأكبر ودعته وزرت بعض المدارس والكنائس فوجدتها على غاية من النظام والترتيب والنظافة، ورأيت أولاد اليهود كأولاد المسلمين يجلسون في مدارسهم على الأرض وأمامهم طاولات خشبية صغيرة يضعون عليها كتبهم ويقرءون جميعاً بصوت واحد ووقت واحد فلا يفهم الإنسان منهم شيئاً. ورأيت في الكنائس التوراة مكتوبة على رق غزال وملفوف بعدة ملفات فطلبت من أحد الحاخاميين أن "يفردها" أمامي فنشر لي ملفاً فوجدت كتابته جملية ومتقنة للغاية وقد صورت واحدة منها.

ويدّعي اليهود أنهم جلبوا التوراة معهم من فلسطين بعد خراب الهيكل أي منذ 2000 سنة تقريباً.

قابلت كثيرين من حاخامي اليهود وشيوخهم في صنعاء وذمار وإب وسألتهم نفس الأسئلة التي وجهتها إلي حاخامهم الأكبر في صنعاء، فوجدت منهم إجماعاً على أن اليهود ليسوا من سكان اليمن الأصليين بل هاجروا إليها قبل خراب الهيكل وبعده من القدس وقد جاءت أجوبتهم مطابقة لأجوبة حاخامهم الأكبر، وسوف يطلع عليها القارئ الكريم في سير هذه الرحلة.

رأي المسلمين في هجرة اليهود

سألت كثيراً من المسلمين العلماء في صنعاء وغيرها من البلاد عن أصل اليهود وهجرتهم فقالوا لي إن اليهود من سكان اليمن الأصليين وجدوا فيه قبل خراب الهيكل، وبعد خراب الهيكل أتت منهم جموع عظيمة وتغلغلت في أطراف اليمن وحضرموت وعسير وغيرها من البلاد.

وقد أكد لي بعض المسلمين أنه كانت لليهود في اليمن مدنية راقية، وكانوا أهل سنان وعنان، وكانت لهم دولة قوية وتحاربوا مع العرب حروباً كثيرة، غُلبوا في نهايتها على أمرهم وخضعوا لسلطان غيرهم وأدخلهم الإسلام في ذمته فأصبحوا ذميين.

معامل البرتقان

عدت من حي اليهود حوالي الظهر ومررت في طريقي بمعامل (البرتقان) – ويطلق اسم البرتقان على العطوس أو النشوق– أي التنباك المسحوق الذي يستعمله الناس كمضغة يمضغونها بأفواههم وكنشوق يستنشقونه بأنوفهم.

دخلت أحد هذه المعامل فإذا به يتألف من (دوْر) أرضي فيه عدة غرف صغيرة وفي كل غرفة أريكة علوها نحو متر واحد وعليها ثلاث أو أربع مطاحن يدوية، ويعمل في كل مطحنة منها فتاة أو امرأة يهودية وقد عصبن أنوفهن وأفواههن بعصابات من القماش (كقناع) ليمنعن دخول التنباك المسحوق إليها، ولكن لم تأت هذه العصابات أو الكمامات –ويا للأسف– بالفائدة المطلوبة، وقد رأيت في وجوه جميع هؤلاء البائسات وأعينهن اصفراراً يشبه اصفرار المصابين باليرقان وصحتهن متأخرة جداً فسألت إحدهن: كم ساعة تعملن على المطحنة؟ فأجابت: من طلوع الشمس حتى الظهر، وعند الظهر نتناول طعامنا ونستريح قليلاً ثم نعود إلى الرحى حتى مغيب الشمس.

فقلت: وكم تتقاضين من الأجرة في اليوم؟

فأجابت: ربع ريال، أي نحو ثمانية قروش سورية.

فقلت: هل تنزعجن من رائحة التنباك؟

فأجابت: في ابتداء ممارستنا لهذا العمل ننزعج كثيراً، وأما بعد الممارسة فنألفه ولا نعود نشعر برائحته إلا قليلاً. وفي أثناء هذا الحديث مع الفتاة الذي لم يستغرق غير بضع دقائق كدت اختنق من رائحة التنباك فأسرعت بالخروج من المعمل إلى باحة الدار وإذا بصاحب المعمل قد أتى، فسألته: هل تصنعون مع التنباك شيئاً قبل أن يصبح نشوقاً أو عطوساً؟

فقال: نعم، إننا نضع معه نوعاً من التراب يقال له "دقدقة".

فقلت: ومن أين تجلبون التنباك؟

فقال: يجلبه لنا التجار الكبار من عدن، ومن السويس ونبتاعه نحن منهم بحسب حاجتنا إليه.

فقلت: هل تصنعون كميات كبيرة؟

فأجاب: نعم، إننا نصنع كميات لا يستهان بها لأن البرتقان شائع الاستعمال كثيرا بين جميع طبقات الشعب وخاصة بين رجال القبائل البدوية، وهم الكثرة في البلاد. وقد لاحظت بنفسي في أثناء روحاتي وغدواتي هنا وهناك صحة هذا القول ورأيت الناس يقدمون البرتقان بعضهم لبعض كما نقدم نحن السيكارات، وهم يضعونه في علب خاصة جميلة يحملونها في أحزمتهم، والأحزمة كثيرة الشيوع بين اليمانيين ويندر أن يشاهد الإنسان رجلاً يمانياً بدون حزام، وهذا الحزام هو جيب بل "خرج" يضع فيه المرء جميع ما يحتاج إليه من الأدوات من مقص وموسى وخنجر وسيكارات وعلبة برتقان وقلم ودواة وقرطاس ومسلة وخيوط ودراهم.. إلخ إلخ.

والبرتقان كالقات مضر بالصحة كثيراً لأنه يقلل من شهية الإنسان للطعام ويؤثر في الأعصاب فيخدرها ويضعفها ويغير لون الأسنان ويصبغها بصبغة سوداء لا تزال عنها رغم غسلها بالماء والسواك، وقلما يرى السائح رجلاً في اليمن سليم الأسنان ونظيفها وذلك لكثيرة استعمل القات والبرتقان.

دكاكين الصياغ

سرت من معمل البرتقان بعد أن ودعت صاحبه وشكرته على المعلومات التي أدلى بها إلي، ومررت بدكاكين الصياغ، فوجدت أصحابها وعمالها جميعاً من اليهود، فدخلت أحد تلك الدكاكين فرأيت صاحبها جالساً في الصدر وحوله ثلاثة أو أربعة عمال كبار وصغار والى جانبه خزانة حديدية قديمة، فقلت له بلغة اليمن: مرحبا يا يهودا -أي يهودي- فتمتم ببعض الكلمات التي لم أفهمها، ثم قدم لي صندوقاً خشبياً قديماً وقال: هيا تفصل وقنبر "أي اجلس" فقنبرت على صندوق الكاز، وقلت له: هب لي -أي اعطني- بعض الأساور والخواتم والحلق من صنعكم، فلم يفهم مني شيئاً وأخذنا نتكلم بالإشارة ولغة الخرسان وبينت له إنني أريد الحلي التي تلبسها النساء بالمعصم والأصابع والآذان، فقال: تعني بلاذك "أي أساور" ومداور "أي خواتم"! فقلت: نعم، لا فض فوك، هذا الذي أعنيه.

فقال: حسناً فهمت طلبك، ولكن أتريد من الدقة "أي النقشة" التركية الحديثة أم من الدقة القديمة الخاصة بالقبائل؟!.

فقلت: أرني جميع ما عندك، ففتح درجاً بالصندوق الحديدي وأخرج منه كيساً مملوءاً أشكالاً وأنواعاً مختلفة من المصوغات، والحق يقال أن بعضها جميل جداً وعليها نقوش لم أشاهد مثلها في الشام ومصر، وجميعها مصنوعة من الفضة وبعضها مطلية بماء الذهب، ورأيت العمال إلى جانبي يصبون بعض الحلي صباً بقوالب خاصة ويشتغلون بعضها شغلاً باليد ويحفرونها أشكالاً غريبة، ورغم ضخامتها فإن عليها مسحة من الجمال قلما يراها الإنسان في المصاغات الحديثة في البلاد المتمدنة، فسألت عن أثمان بعضها؟ فقال لي: بالوزن. فقلت: زن لي هذه (البلاذك) وتلك (المداور) فوزنها، وقال لي: ثمنها كذا فقلت حسناً، ونفحته الثمن وهو يزيد شيئاً يسيراً عن قيمة الفضة، وهذه الزيادة اليسيرة لا تساوي في الحقيقة أجرة العمل، ولكن بارك الله في العربية السعيدة فكل شيء فيها جميل ولطيف ورخيص، وما أخطأ الذين سموها سعيدة في هذه التسمية.

والحلي التركية أدق صنعاً من الحلي اليمانية وأخف منها، وأما الحلي القبائلية فثقيلة الوزن كبيرة الحجم وكثيرة السلاسل والتعاليق والدبابيس وما أشبه ذلك، وتلبس نساء اليمن حلي كثيرة ويفاخرن باقتنائها، وعندهن حلي لمعظم أعضاء الجسد بما فيها الأذن وبين العينين والأذنين والساعدين والمعصم والأرجل.. الخ. ولها أسماء خاصة تختلف كل الاختلاف عن أسمائها عندنا.

الحمامات

خرجت من دكان الصائغ وعدت إلى دارنا قاطعاً حي بئر العزب من الغرب إلى الشرق فشاهدت في أوله من جهة قاع اليهود (جامع حنظل) وله مئذنة (منارة) جملية مبنية من الحجر والآجر، ومررت بطريقي ببعض الحمامات وهي كثيرة في صنعاء لأنه لا توجد في المنازل حمامات خاصة، وربما بلغ عدد الحمامات في صنعاء أكثر من العشرين وهي مبنية على الطراز التركي القديم المعروف عندنا في الشام، ويقوم بإدارتها مدير (معلم) وبعض العمال ولهم طرق خاصة في التدليك والتفريك وتمسيد الأعضاء والعضلات.

وفي الحقيقة أن المرء إذا دخلها بعد سفر طويل شاق كسفر الحديدة- صنعاء يخرج منها ولسان حاله يردد ما قاله البدوي: "إن نعيم الدنيا هو الحمام!" وتفتح هذه الحمامات أبوابها في الصباح للرجال وبعد الظهر للنساء، وبعضها تخصص أياماً للنساء وأياماً للرجال.

السيد زبارة والقصر

وصلت الدار بعد جولة استغرقت عدة ساعات فوجدت رسولاً قد أتاني من قبل السيد محمد بن محمد زبارة[1] أمير القصر السعيد بصنعاء[2]، وكنت أحمل إليه كتاباً من صاحب السمو المرحوم محمد سيف الإسلام يوصيه فيه بأن يطلعني على حقيقة نهضة الإمام وحروبه مع الترك ومواقفه المعروفة، والسيد محمد زبارة المشار إليه هو من رجال الإمام الذين رافقوه منذ أول نهضته وأيده في دعوته سنة 1322 هجرية وشاركه الضراء قبل السراء في جميع حروبه، وقد تفضل سيادته وأرسل لي مع رسوله خطابا يقول فيه بأنه سيأتي لزيارتي بعد الظهر، جاء سيادته بعد الظهر فرحبت به أجمل ترحيب وأجلسته في صالون استقبالنا وشكرته على مقدمه، وطلبت منه أن يحدثني عن تاريخ حياة جلالة الإمام وعن أحوال اليمن قبل توليته الإمامة، فحدثني سيادته أحاديث مطولة وتكرم علي ببعض الكتب والقصائد والرسائل، وسأنقل للقارئ الكريم شيئا منها ليقف على حقيقة أعمال هذا الرجل.

---

(1) محمد بن محمد بن يحيى زبارة: مؤرخ وأديب وفقيه وسياسي ورحالة، من علماء صنعاء، مولده ووفاته بها، لازم الإمام يحيى بقفلة عذر منذ عام 124هـ/1906م، وكلفه بعدة مهمات، وحضر معه "اتفاق دعان"، ثم عينه سنة 1330م، على قضاء خولان العالية، وعينه بعد ذلك سنة 1338هـ/1920م، أمير للقصر السعيد (قصر السلاح). قام بمهمات ورحلات كثيرة طاف فيها الأقطار العربية والإسلامية، وشارك في عدة مؤتمرات، وكانت له صلاة واسعة مع علماء وأدباء مصر والشام والعراق، وكان له الفضل في طباعة كثير من كتب تاريخ اليمن. وعني بتراجم اليمانيين، فصنف كتبا كثيرة (مطبوعة) منها (أئمة اليمن) و (نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر) و (نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف)، و (نزهة النظر في أعيان القرن الرابع عشر)، و (شرح نيل أجود المسلسلات) شرح به منظومة في رجال الحديث، توفي بصنعا سنة 1381هـ/1961م. انظر: الجرافي: تحفة الاخوان 125، الحبشي: مراجع تاريخ اليمن 35،93،271،272،317، السياغي: الروض النضير 67، الموسوعة اليمنية 1440/2، الأعلام للزكلي 85/7.

(2) المراد بالقصر هنا قصر السلاح المشهور بصنعاء الواقع شرقي صنعاء القديمة، وكان بمثابة حصن عسكري، ومستودع للأسلحة، وسجن عسكري، وورشة لصيانة الأسلحة، وكان فيه معمل لسك العملة المعدنية.

وقد أظهرت لي أحاديثه ذكاء نادراً وعلماً واسعاً ولطفاً زائداً، وقد عرف جلالة الإمام في هذا السيد الكريم هذه الصفات الحميدة فعينه أميرا للقصر، والقصر هو معمل ميكانيكي عظيم تصنع فيه البنادق الحربية والعتاد والبارود والأدوات الميكانيكية، وتسك فيه النقود، وتصلح المتراليوزات[1] والمدافع.

وقد أكثرت على السيد زيارة من السؤالات وأحرجت مركزه مراراً بطلبي منه الإفصاح عن بعض الأخبار والأسرار التي لا يجوز إفشاؤها، فكان يدور حول أسئلتي دون أن يجيب عليها ثم يتملص منها بأسلوب سياسي أديب وينتقل بلطف إلى موضوع آخر، وقد أطلعني سيادته على قصيدة عامرة قالها في مديح جلالة الإمام أثر توليته إمامة اليمن بعد وفاة جلالة والده المنصور وهذا بعضها:

ومــذ قضــى إمامنــا المنصــور ... وكـــادت الأرض لـــذا تمـــور

اجتمـــع الســـادات والقـــادات ... وعمـــدة الاعـــلام والإثبـــات

ونظـــروا فـــي الأمـــر قبـــل دفنـــه ... فبـــايعوا عـــن اتفـــاق لابنـــه

وهـــو أميـــر المـــؤمنين "يحـــي" ... مـــن جّـــدد الـــدين لنـــا وأحيـــا

وأوضـــح الحجـــة فـــي هـــذا الـــزمن ... وأرشـــد الخلـــق إلـــى خيـــر ســـنن

وشـــيد الأعـــلام للشـــريعة ... وبـــدد المظـــالم الشـــنيعة

إلى أن يقول:

مولـــده بـــاليمن والســـرور ... بـــنفس صـــنعاء جـــاء فـــي غفـــور

ثـــم دعـــا مـــن بعـــد تلـــك الحادثـــة ... فـــي ثـــاني العشـــرين بعـــد الثالثـــة

ثم يقول:

وثالـــث العشـــرين[2] فـــتح صـــنعاء ... فـــأظهر الإمـــام فيهـــا الشـــرعا

وعـــادت الأتـــراك كالرمـــال ... يقودهـــا فيضـــي[1] إلـــى أزال

---

(1) المتراليوزات: جمع متراليوز، لفظة تركية من أصل فرنسي(Mitrailleuse): مدفع رشاش. المعجم الفارسي الكبير2/2687، معجم عبد النور الحديث 516.

(2) أي سنة 1323هـ (حاشية الأصل).

وشـــن فيضـــي علـــى شـــهاره[2]	فـــي شـــهر رمضـــان أي غـــاره
وكـــان مـــا كـــان مـــن المعـــامع	وأخـــذ مـــا أوصـــل مـــن مـــدافع
وفـــــر فيضـــــي إلـــــى أزال[3]	مـــن خوفـــه للأســـر والنكـــال
وســـبب الأخبـــار فـــي حبـــور[4]	وغيرهـــــا للـــــوحش والطيـــــور
ورابـــع العشـــرين فـــي زراجـــه[5]	حـــرب تثيـــر النقـــع والعجاجـــه
ومعـــرك فـــي قريـــة الحمـــودي	وحربهـــــا شـــــبيهة الرعـــــود
ووقفـــة الأشـــمور[1] للغضـــنفر	وفخرنـــا الليـــث أبـــو منصـــر[2]

---

(1) هو المشير أحمد فيضي باشا، من أشهر ولاة اليمن أيام الدولة العثمانية.

(2) شهارة: مدينة مشهورة في بلاد الأهنوم من أعمال محافظة عمران، و تقع إلى الشمال من عمران وتبعد عنها نحو 90 كم، وهي عبارة عن مدينتين يقعان في أعلى جبلين شاهقين متقاربين يرتفعان عن سطح البحر نحو 3000متر، يفصل بينهما هاوية سحيقة يبلغ ارتفاعها نحو 200متر، وتسمى التي على الجبل الشرقي (شهارة الفيش)، والتي على الغربي (شهارة الأمير)، ويربط بين الجبلين جسر جميل أقيم على الأخدود الفاصل بينهما، يعد من أشهر المعالم المعمارية والسياحية في المنطقة، والمعركة الشهيرة – التي أشار إليها زبارة – سنة 1324هـ، بين قوات الإمام يحيى الذي تحصن بها، وبين القوات العثمانية بقيادة المشير" أحمد فيضي باشا " التي وصلت من تركيا لقمع تمرد اليمنيين على الدولة العثمانية . التركية .؛ خاصة بعد فرار ممثل السلطان العثماني من صنعاء إلى زبيد عقب دخول الإمام " يحيى " صنعاء تعاضده قبائل همدان وحاشد والأهنوم، وقد وصلت القوات العثمانية بقيادة المشير" أحمد فيضي باشا " إلى صنعاء مزودة بأحدث المعدات من مدفعية ثقيلة وأسلحة نارية خفيفة، ولم تلبث تلك القوات سوى بضعة أيام حتى تحركت قاصدةً شهارة بقوة تتألف من عشرة طوابير بكامل معداتها، ولم تعترض تلك القوات أي مصاعب في الطريق من صنعاء إلى شهارة، وعندما وصل إلى أسفل جبال شهارة فوجئ بتجمع القبائل التي توحدت تحت قيادة الإمام " يحيى "، واندحرت القوات العثمانية وفر قائدها وبعض من قواته التي نجت بعد معركة ضارية. انظر: صفة جزيرة العرب 126، 202، معجم البلدان: (شهارة)، مجموع بلدان اليمن وقبائلها 1/95–97، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1/880–883، موقع المركز الوطني للمعلومات على شبكة الإنترنيت.

http://www.nic.gov.ye/SITE%20CONTAINTS/tourism/tourist%20places/amran/shehara-dep.htm

(3) أزال: الاسم القديم لمدينة صنعاء.

(4) حبور: مدينة جبلية مشهورة وتقع جنوب شهارة بنحو 30كم، وهي مركز ناحية (مديرية) ظليمة، من أعمال محافظة عمران، على خط الطول 43/41، وخط العرض 16/03. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية 1/410.

(5) زراجة: مدينة في منطقة الحداء فيما بين سهل جهران غرباً وخولان العالية شمالاً وعنس جنوباً، في الجنوب من صنعاء، وهي مركز ناحية الحداء من أعمال محافظة ذمار، وتقع شمال شرق ذمار بنحو 31كم، وشرق معبر بنحو 13كم، على خط الطول 44/21، وخط العرض 14/49، ووقعت بها معرك طاحنة بين القوات العثمانية وقوات الإمام يحي أدت إلى تهدم أغلب مبانيها. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية 1/738، موقع المركز الوطني للمعلومات على شبكة الإنترنيت

http://www.nic.gov.ye/SITE%20CONTAINTS/tourism/tourist%20places/damar/alhada-dep.htm

وخـــامس العشـــرين فـــي خـــولان   معـــارك عظمـــى وفـــي ســـنحان

ودارنـــا البيضـــاء وفـــي رجـــام   "وطـــود قيفـــان" وفـــي الحيـــام[3]

مجمل لتاريخ حياة الإمام

ثم حدثني السيد محمد زبارة عن تاريخ حياة الإمام فقال: قيل في تاريخ مولد الإمام البيت التالي:

لـئن تـأخر فـي الأزمـان مولـده   فهـو المجلـي علـى آبائـه الغـرر

ولد الإمام يحيى في شهر ربيع الأول سنة 1286 هجرية في مدينة صنعاء نفسها وتلقى دروسه وعلومه في صنعاء عن والده الإمام المنصور بالله وعن القاضي محمد بن عبد الملك الآنسي والقاضي محمد بن محمد العراشي والقاضي على بن علي اليماني وغيرهم من العلماء، و في سنه 1307 هاجر مع والده الإمام المنصور من صنعاء إلى جبل الأهنوم وهناك أكمل دروسه وعلومه على القاضي العلامة عبد الله بن أحمد المجاهد الذماري، وعلى العلامة لطف بن محمد شاكر وغيرهما من العلماء الأعلام الذين يشار إليهم بالبنان. وكانت جميع أيام حداثته أيام شدة وبؤس على اليمن وأهله، وقد شهد بعيني رأسه ظلم الأتراك واستبدادهم بأبناء قومه وتلاعبهم بمصالحهم وبلادهم إرضاء لشهواتهم واستحلالهم الحرمات وتركهم ما أمر الله به من الفروض والوجبات، وانغماسهم في الشرور والمعاصي، وارتكابهم البغي وشرب المسكرات. وقد كان يخرج المتصرف أو الوالي أو الحاكم العثماني من محل وظيفته إلى الأرياف والجبال ليجمع الأعشار ويجبي الضرائب فيأخذ لنفسه جميع ما يمكنه تحصيل من الأهالي الفقراء، ويعود إلى محل وظيفته دون أن يعطيهم سنداً أو وصلاً، ويقول لحكومته بأن الأهلين عاصون عليه لا يرغبون دفع الضرائب له، فتسير الحكومة

---

(1) الأشمور: جبل في غربي مدينة عمران بنحو 22كم، تمر منه طريق عمران حجَّة.

(2) أبو منصر: أحد قواد جيش الإمام واسمه عبد الله أبو منصر، معروف في أيام الإمام المنصور. (حاشية المؤلف)

(3) الحيام: جمع حيمة، والمراد بها الحيمة الداخلية والحيمة الخارجية، سبق التعريف بهما. وخولان وسنحان والبيضاء ورجام وقيفان: أسماء مواضع دارت فيها معارك بين القوات العثمانية وقوات الإمام يحيى.

الجيوش عليهم فتنهبهم وتخرب بيوتهم وتسوق طروشهم وتكتب إلى الباب العالي "في الأستانة" بأن أهل اليمن عصوا الحكومة وأنهم أشقياء يدينون بدين (الزيدية) ولا يطيعون الأوامر الشاهانية، ولا يعترفون بالخلافة العثمانية، ولما كان أولو الأمر والنهي في القسطنطينية جهالاً لا يفهمون ما هو المذهب الزيدي وما هي حقيقة أخبار اليمن كانوا يؤخذون بهذه الدعايات الكاذبة ويؤيدون سياسة موظفيهم في اليمن ويمدونهم بالجند والسلاح والعتاد ويأمرونهم بإخضاع اليمانيين بالسيف والمدفع، ولذلك كانت اليمن في حرب دائم مع الترك، وقد ذكر لي السيد زبارة وغيره من العلماء والعارفين بدقائق الأمور أسباباً كثيرة لهذه الحرب ألخصها فيما يلي:

أولاً- كان الولاة العثمانيون يطرون الموظفين اليمانيين لأسباب أوهن من خيط العنكبوت.

ثانياً- كان الولاة يضايقون أئمة اليمن وسادته ويضغطون عليهم بصورة قاسية.

ثالثاً- بعد إخماد الفتن والثورات كان الولاة يفرضون الغرامات الحربية على الأهلين ويجبونها بالقوة كنا يفعل الغزاة الفاتحون.

رابعاً- كان الموظفون العثمانيون يمنعون الإمام والسادة من الاختلاط بالناس وكانوا يقطعون راتبهم ويجبرونهم على بيع أملاكهم وأطيانهم بأبخس الأثمان.

خامساً- كانوا يسجنون علماء الزيود لا لجرم أو ذنب ارتكبوه بل لاختلافهم مع رؤساء المحاكم الأتراك في المحاكم الشرعية وغيرها من المحاكم، وكان في جملة من سجنوهم أيام الوالي "مصطفى عاصم" والد جلالة الإمام يحيى صاحب الجلالة الإمام المنصور بالله، ورئيس العلماء بصنعاء السيد أحمد بن محمد الكبسي، والعلامة زيد بن أحمد الكبيسي وغيرهم، وبعد سجنهم في صنعاء نفوا إلى الحديدة فمات بعضهم في المنفى.

سادساً- كان اليمانيون ينفرون من الترك لتركهم الصلاة والصوم وعدم محافظتهم على شريعة الله وسنة رسوله ﷺ.

سابعا- كان الولاة يوهمون الناس بأنهم يريدون إرسالهم إلى الأستانة بناء على أوامر السلطان، ومعلوم بأن جميع الذين يرسلون إلى الأستانة كانوا لا يعودون منها،

بل يذهبون طعاما للسمك في البوسفور، لذلك كان بعض اليمانيين يفتدون أنفسهم بالمال.

ومن لا مال عنده كان يساق صاغراً إلى المنافي والسجون، وقد نُفي على هذه الصورة خلق كثير نذكر منهم عبد الله الضلعي نفي إلى عكا، والقاضي يحيى المجاهد التعزي أرسل إلى الأستانة ومات فيها.

ثامناً- كان الترك يسجنون جميع من يكاتب الأئمة، والأغرب من ذلك أنهم سجنوا الحاج سعد الدين الزبيري لأنه زوج ابنته من المرحوم الإمام المنصور والد جلالة الإمام يحيى ومن ثم نقلوه إلى رودس.

مبايعة الإمام يحيى

هذا وصف موجز لحالة اليمن أيام الإمام المنصور وقد شاهدها الإمام يحي بنفسه فشب على بغض الترك، ولما توفي والده في سنه 1322 هجرية (1904م) في قفلة حوث[1] دعا جلالته جميع أهل الحل والعقد في البلاد دون أن يعلمهم بوفاة والده، ولما اكتمل عددهم قال إنا لله وإنا إليه راجعون، إمامكم قد ذهب إلى رحمة ربه فاختاروا لأنفسكم من بينكم خلفاً له، فأجمعت كلمتهم على اختياره.

قبل جلالته الإمامة، ووارى والده التراب، ونادى إلى الجهاد وامتشق الحسام بنفسه وقاتل الترك في طول البلاد وعرضها، وحاصر جميع مراكز اليمن ما عدا الحديدة، وتعز، واستولى عليها من الترك المركز بعد المركز، وقتل في هذه الحروب خلق عظيم، ومات من الجوع ألوف مؤلفة، وأخرج جلالة الإمام الحبوب والدقيق والأعطيات وفرقه على الجند ورجال القبائل، واتنصرعلى الترك انتصاراً كاملاً، ودخل صنعاء بعد حصار طويل كاد يهلك فيه جميع سكانه.

ووقع يومئذ حادث غريب يدل على حلم الإمام وتسامحه وذلك إنه كان يوجد بصنعاء مفت يقال له القاضي محمد جغمان وقد ظلم الناس كثيراً، وأساء إليهم أكثر. فما دخل جيش الإمام صنعاء هجم الناس عليه يريدون قتله تشفياً وانتقاماً، فمنعهم الجند من قتله وساقوه إلى الإمام بقرية القابل، وكان جلالته يومئذ خارجاً من

(1) الصواب: قفلة عذر.

صلاة الجمعة وقد اصطفت الجنود والأهلون لتحيته أثناء خروجه، ولما رأى الناس المفتي صاحوا: "اقتلوه! اقتلوه!" فأمر جلالة الإمام الناس بالابتعاد عنه، فصرخ عندئذ وهو يبكي "ارحمني يا أمير المؤمنين وخلصني من الناس ولو بالقتل؟" فأجابه جلالته: "لا ضير إنك آمن ونحترمك لعلمك، أما ما بينتك وبين الناس من الحقوق فأمامكم الشريعة، وأما ما حصل لي ولوالدي الإمام المنصور من الضر فقد سامحتك منه وعفوت عنك، ثم أكرمه وأعاده إلى أهله آمناً وأجرى له معاشاً وافياً من الدراهم والحبوب وصار معظماً مكرماً، وقد تعجب الناس من حلم الإمام وعفوه!

أحمد فيضي باشا والمعاهدة مع اليمن

دامت الحرب بين جلالة الإمام وبين الدولة العثمانية سنين متعددة كان فيها النصر أحياناً حليف الإمام وأحياناً حلف الدولة، وقد عين أحمد فيضي باشا والياً على اليمن للمرة الثالثة ليسترد صنعاء من الإمام، وتمكن دولته بعد حروب شديدة من استرداها ثم وقعت معارك متعددة في قرية الحمودي وفي الأشمور وغيرهما من القرى، ولما عجزت الدولة العثمانية عن مقاتلة الإمام وإخضاع اليمن أرسلت وفداً لعقد الصلح فطلب جلالة الإمام الشروط الآتية:-

شروط الإمام

1- أن تطبق الأحكام وفقاً للشريعة الإسلامية الغراء.

2- أن يعود إلى الإمام حق عزل القضاة وحكام الشرع وتعيبهم.

3- أن تكون معاقبة الخائنين والمرتشين منوطة بالإمام.

4- أن تخصص رواتب كافية للحكام والموظفين كي لا تدفعهم قلة ذات اليد إلى الارتكابات.

5- أن تحال الأوقاف إلى عهدة الإمام لإحياء المعارف في البلاد.

6- إقامة الحدود الشرعية على مرتكبي الجرائم من المسلمين والإسرائيليين كما أمر الله تعالى بها وأجراها رسوله والتي أبطلها المأمورون الترك كأنها لم تكن شيئاً مذكوراً.

7- يؤخذ العشر من المزروعات التي تسقى بماء السماء وأما التي تسقى بمياه الآبار فيؤخذ منها نصف العشر بعد أن يقدر ذلك أرباب الخبرة، وإذا حصل خلاف يرجع إلى الأصول التي وضعها عبد الله بن رواحة في الخرص، ويؤخذ عن البقر والغنم والإبل النصاب الشرعي، وأما الأراضي التي تغل مرتين أو ثلاثاً فيؤخذ عنها نصف العشر أو ربعه ودفع ما سوى ذلك من التكاليف.

8- جباية الأموال المار ذكرها تكون بواسطة مشايخ البلاد تحت نظارة مأموري الدولة، وإذا تجاسر أحد على أخذ زيادة عن التكاليف المار ذكرها فعزله أو تحديد الجزاء له راجع الإمام، ولا يكون للإمام علاقة بقبض الأموال الأميرية.

9- تعفي عشائر حاشد وخولان والحدا وأرحب من التكاليف.

10- يسلم كل من الفريقين المتعاقدين الخائنين الذين يلتجئون إليه.

11- إعلان العفو العام في البلاد كي لا يسأل أحد عن ماضيه.

12- أن لا يولى أحد من أهل الكتاب على المسلمين.

13- أن تشمل أحكام هذه المواد المار ذكرها صنعاء وتعز وملحقاتهما.

14- أن لا تدخل الحكومة في شئون آنس ولا تعارض الإمام في تعيين المأمورين لهذا القضاء لفقر سكانه وقلة حاصلاتهم ولما يُخشى من وقوع محظور في مخالفة مأموري الحكومة لهم.

15- أن تكون المحافظة على هذه البلاد من تعديات الدول الأجنبية راجعة للدولة العلية.

أن تنفيذ هذه الشروط الأساسية في البلاد اليمانية يكون سبباً لسلامة الأفراد البشرية وترقي البلاد وإحيائها، فيظهر الأمن بأبهى مظاهره ويحصل منها خير عظيم.

ولا يخفى أن البعض يستفيدون من كثرة سوق الجنود إلى البلاد اليمنية، إذ لا يخلو من الفائدة المادية لهم، ولعلهم لا يرضون بهذه الشروط لأنه باتباعها يستتب

الأمن وينقطع ورود العساكر إلى هذا القطر فيخسرون بذلك ما كانوا يؤملون، لذلك طلب الإمام صدور فرمان سلطاني يتضمن قبول الشروط المار ذكرها كي يطمئن اليمنيون وترتاح قلوبهم، ولا يعترضه المأمورون في إجراء الأحكام التي تخوله إياها هذه الشروط، وإحالة إدارة البلاد الشرقية من اليمن التي تشبه بلاد آنس إلى عهدته.

هذه هي الشروط التي قدمها الإمام لتكون أساس التفاهم بينه وبين الدولة العثمانية وذلك في 13 صفر سنة 1314 هجرية إلا إنه لم يتم الاتفاق عليها، لان الموظفين الذين أنيط بهم عقد الصلح لم يخلصوا نيتهم وخدعوا حكومتهم، لشيء في نفوسهم، فوقعت الحرب ثانية وحصلت معارك تشيب من هولها الأطفال في خولان والدار البيضاء وسنحان ورجام وذمار والحيمة وآنس وغيرها.

وقد أثبتُّ شروط الصلح هاهنا لسببين:

الأول: ليعلم القارئ الكريم أن جلالة الإمام يحيى لم يكن متعنتاً في طلباته ولا أراد المحال، وأنه وضع هذه البنود لتكون ميثاقاً قومياً لليمن.

والثاني: لان حكومة الإمام المتوكلية الحالية قد اتخذت هذه الشروط دستوراً لحكمها، وهي اليوم تسير في أعمالها بموجب هذا الدستور ولا تخل به في شيء.

الإمام وأهل اليمن

هذا ما كان من موقف الإمام مع الدولة العثمانية، ولم يكن موقفه مع الأهلين بأقل خطورة منه مع الدولة لأن الأهلين ألفوا الثورات على الدولة واعتادوا العصيان وعدم دفع الضرائب ومالوا إلى الفوضى وصار كل شيخ قبيلة أو شيخ قرية يخال نفسه أنه هو الزعيم الوحيد في البلاد ومن الواجب على العباد طاعته وتأدية الضرائب والزكاة له، فأصبح اليمن شعلة من نار وصار من المتعذر على المرء أن يخرج من قريته لا بل من بيته خوفاً من السلب والنهب، ووقعت في البلاد حروب أهلية عظيمة التهمت الأخضر واليابس، وقام بعض السادة يطالبون بالإمامة غير معترفين بجلالة الإمام يحيى وفي جملتهم أحد أبناء عمه المدعو أحمد بن قاسم حميد الدين الضحياني، وألف المخالفون لجلالته حرباً لمقاومته واستنجدوا ببعض أعدائه إلا أنهم لم يفلحوا في دسائسهم وتمكن الإمام يحيى في آخر الأمر بما له من المركز الديني

والدنيوي أن يضرب على أيدي جميع الثوار والعصاة بيد من حديد وأن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر الواحد بعد الآخر ويأخذ منهم رهائن، وتمكن أن يؤمن البلاد في بضع سنين وأن ينشر النظام والانتظام في البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وأن ينظم حكومة مدنية إسلامية تسير في جميع في أمورها وأحكامها بموجب الشريعة الإسلامية الغراء، وأن يقسم البلاد إلى ألوية متعددة ويجعل على رأس كل لواء حاكما من قبله.

وبالاختصار فقد خضعت جمع اليمن لسلطانه فألف من أجزائها مملكة إسلامية مستقلة استقلالاً تاماً، وقد اعترفت الدولة المعظمة كايطاليا وروسيا وبريطانيا بهذه المملكة، ولعمر الحق أن هذا عمل جليل يدل على عظمة القائم به واقتدارة، فالدولة العثمانية -دولة الخلافة الإسلامية- لم تتمكن في برهة 500 سنة أن تستولي على اليمن وتخضعه لسلطانها، ولكن جلالة الإمام يحيي بذكائه وشجاعته ومفاداته تمكن في بضع سنين من جمع شمل جميع أهل بلاده وإقامة مملكة عربية فيها.

هذه بعض أعمل هذا الملك القوي العظيم وصفتها باختصار. والآن انتقل إلى وصف جلالته في مواقفه المختلفة.

سراي الإمام والمخيم المنصور

بعد مضي ثلاثة أيام على وصولنا صنعاء أذن لي جلالته بأن تشرف بالمثول بين يديه، وكنت قد سمعت عنه أشياء كثيرة كديمقراطيته، وبساطة عيشته، ونبذه للعظمة وكرهه لسماع ألفاظ التضخيم كصاحب الجلالة، وبغضه للمراوغة... الخ.

فذهبت إلى مقابلته فرحاً مسروراً واصطحبت معي أحد الجنود، وكان الوقت بعهد الظهر، وكنت في الطريق أشعر بشوق إلى رؤية هذا الرجل الفذ العظيم الذي طالما سمعت عنه الشيء الكثير، وصلت إلى الباب الخارجي للمقام الشريف (السراي) فأوقفني الحارس بالباب، فتقدم صاحبي الجندي من الحارس وقال له: هذا فلان ومسموح له بالدخول لمقابلة مولانا الإمام. سمع هذا الكلام كبير الحراس فجاء مسرعاً خطاه نحونا وقال: ما اسم حضرتك؟ فأجابه الجندي عني: "نزيه بك" فقال: حسناً، سنّب[1] "أي نخبر" الإمام بقدومك، وإن هي إلا بضع دقائق حتى وصل

(1) سنّب: كتبها المؤلف (سننب) بنونين، والصواب: سنّب، بنون واحدة مشددة، وتعني في العامية اليمنية: توقف، أو انتظر لحظة، وهي ذات أصل فصيح، جاء في اللسان: (سنب):" السَّنْبةُ: الدَّهْرُ. وعِشْنا

الجندي إلى الإمام فأذن بدخولي، تخطيت الباب الخارجي ودخلت منه إلى فسحة كبيرة فيها بضع غرف للجنود والحرس بعضها يستعملونها لنومهم وبعضها لجلوسهم، ولجت من هذه الفسحة باباً آخر ثم خرجت منه إلى حوش مستطيل قائم إلى جانبه الجنوبي مكاتب بعض الموظفين والكتبة، وفي صدره أي في الجهة الغربية، يوجد باب أسود جميل قائم خلفه حديقة سراي الإمام ودار الحرم الشريف، وعليه حراس من الجنود ولا يؤذن لأحد بدخوله، ويوجد في الجهة الشمالية من القصر مكاتب لبعض المأمورين ودائرة البريد ومركز التلغراف السلكي واللاسلكي، ويوجد في منتصف الحوش الكبير درج واسع مبني من الحجَر الأسود يصعد المرء عليه إلى جناح خاص من السراي يطلق عليه اسم "المخيم المنصور" وهو مكتب جلالة الإمام وموظفيه وكبار كتابه ووزرائه.

حديث مع جلالة الإمام يحيى عاهل اليمن

يستنكر تجزئة البلاد العربية

صعدت على درج المخيم المنصور فاستقبلني في منصفه أحد حجاب جلالة الإمام المدعو محسن جلالي، وقال: أهلاً وسهلاً، وصعد أمامي فمررنا بآخر الدرج بحارس من الجنود ذوي الثياب المنيلة وتخطيناه إلى فسحة طويلة، أي رواق قائم إلى جانبه غرف كثيرة، جميع أبوابها مغلقة. وقف الحجب في منتصف الرواق أمام باب صغير نصفه مغلق ونصفه مفتوح، وقال: هيا تفضل، فأخرجت حذائي من رجلي كما هي العادة في اليمن، ودخلت الباب فوجدت نفسي في غرفة مستطيلة جلس إلى جوانبها فوق فرش وثيرة وسجاد عجمي بضعة عشر رجلاً تبدو على محياهم سيماء العظمة والنبل، فخلت نفسي في غرفة رئيس الكتاب، أو رئيس التشريفات. وارتبكت في أمري لحظة ثم تقدمت بقدم ثابتة إلى منصف الغرفة بحيث كان يجلس رجل وقور بهي الطلعة معتدل الجسم أسمر اللون مستدير الوجه، فيه بعض علامات الجدري، ذو جبين عاليين وفم صغير ورأس كبير وعينين سوداوين تقدحان مغنطيساً

بذلك سَنْبةٌ وسَنْبَتةٌ أي حِقْبةٌ؛ التاءُ في سَنْبَتةٍ مُلْحقةٌ على قول سيبويه، قال: يدُلُّ على زِيادةِ التاء، أنك تقول سَنْبةٌ، وهذه التاءُ تَثْبُتُ في التصغير، تقول سُنَيْبِتَةٌ، لقولهم في الجمع سَنابِتُ. ويقال: مضى سَنْبٌ من الدَّهْر، أو سَنْبةٌ، أي بُرْهةٌ".

ونوراً، له أنف قصير عريض ولحية سوداء مستديرة وأيد وأرجل صغيرة، فقلت موجهاً خطابي نحوه: السلام عليكم.

فأجابني: وعليك السلام، حيا الله من قد جاء، تفضلوا واجلسوا، فجلست أمامه على سجادة عجمية، واحترت في أمري واعترتني الدهشة في من عسى أن يكون هذا الرجل، هل هو رئيس الوزراء أو هو رئيس الكتاب أو رئيس الحجاب؟! مرت هذه الأسئلة الاستفهامية في مخيلتي كمرور البرق، وكنت في خلال هذا الوقت أراقب كل شئ حولي، فرأيت أمام هذا الرجل الذي حرت في أمره رزماً من الأوراق بعضها ملفوف كالسجاد وبعضها مطوي طياً، وكان يجلس بين يديه رجل يفض هذه الأوراق ويقدمها له الواحدة بعد الواحدة، فكان يقرأ بعضها ويلقيها إلى الذين حوله ذات اليمني وذات اليسار وكان يملي على بعضها الأجوبة التي يجب أن تكتب عليها، وأحياناً كان يكتب بيده على بعضها، ويطرحها أمامه فيلتقطها الحاجب ويرملها برمل أحمر ويختمها بخاتم خاص، فنظرت من طرف خفي إلى الخاتم فإذا به خاتم جلالة الإمام فأدركت للحال أني أمام الحضرة الشريفة، فاعتدلت في مجلسي، فأدرك جلالته بذكائه العجيب موقفي وتوقف عن العمل وحول نظره نحوي، وقال:

كيف وجدتم بلاد اليمن؟ إنها فقيرة وحقيرة، وليس فيها شيء من التمدن!

فقلت: كفانا الله شر التمدن يا صاحب الجلالة، ربما تكون بلادكم في الوقت الحاضر فقيرة من حيث الثروة المادية، ولكنها دون ما شك غنية بحريتها واستقلالها، وهذه نعمة نغبطكم عليها نحن معاشر العرب الذين اكتسحت الدولة الغربية بلادهم واحتلتها قوة واقتدارا وفرضت عليها ضرباً من ضروب الحكم الكيفي سمته انتداباً؟

فقال: وأين بلادك؟

فقلت: الشام.

فقال: ماذا جرى في مدينة دمشق؟

فقلت: دمشق مسقط رأسي، وقصصت عليه قصتها منذ أيام الحرب العظمى إلى ذلك التاريخ.

فقال: عجيب، عجيب، لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد بلغنا أشياء من هذه الأخبار فلم نصدقها.

فقلت: صدقوها، وصدقوا أكثر منها.

فاستفظع ذلك واستنكره وحوقل كثيراً، وقال: والحلفاء، ألم يساعدوكم؟

فقلت: كلا يا مولاي، إن الحلفاء أجمعت كلمتهم وتم الاتفاق بينهم على تقسيم تركة الرجل المريض (أي تركيا) وأخذوا البلاد العربية التي سلخت عن الدولة العثمانية وقسموها بينهم، واختصت كل واحد منهم بقطر أو أكثر من هذه البلاد، وأما وعودهم، وأما عهودهم التي قطعوها للعرب أيام الشدة والضيق، أيام كان المدافع الألماني يلعلع في السماء والأرض فأصبحت قصاصات ورق لا قيمة لها ولا وزن، فأطرق جلالته قليلاً وحوقل كثيراً، وغير مجري الحديث قائلاً:

كيف وجدتم برد اليمن؟ وكيف كانت معاملة العمال لكم في الطريق؟

فقلت: شكراً وألف شكر لجلالتكم، فإننا والحمد لله ما نزلنا بمكان إلا وكنا موضع الحفاوة والتكريم، وقد قام الجميع نحونا بأكثر من الواجب، فأصبحنا ألسنة شكر لجلالتكم، وأما البرد فإنه لا يضايقنا لأن بلادنا أشد برودة من اليمن.

فقال: هل من حاجة تريدون قضاءها؟ وهل أنتم مستريحون في داركم؟

قلت: الحمد لله، والشكر لمولانا الإمام إننا بحسب أنظاركم والتفاتاتكم على غاية ما يرام، ونرغب أن نصور بعض الصور في صنعاء وضواحيها لنحفظها كذكرى لزيارتنا البلاد السعيدة.

فقال: لك أن تصور ما شئت ومن شئت ما عداي أنا.

فشكرته على لطفه وودعته وانصرفت، وبمناسبة التصوير أقول: إن جلالة الإمام لم يسمح في حياته لأحد أن يصوره، وما هذه الصور التي نراها له في بعض المجلات والجرائد إلا صورة خيالية رسمتها مخيلة واضعيها وهي لا تشبه الإمام لا في قليل ولا كثير.

قبل أن أخرج بالقارئ الكريم من المخيم المنصور أصف له بعض مشاهداتي في المخيم المنصور أو مكتب الإمام الخاص: هو غرفة مستطيلة يبلغ طولها نحو سبعة أمتار، وعرضها نحو ثلاثة أمتار، وفيها بعض النوافذ الكبيرة ذات الزجاج الملون، وجدرانها مبيضة بالكلس الذي يقال له (قص) وأرضها مفروشة بالسجاد العجمي والطنافس، ويجلس جلالة الإمام في منتصفها قرب الحائط الشمالي، ويجلس كتبته

وكبار رجال دولته حوله، أربعة إلى يمينه وأربعة إلى يساره، على سجاجيد عجمية ممدودة فوق فرش وثيرة، ويوجد أمام كل واحد منهم إبريق صغير من الفخار مملوء ماء إلى جانبه مبصقة نحاسية جميلة عليها بعض الكتابة العربية والنقوش القديمة، وإلى الجانب الآخر رزمة كبير من القات، وجميع الكتبة يخزنون، أي يمضغون القات ويشتغلون في آن واحد، وقد رأيت الأوراق مكدسة تكديساً أمام كل واحد منهم، وهم يكتبون عليها بأقلام من القصب الأبيض العادي وحبر أسود، وأما جلالة الإمام فيكتب بقلم حبر، ولا يوجد أمامه قات ولا إبريق فخاري لأن جلالته قد ترك استعمال القات بناء على إشارة طبية، وقد أخذ في استعمال علكة من نوع المستكة يمضغها بعض الأحيان للتسلية بدلاً من القات.

ويوجد إلى يسار جلالته مكتب كبير فيه كثير من الأدراج وأمامه طاولة صغيرة وزجاجة ماء مملوءة ماء معطر بعطر الورد البلدي وقد علق خلفه على الجدار حساماً يمانياً كريماً وبندقية نمساوية قصيرة من نوع (شتير) وأما لباسه في وقت الشغل في المخيم المنصور فهو ثوب حريري بسيط وطاقية قطنية ويلبس في إصبع من أصابع يده اليسرى خاتماً ذا حجر يماني أحمر.

طريقة الكتابة

ويجدر أن نذكر هنا أن طريقة الكتابة في اليمن تختلف عن طريقة الكتابة عندنا، وقد رأيت بعض الأوراق في المخيم المنصور، ويبدؤون الكتابة فيها جميعها: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم يكتبون بضعة أسطر تحت البسملة، ثم يدورون بالكتابة حول هذه الأسطر بشكل كروي، ويكثرون من استعمل ألفاظ التعظيم والتبجيل والمترادفات، ولا يخلو كتاب واحد من القوافي والحواشي الكثيرة، وبعد أن يكتبوا الرسالة أو ما أشبه يلفونها لفاً كما نلف نحن السيجارة ويضعونها في حزامهم أو عمتهم في انتظار إرسالها إلى المحل المقصود إرسالها إليه.

خرجت من المخيم المنصور وسرت في الرواق نحو الباب أريد الخروج، فشاهدت في الرواق مصابيح كهربائية، بعضها مدلاة من السقوف وبعضها موضوعة في الجدران، فاسترعت نظري كثيراً لأنها هي المصابيح الوحيدة الموجودة في جميع بلاد اليمن، تأملتها جيداً فإذا بها من مصنوعات إيطاليا وأسلاكها رديئة جدا، وأغطيتها

أردأ، وهي تنار (بدينامو) خاص، وقد جلبها الطليان لجلالة الإمام من أسمرا، ومجراها الكهربائي من النوع المستمر ولا بطاريات لها، وقد كلَّفَتْ جلالة الإمام مبلغاً طائلاً من المال يزيد على أربعة أضعاف ثمن مثلها في مصر.

كنيسة القليس

عدت إلى دارنا وأنا أفكر في جلالة الإمام وديمقراطيته ولطفه، وقضيت ليلتي في غاية الراحة والانشراح، وفي الصباح خرجت مبكراً إلى صنعاء، وصورت فيها صور كثيرة أهمها صورة بعض المنازل الحميرية القديمة والأسواق والجوامع والأشخاص إلى غير ذلك، ومررت في أثناء طوافي بمكان فيه حفر كبيرة وبضع شجرات ويقولون لهذه الحفرة في الوقت الحاضر (غُرقة[1] القَلِيْس) بفتح القاف وكسر اللام وسكون الياء وآخرها سين مهملة، وهي الكنيسة التي بناها أبرهة بن الصباح الحبشي[2] وأراد من بنائها أن يصرف الناس عن الكعبة إليها، وقد قال في وصفها السيد صارم الدين بن إبراهيم الوزير المتوفى سنة أربع عشرة وتسعمائة، ما خلاصته: "القليس كنيسة أبرهة الحبشي سميت بذلك لارتفاع بنائها، وكان أبرهة قد استذل أهل اليمن وأخضعهم فلما عزم على عمارة هذه الكنيسة أمرهم بنقل ما في قصر بلقيس من أحجار منقوشة بالذهب والفضة ورخام مجزع، ثم جد في بنيان الكنيسة وجعلها مربعة وبناها بتلك الحجارة منقوشة لا تدخل الإبرة في أطباقها، وجعلها ملونة: فحجر منها أخضر، وحجر أحمر وحجر أبيض وحجر أزرق وحجر أسود، وجعل دائرها (مفصلاً) على هذه الصفة، ثم (فصل) فوق الرخام بحجارة سود لها بريق جلبها من جبل نقم وهو جبل صنعاء المشرف عليها، وكان عرض الحائط ستة أذرع، وكان المدخل منه إلى بيت في جوف الكنيسة طوله ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً عوده من العاج المنقوش وفيه مسامير الذهب والفضة، ثم يدخل من ذلك البيت إلى أيوان طوله أربعون ذراعاً عن يمينه وعن يساره عقود عاجية تتلألأ ككواكب الذهب والفضة، ثم ذهَّب جدرانها وسقوفها ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج

---

(1) الغُرقة في العامية اليمنية: الحفرة، وقد كان موقع كنيسة القليس في صنعاء القديمة عبارة عن حفرة كبيرة تقارب حجم ملعب كرة القدم بالقرب من قصر السلاح.

(2) خلط المؤلف بين أبرهة بن الصباح الحميري، وأبرهة الحبشي، فأبرهة بن الصباح الحميري غير أبرهة (الحبشي) صاحب الفيل، فالأول: عربي من ملوك اليمن في الجاهلية، ولي بعد حسان بن عمرو. والثاني الحبشي: صاحب الفيل والقليس، ويعرف أيضا بأبرهة الأشرم.

وغيرها، فصارت تلهب التهاباً وجعل فيها قناديل من الذهب والفضة والبلور وتوقد بأطيب الأدهان، وجعل أبوابها من العاج المصفح بالذهب والفضة، فلما هلك أبرهة ومزقت الحبشة كل ممزق أقفر ما حول هذه الكنسية وكثرت حولها الحيات فلا يستطيع أحد أن يأخذ منها شيئاً، وكان أهل اليمن يعتقدون أن من همَّ بشيء من ذلك أصابه لمم، ولم تزال هذه الكنيسة كذلك في زمن الصحابة رض الله عنهم وأيام بني أمية إلى زمن أبي العباس السفاح، فذكر له أمره، فبعث العباس بن الربيع[1] عاملاً على اليمن، فوصله ومعه أهل الحزم والجلادة، ولم يلبث أن أمر بخرابها فخاف الناس. ثم أن قوما تقدموا فخربوها على وجل ورعب شديد فاجتمع منها مال عظيم حمل إلى السفاح وقد نزلت بالذين خربوها ضروب من الآلام من جنون وجذام فازداد أهل اليمن تطيراً بذلك، ثم بعد ذلك عفا رسمها وانقطع خبرها.

ياقوت وكنيسة القليس

وقال ياقوت في "معجم البلدان" عن القليس ما مختصره[2]: "إنها الكنيسة التي بناها أبرهة بن الصباح بصنعاء اليمن سميت القليس لارتفاع بنيانها وعلوها، ومنه القلانس لأنها في أعلى الرؤوس، وإنه بناها أبرهة ونقشها الذهب والفضة والزجاج والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر وجعل فيه خشباً له رؤوس كرؤوس الناس وكللها[3] بأنواع الأصباغ وجعل لخارج القبة برنساً فإذا كان يوم عيدها كشف البرنس عنها فيتلألأ رخامها من ألوان أصباغها حتى تكاد تخطف البصر، وكان أبرهة قد استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة، وجشمهم فيها أنواع من السُّخَر، وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، وكان من وضع هذه الكنيسة على فراسخ، وكان فيها بقايا من آثار ملكهم فاستعان بذلك على ما أراده من بناء هذه الكنيسة، ونصب فيها صلبناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج والأبنوس، وكان يريد أن يرفع بنيانها حتى يشرف منه على عدن، وكان حكمه في العامل إذا طلعت الشمس قبل أن

---

(1) في معجم البلدان: الربيع بن زياد الحارثي، خال أبي العباس السفاح. وسيذكره المؤلف بعد قليل بهذا الاسم عن ياقوت الحموي.

(2) معجم البلدان: (القليس).

(3) في معجم البلدان: ولككها.

يأخذ في عمله أن يقطع يده، فتأخر رجل منهم ذات يوم حتى طلعت الشمس فجاءت معه أمه وهي امرأة عجوز فتضرعت إليه تستشفع لابنها فأبى إلا أن يقطع يده، فقالت: اضرب بمعولك اليوم فاليوم لك وغداً لغيرك وكما صار الملك إليك من غيرك فكذلك سيصير منك إلى غيرك، فأخذته موعظتها وعفا عن ولدها وعن الناس من العمل فيما بعد، وكتب على بابها بالمسند: "بنيت هذا لك من مالك ليذكر فيه اسمك وأنا عبدك".

ولما هلك أبرهة ومزقت الحبشة كل ممزق وأقفر ما حول هذه الكنيسة ولم يعمرها أحد كثرت حولها السباع والحيات، وكان كل من أراد أن يأخذ منها شيئاً أصابته الجن فبقيت من ذلك العهد بما فيها من العدد وآلات من الذهب والفضة ذات القيمة الوافرة والقناطير من المال لا يستطيع أحد أن يأخذ منها شيئاً إلى زمان أبي العباس السفاح فذكر له أمرها فبعث إليها خاله الربيع بن زياد الحارثي عامله على اليمن وأصحبه رجالاً من أهل الحزام والجلد حتى استخرج من كان فيها من الآلات والأموال وخربها حتى عفا رسمها وانقطع خبرها.

الآثار الحميرية

هذا ما كان من أمر هذه الكنيسة التاريخية العظيمة، وقد خربها المسلمون لأن أبرهة أراد من بنائها أن يحول نظر المسلمين عن كعبتهم في مكة، ولم يكن حظ الآثار الحميرية القديمة بأحسن من حظ الكنيسة فقد هدم اليمانيون هذه الآثار كلها أو أكثرها، والذي لم يهدموه نقلوا كثيراً من أحجاره الكبيرة الجيدة وبنوا بها منازلهم وجوامعهم، هذا في صنعاء وحدها، وأما في سائر أطراف اليمن فلا يزال يوجد كثير من الأبنية الحميرية العظيمة، وقد شاهدت بعض الأبنية في قرى كعوان والضيق[1] وظفار ويريم ووادي القابل وغيرها[2] وتمتاز الأبنية الحميرية القديمة عن أبنية اليمن الحالية بكبرها واتساعها، وليس فيها شيء من إتقان الصنع وجمال الهندسة. وقد سمعت شيئاً كثيراً عن مأرب وسبأ وقصر بلقيس ولكني لم أتمكن من زيارة هذه

---

(1) كعوان والضيق: كذا وجدتهما في الأصل المطبوع، ولا توجد مناطق في اليمن بهذا الاسم، ولعل المراد: سعوان وضين، أي كسعوان...

(2) وقد روى لي غير واحد من الناس إنه يوجد عند شيخ قرية ظفار شخص منحوت من المرمر على شكل يمثل العنقاء (المؤلف).

المنطقة[1] لأن الأمن فيها لا يزال غير مستتب وسكانها من القبائل المتوحشة التي لا تخضع لسلطان الإمام إلى هذا اليوم خضوعاً تاماً، ولذلك اكتفيت بأخذ بعض المعلومات عن هذه المنطقة الأثرية القديمة ممن وصلوا إليها، وسأورد للقارئ الكريم بعض الأحاديث عنها مبتدئاً بحديث الشريف محمد بن عبد الرحمن علوي.

سبأ ومأرب

زارني ذات يوم الشريف محمد بن عبد الرحمن علوي أمير سبأ ومأرب يصحبه رجال من صنعاء يقال له أحمد بن الحاج أحمد حمادي، وبعد ما تعارفنا وتصافحنا قال الأمير: إنه لم يدخل إلى صنعاء منذ عشرين عاماً، أي منذ خروج الدولة العثمانية منها، وقال: إنه كان يعرف ولاة الترك وباشواتهم وقد عينه بعضهم حاكماً على بلاد سبأ ومأرب، وكان يتناول راتباً شهرياً قدرة 400 ريال، أي نحو ثلاثين ديناراً عثمانياً ذهباً، وقد كلفه ذات مرة أحد الولاة بأن يأخذ معه ضابطاً تركياً إلى تلك البلاد، فأخذه معه وأبقاه عنده عدة أيام وأعاده إلى صنعاء سالماً. قلت له: أنا أرغب كثيراً أن أذهب إلى هناك، فقال: على الرحب والسعة، وقل لأمير المؤمنين أن يسمح لك بالذهاب وأنا آخذك على عهدتي، قابلت أمير المؤمنين ورجوته أن يسمح لي بالذهاب مع هذا الرجل، فقال جلالته: إنه يخشى عليّ، ويخشى أن يحصل ما لا يحمد عقباه إذا أنا ذهبت إليها، امتثلت لهذا الأمر على مضض، ولا تزال بنفسي غصة كلما سمعت بذكر مأرب وسبأ لأني لم أزرهما.

سألت الأمير أن يحدثني عن السد العظيم، فقال: إن السد قائم في واد متسع بين جبلين عظيمين ويبلغ علوه نحو 15 قامة، أي 25 متراً وعرضه نحو 350 متراً. وقد تهدم من أحد جوانبه المبني على حافة الجبل ولم يبق من الجداران هنا سوى أساساتها، فقلت: وأين قصر بلقيس من هذا السد؟ فقال: إن قصر بلقيس قائم إلى جانب السد على مسافة غير بعيدة، ويوجد من قرب قصر بلقيس حتى نبع الماء الذي كان يصب في خزان هذا السد العظيم نفق تحت الأرض كانت الملكة بلقيس تروح وتغدو فيه إلى النبع حتى لا يراها أحد، وآثاره لا تزال بادية للعيان إلى هذا اليوم[2]، ويوجد

---

(1) زرتها بعد ذلك وكتبت عنها مفصلاً في الجزء الثاني من رحلتي هذه (المؤلف).
(2) لا يوجد لمثل هذا النفق أي ذكر، وهو من مبالغات عامل مارب.

من هذه الآثار في أول النفق من ناحية القصر تماثيل خيل وفرسان وبغال وجمال محفورة جميعها من المرمر، وسقف النفق من المرمر، وبقايا قصر بلقيس من الأحجار الملونة والمرمر، وقال: إنه يوجد بالقرب من قصر بلقيس قصر ثان يقال أنه قصر سليمان، وهو مبنى من اثني عشر جحراً عظيماً، كل جدار من جدرانه الأربعة مبني من ثلاثة أحجار.

حديث السيد حسين بن إبراهيم

وحدثني أيضاً السيد حسين بن أحمد بن إبراهيم عامل جلالة الإمام على منطقة سبأ قال: انتدبني جلالة الإمام للذهاب إلى سبأ، وعينني عاملاً عليها، فذهبت فرحاً مسروراً، ووقع بيننا وبين قبائل تلك البلاد معارك كثيرة، كان النصر فيها حليفنا، ففتحنا البلاد وأمّنا العباد على أرواحهم، وأخذنا منهم سبعين رهينة أرسلناها لجلالة الإمام، ولا تزال عنده إلى الآن. فقلت: حدثنا عن هذه البلاد العجيبة المجهولة للعالم؟ فقال: إن وادي سبأ واد جميل للغاية وتربته خصبة جداً، ويجرى فيه نهر ماء إلى مسافة طويلة، ويقوم على ضفتيه شيء كثير من خرائب الحميريين وقراهم وأكبر هذه القرى وأعظمها خربة أو قرية (عال) وقرية (كمنة)، و(مدينة السودة)[1]، وبناء هذه المدينة عجيب جداً وأبواب بناياتها أعجب. فالباب كناية عن حجر واحد منحوت، والجداران كناية عن أربعة أحجار لكل جدار، وأما مناخ هذه البلاد، فيقال أنه أشد حرارة من مناخ صنعاء، ثم سألته عن السد وعن قصر بلقيس فلم يختلف جوابه عن جواب أمير سبأ، فسألته عن الآثار والعاديات القديمة؟ وهل يسمح أهل تلك البلاد للناس بعمل الحفريات؟ فقال: لا أظنهم يعترضون على ذلك، وخاصة إذا أكرمهم المرء بالهدايا والعطايا. فقلت: وهل يوجد لديهم شيء من العاديات؟ فقال: كثيراً ما تأتي السيول العظيمة وتجرف بعض الأراضي فيظهر فيها كثير من الانتيكات المختلفة وأكثرها مصنوعة من المرمر والحجارة الكريمة، فيلتقطها البدو ويرسلوها إلى صنعاء أو إلى عدن فيبيعونها للتجار بأثمان بخسة وهؤلاء يرسلونها للخارج.

---

(1) قرية عال ومدينة السودة: لا وجود لهما في منطقتي مارب والجوف، أما قرية كمنة فتنطق: كمنا، بالألف المقصورة، وهي مدينة خاربة تقع أطلالها في منطقة الجوف وأعمال ناحية (مديرية) الحزم، وفيها الكثير من الآثار الحميرية، ويقال لها اليوم (الخربة). انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 666/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1352/2.

العراضة

دعا جلالة الإمام إلى مشاهدة حفلة استعراض الجيش التي تقام في صنعاء، كل يوم جمعة بعد الصلاة أمام السراي ويقولون لهذه الحفلة عراضة، وخصص لنا مكاناً في غرفة أحد الموظفين في السراي قريبة من المكان الذي يجلس فيه جلالته في أثناء العرض. ذهبنا إلى هذه الغرفة نحو الساعة الثانية عشرة فوجدناها مرتبة ترتيباً حسناً وفيها مكتب وعدة كراس ودولاب للأوراق وغير ذلك، وما كاد يستقر بنا المقام حتى رأينا شرذمة من الجند من ذوي الثياب المنيلة أتت ووقفت بباب السراي واختلط معها نفر غير قليل من الأهلين، وبعد برهة خرج جلالة الإمام في عربة عادية تجرها الخيل الشقراء المطهمة، ولا يقيم جلالته وزناً للفخفخة والعظمة، ولا يوجد عنده عربات رسمية عالية خاصة بالتشريفات كما هي الحال عند كبار الأمراء والملوك، لأنه - حفظه الله- يحذو في جميع أعماله وتصرفاته حذو جده النبي العظيم صلوات الله عليه، ولا يوجد عنده ياوران[1] ولا أمناء ولا ما يشبه ذلك، وكان يركب معه في العربة أثنان من انجاله سيوف الإسلام.

سارت العربة يحتاط بها الجند والناس إلى الجامع الكبير في صنعاء حيث أدى جلالته صلاة الجمعة، وسار خلفها على جواد عربي ضامر أحمد سيف الإسلام ولي عهد الإمام وعامله على حجة والطويلة وكوكبان ومسور وبني حبش والتهامة إذ كان يومئذ موجوداً في صنعاء.

بعد تأدية الصلاة عاد جلالة الإمام وعاد خلفه ولي عهده يتقدمهما تلاميذ المدارس فالجنود المشاة فالرشاشات فالمدافع الصغيرة المحملة على الجمال ثم المدافع الكبيرة المجرورة بالبغال، وقد خرج الجميع من باب الشقاديف الكائن بقرب السراي إلى فسحة كبيرة خارج السور، ودخل جلالة الإمام السراي وجلس في شرفة خاصة يراقب العرض، وكانت فرقة من موسيقى الجيش واقفة أمامه تعزف ألحاناً تركية.

عاد الجيش فدخل من باب الشقايف ومر أمام جلالة الإمام يمشي مشيته العسكرية وكانت تعزف أمامه فرق الموسيقى ألحاناً مختلفة، وكان الجنود ينشدون

---

(١) الياوران: كلمة تركية، وتعني رئيس التشريفات الملكية في القصر.

الزامل (النشيد) بصوتهم الجميل الرهيب، وكان هذا الموكب مؤلفاً من 1500 جندي من المشاة، وثلاثين مدفعاً كبيراً وصغيراً، واثني عشر متراليوزا[1]، و400 تلميذ من تلاميذ مدرسة الأيتام والحربية.

وقد لاحظت أن بعض الضباط هم من بقايا ضباط الجيش التركي طاعنون في السن يجب إحالتهم على التقاعد، وشاهدت ضباطاً من اليمانيين شباباً صغاراً يمشون مشية عسكرية على نغم الموسيقى فسررت كل السرور به وقلت: يا حبذا لو كان جلالة الإمام يستعين ببعض كبار الضباط من العرب ليعلموا جيشه التعليم العسكري الحديث، فعساه فاعلاً إن شاء الله. وسألت عن زامل الإمام الذي كان ينشده الجند أمامه، فقيل لي هكذا:

يا من يخالف أمر مولانا ويعصيه   لا بـد مـن يـوم يـراه

لابد من يوم يشيب الطفل فيه   والطير يرسي في سماه

حديث مع وزير خارجية اليمن القاضي محمد راغب

لما كان جلالة الإمام لا يرد الزيارة لأحد من الضيوف فقد أوفد لنا القاضي محمد راغب وكيل الخارجية ليرد لنا الزيارة، والقاضي محمد راغب رجل في العقد الخامس من العمر جميل الصورة، ربع القامة، أبيض اللون، حسن الهندام، أديب المعشر، لطيف الكلام، وليد الأستانة، وقد سبق له أن وظف أيام الدولة العثمانية في وظائف متعددة، إذ كان قائمقاما لطرابلس الشام، ثم عين متصرفا على الحديدة وتعز وغيرهما من متصرفيات اليمن، وهو يجيد العربية والتركية والفرنسية.

جلسنا وإياه في صالون الاستقبال أمام الشادروان وسألناه أسئلة كثيرة وبحثنا معه بحوثا كثيرة فكان يجيبنا عليها بالتفصيل كأنه رجل يماني واقف على جميع الشؤون وهو يشغل اليوم وزير خارجية اليمن.

(س) لم لا تعبد الحكومية اليمانية الطرقات؟

---

(1) متراليوز: تركية من أصل فرنسي: مدفع رشاش، سبق ذكرها.

(ج) أن اليمانيين لم يروا منافع الطرقات أيام الدولة العثمانية سوى جر المدافع وسوق الجنود، لذلك تجد اليمانيين غير مبالين بتعبيدها الآن.

(س) ألم يفكر جلالة الإمام بتعبيد طريق الحديدة–صنعاء؟

(ج) نعم، فكر جلالته في ذلك، وأرسلني مرة لكشف طريق يمر بعافش، فكشفت هذه الطريق وكدنا نباشر تعبيدها وهي تمر بسامق، اللواء، عافش، الحقل، الرصعة، جعيرة، بيت المنامة، عُبال، الحديدة، ولكن حدثت وقتئذ بعض الأمور المهمة التي حولت نظر الإمام واهتمامه فصرف نظره عنها مؤقتا. وجلالته مصمم على تعبيد طريق إلى الحديدة بكل تأكيد، ومن دواعي سروري أنه نفذ هذا التصميم في نهاية الأمر وعبد طريقاً جديدة تمر بحجة فالحديدة بعد رجوعي من اليمن وصار في إمكان السيارات أن تنقل الركاب والبضائع بين صنعاء والحديدة في يوم واحد؟ والآن عبدوا طريقا ثانية تمر بمعبر.

(س) هل يوجد عندكم خرائط لليمن؟

(ج) كلا لا يوجد خرائط عندنا، ولكني عثرت مرة على خريطة وضعها المهندسون الفرنسيون الذين جاءوا ليهندسوا طريق سكة الجديد بين الحديدة وصنعاء، وهي غير كاملة.

(س) هل اطلعتم على الخريطة التي وضعتها دار الخرائط الإنكليزية في لندن نقلا عن بعض خرائط الجيش البريطانية وغيره؟

(ج) كلا، لم أطلع عليها.

وسألني حضرته لماذا أهتم بالخرائط؟

فقلت له: لأني عثرت على خريطة لليمن من صنع دار الخرائط البريطانية وجلبتها معي وحاولت تطبيقها على الأراضي والجبال.. إلخ، فلم أفلح، أولا: لأنه يوجد فيها غلطات فادحة، وثانيا: لأن نقل الأسماء من العربية إلى الإنجليزية جاء مشوهاً ولا يمكن قراءته، فقال حضرته: إنه آسف لعدم وجود خريطة تفي بالمرام.

(س) هل يوجد كتب جغرافية لليمن؟

(ج) لا يوجد كتب بالمعنى المطلوب.

(س) ماذا تعلمون من حقيقة اليهود في اليمن؟ وهل هم من سكانه الأصليين أم دخلاء عليه؟

(ج) إن اليهود من سكان اليمن القدماء، ولما تغلب الرومانيون على اليمن تنصر بعضهم، ولما افتتح المسلمون اليمن وأدخلوه في حوزتهم أسلم معظمهم: وكانوا قديما يتزوجون من المسلمين ويزوجونهم[1].

بعد ما تحدث إلينا القاضي محمد راغب بهذا الحديث، وسألَنا هو بدوره أسئلة متعددة تتعلق بسياسة العالم الخارجي، ودّعنا وانصرف. وقد علمنا من أسئلته الكثيرة والدقيقة أنه واقف كل الوقوف على السياسات الدولية ولا يفوته شيء منها.

جغرافية اليمن[2]

ولشدة ولوعي بالجغرافيا وحرصي على الوصول إلى معرفة بلاد اليمن معرفة صحيحة كنت أسأل جميع من أتصل بهم عن أنهر اليمن وجباله وقبائله ووديانه إلخ..إلخ..

وقد توصلت إلى معرفة الشيء الكثير منها ودونته في مذكراتي بأوقات مختلفة وهاأنا ذا أذكر للقارئ الكريم شيئاً منها على سبيل التمثيل:

إن أهم مدن اليمن[3] هي صنعاء، ويحيط بها من الشمال حجة وعمران وشهارة وحوث وصعدة وأبو عريش، ومن الغرب والغرب الشمالي كوكبان وشبام وثلا والطويلة والمحويت[4] ومناخة والمنيرة والزهرة وباجل والزيدية والمخا ومدينة العبيد، وإلى جنوب صنعاء معبر وذمار ويريم والجنَد وإب وتعز والسياني والسدة وقعطبة وماوية، وإلى الشرق الدار البيضاء[5] والجوف.

---

(1) كان اليهود يزوجون المسلمين، ولكن لم يتزوجوا منهم على الإطلاق.

(2) معظم أسماء مدن وأودية وجبال اليمن التي أوردها المؤلف هنا معروفة مشهورة لا تحتاج إلى تعريف، وسأقتصر على التعريف بالمناطق غير المشهورة. ولعل النقل في هذا القسم عن الواسعي في كتابه: تاريخ اليمن، المسمى: فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن [القسم الأول]، القاهرة: المطبعة السلفية، 1346هـ/1927م، ص 288-333.

(3) انظر: تاريخ اليمن للواسعي 320.

(4) في الأصل المطبوع: المحويث، بالثاء، والصواب بالتاء.

(5) الدار البيضاء: كذا ذكرها المؤلف، والصواب: البيضاء، غير مضافة إلى الدار.

وموانئ اليمن: الطائف[1]، والحديدة، والمخاء، وابن عباس[2]، والصليف، واللحية.

وأما أنهار اليمن فمعظمها وديان تسيل أيام المطر وتجف أيام القيظ وأهمها[3]: وادي سهام ويصب في البحر، ووادي مور وتجتمع فيه وديان متعددة، ووادي بنا يصب فيه نهر الدلاني[4] والحورة والرداعي ويصب الجميع في لحج، ووادي هندوان يمر بمدينة تعز، والوادي الكبير يصب قرب ميناء المخاء، ووادي التالوق[5] وهو مجمع وديان رداع وذمار وعنس ويذهب إلى مأرب.

وأهم جبال اليمن[6]: جبل نقم شرقي صنعاء ويسلح وشبام وكوكبان ومسور وملحان وبعدان وسمارة وعانز[7] والريمة[8] وكحلان والخميس وبرع والأهنوم والرازح[9] والرازح[9] وشظب وشهارة والعبلاء[10] وحصن العشة وعراش وعيبان[11] وخولان وبرط وبرط إلخ..إلخ.

---

(1) الطائف: بلدة وميناء قديم على ساحل البحر الأحمر جنوب الحديدة بنحو 25كم،، وشمال غرب بيت الفقيه بنحو 37كم، وهي غير مدينة الطائف المشهورة بالحجاز، سبق التعريف بها.

(2) ابن عباس: ميناء صغير على ساحل البحر الأحمر شمال مدينة الحديدة بنحو 70كم، ويقع بين الصليف والخوبة، وغرب مدينة الزيدية بنحو 25كم، مقابل جزيرة كمران، على خط الطول 42/47، وخط العرض 15/22. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية 997/2، Microsoft Encarta Premium Suite 2005 DVD

(3) تاريخ اليمن للواسعي 288-289.

(4) في المطبوع: الدلاتي، بالتاء، والمثبت عن الواسعي، وهو الصواب، والدلاني: من روافد وادي بنا. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية 618/1.

(5) عند الواسعي: وادي التالوق (الخارد)...

(6) انظر: تاريخ اليمن للواسعي 332-333.

(7) جبل عانز: جبل واسع من ناحية الحيمة الخارجية، فيه قرى وحصون عديدة، ويقع في الجنوب من مفحق، ويطل جنوبا على وادي سهام، يشتهر بزراعة أجود انواع البن. معجم البلدان والقبائل اليمنية 994/2.

(8) الريمة: كذا كتبها المؤلف، والصواب: ريمة، بدون أداة التعاريف.

(9) الصواب: رازح، غير معرّفة.

(10) في المطبوع: وغبلاء، تحريف، والصواب: العبلاء، بالعين المهملة، كما ورد في تاريخ الوسعي، وهو حصن يطل على وادي رحبان في جنوب مدينة صعدة، وهو موقع حصين فيه آثار وبنايات قديمة، ويتصل بحصن (السنّارة) من الشمال الشرقي. معجم البلدان والقبائل اليمنية 1010/2.

(11) في المطبوع: وغيلان، تحريف، والمثبت عن الواسعي. وجبل عيبان: مشهور، وهو الجبل المطل على صنعاء من جهة الغرب.

وأهم قبائل اليمن هي: بنو الحارث، وبنو حشيش، وسنحان، وهمدان، وأرحب، وحاشد، وبكيل، وذو محمد، وذو حسين، وخولان، وبنو جبر، وبنو ظبيان.. إلخ.

وأهم القضاءات[1] والنواحي هي: بلاد البستان والحيمة وآنس وبلاد الروس، وعتمة والريمة وحراز، وكوكبان، والطويلة، والمحويت[2]، وحفاش، وملحان، وعمران، وحجة، وصعدة[3]، ونجران.الخ.

في أسواق صنعاء

خرجت من الدار بعد ذهاب القاضي محمد راغب ويممت وجهي نحو أسواق صنعاء ترويحاً للنفس ولم أصطحب معي جندياً لكي أختلط بالناس وأسمع أحاديثهم دون أن يساورهم القلق من وجود الجندي، فمررت بسوق النجارين فوجدت معظمهم يعمل بَكَرات خشبية ودلاء للآبار، وشاهدت بعضهم يعمل صناديق خشبية للقبائل البدوية وهي على شكل صناديق الفلاحين عندنا، ومررت بسوق الحدادين فرأيتهم يصنعون سكاكين ومحشات ومحاريث ومسامير ومناشير وسلاسل وحلقات، إلى غير ذلك من الأدوات الحديدية، ولكن صناعتهم أولية للغاية، وأدواتهم ابتدائية، فسألت بعضهم: لماذا لا تجلبون أدوات وآلات تعنيكم في صناعتكم؟ فقالوا: نحن فقراء وأثمان الآلات غالية وجلبها صعب، ولذلك نكتفي بأدوتنا البسيطة.

فقلتك ومن أين تجلبون الحديد؟

فقالوا: يجلبه لنا التجار الكبار من عدن، ونحن نبتاع حاجتنا منهم.

---

(1) الصواب في جمع القضاء: أقضية وقضوات، والقضاء وحدة من وحدات التقسيم الإداري في اليمن في في عهد الدولة العثمانية، واستمرت حتى منتصف السبعينات من القرن العشرين، فكانت اليمن مقسمة إلى ألوية (محافظات)، ويقسم اللواء إلى عدة أقضية، والقضاء إلى عدة نواحي (مديريات)..إلخ.

(2) في الأصل: المحويث، والصواب ما أثبتناه.

(3) في الأصل: وصفدة، لعله خطأمطبعي.

ومررت ببعض مصانع الأراكيل وهي دكاكين كبيرة جلس فيها عدة صناع بعضهم يعمل قلب الأركيلة وبعضهم رأسها وبعضهم سائر أدواتها، وصناعة الأراكيل صناعة مهمة ويعملون منها كميات وافرة لأن الطلب عليها كثير.

ثم مررت ببعض المحلات حيث شاهدت نشر أحجار المرمر العظيمة إلى ألواح دقيقة شفافة بمناشير حادة خاصة، وهذه صناعة اختصت بها صنعاء دون غيرها من بلاد العالم لأن المرمر لا يستعمل كزجاج للنوافذ إلا في صنعاء.

ومررت أيضاً بمحلات الحياكة، وشاهدت العمال جالسين خلف أنوالهم الخشبية الكبيرة التي تشبه أنوالنا كل الشبه وهم يحيكون البز من خيطان القطن على نفس طريقة الحياكة عندنا.

ثم مررت ببعض دكاكين بائعي الحجارة اليمانية الكريمة فوقفت أمام دكان وطلبت إلى صاحبه أن يعرض علي بعض حجاراته، فقدم لي شيئاً كثيراً منها فاخترت نحو عشرين حجراً وسألته كم ثمنها فقال كل حجر "بثلاث بقش" فنفحته الثمن وسرت نحو الدار وعلى ذكر البقش والدراهم أذكر للقارئ الكريم النقود المستعملة في اليمن.

الدراهم

يقولون للدراهم (زلط) وواحدهما القياسي هو البقشة[1]، وتقسم البقشة إلى نصف بقشة وربع بقشة وثمن بقشة، وكل عشر بقشات تساوي ربع ريال نمساوي أو إمامي، ويقال له: عمادي، وكل أربعين بقشة تساوي ريالاً واحداً، وكل 10 إلى 15 ريالا تساوي جنيها إنكليزياً ذهباً، وذلك بحسب هبوط سعر الفضة وارتفاعها. وأساس التعامل هو الذهب، والذهب الموجود في اليمن هو الجنيه الإنكليزي والعثماني، ويوجد أيضاً بعض العملة الورقية كالجنيه الإنكليزي الورق والروبية الورق، وهذه يتداولها التجار، وأما الأهلون وخاصة القبائل فلا تتعامل بغير الفضة والذهب، وهم يفضلون المقايضة أحياناً في الأسواق البعيدة عن المدن، ومعظم الريالات الموجودة في اليمن هي من نوع الريال النمساوي المعروف بأبي شوشة أو بماريا تريزا.

---

(1) البقشة: معربة عن التركية: بقجة، أصلها فارسية: بغچة، ومعربها: بقجة، الصرة من الثياب.

والبقشة وأجزاؤها مصنوعة من نحاس ومضروبة في صنعاء اليمن، وكذلك الريال الأمامي فهو مضروب في صنعاء اليمن ومصنوع من الفضة الخالصة.

وقوة الدراهم في الشراء عظيمة جداً وذلك لقلتها وكثرة البضائع والحاجيات المعروضة للبيع، فقوة الشراء في البقشة الواحدة تساوي قوة الشراء بقرشين سوريين عندنا تقريباً.

كيف تلقى نزيه المؤيد العظم الحكم عليه بالإعدام؟

ليالي صنعاء

خرجت مساء ذات يوم إلى صنعاء لأقضي سهرتي في مقاهيها وكان يرافقني أحد الجنود ويحمل أمامي فانوساً صغيراً يضاء بالبترول، اجتزت شارع بئر العزب ودخلت من باب الشرارة وطفت في بعض الأسواق فلم أر قهوة ما.. فسألت رفيقي الجندي ألا توجد (قهاوي) في صنعاء؟ فأجاب بلى يوجد مقاهي كثيرة للمسافرين ولكن ما حاجتكم (للمقهاية) وأنتم والحمد لله تقطنون في دار كان الإمام حفظه الله ساكناً فيها!؟ أدركت للحال أن الجندي يقصد بالمقهاية الخان للمسافرين، فقلت له: لا أريد مقهاية للنوم بل أريد قهوة للجلوس، فلم يفهم قصدي، فعدت وإياه أدراجي إلى الدار، ولدى الاستفهام من بعض الأصدقاء غداة ذلك اليوم عن المقاهي والمطاعم والفنادق، علمت أنه لا توجد قهاوي في صنعاء أبدا، ولا توجد فيها مطاعم ولا فنادق ولا دور للسينما وما أشبه، فسألت بعض الأصدقاء عن كيفية قضائهم للسهرات؟ فقالوا: إما أن نسهر مع عائلتنا وأولادنا وإما أن نتزاور مع الأصحاب ويسهر بعضنا عند بعض، ونقضي جانباً طويلاً من السهر بأكل القات وندخن (المداعة) أي (الأركيلة)، والذين لا يخزنون القات ليلاً يقضون بعض وقتهم بالعبادة والقراءة. وأما أنا فكنت أقضي معظم سهراتي في تدوين هذه المذكرات وفي مطالعة بعض الكتب.

وسام الإمام الحكم بالإعدام

نهضت ذات يوم مبكراً، وبينما كنت أتناول طعام الصباح وإذا "بمحسن جلالي" حاجب الإمام الخاص يأتي ويقول: (أصبحتم)، فأجبته: صبحكم الله بالخير والعافية، فقال: الحضرة الشريفة (تبغاكم)، أي تريدكم، فقلت: حسناً سأحضر قريباً، وفكرت في نفسي ماذا يريد جلالة الإمام في هذا الوقت يا ترى؟ ورحت أضرب أخماساً في أسداس وأحسب لهكذا الطلب ألف حساب، وأنهيت طعامي ولبست ثيابي وذهبت مسرعاً إلى المقام الشريف، فاستأذنوا لي بالدخول، فدخلت على جلالة الإمام في مكتبه فإذا به يجلس كالعادة يهتم بشؤون المملكة، فقلت: أسعد الله صباح جلالة مولانا الإمام، وهممت بتقبيل يده فدفعها بلطف، وقال: حي الله من قد جاء، وابتسم ابتسامة جميلة وهو يقول: هيا اجلس. جلست أمام الحضرة الشريفة وقلبي يخفق خفقاناً شديداً ولكنه ليس بخفقان الخوف بل خفقان الحب الممزوج بالاحترام، ونظرت إلى جلالة الإمام فرأيت الابتسامة لم تفارق شفتيه فحرت في الأمر وقلت: أعطانا الله خير هذه الابتسامة يا صاحب الجلالة، فقهقه عندئذ جلالته بالضحك، وقال: نعم خيراً وخيراً كثيراً إن شاء الله! خذ هذا الوسام ومد يده إلى تحت الوسادة وأخرج عدداً من جريدة (ألف باء) وقال: خذ واقرأ. وأشار بيده الكريمة إلى نهر من أنهر الجريدة، فتناولت الجريدة من يده الكريمة بقلب واجم وتأملت في المكان الذي أشار إليه جلالته فرأيت العنوان "محاكمة نزيه المؤيد". تلوت تلك المحاكمة فوجدت نتيجتها أن المجلس العدلي بدمشق حكم علي بالإعدام عملاً بالمادة 58. لم أتمالك عندئذ من الضحك، فقلت: أشكركم يا صاحب الجلالة على هذا الوسام الأحمر القاني، وإني أتقبل هذا العدد من جريدة (ألف باء) منكم بمزيد الشكر، وبالفعل احتفظت بهذا العدد وهو رقم (2097) إلى يومنا هذا، وكتبت عليه بالحبر الأحمر: "أعطاني هذا العدد من جريدة ألف باء جلالة الإمام يحيى في صنعاء كوسام للاستحقاق اليماني" وأخال القارئ الكريم أدرك أن هذا الحكم كان قد صدر علي بسبب الثورة السورية في دمشق وكنت حين صدوره والحمد لله في اليمن.

الإمام والصحف

بقيت بالحضرة الشريفة زمناً غير يسير وتناولت البحث مع جلالة الإمام في أمور كثيرة منها الدعاية الخارجية والاشتراك في الصحف، فصرح لي جلالته بأنه لا يشترك في الصحف ويعيد أكثرها إلى أصحابها أولاً وثانياً وثالثاً، وبرغم إعادتها لهم يستمرون على إرسالها فيقبلها جلالته كهدية، فقلت: ولكن يا مولاي إن الملوك والأمراء ورؤساء الجمهوريات والعظماء جميعهم يشتركون في الصحف ويدفعون اشتراك هذه الصحف غالياً لا حباً في قراءة أخبار العالم فقط بل وإرضاء لأصحاب هذه الصحف وشراء لألسنتهم، فقال: أنا لا تهمني هذه الأمور أبداً ولا اعتني بالدعايات ولا أرغب في شراء لسان أحد، فاللسان الذي يكيل المديح بالدراهم يكيل القدح إذا انقطعت الدراهم، فلا خير في المدح والقدح متى كانا بالدراهم. سكت لهذا الجواب المعقول وغيرت الحديث، ثم ودعته وانصرفت وأنا معجب بشدة حجته وقوة منطقه ولطافة تعبره.

مجلس الإمام

ومن الغريب في جلالة الإمام أنه لا يكل ولا يمل من العمل، وهو ينهض كل يوم مبكراً فيصلي الصبح حاضراً وينزل بعد طلوع الشمس إلى ميدان سرايته العامرة، فيجلس تحت شجرة الفلفل الكائنة بالميدان أو تحت مظلة كبيرة من القماش ويتقبل شكاوى الناس ويتسلم عرائضهم، والدخول إلى السراي في ذلك الوقت مباح لجميع الناس، وبعد أن يجلس جلالته في الناس مدة يخرج عند الظهر إلى أحد جوامع صنعاء فيصلي، وفي أثناء ذهابه وإيابه يسمح للناس أن يقابلوه ويقدموا شكاويهم إليه، وكثيراً ما ينزل من عربته ويتفيأ ظلها أو ظل أحد المنازل ويدع الناس تأتي إليه وتقابله وترفع ظلاماتهم إليه، وهذه أيضاً عادة حسنة يحمد عليها جلالته كل الحمد. وبعد صلاة الظهر يدخل جلالته إلى الحرم الشريف فيتناول طعامه ويستريح قليلاً ثم يعود إلى المخيم المنصور ويبقى هنالك على رأس عمله حتى ساعة متأخرة من الليل.

بعد أن تعرفت إلى جلالة الإمام جيداً وبعد أن شعرت بميله الشديد إلى إصغائه إلى أقوالي واقتراحاتي صرت أزوره في الأسبوع ثلاث أو أربع مرات وأجلس مع جلالته صباحاً قبل خروجه للناس في داخل حديقة السراي العامرة تحت ظل الأشجار، ولشدة ديمقراطيته وسمو أخلاقه وعلو مبادئه كان يجلس جلالته دون عظمة أو فخفخة على كرسي عال وأجلس أمامه إلى كرسي صغير ولا ثالث بيننا، فنتناول من الأحاديث والشؤون العمرانية والزراعية والاقتصادية والسياسية وغيرها من شؤون هذا العالم الشيء الكثير، وكان جلالته يوجِّه إلى أسئلة دقيقة للغاية تدل دلالة واضحة على تعمقه في جميع العلوم الدنيوية والدينية، وكان يصغي إلى أجوبتي بانتباه زائد ويجادلني في أمور كثيرة إلى أن يقنعني بنظريته أو أقنعه بنظريتي، ولعمر الحق هذه سجية سامية قل أن توجد في الناس العاديين فضلاً عن الملوك. وقد اتصل بي أن موقف جلالته في الحديث مع رجاله العظماء الذين يعول عليهم لا يختلف عن موقفه في الحديث معي، وهذا مما يحبب الناس فيه ويجعلهم ألسنة شكر تسبح بحمده وتثنى عليه في كل مناسبة، وليس من الغريب – وحالته مع الشعب كما وصفت– أن يكون الشعب أطوع لجلالته من بنانه فهو قد ملك روح الشعب ونفسه بالسياسة والإحسان واللين لا بالقوة والجبروت، وإني في رحلاتي الكثيرة وسفراتي المتعددة من أقصى اليمن إلى أقصاه ومقابلتي لأناس من جميع الطبقات من زيود وشوافع ويهود لم أقابل رجلاً واحداً شكا لي من جلالة الإمام، ولكنني لا أنكر أني سمعت مر الشكوى من أناس كثيرين في حق بعض العمال الذين يسيئون استعمال وظيفتهم وقد رفعت هذه الشكوى إلى الحضرة الشريفة فوعدني صاحب الجلالة بإجراء التحقيق وإعطاء الأوامر الشديدة إلى العمال لإنصاف الناس وعدم التحامل عليهم.

الضيوف الأجانب والإمام

يستقبل جلالة الإمام ضيوفه الأجانب من الفرنجة في جناح خاص من السراي في صالون كبير مفروش بالسجاد العجمي الثمين وفيه طقم واحد من الكنبات وآخر من الكراسي وطاولة، ويقوم هذا الصالون فوق حديقة السراي، ويحضر في أغلب الأحيان اجتماع جلالته مع الأجانب وزير الخارجية القاضي محمد راغب وأحد الحجاب، ولا يؤذن للحاجب ولا للوزير بالجلوس في أثناء الاجتماع، ويسمح للأجنبي أن يدخل هذا الصالون يوم موعد الاجتماع الذي يضرب عادة قبل يوم أو

يومين وينتظر تشريف الحضرة الشريفة، وقبل مجيء الحضرة الشريفة بدقيقة واحدة يعلن أحد الحجاب الوزير والضيف أو الضيوف بأن صاحب الجلالة قادم فيستعد الجميع لاستقباله، وقبيل دخوله يدخل الحاجب أمامه ويقول: صاحب الجلالة شرّف، فيقف الجميع تعظيماً واحتراماً، فيدخل جلالته ويجلس على مقعد خاص، ويأذن للضيف أو الضيوف بالجلوس، فيجلسون، وأما الحاجب ووزير الخارجية فلا يؤذن لهما بالجلوس بل يبقيان واقفين إلى نهاية الحديث، ولا تزيد مدة مقابلته للأجانب على نصف ساعة يتحادث خلالها معهم في الشؤون التي يريدونها، ولا يبت في أمر من الأمور مهما كان طفيفاً بجلسة واحدة، بل دائماً يعد زائريه بدرس اقتراحاتهم أو طلباتهم ثم يجيبهم عليها أما بواسطة وزير الخارجية القاضي محمد راغب أو بواسطة رئيس الديوان العالي ووزير الداخلية القاضي عبد الله العمري، وذلك بعد أن يقتل جلالته المسألة درساً وفحصاً مع وزرائه وكبار رجال مملكته، وعندما تنتهي المقابلة يخرج جلالته من صالون الاستقبال قبل ضيوفه، فيبقى الضيوف مع وزير الخارجية مدة يتحدثون فيها إليه ويشرحون قصدهم ويبينون غايتهم من زيارة اليمن بصورة مطولة، وهذا يعرض حديثهم على الحضرة الشريفة فيما بعد.

ويرتدي جلالة الإمام في مقابلاته الرسمية للأجانب ثوباً حريرياً رقيقاً وفوقه ثوب آخر (قنباز)[1] مصنوع من صايات الشام الحريرية المشهورة، ويتعمم بعمة حريرية كبيرة، ويتمنطق بجنبية من جنبيات اليمن التاريخية القديمة، ويحمل على جنبه سيفاً يمانياً عتيقاً غمده من الفضة والذهب ونصله من الفولاذ اليماني المشهور، ويحمل بيده سبحة صفراء من الكاربلاء، ويلبس في أصبع يده خاتماً معمولاً من بعض حجارة اليمن الكريمة يرجع تاريخه إلى بضع مئات من السنين.

هذه هي ألبسة جلالة الإمام في مقابلاته الرسمية وفي أوقات خروجه من السراي العامرة، وأرى نفسي مضطراً لبيانها بياناً دقيقاً لأن جلالته لم يأذن لي ولا أذن لأحد غيري بأن يصوره، وعليه فأنا أصوره بالكلام لا بالفوتوغراف، وما هذه الصور الفوتوغرافية التي تنشرها الجرائد من حين إلى حين إلاّ صور خيالية لا تشبه جلالته أبداً كما بينت فيما تقدم.

---

(1) القنباز: أو الغنباز: يسمّونه أيضاً في بلاد الشام: الكبر أو الدماية، ويسمى في اليمن: الصاية، وهو رداء طويل مشقوق من الأمام، ضيّق من أعلاه، يتسع قليلاً من أسفل، ويردّون أحد جانبيه على الآخر، وتلبس الجنبية فوقه. وجانباه مشقوقان حتى الخصر. وقنباز الصيف من القطن أو الحرير وألوانه مختلفة، وأما قنباز الشتاء فمن الجوخ.

الأجانب

وعلى ذكر الأجانب أقول: إن صنعاء لا تخلو منهم، فهم يفدون عليها بصورة مستديمة تارة باسم المفاوضة وطوراً باسم التجارة، والغاية الحقيقية هي التجسس، وبديهي أن يتخذ الأجانب جميع الأساليب والوسائل للمجيء إلى صنعاء لأن جلالة الإمام لا يسمح للدول الأجنبية بأن ترسل سفراء أو قناصل أو ممثلين رسميين لليمن، ولذلك ترسل هذه الدول أناساً من رعاياها بين الفينة والفينة ليشاهدوا عن كثب حالة اليمن، وقد صادف وأنا في صنعاء أن جاءها وفد فرنسي، وآخر طلياني، وثالث أمريكي، ورابع ألماني، وخامس إنكليزي، وسادس روسي شيوعي، وسابع سعودي، وقد اجتمع الجميع إلى جلالة الإمام، والغريب إن ثلاثة من هذه الوفود كانت تسعى للحصول على امتياز استثمار مملحة الصليف الكائنة على مسافة 80 كيلو متر من شاطئ الحديدة، والجميل في الأمر أن جلالة الإمام رفض أن يعطي هذا الامتياز أحداً من الوفود، وقد تباحثت مع جلالته في هذا الشأن، وسألته: لماذا ترفضون يا صاحب الجلالة إعطاء رخصة باستثمار هذه المملحة؟! فقال: ألا تعلم يا بني أن سبب استعمار الهند والصين وغيرهما من البلاد الشرقية الضعيفة هو منح حكومات هذه البلاد للأجانب رخصاً باستخراج الملح وزيت الكاز وغيرهما من المصالح! إني أفضل أن نبقى أنا وشعبي فقراء نأكل القصب ولا أدخل الأجانب أو أمنحهم امتيازات مهما كان في إدخالهم للبلاد من الفائدة والثروة، ولا أخال جلالة الإمام مخطئاً في هذه النظرية لأنها حقيقة واقعة لا يختلف فيها اثنان ولا يتناطح عليها عنزان.

حديث مع وفد تجاري روسي

وقد اجتمعت ببعض أعضاء هذه الوفود الأجنبية وأخص منهم بالذكر الوفد الروسي ودار بيني وبين أعضائه وهم الرفيق جورجي استانكوف رئيس الوفد، والخواجه بلكين عضو الوفد، والخواجه موريس اكسلرود عضو الوفد، وعضو المجمع

العلمي الشرقي في موسكو، حديث طويل عن أمور كثيرة أورد بعضه هنا للقارئ الكريم ليطلع على مساعي الروس الحمر في بلادنا.

(س) ماذا تبغون من زيارتكم إلى اليمن؟

(ج) نحن نعطف على الشعوب الضعيفة ونرغب في مساعدتها.

(س) هل هذه الغاية سبب مجيئكم لليمن؟

(ج) كلا: ليست هذه غايتنا الوحيدة فقط. بل نرغب أيضاً أن نعقد معاهدة تجارية مع الإمام يحيى إذ لا يخفى عليكم أن بلادنا واسعة ومحصولاتنا كثيرة وأبواب العالم الخارجي مغلقة في وجوهنا فنحن نسعى لإيجاد أسواق جديدة وهذه البلاد هي في جملة البلاد التي يمكننا أن نعمل معها ونجد فيها أسواقاً تجارية.

(س) هل تمكنتم من عقد معاهدة تجارية مع جلالة الإمام؟

(ج) نسعى لذلك سعياً حثيثاً، وقد تمكنا بالاتفاق مع جلالة الإمام ورجاله الأمجاد من وضع صيغة هذه المعاهدة وسيحملها الرفيق جورجي استانكوف إلى حكومة موسكو ليعرضها عليها ويأخذ توقيعها ثم يعود إلى اليمن ثانية ليأخذ توقيع جلالة الإمام عليها.

(س) ما هو عدد مواد هذه المعاهدة وما هي مضامينها؟

(ج) ستطلعون عليها بعد توقيع الطرفين المتعاقدين عليها لأنها ستنشر في موسكو وصنعاء في وقت واحد.

(س) هل لهذه المعاهدة ملاحق سرية وما أشبه؟

(ج) ابتسم الرئيس لهذا السؤال الصريح وأجاب طبعاً كلا!.

(س) ماذا صنعتم في هذه البلاد إلى الآن؟

(ج) أسسنا شركة تجارية، وقد تعين لرئاستها الخواجه بلكين، وهذه الشركة تدعى الشركة الروسية التجارية.

(س) وما هي مهمتها؟

(ج) جلب المحصولات الروسية من بلادنا وبيعها في اليمن وشراء كميات وافرة من البن اليمني والجلود.

(س) وما هي المحصولات التي تجلبونها؟

(ج) دقيق وخشب وكبريت وكاز وسكر وأقمشة قطنية وحريرية وخردوات إلى غير ذلك من اللوازم.

(س) كيف وجدتم هذه البلاد وأهلها؟

(ج) إنها بلاد جميلة جداً وأهلها فقراء ولكنهم أذكياء ورجال جد وعمل.

(س) أصحيح أنكم أتيتم إلى صنعاء بالطيارة؟

(ج) نعم طرنا من الحديدة إلى صنعاء بالطيارة وقطعنا المراحل الست بين هاتين المدينتين في خمسين دقيقة فقط!

(س) هل تتلقون بريدكم من بلادكم بصورة منظمة؟

(ج) نعم نأخذ بريدنا بواسطة سفننا التجارية التي تسافر بين البحر الأسود والعجم بصورة منتظمة، ولكن كل ثلاثة أشهر مرة واحدة.

(س) ولماذا تتدخل حكومتكم في أمور غيرها من الحكومات والشعوب؟

(ج) إن حكومتنا تبشر بمبادئ جديدة هي الحرية والعدالة والمساواة، ولا تتدخل في أمر شعب من الشعوب ما لم يطلب بعض أفراد ذلك الشعب وأحزابه منها المساعدة.

(س) هل أباحت لكم هذه المبادئ الحرة الشريفة أن تقتلوا المسلمين في القفقاس وتهدموا مساجدهم فوق رؤوسهم وهم يصلون؟

(ج) إن هذه الأخبار تتسرب إليكم عن طريق بعض خصومنا وهي مبالغ فيها كثيراً. ولاشك أنه اتصل بكم أننا ساعدنا تركيا في أيام محنتها وثورتها مساعدة جليلة، وتركيا هي دولة إسلامية كما لا يخفاكم.

(س) هل تنوون السفر إلى بلادكم الآن؟

(ج) نعم سيسافر بعضنا ويبقى الخواجه بلكين في الحديدة كرئيس للشركة التجارية ليشرف على أعمالها، وهو سيستعين بالوطنيين في جميع أعماله.

هذا هو بعض الحديث الذي جرى بيني وبين الوفد الروسي، ولا أخفي على القارئ الكريم أني لم أكن مطمئناً في حديثي مع هؤلاء الناس، ولا شعر قلبي بالميل إليهم. ومن الغريب في روسية الحمراء التي تدعى أنها لم تقم بثورتها المعروفة إلا لتنقذ روسيا من مخالب الرأسماليين واستبداد القيصر ورجاله أن جميع زعمائها الشيوعيين أصبحوا يمتلكون الثروات الطائلة، وكان أيام القيصر يوجد قيصر واحد يستبد بالشعب فصار في زمنهم يوجد ألف قيصر وقيصر من الزعماء والوزراء وأصحاب النفوذ، وقد بلغت شكوى الشعب عنان السماء من أعمالهم، وبديهي أن المبادئ الشيوعية تناقض الفروض الدينية الإسلامية وتختلف مع السنة المحمدية، وعليه أنصح إخواننا العرب أن لا ينخدعوا بدعاية الروس، وأن يعلموا بأن هؤلاء الحمر قد قتلوا ألوفاً من المسلمين في بلادهم وخربوا مئات الجوامع والمساجد فوق رؤوس المصلين.

وكنت أظن أن المعاهدة التي نوه لي عنها الوفد الروسي سوف لا تعقد مع اليمن، وسوف تمر الأيام والشهور والسنون بين أخذ ورد بين موسكو وصنعاء من غير جدوى، ولكن تمكن الرفيق جورجيوف من إقناع حكومته بقبول صيغة المعاهدة التي وضعها حضرته مع الحكومة المتوكلية في سفرته إلى موسكو وعاد بها ممضاة من حكومته إلى اليمن فوقعت عليها حكومة اليمن أيضاً وصارت نافذة منذ تاريخ توقيعها في سنة 1928 وإلى القارئ الكريم نصها بالحرف.

فصل في المعاهدات [1]

معاهدة الوداد والصداقة والتجارة بين اليمن
وحكومة الجمهوريات السوفياتية المعروفة بمعاهدة صنعاء

بناء على الاستصواب والاستنساب المتقابل من كل من حكومة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية من طرف، ومن حضرة صاحب الجلالة ملك اليمن الإمام يحيى بن الإمام محمد حميد الدين وحكومته من طرف آخر، ورغبة الطرفين في تأسيس المناسبات الرسمية الاعتيادية وفتح الصلات الاقتصادية بين بلاديهما وترقيتها وبنائها على أساس الصدق في تنظيم العلاقات الودادية بين الحكومتين وشعوبهما والاعتراف بالتساوي بين الطرفين في كافة الحقوق وأحكامها العامة المرعية بين الدول والملل.

قد اتفق الطرفان المشار إليهما على عقد هذه المعاهدة الودادية والصداقية والتجارية واعتبارها كمقدمة لما تستدعيه وتقتضيه الظروف المستقبلة عند ترقي الصلات الاقتصادية بين البلادين وتوسعها من إجراء المذاكرات والسعي من الحكومتين المشار إليهما في تنظيم الاتفاقات اللازمة كمثل تجارة وغيرها مما يرتضيه الطرفان فقررا الآن ما هو آت:

المادة الأولى:

تعترف حكومة اتحاد الجمهوريات السوفاتية الاشتراكية بالاستقلال الكامل المطلق لحكومة قطعة اليمن ولملكها صاحب الجلالة الإمام يحي بن محمد حميد الدين وحاكميته، ويقدر صاحب الجلالة ملك اليمن وحكومته صورة الاحترام الخالص والحسيات الجميلة التي تضمرها حكومة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية

---

(1) ليعذرنا القارئ الكريم في محافظتنا على النص الحرفي للمعاهدات، لأن ذلك هو الواجب والمتبع في مثل هذه الأحوال.(المؤلف).

لدولة اليمن وشعبها وسائر الشعوب الشرقية، ووفاقاً لهذا قد تأسس بين الطرفين المتعاهدين المناسبات الرسمية بموجب المقدمة المحررة آنفاً.

المادة الثانية:

يتعهد الطرفان المتعاقدان بتسهيل المبادلات التجارية بين المملكتين، ووفاقاً لهذا التعهد يكون لكل من رعايا المملكتين في بلاد مملكة الأخرى بعد استحصال الإذن منها الدخول والإقامة طبق نظاماتها وتعاطي التجارة وإجراء معاملاتها التي تقتضيها على شريطة أن يكون فصل القضايا التي تحدث لكل من رعايا الطرفين في المحاكم المحلية للمملكة التي يوجدون فيها على وفق نظاماتها، وأن ما كان ممنوع الاتجار به في قوانين إحدى الحكومتين فلكل منهما منع أو مصادرة ما وجد في مملكتها من ذلك، ويتعهد الطرفان المتعاقدان أن يساعدا بتطبيق كل تسهيل موافق للنظامات المحلية في معاملات رعايا المملكتين في التجارة فيما يختص الضرائب والرسوم الكمركية.

المادة الثالثة:

توضع هذه المعاهدة في موضع التطبيق وإجراء من الحكومتين بعد إمضائها وتصديقها على مقتضى الأصول الرسمية المعتادة من طرف حكومة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية اعتباراً من يوم وصول التصريح الرسمي من الحكومة المشار إليها إلى جلالة ملك اليمن الإمام يحيى.

المادة الرابعة:

تكون هذه المعاهدة الودادية والصداقية والتجارية معمولاً بها وموضوعة في موضع العمل والتطبيق مدة عشر سنوات اعتباراً من التاريخ الذي ذكر في المادة الثالثة وعند انقضاء المدة المذكورة يكون تمديدها أو تبديلها بغيرها راجعاً إلى رغبات الطرفين المتعاقدين وما سيتفقان عليه في ذلك المستقبل.

المادة الخامسة:

تسمى هذه المعاهدة الودادية والصداقية والتجارية "معاهدة صنعاء" وهي تشتمل على مقدمة وخاتمة – ستأتي– وخمس مواد، هذه المادة إحداها، وقد نظمت في نسختين باللغة العربية لتعاطيهما من الطرفين المتعاقدين.

الخاتمة:

لكي تكون هذه المعاهدة مهيئة لاكتسابها صفة التصديق النهائي حسبما نصت عليه المادة الثالثة والرابعة قد أمضيت في صنعاء عاصمة اليمن من طرف مرخص حكومة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية حضرة الرفيق آستاخوف بالنيابة عن حكومته المشار إليها، ومن طرف حضرة القاضي محمد راغب المندوب عن جلالة ملك اليمن الإمام المشار إليه بعد اتفاقهما على ما حوته من العبارات والمعاني الدالة عليها اتفاقاً تاماً كاملا، وتحريرها في 17 جمادى الأولى سنة 1347 الموافق 1 تشرين الثاني سنة 1928.

محمد راغب بن رفيق　　　　　غ. آستاخوف

معاهد صداقة وتجارة بين إمبراطورية أثيوبية ومملكة اليمن

إن حضرة صاحب الجلالة ملك ملوك أثيوبية قداماي هيلاسلاسي الأول المعظم، وحضرة صاحب الجلالة ملك وحاكم اليمن المطلق الإمام يحيى بن الإمام محمد بن يحيى حميد الدين المبجل.

رغبة منهما في تأسيس روابط الصداقة والمحبة بين الدولتين العاليتين وتوثيق عراها على قاعدة القوانين الدولية العامة قد قررا عقد معاهدة صداقة وتجارة، ولهذا الغرض عين من طرف حضرة صاحب الجلالة إمبراطور أثيوبية: حضرة صاحب السعادة سافي تزوزو، مسقل، وصاحب العزة ليج آنداركه ماساي.

ومن طرف حضرة صاحب الجلالة ملك اليمن الإمام حضرة صاحب السعادة القاضي محمد راغب بن رفيق مندوبين مفوضين من الدولتين المشار إليهما، وقد اتفقوا بعد تثبيت وثائق اعتمادهم على المواد الآتية:

المادة الأولى:

يفتح بين الإمبراطورية الأثيوبية والمملكة اليمانية سلام دائم وصداقة تامة مطلقة.

المادة الثانية:

يتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على تقوية علاقاتهما الودية والتجارية وعلى أن يسهلا تبادل المنتجات بينهما.

المادة الثالثة: لكل من رعايا الإمبراطورية الأثيوبية والمملكة اليمنية الحرية في الدخول والإقامة للتجارة في بلاد الفريق الآخر من المتعاقدين السامين اللذين اتفقا على أن يعاملوهم وتجارتهم بالأحكام المحلية ويتمتعوا بما يتمتع به رعايا الدولة الأكثر رعاية.

المادة الرابعة:

من المتفق عليه أن رعايا الفريقين الساميين المتعاقدين يكونون من كل أمورهم ومعاملاتهم خاضعين للقوانين والمحاكم المتبعة عادة في البلاد المقيمين بها.

المادة الخامسة: سيكون من الفريقين الساميين المتعاقدين في الوقت المناسب وبموافقتهما إنشاء سفارة وقنصليات، وإلى أن يكون إنشاء العلاقات السياسية والقنصلية هذه يتفقان على أن يُعطى لرعايا كل منهما المقيمين في بلاد الفريق الآخر المساعدة والصيانة اللازمة.

المادة السادسة:

بهذه المعاهدة لا يسمح الفريقان الساميان المتعاقدان لأي حركة ضد صداقتهما الصميمية، ويجتهدان في التقرب أكثر مما هما عليه الآن في المعاونة وفي ازدياد علاقتهما، وعلى روح هذه المعاهدة تبنى الاتفاقات والمعاهدات التي سيكون عقدها في المستقبل بينهما.

المادة السابعة:

تكون مدة هذه المعاهدة خمس سنوات ابتداء من تاريخ تبادل حجج التصديق بينهما وتتجدد بنفسها كل مرة خمس سنوات أخر إن لم ترفض المعاملة بها إحدى الدولتين المتعاقدتين قبل أشهر من انتهائها.

وتبادل حجج التصديق يكون في صنعاء في أقرب مدة ممكنة، وبهذه المعاهدة يلغى كل ما قبلها.

وتقريراً لذلك وقع المفوضون المشار إليهم إمضاءاتهم على المعاهدة هذه ووضعوا أختامهم عليها، ولهذه المعاهدة نسختان أصليتان باللغتين الأمهارية والعربية وحيث أن أصل ومنبع اللسانين المشار إليهما متحد فعند اللزوم للتفسير يعتبر النص العربي

وحرر في صنعاء اليمن في 17 ذي الحجة سنة 1353 الموافق 23 مارت سنة 1935

محمد راغب بن رفيق ليج آنداركه ماساي سافي تزوزو مسقل

المعاهدة الإيطالية اليمنية

نقلاً عن جريدة الإيمان التي تصدر في صنعاء

كان عقد معاهدة ودية بين دولة اليمن الإسلامية المصطفوية وبين الدولة الفخيمة الإيطالية، وهي أول معاهدة عقدت، فرأينا بكل شوق وسرور أن ندرج وننشر تيمناً وتبركاً في جريدتنا هذه بأول نسخة تصدر منها صورة متن هذه المعاهدة لإعلام جميع أهل اليمن بما حوته، وكانت المراجعة والتماس المساعدة باطلاعنا على أصلها لنقل صورتها، وبعد تمام نقل الصورة كانت الإفادة بوقوع تصديق المعاهدة الواقعة من طرف حضرة صاحب الحشمة ملك إيطاليا "فيكتوريو عمانوئيلو" وإنه قد وصل التبليغ الرسمي إلى الحضرة الشريفة الهاشمية، ونذكر على الوجه الآتي تحت هذا نص متن المعاهدة كما نقلت من الأصل المذكور بحروفها:

مادة 1- تعترف حكومة جلالة ملك إيطاليا باستقلال حكومة اليمن وملكها جلالة الإمام يحيى الاستقلال المطلق الكامل، ومع هذا فلا يداخل حكومة إيطاليا المشار إليها في مملكة جلالة ملك اليمن الإمام بأي أمر من الأمور التي تناقض ما في الفقرة الأولى من هذه المادة.

مادة 2- تتعهد الدولتان بتسهيل التبادل في التجارة بين بلاديهما.

مادة 3- حكومة جلالة ملك اليمن تصرح بأنها ترغب أن تجلب طلباتها من إيطاليا وذلك في الأشياء والآلات الفنية التي تساعد بجلب الفائدة في نمو اقتصاد اليمن ونفعه وكذلك في الأشخاص الفنيين، والحكومة الإيطالية تصرح بأنها تبذل جهدها حتى يصير إرسال الأشخاص والآلات الفنية والأشياء بأنسب وجه في الأنواع والأثمان والرواتب.

مادة 4- ما ذكر في المادة الثانية والثالثة لا يمنع حرية الطرفين في التجارة والمطلوبات.

مادة 5- ليس لأحد من تجار المملكتين أن يجلب ويتجر فيما تمنعه إحدى الدولتين في بلادها، ولكل من الدولتين أن تصادر ما جلب إلى بلادها مما تمنع جلبه والتجارة فيه بعد الإشعار.

مادة 6- هذه المعاهدة لا يكون معمولاً بها إلا من حين تصل إلى جلالة ملك اليمن الإمام يحيى مصدقة من جلالة ملك إيطاليا.

مادة 7- تكون هذه المعاهدة جارية ومعمولاً بها لمدة عشر سنوات من بعد تصديقها كما في المادة السادسة، وقبل انقضاء مدة هذه المعاهدة بستة أشهر إذا أراد الطرفان تبديلها بغيرها أو تمديدها كانت المذاكرة في ذلك.

مادة 8- ولما حرر في هذه المواد فجلالة ملك اليمن الإمام يحيى وسعادة كفاليري غاسباريني بالوكالة عن ملك إيطاليا قد أمضيا هذه المعاهدة المحررة في نسختين متطابقتين باللغة العربية والإيطالية، ولعدم وجود من يعرف الترجمة عن اللغة الإيطالية معرفة تامة لدن جلالة ملك اليمن، ولأن المفاوضة التي تمت بين الطرفين بعقد الودية التجارية كان التفاهم فيها باللغة العربية، ولأن سعادة كفاليري غاسباريني قد تأكد أن النص العربي هو مطابق للنص الإيطالي تماماً لذلك اتفقنا إنه إذا نشأت شكوك أو اختلاف في تفسير النصين العربي والإيطالي فالطرفان يعتمدان النص العربي وتفسيره باللغة العربية واعتبار هذا شرطاً.

معاهدة الطائف بين المملكة اليمانية وبين المملكة العربية السعودية

وقعت في جدة في السادس من شهر صفر سنة 1353

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

نحن الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ملك المملكة اليمانية بما أنه قد عقدت بيننا وبين حضرة صاحب الجلالة الملك الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية لإنهاء حالة الحرب الواقعة لسوء الحظ بيننا وبين جلالته ولتأسيس علاقات الصداقة الإسلامية بين بلادينا ووقعها مندوب مفوض من قبلنا ومندوب مفوض من قبل جلالته وكلاهما حائزان للصلاحية التامة المتقابلة وذلك في مدينة جدة في اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف وهي مدرجة مع عهد التحكيم والكتب الملحقة بها فيما يلي:

معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية

بين المملكة اليمانية وبين المملكة العربية السعودية

حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن من جهة

وحضرة صاحب الجلالة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية من جهة أخرى.

رغبة منهما في إنهاء حالة الحرب التي كانت قائمة لسوء الحظ فيما بينهما وبين حكومتيهما وشعبيهما، ورغبة في جمع كلمة الأمة الإسلامية العربية ورفع شأنها وحفظ كرامتها واستقلالها.

ونظراً لضرورة تأسيس علاقات عهدية ثابتة بينهما وبين حكومتيهما وبلاديهما على أساس المنافع المشتركة والمصالح المتبادلة وحباً في تثبيت الحدود بين بلاديهما

وإنشاء علاقات حسن الجوار وروابط الصداقة الإسلامية فيما بينهما وتقوية دعائم السلم والسكينة بين بلاديهما وشعبيهما.

ورغبة في ان يكونا عضداً واحداً أمام الملمات المفاجئة وبنياناً متراصاً للمحافظة على سلامة الجزيرة العربية قررا عقد معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية فيما بينهما وانتدبا لذلك الغرض مندوبين مفوضين عنهما وهما:

عن حضرة صاحب الجلالة ملك اليمن: حضرة صاحب السيادة السيد عبد الله بن أحمد الوزير

وعن حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية: حضرة صاحب السمو الملكي الأمير خالد بن عبد العزيز نجل جلالته ونائب رئيس مجلس الوكلاء.

وقد منح جلالة الملكين لمندوبيهما الآنفي الذكر الصلاحية التامة والتفويض المطلق. وبعد أن اطلع المندوبان المذكوران على أوراق التفويض التي بيد كل منهما فوجداها موافقة للأصول قررا باسم ملكيهما الاتفاق على المواد الآتية:

المادة الأولى:

تنتهي حالة الحرب القائمة بين مملكة اليمن والمملكة العربية السعودية بمجرد التوقيع على هذه المعاهدة، وتنشأ فوراً بين جلالة الملكين وبلاديهما وشعبيهما حالة سلم دائم وصداقة وطيدة وأخوة إسلامية عربية دائمة لا يمكن الإخلال بها جميعها أو بعضها، ويتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يحلا بروح الود والصداقة جميع المنازعات والاختلافات التي قد تقع بينهما، وبأن يسود علاقتهما روح الإخاء الإسلامي العربي في سائر المواقف والحالات، ويُشهدان الله على حسن نواياهما ورغبتهما الصادقة في الوفاق والاتفاق سراً وعلناً، ويرجوان منه سبحانه وتعالى أن يوفقهما وخلفاءهما وورثاءهما وحكومتيهما إلى السير على هذه الخطة القويمة التي فيها رضاء الخالق وعز قومهما ودينهما.

المادة الثانية:

يعترف كل من الفريقين الساميين المتعاقدين للآخر باستقلال كل من المملكتين استقلالاً تاماً مطلقاً وبملكيته عليها، فيعترف حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن لحضرة صاحب الجلالة الإمام عبد العزيز

ولخلفائه الشرعيين باستقلال المملكة العربية السعودية استقلالاً تاماً مطلقاً وبالملكية على المملكة العربية السعودية، ويعترف حضرة صاحب الجلالة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية لحضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى ولخلفائه الشرعيين باستقلال مملكة اليمن استقلالاً تاماً مطلقاً وبالملكية على مملكة اليمن. ويسقط كل منهما أي حق يدعيه في قسم أو أقسام من بلاد الآخر خارج الحدود القطعية المبينة في صلب هذه المعاهدة.

إن جلالة الإمام الملك يحيى يتنازل بهذه المعاهدة عن أي حق يدعيه باسم الوحدة اليمانية أو غيرها في البلاد التي هي بموجب هذه المعاهدة تابعة للمملكة العربية السعودية من البلاد التي كانت بيد الأدارسة أو آل عايض أو في نجران وبلاد يام، كما ان جلالة الإمام الملك عبد العزيز يتنازل بهذه المعاهدة عن أي حق يدعيه من حماية أو احتلال أو غيرهما في البلاد التي هي بموجب هذه المعاهدة تابعة لليمن من البلاد التي كانت بيد الأدارسة أو غيرها.

المادة الثالثة:

يتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على الطريقة التي تكون بها الصلات والمراجعات بما فيه حفظ مصالح الطرفين وبما لا ضرر فيه على أيهما على أن لا يكون ما يمنحه أحد الفريقين الساميين المتعاقدين للآخر أقل مما يمنحه لفريق ثالث، ولا يوجب هذا على أي الفريقين أن يمنح الآخر أكثر مما يقابله بمثله.

المادة الرابعة:

خط الحدود الذي يفصل بين بلاد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين موضح بالتفصيل الكافي فيما يلي، ويعتبر هذا الخط حداً فاصلاً قطعياً بين البلاد التي تخضع لكل منهما.

يبدأ خط الحدود بين المملكتين اعتباراً من النقطة الفاصلة بين ميدي والموسم على ساحل البحر الأحمر إلى جبال تهامة في الجهة الشرقية، ثم يرجع شمالاً إلى أن ينتهي إلى الحدود الغربية الشمالية التي بين بني جماعة ومن يقابلهم من جهة الغرب والشمال، ثم ينحرف إلى جهة الشرق إلى أن ينتهي إلى ما بين حدود نقعة ووعار التابعتين لقبيلة وائلة وبين حدود يام، ثم ينحرف إلى أن يبلغ مضيق مروان وعقبة رفادة، ثم ينحرف إلى جهة الشرق حتى ينتهي من جهة الشرق إلى أطراف الحدود

بين من عدا يام من همدان بن زيد وائلي وغيره وبين يام، فكلما عن يمين الخط المذكور الصاعد من النقطة المذكورة التي على ساحل البحر إلى منتهى الحدود في جميع جهات الجبال المذكورة فهو من المملكة اليمانية، وكلما هو عن يسار الخط المذكور فهو من المملكة العربية السعودية، فما هو في جهة اليمين المذكورة هو ميدي وحرض وبعض قبيلة الحرث والمير وجبال الظاهر وشدا والضيعة وبعض العبادل وجميع بلاد وجبال رازح ومنبه مع عرو آل مشيخ، وجميع بلاد وجبال بني جماعة وسحار الشام يباد وما يليها ومحل مريصعة من سحار الشام وعموم سحار ونقعة ووعار وعموم وائلة وكذا الفرع مع عقبة نهوقة وعموم من عدا يام ووادعة ظهران من همدان بن زيد هؤلاء المذكورون وبلادهم بحدودها المعلومة وكلما هو بين الجهات المذكورة وما يليها مما لم يذكر اسمه مما كان مرتبطاً ارتباطاً فعلياً أو تحت ثبوت يد المملكة اليمانية قبل سنة 1352 كل ذلك هو في جهة اليمين فهو من المملكة اليمانية، وما هو في جهة اليسار المذكورة وهو الموسم ووعلان وأكثر الحرث والخوبة والجابري وأكثر العبادل وجميع فيفا وبني مالك وبني حريص وآل تليد وقحطان وظهران وادعة وجميع وادعة ظهران مع مضيق مروان وعقبة رفادة وما خلفهما من جهة الشرق والشمال من يام ونجران والحضن وزور وادعة وسائر من هو في نجران من وائلة وكلما هو تحت عقبة نهوقة إلى أطراف نجران ويام من جهة الشرق هؤلاء المذكورون وبلادهم بحدودها المعلومة وكلما هو بين الجهات المذكورة وما يليها مما لم يذكر اسمه مما كان مرتبطاً ارتباطاً فعلياً أو تحت ثبوت يد المملكة العربية السعودية قبل سنة 1352 كل ذلك هو في جهة يسار الخط المذكور فهو من المملكة العربية السعودية، وما ذكر من يام ونجران والحضن وزور وادعة وسائر من هو في نجران من وائلة فهو بناء على ما كان من تحكيم جلالة الإمام يحيى لجلالة الملك عبد العزيز في يام، والحكم من جلالة الملك عبد العزيز بأن جميعها تتبع المملكة العربية السعودية، وحيث أن الحضن وزور وادعة ومن هو من وائلة في نجران هم من وائلة ولم يكن دخولهم في المملكة العربية السعودية إلا لما ذكر فذلك لا يمنعهم ولا يمنع إخوانهم وائلة عن التمتع بالصلات والمواصلات والتعاون المعتاد والمتعارف به. ثم يمتد هذا الخط من نهاية الحدود المذكورة آنفاً بين أطراف قبائل المملكة العربية السعودية وأطراف من عدا يام من همدان بن زيد وسائر قبائل اليمن فللمملكة اليمانية كل الأطراف والبلاد اليمانية إلى منتهى حدود اليمن من جميع الجهات. وللمملكة العربية السعودية كل الأطراف والبلاد إلى منتهى حدودها من جميع الجهات، وكلما ذكر في هذه المادة من نقط شمال وجنوب

وشرق وغرب فهو باعتبار كثرة اتجاه ميل خط الحدود في اتجاه الجهات المذكور، وكثيراً ما يميل لتداخل ما إلى كل من المملكتين، أما تعيين وتثبيت الخط المذكور وتمييز القبائل وتحديد ديارها على أكمل الوجوه فيكون إجراؤه بواسطة هيئة مؤلفة من عدد متساو من الفريقين بصورة ودية أخوية بدون حيف بحسب العرف والعادة الثابتة عند القبائل.

المادة الخامس:

نظراً لرغبة كل من الفريقين الساميين المتعاقدين في دوام السلم والطمأنينة والسكون وعدم إيجاد أي شيء يشوش الأفكار بين المملكتين فإنهما يتعهدان تعهداً متقابلاً بعدم أحداث أي بناء محصن في مسافة كيلو مترات في كل جانب من جانبي الحدود في كل المواقع والجهات على طول خط الحدود.

المادة السادسة:

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين سحب جنده فوراً عن البلاد التي أصبحت بموجب هذه المعاهدة تابعة للفريق الآخر مع صون الأهلين والجند عن كل ضرر.

المادة السابعة:

يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يمنع كل منهما أهالي مملكته عن كل ضرر وعدوان على أهالي المملكة الأخرى في كل جهة وطريق، وبأن يمنع الغزو بين أهل البوادي من الطرفين ويرد كل ما ثبت أخذه بالتحقيق الشرعي من بعد إبرام هذه المعاهدة وضمان ما تلف وبما يلزم بالشرع فيما وقع من جناية قتل أو جرح بالعقوبة الحاسمة على من ثبت منهم العدوان، ويظل العمل بهذه المادة سارياً إلى أن يوضع بين الفريقين اتفاق آخر لكيفية التحقيق وتقدير الضرر والخسائر.

المادة الثامنة: يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين تعهداً متقابلاً بأن يمتنعا عن الرجوع للقوة لحل المشكلات بينهما ومنشؤه هذه المعاهدة أو تفسير كل أو بعض موادها أم كان ناشئاً عن أي سبب آخر بالمراجعات الودية، وفي حالة عدم إمكان التوفيق بهذه الطريقة يتعهد كل منهما بأن يلجأ إلى التحكيم الذي توضح

شروطه وكيفية طلبه وحصوله في ملحق مرفق بهذه المعاهدة، ولهذا الملحق نفس القوة والنفوذ اللذين لهذه المعاهدة ويحسب جزأ منها وبعضاً متمماً للكل فيها.

المادة التاسعة:

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يمنع بكل ما لديه من الوسائل المادية والمعنوية استعمال بلاده قاعدة ومركزاً لأي عمل عدواني أو شروع فيه أو استعداد له ضد بلاد الفريق الآخر، كما إنه يتعهد باتخاذ التدابير الآتية بمجرد وصول طلب خطي من حكومة الفريق الآخر وهي:

1- إن كان الساعي في عمل الفساد من رعايا الحكومة المطلوب منها اتخاذ التدابير فبعد التحقيق الشرعي وثبوت ذلك يؤدب فوراً من قبل حكومته بالأدب الرادع الذي يقضي على فعله ويمنع وقوع أمثاله.

2- وإن كان الساعي في عمل الفساد من رعايا الحكومة الطالبة اتخاذ التدابير فإنه يلقى القبض عليه فوراً من قبل الحكومة المطلوب منها ويسلم إلى حكومته الطالبة، وليس للحكومة المطلوب منها التسليم عذر عن إنفاذ الطلب، وعليها اتخاذ كافة الإجراءات لمنع فرار الشخص المطلوب أو تمكينه من الهرب، وفي الأحوال التي يتمكن فيها الشخص المطلوب من الفرار فإن الحكومة التي فر من أراضيها تتعهد بعدم السماح له بالعودة إلى أراضيها مرة أخرى وإن تمكن من العودة إليها يلقى القبض عليه ويسلم إلى حكومته.

3- وإن كان الساعي في عمل الفساد من رعايا حكومة ثالثة فإن الحكومة المطلوب منها والتي يوجد الشخص على أراضيها تقوم فوراً وبمجرد تلقيها الطلب من الحكومة الأخرى بطرده من بلادها وعده شخصاً غير مرغوب فيه ويمنع من العودة إليها في المستقبل.

المادة العاشرة:

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بعدم قبول من يفر عن طاعة دولته كبيراً كان أم صغيراً موظفاً كان أم غير موظف فرداً كان أم جماعة، ويتخذ كل من الفريقين الساميين المتعاقدين كافة التدابير الفعالة من إدارية وعسكرية وغيرها لمنع دخول هؤلاء الفارين إلى حدود بلاده، فإن تمكن أحدهم أو كلهم من اجتياز خط

الحدود بالدخول في أراضيه فيكون عليه واجب نزع السلاح من الملتجئ وإلقاء القبض عليه وتسليمه إلى حكومة بلاد الفار منها، وفي حالة عدم إمكان القبض عليه تتخذ كافة الوسائل لطرده من البلاد التي لجأ إليها إلى بلاد الحكومة التي يتبعها.

المادة الحادية عشرة:

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بمنع الأمراء والعمال والموظفين التابعين له من المداخلة بأي وجه كان مع رعايا الفريق الآخر بالذات أو بالواسطة، ويتعهد باتخاذ كامل التدابير التي تمنع حدوث القلق أو توقع سوء التفاهم بسبب الأعمال المذكورة.

المادة الثانية عشرة:

يعترف كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن أهل كل جهة من الجهات الصائرة إلى الفريق الآخر بموجب هذه المعاهدة رعية لذلك الفريق الآخر.

ويتعهد كل منهما بعدم قبول أي شخص أو أشخاص من رعايا الفريق الآخر رعية له إلا بموافقة ذلك الفريق، وبأن تكون معاملة رعايا كل من الفريقين في بلاد الفريق الآخر طبقاً للأحكام الشرعية المحلية.

المادة الثالثة عشرة:

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بإعلان العفو الشامل الكامل عن سائر الأجرام والأعمال العدوانية التي يكون قد ارتكبها فرد أو أفراد من رعايا الفريق الآخر المقيمين في بلاده "أي في بلاد الفريق الذي منه إصدار العفو" كما إنه يتعهد بإصدار عفو شامل كامل عن أفراد رعاياه الذين لجئوا أو انحازوا أو بأي شكل من الأشكال انضموا إلى الفريق الآخر من كل جناية ومال أخذوا منذ لجئوا إلى الفريق الآخر إلى عودهم كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ، وبعدم السماح بإجراء أي نوع من الإيذاء أو التعقيب أو التضييق بسبب ذلك الالتجاء أو الانحياز أو الشكل الذي انضموا بموجبه، وإذا حصل ريب عند أي الفريقين بوقوع شيء مخالف لهذا العهد كان لمن حصل عنده الريب أو الشك من الفريقين مراجعة الفريق الآخر لأجل اجتماع المندوبين الموقعين على هذه المعاهدة، وأن تعذر على أحدهما الحضور فينيب عنه آخر له كامل الصلاحية والاطلاع على تلك النواحي ممن له كامل الرغبة والعناية

بصلاح ذات البين والوفاء بحقوق الطرفين بالحضور لتحقيق الأمر حتى لا يحصل أي حيف ولا نزاع، وما يقرره المندوبان يكون نافذاً.

المادة الرابعة عشرة:

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين برد وتسليم أملاك رعاياه الذين يعفى عنهم إليهم أو إلى ورثتهم عند رجوعهم إلى وطنهم خاضعين لأحكام مملكتهم، وكذلك يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بعدم حجز أي شيء من الحقوق والأملاك التي تكون لرعايا الفريق الآخر في بلاده ولا يعرقل استثمارها أو أي نوع من أنواع التصرفات الشرعية فيها.

المادة الخامسة عشرة:

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بعدم المداخلة مع فريق ثالث سواء كان فرداً أم هيئة أم حكومة أو الاتفاق معه على أي أمر يخل بمصلحة الفريق الآخر أو يضر ببلاده أو يكون من ورائه إحداث المشكلات والصعوبات له أو يعرض منافعها ومصالحها أو كيانها للأخطار.

المادة السادسة عشرة:

يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان اللذان تجمعهما روابط الأخوة الإسلامية والعنصرية العربية أن أمتهما أمة واحدة وأنهما لا يريدان بأحد شراً وأنهما يعملان جهدهما لأجل ترقية شؤون أمتهما في ظل الطمأنينة والسكون، وأن يبذلا وسعهما في سائر المواقف لما فيه خير لبلاديهما وأمتهما غير قاصدين بهذا أية عداوة على أية أمة.

المادة السابعة عشرة:

في حالة حصول اعتداء خارجي على بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتحتم على الفريق الآخر أن ينفذ التعهدات الآتية:

أولاً- الوقوف على الحياد التام سراً وعلناً.

ثانياً- المعاونة الأدبية والمعنوية الممكنة.

ثالثاً- الشروع في المذاكرة مع الفريق الآخر لمعرفة أنجع الطرق لضمان سلامة بلاد ذلك الفريق الآخر ومنع الضرر عنها والوقوف في موقف لا يمكن تأويله لأنه تعضيد للمعتدي الخارجي.

المادة الثامنة عشرة:

في حالة حصول فتن واعتداءات داخلية في بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهد كل منهما تعهداً متقابلاً بما يأتي:

أولاً- اتخاذ التدابير الفعالة اللازمة لعدم تمكين المعتدين أو الثائرين من الاستفادة من أراضيه.

ثانياً- منع التجاء اللاجئين إلى بلاده وتسليمهم أو طردهم إذا لجئوا إليها كما هو موضح "في المادة التاسعة والعاشرة أعلاه".

ثالثاً- منع رعاياه من الاشتراك مع المعتدين أو الثائرين وعدم تشجيعهم أو تموينهم.

رابعاً- منع الإمدادات والأرزاق والمؤن والذخائر عن المعتدين أو الثائرين.

المادة التاسعة عشرة:

يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان رغبتهما في عمل كل ممكن لتسهيل المواصلات البريدية والبرقية وتزييد الاتصال بين بلاديهما وتسهيل تبادل السلع والحاصلات الزراعية والتجارية بينهما. وفي إجراء مفاوضات تفصيلية من أجل عقد اتفاق جمركي يصون مصالح بلاديهما الاقتصادية بتوحيد الرسوم الجمركية في عموم البلادين أو بنظام خاص بصورة كافلة لمصالح الطرفين، وليس في هذه المادة ما يقيد حرية أحد الفريقين الساميين المتعاقدين في أي شيء حتى يتم عقد الاتفاق المشار إليه.

المادة العشرون:

يعلن كل من الفريقين الساميين المتعاقدين استعداده لأن يأذن لممثليه ومندوبيه في الخارج إن وجدوا بالنيابة عن الفريق الآخر متى أراد الفريق الآخر ذلك في أي شيء وفي أي وقت، ومن المفهوم إنه حينما يوجد في ذلك العمل شخص من كل

من الطرفين في مكان واحد فإنهما يتراجعان فيما بينهما لتوحيد خطتهما للعمل العائد لمصلحة البلادين التي هي كلمة واحدة، ومن المفهوم إن هذه المادة لا تقيد حرية أحد الجانبين بأي صورة كانت في أي حق له كما إنه لا يمكن أن تفسر بحجز حرية أحدهما أو اضطراره لسلوك هذه الطريقة.

المادة الحادية والعشرون: يلغى ما تضمنته الاتفاقية الموقع عليها في 5 شعبان سنة 1350 على كل حال اعتباراً من تاريخ هذه المعاهدة.

المادة الثانية والعشرون:

تبرم هذه المعاهدة وتصدق من قبل حضرة صاحبي الجلالة الملكين في أقرب مدة ممكنة نظراً لمصلحة الطرفين في ذلك، وتصبح نافذة المفعول من تاريخ تبادل قرارات إبرامها، مع استثناء ما نص عليه في المادة الأولى من إنهاء حالة الحرب بمجرد التوقيع، وتظل سارية المفعول مدة عشرين سنة قمرية تامة ويمكن تجديدها أو تعديلها خلال الستة الأشهر التي سبق تاريخ انتهاء مفعولها فإن لم تجدد أو تعدل في ذلك التاريخ تظل سارية المفعول إلى ما بعد ستة أشهر من إعلان أحد الفريقين المتعاقدين الفريق الآخر رغبته في التعديل.

المادة الثالثة والعشرون:

تسمى هذه المعاهدة "بمعاهدة الطائف" وقد حررت من نسختين باللغة العربية الشريفة بيد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين نسخة وإشهاداً بالواقع وضع كل من المندوبين المفوضين توقيعه.

وكتب في مدينة جدة في اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف

"التوقيع" عبد الله بن أحمد الوزير

"التوقيع" خالد بن عبد العزيز السعود

عهد التحكيم بين مملكة اليمن وبين المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

بما أن حضرة صاحبي الجلالة الإمامين الملك يحيى ملك اليمن والملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية قد اتفقا بموجب المادة الثامنة من معاهدة الصلح والصداقة وحسن التفاهم المسماة "بمعاهدة الطائف" والموقع عليها في السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف على أن يحيلا إلى التحكيم أي نزاع أو اختلاف ينشأ عن العلاقات بينهما وبين حكومتيهما وبلاديهما متى عجزت سائر المراجعات الودية عن حله فإن الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهدان بإجراء التحكيم على الصورة المبينة في المواد الآتية:

المادة الأولى:

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يقبل بإحالة القضية المتنازع عليها على التحكيم خلال شهر واحد من تاريخ استلام طلب إجراء التحكيم من الفريق الآخر إليه.

المادة الثانية: يجري التحكيم من قبل هيئة مؤلفة من عدد متساو من المحكمين ينتخب كل فريق نصفهم، ومن حَكَم وازع[1] ينتخب باتفاق الفريقين الساميين المتعاقدين، وأن لم يتفق على ذلك يرشح كل منهما شخصاً فإن قبل أحد الفريقين المرشح الذي يقدمه الفريق الآخر فيصبح وازعاً، وإن لم يمكن الاتفاق على ذلك تجري القرعة على أيهما يكون وازعاً، مع العلم بأن القرعة لا تجري إلا على الأشخاص المقبولين من الطرفين، فمن وقعت القرعة عليه أصبح رئيساً لهيئة التحكيم ووازعاً للفصل في القضية، وإن لم يحصل الاتفاق على الأشخاص المقبولين من الطرفين تجري المراجعات فيما بعد إلى أن يحصل الاتفاق على ذلك.

المادة الثالثة:

---

(1) وازع: رئيس أو قائد، والمراد به هنا رئيس لجنة أو هيئة التحكيم.

يجب أن يتم اختيار هيئة التحكيم ورئيسها خلال شهر واحد من بعد انقضاء الشهر المعين لإجابة الفريق المطلوب منه الموافقة على التحكيم لقبوله لطلب الفريق الآخر وتجتمع هيئة المحكمين في المكان الذي يتم الاتفاق عليه في مدة لا تزيد عن شهر واحد بعد انقضاء الشهرين المعينين في أول المادة، وعلى هيئة المحكمين أن تعطى حكمها خلال مدة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تزيد عن شهر واحد من بعد انقضاء المدة التي عينت للاجتماع كما هو مبين أعلاه، ويعطى حكم هيئة التحكيم بالأكثرية ويكون الحكم ملزماً للفريقين الساميين ويصبح تنفيذه واجبا بمجرد صدوره وتبليغه، ولكل من الفريقين المتعاقدين أن يعين الشخص أو الأشخاص الذين يريدهم للدفاع عن وجهة نظره أما هيئة التحكيم وتقديم البيانات والحجج اللازمة لذلك.

المادة الرابعة:

أجور محكمي كل فريق عليه، وأجور رئيس هيئة التحكيم مناصفة بينهما وكذلك الحكم في نفقات المحاكمة الأخرى.

المادة الخامسة:

يعتبر هذا العهد جزءاً متمماً لمعاهدة الطائف الموقع عليها في هذا اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف ويظل ساري المفعول مدة سريان المعاهدة المذكورة، وقد حرر هذا من نسختين باللغة العربية يكون بيد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين نسخة وقراراً بذلك، جرى توقيعه في اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف.

(التوقيع) عبد الله بن أحمد الوزير

(التوقيع) خالد بن عبد العزيز السعود

[شروط إضافية من الجانب السعودي لتنفيذ اتفاقية الطائف]

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر في 6 صفر سنة 1353

من خالد بن عبد العزيز السعود إلى حضرة الأخ صاحب السيادة السيد عبد الله الوزير المندوب المفوض من قبل جلالة الإمام يحيى حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله، أما بعد:

فإنه بمناسبة توقيع معاهدة الطائف بيننا وبينكم نيابة عن جلالتي ملكي المملكة العربية السعودية والمملكة اليمانية أحب أن أثبت لكم في كتابي هذا إنه لا يمكن اعتبار تلك المعاهدة وقبول إنفاذ مقتضاها إلا في إثبات ما يأتي:

1- أن يجري تسليم الأدارسة وإخلاء جبالنا في تهامة وإطلاق رهائن أهله حالاً.

2- أن يظل مضمون هذه المعاهدة مكتوماً ولا ينشره أحد الفريقين ولاسيما ما يتعلق منها بمسألة الحدود لما يحدث ذلك من التشويش في تهامة خاصة وأن انسحاب جند جلالة الملك عبد العزيز يكون بكامل الصيانة والشرف من ابتداء انسحابه إلى آخره، وكل حادث عدواني عليه في خلال تلك المدة يكون مضموناً من قبل جلالة الإمام يحيى.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

"التوقيع" خالد بن عبد العزيز السعود

[موافقة الجانب اليمني على الشروط السعودية]

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر في 6 صفر سنة 1353

من عبد الله الوزير إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله تعالى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فقد تلقيت كتاب سموكم تاريخ 6 صفر سنة 1353 وقد أحطت علماً بما اشترطتموه سموكم لإنفاذ معاهدة الطائف التي عقدت بين الفريقين من تسليم الادارسة وإخلاء الجبال التي كانت محتلة من قبل جنود جلالة الإمام يحيى من بلاد جلالة الملك عبد العزيز وإطلاق رهائن أهلها، وأن تظل هذه المعاهدة مكتومة وعلى الأخص مسألة الحدود إلى أن يتم ترتيب الاتفاق الذي اتفقنا عليه لإنفاذه وأن انسحاب جند جلالة الملك عبد العزيز يكون بكامل الصيانة والشرف من ابداء انسحابه إلى آخره، وأن كل حادث عدواني عليه في خلال تلك المدة يكون مضموناً من قبل جلالة الإمام يحيى.

لقد أحطت علماً بذلك ويسرني أن أعلن سموكم بقبولنا وموافقتنا لاشتراطكم وأنه سيكون مرعياً من جهتنا.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

[تعهد من الجانب اليمني بتسليم الأدارسة إلى السعودية]

بسم الله الرحمن الرحيم

تحريراً في 6 صفر سنة 1353

من عبد الله الوزير إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله، وبعد:

فأتشرف بأن أثبت هنا إلحاقاً بمعاهدة الطائف الموقع عليها من قبل سموكم نيابة عن جلالة الملك عبد العزيز والموقعة من قبلي نيابة عن جلالة الملك الإمام يحيى، وأتعهد باسم جلالة الإمام يحيى بما هو آت:

1- تسليم الأدارسة لجلالة الملك عبد العزيز، وقد عملت الترتيبات اللازمة لتسليم السيد الحسن والسيد عبد العزيز بن محمد الإدريسي وسيسلمون حالاً لرجال سمو الأمير فيصل في تهامة، أما السيد عبد الوهاب الإدريسي فنظراً لأنه لا يزال إلى الآن في بلاد العبادل فقد اتخذت الوسائل والوسائط لاستدعائه من تلك الأنحاء لتسليمه فإن لم يطع الأمر فأتعهد باسم جلالة الإمام يحيى بشأنه بما يأتي:

أ- أن تمتنع حكومة الإمام يحيى عن كل مساعدة مادية أو معنوية له، وأن تمنع عنه من بلادها أي معاضدة أو معاونة.

ب- إذا أرادت حكومة جلالة الملك عبد العزيز القبض عليه في الأراضي التي هو فيها فإن حكومة الإمام يحيى ستعمل من جهتها سائر أنواع التضييقات العسكرية التي تستطيعها لمنع فراره إلى أراضيها، وتتعهد أن تلقي القبض عليه وعلى كل شخص اشترك معه في حركته من أي جهة وقبيل من قبائل المملكة العربية السعودية، وأن تسلمهم لحكومة جلالة الملك عبد العزيز بغير شرط ولا قيد إذا دخلوا إلى جهات المملكة اليمانية، وأن تمنع فراره أو فرار أي شخص من الذين اشتركوا معه في عمله إلى الخارج إذا دخلوا إلى أراضي المملكة اليمانية.

2- أما من كان له تعلق بالأدارسة وحركتهم من الأشراف أو غيرهم فإذا أرادوا اللحاق بالإدريسي فلهم الأمان من قبل حكومة جلالة الملك عبد العزيز والصيانة والاحترام والإكرام اللائق بحقهم، وإذا لم يشاءوا ذلك فإنه يخرجون من بلاد جلالة الإمام يحيى ولا يسمح لهم بالبقاء فيها، وإذا عادوا إليها مرة أخرى فيطردون حالاً وينذرون بأنهم إذا عادوا إليها يسلمون إلى حكومة جلالة الملك عبد العزيز، فإن عادوا بعد طردهم فأتعهد باسم جلالة الإمام يحيى بتسليمهم إلى حكومة جلالة الملك عبد العزيز بغير قيد ولا شرط.

فأرجو أن تعتبروا هذا سموكم عهداً وثيقاً له منزلة المعاهدة المعقودة بيننا وبين سموكم بهذا اليوم، وعلى هذا عهد الله وميثاقه، وأرجو أن يكون هذا طبقاً للاتفاق الشفوي الذي اتفقنا عليه في هذا الشأن.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

(التوقيع) عبد الله بن أحمد الوزير

[شكر وتقدير من الجانب السعودي]

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر في 6 سنة 1353

من خالد بن عبد العزيز إلى حضرة صاحب السيادة الأخ السيد عبد الله بن أحمد الوزير المندوب المفوض من قبل جلالة الملك الإمام يحيى حفظه الله تعالى.

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فأتشرف بأن أعلمكم باستلامي كتاب سيادتكم بتاريخ اليوم بشأن ما تعهدتم به باسم جلالة الإمام يحيى بشأن الأدارسة واتباعهم، وأنا على ثقة بأن ما قد تعهدتم به سيكون تنفيذه بمقتضى الأمانة والوفاء المأمول في جلالة الإمام يحيى، ونتمنى أن يكون تنفيذ ذلك بأسرع مدة ممكنة.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

(التوقيع) خالد بن عبد العزيز السعود

رسالة من الجانب السعودي

بشأن حركة التنقل للمواطنين بين الدولتين

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر في 6 صفر سنة 1353

من خالد بن عبد العزيز إلى حضرة المكرم السيد عبد الله الوزير حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فبمناسبة توقيع معاهدة الطائف بين مملكتنا ومملكة اليمن أثبت هنا ما اتفقنا عليه بشأن تنقلات المتنقلين من رعايا المملكة العربية السعودية ورعايا المملكة اليمانية في البلادين ان التنقل في الوقت الحاضر يظل على ما كان عليه في السابق إلى أن يوضع بين البلادين اتفاق خاص بشأن الطريقة التي ترى الحكومتان متفقاً اتخاذها من أجل تنظيم الانتقال سواء للحج أو التجارة أو غيرها من الأغراض والمنافع، فأرجو أن أنال جوابكم بالموافقة على ما اتفقنا عليه بهذا الشأن.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

(التوقيع) خالد بن عبد العزيز السعود

[موافقة الجانب اليمني على الطلب السعودي]

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر في 6 صفر سنة 1353

من عبد الله الوزير إلى صاحب السمو الملكي الأمير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله، وبعد:

فقد تلقيت كتاب سموكم تاريخ 6 صفر بشأن تنقلات رعايا الفريقين بين البلادين وإنني على اتفاق مع سموكم في أن يكون الانتقال في الوقت الحاضر طبقاً للطريقة التي كان السير عليها من قبل إلى أن يوضع اتفاق خاص بشان تنظيم الانتقال في المستقبل، وأن ذلك سيكون مرعياً من جانب حكومتنا كما هو مرعي من جانب حكومتكم.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

(التوقيع) عبد الله بن احمد الوزير

[مصادقة الإمام يحيى على معاهدة الطائف وملحقاتها]

فبعد أن اطلعنا على هذه المعاهدة السالفة الذكر، وعلى عهد التحكيم والكتب التي ألحقت بها، وأمعنا النظر فيها، صدقناها وقبلناها وأقررناها جملة في مجموعها ومفردة في كل مادة وفقرة منها، كما إننا نصدقها ونبرمها ونتعهد ونعد وعداً ملوكياً صادقاً بأننا سنقوم - بحول الله - بما ورد فيها ونلاحظه بكمال الأمان والإخلاص، وبأننا لن نسمح بمشيئة الله بالإخلال بها بأي وجه كان طالما نحن قادرون على ذلك، وزيادة في تثبيت صحة كل ما ذكر فيها أمرنا بوضع خاتمنا على هذه الوثيقة ووقعناها بيدنا، والله خير الشاهدين.

حرر في اليوم السابع من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف وهذه أول اتفاقية ومعاهدة بيننا وبين حضرة أخينا جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن.

كتب هذا أمير المؤمنين يحيى بن محمد حميد الدين سامحهما الله تعالى.

المعاهدة اليمانية العراقية

بسم الله الرحمن الرحيم

رغبة في تأسيس علاقات صداقة ودية بين مملكتي اليمن والعراق تمهيداً لتنفيذ سعي وأمنية زعماء الأمة الإسلامية لتوحيد كلمة الأمة العربية.. قرر كل من صاحبي الجلالة ملك العراق فيصل الأول بن الملك الحسين وملك اليمن الإمام يحيى بن محمد حميد الدين إجراء معاهدة، عيَّنا مفوضين عنهما لعقدها وهما:

عن صاحب الجلالة ملك العراق.. صاحب السعادة طه باشا الهاشمي، وعن صاحب الجلالة ملك اليمن.. صاحب الفضيلة القاضي عبد الله العمري اللذان بعد أن اتفقا على وثائق تفويضهما اتفقا على ما يأتي:

المادة الأولى:

يعترف صاحب الجلالة ملك اليمن بالمملكة العراقية ويعترف صاحب الجلالة ملك العراق بالمملكة اليمنية.

المادة الثانية:

يسود سلم دائم وصداقة وطيدة بين المملكتين المتعاقدتين.

المادة الثالثة:

حررت هذه المعاهدة نسختين باللغة العربية وتصير نافذة من تاريخ تناولها بعد إبرامها من قبل الملكين المتعاقدين ويجري التبادل في المحل الذي يتفق عليه الفريقان.

حررت في صنعاء في 22 ذي الحجة سنة 1349 تسع وأربعين بعد الثلاثمائة وألف هجرية.

طه باشا   عبد الله بن حسين العمري

معاهدة صداقة بين دولة اليمن ودولة هولندا

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الجلالة ملك قطعة اليمن المستقلة وحاكمها المطلق الإمام يحيى بن الإمام محمد بن يحيى حميد الدين المعظم.

وحضرة صاحبة الجلالة المعظمة ملكة بلاد هولندا المستقلة وحاكمتها المطلقة ويلهلمين المبجلة.

رغبة منهما في تأسيس روابط الصداقة بين الدولتين وتوثيق عراها على قاعدة القوانين الدولية العامة قد قررا عقد معاهدة صداقة ولهذا الغرض عُيِّن:

من طرف جلالة ملك اليمن الإمام يحيى حضرة الكاتب الأول لعرش الدولة اليمنية صاحب السعادة القاضي محمد راغب بن رفيق.

ومن طرف جلالة ملكة هولانده حضرة مفوض جلالتها بجدة صاحب السعادة المسيو ك. ادريانه مندوبين مفوضين عنهما وقد اتفقا على المواد الآتية:

المادة الأولى:

يسود بين دولة اليمن ودولة هولندا وبين رعايا كلتا الدولتين سلام لا يمس وصداقة خالصة مطلقة.

المادة الثانية:

سيكون من كل من الفريقين الساميين المتعاهدين أثناء العلاقات السياسية والقنصلية بينهما في الوقت الذي سيقرران تعيينه وعند ذلك يتمتع الممثلون السياسيون والقنصليون من كل منهما في بلاد الدولة الأخرى بالمعاملة المقررة بمبادئ القانون الدولي العامة بشرط أن تكون هذه المعاملة متساوية.

المادة الثالثة:

كل من رعايا الفريقين الساميين المتعاقدين الذين يقصدون التجارة في بلاد الفريق الآخر يكونون تابعين للقوانين والأحكام المحلية ويتمتعون بنفس المعاملة التي

يتمتع بها رعايا الدولة الأكثر رعاية من كل الوجوه. وكذلك تعامل سفن كل من الفريقين المتعاهدين وشحناتها في موانئ الفريق الآخر بنفس المعاملة التي تتمتع بها سفن الدولة الأكثر رعاية وشحناتها من كل الوجوه.

المادة الرابعة:

حاصلات أرض كل من الفريقين المتعاهدين ومصنوعاتها تعامل في دخولها إلى بلاد الفريق الآخر فيما يتعلق بتعيين مقادير الرسوم والضرائب الكمركية وأخذها بنفس المعاملة التي تعامل بها حاصلات ومصنوعات الدولة الأكثر رعاية، وكذلك تأكيداً لهذا تعامل حاصلات الأرض والمصنوعات التي تخرج من بلاد أحد الفريقين إلى بلاد الفريق الآخر فيما يتعلق بتعيين مقادير الرسوم والضرائب الكمركية وأخذها بنفس المعاملة التي تعامل بها حاصلات الأرض والمصنوعات التي تخرج إلى بلاد الدولة الأكثر رعاية.

المادة الخامسة:

قد دونت هذه المعاهدة في نسختين أصليتين متساويتين باللغة العربية واللغة الهولندية، وإذا نشأت شكوك في تفسير مادة من المواد أو في تفسير قسم من أي مادة كانت فالطرفان يعتمدان النص العربي، ومن حيث إنها كانت في ملحقات مملكة هولندا في خارج أوربا[1] بعض قوانين وأحكام بلاد هولندا في أوربا قد اتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على أن تطبيق هذه المعاهدة فيما يخص دولة هولندا سيكون مقتصراً على بلاد مملكة هولندا الأوروباوية، وسيكون إبرامها وتبادل الوثائق بأقرب وقت وتصير نافذة المفعول بمجرد تبادل الوثائق المبرمة.

وقد اتفق الفريقان المتعاهدان على عقد هذه المعاهدة لمدة خمس سنوات اعتباراً من تاريخ تبادل الوثائق المبرمة، على إنه إذا أرد أحد الفريقين المتعاهدين إلغاء هذه المعاهدة بعد انقضاء مدتها يجب أن يشعر الفريق الآخر بمراده قبل انتهاء المدة بستة أشهر وإلا استمرت هذه المعاهدة ولا تلغى إلا بعد مضي ستة أشهر من حين إشعار أحد الفريقين للآخر بإرادته إلغاءها، وتبينا لهذا قد صار توقيع هذه المعاهدة من حضرتي مفوضي الفريقين المشار إليهما ووضعا أختامهما عليها.

---

(1) المراد بها المستعمرات الهولندية في جنوب شرق آسيا (أندونيسيا).

حرر بصنعاء اليمن لتاريخه 15 ذي القعدة سنة 1351 الموافق 12 مارت سنة 1933.

مندوب مفوض عن جلالة ملكة هولندا

محمد راغب بن رفيق　　　　　　　　كورنليس ادريانه

المعاهدة الإنكليزية اليمنية

معاهدة الصداقة والتعاون المتبادل

المقدمة

بما أن لجلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند من جهة ولجلالة ملك اليمن حضرة الإمام من الجهة الأخرى رغبة في الوصول إلى معاهدة على أساس الصداقة والتعاون لمنفعة الفريقين، قد قررا عقد هذه المعاهدة وعينا بصفة المندوبين المفوضين:

جلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند عن بريطانيا العظمى وايرلندا الشمالية، حضرة صاحب السعادة اللفتيننت كولونل برنارد راودون رايلي س.ى.إ.و.ب.إ. المحترم.

عن الهند كذلك حضرة صاحب السعادة اللفتيننت كولونول برنارد راودون رايلي س.ى.إ.و.ب.إ. المحترم.

جلالة ملك اليمن حضرة الأمام. حضرة صاحب السعادة القاضي محمد راغب بن رفيق حفظه الله.

اللذان بعد تبليغ أوراق تفويضهما وتحقيق صحتها على شكل حسن اتفقا على ما يأتي:

المادة الأولى:–

يعترف جلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند باستقلال جلالة ملك اليمن حضرة الأمام ومملكته استقلالا كاملاً مطلقاً في جميع الأمور مهما كان نوعها.

المادة الثانية:–

يسود السلم والصداقة بين الفريقين المتعاهدين الساميين اللذين يتعهدان بالمحافظة على حسن العلائق بينهما من كل الوجوه.

المادة الثالثة:-

يؤجل البت في مسألة الحدود الجنوبية اليمنية إلى أن تتم مفاوضات تجري بينهما قبل إنهاء مدة هذه المعاهدة بما يتراضى الفريقان المتعاهدان الساميان عليه بصورة ودية وباتفاق كامل بدون إحداث أي منازعة أو مخالفة.

وإلى أن تتم المفاوضات المشار إليها في الفقرة السالفة الذكر فالفريقان المتعاهدان الساميان يقبلان أن تبقى الحالة الحاضرة فيما يتعلق بالحدود في تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة، ويتعهد الفريقان المتعاهدان الساميان أن يمنعا بكل ما لديهما من الوسائل أي تعد من قواتهما في الحدود في شؤون الأهالي القاطنين في الجانب الآخر من الحدود المذكورة.

المادة الرابعة:-

سيعقد الفريقان المتعاهدان الساميان بعد العمل بالمعاهدة الحاضرة ما يلزم من المعاهدات لتنظيم الأمور التجارية والاقتصادية على أساس المبادئ الدولية العامة، مع التراضي والموافقة بينهما.

المادة الخامسة:

(1) رعايا كل من الفريقين المتعاهدين الساميين الذين يقصدون التجارة في بلاد الفريق الآخر يكونون تابعين للقوانين والأحكام المحلية ويتمتعون بنفس المعاملة التي يتمتع بها رعايا الدولة الأكثر رعاية.

(2) كذلك سفن كل من الفريقين المتعاهدين الساميين وشحناتها تتمتع في موانئ الفريق الآخر بنفس المعاملة التي تتمتع بها سفن الدولة الأكثر رعاية وشحناتها، ويعامل ركاب تلك السفن في موانئ بلاد الفريق الآخر بنفس ما يعامل به من كان في سفن الدولة الأكثر رعاية هنالك.

(3) "الغرض بهذه المادة يتعلق بجلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند":

أ- لفظة (بلاد) ينبغي أن يعد معناها مملكة بريطانيا العظمى المتحدة وايرلندا الشمالية والهند، وجميع مستعمرات جلالته والبلاد المحمية، وجميع البلاد المنتدب عليها من قبل حكومة جلالته في المملكة المتحدة.

ب- لفظة (رعايا) ينبغي أن يعد معناها جميع رعايا جلالته أينما سكنوا، وجميع أهالي البلاد التي تحت حماية جلالته، وكذلك جميع الشركات المؤسسة في أي بلد من بلاد جلالته تعتبر من رعايا جلالته.

لفظة (سفن) ينبغي أن بعد معناها جميع السفن التجارية المسجلة في أي بلد من بلدان الشعوب البريطانية.

المادة السادسة:-

هذه المعاهدة تكون أساساً لكل ما يكون الاتفاق عليه من المعاهدات المتتابعة بين الفريقين المتعاهدين الساميين حالا واستقبالا في معني تقوية الوداد والصداقة، ويتعهد الفريقان الساميان بعدم إعطاء المساعدة والمسامحة لأي حركة ضد الوداد والاتفاق القائم الصميم بينهما.

المادة السابعة:-

يصادق على هذه المعاهدة بأسرع وقت ممكن بعد التوقيع وتبادل صديق في صنعاء، ويعمل بها من تاريخ تبادل حجج التصديق، وفيما بعد تبقى لمدة أربعين سنة.

وتقريراً لذلك وقع المندوبان المفوضان المشار إليهما إمضاءهما على المعاهدة الحاضرة ووضعا ختومهما عليها، وقد نظمت هذه المعاهدة نسختين باللغتين الإنكليزية والعربية، وإذا نشأت شكوك في تفسير شيء من هذه المواد فالفريقان المتعاهدان يعتمدان النص العربي، وحررت في صنعاء اليمن في اليوم 26 من شهر شوال سنة 1352 للهجرة يقابله يوم 11 فبراير سنة 1934 للميلاد.

محمد راغب بن رفيق — برنارد راودون رايلي

إيطاليا تبيع اليمن أسلحة عتيقة

لم تف إيطاليا بما جاء في نص المعاهدة التي عقدتها مع جلالة الإمام، وهذا دائماً شأن تعاقد الضعيف مع القوي، ومثالا على ذلك: أن جلالة الإمام يحيى طلب منها بنية سليمة صافية شراء بعض الطيارات الحديثة والمدافع الضخمة والرشاشات والبنادق إلى غير ذلك من المعدات الحربية والعتاد الحربي، فما كان من الدولة الغيورة على مصالح حليفها إلا أن جلبت له طيارات قديمة وغير قابلة للإستعمال، ولما طار بها أحد الطيارين في صنعاء يصحبه واحد من السادة رجال الإمام سقطت الطيارة فوراً وقتل السيد والسائق، وكان لهذه الحادثة أسوأ وقع في نفوس اليمانيين وجعلتهم يتخوفون من الطيران والطائرات فلا يقدمون على المجازفة بجلب طيارات، ومنع جلالة الإمام بعثة الطلبة اليمانيين التي ذهبت إلى إيطاليا لدرس فن الطيران والتي عادت إلى اليمن أثناء العطلة المدرسية من العودة إلى إيطاليا ثانية، ويغلب أن الطليان تعمدوا بيع طائرات قديمة إلى اليمن، أولاً: حتى لا تستفيد حكومة اليمن منها شيئاً، وثانياً: حتى لا تجازف هذه الحكومة الفتية في المستقبل بشراء الطائرات، إذ من البديهي أن إيطاليا الطامعة في هذا الجزء من البلاد العربية لا ترغب أن توجد فيه حكومة قوية لديها معدات حربية صالحة للنزال والقتال، كما وأن البنادق التي باعها الطليان لليمن قديمة من نوع (شتير) وقد غنمت حكومة إيطاليا هذه البنادق من النمسا أثناء الحرب العالمية [الأولى]، وهي غير صالحة للاستعمال فنياً، وكان من الواجب إتلافها، وقد فحصت بنفسي عدة بنادق منها كان يحملها الجنود وأطلقت بها طلقات عديدة فوجدتها عديمة النفع لا تصيب الهدف لأنها مستعملة كثيراً، وقد أضاع داخلها شكله الحلزوني لكثرة الاستعمال، وفوهتها توسعت من هذا الاستعمال، وهي في حد ذاتها من الأنواع الرديئة ولو كانت جديدة.

وقد باعت إيطاليا أيضاً معملاً ميكانيكيا (اتلير) قديماً، كانت جلبته إلى مصوع حين احتلالها لها إلى جلالة الإمام بثمن باهظ جداً، ونقل إلى صنعاء وركبه مهندسون إيطاليون وأخذوا يعملون فيه على حساب جلالة الإمام، أنفقوا على

تصليحة وترميمه عشرات الألوف من الريالات ذهبت جميعها جزافاً، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد أرسل الإيطاليون عملاً بهذه المعاهدة بعثة من الاخصائيين الفنيين الميكانيكيين والمهندسين إلى اليمن، ولدى استعلامي عن أعضاء هذه البعثة من الكثيرين، شكوا إلي منهم شكوى مريرة، وقالوا أنهم لا يعرفون شيئاً، وأنهم يسيئون معاملة الوطنيين، وقد شاهدت بعضهم وضعوا مضخة ميكانيكية على غيل بالقرب من صنعاء ليرفعوا ماء هذا الغيل من نبعه إلى مجراه الذي يعلو عن النبع أيام القيظ لقلة الماء، ولشدة جهلهم رفعوا الماء إلى علو خمسة أمتار وكان بوسعهم أن يرفعوه متراً واحداً ويصبوه في مجرى الماء وبذلك يوفرون عملاً ووقوداً، وقد لفتُّ نظر واحد من اليمانيين القائمين على سير هذا العمل إلى هذا الأمر، فأجابني أن الحق بيدك وقد لفتَ نظر المهندس الطلياني غير واحد منا إلى هذه العملية الخاسرة، فكان نصيبنا التوبيخ.

رد الزيارة إلى القاضي محمد راغب

قمت في أحد أيام الجمعة مبكراً وقصدت إلى دار القاضي محمد راغب، وزير خارجية الإمام، رداً لزيارته والتحدث إليه عن بعض الأمور، واخترت يوم الجمعة لأن حكومة اليمن تعطل جميع دوائرها في هذا اليوم، ويقطن حضرة القاضي محمد راغب في أحد دور حي بئر العزب – الذي سبق لي أن وصفته وصفاً مطولاً– فاستقبلني حضرته استقبالا جميلاً، ورحب بي بلطفه التركي المشهور وأدبه الجم، وأدخلني إلى صالة استقباله وهي في الدور الثاني، وداره جميلة ونظيفة ومرتبة ترتيباً حسناً على طراز دور دمشق القديمة، فيها صالون فسيح وإلى جانبه عدة غرف كبيرة وصغيرة، وقدم لي قهوة تركية حلوة مصنوعة من لب اللبن لا من قشرة كما هي العادة في اليمن، فوجدت فيها لذة عظيمة، ورأيت في زاوية من زوايا صالون الاستقبال عودا، فقلت: الحمد لله يا حضرة الوزير! هذا أول عود لا بل أول آلة موسيقية أشاهدها في اليمن.

فقال: نعم لا يوجد باليمن آلات موسيقية غير موسيقى الجيش، لأن جلالة الإمام قد منع ذلك، وهو يحذو في عمله هذا حذوا السلف الصالح ويكره جميع أنواع الآلات الموسيقية خلا الموسيقى العسكرية فهو ولوع بها كثيراً لأنها تنشط الجند وتخلق

فيهم روح النظام والحماس والشجاعة، ولذلك فقد سمح جلالته بها دون غيرها من أنواع الموسيقات.

قلت: يوجد لدي حاكي أي (فونوغراف) وكنت أرغب أن أسمع جلالة الإمام مارش الجزائر ومارش جلالة الملك فؤاد ملك مصر.

فقال: لا تطلب ذلك من الإمام لأنه سيرفض إجابة طلبك بدون شك، وهذا الذي تراه عندي هو عود قديم كان جلبه ابني معه من الخارج وعندما يعزف عليه يسجن نفسه في غرفة بعيدة عن الطريق ويغلق الأبواب والنوافذ حتى لا يسمعه أحد.

تباحثت مع فضيلة القاضي محمد راغب أبحاثاً كثيرة وسألته أسئلة كثيرة وخاصة عن تجارة اليمن مع البلاد العربية المجاورة كنجد والحجاز وحضرموت. فقال حضرته: إن التجارة في الماضي مع هذه البلاد كانت أوسع مما هي عليه اليوم، وكانت القوافل تروح وتغدو بصورة منتظمة.

فقلت: وهل يوجد طرقات تسير عليها هذه القوافل؟ وهل هي أمينة من السلب والنهب؟

فأجاب: بأن الأمن مستتب تماماً في اليمن، وهو كذلك بالحجاز ونجد، والقوافل أمينة على حياتها وبضائعها، وأما الطرقات فليست معبدة ولكنها صالحة للسير.

فقلت: اذكروا لي طريق نجد؟

فقال: من صنعاء إلى العمشية -صعدة- نجران- الرياض-القصيم-نجد فالكويت.

فقلت: وطريق الحجاز؟

فقال: إن طريق الحجاز هو طريق الحج وهذا معروف منذ القديم، وكان لا يزال الحج يسير عليه وهو: صنعاء- العمشية- صعدة - قحطان- أبها- زهران[1]- غامد- الطائف- مكة.

فقلت: وطريق حضرموت؟

---

(1) في الأصل: زهوان، بالواو، والصواب ما أثبتناه.

فقال: صنعاء وعلان– معبر– ذمار– يريم– منزل– سمارة–المخادر–إب–ماوية–دريجة– لحج–حضرموت أو عدن.

وقد ذكر لي القاضي محمد راغب أنه كان أيام الحرب العظمة في زمن الدولة العثمانية متصرفاً على تعز فمنع إرسال الحبوب والغلال والخضر إلى عدن فكادت تقع فيها مجاعة وارتفعت أثمان الحاجيات ارتفاعاً باهظاً، وهدد الإنكليز في عدن أنهم إذا تجاوزوا على حدود اليمن فإنه سيحول مجرى الماء الذي يأتي من الحجرية في اليمن ويذهب إلى لحج "إحدى المحميات التسع" فالشيخ عثمان عن مجراه الأصلي إلى البحر، ولقاء هذا التهديد لم يتجاوز الإنكليز حدود عدن، بل بالعكس هاجم الترك المحميات التسع وكادوا يحتلون عدن لولا وجود عدة مدرعات حربية أصلتهم بنارها الحامية فأكرهتهم على التقهقر عن عدن. وهذا ما حدا بالبريطانيين أن يوسعوا حدود محمياتهم ويستميلوا أمراء هذه المحميات بالمال والعطايا.

مقتل الحجاج اليمانيين سنة 1340 هجرية

وحدثني القاضي محمد راغب عن مقتل الحجاج اليمانيين في سنة 1340 هجرية في مكان يقال له (التنومة) واقع قبل الطائف بين زهران وغامد، وحدثني أيضاً عن هذه الفاجعة كثير من أهل اليمن بينهم بعض أقارب الحجاج الذين قتلوا في هذه المجزرة، وكان الجميع متفقين في رواية القصة، ولكنهم كانوا مختلفين من جهة عدد الذين قتلوا وعدد الذين سلموا، وجميعهم كانوا يسردونها علي وعلامات التأثر العميق والحقد الشديد ظاهرة على أسارير وجوههم، والبعض كانوا يزعمون أن عدد الحجاج اليمانيين من نساء ورجال كان نحو ثمانية آلاف، عدا عن ألفي حضرمي وغيرهم من البلاد القريبة من اليمن، وبعضهم زعم أن الجميع كانوا ستة آلاف، وغيرهم قال: لا بل كانوا خمسة آلاف، وأما الذين سلموا فقد قيل أنهم سبعة أو خمسة أشخاص فقط، والله أعلم، وهذه الحادثة تتلخص فيما يلي:

كانت نار الحرب في سنة 1340 هجرية متقدة بين المغفور له جلالة الملك حسين ملك الحجاز وجلالة الملك عبد العزيز ملك نجد، وصادف في تلك السنة حسب العادة ذهاب الحجاج اليمانيين عن طريق البر لتأدية هذه الفريضة الدينية، وكان الحجاج في جميع الروايات التي سمعتها عزلاً من السلاح الحربي، وهم آمنون لا

يفكرون في اعتداء أحد عليهم، ولا يرغبون في قتال أحد، ولما وصلوا إلى التنومة اعترضهم كمين من الإخوان أصحاب الملك ابن سعود وأصلوهم ناراً حامية فلم يسلم منهم إلا سبعة أو خمسة أشخاص كانوا متأخرين قليلاً عن رفقائهم، وسلب الأخوان جميع أمتعة هؤلاء الناس وتركوهم ممددين على الثرى وعادوا بغنائمهم فائزين وبانتصارهم فرحين.

ولدى بحثي الدقيق في اليمن والحجاز ونجد ومصر مع أناس مسؤولين، أي موظفين في هذه الحكومات وواقفين على بواطن الأمور، وأناس غير مسؤولين ولكنهم يتتبعون حوادث البلاد العربية باهتمام كثير عن الأسباب الحقيقية التي حدت بالإخوان الوهابيين لاغتيال هذا العدد العظيم من الناس وهم ذاهبون إلى بيت الله الحرام، تحققت أن لبعض الأجانب ضلعاً في هذه المؤامرة، وقد كانوا يتوخون منها إثارة الفتنة بين الملك عبد العزيز والإمام يحيى وامتداد نار الحرب من الحجاز إلى اليمن. وقالوا لجلالة الملك عبد العزيز بأساليب شتى وعن طرق عديدة وبواسطة أناس كثيرين بأن جلالة الملك حسين - رحمه الله - استنجد بالإمام يحيى ليقاتل معه، فاعتذر الإمام عن الدخول في الحرب بصورة رسمية علنية، ولكنه أوفد هذه الخمسة آلاف أو السبعة آلاف نسمة بصورة حجاج لكي يتطوعوا في الجيش الحجازي ويقاتلوا ابن السعود تحت راية الحسين. ويظهر أن جلالة الملك عبد العزيز قد أخذ بهذه الدعاية الباطلة وأمر جنده من الإخوان بأن يبيدوا هؤلاء الناس عن بكرة أبيهم، وإني على مثل اليقين أن جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله ما كان ليقدم على هذا الأمر لولا خديعة أعداء الإسلام والمسلمين له، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وكان من نتائج مقتل هؤلاء الحجاج ان توترت العلاقات بين صنعاء والرياض، وامتنع اليمانيون من تأدية فريضة الحج، وحصل أخذ ورد بين جلالة الملك عبد العزيز وجلالة الإمام يحيى وذهبت الوفود السعودية إلى صنعاء وزارت الوفود اليمانية الرياض ومكة لحل هذه المشكلة وغيرها من المشاكل كتسوية بعض الحدود في جهات عسير ونجران، ووافق جلالة الملك عبد العزيز على دفع دية الحجاج المقتولين، وبقيت هذه الأمور معلقة إلى أن انفجرت الحرب المعلومة بين العاهلين العظيمين، وكادت - لولا تدخل المسلمين في جميع أقطار المعمورة بينهما وتوسلهم إليهما أن يكفوا عن الحرب - تمتد إلى جميع أطراف البلاد اليمانية والحجازية النجدية، ولاشك أنها كانت تطول جداً ولا يحصد منها الفريقان المتنازعان سوى إراقة الدماء، فكلاهما قوي، وكلاهما

مستعد للحرب، ولكننا نحمد الله سبحانه وتعالى الذي أنزل التسامح على قلبي هذين الجبارين المسلمين اللذين أسسا ملكهما بجدهما وكدهما، ونرجو من الله أن يطيل في بقائهما ليتمما الرسالة التي تحملاها، ويقوما بخدمة شعبيهما الكريمين اللذين هما أمانة في عنقهما، وعليهما وحدهما تتوقف ترقية شعبيهما ونجاح العرب، ولاشك أن المعاهدة التي عقدت بينهما هي قذى في أعين الخصوم والطامعين.

وإني أذكر للتاريخ — وللتاريخ فقط- بأن جميع ما أشاعته الجرائد من انكسار جيوش جلالة الإمام هو عار عن الصحة، وبالعكس فقد انتصر جنود جلالته تحت قيادة ولي عهده صاحب السمو أحمد سيف الإسلام على جيوش صاحب السمو الأمير سعود في معركة جبل باقم المشهورة في حدود نجران، وكانت هذه المعركة السبب الحقيقي في توقف القتال وعقد الهدنة ثم المعاهدة، وإني لا أرغب في الدخول في تفصيلات وافية في الحرب النجدية اليمنية لأن ذلك ليس في مصلحة أحد، وأنا من أحرص الناس على تقريب وجهتي نظر العاهلين العظيمين لما في ذلك من الخير لجميع المسلمين.

قنصل أمريكا

اجتمعت بالمستر جايمس لودربارك قنصل أمريكا في عدن عند ما زار اليمن ليطلع على أحواله وليقابل جلالة الإمام وأنجاله، وسألته ماذا تم في المعاهدة اليمانية الأمريكية؟ فقال: إنه لم يتم شيء بعد، وهذه المعاهدة هي التي كان قد اقترح عقدها المستر شارلس كرين، الأميركي المعروف، وتتلخص في عدة مواد أهمها المواد الآتية:

1- تعترف حكومة الجماهير المتفقة الأمريكية المعظمة بالاستقلال الكامل المطلق لجلالة ملك اليمن الإمام يحيى ولحكومته، فلا يكون لحكومة الجماهير الأمريكية المشار إليها أي تدخل في الأمور الإدارية والسياسية في مملكة الإمام.

2- بعقد هذه المعاهدة تؤسس المناسبات الودادية ويحصل تسهيل المعاملات التجارية بين المملكتين.

3- تعتبر هذه المعاهدة من تاريخ إمضائها من جانب الحكومتين، فبعد إمضائها وتعاطيها يكون كل من تبعة الحكومتين مأذوناً بالسير والسفر والتجارة في

المملكتين، على أن يكون تابعاً في كل الأمور والخصوصات للأصول والمعاملات والنظامات المرعية في المملكة التي يكون فيها.

4- هذه المعاهدة تعتبر لمدة عشر سنين، على أن تكون قابلة للتجديد والتوسيع بتراضي الطرفين، وقد حررت في نسختين عربية وإنكليزية، وعند اللزوم والاجتماع تكون حكومة جلالة الإمام مسؤولة بما في اللغة العربية فقط.

وعلمت فيما بعد أن الحكومة الأميركية لم توافق على عقد هذه المعاهدة لأن تجارة أمريكا في اليمن محدودة جداً وليس لها مصالح اقتصادية أو سواها لتهتم بعقد هذه المعاهدة، ولذلك رفضت عقدها بصورة نهائية وبلغت ذلك إلى قنصلها في عدن.

ويظهر في بنود هذه المعاهدة وفي بنود المعاهدة الإيطالية اليمانية وغيرهما من المعاهدات حرص جلالة الإمام على عدم منح الأجانب الذين يأتون اليمن امتيازاً ما، ومعاملتهم طبقاً لأحكام اليمن وقوانينه، وعلى اعتبار الحكومتين المتعاهدتين متساويتين في الحقوق.

وقد علمت بصورة خاصة أن جلالة الإمام ما كان ليعقد معاهدة مع إيطاليا لولا حرصه الشديد على جلب سلاح وعتاد من إيطاليا، ولم توافق إيطاليا بادئ الأمر على أن تجلب له ما يطلبه من السلاح إلا إذا عقد معها معاهدة، ولذلك اضطر جلالته إلى عقد المعاهدة المار ذكرها، وعلاوة على ذلك منح الحكومة الإيطالية امتيازاً باحتكار بيع زيت الكاز في اليمن لمدة خمس سنوات، ولكن لما مضت الخمس سنوات أبى جلالته أن يمدد مدة هذه الاتفاقية وأصبحت ملغاة، وعادت تجارة الكاز فصارت حرة وارتفع عنها الحصر، وأراد الكثيرون من إنكليز وألمان وروس أن يحصلوا على اتفاقية جديدة لحصر الكاز فرفض جلالة الإمام جميع طلباتهم لأنه شعر بضرر الاحتكار وضرر الأجانب.

وعلى ذكر الأجانب: أقول إنه لا يوجد باليمن أجانب متوطنون ولكن يوجد بعض الأجانب كوكلاء لشركات تجارية أو كأطباء وعمال ميكانيكيين مستخدمين بموجب اتفاقيات خاصة مع حكومة جلالة الإمام، ولا يتمتع هؤلاء الأجانب بحقوق أو امتيازات خاصة، بل جميعهم يخضعون لقانون البلاد، وإذا ارتكب أحدهم جرماً

يخل بالنظام فإنه يحاكم كغيره من أهل سكان البلاد الأصليين أمام المحاكم الوطنية، أي الشرعية، ولا يوجد قناصل ولا ممثلون سياسيون للدول الأجنبية.

وصادف مرة أن ضرب أحد الرعايا الطليان في صنعاء غلاماً صغيراً، فألقى القبض عليه وسيق إلى المحكمة الشرعية فحكمت عليه بالسجن ثمانية أيام وبالطرد من البلاد، كما أنها حكمت على أحد معاوني الدكتور الطلياني في صنعاء؛ الحبشي الأصل؛ والإيطالي التابعية؛ بالجلد والطرد من البلاد لأنه شوهد في حالة السكر الشديد وهو مسلم! ورست مؤخراً الباخرة اليونانية "يوبنداس ولمان" في مياه الحديدة تنقل كازاً لبعض التجار اليمانيين، وبينما كانت المراكب الشراعية تنقل الكاز منها للحديدة غرق ثلاثة من البحارة الوطنيين لاشتداد العاصفة يومئذ، وبينما كان العمال ينقلون هذه المشحونات سقط صندوق على أحدهم فمات لفوره وجرح أربعة غيره، فأمر عامل الحديدة بتوقيف العمل ومنع المراكب الشراعية من الدنو من الباخرة، وباشر التحقيق عن هذه الفاجعة، ولما ثبت لديه أن التبعة تقع على عاتق قبطان الباخرة لإهماله، حكم على الباخرة بتأدية غرامة ألف ومائة ريال دية القتيل، وتعويض للجرحى، ونفذ الحكم حالاً وتسلم أهل القتيل والجرحى نصيبهم من المال شاكرين عدل العامل وسرعة تنفيذ الحكم.

حديث مع وزير داخلية اليمن

مهمة وفد الملك ابن السعود في صنعاء

زارنا ذات يوم القاضي عبد الله العمري وزير داخلية اليمن ورئيس ديوان جلالة الإمام، وهو نحيف البنية متوسط الطول أبيض اللون جميل الصورة، وكان يلبس قنبازا حريريا من صنع بلادنا، ويتمنطق بجنبية يمانية مذهبة، وقد طلبت إليه أن يسمح لي بأخذ صورته، فرفض، وقال: إنه يكره أن يرتسم، ولم يسمح لأحد بأخذ صورته، وليس ذلك بعجيب فهو يحذو حذو إمامه ومليكه في كل شيء، ويعول جلالة الإمام عليه كثيرا ويأخذ رأيه في جميع شؤون الدولة، وعندما يريد جلالته أن يدفع الأجانب الذين يزورون اليمن بطلبات مختلفة بالتي هي أحسن يرسل إليهم القاضي عبد الله العمري فيتخلص من طلباتهم بأسلوب مرن لطيف دون أن يدعهم يشعرون برد الإمام لطلباتهم، وقد دار بيننا وبينه حديث بسيط عن جو اليمن وأشجاره

وزراعته وعادات أهله وأخلاقهم وطبائعهم، ثم تكلمنا عن السياسية الخارجية وأحوال الممالك المعظمة، وكان حضرته متحفظا كثيرا في حديثه لأنه كان يجهلنا ويجهل الدافع الحقيقي الذي حدا بنا إلى زيارة اليمن، فلم نلمه على تحفظاته معنا بل بالعكس أكبرناه وأجللناه وأنزلناه منزلا رفيعا في نفوسنا. وللقاضي عبد الله حساد كثيرون في اليمن وذلك لاعتماد جلالته الإمام عليه ولتقريبه إياه، وهو عالم فاضل شاعر ناثر أديب فقيه يتحلى بجميع صفات الرجولة، ومن أبرز هذه الصفات فيه الكرم والتسامح والإقدام والشجاعة.

بعد مضي عدة أيام على هذه الزيارة زرته بدوري في داره ردا لزيارته فوجدته جالساً في مكتبه الخاص مع القاضي أحمد الآنسي فرحب بي حضرته أجمل ترحيب، وأشار إلى القاضي أحمد الآنسي إشارة خفيفة معنوية فاستأذن القاضي أحمد الآنسي بالانصراف وودعنا وانصرف، فخلوت به خلوة طويلة تحادثنا فيها أحاديث مطولة عن شؤون كثيرة، تذكر ولا تكتب، فزاد احترامنا له وإجلالنا إياه لما وجدناه عليه من طيب الأخلاق وحسن النية وبعد النظر، ومن البديهي أنه بعد زيارته لنا بحث كثيراً عنا بوسائط عديدة فاطمأن إلينا وكشف لنا الغطاء عن أمور كنا نجهلها فأكبرنا فيه الإخلاص لمليكه وبلاده وأمته، ولمسنا بأيدينا وشعرنا بجميع حواسنا بحديثنا مع هذا الرجل الفذ بأن الذكاء الطبيعي يفوق العلم والسياسة، وبالرغم من أن هذا الرجل لم يخرج خارج اليمن ولا درس في مدارس راقية عالية فن السياسة وغيرها من الفنون والعلوم الاجتماعية فإنه يضارع أعظم رجالات السياسة في الشرق في هذا المضمار، وله جولات في السياسة وفي العلوم الاجتماعية لم نشاهدها إلا في عدد يسير من رجالات الشرق البارزين.

سألته عن الإمام وعن كيفية الحكم في اليمن، فقال:

إن الإمام يحذو في جميع أعماله حذو الأئمة السابقين والخلفاء الراشدين، وحكمه إسلامي بحت يستمد قوته ونظامه من القرآن الكريم والحديث الشريف.

فسألته عن الإمامة وشروطها، فقال:

إن الإمامة انتخابية وشروطها كثيرة، أهما أن يكون الإمام سيداً علويا مجتهداً كريما سليم العقل صحيح الجسم شجاعاً مقداما الخ.. الخ.

وسألته عن وفد جلالة الملك ابن سعود الذي كان حينئذ في صنعاء وعن مهمته، فقال:

إن هذا الوفد جاء للمخابرة والمفاوضة في الأمور المعلقة بين العاهلين ولم يتم شيء نهائي بينه وبين حكومة الإمام فلا يزال الجميع يدرسون هذه الأمور بعين التساهل والتسامح، وقال: إنه يرجو أن يعود هذا الوفد إلى الرياض حاملا بشرى الاتفاق على الأمور المختلف عليها.

وسألته عن المعاهدات التي عقدت مع الدول الأجنبية وجلالة الإمام، فقال:

إن جلالة الإمام يرغب رغبة أكيدة بأن تكون علاقاته مع الدول الأجنبية علاقات ودّ وصداقة، وكثير من هذه الدول ترسل رسلا ووفودا خاصة إلى اليمن لتعقد مع جلالة الإمام معاهدات تجارية، ومن البديهي والطبيعي ان يقبل الإمام المفاوضة مع هذه الوفود، وإذا تم الاتفاق بينه وبينها حسب رغبته ومشيئته عقد هذه المعاهدات والعكس بالعكس.

ودّعت القاضي عبد الله بعد هذا الحديث، وخرجت من مكتبه فوجدت إلى جانب مكتبه مكتباً خاصاً بالكتبة والموظفين وقد جلسوا إلى الأرض وكان أمامهم أوراق كثيرة ومخابرات عديدة أخالها تتعلق بوزارة الداخلية لأن القاضي عبد الله هو وزير الداخلية كما ذكرت آنفاً، وقد أوجد لنفسه مكتباً خاصاً في داره لإدارة هذه الوزارة، وهذا المكتب مرتب أحسن ترتيب وأعماله منظمة كل الانتظام.

ساعة مع سيوف الإسلام أولاد الإمام

زارني ذات يوم المدعو علي بن حسين العجمي وهو مربي أولاد الإمام، وبعد التحية والاستفسار عن صحتنا وأحوالنا إلى غير ذلك من الأمور المألوفة عند التعارف، قال: إن أولاد الإمام يريدون أن يقابلوني. فقلت له: على الرحب والسعة، فليتفضلوا لمقابلتي في أي وقت يريدون.

فقال: كلا، هذا ليس بإمكانهم لأنه لا يسمح لهم أن يخرجوا من المكتب "أي المدرسة" إلا في أوقات خاصة وظروف خاصة.

فقلت: إذا كيف السبيل إلى مقابلتهم؟

فقال: إذا شئت أن تتفضل معي فأنا أقودك إليهم.

فقلت: أليس من الواجب أن أتحصل على إذن من جلالة الإمام قبل هذه المقابلة؟

فقال: كلا! لا بأس من المقابلة، فأنت لست غريبا عنا، بل أنت عربي مثلنا ومن ديننا ويمسح لك أن تقابل جميع الناس وأن تطلع على كل شيء.

فقلت: هيا بنا فلنذهب إلى مقابلة أولاد الإمام! فسار أمامي وقادني إلى المدرسة العلمية المتوكلية وصعدت وإياه إلى غرفة في الدور الثاني خصصت لأولاد الإمام فوجدتهم جلوسا على الأرض وحولهم كتب خطية كثيرة، فحييتهم بقولي:

السلام عليكم، فأجابوني: وعليكم السلام، تفضلوا واجلسوا، فجلست بينهم على الأرض، وأخذوا يتحدثون إلي أحاديث مختلفة ويسألونني أسئلة كثيرة بعضها يتعلق بمصر والأزهر وبعضها يتعلق بسورية وثورتها وسبب فشلها، وبعضها عن تركيا ومصطفى كمال، إلى غير ذلك من الأسئلة والشؤون، وكانوا يتكلمون معي بلغة عربية فصيحة، فكان التفاهم بيننا سهلا بخلاف التفاهم مع عامة الشعب، وسألني أحدهم عن الآبار والزراعة والقطن وأنواعه وأهم البلاد التي تهتم بزراعته خلاف مصر. وجميع أسئلتهم كانت تدل على معرفتهم لأمور كثيرة واطلاعهم على سير الحوادث في هذا العالم واهتمامهم بها كل الاهتمام، وسألني أحدهم عن التصوير وكيفية أخذ الصور وإخراجها وطبعها، وأراني آلة من صنع شركة كوداك، وأخالها الآلة الوحيدة الموجودة في اليمن لأن اليمانيين لا يهتمون بمثل هذه الشؤون التي يعدونها من الكماليات المكروهة، وسألوني غير ذلك أسئلة كثيرة، فكنت أجيبهم عليها أجوبة مقتضبة فلا يكتفوا بها، بل كانوا يستزيدونني في الإيضاحات، فسررت جدا من هذه المقابلة ومن التعرف إلى أولاد الإمام ومشاهدتهم في مكتبهم، وعندما ودعتهم وانصرفت سألت مربيهم على العجمي عن كيفية معيشتهم؟ فقال لي:

إن جلالة الإمام قد وضعهم في المدرسة العلمية المتوكلية لكي يختلطوا مع أولاد الشعب ويتربوا تربية شعبية، أي ديموقراطية، كما نقول نحن، وبديهي أن فوائد التربية الشعبية عظيمة جدا لأناس ستكون مقدرات خمسة ملايين من البشر في أيديهم، فضروري والحالة هذه أن يقفوا على عادات بلادهم وشعبهم ويختلطوا مع

أبناء الشعب ليقفوا على عقليته وميوله، فأجبته: لاشك أن الإمام مصيب في هذا العمل، وسألته بدوري أسئلة كثيرة عنهم هذه أهمها:

س- كم عدد أولاد الإمام؟

ج- للإمام خمسة عشر ولدا.

س- ما هي أسماؤهم؟

ج- ولي العهد أحمد، ثم محمد رحمه الله، فالحسن، والحسين، وعلي، والقاسم، وعبد الله، والمطهر، وعباس، وإسماعيل، وإبراهيم، ويحيى، ومحسن، وشرف الدين، ويوسف.

س- على من يطلق لقب سيف الإسلام؟

ج- يقال لجميع أولاد الإمام سيوف الإسلام لا فرق بين الواحد والآخر.

س- هل يسمح لهم بالخروج من المكتب والاختلاط بالناس؟

ج- نعم يسمح لهم في أوقات الفراغ أن يذهبوا حيث أرادوا ويختلطوا بالشعب، ولبعضهم ولع في ركوب الخيل، فإذا ما وجدوا فرصة سانحة فإنهم يخرجون على خيولهم ويذهبون إلى متنزهات صنعاء كالروضة والوادي وغيرهما من الأمكنة الجميلة، ولبعضهم ولع بركوب العجلات أي البسكليتات العادية والنارية، ففي وقت فراغهم يخرجون عليها، ولبعضهم ولع بركوب الطيارات، وقد طاروا مراراً مع الطيارين الألمان فوق صنعاء وجوارها.

س- هل زار ولي العهد البلاد الأجنبية؟

ج- كلا! ولي العهد لم يخرج خارج اليمن ولا زار البلاد الأجنبية، ولكن سيف الإسلام محمد -رحمه الله- النجل الثاني للإمام ذهب إلى مصر وإيطاليا وغيرهما من البلاد الأوروبية، وقد اصطحب معه وفداً كبيراً مؤلفاً من بعض السادة وزاروا روما وقابلوا جلالة ملك إيطاليا وزعيمها الكبير السنيور موسوليني وعادوا مدهوشين من هذه الزيارة ومما شاهدوه من المعامل والفبارك[1] وخاصة معامل الطيارات والمطارات، وقد بذل محمد سيف الإسلام جهده عقيب عودته من إيطاليا بإقناع والده بوجوب

(1) الفبارك، فرنسية (Fabriqe): مصانع.

إرسال بعثة من التلامذة اليمانيين لتعلم الطيران في إيطاليا فوافق صاحب الجلالة على هذه الفكرة وأرسل بعثة مؤلفة من بضعة عشر طالباً إلى روما ولا تزال هناك إلى هذا اليوم، أي إلى اليوم الذي جرى هذا الحديث فيه بيني وبين علي العجمي. وجلب جلالة الإمام عدة طيارات من إيطاليا وألمانيا، ولكن مع الأسف الشديد فإن الطيارات الإيطالية جلبت إلى الحديدة مشحونة في صناديق خشبية ومفككة أجزاؤها بعضها عن بعض، وعوضاً من أن يركبوها في الحديدة ويطيروا بها رأساً إلى صنعاء، حملوها على الحيوانات وأعناق الرجال وقطعوا بها المراحل الوعرة بين الحديدة وصنعاء على هذه الصورة فتحطم معظمها، ولا يزال بعضها إلى يومنا هذا موجود في مطار صنعاء ولكنها غير قابلة الاستعمال، وأما الألمان فقد جلبوا طائرتين وهما جيدتان للغاية وقد طار بهما الطيارون الألمان مراراً بين الحديدة وصنعاء، وهم دوماً يطيرون فوق صنعاء وحواليها ويركبون معهم أولاد الإمام وغيرهم من الناس.

عدت من زيارة أولاد الإمام وأنا مدهوش من منظرهم وجلوسهم على الأرض وانكبابهم على الكتب الخطية يطالعون ما في بطونها من علوم وفنون، وقلت في نفسي: إن إرسال جلالة الإمام أولاده سيوف الإسلام إلى المدرسة المتوكلية جميل جدا ولكنه ليس كافياً، فهذا العصر أصبح عصر مزاحمة شديدة وباتت الدنيا الواسعة أمام فتح الطيران كرة صغيرة كالكرة التي يلهو بها الأطفال، وأصبح الجنس البشري مرتبطا بعضه ببعض ارتباطاً وثيقاً، فالأزمة الاقتصادية في أميركا مثلا تؤثر في الحالة الاقتصادية بفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا، والعكس بالعكس، ولذلك صار من الواجب على ملوك العرب وأمرائهم أن يفكروا في هذه الأمور وأن يديروا وجوههم شطر الغرب فيرسلوا بعثات من أولادهم ورعاياهم إلى البلاد الغربية ليدرسوا فيها العلوم والفنون الضرورية لترقية بلادهم وتقدمها، فهم بحاجة إلى زراع ومهندسين وأطباء وصيادلة وعسكريين وغيرهم، فلا ضير عليهم مادام لا يوجد عندهم مدارس تخرج هؤلاء الأخصائيين أن يرسلوا بعثات من فلذات أكبادهم إلى ديار الغرب ليتعلموا في مدارسها ومعاملها هذه الفنون والعلوم، وإذا كانوا لا يرغبون في إرسال أولادهم إلى الغرب فليستعينوا بمصر والشام لتقدما لهم الأطباء والصيادلة والمهندسين والعسكريين والطيارين.. الخ.

إن نظرية العزلة التي لا يزال أمراؤنا وملوكنا محافظين عليها ظناً منهم إنها تبعدهم عن الخطر وتحمي بلادهم من التعديات أصبحت في هذا العصر عصر

الكهرباء والطيران نظرية بالية لا تسمن ولا تغني من جوع، ومتى دقت ساعة الحرب الرهيبة فالجزيرة العربية بأجمعها عرضة لطمع الطامعين وفتح الفاتحين، وبديهي إن هذه الجزيرة بما فيها شامها وحجازها ويمنها وعسيرها ونجدها وعراقها هي ضعيفة جدا بالنسبة إلى الأمم النصف راقية، وبديهي أنها مطموع فيها من قبل الأجانب والدول المعظمة، ولكن من حسن حظها أن هذه الدول المعظمة مختلفة في الرأي وغير متفقة على ابتلاع الأجزاء المستقلة من هذه الجزيرة، ولولا اختلافها لكانت هذه الأجزاء المستقلة ترزح تحت النير الأجنبي كبقية الأجزاء المحتلة، وليعلم سادتنا الأمراء والملوك بأن وسائط الدفاع الأولية التي يملكونها لا تصد غارة الفاتحين عن بلادهم ولا ترد هجمات الطائرات والغازات السامة والميكروبات الفتاكة، فلا يفل الحديد إلا الحديد فعليهم أن يعدوا للأمر عدته لأن العالم على قاب قوسين أو أدنى من حرب عالمية لا يعلم مداها ولا ميدانها إلا الله.

حبنا للعرب وتفانينا في خدمتهم وغيرتنا عليهم حملتنا على توجيه هذا الكلام لملوكهم وأمرائهم، وإننا نرجو من هؤلاء الملوك والأمراء أن يطرحوا التنابذ والشقاق ويسدلوا حجابا على الماضي بما فيه من سيئات وذكريات أليمة، ويدفنوا الضغائن والحزازات الشخصية، ويبذلوا جهودا جديدة صادقة في التفاهم والإتحاد وعقد معاهدات هجومية دفاعية استعدادا للطوارئ وإلا فسوف يندمون ولات ساعة مندم.

وبعد مقابلتي الأولى لأولاد الإمام سنة 1927 عدت فقابلت بعضهم في رحلتي الأخيرة سنة 1936 فوجدتهم قد بلغوا سن الرشد وتقلدوا بعض المناصب الوزارية وغيرها فقاموا بها خير قيام، مثالا على ذلك إن سيف الإسلام عبد الله تولى وزارة المعارف والزراعة فعني بها عناية شديدة واستقدم مهندساً زراعياً من دمشق الشام يدعى وصفي بك زكريا[1] واستقدم أساتذة للمعارف وصار يطوف بنفسه في البلاد

---

(1) أحمد وصفي زكريا: مهندس زراعي، بحاثة، ولد في دمشق عام 1889م، وفيها أتم دراسته الثانوية، واستكمل دراسته في اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية في مدرسة الزراعة العليا وتخرج منها عام 1912م، عمل بعدها في العديد من الأعمال كمهندس زراعي في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق، قدم إلى اليمن عام 1936م للعمل كمستشار ومهندس زراعي، ومكث بها ستة أشهر، وكان سبب مجيئه إلى اليمن أن اللجنة العربية التي زارت اليمن عام 1934م للسعي في المصالحة بين اليمن والسعودية ووقف الحرب بينهما، والمكونة من الحاج أمين الحسيني رئيس المؤتمر الإسلامي [ومقره القدس]، والأمير شكيب أرسلان والسيد هاشم الأتاسي قد هالها التخلف الذي تعيش فيه اليمن فنصحوا الإمام يحيى بضرورة السعي للإصلاح البلاد وتطوير مرافقها ومواردها، وعرضوا عليه إرسال خبراء وأطباء عرب للقيام بهذه المهمة إذا كان الإمام يشك في نوايا الأجانب وتدخلهم في شئون اليمن، فوافق الإمام يحيى – بمشقة – على استقبال شخص واحد للاستشارة في الأمور الزراعية

برفقة المهندس ويدرس الأراضي والمزروعات عن كثب، ويصدر أوامره للعمال بلزوم اتباع وصايا المهندس وتعليماته، وقد طبع عدة كراريس زراعية وزعها على الفلاحين مجاناً، وقد بذل جهده أيضاً في تعميم التعليم ونشره في جميع أطراف البلاد وذلك بافتتاح مدارس كثيرة في جميع الجهات، وأرسل عدة بعثات من الطلبة إلى العراق.

وتولى سيف الإسلام القاسم إدارة البرق والبريد والمواصلات فأدار شؤونها على أحسن حال واهتم بتعبيد الطرقات، وتم في عهده دخول اليمن في البريد الدولي واشتراكه في (الكابلو) أي التلغراف الدولي أيضاً، فصار بالإمكان أن يخابر المرء جميع أطراف العالم من اليمن بعدما كان ذلك متعذراً لاستئثار شركة ماركوني بالمخابرات وحدها.

ويتولى سيف الإسلام الحسن والحسين وغيرهما من إخوتهما إدارة بعض المقاطعات بصفة عمال من قبل حضرة صاحب الجلالة والدهم المعظم، وقد أظهروا جمعيهم مقدرة زائدة وإدارة حسنة وجميع الأهلين يثنون عليهم أعطر الثناء، لذلك يسرني أن أسجل لهم هذا الاعتراف تقديراً لجهودهم وأعمالهم.

بعثة الطيران

وقد صادف مرة أثناء عودتي من صنعاء إلى الحديدة أن وصلتها بعثة الطلبة الطيارين اليمانيين التي نوهت عنها عائدة من إيطاليا، وكانوا جميعهم يلبسون ألبسة

شريطة أن يكون تحت الاختبار ولمدة ستة أشهر فقط، وقبل الوفد هذه المقترح العجيب، إذ كيف يتأتى لشخص واحد أن ينهض بالقطاع الزراعي المتخلف في بلد تقارب مساحته ربع مليون كيلو متر مربع في ستة أشهر، ورشحوا لهذه المهمة الشاقة أحمد وصفي زكريا، فقدم إلى اليمن سنة 1936م، حاملا معه مجموعة كبيرة من البذور وشتلات أشجار الفاكهة من فلسطين وسوريا وصقلية ومصر بتمويل من الهيئة العربية العليا لفلسطين، وشُحنت على ظهر باخرة إلى الحديدة، ثم نقلت بعد ذلك على ظهور الحمير والجمال إلى صنعاء، فتلفت أكثر تلك الشتلات في الطريق لصعوبتها، وتم غرس ما وصل منها في صنعاء والروضة وقرية القابل والأهجر وآنس...، وأسهم أحمد وصفي أثناء وجوده في صنعاء في تأسيس أول مدرسة للزراعة فيها، وقام بتدريب مجموعة من الفنيين على أساليب الزراعة الحديثة، وبعد انقضاء الستة الأشهر لم يسمح له الإمام بالاستمرار في مهمته، فقرر العودة إلى الشام، كتب مجموعة من المقالات والأبحاث عن اليمن وعن رحلته هذه نُشرت في عدة دوريات عربية، ثم جمعت بعد وفاته عام 1964، ونشرت في كتابين بعنوان: "رحلتي إلى اليمن" و"من صنعاء إلى دمشق"، وله عدة مؤلفات، منها:"عشائر الشام" في مجلدين من خير ما كتب في موضوعه، و "الدروس الزراعية "، و"جولة أثرية في بعض البلاد الشامية"، وغيرها. انظر مقدمة كتابيه: رحلة إلى اليمن، ومن دمشق إلى صنعاء، والأعلام للزركلي 216/1.

الطيران ويضعون على أكتافهم ورؤوسهم شارات الطيارين، وكان منظرهم "بدلاتهم" العسكرية جميلا جداً، وقد تحدثت إلى بعضهم فوجدتهم مدهوشين من إيطاليا وعظمتها وبناياتها الضخمة ومدنها الكبيرة ومدينتها العظيمة، فسألتهم إذا كانوا قد تعلموا هذا الفن "أي فن الطيران"؟ فأجابوني بأنهم قد مارسوه كثيرا وأنهم طاروا مرارا وصار في إمكانهم أن يطيروا بأنفسهم من دون أن يرافقهم أحد من الطيارين الطليان، وبعضهم أتقن فن الميكانيك في الطائرات وبوسعه أن يُرَكِّب الطيارة بدون مساعدة أحد.

سررت جدا من هذا الفوز العظيم الذي أحرزه هؤلاء الطلاب النجباء في برهة وجيزة، ولكن ويا للأسف لم يتموا دروسهم لسقوط إحدى الطائرات في صنعاء كما قلت سابقا، ولكنني بالرغم من هذه الحادثة لفت نظر جلالة الإمام إلى وجوب استعمال سلاح الطيران في جيشه المنصور لأن سلاح الطيران لا يرد اعتداء الطامعين في البلاد فقط، بل يمكن استعماله في تأمين الأمن في أطراف البلاد النائية وخاصة بين القبائل التي لا تزال إلى اليوم شبه مستقلة وغير طائعة تماما لحكم الإمام.

القاضي حسين المطهر والزراعة في اليمن

اجتمعت في أحد الأيام -بينما كنت أتجول في أسواق صنعاء- بالقاضي حسين مطهر فدعاني إلى زيارته في داره ببئر العزب، والقاضي المطهر هو أحد الكتاب في المخيم المنصور ومن المقربين لجلالة الإمام، فلبيت دعوته مسرورا فقادني إلى غرفة استقباله أمام الشادروان أي (النوافير) فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، وظهر لي من حديث حضرته أنه عالم بالشؤون الزراعية، ورأيت عنده كمية من القطن (السكلاريدس) الذي لا ينمو إلا في مصر وأميركا، فسألته من أين جلب هذا القطن؟

فقال: إنه من زرع اليمن، فقد اهتم جلالة الإمام بزراعة القطن وجلب أنواعاً متعددة من البذور (ويقولون للبذور في اليمن: الصِّيْب) من مصر وأميركا فنجح قطن السكلاريدس نجاحاً باهرا في الوديان الواطئة كالحيمة الخارجية والروضة والجوف وغيرها من الأماكن، ولذلك أعطى الإمام كمية وافرة من البذور للمزارعين والفلاحين لكي يعمموا زراعة القطن وقد جلب لهم محلجاً خاصاً لحلج القطن و(حزمه)

بالآلات، وأوصى أحد التجار الأميركيين في عدن المدعو المستر (هولبرج) ليجلب له محالج فنية حديثة من أميركا.

ولاشك في أن زراعة القطن تزدهر ازدهارا عظيما في اليمن وتعود على أهله بالخيرات الوفيرة إذا عممت في جميع المناطق لأن أقاليم اليمن وهواءه وحرارته ومياهه وأرضه هذا كله يساعد على نجاح القطن كل المساعدة فجدير بأهل الحل والعقد أن لا يصرفوا نظرهم عن هذا المورد الزراعي العظيم.

وقد حضر في أثناء زيارتي للقاضي حسين مطهر أحد شرفاء بلاد الجوف وصاحب الغيل "أي النهر" المعروف بغيل مراد ويدعى الشريف فيصل بن علي جار الله فقدمه لي القاضي حسين، فسألته عن بلاده وأحواله، فقال: إننا ولله الحمد على أحسن حال ولكن بلادنا فقيرة ونحن فقراء وجهال ولا نعرف كيف نستفيد من أرضنا، فقلت له: علمت من القاضي المطهر بأن أرضكم تصلح لزراعة القطن ومن المعلوم أن زراعة القطن زراعة رابحة فلماذا لا يكثيرون من زراعته؛ فأعاد قوله بأننا فقراء ولا نملك من الوسائل الزراعية ما يساعدنا على تنمية زراعة القطن وغيره من المزروعات؛ ولما سألت القاضي المطهر عن حقيقة هذا الرجل على انفراد وهل هو فقير كما يدعي؟ فأجابني كلا ليس هذا الرجل بالفقير فهو يملك أرضاً وساعة وعنده الخدم والحشم والجواري والخيل والإبل، ولكنه كغيره من شيوخ القبائل كسول وكسول جداً ويفضل أن ينام على الطوى على أن يبذل جهوداً في الكد والعمل المنتج، وأظن ان القاضي المطهر على حق في شكواه من أمراء البدو وشيوخهم لأني شاهدت في طوافي البلاد اليمانية في رحلاتي الثلاث أراضي جيدة جداً وقابلة لزراعة كل شيء ولكنها مع الأسف خالية من المزروعات لخمول أصحابها البدو.

وحباً في منفعة اليمن وأهله أورد هاهنا بعض الملاحظات الزراعية على سبيل المثال عسى أن يهتم بها أولو الحل والعقد فأقول:

إن بلاد تهامة وهي السهل المعروف الممتد من ساحل البحر الأحمر حتى الجبال تصلح لغرس جميع أنواع النخل، ويوجد فيها الماء بكثرة تحت الأرض على أبعاد مختلفة ويمكن استخراجه ورفعه إلى سطح الأرض بواسطة المضخات الهوائية أو الموتورات الميكانيكية، وتصلح أيضاً لزرع جميع أنواع الذرة والسمسم، وسفح الجبال القريبة من تهامة والممتدة من الشمال إلى الجنوب على مئات الكيلومترات تصلح

بكل تأكيد لغرس البرتقال والليمون الحامض والحلو والكباد[1] والنارنج وجميع أنواع الحمض، وقد شاهدت في بعض الأماكن شيئاً من هذه الأشجار ينمو دون اعتناء أحد به، والجبال والوديان المرتفعة تصلح لغرس (المنكو)[2] والموز وجميع أنواع أشجار الأحراج كالسنديان وغيره، هذا عدا البن الذي يغرس هاهنا ولكن بالإمكان زيادة غرسه كثيرا، ويصلح في السهول والمرتفعات (بلاتو) الواقعة فوق الجبال المحيطة بتهامة والتي تؤلف سطح اليمن الحقيقي غرس جميع أنواع الأشجار المثمرة والقطن والكتان والقنب؛ وقد أخذت معي مرة شيئاً من بذر القنب جلبته من دمشق وغرسته في أراضي الصافية بالقرب من صنعاء[3] فنما نموا عجيباً، ولكن بعض الناس قال لجلالة الإمام بأن الحشيش يصنع من القنب، فأمر جلالته بعدم زرعه، وقد غرسنا أيضاً أنواعاً مختلفة من بزر الكتان في أرض الصافية فنجحت نجاحاً عظيماً، ولكن جاء الجراد بكثرة في تلك السنة فأكلها بأجمعها، ومن الغريب في اليمن أن الناس لا يجزعون ولا يستاؤون من قدوم الجراد، وقد شاهدتهم ذات يوم يخرجون إلى مسافات بعيدة عن صنعاء حيث كان الجراد يهاجم بعض المزروعات ويجمعونه بكثرة زائدة وينقلونه إلى صنعاء بفرح وسرور، ولما رأيتهم على هذه الحال، قلت: أأنتم مسرورون والجراد يأكل مزروعاتكم؟

فقالوا: نعم نحن مسرورون به فهو يأكل مزروعاتنا ونحن نأكله ونخزنه في دورنا من السنة إلى السنة.

وتصلح زراعة الأرز في سهل جهران الذي يبعد عن صنعاء نحو 30 كيلومترا، كما تصلح زراعة الأرز في أراضي الجوف وغيرها من الأراضي الكثيرة المياه، ولكن ويا للأسف لم يهتم اليمانيون برغم جهود إمامهم وحكومتهم لترقية الزراعة الاهتمام الكافي الذي قد يعود عليهم بالأرباح الطائلة لأن بلاد اليمن من أخصب بلاد العالم ولا ينقصها سوى العلم والاجتهاد، وجلالة الإمام يبذل جهودا حسنة في ترقية

---

(1) الكباد :نوع من انواع الحمضيات وثمرته أكبر من ثمرة البرتقال ولها قشرة غليظة خشنة، ولها غالبا لون أصفر مميز بها، ويوجد بين القشرة الخارجية الصفراء الخشنة وبين لب الثمرة الحمضي طبقة سميكة من الكيتين أبيض اللون، وفي طعمه شيء من الحموضة ممزوجة بمرارة، ولهذا تسخدم ثماره غالبا في صنع المربى. قلت: ثم عرفت من الصديق الأستاذ علي كنعان أنه (الأترج)

(2) المنكو: المانجو.

(3) كانت الصافية من ضواحي مدينة الجنوبية، وقد أصبحت الآن بعد توسع صنعاء في وسط صنعاء الحديثة، وأكثر أحيانها تطورا.

الزراعة[1]، ولكن من الواجب على الشعب أيضاً أن يؤازر إمامه وحكومته لتحصل الفائدة المطلوبة، وتصلح زراعة التتن والتنباك في معظم أصقاع اليمن، وقد شاهدت بعض الأنواع الرديئة من التتن والتنباك مغروسة في بعض الجهات، ولكن يمكن تعميمها بصورة واسعة فتعود على البلاد بفائدة عظيمة لأن اليمانيين يستعملون هذين الصنفين استعمالا عظيما ويجلبون منهما كميات كبيرة جدا، فلو كانوا يجلبون بذورا من العجم وتركيا ويعممون هذه الزراعة لأصبحوا عما قريب مُصدِّرِين للتتن والتنباك لا المستوردين وبذلك يخدمون أنفسهم وبلادهم خدمة جليلة ويستغنون عن الغير كما هي الحال في جميع بلاد العالم.

المعادن والثروة العامة

من المعلوم لدى الخاص والعام أن منبعي الثروة العامة في هذه الدنيا هما الزراعة والمعادن وقد حدثت القارئ الكريم عن زراعة اليمن وبينت له إمكان تنميتها وتوسيعها كثيرا والآن أحدثه عن النبع الثاني وهو المعادن فأقول:

يدّعي اليمانيون أن جميع أنواع المعادن موجودة في اليمن كالذهب والفضة والرصاص والطلق والنحاس والفحم الحجري والملح... إلخ إلخ. وقد حدثني أحد أمراء العرب في سبأ ومأرب عن المعادن، قال[2]: "يوجد عندنا بالقرب من قصر بلقيس جبل عظيم فيه ذهب، ويوجد في شعب ذخر (اسم مكان في مأرب) الرصاص والكبريت، وكلما أردنا شيئاً منهما لاستعمالنا الخاص نحمل رزماً كبيرة من الحطب إلى الأماكن الموجودة فيها هذه المعادن ونضرم النار في الحطب فيسيل من تحت النار الرصاص أو الكبريت فنرش السائل بالماء حتى يبرد ويشكل قطعا كبيرة أو صغيرة من الرصاص والكبريت الصافي، وتوجد في بعض الأودية التي كانت تجري فيها سيول عظيمة في سالف الأيام، رمال ناعمة وكثيرا ما نأخذ هذه الرمال ونغسلها بالماء

---

(1) هذه مجاملة مبالغ فيها من المؤلف، فالإمام يحيى لم يبذل أي جهد لتطوير أي مرفق من مرافق الحياة في اليمن وبخاصة الزراعة التي هي عماد حياة اليمنيين، وقد أشرنا إلى موقف الإمام يحيى من مهمة المهندس الزراعي أحمد وصفي زكريا، ومن عرض بعثة الحاج أمين الحسيني.

(2) النص في كتاب العلامة عبد الواسع بن يحيى الواسعي: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن [القسم الثاني]، ط.مكتبة اليمن الكبرى، (ط2: 1990)، 118، وأعتقد أن النقل عنه.

ونغربلها بغرابيل ناعمة مملوءة بالماء ونستحصل منها على كميات جزئية من الذهب".

ولاشك أن الأمير المأربي صادق في روايته، وهذه الطرائق التي يستعملونها لإخراج الكبريت والرصاص والذهب لا يزال معمولا بها إلى هذا اليوم ومستعملة في إخراج هذه المعادن بصورة موضعية جزئية، ومن البديهي أنها لا تعود بالأرباح الطائلة، فلو أن الإمام اهتم بهذه المعادن وجلب مهندسين فنيين معدنيين لاستفاد فائدة عظيمة.

وقد حدثنا المرحوم محمد سيف الإسلام عن المعادن في اليمن فقال[1]: يوجد في جبل مسور[2] في بني العري[3] (توتية)[4] وأهل البلاد هنالك يذيبونها بطرقهم البسيطة ويستعملونها في صناعة الآنية وغيرها، ويوجد في أطراف جبال الغراس مما يلي الروضة (اللمنيون)[5] ويوجد في جبال خولان وكحلان وعفان[6] وهوبة[7] من جبال بلاد حجة: الطلق ويسميه اليمانيون أيضاً "دراهم الجن"، ويقول له الإنكليز "ذهب المجانين" ويوجد أيضاً في هذه الجبال النحاس، وهو معدن من معادن الحديد.

ويوجد في أسفل جبال الظفير الرصاص والكحل وهو ملح من أملاح الرصاص أيضاً، ويجلبه البدو ويبيعونه في الأسواق التجارية بصنعاء وغيرها من المدن، ويوجد الكحل أيضاً بالسودة وجبال بني حبش والشاهل.

---

(1) النص في المصدر السابق.

(2) في الأصل: مسوار، بزيادة ألف بعد الواو، والصواب ما أثبتنها، وهناك عدة مواضع في اليمن تسمى (مسور)، و المقصود هنا (مسورالمنتاب)، والمعروف أيضا باسم (مسور حجة)، وهو جبل واسع ومرتفع يصل أرتفاعه إلى نحو 3000متر عن سطح، يطل على بلاد حجة وتهامة، ويشكل ناحية (مديرية)، من أعمال محافظة (عمران)، ومركزه (بيت عذاقة)، ويقع شمال غرب صنعاء بنحو 70كم، وجنوب شرق مدينة حجة بنحو 20كم، على خط الطول 43/39، وخط العرض 15/35. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 243/1، 708/2، 720، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1524/2-1526، Microsoft Encarta Premium Suite 2005 DVD

(3) بيت العري: أو العر، قرية من قرى مسور. معجم البلدان والقبائل اليمنية 1035/2.

(4) التوتية أو التوتيا: هي معدن الزنك، أو الخارصين، وهناك توتيا غير معدنية كانت تستخدم في الكحل، وأعتقد أن المقصود هو الأول. تذكرة داود الأنطاكي 216/1، المنجد: (توتيا).

(5) في تاريخ الواسعي: الألومينيوم.

(6) كذا في كتاب الواسعي، ولا يعرف موضع في اليمن بهذا الاسم، ولعلها مصحفة عن (عفّار)، وهو جبل متصل بكحلان عفار، ومن أعمالها، ويتبع محافظة حجة، ويقع شرق مدينة حجة بميل نحو الشمال، بقريب خط الطول 43/41، وخط العرض 15/45.

(7) كذا في كتاب الواسعي، ولا يعرف في أعمال حجة جبل بهذا الاسم.

ويوجد في جبال مسور وفي الأعروش من بلاد خولان السملوخ[1]، ويستعمله الاهلون لقطع الزجاج ويوجد في عروق السملوخ الذهب ويقال للسملوخ بالإنكليزية (كوارتز).

ويوجد الحديد بكثرة في بلاد صعدة وفي ريحا[2] وفي الجوف ويوجد النحاس بالقرب من ميدي.

وقد حدثنا أناس كثيرون عن المعادن وأماكنها ووجودها بكثرة في جميع جبال اليمن، ولكن أحاديثهم كان مبالغاً فيها كثيراً لأنهم لا يعرفون حقيقة المعادن، ومن البديهي أن معرفة المعادن معرفة صحيحة تحتاج إلى فنيين وأخصائيين درسوا هذا العلم درسا طويلا ومارسوه ممارسة عملية فعلية لا نظرية.

وقد ذكر بعض الكتاب عن معادن اليمن فصولا طويلة في كتبهم أنقل للقارئ الكريم بعضها ليقف عليها، عَقَد الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني فصلا عن المعادن جاء فيه قوله[3]: "معدن (نحب)[4] في ديار بني كلاب، ومعدن (بيشا)[5] (بيشا)[5] ومعدن (قضاعة) وذهب خولان الوارد ذكره في التوراة باسم حويلة، وكثير من المعادن غيره (كالحفير) بناحية عماية، وهو معدن ذهب غزير ومعدن (الضبيب) عن يسار هضب[6] القليب ومعدن (الثنية) ثنية ابن عاصم الباهلي ومعدن

---

(1) السملوخ في العامية اليمنية: حجر أسود صلب تتولد منه النار بالزناد.انظر: المعجم اليمني لمطهر الإرياني، دمشق: دار الفكر، 1996م، ص447.

(2) كذا في الأصل، ولم أقف عليها في تاريخ الواسعي، ولا يعرف حاليا موضع بهذا الاسم في اليمن، ولعله: ريحان، بزيادة نون، وهو واد في الجانب الشمالي من جبل حُحاف بالضالع. معجم البلدان والقبائل اليمنية 719/2.

(3) الواسعي: تاريخ اليمن [القسم الأول]، القاهرة: المطبعة السلفية، 1346هـ/1927م، ص332، ونقل الواسعي قسما من النص من كتاب "الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء" للحسن بن أحمد الهمداني، انظر طبعة الشيخ حمد الجاسر، الرياض 1408هـ/1978م، ص 86-88.

(4) هذه أسماء المواضع التي كان بها مناجم للذهب في اليمن والجزيرة العربية، وليست أسماء معادن. قلت: (نحب) كذا وردت في كتاب الواسعي، وفي كتاب الجوهرتين: (الحسن)، وفي معجم البلدان، مادة (أحسن): " أحسن: بوزن أفعل من الحسن ضد القبح، اسم قرية بين اليمامة وحمى ضرية يقال لها معدن الأحسن لبني أبي بكر بن كلاب بها حصن ومعدن ذهب، وهي طريق أيمن اليمامة وهناك جبال تسمى الاحاسن. قال النوفلي، يكتنف ضرية جبلان يقال لأحدهما وسط، وللآخر الأحسن وبه معدن فضة. وانظر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (عالية نجد) 960، 1217.

(5) بيشا: كذا في كتاب الواسعي. وفي كتاب الجوهرتين: بيشة، وهو الصواب.

(6) في الأصل: هضلت، تصحيف والمثبت عن الواسعي، وانظر معجم البلدان: (هضب القليب). وهضب وهضب القليب: موضع بنجد، ويعتقد الأستاذ سعد بن عبد الله بن جنيدل أنه الهضاب المعروفة حاليا

(العوسجة) ثم معدن الفضة ومعدن (نياس)[1] ومعدن (العقيق)[2] ومعدن (الحجة)[3] ومعدن (العمق) في أفيعة، ومعدن (الهجيرة)، ومعدن بني سليم، ومعدن الذهب في الرضراض، ومعدن الفضة بالحيمة[4]، ومعدن النحاس قرب سوق الاثنين تجد الجبل أكثره يلمع صفرة وترابه أصفر براق، ويوجد في اليمن الفحم الحجري والبترول.

ويوجد العقيق[5] بأنواعه وألوانه بآنس وبالحدب ناحية مخلاف[6] بلاد البستان وفي جبل بلاد الروس أو سنحان، وبجبل في سعوان وبشهارة، وفي عيشان[7] بحاشد جنب الاهنوم، ويوجد باليمن البلور والأحجار النفيسة التي يعمل منها نُصُب[8] السيوف والسكاكين، وبجبل نُقُم، بضم النون والقاف، جبل مشرف على صنعاء فيه عدة معادن من الحديد والطلق وحجر أبيض لماع يشبه حجر الماس، وقلّ ان تجد بينهما فرقاً، وبجبل نقم الموميا وأهل اليمن يقولون (مِيْمِيا)، يُقطّر في كهف، وله منافع جمة أطنب الشيخ داود[9] في وصفه يمنع سيلان الجرح، ويجبر الكسر ويحبس الدم".

باسم (طخفة) في عالية نجد تابعة لبلاد الروقة من عتيبة، من أعمال إمارة عفيف. انظر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (عالية نجد) 678/2، 1324/3.

(1) نياس، كذا في كتاب الواسعي، وفي الجوهرتين (ص88): تياس، أوله تاء مثناة مكان النون. وانظر معجم البلدان، بتحقيقنا، مادة:(تياس).

(2) قال الهمداني في كتاب الجوهرتين (ص87): "ومعدن العقيق (اسم موضع) عقيق جَزم، بين نجران والفلج.

(3) في كتاب الواسعي: المحجة، وفي كتاب الجوهرتين (ص88): ومنها معدن محجة العراق، بين العمق وأفيعية

(4) في الأصل: بالحمة، والمثبت عن الواسعي. والحيمة: سبق التعريف بها.

(5) ما يزال النقل عن الواسعي.

(6) في الأصل: مخلان، والمثبت عن الواسعي.

(7) في الأصل: عبشان، بالباء الموحدة، والصواب ماأثبتناه، بالياء المثناة، كما ورد عند الواسعي. قلت: عيشان مايزال معروفا في بلاد عِذَر، وهو جبل صغير يقع شرق شهارة، بجوار قفلة عذر، ومن أعمالها، والقفلة تابعة لمحافظة عمران، ويقع الجبل على خط الطول 43/45، وخط العرض 16/35. مجموع بلدان اليمن وقبائلها 619/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1145/2، Microsoft Encarta Premium Suite 2005 DVD

(8) في الأصل: نصل، آخرها لام، والمثبت عن الواسعي. قلت: نصاب السكين والسيف، مقبضهما.

(9) هو الشيخ داود بن عمر الأنطاكي، العالم والأديب والطبيب المشهور، (المتوفى سنة 1008هـ)، مؤلف كتاب "تذكرة أولي الألباب في الطب والحكمة" المعروف اختصارا بـ "تذكرة داود"، وانظر وصف داود للموميا في التذكرة 202/2.

يتبين للقارئ الكريم من هذا البحث صحة نظريتي بعدم فهم عامة الناس للمعادن وإدراكهم حقيقتها، وكما قلت سابقاً إن معرفة المعادن تحتاج إلى أخصائيين.

وتتميما للفائدة أقول إن المستر شارلس كرين[1] الأميركي المشهور والصديق المخلص للعرب زار اليمن وسُرّ من اجتماعه بجلالة الإمام وتكريم الإمام له تكريماً عديم النظر، فشاء أن يقابل الحسنة بالحسنة فأوفد لجلالة الإمام بعض المهندسين على نفقته الخاصة ليساعدوه في تخطيط الطرق وفي البحث عن المعادن، ولما وصلوا إلى صنعاء أمر جلالة الإمام عماله في جميع أطراف اليمن أن يجلبوا نماذج من المعادن الموجودة في مناطقهم فجلبوا منها شيئاً كثيراً أعطاه جلالته إلى المهندسين، وبعد أن درسها المهندسون درساً علمياً فنياً قدم أحدهم المدعو المستر توتشل تقريراً مطولا عنها.

تقرير المستر توتشل[2] عن المعادن

حضرة صاحب الجلالة الإمام يحي حميد الدين ملك اليمن المعظم

لي الشرف أن أعرض لجلالتكم ما يأتي:

إني أعجبت كثيراً بالأحجار المعدنية التي أرسلت لنا للمرة الأولى صباح يوم الإثنين، وأعجبت أيضاً بالتي أرسلت لنا هذا اليوم، ويتضح لي منها أن أوامركم

---

(1) شارلس كرين: سبق العريف به في أول الكتاب.

(2) في الأصل: تونشل، بالنون، لعله خطاء مطبعي، وهو: كارل س. توتشل (K.S. Twichell)، خبير جولوجي أمريكي، رافق شارلز كرين في رحلته إلى السعودية واليمن، ومعهما خبيرالنفط والمعادن (ماك كوفرن)، قام كارل توتشل بست زيارات إلى اليمن بين سنتي 1927 و1932. وكانت رحلاته هذه إلى اليمن على نفقة شارلس كرين رغبة منه في مساعدة الإمام يحيى في اسكشاف النفط والمعادن في اليمن، ولكن الإمام يحيى لم يسمح له بالسفر إلى أي منطقة لفحصها واستكشاف ما بها من المعادن- باستثناء الصليف- وعوضا على ذلك أمر العمال في النواحي أن يحضروا له عينات من التربة والصخور التي يتوقع انها تحتوي على المعادن. ولكن مهمته نجحت في السعودية في اكتشاف النفط والتنقيب عليه فيها. له كتاب عن رحلاته في المملكة العربية السعودية ومراحل نموها وتطورها بعنوان: "المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية" صدرت طبعته الأولى في نيويورك عام 1947، ثم نقحه وأصدر طبعته الثانية 1953، ترجمه إلى العربية شكيب الأموي، القاهرة: مكتبة البابي الحلبي، 1955م. ونص تقرير توتشل عن المعادن في اليمن، في: تاريخ اليمن للواسعي (ط. مكتبة اليمن الكبرى)، ص 119-120. وانظر: إريك مورو: اليمن والغرب، ترجمة حسين العمري، ط2، دمشق: دار الفكر، 1987م، ص 145-146.

وبياناتكم إلى عمالكم الكرام كانت طبق المرام لأنهم أحسنوا انتخاب جميع ما أرسلوه وقد تبين لي من فحص هذه الحجارة أن الأمل قوي جدا في الاستفادة من خمسة أنواع منها، وربما تصلح هذه المعادن الخمسة لفتح مناجم خاصة بها، وما وجودها إلا دليل أكيد على وجود غيرها بجوارها، والمعادن الخمسة الجيدة هي:

1- كرافيت 2- موليبدينيت 3- هماتيت 4- نتراهدريت 5- ميكا، أي طلق، ويستعمل الكرافيت في صناعة أقلام الرصاص، ويستعمل الموليبدينيت في صناعة أجود أنواع الفولاذ القاسي، ويستعمل الهماتيت لاستخراج الحديد. ويحتوي النتراهدريت على النحاس والكبريت والانتيمون، وبعض الأحيان توجد معه الفضة، ومتى حللنا هذا المعدن تحليلا كيماويا يتبين لنا موجوداته.

وأما قطعة الميكا أي الطلق التي أرسلت لنا فصغيرة وعديمة الفائدة لصغرها ولكنها متى كانت كبيرة الحجم فتجد أسواقا متعددة لبيعها، وربما نتمكن إذا حفرنا بالقرب من المكان الذي وجدت فيه هذه القطعة أن نجد قطعاً كبيرة، وعلى كل الأحوال يتبين لنا من وجود هذه القطعة الصغيرة وجود كميات كثيرة منها، ولا يمكن للناظر إلى هذه القطع من المعادن أن يعرف حقيقة ثمنها، كما أنه لا يمكن للناظر إلى بعض شعرات مسلوخة عن ذيل جواد كريم أن يقدر منها قيمة ذلك الجواد، ولكنها على كل الأحوال تعتبر دليلا على وجود المعادن، والمعادن تحتاج إلى كشفها لأعين خبيرة مفتوحة تفرق بين الغث والسمين، وهذا يتطلب مشاهدتنا هذه الأماكن عن كثب وعندئذ يمكنني أن أقول لجلالتكم ماذا يجب عمله للاستفادة من هذه المعادن، وربما أحتاج في فحص هذه الأماكن إلى القيام بحفريات في بعض المواقع مدة أسبوع أو أكثر. ومن البديهي أن كثيرا من المعادن توجد بكميات قليلة وهذه لا تقوم بنفقات استخراجها، وإني سأكون سعيداً جداً إذا شاهدت هذه الأماكن بنفسي حتى أتمكن من تقديم تقرير شاف لجلالتكم عنها.

وقد أرسل لنا أيضاً كيس صغير فيه مادة ترابية ناعمة براقة تبدو للعيان كالذهب الوهاج ولكنها مع الأسف ليست بذهب بل هي نوع من أنواع الميكا (طلق) وليست ذات قيمة صناعية أو تجارية أصلا، وقد جلب لي كثير من الغربيين المتعلمين في أوربا نفس هذه المادة الترابية متوهمين أنها ذهب. وقد جلبوا لنا اليوم أيضاً نوعاً أملس ناعما من الصخر يقال له (شلز) وفي بعض الأحيان يوجد زيت

الكاز في هذه الطبقة الصخرية، وأما الأحجار التي جلبت لنا فلا يوجد فيها زيت، ولكنها تدل على إمكان وجود الكاز فيها.

وقد وصلني إلى يوم أمس من جلالتكم كيس صغير فيه أربعة أنواع من الأحجار المعدنية ويوجد في واحدة منها قشرة كبريتية، وإذ وجد وقود رخيص بقربها أي (حطب) فبوسعي أن أطلعكم على طريقة عملية سهلة يمكنكم بواسطتها أن تحصلوا على زهر الكبريت، ويستعمل زهر الكبريت كما لا يخفى عليكم في صناعة البارود وفي قتل الحشرات المضرة التي تلحق بالكروم، وإذا سمحتم لي أن أشاهد المكان الذي جلبت منه هذه الأحجار ففي إمكاني أن أخبركم إذا كان يوجد حوله أفضل منه أم لا، وفي إمكاني أيضاً أن أعلمكم إذا كانت الكمية الموجودة جديرة بالاهتمام أم لا.

والقطعة الحجرية المعدنية الثانية التي أرسلت مع القطعة المار ذكرها يقال لها (الجيريت) وهي ذات ذرات ناعمة ومسلوخة عن عرق كبير ويوجد فيها النحاس و (الكروميوم) أحد معادن الحديد. وإني أقدم لجلالتكم قطعة من هذا المعدن وكيساً صغيراً راجيا أن تأمروا من يلزم بملء هذا الكيس والاستفهام عن المكان الذي جلبت منه هذه القطعة، وعن عرضه وطوله وارتفاعه، فإذا كانت الكمية الموجودة منه وافرة فيمكن أن يباع هذا المعدن في خارج اليمن من أجل نحاسه وحديده.

وأما القطعة الثالثة فهي معدن من معادن الحديد يقال له (بيريت) ويوجد مع الحديد قليل من النحاس وإني مقدم لجلالتكم كيساً صغيراً راجياً أن تأمورا من يلزم كي يملأه من نفس المكان الذي جلبت منه هذه القطعة مع بيان طوله وعرضه وارتفاعه، ويستعمل هذا المعدن أي (كبريت الحديد) في صناعة حامض الكبريت الذي إذا خلط مع ماء النار وكليسرين ألّف نوعاً من أنواع المفرقعات (ديناميت) القوية، ولكن قبل كل شيء يجب أن نشاهد المكان لنتحقق من الكمية الموجودة فيه لنعلم إذا كانت جديرة بالاستخراج أم لا، إذ من البديهي أن المعادن لا تكون جديرة بالاستخراج ما لم يتوفر فيها أولا جودة النوع، وثانياً كميته. وإني أرى من الضروري البحث في جوار هذا المكان الموجود فيه الحديد والتحري عن غيره من المعادن لأنه في كثير من الأحيان يوجد في ناحية واحدة أكثر من نوع واحد من المعادن، ويظهر لي من جميع هذه النماذج المعدنية التي جلبت لي من أطراف البلاد أن اليمن غنية بمعادنها ويكمن الاستفادة من هذه المعادن إلى مدى بعيد، ولكن يجب في بادئ

الأمر البحث في جميع الجهات والتفتيش عن الأماكن التي توجد فيها المعادن بكثرة، فإذا شاء جلالة الإمام أن يسمح لي بأن أقدم بهذا التفتيش بنفسي فإني رهن إشارته.

بعد أن قدم المستر توتشل هذا التقرير إلى جلالة الإمام ورأى جلالته أن هذا المهندس خبير بالمعادن أمره بالذهاب إلى الصليف ودرس المملحة الكبيرة الموجودة هناك، والصليف اسم لمكان على شاطئ البحر الأحمر يبعد عن الحديدة نحو سبعين كيلومترا إلى الشمال، وفيه ممحلة عظيمة كان الترك أيام الدولة العثمانية يستخرجون منها الملح بصورة مكبرة ويبيعونه في داخل اليمن وخارجه، وأما اليوم فقد أهمل شأن هذه المملحة وصار الأهلون يأتونها ويأخذون حاجتهم منها ويستعملونها استعمالاً موضعياً

ذهب المستر توتشل بصحبة أحد المصريين من أصدقاء المرحوم محمد سيف الإسلام الذين يتقنون الإنكليزية إلى الصليف، ودرس المكان درساً علمياً فنياً، وقدم لجلالة الإمام تقريرا إضافياً عنه يقع في عشرين صحفة، ومن أهم ما جاء فيه:

إن هذه المملحة عظيمة وعميقة جدا وملحها من أجود أنواع الملح في العالم، ويوجد بالقرب من هذه المملحة طبقات جيولوجية من أحجار (الشلز) وهذه تشير في بعض الأحيان إلى وجود البترول، ولدى البحث والدرس وجد المستر توتشل أنه ربما يوجد بترول في هذه الطبقات، ثم عاد حضرته إلى بلاده وسعى مع بعض الشركات الأميركية على مساعدته في الحصول على امتياز لاستخراج الملح والمعادن في اليمن، وقد لبت إحدى الشركات طلبه، وأوفدته إلى اليمن ليعقد مع جلالة الإمام اتفاقية لاستخراج معادن اليمن فعاد إلى اليمن مسرعاً وقدم إلى جلالة الإمام مشروع اتفاقية هذا نصها:

اتفاقية لاستخراج المعادن
واستثمار ممحلة الصليف

1- نحن الإمام يحيى ملك اليمن وحكومتنا تتفق مع المستر توتشل ونقابته بأن نؤجره شبه جزيرة الصيلف بما فيها رأس عرب لمدة تسع وتسعين سنة، ويدخل في هذا الإيجار كل شيء فوق سطح الأرض وتحت سطحها، وقيمة هذا الإيجار ألف ريال إمامي سنوياً أو ما يعادل هذه القيمة، ويدفع هذا الإيجار كل سنة ويعتبر ابتداؤه من اليوم الذي يتم فيه التوقيع على هذه الاتفاقية.

2- يكون الإمام وذريته شركاء بهذه الشركة فيمنح لهم عشر رأس مالها، أي بالمائة عشرة من مجموعه، ويمكن للإمام أن يتصرف بهذا الرأسمال كما يشاء فإذا شاء احتفظ به وإذا شاء بيعه باعه فلا يعارضه أحد بذلك، بل له الخيار أن يتصرف به حسب إرادته فلا مانع يمنعه من رهنه لعقد بعض القروض، وإذا احتفظ به فله الحق باستيفاء الأرباح.

3- تدفع الشركة ضريبة جمركية على جميع ما تصدره إلى الخارج وقدرها ثلاثة في المائة، وتدفع هذه الضريبة إلى حكومة اليمن أو إلى من يمثلها في مدة لا تزيد على سنة واحدة من تاريخ شحن الصادرات

4- لا تضع حكومة اليمن ضريبة جمركية ولا غيرها من الضرائب على جميع المعدات اللازمة في الصليف، ولا تضع أيضاً ضرائب على جميع الأشياء التي تستأجرها أو تستعملها هذه الشركة، ولا تضع ضرائب على الأشياء التي يستوردها الأميركيون المستخدمون في الصليف وعلى كل أمتعتهم وحاجياتهم.

5- تساعد الشركة الحكومة اليمانية في إنشاء حديقتين من حدائق التجارب الزراعية التي تقيمها الحكومة اليمانية، ومتى أخذت الشركة تربح من منجمها في الصليف تقوم هي نفسها بغرس حقل للتجارب الزراعية خاص بها.

6- تهتم الشركة بالبحث عن المعادن بالاشتراك مع الحكومة المحلية فإذا عثرت على منجم مناسب فتستخرج منه المعدن بنفس الشروط التي تشترطها بالصليف.

7- لا يستخدم في الوظائف الإدارية وفي الوظائف الفنية أحد من غير الأمريكيين والعرب.

8- تعتبر هذه الاتفاقية جارية على الدوام إلا أنه إذا مضى سنة واحدة بعد توقيعها من الطرفين ولم تباشر الشركة في العمل فتكون ملغية.

9- يكون صاحب الجلالة الإمام يحيى ملك اليمن أو من يعتمده جلالته نائباً عنه عضواً عاملا في هيأة الشركة الإدارية "وإني أتمنى لو يكون صاحب السمو محمد سيف الإسلام نائباً عن صاحب الجلالة والده الإمام".

10- نحن الموقعين أدناه نوافق على الشروط المبينة أعلاه بدون أقل تحفظ كما هي مكتوبة في اللغة العربية المترجمة إلى الإنكليزية.

ويبدو لجلالتكم مما تقدم في هذه الاتفاقية أنه بوجود هذه الشركة الأميركية تربحون، جلالتكم، أرباحا لا يستهان بها دون أن تنفقوا درهماً واحداً، وسيخصكم من الربح عشرة بالمائة وسيخص حكومتكم ثلاثة بالمائة ضريبة جمركية، وإذا وجدنا بعض المعادن الأخرى وتمكننا من استخراجها فتزداد عائدات الحكومة بنسبة زيادتها، وإننا نوجه نظر جلالتكم مرة ثانية إلى أن هذا العمل لا يكلف جلالتكم ولا حكومتكم شيئاً من النفقات ولا من التعب والعناء، بل يعود عليكم بالفائدة ويفتح بابا للعمل واسعا لليمانيين وغيرهم من رجالات العرب، وإذا تم توقيع جلالتكم على هذه الاتفاقية فإني مستعد أن أباشر العمل بالصليف فورا، وبعد مباشرة العمل أذهب إلى الهند لأجد سوقا لبيع الملح، وأعقد هنالك مع التجار بعض عقود البيع، ثم أعود إلى أميركا فابتاع جميع الأدوات اللازمة لمباشرة العمل وأجلب معي بعض الرجال الأميركيين الفنيين.

إني لا أرى في اقتراحاتي هذه على جلالتكم غير الفائدة المجسمة الأكيدة لكم ولشعبكم، ولا أعتقد أنه توجد نقابة ما تعرف أحوال اليمن فتقدم على مساعدته وترقيته كما نحن قادمون، ولا أظن أمة من الأمم تخلو من الأغراض ولا تكون خطرة على البلاد كالأمة الأميركية، كما إني لا أظن أنه توجد هيأة أميركية ترغب في الاشتغال باليمن دون الاستعانة بي والاستفادة بمعلوماتي وخبرتي، ولذلك رجائي إليكم أن تعقدوا هذه الاتفاقية بأسرع ما يمكن لأن السرعة في عقدها تعود على الجميع بالسرعة في الأرباح، والتأخير في عقدها يضيع علينا وعليكم هذه الأرباح.

وزبدة القول وخلاصته أن هذه الاتفاقية فيها منافع سريعة وأكيدة أذكر لجلالتكم بعضها على سبيل التمثيل:

1- إيجاد عمل لثلاثين رجلا اليوم، ولثلاثمائة رجل حين وصول آلات المنجم وأدواته إلى اليمن.

2- تقديم تقرير من قبلي ومن قبل شركتي إلى حكومة الولايات المتحدة وإعلامها خبر تأسيس هذه الشركة والطلب إليها بأن تعقد معاهدة تجارية مع جلالتكم.

3- نشر الدعايات الصحيحة في الجرائد الأميركية والعربية لليمن.

4- تعبيد طريق من الحديدة إلى الصليف يمكن للسيارات أن تسير عليها بسهولة.

5- تخطيط الطريق من الحديدة إلى رأس الكثيب.

6- ملاحظة الحدائق الزراعية للتجارب الفنية في الحديدة وصنعاء.

7- تقديم المساعدة الفنية لتعبيد الطرق ما بين الحديدة وصنعاء عن طريق معبر.

8- زيادة نفوذ اليمن في العالم السياسي وضمانة هذا النفوذ بوجود بعض المصالح الأميركية واكتساب صداقة الحكومة الأميركية وودها.

إمام اليمن يحذر أساليب المستعمرين

قدم المستر توتشل صورة هذه الاتفاقية إلى جلالة الإمام مصحوبة بمذكرة خاصة جاء فيها ذكر المنافع التي أوردتها للقارئ الكريم، ويظهر أن المستر توتشل كان يريد أن يشوق الإمام لعقد هذه الاتفاقية بالمشروعات الزراعية والعمرانية والاقتصادية ظناً منه أن هذه المشروعات ستغريه بالموافقة على هذه الاتفاقية، ولكن جلالة الإمام -حفظه الله -أدرك بذكائه العجيب ما كان يجول في خاطر المهندس الأميركي ورفض الموافقة على عقد هذه الاتفاقية، وفي حديث خاص جرى بيني وبين جلالته عن الاتفاقيات الأجنبية بصورة عامة صرح لي بأنه يخشى كثيراً أن يعقد أي اتفاقية مع الأجانب لأن هذه الاتفاقيات ستكون يوما ما في جملة الأسباب التي تحدو بالأجانب إلى التدخل في شؤون اليمن، وإني أعتقد كل الاعتقاد بأن جلالة الإمام على حق فيما يقول، ومثل الشعوب الضعيفة مع الشعوب القوية هو كمثل الحمل مع الذئب، فبوسع الذئب أن يقول للحمل في كل لحظة أنت عكرت عليَّ الماء، وقد شاهدنا نحن المحكومين من الأجانب قبل دخولهم إلى بلادنا أنهم كانوا دوماً يقولون بأن لهم منافع، وأنهم مربوطون بهذه البلاد بتقاليد خاصة وبمصالح اقتصادية، ولذلك فهم مضطرون بحكم الضرورة والمصلحة إلى التدخل بشؤونها للمحافظة على مصالحهم وعلى أرواح رعاياهم.

وقد قلت لجلالة الإمام: ما دمتم لا ترغبون في منح أحد من الأجانب امتيازاً فالواجب يقضي عليكم بأن لا تهملوا هذه الثروة العظيمة التي منَّ الله بها عليكم، فبوسعكم أن تجلبوا مهندسين معدنيين من الأجانب وتعقدوا معهم عقوداً وتخصصوا لهم معاشات ونفقات وتستخرجوا معادنكم بأنفسكم وتستثمروا مملحة الصليف على نفقتكم، فقال: نعم، يمكننا أن نفعل ذلك ان شاء الله.

ولم يمض وقت طويل على حديثي هذا مع جلالته حتى أمر جلالته نجله محمد سيف الإسلام عامل الحديدة بالاهتمام بمملحة الصليف، وبالحال جلب محمد سيف الإسلام رحمه الله نماذج من ملح الصليف وأرسلها إلى عدن والهند وغيرهما من البلاد ليبحث عن أسواق الملح المهمة، وكان في نيته أن يوسع العمل بالصليف توسيعاً كبيراً ولكن الأجل المحتوم وافاه قبل أن يحقق هذه الأمنية.

أحمد سيف الإسلام

أتاني مساء أحد الأيام عقيب وصولي إلى صنعاء قائد الروضي مأمور الإعاشة وكانت علامات الفرح والسرور بادية على محياه، فقلت: أهلا بالروضي، إن شاء الله تحمل لنا بشرى جميلة.

فأجاب: نعم بشرى جميلة وجميلة جدا فاستعدوا للغد.

فقلت: خيرا ان شاء الله.

فقال: غداً سيصل إلى صنعاء ولي العهد سيدي أحمد، سيف الإسلام، وجميع الناس فرحون مسرورون لأنه مضى على سيدي أحمد عدة سنوات لم يأت خلالها إلى صنعاء.

فقلت: هل تحب سيف الإسلام؟

فأجاب: أي والله، إني أحبه لأنه كريم وشجاع ومحسن للناس.

فقلت: ومتى يصل؟

فأجاب، الظهر، أو قبل الظهر، ولكن يجب عليكم إن كنتم ترغبون في مشاهدته حين وصوله أن تخرجوا مع الناس خارج صنعاء مبكرين لئلا يحضر مبكراً ولا تروه.

فقلت: إني أشكرك يا قائد على هذه البشرى، وإني سأكون سعيداً بمشاهدة سيف الإسلام ولي عهد الإمام، وسأخرج مع الناس غداً صباحاً إن شاء الله، وإني أرغب أن أصور سيف الإسلام وأصور مواكب المستقبلين.

فأجاب: لا أخال سيف الإسلام يسمح لك أن تصوره لأنه كوالده الإمام لا يحب التصوير، ولكن لا بأس بتصوير الجنود والمواكب. وودعني بعد هذا الحديث وانصرف وهو يقول لي: إلى اللقاء غداً خارج صنعاء. فقلت: إلى اللقاء!

وفي صباح اليوم الثاني الأربعاء الواقع في 6 كانون الثاني سنة 1927 خرجنا في عربة يجرها حصان واحد أرسلها لنا جلالة الإمام فركبناها باسم الله إلى خارج صنعاء إلى مسافة ساعة واحدة عنها تقريباً لنشاهد استقبال صاحب السمو أحمد سيف الإسلام ولي عهد اليمن. وقد رأينا في طريقنا أفواج الأهالي على اختلاف طبقاتهم الفوج تلو الفوج يتسابقون إلى مكان الاستقبال والبشر والسرور باديان على وجوههم كأنهم في يوم عيد عظيم، وكان الجيش المتوكلي في عدته وعدده، ويبلغ عدده نحو ألفي جندي، يسير مع أمرائه وضباطه في طليعة القوم، وكان يسير خلفه طلبة المدارس الحربية والعلمية المتوكلية ودار الأيتام، وجاء خلف تلامذة المدارس أولاد الإمام سيوف الإسلام يتبعهم خلق كثير من العلماء والسادات والقضاة والحاشية. سار هذا الجمع الحاشد إلى مسافة ساعة عن صنعاء، ثم توقف في سهل فسيح كأنه البحر سطحه الماء وموجه الناس يتسابقون ذات اليمين وذات اليسار.

وبعد انتظارنا في هذا السهل نحو ثلاث ساعات أقبل سيف الإسلام ولي عهد الإمام بموكبه العظيم يمشي في ركابه جمع غفير من السادة والعلماء وشيوخ عشائر التهامة كقبائل الواعضات وعبس وبني ناشر وحجور[1] وبني قيس وبني مروان

---

(1) في (ط): حجود، والصواب ما أثبتناه، وحجور: قبلية يمنية نسبة إلى حجور بن أسلم بن عليان..بن حاشد، وتسكن قبيلة منطقة واسعة تسمى باسم القبيلة، تضم عدة نواحي، وهي: 1- حجور الشام (أي الشمال) وتضم بلاد أفلح وخيران وعاهم والقفل وكشر ووشحة، وأشهر مدمها وشحة. 2- حجور اليمن (أي الجنوب) ومركزه كعيدنة. 3- حجور البشري: ويشمل قفل شمر والأمرور ومعظم ناحية الشاهل. وكلها من أعمال محافظة حجة. انظر: معجم البلدان، بتحقيقنا، مادة: (حجور)

وغيرهم، وقد سألت عن أسماء بعض هؤلاء الشيوخ فذكروا لي اسم محمد بن حيدر النعمي، والسيد عبده هيج، والشيخ محمد بن طاهر رضوان، والشيخ علي بن محمد الخميسي وما كادت أعين الناس تبصر ولي العهد حتى تراكضوا إليه وأخذوا يقبلون يديه ويسلمون عليه، وأخذ الجند أيضاً سلامه، ثم سار الموكب نحو صنعاء يتقدم الجموع موكب سيف الإسلام ولي العهد ويتبعه إخوانه سيوف الإسلام أولاد الإمام ويتبعهم العلماء والسادة والناس على اختلاف طبقاتهم.

وقد ألقى أحد الأفاضل قصيدة عامرة بين يدي صاحب السمو جاء فيها:

نشـدتك يـا ذكـا البشـرى أعيـدي	**حـديث سـنا الهنـاء لنـا وزيـدي**
وجـودي باللطـائف مـن أمـاني	**قلـوب مـن رجاهـا أن تجـودي**
وهبـي كالنسـيم علـى ضـلوع	**براهـا للقـا شـوق العميـد**
ويـا فكـري وأنـت رفيـق نفسـي	**ومـا حـق الرفيـق سـوى الأكيـد**
أقـم حفـلات أنسـك واغتنمهـا	**مسـرات تعـز علـى الوجـود**
وأسـمع مـا عليهـا صـوت مـدح	**يلـين للطفـه قلـب الكنـود**
وأرسـلها بيوتـاً عـامرات	**لهـا فـي السـمع رنـات النقـود**
وفـاء فالوفـاء أجـل شـيء	**يـدين بـه فتـى الـرأي السـديد**
بحـق قـدوم ملـك أي ملـك	**يلـوح بوجهـه سـعد السـعود**
وتنتسـب المعـالي والعـوالي	**إليـه نسـبة الملـك الوحيـد**
وتهـواه المناقـب سـاعيات	**إليـه سـعي ذي العطـش الشـديد**
وتفتخـر المواكـب إذ تـراه	**تمـيس عليـه خافقـة البنـود**
وتخدمـه الفتـوح وترتضـيه	**لهـا مـولى وهـن مـن العبيـد**
وتلـثم كفـه الأفـلاك علمـا	**بمـا فـي اللـثم مـن شـرف عتيـد**
إلـى مـا شـئت مـن أوصـاف مجـد	**بجيـد الـدهر كالعقـد الفريـد**

حواهـا شخصـها العـالي وضـاقت ... بهـا الأرجـاء مـن عظـم مشـيد

ولاحـت فـي فـم الـدنيا ابتسـاما ... وحليـا فـوق لبـات وجيـد

وحاولـت الكواكـب فـي سـماها ... فحـازت دونهـا سـبق الصـعود

وقـال البـدر مـا إن مـن سـبيل ... إلـى هـذا العلـو المسـتزيد

ومـا سـيف الخلافـة سيف عمـرو ... ولكـن سـيف ذي العـرش المجيـد

فمـا السـيف الصـقيل أشـد منـه ... مضـاء فـي التهـائم والنجـود

ولا أسـد الشـرى تحكيـه بأسـاً ... وأدنـى بأسـه مغنـى الأسـود

ولـم تكـن القـوافي والمعـاني ... وان نظمـت صـفوفا كـالجنود

وسـيقت زمـرة بأجـل ممـا ... بـه ظفـرت عيـون عـن شـهود

مـن الكـف النـدي إلـى مزايـا ... براهـا الله مـن كـرم وجـود

مزايـا لـو ذكـرن علـى مـريض ... لأدرك روح عافيـة السـعيد

ولـو كسـيت بهـا سـود الليـالي ... لعـادت وهـي بيضـاء البـرود

وهـاك حـديث أحمـد عـن سـجايا ... معاليـه عـن المسـعى الحميـد

فمسـند أحمـد فينـا صـحيح ... ومـروي الجـدود مـع الحفيـد

معـارف كـالغطمطم زاخـرات ... وأخـلاق مـن الـروض المجـود

وقلـب بالمكـارم ذو ولـوع ... وبالإنصـاف فـي جهـد جهيـد

تبـارك مـن بـراه مـن المعـالي ... وجـاء بـه علـى هـذا الوجـود

وأودع ذاتـه سـراً خفيـاً ... بـديع الصـنع محمـود الـورود

وأتحفنـا بمقدمـه المفـدى ... علـى وفـق الفخامـة والمزيـد

ولـو أنـا وصـفنا منـه جـزءاً ... لا نفـد كـل مقـدور المجيـد

ومن طابت أرومته بطه | وطالت بالأئمة والجدود
وكان أبوه أي إمام حق | فقدر علاه فوق ثنا القصيد
إمام الحق يا غوث البرايا | وعصمة ربنا المبدي المعيد
ومن دانت لهيبته معد | وقحطان على وفر العديد
أعدّد في بنيك الغر صيداً | تذوب ببأسهم زبر الحديد
ولاسيما الأمير أبو العطايا | صفي الدين غطريف الجنود
فكم فتحت به أقفال قطر | ومد بعزمه منصوب طود

إلى أن يقول:

ولا زالت مناقبكم عقوداً | على الأيام كالدر النضيد
وأيد ملككم ما اخضر دوح | ودام زمانكم أيام عيد

ولشدة ازدحام الناس حول ولي العهد يوم استقباله لم أتمكن من الوصول إليه حتى ولا من رؤيته جيداً، ولما عدت إلى صنعاء وقابلت وزير الخارجية القاضي محمد راغب وطلبت إليه أن يستأذن لي من سمو ولي العهد ويعرب له عن رغبتي في مقابلته، ولما طلب ذلك إليه القاضي لم يبخل عليّ سموه بالمقابلة، وحدد موعدها صباحا نحو الساعة التاسعة، وفي الوقت المعين ذهبت إلى غرفة القاضي محمد راغب في المخيم المنصور فقادني حضرته إلى غرفة في ردهة المخيم أعدت خصيصاً لسيف الإسلام وضيوفه وزواره في أثناء إقامته بصنعاء، ولم يكد يستقر بنا المقام طويلا في هذه الغرفة حتى جاءنا أحد الحجاب وقال: المولى سيف الإسلام قادم، فنهضنا وقوفاً حين سماعنا هذه العبارة، وإذا بولي عهد اليمن يدخل علينا ويحيينا بقوله: السلام عليكم.

فرددنا: وعليكم السلام والرحمة والإكرام، وصافحناه مصافحة ودية قلبية صميمية، وشعرت حينما وضعت يدي بيده كأني لمست تياراً كهربائياً، ونظرت بعينيه فإذا بهما تفيضان مغنطيساً وشجاعة، ولا أذكر أني قابلت رجلا في حياتي ولمست الشجاعة فيه لمساً كما لمستها في ولي عهد اليمن أحمد سيف الإسلام، فإن كل

شيء فيه يدل على النبل والبسالة، وقد لوحت الشمس وجهه الكريم فزادته جمالا على جمال وكسته لوناً جذاباً، وهو قوي البنية، عصبي المزاج، ربع القامة، ليس فيه شيء من السمنة، يرتدي ثوبا حريريا مصنوعا من صايات بلادنا، ويتمنطق بجنبية يمانية فاخرة، ويحمل سيفاً صقيلا مذهباً من صنع اليمن، ويتعمم بعمامة بديعة، وما كاد سموه يجلس حتى أذن لنا بالجلوس.

فقلت: إنني سعيد جداً يا صاحب السمو بهذه المقابلة التي تكرمتم بها علينا، وإني أحمد الله على وصولكم بالسلامة، وأتوسل إليه أن يقيكم ذخراً وسنداً للشعب اليماني وللامة العربية.

فأجاب: أشكركم على هذه العواطف، وأطلب من الله أن يحفظكم ويعز الإسلام والمسلمين.

فقلت: إن الإسلام والمسلمين يذوقون أنواع العذاب في جميع أقطار المعمور، وما ذلك إلا لتركهم دينهم وتمسكهم بدنياهم.

فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنتم كيف حالكم؟ ومن أين أتيتم؟ وأين بلادكم؟

فقلت: إني أتيت من مصر، وبلادي الشام، وحالها كحالي بالويل والثبور!

فقال: والقدس كيف هي الآن؟

فقلت: تسير من سيئ إلى أسوأ، ويبتاعها اليهود من أصحابها المسلمين شيئاً فشيئاً، وسوف لا يمضي زمن طويل إلا وتخرج جميع أراضي فلسطين من يد أهلها وتدخل في حوزة اليهود.

فقال: ولماذا يبيع المسلمون أرضهم؟ وهل يضغط عليهم أحد في بيعها؟

فقلت: كلا! لا يضغط على المسلمين أحد في بيع أرضهم، ولكن الطمع والمال يقذفان بالناس إلى أحضان اليهود فيبيعونهم تراث الآباء والأجداد بحطام بخس من حطام هذه الدنيا.

وهنا بدت على محيا الأمير العظيم أمارات الغضب وقال: "إنا للّه وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله." ثم أردف قائلا: وكيف وجدتم اليمن؟ وهل تتضايقون من البرد؟

فقلت: أما البرد فأني لا أتضايق منه لأني ألفته منذ نعومة أظفاري، وبلدي دمشق الشام هي أبرد من صنعاء، وأما اليمن فإني أغبط أهله على نعمة الحرية والاستقلال التي ينعمون بها وهم لا يشعرون، والحرية والاستقلال لا يعرف قيمتهما إلا من فقدهما، كالصحة والعافية لا يقدرهما المرء إلا متى دب المرض إلى جسمه. وأما مناخ اليمن وجباله ووديانه وأنهاره وأطياره فكلها جميلة، وكلها يثير الإعجاب، وقبل أن أزور اليمن كنت أسمع عنها أشياء كثيرة لا تتفق مع الحقيقة في شيء، مثلا: كان يقال لنا إن البيضة إذا وضعت في الشمس (تشوى) حالا وإذا خرج المرء من داره فلا يأمن على حياته، إلى غير ذلك من الأقوال غير الصحيحة، وهذا الهراء في القول ناتج عن عدم قيام الدولة العثمانية واليمانيين بدعاية صحيحة عن اليمن، ويا حبذا لو كنتم سموكم الآن تهتمون بهذا الشأن.

فقال: لا يوجد عندي من الوقت متسع للقيام بدعايات لا أخالها تفيدنا في قليل أو كثير.

فقلت: كلا يا مولاي! إن للدعاية تأثيراً قوياً وخاصة عن بلاد يجهلها العالم جهلا تاما كاليمن، ولا يعرف ماذا يجري فيها، وكنا أيام الدولة العثمانية لا نعرف عن اليمن إلا أنها مقبرة للجنود العثمانيين، وهنا تبسم سمو الأمير ابتسامة النصر وقال: نعم لقد كان اليمن مقبرة لجنود الدولة، لأن هذه الدولة استبدت بنا وبشعبنا وداست على حقوقنا، وتجاوزت الشريعة الإسلامية، وأقامت في اليمن حكما فرديا استبداديا، لذلك حاربناها حتى أجليناها عن اليمن بقوة السلاح، وها أنت ترى البلاد بعد جلائها تتمتع بأمن لا نظير له، وببحبوحة من العيش لا مثال لها(؟!) ونحن إلى اليوم لم نشعر وللّه الحمد بالأزمة الاقتصادية المستحوذة على العالم بأسره والتي لا تخلو جريدة من الشكوى منها شكوى مريرة.

ولما ذكر سمو الأمير السلاح برقت عيناه وتصلبت عضلات وجهه وكأني به يقول: وإن هذا السلاح لا يزال بأيدينا، وإننا دوما مستعدون أن ندافع عن بلادنا وكياننا بنفوسنا ودمائنا، وهنا رأيت أن زمن المقابلة طال كثيرا، فقدّمت لسمو الأمير

كتاب "قول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق" كهدية، فقال: ما هذا الكتاب، وما هي بحوثه؟

فقلت: إن هذا الكتاب هو تاريخ سورية وفلسطين والعراق منذ ابتداء نهوضها ومطالبتها بالاستقلال والحرية إلى عهدنا هذا، وقد ألفه رجل بريطاني يدعى المستر لودر كان موظفا في وزارة الخارجية البريطانية وفي جمعية الأمم، وهو واقف كل الوقوف على حوادث بلادنا وعلى الاتفاقات التي عقدت بين الدول المعظمة بشأنها، ومن مطالعته سوف ترون كيف خدع الإنكليز الملك حسين والعرب، وكيف كانوا يفاوضون الحسين -رحمه الله- لاستقلال الجزيرة العربية وفي نفس الوقت كانوا يتقاسمونها مع حلفائهم، إلى غير ذلك من البحوث المهمة التي تتعلق بنا وبقضيتنا، وقد نقلته إلى العربية على نفقتي الخاصة حبا في تنوير أذهان قومي وبيان الحقيقة لهم.

فقال: بارك الله فيك، سأطالع هذا الكتاب بإمعان إن شاء الله، وهنا ودعته وانصرفت وأنا معجب بذكائه وبما يبدوا عليه من النبل والشجاعة.

عدت بعد اجتماعي بولي العهد أحمد سيف الإسلام إلى الدار وأنا أفكر بهذه الشخصية الكريمة الممزوجة بالشجاعة واللطف والعلم والتواضع والكرم، وكان يرافقني أحد الجنود، فقلت له هل: خدمت بمعية أحمد سيف السلام؟

فقال: كلا، لم أحصل على هذا الشرف، وأنا وغيري من الجنود نتمنى لو كنا ننقل إلى جيش سيف الإسلام.

فقلت: ولماذا ذلك؟

فقال: لأن سيف الإسلام -أيده الله- يعتني بجنوده كثيرا ويعاملهم معاملة حسنة، ولي ابن عم يخدم بجيش سيف الإسلام فإذا كنت (تبغي) أي تريد فإنني (أنبه لك) أي أناديه فتسمع منه الشيء الكثير.

فقلت: إني أكون مسرورا جدا لو أحضرت لي ابن عمك. وان هي إلا هنيهة حتى غادرني الجندي بالطريق وذهب نحو صنعاء، وأما أنا فذهبت إلى الدار وبعد هنيهة عاد صديقي الجندي يصحبه ابن عمه، وقال: السلام عليكم.

فقلت: وعليكم السلام. هل أنت من جيش سيف الإسلام؟

فأجاب: نعم، حصل لي الشرف وخدمت في جيش سيدي أحمد مدة طويلة.

فقلت: وهل تحب سيف الإسلام؟

فقال: أي والله نحبه، لأنه كريم ويعامل العسكر معاملة ناهية جدا "أي جيدة جدا".

قلت: وهل حضرت معه معارك حربية؟

فقال: نعم، حضرت معه عدة معارك، ونحن نحارب القبائل العاصية، وكان سيدي أحمد -حفظه الله- يتقدم على الجميع وينقل سلاحه كأنه أحد الجنود، وهو يحسن الرماية جيداً ولا يخطئ بنيشانه الهدف أبدا، وفي الليل لا ينام إلا قليلا، ويتفقد الحراس والكركونات[1] والمراقبين ثلاث أو أربع مرات ليلا، ويأكل حفظه الله من طعام الجنود ويلبس كلباسهم، ويكاد المرء لا يفرق بينه وبينهم إلا بكثرة العتاد الذي ينقله.

فقلت له: وهل أنت معه الآن؟

فقال: كلا! صار لي نحو سنة بصنعاء، وقد نقلت إليها مع طابوري، وبالرغم من أن صنعاء بلدي وأنا هنا بين أهلي فوالله ثم والله كنت أُفضِّل أن أبقى مع سيدي أحمد سيف الإسلام في الحرب ولا أعود إلى صنعاء.

قلت: هل أنت وحدك تحبه هذا الحب لأنه كان يعاملك معاملة ناهية؟

فأجاب: كلا! لست أنا وحدي أحبه بل جميع الجيش، لا بل جميع أهل اليمن يحبونه لكرمه وشجاعته وأنسه وعطفه على الجيش وعلى جميع الناس.

فاكتفيت بهذا الحديث مع الجندي وشكرته على هذه المعلومات وصرفته إلى (عقفته)[2] أي إلى (فصيلته) وصعدت إلى غرفتي لارتاح قليلا.

ساعة مع رئيس الدلالين في عاصمة اليمن

ولم تطل استراحتي في الغرفة كثيراً إذ أتاني الخادم وقال: التاجر أحمد عبد الله عصدة يريد مقابلتك.

---

(1) الكركونات: جمع كركون، تركية: المركز العسكري. انظر : القاضي إسماعيل الأكوع: كلمات تركية في اللهجة اليمانية، مجلة المجمع العلمي العراقي، 13[1980م]، ص152.

(2) العقفة، تنطق بالكاف: عُكْفَة، سبق شرحها، وتعني الحرس الخاص للإمام او الأمير، ولا تعني الفصيلة من الجيش كما فهم المؤلف.

فسألته: وأين هو الآن؟

فقال: أدخلناه صالون الاستقبال، فلبست ثيابي ونزلت للحال، فوجدت أحمد عبد الله عصدة جالساً أمام الشادروان في صالون الاستقبال وأحمد عبد الله هو أحد التجار المعروفين في صنعاء ورئيس الدلالين، وقد تعرفت إليه اثر وصولي إلى صنعاء وتمكنت بيني وبينه عرى الصداقة، وعندما رأيته رحبت به وجلست أتحدث معه. فقال: إني أتيت لأدعوك لزيارتي، وقد سبق لك أن وعدتني مرارا بأنك ستزورني، والحر إذا وعد وفى.

فقلت: هلا تعفيني من الزيارة اليوم وتتركها إلى يوم آخر!

فقال: كلا! أتيت خصيصا لأذهب معك إلى دكاني وداري.

فقلت: حسناً، هيا بنا.

وسرت معه من دارنا في حي بئر العزب إلى الأحياء الوطنية في صنعاء ومررنا ببعض الأسواق والشوارع، ورأيت دكانا في أحد الشوارع يصنعون فيه الغلايين (البيبة) من القصب والخشب، وصناعة الغلايين صناعة لا يستهان بها في صنعاء لأن الطلب على الغلايين عظيم جدا فأكثر رجال القبائل يدخنون الغلايين، وهذه الغلايين تشبه الغلايين الإنكليزية والفرنجية من حيث الصناعة والهيئة ولكنها تختلف عنها بطولها فهي أطول منها كثيرا، وقد شاهدت بعضها يزيد طولها على الذراع.

وصلت إلى دكان أحمد عبد الله فجلست على كرسي خشبي وأجلت بصري فيما حولي فرأيت دكانه مملوءة بالسجاجيد العجمية والنحاس القديم والحديث وعقود الكهرمان الأصفر الذي تتحلى به معظم نساء اليمن فيضعنه في أعناقهن وهو من صنع ألمانيا، ورأيت أيضاً أكداساً من الصايات الحريرية وصايات الديما من شغل بلادنا، وأراني حضرته بعض السجاجيد القديمة وهي في الحقيقة جميلة جداً أعجبتني منها واحدة فأردت ابتياعها ولكن ثمنها الفاحش حال دون تحقيق أمنيتي.

جلست نحو نصف ساعة في الدكان وأنا أراقب المارة وأكثرهم من القرويين ورجال القبائل يأتون عادة إلى صنعاء كل يوم ويجلبون معهم حاصلات قراهم وبلادهم كالحنطة والشعير والزبيب والتمر والجوز والحيوانات فيبيعونها في صنعاء

ويعودون أدراجهم بعد أن يبتاعوا حاجياتهم من صنعاء. وقد قدم لي أحمد عبد الله نوعا من الحلوى ''كراحة الحلقوم'' عندنا، فسألته من أين تجلبون هذه الحلوى؟

فقال: من قاع اليهود، وهي من صنعهم.

فقلت: وهل تصنعون الملبس والنوقة والشوكلاتا؟ فلم يفهم مني حضرته ما هي النوقة والشكولاتا، وأما المَلَبَّس فقال، نعم يصنع اليهود عندنا ملبساً، وجلب لي منه للحال وهو لا يختلف عن ملبسنا بل يشابهه كل الشبه

بعد قضاء وقت قصير في الدكان ذهبت مع أحمد عبد الله إلى داره وهي لا تبعد عن دكانه كثيراً، فطرق الباب ففتحوه له من الداخل بواسطة حبل طويل مربوط فيه، فصعد أمامي في درج عريض لولبي إلى الطابق الثالث وأدخلني غرفة فسيحة مفروشة بالطنافس والسجاد العجمي والفرش الوثيرة الممدودة إلى الأرض، فاقتعدت واحدة منها، وشاهدت فوق رأسي وحولي إلى الجدران رفوفا عديدة وضع على بعضها صحون نحاسية قديمة وآنية من الصيني والخزف، ووضع في منتصف الغرفة صدر كبير من النحاس الأصفر وحوله عدة (أراكيل) من مشغل صنعاء بعضها نحاسية وبعضها خشبية، وما كاد يستقر بنا المجلس حتى جلبوا لنا الشاي فشربناه وتبادلنا أطراف الحديث قليلا، ثم دعاني حضرته إلى الصعود (للمنظرة) أي الغرفة العالية فوق البيت، فصعدت وإياه فوجدنا والده جالسا فيها يتناول طعامه، فقال: تفضلوا وكلوا معنا. فقلت: شكرا يا سيدي سبقناكم بالطعام قبل وقت يسير.

فقال: لا! بل يجب أن (تمالحونا)، أي تأكلوا من خبزنا وملحنا.

فقلت: حسنا، وجلست إلى الأرض بجانبه وأخذت قطعة من الخبز وأكلت منها شيئاً مما كان يأكله، وما كدت أمضغ اللقمة في فمي حتى شعرت كأن النار تلتهب في فمي، فبلعت اللقمة بلعا واكتفيت بها. وسألت والد عبد الله: ما هذا الطعام؟

فقال: بذر حُلْبَة مطبوخ مع اللحم.

فقلت: لاشك إنه شهي جدا ولكنه حار للغاية.

فقال: نعم إنه حار لأننا نضع معه كثيرا من الفليفلة الحمراء.

خرجت من المنظرة مع أحمد عبد الله وصعدنا إلى سطح الدار فرأينا صنعاء تبدو تحتنا بمآذنها العجيبة وهي على غاية الجمال. فسألته: كم تظن يبلغ عدد الدور في صنعاء؟

فقال: على وجه التقريب 15000 دار.

فقلت: وكم عدد نفوسها؟

فقال: نحو 70000 رجل مقاتل.

فقلت: ألا يوجد دائرة نفوس عندكم؟ وهل أحصت هذه الدائرة عدد النفوس؟

فقال: لا أعلم ذلك، ولكن جميع أهل صنعاء يقولون أن صنعاء تجنِّد عند الحاجة سبعين ألف مقاتل.

قلت: حسنا، هيا بنا ننزل. فنزل أمامي وأراد أن يدخلني إلى غرفة الاستقبال مرة ثانية فاعتذرت وأردت الانصراف، فقال: تفضل قبل أن تذهب وشاهد بعض السجاجيد!

فقلت: حسنا، ودخلت وإياه إلى غرفة كبيرة يستعملها حضرته كمستودع (دبو) للسجاد، فرأيت فيها شيئاً كثيرا من السجاد العجمي القديم والجديد ولكني لم أسأله عن الثمن لأني أدركت مقدما أنه فاحش جدا، وما كدنا نخرج من المستودع حتى ودعته وانصرفت، فأراد حضرته أن يرافقني إلى الدار، فشكرته على هذا اللطف وقلت: لا، بل أسمح لي أن أذهب بمفردي لأنني سأعرج في طريقي على مدرسة الأيتام وغيرها من الأماكن.

سرت بمفردي إلى مدرسة الأيتام، فاستقبلني مديرها وهو أسمر اللون ونحيف البنية ومن أصل حبشي، وكان حضرته مستخدما أيام الدولة العثمانية في (معية) الوالي، وهو يتقن التركية، فسألته: متى تأسست هذه المدرسة، ومن أسسها؟

فأجاب: بأنها تأسست هذه السنة في آب سنة 1927 وأسسها جلالة الإمام يحيى.

فقلت: وكم عدد طلبتها؟

فقال: ستمائة طالب.

فقلت: وهل هم ليليون أم نهاريون؟

فقال: أربعمائة ليليون ومائتان نهاريون.

فقلت: هل هم من صنعاء؟

فقال: بعضهم من صنعاء وبعضهم من خارجها.

فقلت: ماذا تدرسون للأولاد؟

فقال: القراءة والكتابة والإملاء والصرف والنحو والقرآن.

فقلت: وكم صفاً عندكم؟

فأجاب: ثلاثة صفوف، ومتى أتم التلميذ الصف الثالث يدخل المدرسة الرشدية[1] أو المدرسة العلمية المتوكلية.

فقلت: وهل تقدم الحكومة طعاما ولباسا للطلبة؟ فأجاب بالإيجاب.

فقلت: وكم عدد المعلمين؟

فقال: كثيرون وبينهم أستاذ تركي الأصل. وأدخلني إلى أحد الصفوف فرأيت الطلبة جالسين إلى مقاعد خشبية أزواجاً أزواجا وأمام كل زوج منهم القرآن الكريم وكانوا يقرءون جميعهم في وقت واحد ويكاد صوتهم يبلغ عنان السماء.

فقلت للمدير: لماذا لا تدعون كل طالب يقرأ بمفرده؟

فقال: أحيانا يقرأ الطالب بمفرده أمام أستاذه، وأحيانا يقرأ جميع الطلبة جميعاً على سبيل التمرين، ورأيت أحد أساتذة الطلبة من مشايخ صنعاء وكان جالسا أمام تلامذته، وبعد أن وقفت هنيهة خرجت من غرفة الدرس وتجولت في سائر غرف التدريس والطعام وساحة اللعب، فوجدت كل شيء على ما يرام، وسررت جداً لعناية جلالة الإمام بتربية الأطفال الأيتام، وقلت: يا حبذا لو كان يفتح مدارس للأيتام في جميع أنحاء اليمن ولا يكتفي بمدرسة صنعاء فقط. ثم مررت بالمدرسة الحربية ودخلت إليها فوجدتها بناية عظيمة قديمة قد بناها الترك أيام احتلالهم لليمن.

---

(1) الرشدية: كلمة تركية: المدرسة الثانوية. سبق تفسيرها.

الجامع الكبير

خرجت من المدرسة ويممت شطر الجامع الكبير وهو جامع قديم يصلي فيه الإمام أيام الجمعة، وهو كناية عن فسحة كبيرة حولها أربعة أروقة مفروشة بالسجاد والحصر، ويجلس في أحد هذه الأروقة شيخ عالم جليل طاعن في السن يقال له السيد إسماعيل الديمي[1] (؟) وهو إمام هذا الجامع ومدرس فيه، وقد رأيته جالسا يحتاط به جمع غفير من التلامذة صغارا وكبارا وهو يلقي عليهم بعض الدروس الدينية، وقيل لي أنه يوجد عدة مدرسين خلافه، في هذا الجامع وهو ليس مسجدا فقط بل مدرسة أيضاً، وفيه مكتبة قيمة جدا تحتوي على أنواع الكتب الخطية القديمة والحديثة وخاصة المصاحف القديمة المشهورة، وقد استرعى نظري محراب هذا المسجد فهو بسيط جدا ومكتوب فوقه بعض الآيات القرآنية بحروف كبيرة نافرة لم أشهد مثلها من ذي قبل.

وقد أخبرني البعض أن جميع مساجد اليمن تستعمل كمدارس أيضاً، ويوجد في كل مسجد عدة مدرسين يعلمون الطلبة القراءة والكتابة والدين والإملاء والإنشاء والصرف والنحو. ولا يوجد مدارس بالمعنى المفهوم عندنا إلا في صنعاء والحديدة وبعض المدن الكبيرة، ولكن المساجد تقوم مقام المدارس في أغلب القرى والنواحي الصغيرة، ولذلك كانت نسبة المتعلمين إلى الأميين نسبة كبيرة جدا. خرجت من الجامع وسرت نحو الدار من (باب عدن)[2] في طريق خلف سور المدينة، ومررت ببعض الجبانات فوجدتها دارسة، وخلتها لأول وهلة قديمة جدا، فسألت أحد عابري السبيل: هل هذه الجبانات قديمة؟

فقال: نعم، هي قديمة وجديدة في آن واحد.

فقلت: هل يدفنون الموتى فيها إلى الآن؟

فأجاب: نعم. فقلت: ولكن أرى جميع القبور أي القديمة والحديثة متشابهة وكلها دارسة.

---

(1) الديمي: كذا في الأصل، ولعله الديلمي.

(2) باب عدن: باب اليمن.

فقال: نعم وخير القبور الدوارس، ونحن هنا لا نبني قبورنا ولا نكتب عليها ولا نقيم قباباً أو ما أشبه فوقها.

فقلت: حسناً، ونِعم ما تفعلون، وسرت إلى الدار منهوكا من التعب.

الروضة وقرية القابل

ذهبت في أحد الأيام إلى الروضة وقرية القابل، وهما قريتان، تبعد الأولى منهما عن صنعاء بضعة كيلومترات، والثانية أبعد قليلا، وهما تشبهان (دُمَّر) و(الجديدة) عندنا ويقصدهما الناس للتسلية والنزهة. ويمتد الطريق إلى الروضة والقابل في سهل واسع أرضه خصبة جدا وتحيط به عدة جبال وآكام، وقد رأيت بعض هذه الآكام مغروسا تينا بعلا، وبعضها مغروسا حنطة وشعيراً بعلا أيضاً، ومررنا في أول الطريق ب(غيل المهدي) و(غيل مصطفى) وهذان الغيلان أو النهران ينبعان في سهل صنعاء الواسع ويجريان تحت الأرض على عمق مترين أو ثلاثة، ومجراهما قديم جدا يشبه مجاري أقنية الماء الرومانية الموجودة عندنا في الشام. بعد مضي برهة من الزمن وصلنا إلى قرية الروضة وهي تشبه صنعاء من حيث البناء والحدائق الغناء، ودخلنا إلى حديقة فسيحة فيها دار واسعة تخص جلالة الإمام ويمر منها غيل يقال له (غيل البليلي) وقد رأيت في هذه الحديقة الروضة من شجر القات، وفيها أيضاً بضع شجيرات من الزيتون وشيء كثير من المشمش والرمان والفلفل والليمون الحامض والكرمة إلى غير ذلك من الأشجار المثمرة الكثيرة، دخلت الدار فوجدت الدور الأول مخصصاً حسب العادة للحيوانات ولا نوافذ له، والدور الثاني مخصصاً للحبوب والمونة[1] والدورين الثالث والرابع مخصصين للسكن، وهما مبنيان على نسق دور صنعاء وفيهما النوافذ ذات الزجاج الملون والمرمر. وبعدما طفنا القرية وشاهدنا مسجدها الجميل ومأذنته البديعة أتممنا السير إلى قرية القابل ومررنا بقرية صغيرة تدعى (عُلمَان)[2] وبعد مسير ثلاثين دقيقة وصلنا إلى قرية القابل، وهي قرية صغيرة

---

(1) المونة: مايدخر من القوت، وبيت المونة: ماتوضع فيه المونة من السمن والزيت وغيره. المنجد:(مون). قلت: في العامية اليمنية تستخدم المونة بمعنى الذخيرة الخاصة بالأسلحة الخفيفة.

(2) في الأصل: علما، والصواب: غلمان، بزيادة نون في آخرها، وهي قرية في أسفل وادي ضهر من الجهة الشرقية وغرب الروضة، وتبعد عن صنعاء شمالا زهاء 12كم. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 610/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1106/2.

جميلة تشبه حدائقها وبساتينها حدائق الغوطة عندنا، ولما تغلغلت في هذه الحدائق مرت ببالي ذكريات جميلة ولذيذة وخلت نفسي في غوطة الشام.

قادنا السيد هاشم الذي أوفده معنا جلالة الإمام كرفيق يهدينا إلى الطريق ويضمن لنا راحتنا في الحل والترحال إلى دار جميلة في حديقة واسعة لم يتم بناؤها بعد، وقد رأينا العملة منهمكين في البناء، وكان بعضهم يبني سوراً حول الدار ويشبه هذا السور (الدكوك) التي نقيمها حول حدائقنا في جهة الصالحية، وكان البعض يهتمون بإتمام بناء الدار. طفنا حديقة هذه الدار وبعض الحدائق التي تحيط بها فشاهدنا فيها تيناً ورماناً وعنبا وسفرجلا وتفاحا ونارنجا وليمونا وكبادا إلى غير ذلك من الأشجار المثمرة، ولكنها ويا للاسف مهملة لا يعتني أصحابها بها بل يتركونها للطبيعة وقد تدلت أغصانها إلى الأرض وتشبكت بعضها ببعض فصارت (كالاحراج) الطبيعية البرية.

وبعد الطواف في هذه الحدائق الغناء صعدت إلى الطابق العلوي في الدار فرأيت أمامنا قصراً عظيما تداعت أطرافه وهو مبني على رابية عالية ويمكن للمقيم فيه أن يسيطر من الوجهة (الدفاعية) على الجهات الأربع، فسألت لمن هذا القصر؟

فقيل لي: كان هذا القصر يخص أحد الأئمة المتقدمين وقد تداعى بناؤه ولم يشيده أحد، وشاهدت أيضاً من الدار قرية القابل، وبعض دورها مبنية من الحجر وبعضها مبني من الآجر، وجميعها قائمة في منتصف واد فسيح يقال له (وادي ضهر)[1] ويحيط بها من الشمال والغرب سلسلة من الجبال غير البركانية (سيد منتري) وتمتد هذه الجبال إلى غرب صنعاء، وفيها طبقة عظيمة من الحديد الجيد؛ ويجدر بالذكر هنا أن نقول أن طبقات الأرض الجيولوجية تتغير عندما يسير الإنسان من صنعاء شمالا وفي بادئ الأمر تختلط الجبال البركانية بالجبال غير البركانية (سيد منتري) ثم تصبح جميع هذه الجبال في جهات (وادي ضهر) غير بركانية ويكثر فيها

---

(1) في الأصل: وادي ظهر، بالظاء، وصوابها: "وادي ضهر" بالضاد المعجمة لا بالظاء، ويخطئ كثير من الناس في كتابتها نتيجة لشيوع كلمة (الظهر)، وهو منسوب إلى ضهر بن سعد بن عريب بن ذي يقدم، وهو من أشهر منتزهات صنعاء، ويعرف اختصارا بالوادي، ويشتهر بمياهه الجارية وفواكهه المتنوعة، ومن أبرز معالمه "قصر الحجر"، ويقع "وادي ضهر" في شمال غرب العاصمة صنعاء ويبعد عنها نحو 14 كيلومتراً. انظر: الإكليل للهمداني 73/2، 321-322، 119/8-127، صفة جزيرة العرب، له أيضا، ص 136-137، مجموع بلدان اليمن وقبائلها 554/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 949/2.

وجود العروق الصخرية الصلبة المسماة (كورتز)، طفنا في وادي ضهر وشاهدنا حدائقه ومياهه الغزيرة اللذيذة وصعدنا إلى قرية حقيرة مبنية على تل كبير وتبعد قليلا عن قرية القابل، ويوجد حولها مغاور كبيرة محفورة حفراً في الجبال وقد قيل لنا أنها من عهد حمير، وأن الحميريين كانوا يستعملونها دوراً لسكناهم، وأما أنا فأظن خلاف ذلك وأعتقد بأنها ليست دوراً بل جبانات للموتى[1]. عدنا بعد طوافنا هذا إلى الدار فوجدنا طباخ جلالة الإمام الذي جاء معنا قد أعد لنا أنواعاً كثيرة من الطعام ووجدنا السيد أحمد هاشم في انتظارنا لأنه لم يرافقنا في طوافنا لشدة تعبه فجلسنا وإياه إلى سماط أعد لنا على الأرض وتناولنا الطعام "بالخمسة والكف" بشهية زائدة، وبعد تناول الطعام جلسنا نتبادل أطراف الحديث مع السيد المشار إليه، وجلس حضرته يمضغ قاته ويدخن مداعته "أركيلته" وقال لنا: إنه مسرور جدا بهذه الرحلة لأن القات هنا جيد جدا، وكان حضرته يتكلم وفمه محشو بالقات، فقلنا: "كل هنيئاً وامضغ مريئاً" وقد طالت جلسة القات نحو ساعتين ونصف ساعة تقريباً، وبعد فراغ السيد أحمد من (تخزين) قاته ركبنا سيارتنا وعدنا إلى صنعاء ونحن مسرورون جداً من هذه الرحلة اللطيفة الجميلة.

وقد بنى جلالة الإمام في هذه القرية مسجداً جميلاً صلينا فيه مرارا عندما زرنا القابل بمعية جلالته.

بعدما قضيت في صنعاء أكثر من شهر من الزمن عولت على العودة إلى مصر، ولما كنت أكره سفر البحر كثيراً لأنني أصاب بالدور وخاصة في السفن الصغيرة التي تروح وتغدو بين الحديدة وعدن فكرت بالعودة إلى عدن عن طريق البر، أولا لأتخلص من البحر ودواره، وثانيا لكي أتمتع بمشاهدة اليمن أكثر فأكثر، وبما أن السفر عن طريق البر يحتاج إلى إذن خاص من جلالة الإمام صممت على طلب هذا

---

(1) بل هي مقابر صخرية، منحوتة في الصخر كما ظن المؤلف، وهي تشابه مقابر " شبام الغراس "، وكانت أكثر الجثث فيها محنطة، ولكنها تعرضت للنهب والتخريب من قبل الأهالي مع مرور الزمن، وقد زارها الحسن بن أحمد الهمداني (المتوفى سنة 334هـ) وذكر وصفها في الإكليل (125/8) بقوله: " وفيه من البيوت المنحوتة في الصخر في جوانب القلعة ما ليس في بلد، وكأن هذه البيوت خروق: نواويس لموتاهم، وهم فيها إلى اليوم، وقد رأيت جثثهم ففيها ما يزيد [في الطول] على أهل عصرنا وما هو مثلها، وأكثرهم قد صاروا عظاماً متناصلة، إلا أنها صلاب فما كان منها حديث فعظمهُ ودك، وما كان قديماً فعظمهُ أبيض، وقد بقي من أكفانهم ما كان من جليل الكتان".، وانظر أيضا: http://www.sanaa2004.net/g-sanaa.php

الأذن عند وداع جلالته، فقمت ذات يوم مبكرا وسرت نحو سراي جلالته وأخذت لجلالته معي بعض الصحف المصرية وقد جاءت فيها أخبار كثيرة عن اليمن

وصلت إلى السراي قبل خروج جلالة الإمام وجلوسه في الناس تحت شجرة الفلفل ليقضي بينهم فانتظرت قليلا في ساحة السراي وأخبرت رئيس الحراس بأني أرغب مقابلة الإمام، فأجابني حضرته بأنه سينب "أي سيخبر" الإمام بقدومي ولم يمض بضع دقائق حتى أتاني الأذن بالمثول بين يدي جلالته داخل حديقة قصره، فدخلت عليه وكان جلالته جالساً على كرسي خشبي عال وأمامه كرسي خشبي واطئ فحييته بقولي: أسعد الله صباح جلالة أمير المؤمنين وهممت بتقبيل يده فدفعها لي، ولما لمستها سحبها بلطف زائد، وأجاب: صبحك الله بالخير والعافية، كيف حالك وهل من حاجة تروم قضاءها؟

فقلت: نعم يا مولاي أني أرغب بالعودة إلى مصر عن طريق عدن برا وأرجو جلالتكم أن تسمحوا لي بذلك.

فقال: إن طريق البر بعيدة ووعرة وستلاقي فيها مشقة لا يستهان بها.

فقلت: إني أفضل سفر البر على سفر البحر يا صاحب الجلالة لأني أصاب في البحر بالدوار أولا، وأرغب في مشاهدة اليمن ثانياً.

فقال جلالته: مادام الأمر كذلك فإني أسمح لك بالسفر عن هذه الطريق وسآمر بلزوم إعطائك جندا وبغالا لهذه السفرة.

فقلت: شكراً وألف شكر لكم يا مولاي.

فقال: ولكن لماذا هذه السرعة هل مللت من السكنى باليمن؟

فقلت: كلا يا مولاي لم أمل السكنى، ولكني مرضت قليلا وأرغب في العودة إلى مصر لكي أتعالج.

فقال: مادام الأمر كذلك سر على بركة الله.

فقلت: سأسافر غدا صباحا إن شاء الله.

فقال: حسناً.

أطلعتُ عندئذ جلالته على جريدة الأخبار المصرية وقد جاء فيها أن أنيس باشا الطيار المصري المعرف سينشئ بالوكالة عن سمو الخديوي عباس بنكا في اليمن، وسيشرع في تعبيد الطرق ومد السكك الحديدية وجلب الطيارات إلى غير ذلك من الأخبار والمشروعات.

فقلت: هل هذا صحيح يا صاحب الجلالة؟

فقال: كلا! هذا غير صحيح، ولكن ما قولك يا نزيه في الاستعانة بالخديوي عباس لتأسيس بنك في اليمن؟ وهل للخديوي عباس علاقة بالدول الأجنبية؟

فقلت: علمكم أوسع يا مولاي، وأما هذا العاجز فلا يرى بأساً من الاستعانة بصاحب السمو الخديوي عباس، ولا أعتقد أن لسموه علاقات سياسية مع الدول الأجنبية، وهو رجل مثر عظيم يمكن الاستعانة به دون خوف أو وجل. ثم قرأت له في جريدة ثانية أخبارا عن عسير وعن تأسيس الإدريسي تلغرافاً لاسلكيا في جيزان وعن تعدياته على اليمانيين وتجاوزه على أراضيهم، فكذّب جلالته أمر هذه التعديات وأقر نبأ تأسيس التلغراف اللاسلكي.

فقلت: ألا يرى صاحب الجلالة لزوما لتكذيب هذه الإشاعات؟!

فقال: أنا لا أعول على أخبار الجرائد، ولا اكذب شيئا، ولا أهتم بما ينشر عني أبدا، فلو أردت أن أكذب كل خبر غير صحيح ينشر عني وعن اليمن في الجرائد التي يبلغ عددها ألوفا كثيرة لأضعت جميع أوقاتي في هذه القشور وضيعت اللباب.

فقلت: ولكن يا مولاي إن للجرائد تأثيرا لا يستهان به في الدعايات والنشريات.

فقال جلالته: أيوجد في البلاد العربية بلد فيها جرائد اكثر من مصر؟

فقلت: كلا يا مولاي، إن مصر تفوق جميع البلاد العربية حتى وبعض البلاد الأوربية في عدد صحفها وإتقان هذه الصحف نشر الأخبار والقيام بالدعايات.

فقال: وهل حققت هذه الجرائد الكثيرة المتقنة لمصر استقلالها؟

فقلت: كلا! ولكنها أنارت الرأي العام في أوربا بأن هنالك قضية مصرية، وأن هذه القضية لم تحل بعد ولا تزال موضوع مشادة عنيفة بين مصر والإنكليز.

فقال: حسناً حسناً، ونهض واقفا، فنهضت للحال، فخرج جلالته من باب الحديقة ودخل إلى فسحة السراي الكبيرة وجلس تحت شجرة الفلفل ودعاني للجلوس بجانبه فامتثلت الأمر طائعا وجلست أراقب حركاته وسكناته، وكان جلالته يقبل وقتئذ شكاوي الناس ويقرأ عرائضهم ويحولها إلى مراجعها الإيجابية بخط يده الكريمة.

وبينما نحن على هذه الحال وإذا بغلام صغير ينادي بأعلى صوته: وامتوكلاه وامتوكلاه!! وكانت نبراته تدل على الفزع والرعب. نهض جلالة الإمام واقفا عند سماعه هذه الاستغاثة ونادى بالحجاب: عليَّ بالغلام، وبرقت عيناه بريقا مخيفا وتقلصت عضلات وجهه وفارقته الابتسامة اللطيفة وحل محلها عبوس شديد وتقطيب مخيف. فوقفت إلى جانبه وحبست أنفاسي وأخذت أراقبه وأراقب الجنود وإن هي إلا لحظة حتى أتى الحاجب بغلام يافع طرح نفسه على أقدام الإمام واخذ يقبلها ويقول: مظلوم يا أمير المؤمنين مظلوم! ويحولون دون وصولي إليك، ورفع له عريضة كان يحملها في يده. رفع جلالة الإمام الغلام من فوق الأرض بيده الكريمة وأجلسه أمامه وقرأ عريضته وحولها إلى مرجعها الإيجابي. ونادى بالحاجب: احضروا الحارس الذي منع هذا الغلام من الوصول إليَّ، فأحضروه للحال، فأمر جلالته بجلده أمام رفاقه وسجنه فورا، وسيق إلى السجن في الحال. وهذا الحارس هو نسيب للغلام وأراد أن يحول دون وصوله إلى الإمام لأن شكواه تضر بمصلحته الخاصة فكان جزاؤه الجلد والسجن: وقد ذكرتني هذه الحادثة بقول السيد المسيح: "دعوا الصغار يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله"

وكان جلالة الإمام يلبس هذا النهار على رأسه عمامة بيضاء كبيرة ويرتدي ثوبا حريريا رقيقا وفوقه قنباز حريري مصنوع من صايات الشام ويتشح بوشاح ثمين وجميل ويتمنطق بجنبية يمانية وحزام يماني وقد علق في جنبيته سبحة (كارباء) صفراء اللون وعدد حباتها مائة حبة وحبة ويحمل حساما يمانيا خفيفا نصفه مذهب ونصفه مفضض. وبعد ما هدأ روع الإمام وخف غضبه استأذنته بالانصراف قائلا: إذا كان لجلالة الإمام خدمة خارج اليمن يرغب قضاءها فإني رهن إشارته وطوع أمره.

فقال: ليس لي من حاجة، إنما لا تنسانا يا ولدي واكتب لنا أينما كنت وكيفما توجهت.

فقلت: سمعا وطاعة يا صاحب الجلالة، وبالفعل قمت بهذه الوصية حق القيام ولا أزال إلى هذا التاريخ أكتب لجلالته بين حين وآخر.

وفي نهاية هذا الحديث قبلت يده وانصرفت وأنا أفكر فيه وفي عدله ولطفه ولينه وشدته معاً.

حديث مع عامل صنعاء السيد حسين عبد القادر

زارني صباح ذات يوم في رحلتي الأخيرة سنة 1936 على حين غرة عامل صنعاء السيد حسين عبد القادر دون أن يرسل جنديا أمامه ليخبرني بوصوله كما هي العادة المتبعة عند السادة وكبار رجال الدولة، والسيد حسين عبد القادر من الرجال الذين يشار إليهم بالبنان، وهو ضخم الجثة، جميل الوجه، كبير الرأس، طويل القامة، متناسب الأعضاء، خفيف اللحية، يضع على رأسه عمامة بيضاء، ويتمنطق بجنبية قديمة، ويلبس أثوابا حريرية من شغل الشام، وقد كان حضرته أيام الترك قائمقاماً باليمن، ثم انتخب مبعوثا ''أي نائبا'' عن اليمن في (مجلس المبعوثان) العثماني، وذهب إلى اسطانبول، وفي أول حكم جلالة الإمام واحتلاله للحديدة عينه جلالته عاملا على الحديدة وتهامة، وبقى هنالك عدة سنوات، وفي أول رحلاتي إلى اليمن قابلت سيادته في الحديدة وأعجبت بلطفه ومقدرته، وتمكنت بيننا الصداقة، ولما كان سيادته من الذين يحافظون على المودة فقد تلطف بهذه الزيارة الفجائية غير المنتظرة لأن حضرات السادة في اليمن قلما يزورون أحد من ضيوف اليمن قبل أن يزورهم وخصوصاً إذا كانوا من العمال والحكام. وما كاد يستقر به المقام حتى قال:

الحمد للّه على العافية، كيف أنتم وكيف حال أهلكم وبلادكم؟

فقلت: أما نحن فإننا – للّه الحمد – بخير.

فقال: الحمد للّه على العافية، وهيا سامحوا على قصورنا[1]، لأننا لم نأت لزيارتكم قبل اليوم حيث أننا لم نعلم بوصولكم إلا هذا النهار من صديقكم وصديقنا السيد محمد زبارة، وقد كنا أبصرناكم في الطريق عن بعد ولم نعرفكم.

فقلت: على كل حال أشكركم على هذه الزيارة.

فقال: لا شكر على واجب، وهذا بيتنا قريب منكم وهو بيتكم، فمروا بما شئتم.

فقلت: جعله الله عامراً وأطال عمركم وأكثر من أمثالكم.

فقال: متى خرجتم من دمشق؟

فقلت: قبل أربعين يوماً تقريباً.

فقال: وكيف حال بلادكم؟

فقلت: إنها تسير من سيئ إلى أسوأ في ظل الانتداب وإننا نغبطكم أنتم معاشر اليمانيين على الاستقلال المتمتعين به والذي لا يعرف قيمته بعض رجالكم، وفي الحق أن الاستقلال كالصحة لا يعرف قيمتها إلا المريض، والاستقلال لا يعرف قيمته إلا المستعبد.

فقال: صحيح، صحيح، لا حول ولا قوة إلا بالله، وما هي أخباركم الأخيرة عن حالة الدنيا؟

فقلت: كما تسمعون وتقرءون في الجرائد، الدنيا قائمة وقاعدة بسبب حرب إيطاليا والحبشة، وبريطانيا تناصر الحبشة في جمعية الأمم.

فقال: نعم هذا صحيح، ولكنها بدون شك لا تفعل ذلك حبا في جمال عيون الحبشة، وإنما تفعله حبا في مصلحتها الخاصة إذ هنالك منابع النيل وطريق الإمبراطورية إلى الهند واستراليا.

فقلت: لا ريب في ذلك، فلو أن بريطانيا كانت حقيقة تحافظ على عهد جمعية الأمم كما تزعم لوقفت هذا الموقف ضد اليابان عندما ابتلعت منشوريا لُقْمة سائغة.

---

(1) أي على تقصيرنا.

فقال: نعم، كان من الواجب أن تفعل ذلك، لأن بلاد منشوريا بلاد عظيمة وسكانها يعادلون عدد سكان اليابان تقريباً.

فقلت: وهل تظنون أن لنا فائدة من هذه الحرب؟

فقال: ويا للأسف إن العرب متفسخون ومقسومون بعضهم على بعض فتجد كل قطر يعادي القطر الآخر، وسكان نفس القطر الواحد غير متفقين فيما بينهم، فلو كنا كلمة واحدة وشددنا أزر بعضنا بعضا لاستفدنا فائدة عظيمة وخشيتنا الدول الطامعة فينا، فلو اتفق اليمن والحجاز ونجد العراق مثلا وصاروا يقولون قولا واحدا ويتبعون سياسة خارجية واحدة فلاشك أنهم يستفيدون فائدة عظيمة، وقد تعم هذه الاستفادة أيضاً المناطق المشمولة بالانتداب والحماية الأجنبية، وعلى كل حال يجب أن لا يغرب عن بالكم أنه من الواجب علينا أن نستعد للطوارئ وذلك بأن نجهز أنفسنا بكل شيء يدفع عنا طمع الطامعين، ومما يسترعي نظري في هذا العصر الذي يقولون عنه عصر العلم والفن والرحمة والشفقة والنظام والقانون ..إلخ. والذي يستهجن فيه معاصرونا من الفرنجة عادات العرب القديمة ويؤاخذونهم عليها كوأد البنات[1] مثلا، ولا يؤاخذون أنفسهم على وأد الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والعجزة بقنابل مدافعهم وقذائف طائراتهم، وهم عوضا من أن يعترفوا بفظاعة هذا العمل المشين يقولون عنه كما هي الحال في الحبشة الآن: إنه عملية تطهير وتمدين .. إلخ.. إلخ.

ولذلك فإني أرى من الواجب علينا معاشر العرب أن لا نأخذ بأقوال الغربيين المعسولة ووعودهم المزخرفة المطاطة، بل يجب أن نستعد كما قلتُ سابقا للطوارئ كل الاستعداد، وقد جاء في الأمثال اليمانية عندنا قولهم: "يا عنز يا رابضة كل المكامن عليه". أي يا عنز يا جالسه كل الأنظار متجهة إليك.

فقلت: لاشك إنكم محقون في هذه الشكوى المريرة من تخاذل العرب، وأرى من واجبنا جميعا أن نسعى بالقول والعمل لتقوية الروابط العربية بكل الوسائل، وأرى أن العنز الرابضة هي اليمن، وأن بعض الدول الأجنبية طامعة فيه، وهي تظهر لكم الصداقة وتضمر خلافها.

---

(1) هذا مع العلم بأن اليونان -وهم أساتذة الفلسفة والأخلاق- كانوا يئدون الصغار الضعاف من الصبية والبنات على السواء. (المؤلف)

فقال: صحيح، صحيح، الله يحفظ الإمام، إنه عالم بكل شيء فلا يخفى ذلك عليه.

وبعد مضي بضعة أيام رددت الزيارة للسيد حسين عبد القادر في داره، فأدخلني أحد الجنود عليه إلى غرفة استقباله الكائنة في الدور الثاني، وكان سيادته جالسا فوق فرش وثيرة غطوها بالسجاجيد العجمية، وقد صفت الفرش في جنبات الغرفة ووضعت فوقها الوسائط الكثيرة ليتكئ عليها الجالسون، ورأيت في الغرفة أكثر من عشرة رجال من وجهاء صنعاء وساداتها وقضاتها جالسين فوق هذه الفرش يخزنون القات، فبادرتهم بقولي: السلام عليكم.

فأجاب الجميع: وعليكم السلام، ونهض العامل مسرعاً نحوي إلى الباب وقادني بيده إلى حيث كان جالساً، وقال: تفضلوا واجلسوا، وبعد قليل قدّم لي سيجارة، فقلت: أشكركم أنا لا أدخن.

فقال: مداعة!

فقلت: لم أستعملها في حياتي.

فقال: عجيب عجيب، ووافق على قوله الجمهور بأن أبدوا تعجبهم، وقال أحدهم: إن في التتن والتنباك راحة للإنسان.

فقلت: قد يكون ذلك حقاً مع بعض الناس، ولكن لا شك أن كثرته مضرة، ولكن سيجارة واحدة بعد الطعام تسهل الهضم وتسكن الرأس. فأجاب آخر: إن الإكثار من كل شيء مضر، فلو شربنا كثيرا من الماء لضرّنا.

ثم انتقلنا إلى الحديث عن القات، فقال العامل: إن فيه سلوى وراحة. ولم أشأ أن أدخل في جدال بمضار القات، لذلك وجهت إليهم هذا السؤال:

هل تعلمون من أين أصل القات؟

فأجاب العامل يقول: بعض الناس ان أصله من اليمن، ويقول آخرون لا بل ان أصله من الحبشة.

فقلت: وكيف صار استعماله عادة؟

فقال: يزعمون أن أحد الرعاة كان يجد كل يوم قسما من معزه يأكل من شجر القات فينام ويستريح بخلاف القسم الآخر الذي لا يأكل فلا ينام ولا يستريح، فأخذ الراعي ذات يوم شيئا منه وأكله فاستراح، فدلّ الناس عليه فصار عادة بينهم، ولا شك أنه يوجد بالقات مادة مثل الكينا، ويظهر هذا من طعمه وتأثيره في الجسم، فهو يقاوم الملاريا ويفيد في الوقاية من الحميات، وهذا ثابت بالتجربة، وقد صادق جميع الحاضرين على حديث العامل. فلم أرغب أن أدخل في جدال لا فائدة منه معهم، فغيرنا حديثنا إلى موضوعات مختلفة، تناولنا فيها حروب اليمن مع الترك وقيام جلالة الإمام بنهضته وتخليصه البلاد من النير التركي وتحضيرها وتجنيد الجند.

ثم سألني أحد الجلوس عن رأيي في الحرب الإيطالية الحبشية، فقلت: إنها حرب استعمارية فإيطاليا زاد عدد سكانها وقد ضاقت أرضهم فخرجوا يبحثون عن منفذ لهم فلم يجدوا أفضل من الحبشة لاتساعها وغناها وضعفها.

فقال: وهل تسمح لهم المعاهدات الدولية والاتفاقات العالمية بهذا الفتح؟

فقلت: يا صاحبي ان المعاهدات الدولية أصبحت قصاصات ورق لا قيمة لها ولا فائدة، وكل معاهدة لا تدعمها قوة المدفع والطائرة فهي معاهدة هوائية، ولاشك أنكم تذكرون أنه يوجد معاهدة صداقة ووداد بين إيطاليا والحبشة، وتعلمون أن إيطاليا هي التي أدخلت الحبشة في جمعية الأمم، ولكن لا المعاهدة ولا جمعية الأمم أفادت الحبشة في غزو الطليان لها، لأن الحقوق الدولية لا تؤيدها إلا القوة المادية، وفي مناسبات كثيرة تبين لنا أن الاعتماد على جمعية الأمم لا يفيدنا لأن هذه الجمعية ليست سوى أداة للقوي يستعملها في تنفيذ مطامعه مع الضعيف، ولكن لا يمكن استعمالها في الوقوف بوجه ما مع القوي ضد القوي.

فقال الجميع: صحيح، صحيح، وأظهروا تخوفهم من الجشع الإيطالي.

فقلت لهم: لاشك أنكم محقون في هذا الخوف.

فقال أحدهم: ألا تظن أن الطليان سيجندون الأحباش في المستقبل؟

فقلت: أنا على مثل اليقين بأنهم سيفعلون ذلك ويغزون بالأحباش غيرهم من الأمم المجاورة لهم، فأطرق الجميع إلى الأرض كأن على رؤوسهم الطير فبدلنا هذا

الحديث بغيره من الأحاديث المحلية. ثم استأذنت العامل في الانصراف وودعت القوم وعدت من حيث أتيت.

وداعا يا صنعاء

وفي صباح اليوم الثاني الموافق 2 كانون الأول سنة 1927 أتانا بعض الجنود إلى الدار يقودون عدة بغال وقالوا: أتينا من المقام الشريف لنسافر بمعيتكم إلى ماوية. فقلت: حسناً، حملوا هذه الأشياء والصناديق، فحملوها، وركبنا على أحد البغال وخرجنا من الدار بعد أن ودعنا بعض الأصدقاء الذين أتوا خصيصاً لوداعنا، وشعرت في ساعة الوداع بانقباض ووحشة رهيبتين في نفسي وخلتني أفارق بلدي وأهلي.

سار موكبنا من حي بئر العزب وخرجنا من (باب خزيمة) ووجهتنا (قرية حزيز)[1] وما كدنا نسير بضع دقائق حتى لحق بنا أحد السادة ممتطياً بغلا وقال: السلام عليكم، فقلنا: وعليكم السلام والرحمة والإكرام، إلى أين أنتم ذاهبون؟

فأجاب: إلى (حزيز) وأنا عامل الإمام عليها.

فقلت: أنعم وأكرم بكم، يسرنا جداً أن نترافق وإياكم في الطريق.

فقال: لا نكتفي برفقة الطريق فقط، بل نرغب لو قضيتم عندنا يوماً أو أكثر.

فقلت: أشكركم جدا على هذا اللطف.

وسارت طريقنا في مرتفع من الأرض نحو ثلاث ساعات كان يحدثنا فيها العامل السيد محمد عبد الله الطايفي أحاديث جميلة ولذيذة فلم نشعر بمرور الوقت.

وصلنا حزيز نحو الظهر وقادنا العامل إلى داره ولم يسمح لنا بالسفر إلا بعد تناول الطعام على مائدته، وبينما كانوا يعدون لنا الطعام خرجت إلى القرية ودخلت مسجدها وهو مسجد صغير وجميل وفيه بئر ماء يبلغ عمقها 70 قدماً. ويوجد في

---

(1) حزْيَز: بلدة من أعمال سنحان، من ضواحي العاصمة صنعاء، وتقع إلى الجنوب منها بنحو 8كم، وفيها اغتيل الإمام يحيى عام 1948م، وقد امتد إليها عمران مدينة صنعاء في الوقت الحالي.

الجهة الشرقية من هذه القرية جبل مرتفع يقال له (جبل المحاجري)[1] وفيه بعض المعادن، ويوجد إلى جانبه جبل آخر أعظم منه وأعلى منه ويقال له (جبل الخصفة)[2] وفيه شيء كثير من الآثار الحميرية. وبعد طوافنا في القرية ومشاهدة منازلها المبنية من الحجر والخُلَبْ "أي الطين" عدنا إلى دار العامل فوجدنا الطعام جاهزاً وهو مؤلف من بزر حلبة مدقوقة ومطبوخة باللحم وبيض مقلي بالسمن وخبز مقلي بالسمن أيضاً. تناولنا طعامنا بلذة زائدة، وكان حديث العامل ولطفه يزيدان في لذة الطعام، وبعد أن استرحنا قليلاً استأذنا العامل في السفر فأذن لنا وخرج لوداعنا حتى آخر القرية حيث امتطينا بغالنا ووجهتنا (وعلان) وسارت بنا الطريق في تصعيد خفيف، وتصلح هذه الطريق لسير السيارات، وكان الطقس جميلا والهواء عليلا مما أهاب بأحد جنودنا أن ينشد قصيدة عامية (قرادية) بنغم جميل وصوت عذب أنسانا الطريق والسفر وكل شيء غير المغني الجميل- ولدي طلبي له -واسمه حمادة بن أحمد ذهبان- أن يسمعني قصيدته أنشد يقول[3]:

ألا وابــــدأ نشـــيدي بـــالمنور[4]	**ويـــا ريـــت ان قلبـــي زايرنـــه**
ألا وادريـــس نزعهـــا بـــالتكبر	**غـرب نجمـه ولا شـي صـح منـه**
ألا بـــالله ســـائلك تنصـــر المـــام[5]	**وتقضـــي حاجـــة المطلـــوب منـــه**
وكـــم ولـــد مـــات فـــي تهامـــه	**مثـــل الكلـــب مـــا حـــد قابرنـــه**
عزمنـــا للجهـــاد فـــي فطـــر أول[6]	**والأخ الضـــيا[7] كـــان غافلنـــه[8]**

---

(1) كذا رسمه المؤلف، وأعتقد أن الصواب: (جبل المحاقرة)، والنسبة إليه المحاقري، والمؤلف كما يبدو دون هذه المعلومات على السماع من الناس، والنطق لحرفي الجيم والقاف متقارب في اللهجات المحلية اليمنية، وجبل المحاقرة من أعمال سنحان جنوبي سنحان بالقرب من حزيز. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 689/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1417/2.

(2) جبل الخصفة: لم أقف عليه، وأعتقد أن الكلمة محرفة. قلت: وجدت بعد ذلك اسم جبل الخصفة وكذلك جبل المحاجري في معجم البلدان والقبائل اليمنية (456/1) عند ذكر بلدة (حزيز)، واعتقد أن مصدرها هذه الرحلة لأن المعلومات التي وردت في المعجم عنهما تتفق مع ما أورده المؤلف هنا.

(3) قلت: التعليق على القصيدة العامية وشرح مفرداتها للمؤلف.

(4) النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

(5) الإمام.

(6) عيد الفطر.

(7) أخوه الذي يشبه القمر. قلت: كلمة الضياء عند أهل اليمن لقب لمن اسمه (حمود)، فذكر الجندي اللقب عوضا عن الاسم.

(8) غالب.

وثالث يوم ندخل عند مولاي[1] يعد القوم ويدي الصرف منه
فعدنا خمس أيام لا زيادة وقد أمر الإمام مستعجلنه
قيام يا اولاد عسكر لا توانوا كما أمر الإمام لابد منه
وكم ذا الصبر فينا يا جماعة على أمر الإمام مستنظرنه
ألا قم يا رسولي شد واعزم وصل أرض اليمن واتخبرنه
تخبر بكيل[2] كم من هلالي[3] وكم من ولد قلبي فاقدنه
واجمع القوم لقاع ابن جمعان[4] على الحجز[5] الذي جا البدع منه
تقسمنا العنو[6] في ساع أربع وشلينا الجبل والقاع كله
ألا واختم نشيدي بالمنور ويا ريت [ان] قلبي زايرنه

عندما أتم الجندي عليَّ إلقاء قصيدته هذه سألته من نظمها؟

فقال: إنه نظمها لما دعي إلى الجندية لمحاربة ابن جمعان الذي كان عاصياً على الإمام.

فسألته: وهل تجندت بالقوة الإجبارية أم تطوعت من تلقاء نفسك؟

فقال: تطوعت من تلقاء نفسي كما تطوع غيري من الناس لمحاربة أعداء الإمام.

فقلت: وهل تحب الإمام إلى حد يسهل معه عليك أن تتطوع في الجيش وتموت؟

---

(1) الإمام.
(2) اسم قبيلة كبيرة.
(3) شب كالهلال.
(4) اسم شخص.
(5) اسم قبيلة خانت وغدرت بجنود الإمام.
(6) المكان المطلوب مهاجمته.

فأجاب: روحي ومالي وأهلي فداء للإمام، أنا وجميع سكان اليمن من الزيود رهن إشارة الإمام، وقد حاربنا معه أعداءه الترك وانتصرنا على الجيوش التركية بالرغم من كثرتها وقلتنا، وليس هذا بعجيب، وقد قال والد مولانا الإمام: إن هذا الولد "أي الإمام يحيى" سيأتي بالعجب ويدوخ العرب حتى والعجم! وكان يسمع هذا الحديث جندي آخر يقال له السيد أحمد مرسل، فأثنى هو أيضاً على الإمام ثناء عاطرا، ولكنه غمز في قناة بعض الذين حوله قائلا: إنهم غير مخلصين لإمامهم وأمتهم بالرغم من تظاهرهم بالإخلاص، وقال أيضاً: إن بيت مال المسلمين غني وغني جداً والحبوب مدفونة بالأرض في أماكن مختلفة، وفي سنين المحل يعطي الإمام الزراع بدار(؟) ولكنه يستوفيه منهم أيام البيدر.

بعد مسير نحو أربع ساعات في طريق حسنه تصلح لسير السيارات، وصلت إلى قرية (وِعْلان)[1] وهي قرية صغيرة حقيرة مبنية على طرف واد ضيق لا يتجاوز عرضه ثلاث مائة متر، تحيط بها الجبال من الشرق والغرب والجنوب، ويوجد على مسافة كيلومترين منها بعض البساتين والحدائق المشجرة وفيها المشمش والرمان والتفاح والسفرجل والكرمة وغيرها من الأشجار المثمرة. وتعلو وعلان عن صنعاء نحو 500 قدم، فصنعاء على علو 7600 قدم، ووعلان ارتفاعها 8100 قدم، وبيوتها مبنية من الطين والحجارة، ويوجد في وعلان يهود بكثرة، ويقطنون في حي خاص بهم، ويشتغل معظمهم بالتجارة والأشغال اليدوية، ويشتغل بعضهم بحراثة الأرض كعملة عند المسلمين لا كملاك. ويوجد في وعلان مسجد صغير مال عليه الدهر بكلكله فخرّبه، ويظهر أنه بني قديماً على طريق الحج وخصص لاستراحة الحجاج.

قضينا ليلتنا في وعلان في إحدى المقاهي لأنه لا يوجد في وعلان عامل ولا دار للحكومة، ولما نهضت في الصباح وسألت صاحب المقهاية عن حسابه، فقال: نأخذ منامة عن كل شخص (بقجتين)[2] أي نحو ثلاثة غروش سورية. فنفحناه حسابه وقلنا: بارك الله في هذه البلاد السعيدة التي ينام الإنسان في مقاهيها بثلاثة غروش فقط لا غير، وكان قد جلب لنا أيضاً بيضاً وحليباً ولبنا ودجاجا وخبزاً لإطعام ستة أشخاص، فسألناه عن الحساب فقال: ثلاثة أرباع الريال، أي نحو ثلاثين

---

(1) وِعْلان: سبق التعريف بها.

(2) بقجتين: تنطق في اليمن (بقشتين)، مثنى بقشة، سبق شرحها.

غرشا سوريا. لم نستغرب هذا الحساب اليسير لأن كل شيء في العربية السعيدة رخيص جداً ماخلا القات.

في الطريق إلى معبر[1]

سرنا في صباح السبت الموافق 3 كانون أول سنة 1927 من وعلان نقصد قرية معبر وهي المرحلة الثانية من صنعاء إلى عدن. وكان البرد شديدا فشعرت بقشعريرة تسري في جسمي سريان الكهرباء فنزلت من ظهر البغل وسرت على الأقدام في واد يقال له (وادي خدار)[2]، وكان الطريق جيدا يصلح لسير السيارات، وبقينا نصعد على هذا الطريق بين الجبال والوديان إلى أن وصلنا إلى (قرية خدار) التي تعلو على سطح البحر 8400 قدم، وبالقرب من خدار يتسع الوادي فيبلغ عرضه نحو 500 متر، ويوجد حول خدار عدة آبار وماؤها لا يبعد عن سطح الأرض سوى سبعة أمتار، ويشتغل في هذه الآبار الإنسان بدلا من الحيوان، وقد رأيت على كل بئر أربعة أو خمسة رجال ربطوا أنفسهم إلى الحبال وأخذوا يسحبون دلاء الماء كما يسحبها الحيوان، ورأيت حول هذه الآبار حقولا كثيرة من (الفصة)[3] ويقولون لها في اليمن (قَضْب)[4] ويغرسون حول هذه الآبار أيضاً ذرة وشعيرا وحنظة ولكن لا أثر للأشجار المثمرة وغير المثمرة هاهنا، وقد جلسنا بالقرب من أحد هذه الآبار طلبا للاستراحة، فأتى نحونا شيخ طاعن في السن ولكنه جليل الطلعة على وجهه هيبة ووقار، فسألنا إلى أين أنتم ذاهبون؟

---

(1) مغبر: مدينة في وسط قاع (سهل) جهران، على الطريق الرئيسي بين العاصمة صنعاء ومدينة ذمار، وتقع جنوب صنعاء بنحو 70كم، وشمال مدينة ذمار على بعد 30 كم، اختطها في القرن الحادي عشر الهجري الإمام المؤيد محمد إسماعيل بن القاسم (ت 1097هـ)، على خط الطول 44/17، وخط العرض 14/47. مجموع بلدان اليمن وقبائلها 29/1، 712/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1571/2.

(2) خدار: واد وفيه قرية بهذا الاسم في الطريق بين صنعاء ومعبر، من أعمال ناحية بلاد الروس، محافظة صنعاء، وتقع جنوب صنعاء بنحو 30كم. صفة جزير العرب 154، 238، 344، مجموع بلدان اليمن وقبائلها 305/1، معجم البلدان والقبائل اليمنية 561/1.

(3) الفصة: رسمها المؤلف بالضاد المعجمة، وصوابها بالصاد المهملة، انظر الحاشية التالية، وسيذكرها المؤلف فيما بعد برسمها الصحيح.

(4) القضب: هو البرسيم، واسمه القديم الفصفصة، والقت والاسفست، ويسمى في بلاد الشام بالفصيفصة والفصة والفصفصة، واسمه العلمي Medicago sativa، وهو نبات عشبي معمر يمثل أهم المحاصيل العلفية وهو زراعي. يتكاثر بالبذور بالطرق المألوفة وينمو في البيئات شبه الرطبة ونصف الجافة والجافة في المناطق المعتدلة والدافئة وفي الأراضي الجيدة. وأزهاره يتراوح لونها بين الأصفر والمزرق البنفسجي. انظر: تذكرة داود 27/1، http://www.khayma.com/hawaj/nafil.htm.

فقلنا: إلى عدن.

فقال: كان الله بعونكم، إن سفرتكم طويلة وشاقة.

فقلت: ولكنها على كل حال ليست أشق من العمل على البئر. فقهقه ضاحكا وأدرك النكتة، وقال: ولكن هؤلاء الشقاة "أي العمال" قد ألفوا الشغل على البئر وصحتهم جيدة وأجسامهم قوية، وأما أنتم فيبدو لي أنكم نحيفو البنية وضعيفو الجسم.

فقلت: لا عبرة بالسمنة، فالعصبي المزاج يبقى طول حياته نحيفا.

فقال: أي نعم. فسألته بدوري: كم ساعة يعمل الشقاة على البئر؟

فقال: من الصباح حتى ينضب ماء البئر.

فقلت: ومتى ينضب الماء؟

فقال: نحو العصر.

فقلت ولماذا ينضب؟

فقال: لأن نبعه من التراب لا من الصخر.

فقلت: ولماذا لا تعمقون البئر حتى الصخر؟

فقال: إننا لسنا بحاجة إلى شيء كثير من الماء، ولا نريد أن نعمق البئر حتى لا يصعب العمل.

فقلت: وكم تدفعون للعامل مياومة؟

فقال: أربعة (بقش) أي نحو سبعة قروش سورية.

بعد الاستراحة قليلا ودعنا الاختيار وامتطينا البغال وسرنا باسم الله، وكانت طريقنا تسير في تصعيد مستمر إلى أن وصلنا رأس (نقيل يسلح)[1] نحو الظهر، ويعلو

---

(1) النقيل: الطريق الصاعدة في الجبل (العقبة)، ونقيل يسلح جبل مطل على قاع جهران بين صنعاء ومعبر، وتمر منه الطريق القديمة وطريق السيارات الحديثة بين صنعاء ومعبر وذمار..إلخ، ولذلك غلب اسم النقيل على الجبل والقرية التي أسفله، ويبعد نقيل يسلح عن صنعاء جنوبا نحو 54كم، ويقع على خط الطول 44/14، وخط العرض 14/59. صفة جزير العرب 344، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1910/2.

هذا النقيل عن سطح البحر 9200 قدم، ومنه يرى الإنسان قاع أو سهل جهران، وهو سهل متسع يمتد من أسفل نقيل يسلح وينتهي بقرية (الرصابة)[1] وهو أعلى من صنعاء بخمسمائة قدم، وطوله نحو 25 كيلومتراً وعرضه يختلف من خمسة إلى تسعة كيلومترات، وكان هذا السهل الواسع يتراءى لنا عن بعد كأنه بحر واسع تكسوه ألوان متعددة، فالأرض المفلوحة كانت تبدو حمراء صافية، والأرض المحصودة كانت تظهر بيضاء لامعة والأرض المغروسة ذرة وغيرها من النباتات كانت تظهر خضراء يانعة. سررنا بهذا المنظر الفتان ووقفنا في رأس النقيل برهة من الزمان نسبح باسم الرحيم الرحمن ونشكره على نعمه الكثيرة التي أنعم بها على بني الإنسان.

هبطنا من أعلى النقيل إلى أسفله نحو ستمائة قدم، وكانت طريقنا تسير بين الجبال في شكل لولبي وهي تصلح لسير سيارة واحدة لقلة عرضها وكثرة دورانها، وشاهدت في أثناء هبوطها ذئباً ضاريا اختطف شاة وأخذ يركض بها نحو رأس الجبل، وكان الرعاة يركضون خلفه ويصيحون عليه ويطلقون عليه الرصاص من مسافات بعيدة فلا يصيبونه وكان هذا الذئب أول وحش كاسر رأيته في اليمن، فسألت الرفاق: هل يوجد وحوش ضارية في اليمن؟

فأجابوا: نعم، توجد الذئاب والضباع بكثرة، وتوجد النمور والفهود والسباع في المخاليف الشرقية بجهة سبأ ومأرب، وأما القردة والنسانيس فتوجد في جميع الجهات، وقد شهدت ذات مرة موقعة حربية دموية وقعت بين قبيلتين من القردة ودامت نحو ساعة من الزمان، ويظهر أن القردة تعيش أسرابا وقبائل ولكل سرب أو قبيلة أرض ومضارب ووطن تستقل به فإذا تجاوزت قبيلة ما وطن قبيلة ثانية تدافع هذه القبيلة عن وطنها دفاع المستميت. وقد رأيت إحدى القبائل المعتدى عليها تهاجم المعتدين بشدة زائدة وقد اشتبك الجميع في القتال بأيديهم وأرجلهم وأسنانهم وكان صراخهم يدرك عنان السماء، وتم الظفر نهائياً للقبيلة المعتدى عليها فطردت المعتدين بعد أن قتلت منهم نفراً ليس بقليل، وقد مثلت بالقتلى شر تمثيل، وبعد انتهاء المعركة أطلقت بعض العيارات النارية إرهابا للمنتصرين، ففروا من أمامي وصعدت إلى مكان المعركة فوجدت القتلى قد مزقت أجسامهم وبقرت بطونهم

---

(1) هي رُصابة، غير معرّفة، وهي قرية كبيرة في قاع جهران، وتقع شمال ذمار بنحو 17كم، دمّرها الزلزال عام 1982م، وسيذكر المؤلف وصفها بعد قليل. مجموع بلدان اليمن وقبائلها 366/1، معجم البلدان والقبائل اليمنية 690/1.

وقلعت عيونهم وسلخ جزء من جلودهم، فقلت: الله أكبر الله أكبر حتى القردة تمثل بأعدائها بعد قتلهم، وفكرت في نفسي قائلا: هل تعلّم الإنسان التمثيل بالقتلى من القرد أو تعلم القرد هذا الفن من الإنسان؟! سؤال نتركه لساسة الحيوان الناطق فهم أدرى به منا.

استرحنا قليلا في مقهاية في أسفل النقيل ويطلقون هنا على المقهاية اسم (سمسرة) وبعد الاستراحة أتممنا طريقنا في قاع جهران، وأول قرية مررنا بها بعد النقيل هي قرية (ظاف) ودورها مبنية من الحجر والطين، وفيها بئر واحدة يستعملها الأهلون للشرب فقط، ويبلغ عمقها 180 قدما وينشل الماء عليه النساء والرجال. وشاهدنا على جانبي هذا السهل الواسع عدة قرى كـ(الواسطة) و(الخربة) و(بيت الدعي) وهذه قرية صغيرة جميع سكانها من اليهود. ورأينا أيضاً آبارا كثيرة في هذا السهل وماؤها قريب من سطح الأرض ويستعمله الأهلون في زراعتهم، وقد لاحظت هاهنا أن الهواء لا ينقطع لا ليلا ولا نهاراً وبوسع المزارعين لو أدركوا هذا الأمر أن يستعملوا المضخات الهوائية في استخراج مائهم كما هي الحال عندنا في القنيطرة ولكن –ويا للأسف– المزارعين لا يدركون صالحهم كما إنه لا يوجد في اليمن وزارة زراعة تهتم بهذه الشؤون، وخليق بجلالة الإمام أن ينظر إلى هذه المسألة بعين عنايته لأن استعمال المضخات الهوائية ممكن في معظم أطراف اليمن

كان يقابلنا في طريقنا كثير من النسوة القرويات وهن يختلفن عن نساء صنعاء ونساء تهامة كثيراً، فنساء صنعاء وغيرها من المدن يحتجبن من أخمص أقدامهن حتى أعلى رؤوسهن، ولا يميز المرء بين وجه المرأة وظهرها إذا كانت ماشية إلا من حركتها لأن حجابها يغطيها غطاء تاما. وأما في تهامة فالنساء شبه عاريات تقريباً. وأما في هذه الجبال فالنساء سافرات وعاريات الزنود ويلبسن في اكثر الأحيان ثوبا ويضعن في زنودهن وفي أذرعهن أساور زجاجية ضخمة، ونساء تهامة وصنعاء يملن إلى الألبسة الملونة وخاصة الحمراء والصفراء والزرقاء، وأما هؤلاء فلا يوجد لديهن سوى الثياب المنيّلة.

وصلنا إلى معبر نحو العصر فوجدنا جمعا من الناس محتشدا في مدخل القرية وهو خليط من النساء والرجال والأولاد قد أتوا ليشاهدوا عن كثب موكب الغرباء.

ولما سألنا عن العامل السيد يحيى الوريث قيل لنا إنه مأذون في صنعاء، فذهبنا إلى (سمسرة) كبيرة قيل لنا أنها نظيفة وفسيحة، دخلناها بأمان فرحين فوجدناها كغيرها من منازل اليمن: الدور الأول للحيوانات، والثاني والثالث للمسافرين. احتللنا الدور الثاني وهو مؤلف من أربع غرف صغيرة ومطبخ وبيت للراحة، وأبواب جميع هذه الغرف صغيرة إلى حد يكاد المرء لا يتمكن من دخولها إلا إذا حنى ظهره، وبعدما استقر بنا المقام قليلا أتتنا صاحبة السمسرة وقالت: إنها على استعداد أن تطبخ لنا أكلا تركيا جيدا.

فقلت: أنى لك ذلك!

فقالت: إنها كانت أيام الدولة العثمانية زوج المتصرف حسني بك، وإنها تعلمت الطبخ التركي من ذويه.

فقلت: حسناً أعدي لنا ما تشائين ولكن الرجاء أن تسرعي بالعمل لأن معدتنا خاوية خالية. ما غابت هذه السيدة عنا سوى ساعة من الزمان حتى عادت إلينا وهي تحمل أطباقا مملوءة بالأرز واللحم المطبوخ "روستو مع بطاطا" والخضر المطبوخة باللحم ونوعاً من الحلوى مصنوعة من العجين مثل العوامة "لقمة القاضي" عندنا. تناولنا طعامنا بلذة عظيمة وشربنا قهوة معمولة على الطريقة التركية وشكرنا هذه السيدة الأنيقة في الطبخ كل الشكر.

وبعد تناول العشاء صعدت إلى سطح السمسرة أراقب القمر والنجوم، فأتاني بعض نزلاء السمسرة وجلسوا إلى جانبي وأخذوا يسألونني عن صنعاء وكيف وجدتها، وعن الإمام والقاضي العمري إلى غير ذلك من الأسئلة، فأجبتهم أجوبة لحمتها الثناء وسداها المديح على جلالة الإمام ورجاله وبلاده، ولاحظت أن أسارير وجوههم برقت وانسروا كل السرور عندما سمعوا هذا الثناء والمديح، ثم سألتهم أنا بدوري إذا كان يوجد معادن بالقرب من معبر؟ فأجابني أحدهم: نعم يوجد بـ(الحدا) قرية قريبة من معبر (ميكا)، ويوجد فيها أيضاً جبل بركاني يخرج من فوهته غاز كبريتي، ويوجد في قرية (المحوى) فحم حجري. ثم سألتهم إذا كان يوجد آثار حميرية بالقرب من معبر؟ فأجابوا: نعم يوجد جبل يبعد عن معبر نحو ساعتين ويقال له (الجبل الأحمر) وفيه آثار حميرية ونهر كبير نشَفَ[1] بعدما اندثرت المدينة الحميرية، ولا يزال مجراه

---

(1) نشف: جف ونضب.

باديا للعيان إلى هذا التاريخ. ويوجد بالقرب منه (حمام علي)[1] وبعض الآثار القديمة.

و(حمام علي): قرية صغيرة تقع إلى الجنوب الغربي من معبر وفيها عدة ينابيع معدنية كبريتية حارة يأتيها الناس للاستشفاء في فصل الشتاء من جميع أطراف اليمن، وقد مررت بهذه القرية في إحدى رحلاتي فوجدت ماءها يشبه ماء (الحمة) في فلسطين، ومنازلها مبنية من الحجر والطين وهي ذات دور واحد يقطنه الناس، وبعضها ذات دورين وهواؤها ناشف جدا، وطقسها حار لأنها واقعة في واد عميق.

قضيت ليلتي في معبر على أحسن حال ونمت نوما هادئاً مريحاً، وفي الصباح نهضت مبكراً فتناولت قليلا من الحليب والقهوة وقلت للجنود أن يستعدوا للسفر، وبينما كانوا يحملون أمتعتنا نزلت إلى القرية وطفت حولها فوجدت إلى جنوبها وعلى مسافة يسيرة منها أنقاض مدينة حميرية قديمة، ولا تزال بئرها ظاهرة للعيان كأنها من صنع بضع سنوات بالرغم من مرور ألوف السنين عليها، وهي متقنة الصنع وجدرانها مبنية من الحجر بخلاف جدران الآبار الحديثة المتروكة ترابا على طبيعتها، ويوجد إلى جانب هذه البئر أنقاض جامع قديم يقال له (جامع المؤيد) وقد بناه الإمام المهدي وفيه قبر لسبعين شهيداً قيل أنهم قتلوا في إحدى معارك معبر المشهورة أيام حربها مع الدولة العثمانية، ويوجد فوق هذا القبر حجر مكتوب عليه بالعربية وفيه تاريخ استشهاد هؤلاء الشهداء ولكني لم أتمكن من قراءته لأن الأيام قد محت الكتابة إلى حد بعيد ولكن لا يزال ظاهراً منها آية الكرسي المنقوشة في الحجر نقشاً عميقاً ومذهباً.

---

(1) حمام علي قرية وواد في منطقة آنس، من أعمال محافظة ذمار، ويقع شمال غرب ذمار بنحو 35كم، وعلى بعد 10 كم جنوب ضوران، مركز ناحية آنس، ويشتهر الوادي بغزارة مياهه وزراعة البن ومختلف أنواع الفواكه وأهمها البرتقال، كما يشتهر أيضا بينابيع المياه الحارة، ويسمى مثل هذا النبع في أغلب مناطق اليمن وفي العراق: (الحمّام) لسخونة مياهه، ويعرف في معظم أقطار العالم العربي بـ(الحمّة)، والحمة: عين الماء الحارة، ويرتبط وجودها في الغالب بالمناطق البركانية، وقد يتدفق الماء منها إلى الهواء - بفعل الضغط والحرارة - على شكل نافورة، يقصدها الناس للاستشفاء لاحتوائها على بعض المعادن المذابة بالحرارة. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية 1/499.

في الطريق إلى ذمار

بعد هذا الطواف القليل عدت إلى السمسرة فوجدت الرفاق قد حمّلوا البغال فركبت بغلتي وسرت في المقدمة، وكانت مرحلتنا اليوم إلى ذمار وطريقنا جيدة في سهل جهران، ويمكن للسيارات أن تسير عليها بسهولة تامة، ولكن ويا للأسف لا يوجد سيارات هاهنا أبداً، وقد سألت البعض إذا كانوا شاهدوا السيارات تأتي من صنعاء؟ فقالوا: نادراً لأن الناس لا يملكون سيارات، بل يوجد عند جلالة الإمام بعض سيارات جلبها جلالته من عدن إلى صنعاء مفككة ومحمولة على الأكتاف في الجبال وعلى البغال في السهول. دامت طريقنا في هذا السهل جيدة عدة ساعات وقد مررنا بعدة قرى كـ(بيت راشد) و(عثم) و(الحوقري) وفيها آثار حميرية، و(الرصابة) وغيرها، ويوجد بالقرب من الرصابة عدة ينابيع ماء تسيل إلى جهات مختلفة منها (غيل قراب) و(غيل تشليل) يجري إلى بلاد آنس، و(غيل السربة) يجري إلى (مدينة العبيد)[1]، وقرية (الرصابة) قرية كبيرة سكانها مزيج من المسلمين واليهود وللقرية سور كسور صنعاء، ويوجد فيها مغاور كمغاور (صيدنايا) عندنا كانت تستعمل كزرائب للماعز فتراكمت فيها كميات كبيرة من (السماد) والآن يخرج اليهود هذا (السماد) ويستخرجون منه نترات البوتاس "ملح البارود" ويصنعون منه كميات وافرة من البارود الأسود (الواطي)، ثم مررنا في طريقنا بقرية يقال لها (الضيق) وهي آخر حدود قاع جهران من الجهة القبلية، ويوجد حول هذه القرية عدة آبار ماؤها قريب من سطح الأرض يعمل عليها الإنسان بدل الحيوان، وبعد أن بعنا مسافة يسيرة عن هذه القرية أخذ السهل يضيق كثيراً وأخذت الطريق تتوعر وتسير صعوداً وقلّت الحقول المفلوحة وغابت الآبار وتغيرت طبيعة الأرض.

سرنا على هذا الحال نحو ساعتين فوصلنا إلى قرية (الدرب) وهي واقعة على ربوة صخرية وفيها بئر واحدة للماء عمقها نحو 15 متراً، اجتزنا هذه القرية في واد وعر ضيق وأخذت طريقنا تنحدر شيئا فشيئاً إلى أن وصلنا إلى ذمار، وقد رافقنا في هذه الطريق أحد أبناء السبيل وقد أبدى لي شكاوى كثيرة من الحالة الحاضرة في اليمن، ولما كان في سن العسكرية سألته: هل خدمت في الجندية؟

---

(1) مدينة العبيد: تعرف الآن باسم مدينة الشرق، وجرى تغيير اسمها كراهية لاسمها القديم.

فأجاب: كلا، لم أخدم في الجندية ولا أريد أن أخدم بها لأن الجندية جور ولها قوانين وتعليم ونحن وحشيون – أي متوحشون – لا نعرف القانون ولا نحب التعليم.

فقلت: إلا يأخذونك جبراً إن أنت لم تتجند طوع إرادتك؟

فقال: كلا، الجندية عندنا بين القبائل ليست إجبارية بل اختيارية يتطوع فيها من يريد لقاء معاش من بيت مال المسلمين، ولو كانت إجبارية لفررت من أول يوم يجندوني فيه.

أين بلادك؟

بلادي إلى شرق إب وتبعد عنها نحو يومين.

كيف يحصِّلون الضراب عندكم؟

يحصل الضرائب عندنا المخمِّنون، وبعضهم قليلو الذمة يأخذون ثلثي محصولنا ويعطوننا الثلث.

كم يجب أن يأخذوا لو أنصفوا؟

يجب أن يأخذوا العشر فقط، أي يجب أن يأخذوا من كل عشرة كيلات كيلة حسب مرضاة الله وسنة رسول الله، ولكن بعض هؤلاء المخمنين لا يخافون الله ويخمنون البيادر أكثر من حقيقتها، ويأخذون العشر حسب تخمينهم الكاذب، والله سيذهبون إلى جهنم زمرا.

فقلت: هل يعلم جلالة الإمام بأعمالهم؟

فقال: الله يحفظ الإمام هو لا يعلم بأعمالهم ويأمرهم دائماً بأن لا يظلموا أحدا وأن ينصفوا ويعدلوا بين الناس، ولكن لا يخافون من الله ولا من يوم الله.

فقلت: مادام الإمام لا يريد ظلمكم فلماذا لا تذهبون وترفعون له شكواكم؟

فقال: لقد ذهب بعضنا وشكوا أمرهم له فجاء المخمنون وأقسموا الأيمان المغلظة أمامه أنهم لم يظلموا أحدا.

فقلت: وهل تحبون الإمام؟

فقال: نعم نحبه كثيرا لأنه إمامنا وخليفتنا.

فقلت: وإذا دعاكم للحرب هل تلبون دعوته؟

تبسم عند سماعه هذا السؤال وأجاب: الله يحفظ الإمام نحن ومالنا وعيالنا فداء الإمام وإذا دعانا للحرب والجهاد فإننا نفديه بأرواحنا وأموالنا ونجاهد في سبيل الله إلى أن نموت لأن الجهاد فرض واجب على كل مسلم.

في ذمار

وصلنا إلى ذمار مساء وحللنا في ضيافة الحكومة حيث أعدوا لنا مكاناً لنزولنا فجاء بعض الموظفين والقضاة وأمير الجيش ورتبته (قائد) لزيارتنا والسلام علينا، وصادف حين دخولهم علينا أني كنت أقرأ في رحلة الريحاني إلى اليمن، فسألني أحدهم: ما هذا الكتاب؟

فقلت: هو رحلة الريحاني إلى اليمن.

فقال: لقد اطلعنا عليه فوجدنا فيه أشياء كثيرة بعيدة عن الصحة وأخرى مبالغاً فيها، والله يسامح الأمين على هذا العمل لأنه لم ينصف اليمن.

جلس الضيوف في زيارتنا زمناً طويلا سألونا عن رحلتنا في اليمن وعن معاملة العمال لنا في الطريق وعن بلادنا وعن تركيا وعن مصطفى كمال وحقيقة قيامه ضد الدين الإسلامي ورفعه حجاب النساء والسماح لهن بأن يختلطن بالرجال. ولما قلنا لهم ان تركيا الحديثة أصبحت دولة لا دينية وتنصلت من شرقيتها وحذت حذو الدول الغربية في جميع شؤونها واستعاضت عن الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية وحذفت جميع الكلمات العربية من قاموسها استاءوا استياء عظيما وحوقلوا كثيرا وقالوا: الله يحفظ الإمام ويعز به الإسلام. ثم ودّعونا وانصرفوا، فقضينا ليلتنا في دار الضيافة.

وفي الصباح قمنا مبكرين وطفنا المدينة فوجدناها أصغر من مدينة صنعاء ولكنها أكبر من الحديدة، ومن أي بلد ثانية رأيناها حتى هذا التاريخ، ودورها مبنية من الحجر على نمط دور صنعاء، وهي مؤلفة من عدة أدوار وفيها الزجاج الملون ونوافذ المرمر. وقد رأيت فيها عدة مساجد وأهمها مسجد حسن دادا باشا، وقد بناه الباشا المشار إليه حين قدومه إلى اليمن مهاجرا قبل دخول الدولة العثمانية إلى

اليمن، أي منذ أكثر من 500 سنة، وهو مسجد جميل وفسيح ومبني بالحجارة المنحوتة، وفيه حديقة صغيرة مغروسة سروا. وشاهدت جامعاً آخر كبيرا قيل أنه كان كنيسة لليهود، ورأيت في جدران هذا الجامع أحجارا ضخمة مكتوباً عليها عبارات حميرية.

وزرت كنيساً لليهود ورأيت فيه توراة مكتوبة على رق غزال قيل لي أن اليهود جلبوها معهم عندما هاجروا من القدس بعد خراب الهيكل، أي منذ نحو 3000 سنة، وقد لفوها لفاً محكما بالأقمشة الحريرية. واجتمعت بالحاخام الأكبر فدعاني لمنزله فلبيت دعوته، وهو رجل طاعن في السن يقال له يحيى سعيد جريدي فسألته عدة أسئلة واليك أهمها

س- متى جاء اليهود إلى اليمن؟

ج- أتى بعضهم قبل خراب الهيكل بعامين وأتى البعض بعد خراب الهيكل.

س- أين نزلوا عندما قدموا للمرة الأولى؟

ج- نزلوا في مكان يقال له (براش)[1] واقع شرقي جبل نقم. ونقم هو الجبل المحيط بصنعاء من الشرق

س- من بنى صنعاء، ومن أين اشتق هذا الاسم؟

ج- إن اليهود هم الذين بنوا صنعاء (؟!) واسمها مشتق من اسم سام بن نوح عليه السلام.

س- هل كان يوجد يهود باليمن قبل الهجرة من أورشليم؟

ج- كلا، جميع يهود اليمن هاجروا من أورشليم كما ذكرت لك. وليس اليهود من السكان الأصليين.

س- هل لكم علاقة بالعالم الخارجي؟

---

(1) في الأصل: برش، والصواب ما أثبتناه، وهو جبل كبير مطل على صنعاء من جهة الشرق، متصل بجبل نقم. انظر: معجم البلدان، بتحقيقنا، مادة: (براش)، مجموع بلدان اليمن وقبائلها 1/103-104، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1/149.

ج- نعم لنا علاقات مع مصر وفلسطين، ويوجد يهود يمانيون كثيرون في فلسطين.

س- هل تعرفون شيئا عن الحركة الصهيونية؟

ج- نعم يأتينا بعض الأحيان جرائد صهيونية ويكتب لنا اليهود اليمانيون المهاجرون شيئاً كثيرا عن الهجرة الصهيونية ويحببونها لنا.

س- أين آخر بلد يقطنها اليهود في اليمن؟

ج- إن آخر بلد هي بيحان، وتقع إلى شرقي ذمار وتبعد عنها مسافة ثمانية أيام

س- هل لكم اتصال مع يهود أميركا وأوربا؟

ج- كلا لا نعرف أحداً في تلك البلاد.

س- كيف حالكم مع المسلمين؟ وهل يعاملكم العمال معاملة حسنة؟

ج- نحن مع المسلمون في عزلة تامة، وحيّنَا بعيد عن حيّهم، وهم يحتقروننا، ولكن العمال يمنعون التعدي علينا ويجازون كل من تساوره نفسه بأن يمسنا بسوء.

ودعت الحاخام الأكبر وطفت قليلا في حي اليهود فتبعني خلق كثير من الرجال والأولاد والنساء، وحي اليهود حقير بالنسبة إلى الأحياء الإسلامية ولكنه نظيف ومرتب ترتيباً حسناً.

وبعد الطواف في الأحياء الإسلامية ومشاهدة الأسواق التي لا تختلف كثيراً عن أسواق صنعاء بحجمها، زرت العامل السيد محمد بن أحمد الوزير فوجدته رجلا أديباً لطيف المعشر طلق اللسان، استقبلني واقفاً على الأقدام وقال: حي الله من قد جاء، لعل من أمر يمكنني أن أنفذه لكم وهل أنتم مرتاحون في سفركم؟ إنني أكون سعيداً إذا تمكنت من القيام بخدمة لكم.

فشكرته جداً على هذا اللطف وقلت: إننا ولله الحمد على أحسن حال ولا يلزمنا شيء أبداً، ونرجو من الله أن يحفظ جلالة الإمام ويبارك في رجاله العظام. وبعد أن تناولت القهوة والشاي ودعته وعدت أدراجي إلى دار الضيافة.

في الطريق إلى يريم

وجدت الجند على استعداد للمسير؛ فركبت بغلتي وسرت أمامهم ووجهتنا يريم، ولم نبعد عن البلد إلا مسافة يسيرة حتى رأينا بعض الآبار تستعمل لري النباتات وماؤها يبعد عن سطح الأرض نحو عشرة أمتار ويغرسون حولها (فصة) وشعيراً، ويوجد بين ذمار ويريم طريقان أحدهما للسيارات والثاني للحيوانات. وطريق السيارات تسير في واد متسع، وطريق الحيوانات تسير بين آكام ووديان وعرة ولكنها أقصر من طريق السيارات. وقد شاهدت في بعض هذه الجبال طبقات من الحديد (هماتيت)، وشاهدت حقولا من الحنطة والشعير بعضها ناضج وبعضها يغرس غرساً جديداً. ومررنا بالقرب من الحقول الجميلة اليانعة بقرية (دجذب) ؟!، ووقفنا قليلا على نبع ماء يجري قربها شمالا وماؤه بارد وعذب. واتسع الوادي هاهنا اتساعا لا يستهان به وكثرت المزروعات، ولكننا لم نشاهد أثرا للأشجار لعدم اعتناء الناس بها. وبعدما سرنا نحو ساعة في الوادي الواسع عرجت طريقنا بين الجبال والآكام ثانية، وقد شاهدت في هذه الجبال طبقات جيدة من الحديد. ومن ثم هبطنا إلى (قاع رباط) مسافة طويلة؛ وقاع رباط: سهل صغير جميل تغرس فيه جميع أنواع الحبوب، سرنا فيه نحو نصف ساعة ثم أخذت طريقنا تصعد بنا إلى (نجد الأسلاف) في جبال وعرة ومسالك صعبة إلى أن وصلنا إلى (قرية الأسلاف) وهي مبنية على أكمة يعسر الصعود إليها كثيرا، وهي في الحقيقة تشبه القلاع أكثر مما تشبه القرى. ومن هنا هبطنا هبوطاً مستمراً بين وديان مغروسة بالحبوب ولكن لا أثر للأشجار فيها، وشعرت بين هذه الوديان ببرد شديد يتسرب إلى جسمي فتركت البغل وأخذت أسير على الأقدام إلى أن وصلنا إلى يريم نحو الساعة الثالثة، فقصدت إلى سمسرة أي مقهاية يقال لها سمسرة صالح علوان، وبعدما استرحت قليلا خرجت من السمسرة وطفت في البلد فوجدته أصغر من ذمار وأكبر من سائر القرى التي مررنا بها ولكن أزقته قذرة ومجاري الأوساخ تسيل على جانب المنازل. طفت في بعض الأسواق التجارية فرأيت جميع أنواع الخردوات الفرنجية المجلوبة من الخارج عن طريق عدن. ورأيت محاصيل البلاد الزراعية تملأ الأسواق، وأبصرت بعض معاصر الخردل تديرها الجمال، وهذه أول مرة سمعت فيها بالخردل في اليمن، وقيل لي أنه يغرس في يريم

وأطرافها بكثرة، ويغرس في اليمن الأخضر (؟) ويستعمله الناس للحرق بدل زيت الكاز.

وللبلد سور خارجي يحيط به من جميع أطرافه، ويوجد خارج هذا السور آبار متعددة ماؤها يبعد عن سطح الأرض نحو مترين، ومنازل البلد مبنية من الحجر، وهي ذات عدة أدوار ولكن نوافذها أوسع من نوافذ معبر ووعلان وذمار، وأما الأبواب فلا تختلف عن رفيقاتها. وتحيط الجبال بيريم من جميع جهاتها، ويكاد الآتي إليها من الشمال يصل إليها قبل أن يراها، ويوجد في هذه الجبال طبقات حديدية كثيرة.

وقد شاهدت في أثناء طوافي نحو عشرة مساجد مختلفة الحجم وتستعمل جميعها كمدارس للأولاد وفيها مدرسون خصوصيون يتناولون رواتب شهرية من الحكومة، وقد اجتمعت بأحد هؤلاء المدرسين وسألته: كم عدد سكان مدينتكم؟

فقال: سبعة آلاف.

فقلت له: هل هي قديمة كصنعاء وذمار؟

فقال: كلا، ليست هذه البلد قديمة، وأخالها بنيت قبل أربعمائة سنة[1]، وأما البلد الأصلية القديمة فهي بهذه الجبال التي أمامنا ويقال لها (مريمة) وفيها آثار حميرية إلى هذا التاريخ.

فقلت: وهل يوجد عندكم أشغال وصناعات يدوية؟

فأجاب: صناعتنا قليلة لأن بلادنا زراعية، ومعظم أهلها يشتغلون بالزراعة.

فقلت: رأيت يهوداً في الطريق فهل هم كثيرون عندكم؟

فقال: كلا، ليسوا بكثيرين.

فقلت: وماذا يتعاطون من الأشغال؟

فقال: جميع الأشغال اليدوية كالنجارة والحدادة والخياطة والترقيع.. الخ.

فقلت: وهل يوجد لهم كنائس ومدارس؟

---

(1) بل هي مدينة حِميَرية قديمة، سميت باسم القَيْل الحميري يريم ذي رعين الأكبر بن زيد بن سهل...بن حمير بن سبأ. انظر: صفة جزير العرب 215، مجوع بلدان اليمن وقبائلها 2/779-782، معجم البلدان والقبائل اليمنية 2/1906.

فأجاب: لهم مدرسة واحدة وكنيسة واحدة.

فقلت: وهل للمسلمين مدارس خاصة غير المساجد؟

فقال: نعم، يوجد عندنا مدرسة واحدة للحكومة يدرس فيها التلاميذ ثلاث سنوات ثم يذهبون إلى ذمار أو صنعاء لإتمام دروسهم في مدارسهما العالية.

واجتمعت في يريم أثناء طوافي بأحد الجنود الذين تعرفوا إليّ بصنعاء ورافقوني مدة فيها واسمه محسن السياني، ولما رآني ركض نحوي مسلماً وقال: هل تغادر اليمن؟

فقلت: نعم، إني في طريق إلى مصر الآن.

فقال: لماذا لم تبق عندنا في اليمن؟ إن اليمن جميلة ورخيصة.

فقلت: لي بعض الأشغال أروم قضاءها. وأنت يا محسن إلى أين ذاهب؟

فقال: إني ذاهب بمعية الشيخ محمد حميد باشا إلى بلاده.

فقلت: ومن هو هذا الباشا؟

فقال: هو شيخ كبير كان رهينة عند جلالة الإمام بالقصر بصنعاء، وقد توفى والده فأذن له جلالة الإمام أن يذهب إلى بلاده ويقوم مقام أبيه. وما كاد محسن يلفظ هذه الجملة حتى رأيت شابا نحيل القوام والجسم أصفر اللون آتيا نحونا، ولما رآه محسن أشار لي بشفته إشارة معنوية فأدركت للحال أن هذا الشاب هو محمد حميد باشا فامتنعت عن الكلام إلى أن مر بنا الباشا وحيانا وعلامات التأثر العميق بادية على وجهه، فرددنا تحيته بأطيب منها وعزيناه في أبيه بالألفاظ المألوفة فتمتم ببعض الكلمات، ونادى بمحسن: هيا بنا. فودعني محسن وانصرف وأنا أفكر في أمر هذا الشاب وبحلم جلالة الإمام ورأفته وكيفية تركه الرهائن عند حلول الشدائد.

بعدما أتممت طوافي في البلد عدت إلى الدار أي السمسرة التي حللنا بها وتناولت ما تيسر من الطعام ونمت حتى الصباح، ولكني استيقظت مرارا بالليل لمهاجمة البق لي مهاجمة عنيفة، وما كاد يطلع نور النهار حتى هببت من الفراش وناديت صاحبة الدار وطلبت إليها أن تصنع لنا طعاماً، فصنعت لنا شاياً وقهوة وجلبت لنا حليباً ولبناً وقشطة وسمنا وعسلا فأكلنا هنيئا وشربنا مريئا، ثم حمّلنا بغالنا وخرجنا من السمسرة، وما كدنا نسير بضع خطوات حتى رأينا الماء القذر بشوارع

البلدة قد تجلد فصار ينكسر تحت أقدامنا وأقدام بغالنا ودام الجليد في طريقنا إلى أن طلعت الشمس فأخذ يذوب أمام حرارتها الشديدة ذوبانا سريعا، ومرت حرارة الشمس بسرعة إلى أجسادنا فشعرنا بالسخونة بعد البرودة وبحركة الدم العنيفة بعد الخفيفة.

المخادر[1]

كانت وجهتنا اليوم قرية المخادر وسارت طريقنا في البدء في واد ضيق أخذ يتسع شيئا فشيئا كلما سرنا إلى الجهة القبلية[2]، حتى أصبح سهلا واسعا بعد مسير بضعة كيلو مترات، وقد رأيت بعض الجداول الصغيرة في هذا الوادي، وقد غرس الأهلون حولها حنطة وشعيرا وفصة، وينتهي هذا الوادي الذي يقال له (قاع الحقل) بـ(نقيل الضربة)[3] وهنا تبدأ الطريق بالصعود في جبال وعرة وهي غير معبدة ولا تصلح لسير السيارات، وقد شاهدت في واد متسع بين هذه الجبال نهرا كبيرا ينساب انسياب الأفعى، ويوجد إلى جانبيه حقول كثيرة من الذرة والحنطة والشعير.

وبعدما اجتزنا نقيل الضربة مررنا بواد متسع ثم صعدنا بنقيل آخر عظيم يقال له (نقيل سمارة) ويبلغ علوه عن سطح البحر 10100 قدم، وقد حول الأهلون جنبات الجبال القائمة حول هذا النقيل العظيم إلى حقول غناء زرعوها بُناً وقاتا، ويوجد في هذا الجبل (قرية سمارة) و(قرية بيت هديان) و(قرية منزل سمارة)، أما قرية بيت هديان ففي آخر قرى الزيود، وقرية منزل سمارة الواقعة بين بيت هديان وسمارة فسكانها خليط من الزيود والشوافع، وأما قرية سمارة فهي أول بلاد الشوافع وقد

---

(1) المخادر: بلدة بين يريم وإب، وهي مركز ناحية (مديرية) المخادر، من أعمال محافظة إب، وتقع شمال إب بنحو 20كم، وهي على هضبة من جبل (عُقّد). السلوك في طبقات العلماء والملوك 182/2-187، مجوع بلدان اليمن وقبائلها 46/1، 679/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1446/2-1447.

(2) قلت: كانت وجهة المؤلف ناحية الجنوب، والجهة القبلية في اليمن تجاه الشمال، والمؤلف يقصد هنا الجهة القلبلية (الجنوب)، بالنسبة لموقع القبلة في بلاد الشام التي اعتادها المؤلف.

(3) نقيل الضربة، أو قرية الضربة: قرية في طرف قاع الحقل، أسفل نقيل سمارة من المشرق، بالقرب من قتاب (كتاب). معجم البلدان والقبائل اليمنية 944/2.

شاهدت فيها أشجاراً مثمرة كالتالوك[1] والدراق والمشمش والخروب والجوز والموز، وغير مثمرة كالطنب[2] والسنديان والبلوط والعنب (؟) وغيرها، ويصلح شجر العنب للخشب وأما الطنب والسنديان والبلوط فلا تصلح إلا للحطب[3]، وقد رأيت بعد اجتيازنا لقرية سمارة مياها كثيرة وحقولا متسعة مغروسة تتنا وتنباكا وحنطة وشعيراً وذرة صفراء وبيضاء وغيرهما من النباتات الصيفية والشتوية، وتنمو جميعها بعضها إلى جانب بعض في فصل واحد وفي آن واحد، وليس هذا بغريب في البلاد العربية السعيدة لقربها من خط الاستواء.

منذ اجتزنا قرية سمارة ابتدأنا نرى اختلافا في أزياء الناس نساء ورجالا، فالنساء هنا يلبسن البرانيط المصنوعة من القش فوق حجبهن ويتركن سواعدهن عارية، ويلبسن أثواباً ملونة من الأقمشة القطنية أكثرها من صنع ألمانيا واليابان، وأما الرجال فشبه عرايا إلا من مآزر يشدونها إلى وسطهم وعمائم بيضاء يلبسونها فوق رؤوسهم، وتختلف جنبياتهم عن جنبيات الزيود، فجنبيات الزيود مستطيلة، وأما جنبيات الشوافع فمحدودبة[4]، وكان أكثرهم يحملون شمسيات بيضاء وغلايين طويلة محشوة تنباكا.

وصلنا إلى المخادر بعد مسير ثماني ساعات وقد أنهكنا التعب ولم نجد العامل في انتظارنا بل قابلنا أحد الموظفين واعتذر عن العامل بقوله: إنه مشغول كثيرا وإنه أوفده بالنيابة عنه ليرحب بنا، فشكرناه على هذا الترحيب، وقادنا إلى دار قال إنه

---

(1) التالوك: صواب نطقها بالقاف (التالوق)، وتنطق ايضا (التولق)، و(الطولق)، وهو شجر عظيم ضخم ينمو في الجبال والوديان، يكون أعظم في الجبال، ويعمّر طويلا، وثمره يشبه التين. المعجم اليمني لمطهر الإرياني 96-97.

(2) الطُنُب، جمع طُنُبة: شجرة عملاقة تشبه التالوق، وتصلح في الوديان والمرتفعات ولكنها في الوديان أصلح، وتعمر طويلا، وخشبه من أجود أنواع الأخشاب في اليمن، قوي ومرن يسهل نجارته وزخرفته، وقد أوشك التوسع العمراني الهائل في اليمن في الوقت الحاضر أن يقضي على أشجار الطنب وخاصة المعمرة منها. المصدر السابق، ص589.

(3) لا أدري ما هو شجر (العنب) هنا، وهل هو بفتح العين أم بكسرها، وفي اليمن يطلقون (العَنْب) بفتح العين وسكون النون على شجر المانجو ويسمونه (عَنْب العظام)، وعلى أشجار الباباي ويسمونها (عَنْب الدبا). والعِنَب، بكسر العين، معرف. أما قول المؤلف أن أشجار الطنب والسنديان والبلوط لا تصلح إلا للحطب، فغير صحيح لأن أجود أنواع الأخشاب يستخرج من هذه الأشجار، ولعها سبق قلم من المؤلف.

(4) أشكال الجنابي في اليمن – من حيث الحجم– لا يرتبط بالانتماء المذهبي، بل بالمنطقة الجغرافية، فحجم الجنابي في صعدة مثلا يختلف عنها في الجوف وبرط والبيضاء، وهذه تختلف أحجامها عن بقية المناطق، وهكذا.

أعدها خصيصاً لنزولنا، وودعنا وانصرف. ودخلنا الدار فإذا بها تشبه الحصون القديمة درجها لولبي وفي جدرانها رمايات للمنجنيق وهي قذرة جدا. صعدنا إلى الدور الثالث وهو الدور الأخير، وأمرنا الخدم بتنظيف غرفه وفتح نوافذه، ولما تمت هذه العملية غير الموفقة مددنا أسرتنا السفرية وانطرحنا عليها نطلب الراحة، وكانت هذه المرحلة التي قطعناها في هذا النهار أصعب مرحلة في طريقنا بين صنعاء وعدن، ولكننا حمدنا الله في نهايتها على وصولنا بالسلامة، ولم نخرج مساء للقرية بل بقينا في الدار فتناولنا طعامنا ونمنا حتى الصباح. وفي الصباح نهضت حسب العادة مبكرا وهبطت إلى القرية فرأيت مسجدا صغيرا قدامه الطلبة لتلقي دروسهم على إمامه، فجلسوا حوله، وكانوا يقرءون بصوت مرتفع دفعة واحدة. اجتزت هذا الجامع وتغلغلت بين بيوت القرية وأزقتها فوجدتها صغيرة حقيرة فيها بعض دكاكين مملوءة بحاجات مختلفة وقد جلس في أكثر هذه الدكاكين أناس من اليهود، وقيل لي أنهم كثيرون في هذه القرية، وتحدثت إلى أحدهم فشكا لي من الضرائب، فقلت: ولكن مالك وللضرائب وأنت رجل يهودي لا تدفع سوى الجزية وهي يسيرة جدا بالنسبة إلى مجموع الضرائب التي يدفعها المكلف المسلم!

فقال: أنا لا أتكلم عن الجزية لأنها في الحقيقة يسيرة، ولكن الضرائب التي يدفعها المسلمون فادحة.

فقلت: ماذا يدفعون؟

فقال: عُشر جميع المحصولات ويدفعون رسما على الحيوانات.

فقلت: في جميع بلاد الناس وخاصة في البلاد التي كانت تابعة للدولة العثمانية يدفع المكلف عشراً ورسما على الحيوانات، وعلاوة على ذلك يدفع ضريبة على شخصه تسمى (دروبية) أو (حورانية)، ويدفع رسوما على سكنه وجميع أملاكه ك(تمتع) و(ويركو) ورسوم إعلانات ونارية (؟) وغير ذلك من الضرائب.

ولما سمع اليهودي هذا الحديث أخذ يصفر واستغربه جدا وصار يتحرك حركات غريبة بيده وفمه.

فقلت: الأفضل لك يا يهودا ولأصحابك المسلمين أن لا تستكثروا الضرائب عندكم لأنها يسيرة جدا بالنسبة إلى الضرائب في بلاد العالم، وقد اجتمع علينا في

أثناء هذا الحديث خلق كثير من يهود ومسلمين، وقد أخذهم العجب من هذا الحديث كل مأخذ، وحمدوا الله في نهايته على حالهم.

عدت إلى الدار بعد إتمام طوافي في البلد فوجدت الجند على أهبة المسير، فسرنا باسم الله، ووجهتنا مدينة إب وكانت طريقنا تسير هبوطا في واد وعر لا تسلكها غير الحيوانات، مدة من الزمان، وقد رأيت في الجبال حول الوادي عروقا كثيرة من (الكوارتز) أي الحجر الأبيض الصلب التي توجد بعض المعادن الثمينة فيه في أكثر الأحيان. والجبال في هذه الجهات مكسوة بالأشجار الكبيرة والصغيرة المثمرة وغير المثمرة. ثم عرّجَتْ طريقنا منها في جوف وديان كثيرة خصبة، ترابها رخو ناعم، وتنمو فيها أنواع كثيرة من النباتات كالتتن والذرة والتنباك والحنطة والشعير وغيرها. وشاهدت على بعد ساعتين تقريبا من المخادر غيلا كبيرا يشبه أنهارنا ينساب بين الوديان انسيابا ثم يخرج إلى سهل واسع بالقرب من (سوق السبت) حيث رأيت كثيرا من النساء يملأن ماء منه، ويغلب في كثير من نساء هذه البلاد الشبه بالزنوج وبعضهم زنوج تماما. قبل أن نصل إلى إب بنحو ساعة من الزمن أخذت طريقنا تصعد في نقيل صعب المراس يقال له (نقيل الذهوب) والغريب في هذا النقيل أنه مرصوف بالحجارة رصفاً، وقد ذكرني رصفه بـ(الأزرق) الواقع على طريق الحج بين الشام وعمان.

وقد رأينا من رأس هذا النقيل مدينة إب العظيمة زاهية زاهرة تتيه عجباً ودلالا فوق رءوس الهضاب والتلال الراكعة تحت أقدامها. وقد ازدانت هذه التلال والهضاب الكثيرة بالنباتات والأشجار، فرأيت فيها الجوز والموز والعنب والرمان والسفرجل والدراق والمشمش والأجاص والفجل والجزر والبقدونس إلى غير ذلك من النباتات والأشجار الكثيرة. وقبل أن نصل إلى البلد بكيلومتر واحد تقريباً وجدنا ابن عاملها على الطريق في انتظارنا، ولما أقبلنا عليه حيانا مرحباً ومهنئاً بسلامة الوصول بالنيابة عن والده إسماعيل بك باسلامة، وبالأصالة عن نفسه، فرددنا تحيته بأحسن منها، فامتطى جواده وسار أمامنا إلى أن وصلنا إلى مدينة إب وقادنا حضرته إلى دار الحكومة حيث أعدّوا مكاناً لنزولنا، وتقع دار الحكومة في أول المدينة خلف السور، وهي بناية ضخمة مبنية بالحجر الأبيض المنحوت، وبعد الاستراحة قليلا خرجت إلى المدينة فطفت أسواقها وعرجت على جوامعها الكثيرة الجميلة المستعملة كمساجد ومدارس في آن واحد، ورأيت بنايات ضخمة قد تداعت أطرافها، وهي من أيام حمير

ومكتوب على كثير من حجارتها وأبوابها ومنافذها كتابات مطولة بالخط الحميري، ومررت ببعض المدارس وكان التلاميذ يقرءون بالجملة كما هي عادتهم، وطفت بالأسواق وهي ضيقة ولكنها مرتبة ونظيفة ومرشوشة ودكاكينها ملأى بالبضائع الأجنبية والمحصولات الوطنية، وبعد الطواف في المدينة عدت إلى الدار، وما كاد يستقر بنا المقام حتى جاءنا العامل إسماعيل بك باسلامة يرفل بأثوابه الحريرية وعمته البيضاء وحسامه المذهب اليماني، وسلم علينا قائلا: حي الله من قد جاء، كيف أنتم وكيف رحلتكم؟ عساكم لم تلاقوا أتعاباً في الطريق!

فشكرته على زيارته وقلت: إننا مسرورون جداً من رحلتنا التي تنسي مناظرها أتعابها، وإننا سعداء جدا بمقابلته إذ سمعنا عن لطفه وأنسه شيئا كثيرا، وهاهو ذا يحقق لنا كل ما سمعناه وقرأناه عنه.

وبعد هذه المجاملات المألوفة في مثل هذه الأحوال سألت حضرته: كم عدد نفوس مدينة إب؟

فقال: نحو عشرين ألفاً.

فقلت: وكيف حال الشوافع والزيود؟ وحضرته شافعي.

فقال: على أحسن حال.

فقلت: إننا قرأنا في بعض الكتب والجرائد قبل أن زرنا اليمن بأن الزيود يستبدون بالشوافع، ويستأثرون بالوظائف دونهم، ويعاملونهم معاملة سيئة، فهل هذا صحيح؟

فقال: أنا رجل شافعي، وأنا حر الإرادة ومطلق التصرف في إب أولي من أشاء وانحي من أشاء من الموظفين، ولا يتدخل جلالة مولانا الإمام ولا حكومته البهية في هذه الشؤون الطفيفة، وقد خولني السلطة اللازمة لأن أحكم الناس حكماً إسلامياً شرعياً لا فرق عندي بين زيدي أو شافعي، وكل ما سمعتم من الدعايات الخارجية إنْ هي إلا كذب وافتراء على اليمن وأهله. ولا شك أن لمروجيها غايات غير شريفة.

فقلت: ألم يكن الحكم أيام الدولة العثمانية أفضل من حكم الإمام وحكومته؟

فقال: شتان بين الحكمين إن الحكام العثمانيين من ولاة ومتصرفين كانوا يحكمون البلاد حكماً كيفياً استبدادياً ولم يطبقوا الشريعة الإسلامية كل مدة وجودهم باليمن، وأما الإمام فمنذ استولى على الحكم إلى هذا التاريخ فهو يحكم بالعدل ويتبع الشريعة الإسلامية الغراء ولا يفرق بين واحد وواحد من رعيته ولو كان ذلك الواحد يهودياً، فالعدل ناشر أعلامه فوق سطح اليمن من أقصاها إلى أقصاها، والأمن مستتب في كل الجهات، ويمكن للمرء أن يسير أينما شاء وهو أمين على نفسه وماله.

فقلت: وهل يقول جميع الشوافع هذا القول؟

فأجاب: لا شك ان كل منصف من الشوافع وغيرهم من سكان اليمن يؤيد هذا القول ويثبته، وإن سمعتم ببعض الشكاوي من بعض الناس فلا شك أنهم يشكون لأسباب شخصية وحزازات نفسية، وهذه أمور لا تخلو منها بلد من بلدان العالم مهما رسخ كعبها في الحكم والعدل.

فقلت: وهل الشوافع مسرورون وراضون عن حكم الزيود لهم؟

فقال: إن معظم حكام بلاد الشوافع وعمالها وموظفيها هم من الشوافع أنفسهم، فإذا كان لهم ما يشكون منه فشكواهم ليست من الزيود بل من نفس إخوانهم الشوافع.

فقلت: ما هي أهم الصناعات عندكم؟

فقال: إن الزراعة هي أهم الصناعات عندنا، ومعظم أهل هذه المدينة وما يتبعها من القرى والدساكر يشتغلون بالزراعة.

فقلت: وما هي أهم محصولاتكم؟

قال: البن والقات والأثمار بأنواعها والخضراوات والحبوب كالذرة والشعير والحنطة والتتن والتنباك.

ثم سألته عن طريق القوافل بين حضرموت واليمن. فقال: إن طريق القوافل كانت قديما تمر من حضرموت إلى البيضاء فرداع فذمار فصنعاء.

فقلت: وهل يوجد بين صنعاء ولحج طريق غير الطريق التي نتبعها نحن في رحلتنا؟

فأجاب: نعم يوجد طريق تمر بصنعاء، ذمار، يريم، السدة، قعطبة، الضالع، يافع، لحج، ويقال لهذه الطريق: الشرقية، وهي أسهل من الطريق التي تبعناها نحن في هذه الرحلة ولكنها أطول منها، ويمكن للجمال المحملة أن تسير عليها بسهولة.

قلت: هل يوجد عندكم يهود؟

فقال: نعم يوجد عندنا يهود ولكنهم قليلون.

فقلت: وماذا يتعاطون من الأشغال؟

فقال: الأشغال اليدوية كالنجارة والحدادة والبناء والترقيع والحياكة.. الخ.

فقلت: أرجوكم أن تسمحوا للحاخام أن يأتي ويزورني ليلا! فقال: حباً وكرامة، وودعنا وانصرف بعد أن طلب إليَّ أن أعطيه عنواني في مصر فأعطيته إياه.

وبعد ما انصرف من عندنا ذهب ليقوم بدورته اليومية في المدينة لأن حضرته ينسج على منوال جلالة الإمام، ويطوف يومياً في المدينة متفقداً شأن الاهلين ومتقبلا شكاويهم ومطالبهم، ويقف في أثناء جولته ويكلم كل إنسان يريد مخاطبته، ولعمر الحق هذه عادة جميلة توارثها جلالة الإمام وأولاده وعماله عن السلف الصالح فصار بإمكانهم بهذه الواسطة أن يصلوا إلى صميم أفراد الشعب ويدركوا مطالبهم وشكاويهم فلا يجسر موظف مهما كان شأنه أن يستبد بأمور الرعية لأن الشكوى ترفع إليه حالا.

حديث مع الحاخام حسن جمل

في الليل أتانا حاخام اليهود واسمه حسن جمل، والغريب في أسماء اليهود باليمن أنها تشابه أسماء المسلمين (قاسم)، (حسن) مثلا اسم إسلامي بحت، ولكن اليهود يستعملونه ولا يرون في استعماله غضاضة.

وقد جرى بيني وبين هذا الحاخام حديث طويل ألخص بعضه للقارئ الكريم لأنه يختلف عن أحاديث غيره من الحاخامين الذين قابلتهم قبله بغرابته وصراحته:

س- كم عدد اليهود في هذه المدينة؟

ج- يبلغ عددهم نحو مائتين وخمسين شخصاً.

س- ماذا يتعاطون من المهن؟

ج- المهن اليدوية كالغزل والحياكة والنجارة والترقيع والحدادة والبناء إلى غير ذلك.

س- متى جاء اليهود إلى اليمن؟

ج- جاءوا إلى اليمن بعد خراب الهيكل في أورشليم أي منذ 2225 سنة.

س- ألم يوجد في اليمن يهود قبل مجيئهم من القدس؟

ج- كلا، إن أصل يهود اليمن من أورشليم وليسوا من سكان اليمن الأصليين.

س- كيف حالكم مع المسلمين الشوافع؟

ج- إن حالتنا معهم سيئة جداً فهم يشتموننا ويتعدون علينا.

س- هل تسكنون وإياهم في حي واحد؟

ج- كلا، نحن نسكن في حي منفرد وبعيد عن أحيائهم ولا نختلط بهم إلا عند مسيس الحاجة.

س- ألا تشكون منهم إذا اعتدوا عليكم؟

ج- نعم، نشتكي منهم، وإذا أثبتنا اعتداءهم علينا فالعامل يجازي المعتدي بالسجن والجزاء النقدي، ولكننا لا نرغب في الشكاوي ولا في الدخول مع أحد القبائل في القال والقيل.

س- وإذا اعتدى يهودي على يهودي فماذا يفعل المعتدي عليه؟

ج- يشكو أمره إلى الحاخام.

س- لماذا لا يشكو أمره إلى العامل؟

ج- لأننا لا نحب كما ذكرت لك القال والقيل مع المسلمين.

س- قابلت غيرك من الحاخامين في بلاد الزيود كصنعاء ويريم وذمار فلم أسمع منهم شكاوي من الزيود؟

ج- أنا لا أعرف صنعاء وغيرها من البلاد التي ذكرت، ولا أعلم حقيقة موقف الزيود من اليهود ولكني سمعت من بعض يهود تلك البلاد بأن معاملة الزيود لهم هي معاملة ناهية ''أي جيدة'' ربما كانت أفضل من معاملة الشوافع لنا.

س- وكيف كانت معاملة الترك لكم؟

ج- لا تختلف عن معاملة المسلمين فبعض الحكام كانوا ينصفوننا وبعضهم كانوا يستبدون بنا.

س- هل هاجر منكم أحد إلى فلسطين؟

ج- كلا لم يهاجر منا أحد إلى فلسطين.

س- هل يوجد بينكم وبين الصهيونيين في فلسطين علاقات ومخابرات؟

ج- نعم، هم يكتبون لنا أحياناً وأحياناً يرسلون لنا جرائد ونشرات، ولو أرسلوا لنا دراهم لرحل كثير منا إلى هناك.

س- لماذا لا ترحلون من تلقاء أنفسكم؟

ج- أولا لأنه لا يوجد لدينا المال الكافي لترحيلنا وترحيل عيالنا، وثانياً لأن جلالة الإمام قد منعنا من الهجرة إلى فلسطين.

س- ولكن أخبرني بعض الحاخامين أنه يوجد لهم أقارب في يافا والقدس، فكيف سافر هؤلاء الناس؟

ج- إنهم يفرون فراراً دون علم الإمام وحكومته، ويذهبون إلى عدن عن طريق البر ومن هنالك يسافرون إلى أرض الميعاد.

س- وماذا تعنون بأرض الميعاد؟

ج- إن أرض الميعاد هي فلسطين، وسيأتي يوم يعود فيه جميع اليهود في العالم إلى أرضهم، ومكتوب عندنا في الكتاب بأن أرض الميعاد هي لليهود وأن البريطانيين

سيملكونها ويملكون جميع العالم بضع سنين ولكن في نهاية الأمر سيظهر المسيح الموعود وينتهي بظهوره كل حكم غير يهودي في هذه الأرض.

س- وهل يصبح جميع العالم عندئذ من اليهود ولليهود؟

ج- نعم، هكذا جاء في الكتاب، ففي ظهور المسيح الموعود سيتهود جميع العالم وتزول جميع السلطات والحكومات.

وقد كان هذا اليهودي الهرم البالغ من العمر عتياً يحدثني هذا الحديث وهو واثق في صحته كل الوثوق، وقد أبديت له شيئاً من التهكم في أثنائه فكان لا يلتفت إلى تهكمي.

ويسترسل في حديثه ويستعين بعبارات صوته وبيديه وقدميه لإثبات صحة هذه النبوءة الواردة في كتابه القديم، أجارنا الله منها ومن شرها.

قضيا ليلتنا في إب على أحسن حال وفي الصباح نهضنا مبكرين كالعادة وسرنا من إب إلى مرحلتنا الأخيرة في بلاد الإمام وهي قرية (ماوية)[1] وسارت بنا الطريق أولا في واد متسع فيه أشجار ونباتات، ثم صعدت في نقيل وعر لا يمكن للسيارات أن تجتازه، ويقال له (نقيل المحمول) وتكثر على هذه الطريق سبل الماء والمساجد الصغيرة، وبعد أن صعدنا إلى قمة (نقيل المحمول) هبطنا منه في نقيل آخر يقال له (نقيل المحرس)، ثم سرنا في واد سهل إلى أن وصلنا إلى قرية (السياني) وفي الطريق رأيت حقولا كبيرة من نبات غريب لم أشاهد مثله من قبل، فسألت أحد الرفاق عن اسم هذه النبات فقال: هذا هو الحلبة، فأخذت شيئاً منه فلم أجد فيه رائحة الحلبة عندنا بالرغم من أنه ينتمي إلى نفس الفصيلة.

وفي قرية (السياني) الواقعة على مفترق طريقي إب وتعز وجدنا أمير جيش تعز السيد علي الوزير التابعة لحكمه هذه القرية قد أوفد مندوبا من قبله ليستقبلنا ويرحب بنا باسمه، وقد أعد لنا هذا المندوب غرفة للاستراحة وجلب لنا معه شيئاً كثيراً من الطعام فأكلنا من طعامه وشكرنا للسيد الوزير كرمه.

وقد أتيح لي في رحلتي الأخيرة إلى اليمن أن أجتمع بالسيد علي الوزير اجتماعا طويلا وأقضي في ضيافته عدة أيام فوجدته رجلا حازما مقداما نشيطا كريما

---

(1) ماوية: سبق التعريف بها.

عالما بالسياسة وأحوالها ومطلعا على الأحوال العالمية تمام الاطلاع، وهو محبوب في تعز حباً جماً للطفه وعدله وتمسكه بما أمر الله به ونهى عنه رسوله.

الطيارات الإنكليزية ترمي ماوية بالقذائف

وفي أثناء استراحتنا في المنزل تقابلنا مع رجل تركي الأصل بقي في اليمن بعد أن نزح الأتراك عنه ويدعى محمود مصطفى، وروى لنا أنه كان في تعز وفي المنطقة التي ألقى عليها البريطانيون قنابلهم، قال: طلب البريطانيون من الإمام أن يتخلى لهم عن الضالع وجليلة (؟) وقعطبة، وألقوا بعض المناشير على تعز وذمار وماوية وإب يقولون فيها أنهم سيلقون قنابلهم على هذه البلاد إن لم تخل جنود الإمام الضالع وجليلة وقعطبة، وحددوا اليوم السابع من شهر رجب سنة 1336 موعدا للضرب، ومن البديهي أن جنود الإمام ما أخلت هذه الأماكن، لذلك جاءت في اليوم المذكور أسراب كثيرة من الطائرات وألقت قنابلها على جميع البلاد التي ذكرتها، وألقت القنابل أيضاً على (قرية شهاب) الواقعة بالقرب من ماوية فقتلت ولدين، وضربت (قرية عمر الصعدة) فجرحت أربعة من الجنود، وأما في تعز المدينة الكبيرة الآهلة بالسكان فقد كانت الخسارة جسيمة جداً إذ بلغت نحو 300 شخص بين قتيل وجريح ومعظمهم من الأولاد والنساء، وفي يريم قتلت امرأتين ورجلين، وفي قرية النادرة امرأتين. ومعظم هذه القرى التي ألقت الطائرات قنابلها عليهم لم تكن داخلة في الإنذار، وعلاوة على إلقاء القنابل كانت الطائرات تمطر الناس على الطرقات العامة وابلا من رصاص رشاشاتها، وقد أحدث الرصاص ضرراً جسيماً بأبناء السبيل، كما هدمت القنابل كثيرا من المنازل والدور في البلاد التي أنذرت والتي لم تنذر.

وذكر لنا محدثنا بأن أهالي اليمن من أقصاه جزعوا جزعا عظيما من الطائرات، وكانوا حينما يرونها يعدون أمامها ذات اليمين وذات اليسار واستولى الخوف والذعر على قلوبهم ونفوسهم

بعد أن سمعنا حديث هذا الرجل بالسياني ركبنا بغالنا وسرنا نطلب ماوية والطريق أمامنا جيدة تصلح لسير السيارات، وقد مررنا في أثنائها بـ(جامع نخلان)، وهو جامع قديم مبني في (قرية نخلان) التي تبعد عن الطريق نحو كيلومتر واحد، ومررنا أيضاً بـ(جامع الجند)، وهو أول جامع بني في اليمن بناه الصحابي المشهور معاذ بن

جبل عندما ولي اليمن منذ أكثر من 1300 سنة، وهذان المسجدان يشبهان مساجد الحجاز، وخاصة مسجد الجند، وهو كبير وجميل وله نوافذ كبيرة بادية للعيان، ولكن أعداء الهواء والبرد سدوا هذه المنافذ طلبا للتدفئة فشوهوها كثيرا.

وقد شاهدت في الطريق إلى ماوية بعض الطبقات الحديدية على الآكام إلى جانبي الطريق، وشاهدت أيضاً الأشجار والأدواح الكبيرة يتضاءل حجمها كلما سرنا جنوبا إلى أن تغيب مرة واحدة ويظهر عوضا عنها هنا وهنالك نبات يشبه الصبر أو الصبير عندنا. ورأيت أيضاً في الطريق بعض الأنهار والجداول وقد أقام عليها رجال الدولة العثمانية جسوراً حجرية في عدة أماكن، وتجري مياه هذه الجداول والأنهار إلى المسيمير وهي عاصمة إحدى المحميات التسع[1].

وصلنا مساء إلى ماوية فوجدت وكيل العامل في انتظارنا فاستقبلنا أحسن استقبال وأخذنا إلى دار أعدت خصيصاً لنزولنا واعتذر عن عدم مجيء العامل لمقابلتنا بقوله: إنه مريض وطريح الفراش. فقلت: عافى الله العامل، وحفظه لكم ذخرا وعونا.

فقال: هل من حاجة أو خدمة ترمون قضاءها؟

فقلت: لا حاجة بنا إلى شيء، وشكرته على حسن وفادته.

فقال: استودعكم الله.

فقلت: بأمان الله.

وما كاد يغيب رسول العامل عنا حتى أتانا نجل العامل ومعه بعض الخدم يحملون لنا طعاما وشمعاً، وفي هذه الليلة اضطررنا أن نسهر على نور الشمع إذ لم نجد كازا في الدار التي حللنا بها، وكان رفقائي في هذه السهرة ابن العامل وأحد أقربائه ورجل ثالث من ماوية يقال له محمد حميد، وقد ساح في بلاد أوربا وقضى زمناً طويلا في ربوعها، ولما عاد إلى اليمن كان يقص بعض مشاهداته عن بلاد الغرب ولكن الناس كانوا يهزءون منه ولا يصدقونه، لذلك أخذ يقص على جلسائنا الذين ازداد عددهم شيئا فشيئا عن عظمة دور أوربا وبنائها وشوارعها وفنادقها وقطاراتها وسياراتها وعرباتها.. الخ، وكان كلما استغرب القوم شيئا ذكره يستشهد بنا ويطلب

---

(1) المسيمير: كانت عاصمة سلطنة الحواشب في جنوب الضالع، سيأتي وصفها.

منا أن نبين الحقيقة لهم، فكنا نصادق على كلامه، وكانت الدهشة والاستغراب يستوليان على هؤلاء الناس البسطاء الذين لا يعرفون شيئا عن المدنية الغربية، وإني أغبطهم لعدم معرفتهم شيئا عن هذه المدنية، فسماعك بالمعيدي خير من أن تراه.

وقد وجه لي غير واحد من هؤلاء الناس أسئلة كثيرة عن الطيارات وكيفية اتقاء شرها، وأبدى الجميع اهتماما زائدا بالمحاضرة الصغيرة التي ألقيتها عليهم بشأن كيفية مقاومة الطائرات، وأما السبب في سؤالهم إياي هذه الأسئلة فلأن الطيارات كانت قد هاجمتهم قبل مدة كما رويت سابقا، وكانوا اليوم في خطر لمهاجمتها لهم ثانية، وفي الحق أني رأيتهم قلقين جدا وكثير منهم صرحوا لي بأنهم سيهجرون القرى ويأوون إلى الأحراج والكهوف إذا هددهم الإنكليز بإلقاء القنابل مرة ثانية

الوسيلة الناجحة في مكافحة الطيارات

وبعد أن ودعت القوم وانصرفوا رأيت من المناسب أن أكتب كتابا لجلالة الإمام، أولا: أشكره فيه على العطف السامي الذي شملني به كل مدة إقامتي باليمن، وثانياً: لأذكر له كيفية اتقاء شر الطائرات، وبالفعل كتبت كتابا مطولا ذكرت فيه بعض الشروط الآتية لمقاومة الطائرات:-

1- نصب مدافع فوق القرى المهددة بالضرب ومقابلة الطائرات حين ظهورها بضربها بالقنابل مهما كانت عالية.

2- إعداد قوى كافية من الجند في أمكنة مرتفعة ومقابلة هذه الطائرات برصاص الرشاشات والبنادق. وبديهي أن الطيارين عندما يشعرون بالقذائف والرصاص حولهم يضطرون أن يبقوا مرتفعين في الفضاء، وكلما زاد هذا الارتفاع أصبحت إصابتهم للأهداف التي يلقون عليها قذائفهم متعذرة، لا بل مستحيلة.

3- عندما يرى الناس طائرة قادمة نحوهم يجب أن يجلسوا إلى الأرض في أماكنهم، ويجب أن لا يقوموا بأية حركة، لأن الطيار لا يفرق بين الإنسان والصخر والأشجار إلا من حركة الإنسان.

4- إذا كان الجيش ماشياً ورأى طيارة مرتفعة أكثر من ألف متر فيجب عليه أن يقف بمكانه ولا يتحرك إلا بعد أن تغيب عن أنظاره، وإذا كانت الطيارة أدنى من

ألف متر فيجب على الجند أن تنبطح على الأرض حالا، لأن الطيار لا يمكنه أن يحقق الهدف متى كان على علو 1000 متر، وأما إذا كان أدنى من ألف متر فبإمكانه أن يحقق الهدف أكثر فأكثر.

5- على الجند والأهلين في المناطق المهددة بالضرب أن لا يلبسوا على رؤوسهم وأجسادهم ألبسة ملونة بالألوان الزاهية كالأحمر والأصفر، بل يجب أن يلبسوا ألبسة قريبة من لون أرضهم، وأفضل الألبسة في مثل هذه الأحوال هي ذات اللون (الكاكي) التي يلبسها الجنود في البلاد المتمدنة. ومن دواعي سروري أني علمت عندما زرت اليمن في السنة التالية أن جلالة الإمام اهتم بكتابي وعمم صورته على جميع القطع العسكرية والعمال.

في الصباح نهضت مبكرا ودفعت بكتابي إلى جلالة الإمام لأحد الجنود، وقلت له: يجب أن تسلم هذا الكتاب من يدك إلى يد مولانا الإمام. فقال: سمعا وطاعة، وودعني الجنود وعادوا أدراجهم إلى صنعاء لأن ماوية هي آخر حدود الإمام ولا يجوز للجند أن تتخطاها إلى حدود المحميات، ولكن يسمح للأهلين (السفيل) أن يروحوا ويغدوا بين اليمن والمحميات دون أن يتعرضهم معترض.

بعدما ودعت الجند شعرت بوحشة شديدة فنزلت من الدار وأخذت أطوف في القرية فإذا بها قرية صغيرة حقيرة، وهي تابعة للواء تعز وعليها عامل من قبل أمير جيش تعز، وفيها مركز للتلغراف ودار للجمرك، ودار الجمرك كبيرة وفسيحة تتوقف فيها القوافل في ذهابها وإيابها إلى المحميات حيث تؤدي رسوم البضائع التي تجلبها من عدن.

زرت وكيل العامل في مقامه وطلبت إليه أن يستأجر لي بعض البغال لتنقلني إلى لحج، وفي الحال أمر حضرته من يلزم فجلبوا لي عدة بغال انتقيت منها ثلاثاً واحدا لركوبي واثنين لتحميل حوائجي وأخذتها وسرت إلى الدار فحملنا الحوائج على اثنين وامتطيت الثالثة وسرت مع رفقائي الجدد وكانوا ثلاثة من شوافع ماوية في طريقنا إلى المسيمير.

في الطريق إلى المسيمير[1]

لم نكد نخرج من ماوية حتى تبعنا أناس كثيرون كانوا يريدون السفر إلى لحج أيضاً، وكان بينهم شاب تدل ملامح وجهه على كونه غير يماني فاختلطنا بهم وسرنا سوية، فاقترب مني هذا الشاب وقال:

السلام عليكم، بلهجة تبدو فيها نغمة تركية.

فقلت: وعليكم السلام. يظهر لي أنك يا حضرة الأخ لست يمانيا؟

فقال: كلا أنا تركي الأصل، وقضيت زمنا طويلا في اليمن في الجيش العثماني وبعد ارتحال العثمانيين بقيت في اليمن واتخذت مدينة تعز موطناً لي وصرت أتعاطى التجارة، والآن أنا ذاهب إلى عدن لجلب بعض البضائع التجارية.

فقلت: أهلا وسهلا بك، إن شاء الله ستكون لنا خير الرفيق على هذه الطريق لأني أنا أيضاً سائر إلى عدن. فاستأنس الرجل بكلامي وسار إلى جانبي وحدثني كثيرا عن معادن اليمن وخاصة الفحم الحجري في منطقة قريبة من تعز يقال لها (الحجرية) قال: إن الفحم والكاز موجودان هنالك وإن الأهلين يستعملونه للوقود، وشكا لي من تأخر اليمانيين وعدم ميلهم للأخذ بالمدنية الحديثة وتمسكهم بكل شيء، قديم إلى غير ذلك من الأمور.

فسألت هذا الرجل عن اسمه، فقال: إنه يدعى حسين جاويش. سرنا مسافة ساعة ونصف ساعة في وديان وتلال شاهدت في بعضها طبقات من الحديد وعروقاً من الكوارتز، ويكثر في هذه الطريق أنواع صغير من الشجر تصلح للوقود وهي غير مثمرة. وصلنا إلى (الدريجة) بعد مسير ساعتين من (ماوية) و(الدريجة) هي أول حدود سلطان المسيمير، وقبل أن أصل إليها بمسافة وجيزة التفت إلى الوراء نحو اليمن معقل النسور والأسود ونفسي ملأى بالذكريات الجميلة اللذيذة التي تركتها بين

(1) المسيمير :- منطقة واسعة في أعلى وادي تُبَن، من أعمال محافظة لحج، وتقع شمال غرب مدينة الحوطة على بعد نحو 54 كيلومتراً، يحيط بها من الغرب مديرية القبيطة، ومن الجنوب مديرية تُبن، ومن الشرق مديرية ردفان، ومن الشمال أجزاء من أراضي محافظة تعز، وكانت المسيمير -في زمن رحلة المؤلف - مزكر سلطنة الحواشب، وهي واحدة من ست سلطنات كانت حينذاك في منطقة لحج، وتقع على خط الطول 44/22، وخط العرض 13/31.

جوانحي هذه السياحة الطويلة فشعرت كأني أغادر أهلي ووطني وبيتي وأودع أمي وأبي، وكان لسان حالي يردد قول الشاعر العربي[1]:

وَدَّعتُــهُ وَبِــوُدّي لَــو يُــوَدِّعُنِي   صَــفوَ الحَيَــاةِ وَأَنّــي لا أُودعُــهُ

ولا أبالغ إذا قلت أني لم أشعر يوما من أيام حياتي بلذة لا تفوقها لذة إلا في الأيام التي قضيتها في بلاد العربية السعيدة بالرغم من عدم وجود أي نوع من أنواع التسلية، وبالرغم من وجودي بعيداً عن أهلي ووطني، ولو خيرت اليوم بالذهاب في رحلة إلى أمريكا أو أوربا لفضلت الذهاب إلى صنعاء على الجميع، فصنعاء فيها البساطة والصدق والأمانة والحرية والاستقلال، وجوها مشبع بالتقى والطهر والعفاف والتمسك بشريعة الله والمحافظة على سنة الرسول ﷺ بخلاف أجواء أمريكا وأوربا الموبوءة بجميع أنواع الأوبئة القتالة من فحش وكذب وزندقة وتجذيف وكفر و و.

وصلنا إلى (الدريجة) بدون عناء لسهولة الطريق، و(الدريجة): قرية صغيرة حقيرة، وهي أول قرى سلطان الحواشب إحدى المحميات التسع ويدعى سلطانها محسن بن علي بن مانع، وجلسنا في سمسرة صغيرة تناولنا فيها شيئاً من الشاي واسترحنا قليلا ثم تابعنا سيرنا إلى المسيمير وهي عاصمة الحواشب، ومررنا بطريقنا بقرية صغيرة تدعى (الملحة) فلم نقف بها بل تابعنا سيرنا، وكان عددنا يأخذ بالازدياد شيئاً فشيئاً، وفي هذه البلاد يشعر المرء بالخوف من التشليح[2]، ولذلك تسير القوافل مجتمعة لتزداد قوة وتسير في النهار فقط، ولا يجسر أحد على السير في الليل خشية التشليح، وعندما خرجنا من ماوية كنا نفراً نعد على الأصابع ولكن لما وصلنا إلى المسيمير بلغنا أكثر من مائة شخص وقد تحدثت إلى بعض الرفاق الجدد الذين انضموا إلينا في الطريق وكان بعضهم آتياً من بلاد المشرق كما يقولون، أي من بلاد سبا ومأرب، وكانوا يحملون معهم كثيراً من العاديات والدراهم القديمة والتماثيل المصنوعة من المرمر في أيام حمير[3]، وهم يحملون هذه الأشياء إلى عدن ليبيعوها في

---

(1) البيت لأبي الحسن علي بن زريق الكاتب البغدادي (المتوفى سنة 420 هـ) من قصيدته العينية المشهورة التي قالها في الأندلس عند شعوره بدنو أجله قبل أن يحقق ما أمّله من هجرته إلى الأندلس، ومطلعها:

لا تعذليه فإنّ العذلَ يُولِعُهُ   قد قُلتِ حَقاً وَلَكِن لَيسَ يَسمَعُهُ

(2) شُلِّحَ فلانٌ: إذا خرج عليه قُطّاع الطريق فسلبوه ثيابه وعَرّوه. اللسان: (شلح).

(3) بهذه الطريقة – مع الأسف – فقدت اليمن معظم تراثها من الآثار والتحف والمخطوطات..إلخ. وما يزال الحال كما هو عليه، يغذيه الجشع والجهل والفساد والأزمات الاقتصادية المزمنة.

أسواقها، ويا حبذا لو كان صاحب الجلالة الإمام يحيى يهتم بهذه العاديات ويمنع إخراجها من اليمن بصورة قطعية ويؤسس معرضاً في صنعاء يجمع فيه كل ما تصل إليه يده من هذه الأنتيكات التي لا تقدر بثمن لو حُفظت وجُمعت بعضها إلى بعض فيتألف منها مجموعة نفيسة لا مثيل لها في العالم.

حديث مع السلطان محسن بن علي
نمشي مع الذي يملأ كفنا قروشاً!!

قبل أن نصل إلى المسيمير ببرهة وجيزة قابلنا السلطان محسن بن علي بن مانع مع حاشيته المؤلفة من ابن عمه وهو شاب، وعمه وهو رجل في مقتبل الشباب تدل هيئته على أنه من أصل زنجي، وبعض الرجال من أبناء عشيرته، ولما رآنا السلطان ترجل عن (صهوة) فرسه وأقبل نحونا، فترجلنا نحن أيضاً وسرنا نحوه وحييناه بقولنا:

السلام عليكم.

فأجاب: وعليكم السلام والرحمة والإكرام، ومد يده مصافحاً على الطريقة الغربية فصافحناه، وقلنا له: إننا مسرورون برؤيته.

فقال: علمت أنكم آتون إلينا من قافلة مرت بنا اليوم فجئت لاستقبالكم، فأهلا وسهلا بكم، فشكرناه على هذا اللطف وأبدينا أسفنا لتجشمه هذه المشقة في سبيلنا، فقال:

أنتم ضيوفنا وإكرامكم فرض واجب علينا، هيا تفضلوا امتطوا هذا الجواد وأشار إلى جواده، فرفضت ذلك، فأصر عليَّ كل الإصرار إلى أن امتطيت الجواد وامتطى حضرته جواد أحد أتباعه، وسرنا نحو المسيمير في هذا الموكب السلطاني العظيم! فاستقبلنا أهل المسيمير خارج القرية، ثم مشوا أمامنا إلى أن وصلنا إلى دار السلطان، وهي دار متوسطة الحجم ومبنية من الحجر والطين كدور اليمن، فدخلناها دخول الفاتحين وصعدنا في سلم حجري إلى الدور الثاني حيث قدموا لنا الشاهي والقشر، وما كدنا ننتهي من شرب القشر "أي قشر البن" حتى تركنا السلطان وانصرف قائلا: ربما تريدون أن ترتاحوا قليلا الآن، وسنعود إليكم بعد الاستراحة إن شاء الله، شكرنا هذا السلطان الديمقراطي اللطيف على حسن وفادته وكرمه ولطفه،

وودعناه حتى أول الدرج، فأصر علينا بالرجوع فرجعنا إلى غرفتنا، ونحن نفكر بدماثة أخلاق هذا الشاب الذي لم يتجاوز سنة السبعة عشر ربيعا، والذي يطلق عليه اسم سلطان وهو عاري الجسد ماخلا مئزرا يستر به نفسه وعمامة ملونة يضعها فوق رأسه، وهكذا كان حال عمه وحاشيته فجميعهم كانوا عراة الأجسام ماخلا المآزر، وكان معظمهم يحملون البنادق اليونانية القديمة ويسميها العرب عندنا "بأم اصبع" وأما صحة هؤلاء الناس وقوتهم فحدث عنها ولا حرج، فهم بالرغم من الحرارة الشديدة وبالرغم من قربهم لخط الاستواء يتجولون تحت أشعة الشمس المحرقة ولا يصابون بضربة الشمس أو غيرها من الأمراض، ولا يوجد في أية ناحية من النواحي التسع المحية لا دواء ولا طبيب ولا مدرسة ولا مكتب ولا هم يحزنون. وفي الليل أتانا السلطان محسن، وعقيب وصوله جلبوا لنا العشاء فأكلنا وإياه وبعض خاصته الذين أتوا في معيته وقضينا سهرتنا سوية وتحدثت إلى السلطان الشاب بأحاديث كثيرة هذه خلاصتها:

س- كم عدد سكان سلطنتكم؟

ج- لا أعلم لأننا لا نحصي النفوس.

س- كم مقاتلا يمكنكم أن تجندوا؟

ج- جميع القبائل يمكن تجنيدها عند الحاجة.

س- وكم عدد رجال هذه القبائل الممكن تجنيدها؟

ج- عندنا نحو عشرة أو خمسة عشر ألف مقاتل.

س- هل يوجد عندكم جيش نظامي؟

ج- لا يوجد عندنا جيش نظامي بل كل الناس جيش وقت الحرب.

س- لماذا تسمحون لرعيتكم وأتباعكم أن يُخِلّوا بالأمن ويسلبوا القوافل في الطرقات؟

ج- نحن لا نسمح لهم، ولكن بعض الأشقياء يقومون بهذه الأعمال ومتى عرفناهم نؤدبهم.

س- كيف أنتم والإنكليز؟

ج- الإنكليز أصحاب أبينا من قبلنا، ونحن وإياهم أصحاب، وهم يدفعون لنا معاشاً كل شهر، وإذا ذهبنا إلى عدن يطلقون المدافع حين وصولنا وذلك للترحيب بنا!

س- كيف حالكم مع الإمام؟

ج- حالنا حسنة لا أخذ ولا عطاء، نحن في أرضنا وعمال الإمام في أرضه، فإذا تجاوزوا على حدودنا نحاربهم، والله نحاربهم حتى نفنى جميعنا.

س- هل يجوز لكم وأنتم مسلمون أن تحاربوا إخوانكم المسلمين؟ ألا تخافون الله ومن يوم الله!

ج- والله نخاف من الله ومن يومه، ولكن عمال الإمام قوم ظلام لا يخافون الله، ونحن لا نريد أن نعاملهم بشيء؟

س- هل تعرفون الإمام، وهل زرتم صنعاء؟

ج- كلا لا نعرف صنعاء ولا زرنا الإمام، ولكننا سمعنا الشيء الكثير من أصدقاء الإمام ومن أعدائه، والكل مجمعون على إنه رجل متدين وطيب القلب ويحب الرعية، ولكن عماله ليسوا مثله، فلو كان عماله مثله لكنا تفاهمنا نحن وإياهم.

س- ألا تفضلون عمال الإمام العرب المسلمين على الأجانب الإنكليز؟

ج- نحن لا نفضل واحدا على واحد، وقد عقد آباؤنا مع الإنكليز اتفاقات، وما دام الإنكليز محافظين على هذه الاتفاقات فنحن معهم.

س- وإذا اتفق الإمام معكم ألا ترغبون أن تتفقوا معه وهو أفضل من الإنكليز؟

ج- والله نتفق معه ونحارب الإنكليز أيضاً، لأننا لسنا قبيلة أحد، وليس علينا سلطان، فمن يملأ كفنا قروشا فهو سلطاننا الحقيقي.

س- إذا دفع لكم الإمام قروشا فهل تخضعون له؟!

ج- نعم نخضع له، ولكن بشرطين: أولا أن لا يطلب منا رهينة، وثانيا إذا أتينا لصنعاء يجب أن يطلقوا حين وصولنا مدافع.

س- هل تتقنون الكتابة والقراءة؟

ج- كلا! لا نكتب ولا نقرأ..

س- كم لكم من العمر؟

ج- لا نعلم!

س- هل يوجد عندكم مدارس؟

ج- كلا! لا يوجد.

س- هل يوجد في المساجد أئمة تعلم الطلبة؟

ج- نعم يوجد في كل مسجد إمام يعلم (الجهال) أي الأطفال القراءة والكتابة.

إمام اليمن يقول:
أفضل أن آكل أنا وشعبي القصب
على أن أرى أجنبياً واحداً في هذه البلاد!

سألني السلطان أسئلة كثيرة عن الإمام وعلاقاته بالإنكليز، فقلت له: إن الإمام لا يعترف بسلطة الإنكليز في اليمن وفي المحميات "حتى عدن" ويعتبر عدن جزءا متمما لليمن اقتطعه الإنكليز من اليمن بدون حق، وهو يرقب الفرص لكي يستعيد عدن وجميع المحميات.

فقال: ذلك صعب جدا، ولا يمكن للأمام أن يقاتل (الصاحب) -أي الإنكليز- لأن الصاحب عنده طيارات وقروش، وجميع رجال القبائل تمشي معه من أجل قروشه وتقاتل الإمام ورجاله.

ثم سألني: من أي بلاد أتيتُ وما هو أصلي؟

فرويت له قصتي وقصة بلادي باختصار، فتعجب كثيرا وكاد لا يصدق ما يسمع، ثم قال:

وهل تريد أن تبقى في عدن؟

فقلت: كلا، سأقضي بضعة أيام إلى أن أجد سفينة إلى (بور توفيق) فأسافر عليها.

فقال: لا شك إنك ستقابل (الصاحب) في عدن، أي حاكم عدن الإنكليزي.

فقلت: ربما أقابله.

فقال: سوف يسألك عني بدون شك فالرجاء أن تحسن الشهادة بي.

فقلت: إن شاء الله.

وبعد هذا الحديث تركني السلطان بغرفتي وذهب إلى دار الحريم، فنهضت من مقعدي وذهبت إلى الفراش لأنام فلم أتمكن، أولا من شدة الحر، وثانياً لهجوم البق عليَّ هجوماً عنيفاً، فحملت فراشي وصعدت إلى السطح ووضعته هنالك وأردت أن أنام فلم أتمكن من النوم أيضاً لشدة الحر، وصرت أفكر في السلطان محسن وأضرابه من سلاطين المحميات، وهم ليسوا في الحقيقة إلا شيوخ قبائل شقهم الإنكليز بعضهم على بعض وصاروا يستعملونهم مطايا لتنفيذ إرادتهم وغاياتهم فخضعوا لهم لصغر نفوسهم وجهلهم وطمعهم في المال. ومر في ذهني وقتئذ قول جلالة الإمام لي مرة بينما كنت أتحدث وإياه عن الأجانب: تأكد يا نزيه بأني لو حاول الأجانب دخول اليمن لقاتلتهم إلى أن نفنى عن آخرنا، وإني أفضل أن آكل وشعبي القصب "أي قصب الذرة" مدى الحياة على أن أرى أجنبياً واحداً في هذه البلاد.

قضيت ليلتي على أسوأ حال ولم يذق جفني الكرى، وكنت تارة أراقب الدب الأكبر وطورا أبحث عن الدب الأصغر والثريا والميزان في السماء، ولما بزغ الفجر نزلت إلى الدار فوجدت الجميع نياما وأبواب الدار مغلقة فعدت أدراجي إلى السطح وصرت أترقب قيام السلطان أو أحد من حاشيته، ولكن السلطان –حفظه الله– تأخر في النوم إلى ما بعد طلوع الشمس ولم يجسر أحد من الخدم أن ينهض من فراشه لئلا ينزعج السلطان، وأخيرا سمعته ينادي بعض خدمه فانفرجت نفسي وراح الكرب عني، ونزلت في الحال إلى فناء الدار وطلبت إلى أحدهم أن يفتح لي الباب، ففتحه، وخرجت إلى القرية، فإذا بها قرية حقيرة لا تزيد منازلها على العشرين منزلا

مبنية من الطين والحجر وبعضها دورين وبعضها ثلاثة أدوار، ولها جامع صغير لا يسع أكثر من خمسين شخصاً. وبعد طواف قصير عدت إلى الدار فوجدت السلطان في انتظاري، وبعد التحية والسلام جلسنا على الأرض فجلب لنا بعض الخدم الطعام فأكلنا وشربنا، واستأذنت السلطان أن يسمح لي بالسفر فأذن بذلك وأمر لي بسيارته الخاصة أن ينقلني إلى لحج، فشكرته على هذا اللطف، وعندما امتطيت السيارة مع بعض الرفاق كحسين جاويش وغيره ذكرني السلطان بلزوم الثناء عليه في حضرة حاكم عدن، فوعدته خيرا واشمأزت نفسي من هذا التكليف القبيح.

سارت بنا السيارة من المسيمير تنهب الأرض نهباً فخلت نفسي في حلم، إذ من البديهي أن يسر الإنسان عندما يعود إلى ركوب السيارات بعد سفر طويل شاق على البغال، ولكن لم يطل -ويا للأسف!- سير سيارتنا بسرعة، لأننا وصلنا إلى نقيل وعر فوقفت سيارة السلطان في النقيل واضطررنا إلى أن ننزل منها وندفعها بأيدينا حتى وصلنا إلى أعلى النقيل، وبالرغم من قصر هذا النقيل فقد استغرقت عملية الدفع معنا نحو ساعة من الزمن، ولما بلغنا قمة النقيل امتطينا السيارة ثانية فاندفعت بنا إلى الإمام بسرعة زائدة، وكانت طريقنا في البدء تسير في الجبال، ثم هبطنا إلى الوديان والسهول، ومررنا بقريتي (الخندق) و(الدكيم) وشاهدنا في أثناء الطريق حقولا مغروسة ذرة، ورأينا ينابيع صغيرة من الماء تنبع في بعض الوديان وتسير مسافة قليلة ثم تغور في جوف الأرض ثانية، وفي (الدكيم) رأينا خطوطاً تلغرافية مدها الإنكليز أيام حربهم مع الترك، فسرنا إلى جانبها إلى أن وصلنا إلى (الشقعة) ويوجد في (الشقعة) معسكر للبريطانيين، وشاهدت في (وادي الشقعة) شيئا كثيرا من الموز والنخيل والذرة وبعض الأشجار المثمرة وغير المثمرة، وجميعها يسقى من ماء يجري إليها من المسيمير.

وصلنا إلى لحج في ساعتين ونصف ساعة، ولحج هي أكبر المحميات التسع وأعظمها، واجتزنا جميع أراضيها في ساعتين ونصف ساعة.

ضحكت من هذه السلطنات أو المحميات التي يجتازها الإنسان بالسيارة في بضع ساعات، وتذكرت في نفس الوقت الدول المشمولة بالانتداب الفرنسوي في سورية، وقهقهت من الضحك لما مر هذا الخاطر ببالي، فسألني الرفيق حسين جاويش ماذا أضحكك؟! فقصصت عليه قصة الدول المشمولة بالانتداب الإنكليزي والفرنساوي فكاد يغمى عليه هو أيضاً من كثرة الضحك.

ذهب سائق سيارتنا في لحج إلى سراي السلطان، وكان يحمل للسلطان كتابا من نسيبه سلطان المسيمير، فطال غيابه كثيرا، وأخيرا أتى وعلامات الغضب بادية على وجهه، فقلت له: ما أغضبك يا صاحبي؟!

فقال: إن السلطان محسنا بعث بكتاب إلى نسيبه سلطان لحج السلطان عبد الكريم آل فضل يطلب فيه منه أن يدفع لي "أي للسائق" مبلغ 15 ريالا لكي ابتاع بنزيناً لأجل عودتي إلى المسيمير ولكن السلطان عبد الكريم رفض أن يدفع لي شيئا.

فقلت: لا بأس يا صاحبي أنت أوصلتنا إلى هنا وصار من الواجب علينا أن نقوم نحن بشراء البنزين لك ونفحته في الحال مبلغاً من المال لشراء البنزين وشراء هدية صغيرة للسلطان محسن، وودعناه وانصرفنا.

وضعنا حاجاتنا في سمسرة كبيرة، وطفنا قليلا في البلاد، ومررنا بسراي السلطان، وهي جميلة وكبيرة وبناؤها متقن، وطفنا في الأسواق فوجدناها نظيفة ومرتبة وفيها بضائع أجنبية ومحصولات وطنية، ولحج هي أكبر المحميات التسع وتدعى عاصمتها (الحوطة) وعدد سكانها نحو 350 ألف نفس، ومساحتها ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف كيلومتر مربع، وأهم بلداتها: الحوطة، والشقراء، ولحج، وأبين، وأنصاب، والمسيمير، وحبان، وأعظم قبائلها آل الفضل والعوالق واليوافع والعبادلة والحواشب والصبيحة، وجميع سكانها من المسلمين، ومعظمهم من الشوافع، ويوجد أقليات ضئيلة من سائر المذاهب كالأحناف والجعفريين والإسماعيليين والزيود، وأما حاصلات لحج: فالحبوب بأنواعها والجلود والبن، ولكن حاصلاتها لا تقوم بنفقات حكومتها وسلاطينها، ولذلك يتناول سلاطين لحج وسلاطين جميع المحميات مشاهرات من البريطانيين، وتبلغ مشاهرة سلطان لحج نحو 3500 روبية، وهي أكبر مشاهرة يدفعها الإنكليز للسلاطين، وتبلغ أقل مشاهرة نحو أربعمائة روبية يتناولها سلطان الضالع. وأما بقية المحميات: فهي الصبيحة، والعوالق، والواحدي، والعوازل، واليوافع، والعلوي، والقطيبي، والحواشب.

ولهذه القبائل والبلاد شيوخ كثيرون، كل شيخ يعتبر نفسه سلطاناً، ولا يخضع لنفوذ أكبر منه من المشايخ أو السلاطين، بل يخضع رأساً لسلطان الجميع وهو حاكم عدن الإنكليزي، ويتناول منه مشاهرة في رأس كل شهر وينفذ أوامره حسب مشيئته، وإلا يكون عرضة للإسقاط وقطع الراتب، وهذا مما جعل هؤلاء السلاطين

يضيعون عزة أنفسهم وشممهم وصاروا عبيدا أذلاء للأجنبي يستعملهم لتنفيذ غاياته ويسلط بعضهم على بعض ويدس بينهم الدسائس حتى لا تجتمع لهم كلمة ولا يطلبون متحدين أي طلب.

بعد أن أتممت طوافي في مدينة لحج أخذت سيارة إلى عدن فوصلت إليها في نحو ساعتين من الزمن وذهبت توا إلى فندق "كراند أوتيل" واضطررت أن أنتظر في عدن ثلاثة أيام حتى وجدت سفينة تنقلني إلى بور توفيق

ومنها عدت رأساً إلى القاهرة براً عن طريق السيارات.

الخاتمة

نصح وتحذير

أرى من واجبي الوطني والديني -كرجل مسلم عربي- أن ألفت نظر حضرة صاحب الجلالة الإمام يحي حميد الدين ورجاله الأفذاذ وشعبه الكريم إلى المطامع الأجنبية في اليمن، فقد لاحظت في رحلاتي المتعددة في داخل اليمن وخارجه أن أنظار بعض الدول الاستعمارية متجهة نحو هذا القطر السعيد: أولاً لمركزه الجغرافي الحاكم على البحر الأحمر وبوغاز باب المندب وعدن، وثانياً لثروته الزراعية والصناعية. وأظن أن معظم أهل اليمن يجهلون أساليب الاستعمار والمستعمرين لأنهم لم يشاهدوه ولا ابتلوا به -ولله الحمد- كما شاهدناه نحن الذين نشأنا وتربينا في مهده منذ نعومة أظفارنا. وإني أذكر على سبيل التمثيل أن الدول الاستعمارية حينما تطمع في قطر من الأقطار تبدأ بإرسال جنودها الكشافة لتمهيد الطريق باسم الإنسانية والشفقة والرحمة والدين، أي أنها ترسل بعثات من الأطباء وتبني مستشفيات حباً في المحافظة على الصحة العامة!! الخ، ثم تبعث بالمبشرين والمعلمين فيبنون مدارس وكنائس ويبدءون بنشر سمومهم بين الناس على اختلاف طبقاتهم غيرة على الدين ونشر التعليم!! هذه هي أول فتوح الاستعمار وهؤلاء هم طلائعه، ومتى تأسست المدارس والكنائس والمستشفيات يصير للدولة صاحبة الشأن الحق في المحافظة عليها وعلى رعاياها، فكلما بدرت بادرة في البلاد ترى هذه الدولة تتدخل في الأمر تحت ستار المحافظة على أرواح رعاياها وأموالهم ومؤسساتهم.

وأنا لا أنكر أن اليمن في الوقت الحاضر خلو من هذه البعثات إلا أنه ليس خلوا من بعض رجال الأجانب وأذنابهم المندسين في الحديدة وصنعاء تحت أسماء مختلفة وغايات متباينة.

فإلى هؤلاء الناس ألفت نظر حضرة صاحب الجلالة الإمام لأنهم هم طلائع المستعمرين في بلاده. هذه هي نصيحتي لحضرة صاحب الجلالة الإمام.

وأما نصيحتي إلى كتاب العرب وصحافتهم فهي أن لا يأخذوا بالدعايات والأخبار التي تنشر عن اليمن بين حين وآخر لأن معظمها لا بل كلها مستقاة من الأجانب وأذنابهم الذين يكيدون لهذه البلاد ويشوهون سمعتها لشيء في نفوسهم. ويعلم الله أني ما قصدت من تحرير هذه الرحلة إلا الخدمة العامة. والله من وراء القصد.

تتمة الرحلة

سبأ والوجوه تعنو إلى الله

للشاعر الخالد أبي الطيب محمد بدر الدين الخطيب

رجف النور في غضون الكتابِ ... ومشى في السطور ركب الصحابِ

في رواق من الضياء على الليـ ... ـل يقود الركاب خلف الركابِ

يتعالى الهباء فيه مشوبا ... بظلال الأجيال تحت الترابِ

هات حدث نزيه عن دار بلقيـ ... ـس وعن سورها الرهيب العجابِ

هل رأيت الغمام في فلق الصبـ ... ـح ووهج الأنوار عند الغيابِ

وعليها جناح هدهد يزجي ... بحديث الأصحاب والأحبابِ

وتهاوى إلى فؤادك موجٌ ... من خلال الضحى وخلف الخرابِ

فترددت بالشجون وفي نفـ ... ـسك صوت يضج خلف الحجابِ

سبأ والوجوه تعنوا إلى اللـ ... ـه وفي الظل سجدة الأحقابِ

أين سوق تضج في النهارا ... ت وأنوار ليله كالحبابِ

والصروح الممردات تراءى ... غرفًا بينها خصيء وخابي

عبدوا الشمس سادرين وضجوا ... من رؤى الشمس في غضون

أفغموا بالبخور والعزف قومًا ... في خياشيمهم مكان الصوابِ

الأهازيج والتمائم تُزجى ... مبهماتٍ على فراغ القبابِ

والذي يؤثر الفتون تغالبـ ... ـه على سره وحسن المآبِ

هات حدّث عن سد مأرب والليـ ـل عباب على سواد العبابِ

وخرير المياه في حسيسٍ من هدير يصم أذن الروابي

والبقايا من الفنونِ تراءت في جدار مروّع مرتابِ

وزئير الجنود بالزامل الزجّـ ـاف بالنار والتماع الحرابِ

واسأل الله أن يعيد الليالي مشرقاتٍ على سواد اليبابِ

ويرد التاريخ بعد ارتياب ويرد الأحباب بعد غيابِ

هات حدث ففي الحديث شجون وعجاب على حديث عجابِ

ضقت ذرعًا فرحت تضرب بالأر ض هصورًا وتزدري بالصعابِ

رحت والوجود في فؤادك يزجي بك في كل مهمة غيّابِ

يا صديقي إليك مني التحيا ت وآي الثناء والإعجابِ

آية العلم والجهاد بيمنا ك وظل السيوف حبر الكتابِ

الإذن بالسفر إلى مأْرِب

قبل زيارتي اليمن للمرة الأولى في أوائل سنة 1927 كنت أطالع بعض ما كتبه الغربيون والشرقيون عن اليمن استعدادا لتلك الرحلة، ولكني -ويا للأسف- لم أجد ضالتي، ولا ظفرت بالمعلومات الكافية عن هذا القطر العربي السعيد، فعوّلت على أن أبحث بنفسي عن حال هذه البلاد عندما أصل إليها، وطبقت بالفعل هذه الفكرة منذ وطئت قدماي ميناء الحُدَيدَة إلى أن غادرتها، وكنت أسجل كل يوم مشاهداتي في دفتر خاص، وقد نشرت هذه الرحلة في (جريدة الجزيرة) الغرّاء.

وعندما وصلت إلى صنعاء في تلك الرحلة قابلت واحدًا من أشراف مأْرِب وقص علي قصصًا خيالية عن السد، وعن مأْرِب، وعن محرم بلقيس، وجامع سليمان، والكنوز المسحورة، والجرف المسكون بالجن..الخ...الخ. وكنت قد طالعت في "تاريخ العرب قبل الإسلام" للمرحوم جرجي زيدان شيئا عن هذه الأماكن فتحرك فيّ حب الاستطلاع والاستكشاف للمغامرة والسفر إلى هناك، فطلبت من جلالة الإمام أن يسمح لي بزيارة تلك البلاد بصحبة هذا الشريف، فقال لي جلالته: هذا ليس بالإمكان. فسكتُّ على مضض، وزاد بي الشوق إلى رؤية تلك البلاد، ولكن لم يتم لي ما أردت. وغادرت صنعاء وفي نفسي غصّة لعدم تمكني من القيام بهذه الزيارة.

ثم سافرت إلى اليمن في السنة الثانية وطلبت إلى جلالة الإمام أن يأذن لي بالقيام برحلة إلى مأْرِب. فقال: ليس هذا بالإمكان، لأن أهل تلك البلاد من القبائل البدوية غير المتمدنة، ولا يمكن لرجل غريب عن اليمن أن يذهب إلى هناك في الوقت الحاضر، ومن البديهي أن كلام الملوك ملك الكلام، فلدى هذا الجواب الصريح لم أنبس ببنت شفة، ولكني لم أقتنع بهذا الجواب، وكنت أرغب رغبة أكيدة أن أذهب على مسئوليتي ولو أدى ذهابي لفقد حياتي، ولكنّي لم أجسر أن أصارح الإمام بما كان يجول بنفسي وانصرفت من بين يديه حزينا كئيبا، وغادرت اليمن في نفس تلك السنة وأنا على هذه الحال.

وفي السنة التالية زرت اليمن للمرة الثالثة واجتمعت بأحد العمال، وكان مركزه قريبًا من مأْرِب، وقصَّ علي بعض القصص عن هذه البلاد مما احتدم بي الشوق إلى المغامرة والذهاب إلى هناك مهما أدى الأمر، ففاتحت جلالة الإمام بعزمي فرد طلبي بلطف، فقلت لجلالته: إني أذهب على مسئوليتي، وإني مستعد أن أكتب وثيقة بخط يدي أرفع بها كل مسؤولية عن عاتق جلالته، وأذكر فيها أني هدرت دمي وأني أنا الساعي إلى حتفي بظلفي، ولا يحق لأحد أن يطالب بدمي إذا قُتلت أو هلكت. ولكن جلالة الإمام رفض هذا الطلب أيضًا وأفهمني أنه لا يقبل بشكل من الأشكال أن أُمس بسوء وأنا في ضيافته، فأذعنت للأمر مكرها وغادرت اليمن وفي نفسي شوق لرؤية مأْرِب.

وغبت في هذه المرة سبع سنوات، ثم زرتها للمرة الأخيرة في أواخر سنة 1935، وعندما تشرفت بالمثول بين يدي جلالة الإمام في خلوة خاصة، أبديت له رغبتي الشديدة بزيارة مأْرِب هذه المرة، فتبسم جلالته ابتسامته المعروفة اللطيفة، وأجاب: مَرْحَبا[1]، وعند سماعي هذه الكلمة طارت نفسي شعاعا وحسبتني في حلم لا في يقظة، وصرت أخلط بكلامي من شدة الفرح، فأدرك جلالته سروري، وقال: لقد خضَعتْ لنا جميع القبائل التي حول مأْرِب وأدت الرهائن، ولكن على كل الأحوال لا يُركن كثيرا إلى هذه القبائل، فإنها لا تزال على الفطرة الطبيعية، ولكن لا بأس من زيارتكم لمأْرِب هذه المرة.

وعندما سمعت هذا التأكيد تضاعف سروري وبدت على وجهي علامات الارتياح الكثير المقرون بالشكر الجزيل، وأجبت جلالته: إن لساني قاصر عن التعبير بما يجول في نفسي وقلبي من الاعتراف بالجميل.

فقال جلالته: إننا أدركنا هذا على وجهك، ولا حاجة لك إلى الإفصاح أكثر من ذلك، وهنا عدت فكررت شكري الجزيل واستأذنت جلالته في الانصراف، وخرجت من دار السعادة وأنا أكاد أطير فرحا.

وكان ذلك اليوم السابع عشر من شهر شعبان، سنة 1355، وبعد بضعة أيام ذهبت لزيارة جلالة الإمام واستأذنته أن أذهب لمأْرِب حالا حسب الوعد، وقبل دخول شهر رمضان، فأجابني بلهجة غير طبيعية: لا بأس، تراجعوا مع العمري.

---

(1) مرْحبا في اللهجة العامية الصنعانية تعني: موافق.

فانقبضَت نفسي لهذا الجواب، وأدركت في الحال أن في الأمر سرًا لأن جلالة الإمام لا يحول مراجعات كهذه إلى العمري إلا عندما يريد أن يتخلص منها بلطف، والعمري هو رئيس ديوان جلالته ورئيس الوزراء والأمناء، وبالاختصار هو كل شيء بعد الإمام، ويعول عليه جلالته في جميع الأمور الصغيرة والكبيرة، وهو في الحقيقة رجل ذكي، عالم فاضل محب لإمامه وبلاده، ومخلص وأمين له ولها كل الإخلاص.

خرجت من المخيم المنصور وأنا منكمش النفس من هذه الإحالة، ولكن لا بد من الإذعان في مثل هذه الأحوال، وسرت إلى الدار وأنا أفكر في ما الذي طرأ على خاطر الإمام حتى أراد أن يصرفني عن هذه الرحلة، فلم أتمكن من حل هذا اللغز، وقضيت ليلتي على مثل الجمر.

وما أن أصبح الصباح حتى ذهبت إلى دار العمري، وكانت غاصة بالزوار وأصحاب الأشغال، ولكني تمكنت أن أشق طريقي إليها بصعوبة، واستأذنت في الدخول عليه فأذنوا لي، وما كادت تقع العين على العين حتى رحب حضرته بي أجمل ترحيب، وهش وبش قائلا: حيا الله من قد جاء، كيف أنتم؟، بخيرين، طيبين، مستريحين؟

فقلت: الحمد لله على أحسن حال وأتمّه.

فقال: هل من حاجة ترومون قضاءها؟

فقلت: نعم، لقد أمر جلالة مولانا الإمام أن أتحدث إليكم بشأن رحلتي إلى مأْرِب.

فقال: نعم، لقد أمروني بذلك، ولكن لا يخفى عليكم أن هذه البلاد لم تدخل في طاعة الإمام إلا حديثًا، وأهلها من البدو الرُحّل، والسفر بينهم لأناس غرباء عن الديار لا يخلو من الأخطار.

فقلت: أنا لا تهمني الأخطار، لأني ابن بجدتها منذ نعومة أظفاري، وأني أقدر أن أتكلم كالبدو، وبوسعي أن ألبس لباسهم، أو لباس أهل اليمن، فلا يدركون حقيقة أمري.

ولما رأى مني حضرته هذا الإصرار قال: إذًا تذهبون برفقة العامل.

فقلت: وأي عامل هذا؟

فقال: عامل مأْرِب، فقد جاء منذ مدة إلى هنا للتداوي لأنه مريض.

فقلت: لا بأس، وودعته وانصرفت شاكرًا لطفه وحسن ضيافته.

استعلمت من بعض الأصدقاء عن العامل، فقيل لي أنه كان مصابا بالملاريا وقد تداوى وشفي منها تماما، وعند حصولي على هذه المعلومات اجتمعت بالقاضي عبد الله العمري مرة ثانية، وقلت له: إن العامل قد شفي من مرضه ولله الحمد، فيا حبذا لو تأمرونه بلزوم الإسراع في السفر قبل أن يدخل شهر رمضان، فقال: (مرحبا، ناهي) أي جيد.

وغبت بضعة أيام ثم أعدت الكرة عليه وسألته إذا كان قد رأى العامل، فأجاب بالسلب، ولكنه وعدني مرة ثانية بمقابلته. فتركته وانصرفت وأنا مغتاظ جدًا من هذا الأمر، ولكن ويا للأسف أن ما يغيظنا من ضياع الوقت لا قيمة له في نظر أهل اليمن أبدًا، فهم لا يقدّرون الوقت حق قدره، وعندهم الشهر واليوم (سع بعضه) أي مثل بعضهما، ولكن ما العمل وما الحيلة، أنا فرد غريب بين أمة كبيرة، ولا حول لي ولا طَوْل، فاضطررت مُكرها أن أعتصم بالصبر وآخذ الأمور بالحكمة والتؤدة، فدخل شهر رمضان وأنا لم أتحرك من مكاني، ولكني لم أيأس ولا قطعت الرجاء، وبالرغم من اعتقادي أنه لا توجد قوة في العالم تُخرج العامل من صنعاء في شهر رمضان، عدت فذكّرت جلالة الإمام بوعده لي بالسفر إلى مأْرِب، فأجاب: ألم تتموا[1] شيئا مع العمري؟

فقلت: كلا يا مولاي، إن العمري علّق المسألة على العامل، والعامل يقول إنه مريض ولا يمكنه السفر في الوقت الحاضر، وأما أنا فأرى أنه لا لزوم لسفر العامل معي وفي استطاعتي أن أسافر وحدي أو برفقة جندي واحد.

فضحك جلالة الإمام من هذا الكلام وقال: غير ممكن، لا بد أن نُلزم العامل بالسفر معك، لأن هذه الرحلة شاقة، وأهالي تلك البلاد كما أخبرتك قبلاً لا يزالون على الفطرة الطبيعية، ولم يروا غريبا في ديارهم، ولكن لا بأس من عزمكم (أي سفركم). وكان العمري حاضرًا الحديث، فأشار إليه جلالته بلزوم جلب العامل والاستفسار عن صحته.

---

(1) تتموا: تتفقوا.

اطمأنيت قليلاً عند سماعي هذا الأمر، وشكرت جلالة الإمام ودعوت له بطول العمر، وخرجت من بين يديه مسرورًا كأني ظفرت بضالتي المنشودة.

وعشية ذلك اليوم لم تغمض لي عين، وكنت أفكر في نفسي وأنا أتقلب على سريري من جنب إلى جنب بين النائم والصاحي، كأني سليمان عليه السلام، وكأني سأحظى بلقاء بلقيس ملكة سبأ، ثم يمر بخاطري تخوّف الإمام من هذه الرحلة وتردده في إصدار أمر صريح بها كما هي عادته في مثل هذه الأحوال، فتُساورني الهواجس والمخاوف، وأقول في نفسي: لابد أن جلالة الإمام على حق في تردده، وأذكر ما قرأت في بعض كتب التاريخ عن الذين حاولوا الذهاب إلى مأْرِب من الفرنجة أيام احتلال الترك لليمن، فكان نصيبهم الموت بالأمراض أو القتل من قبل أهل تلك البلاد. فأستسلم لليأس وأحاول أن أصرف هذه الرغبة عن ذهني، ولكن قوة خفية داخلية تناجيني وتوحي إلى بأن لا أقطع الأمل وأن ألحّ بالطلب، فتعود إليّ همتي الأولى، وبقيت كل شهر رمضان وأنا على هذه الحالة، يومًا أُسرُّ ويومًا أحزن، وتارة أيأس وطورًا أتشدد.

فجاء العيد وانقضى بسلام، فراجعت العمري وسألته ماذا تم بينه وبين العامل، فأجابني: أنه اجتمع به فوجده قد شُفي تماما من مرضه، ولكن يوجد له بعض الأشغال والحسابات لم يتمها مع بيت المال بعد، فمتى أتمها يمكنكم أن تسافروا على بركة الله.

تكدرتُ جدًا من هذه المفاجئة الجديدة، وعوّلت على مغادرة اليمن، ولكن خطر في بالي فجأة أن أعرض هذه القضية على صديقي الكريم القاضي محمد راغب بك – وزير خارجية اليمن – وآخذ رأيه فيها لأنه أخبر مني بهذه البلاد وأهلها، وقد قضى فيها عشرات السنين، فذهبت إليه ذات يوم وكان مريضا في فراشه، فقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها، وأعربت له عن استيائي الشديد من هذه الحالة، فطيّب خاطري وهدّأ روعي. وقال لي: ثق وتأكد أن جلالة الإمام يحبك ويعزك كثيرًا، وقد سمعته مرارًا يُثني عليك أعطر الثناء، وهو بدون ريب خائف عليك من هذه الرحلة، ويعزّ عليه أن تصاب بأذى لا سمح الله وأنت ضيفه وعزيزه.

فقلت له: إني أُهدر دمي، وليكن جلالته في حِلٍّ من كل أذى يحصل لي، وإني أُشهدك على قولي هذا وأنت خير الشاهدين.

فقال: سأكتب لجلالته وأعرض له فيه القضية كما تريد.

فقلت: أشكرك جزيل الشكر.

فقال: ولكن هل تعلم أن كثيرين من الفرنجة والمستشرقين عزموا على السفر إلى هنالك أيام الدولة العثمانية، وكانوا يصطحبون معهم بعض الشرفاء من أهالي تلك البلاد وقد غمروهم بالعطايا والأموال، ولكنهم بالرغم من ذلك كله كانوا يُقتلون من قبل بعض أفراد البدو، ولم يعد أحدٌ منهم سالما سوى (غلاذر)[1].

قلت: نعم، أعلم ذلك كله، ولا يهمني إن عدت حيًا أو ميتًا.

فلما رأى مني هذا الإصرار كتب لي رسالة إلى جلالة الإمام بهذا الخصوص.

فأُرسلت هذه الرسالة لجلالة الإمام، وانتظرت جوابها عدة أيام فلم يردني، ولا ورد إلى القاضي راغب بك شيء بهذا الخصوص، فاحترت في أمري، وصرت أضرب أخماسًا في أسداس، فم أتوفق إلى حل هذا اللغز، وكان قد انتشر خبر العزم على هذه الرحلة في أوساط صنعاء، وكنت ألتقي بأناس كثيرين، بعضهم يقولون أنهم يرغبون الذهاب معي، وبعضهم يسألونني متى أريد أن أسافر، وهل عدلت عن هذا السفر، فكنت أتميز غيظًا لهذه الأسئلة، ولا أعلم بماذا أجيب، وأخيرًا صممّت تصميمًا شديدًا أن أضع حدًا لهذه المحاولات، فزرت جلالة الإمام والتمست منه أن يأمر بوجوب سفر العامل معي فورًا، وترك حساباته وشؤونه الخاصة مع بيت المال لبعد عودتنا، وأعربتُ لجلالته أني مللت من الانتظار، ومن القيل والقال، ففكر جلالته هنيهة وبَدت على وجهه أمارات الاهتمام، وقطب حاجبيه، ثم حرك شفتيه وقال بحدّة للعمري: هيا تمّوا هذا الأمر واجلبوا العامل وقولوا له أن يوكل وكيلا ليرى حساباته ويعزم مع نزيه حالاً.

---

(1) إدورد جلازر Edward Glaser: مستشرق ألماني. ولد في بوهيمية سنة 1855م، وتوفي في ميونخ سنة 1907م. قام بأربع رحلات إلى اليمن بين سنتي 1882- 1894م، على رأس بعثة تابعة للأكاديمية الفرنسية في باريس، ووصف كثيراً من أحوال اليمن وآثارها. ونشر كتابات حميرية قديمة وآثاراً أخرى أفادت في معرفة شيء جديد عن ملوك التبابعة وملوك الحبش الذين استولوا على اليمن قبل الإسلام. وجمع نحو 250 مخطوطاً يمنيا، وُضعت في مكتبة برلين، كما جمع نحو ألفي نقش وكتابة قديمة بالخط المسند بينها أحجار منقوشة، إلى جانب ما جمعه من القطع الأثرية التى منها النقود التى كانت متداولة في العصور القديمة وخواتم وأختام باعها لمتحفي لندن وفينا. الأعلام للزركلي 282/1.

طرت فرحًا لصدور هذا الأمر الصريح من جلالته ونهضت واقفًا فقبلت يد جلالته وشكرته جزيل الشكر، واستأذنت بالانصراف وأنا لا أكاد أصدق ما سمعت وما رأيت، وما كدت أخرج من بين يديه وأدخل غرفة القاضي العمري حتى أدركني حضرته وقال: هيا استعدوا للسفر. وبينما نحن بالكلام وإذا بعامل مأرِب يدخل علينا، فبلّغه العمري أمر جلالة الإمام وضرب موعدا للسفر يوم الأحد الموافق 26 من كانون الثاني سنة 1936 و2 من ذي القعدة 1354. فأجاب العامل بالسمع والطاعة عندما تلقى هذا الأمر، وقال إنه سيحضر عندي في البيت ليجهز الأشياء التي تلزمنا في هذه الرحلة، فأجبت: على الرحب والسعة، إني بانتظاره في البيت من هذه الساعة، وغادرته عند القاضي العمري وسرت إلى الدار فرحًا مستبشرًا.

ولم يطل جلوسي في البيت كثيرًا حتى جاءني العامل؛ وهو (كبسي) الأصل، نسبة إلى مدينة (الكبس)، واسمه السيد محمد بن حسين الكبسي الهجوة. وبعد التحية جلس وأمارات السرور بادية على وجهه.

فقلت له: لقد أضعت وقتًا طويلاً بسبب مرضك وحساباتك!

فقال: إني آسف جدًا لهذا الأمر، ولكن ليس باليد حيلة، فأنا قد شُفيت ولله الحمد من الملاريا، ولكن أُنظر إلى يدي فهي لا تزال ملتهبة، فنظرت إلى يده فرأيتها مصابة بالإكزيما المزمنة.

فقلت: ياصاحبي هذا مرض مزمن، ولو شئت أن أنتظر لحينما تشفى منه فلا شك أني سأقضي بقية حياتي باليمن.

فضحك كثيرًا لهذا الجواب، وقال: الخيرة بالواقع، دعنا نستعد الآن وأخبِرني بالأشياء التي تريدها حتى نأخذها معنا من هنا.

فقلت: لا أريد شيئا سوى سلامتك، أنا عندي جميع حاجاتي.

فقال: حسنا، إذاً استعد إلى بعد الغد صباحاً فسنعزم إن شاء الله مبكّرين من هنا اكتسابا لبرودة الهواء.

فقلت: أنا حاضر من هذه الساعة.

فقال: حسنا. وودعني وانصرف وهو يبتسم لفرحي.

السفر إلى مأْرِب

وفي صباح الأحد الموافق 26 كانون الثاني سنة 1936 و 2 ذي القعدة سنة 1354 نهضت قبل الفجر وأقفلت حقائبي وجلست أتناول طعام الصباح، وبينما أنا كذلك وإذا بالخادم يُعلمني أن جاويشا (أي عريفاً) من الجيش جاء يستأذن بالدخول فأذنت له، فقال:

عُيِّنت بأمر من جلالة مولانا أمير المؤمنين أن أرافقكم إلى مأْرِب على رأس قوة كبيرة من الجند للمحافظة، وهانحن تحت أمركم الآن، والبغال حاضرة للحمل والركوب.

فقلت: لا أريد سوى بغلة واحدة لركوبي وأخرى لحمل حقائبي، وأشرت إلى الحقائب.

فقال: حسنا، وفي الحال صاح بالجنود، فدخل منهم ثلاثة حملوا الحقائب وشدّوها على البغلة بسرعة زائدة.

وفي هذه الأثناء وصل العامل وقال: أصبحتم (أي صبحكم الله بالخير).

فأجبنا: صبحكم الله بالخير والعافية.

فقال: هل أنتم مستعدون للمشي.

فقلت: على تمام الاستعداد، وحوائجي أصبحت على ظهر البغلة.

فقال: هيا باسم الله.

فخرجنا من الدار وسرنا في الطريق يتبعنا الجند والبغال وفرس العامل وكثير من أصدقائنا المودعين، وسار هذا الموكب معنا إلى باب (الشقاديف)، وهنا عاد المودعون أدراجهم، فامتطينا بغالنا وسرنا باسم الله. والتفتُّ حولي وإذا أنا بين قوة كبيرة من الجند يبلغ عددها نحو أربعين رجلاً بكامل عددهم [وعدتهم] فاستغربت من هذا الأمر وسألت العامل: لماذا كل هذه القوة، هل نحن ذاهبون إلى حرب؟

فقال: لقد أمر جلالة الإمام بخمسة عشر جنديًا لمرافقتكم، وأما الباقون فهم جنود مأْرِب وضابطهم، وقد كانوا هنا مأذونين وانقضت مأذونيتهم، والآن يعودون إلى مركز وظيفتهم بمأْرِب.

فقلت: حسنا. وسرت فرحًا مستبشرًا.

وكانت طريقنا تسير إلى جانب الجبال، أي جبال: (نقم)، فـ (بَراش)، فـ (الرَّيْد) شرقًا بشمال إلى أن وصنا إلى أسفل وادٍ يقال له (وادي السرّ)[1]، ومن هنا اتجهتُ شرقًا تمامًا. ويقال للبلاد الواقعة بين صنعاء ووادي السرّ بلاد بني الحارث، وبعد اجتيازها دخلنا في بلاد [بني]حِشَيْش[2]، وجبالها بركانية سوداء، وأما جبال وادي السر وما يليها من الجبال إلى جهة الشمال فجبال كلسية، وبينها جبل مشهور جدًا في اليمن، ويقال له (الغراس)[3]، يجلبون منه الأحجار الكلسية إلى صنعاء، فيحرقونها ويصنعون منها ما يسمونه (القص)، أي الكلس، ويجلبون منه أيضًا المرمر الذي ينشرونه ألواحًا دقيقة، ويستعملونها عوضًا عن الزجاج، وقد شاهدت في أول وادي السر طبقات كثيرة من الحديد في عرض الجبال في كل مكان، ولا شك أن الجبال المحيطة بهذا الوادي تحوي بعض المعادن.

وبينما كنت أفحص بعض الطبقات الحديدية استلفت عملي نظر الجاويش الحاج يحيى المعدني، فسألني: ما هذا؟

---

(1) وادي السِّر: واد في الشمال الشرقي من صنعاء في منطقة بني حشيش ويبعد عن صنعاء زهاء 23كم، وكان يقال له (سر ابن الروية) نسبة إلى محمد بن أحمد بن الروية من أعيان اليمن قديما، وهو واد خصيب يقع بين سلسلتي جبال تمتد من الغرب إلى الشرق تفصل بين منطقتي (خولان) و(نهم)، ويمتد الوادي من حدود بني الحارث مصعدا حتى أعالي الشرفة، تصب مياهه في اتجاه الشرق في وادي الخارد في الجوف، وطوله نحو 30كم، وعرضه يتروح بين 4-10كم، وللعلامة يحيى بن محمد المقرائي (ت 990هـ) كتاب عن وادي السِّر وتراجم أشهر علمائه ومن نسب إليه عنوانه: "مكنون السر في تحرير نحارير السر" نُشر بحقيق الأستاذ زيد بن علي الوزير، صنعاء: مركز التراث والبحوث اليمني (2002م). انظر: صفة جزيرة العرب 18-109، مكنون السِّر في تحرير نحارير السِّر68-69، مجموع بلدان اليمن وقبائلها 261/1، 491/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 782/1.

(2) ضبطها المؤلف حَشِيَش، والصواب: بني حُشَيْش. قلت: بنو حُشَيْش، بضم الحاء وكسرها: منطقة وقبيلة من قبائل خولان العالية، وهي مديرية (ناحية) من أمال محافظة صنعاء، تقع إلى الشرق منها بجبل نُقُم وبراش المطلين على صنعاء من جهة الشرق، وتتصل بنو حشيش من شماليها ببلاد نِهم وبني الحارث، ومن شرقيها وجنوبيها ببلاد خولان العالية، ومن غربيها ببني الحارث وصنعاء، وبها الغراس ووادي السِّر، وتشتهر بزراعة الخضروات والفواكه، وأشهرها العنب. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 260/1-262، معجم البلدان والقبائل اليمنية 468/1، الموسوعة اليمنية 1095/2.

(3) الغراس: سبق التعريف به في الجزء الأول من هذه الرحلة.

فقلت له: هذه طبقة من الحديد، ويمكن الاستفادة منها واستخراج حديدها.

فقال: نعم نعم، يوجد في اليمن حديد ومعادن كثيرة، ولكن أهله لا يهتمون بذلك إلا يسيرًا. وأردف قائلا: إنه رأى عندما كان بصعدة في قرية يقال لها: (مَجَدْ) جبلاً عظيما من الحديد، وأهل هذه القرية جميعهم حدّادون يستخرجون الحديد من جبلهم هذا المدعو (خُنفَعِرْ)، ويصنعون منه أدوات كثيرة، أو يبيعونه كحديد في البلاد القريبة منهم.

وفي الحقيقة هذا أمر مؤسف جدًا، فبينما يوجد الحديد في اليمن بكثرة، تجدهم يستوردونه من الخارج بكميات كبيرة، وينفقون في الحصول عليه أموالا طائلة، وليس الحديد فقط هو الموجود في اليمن، بل توجد معادن كثيرة غيره، ولكن جلالة الإمام مشغول بمهامه الخطيرة عن هذه التفاصيل، وحين يوجه إليها اهتمامه العالي ستعود على البلاد بالخيرات الوفيرة.

وادي السر وجبل مصنعة

وشاهدت في الطريق قبل وصولنا إلى (وادي السر) شجرًا بريًّا يشبه ورقه ورق الكباد، وزهره أحمر، وقيل لي أنهم يستعملونه في صناعة فحم البارود، ويستعملونه أيضًا عوضًا عن الكيّ في الالتهابات: إذ يأخذون منه غصنًا ويُقطّعونه إربًا إربًا، فتخرج منه مادة بيضاء تشبه الحليب، فيضعونها فوق المكان الملتهب الذي يريدون كيه، وبعد برهة من الزمان ينفتح وتخرج منه المواد القيحية.

بعد السير زمنًا يسيرًا في وادي السر، وصلنا إلى قرية (القَمْعة)[1] — بالقاف المهملة -، وهي آخر مرحلتنا في اليوم الأول، وهي مرحلة صغيرة نحو خمس ساعات، وضيَّفَنَا هنا الحاج ناصر بن علي الشاويش[2]، وهو أمين صندوق مدينة مأْرِب، وقد

---

(1) القمعة: إحدى قرى وادي السر في بلاد بني حشيش، شرقي صنعاء وتبعد عنها نحو 25 كيلومتر وتشتهر بزراعة العنب بمختلف انواعة كحال الوادي كله.

(2) المشهور في الأسر التي تحمل هذا اللقب في اليمن: (الشاوش) بدون ياء، والحاج ناصر بن علي الشاوش ولد بقرية القمعة في وادي السر، سنة 1301هـ/1883م، عمل مسؤلا ماليا في بلاد الزرانيق (بيت الفقيه)، ومأرب، وتفرغ بعد ذلك للزراعة في قريته، توفي سنة 1377هـ/ 1957م، وهو جد زميلنا الدكتور: سعود بن محمد بن ناصر الشاوش، وهو الذي زودني-مشكورا- بهذه المعلومات عن جده وقريته.

أتى إلى بلدته مأذونًا في العيد. وداره أنيقة وجميلة، ذات ثلاثة طوابق، مبنية من الحجر واللبن، وسُلّمها – خلافًا لأكثر مباني القرى- واسع ومتقَن البناء، وكل شيء فيها منظم ومرتب، ودخلت أنا والعامل والضابط واثنان من (الجاويشية) إلى صالون الاستقبال، وهو غرفة كبيرة مستطيلة طولها نحو 12 مترًا، وعرضها نحو ثلاثة أمتار، وهي تشبه في كثير من الأحوال مضافات قرى جبل الدروز في الشام، إلا أن نوافذها من المرمر عوضًا عن الزجاج.

وما كاد يستقر بنا الجلوس حتى قدموا لنا طعام الغداء، وكان صاحب الدار يخدمنا بنفسه، وهذه عادة من عادات العرب الجميلة، أي أن المضيف لا يجلس مع ضيوفه على الطعام، بل يقوم بواجب خدمتهم إلى أن يُتمّوا طعامهم، وعندئذ يتناول طعامه مع من يَفِدون عليه من أهل قريته للسلام على الضيوف والاحتفاء بهم.

وكان طعامنا كناية عن خبز مخلوط بالعسل والسمن، ولحم مطبوخ بالفلافل والبهارات، وحلبة، وشعيرية مطبوخة مع البيض على طريقة طبخ المعكرونة.

وعندما قدّموا لنا الشعيرية قال العامل: تفضل كل من معكرونة اليمن، فأكلت منها فوجدتها جيدة كثيرًا، فقلت: لا شك أنها شهية، كما إن جميع طعامكم في اليمن شهي جدًا، ولكنكم مع الأسف تكثرون من الفلافل والبهارات، وهذا ما لا نستسيغه نحن.

فقال: عجيب. عجيب.

فقلت: ما هو عجيب، فـ"لكل امرئ من دهره ما تعودا".

فقال: صحيح. صحيح.

بعد الطعام جلس العامل ومن معنا من الرفقاء في مجلس القات، وأخذوا يخزنونه، (أي يمضغونه) بكثرة، ويُدخّنون المداعة إلى أن فسد هواء الغرفة من كثرة الدخان، فاستأذنتهم في الخروج إلى خارج القرية والطواف بجبالها، فقالوا: تفضل اذهب حيثما أردت، وأمروا بعض رجال القرية وبعض الجنود بمرافقتي، فخرجنا جميعًا، وطفنا الجبال القريبة للقرية للبحث عن المعادن، فلم أجد شيئا سوى الحديد، وأكثره من نوع (هيماتيت). ثم أشاروا لي إلى جبل شرقيّ القرية وقالوا:

توجد هنالك آثار حميرية.

فقلت: هيا بنا نذهب ونشاهدها، وسرنا مسافة عشرين دقيقة تقريبًا عن القرية، فوجدت بعرض أحد الجبال العالية — ويقال له جبل (المصنعة) — كهوفًا حميرية يظهر أنها كانت مقابر للحميريين، ولكن لا يوجد على أبوابها أو في داخلها نقوش حميرية، ويستعملها الأهلون الآن كملجأ لطروشهم أيام المطر، ويوقدون فيها نارًا، وصعدت من هذه الكهوف إلى رأس الجبل، وهو مربع الشكل، تبلغ مساحته نحو ربع كيلومتر مربع، وتظهر فيه بعض الخرائب الحميرية و(المواجل) - أي خزانات المياه -، ويبلغ طول الخزان من ثلاثة إلى أربعة أمتار، وعرضه نحو متر ونصف متر إلى مترين، وشاهدت في هذه الخرائب القديمة بعض أحجار المطاحن المكسرة، ورأيت أيضًا أحجارًا من المرمر لا يوجد عليها كتابات، بل نقوش وحفر وكأن بعضها كانت تُستعمل في بحيرات من الماء.

وأبصرت كثيرًا من الأحجار الكبيرة وقد كسرها أهل هذه البلاد استعدادًا لنقلها لبناء دورهم.

عدنا من جبل المصنعة قرب غروب الشمس، ورأيت في طريقي بعض كروم العنب وقد صنعوا لها عرائش من الحجارة لتمتد فوقها. والكروم في وادي السر كثيرة وعنبها جيد، ويتأخر كثيرًا حتى ينضج لأنه في وديان باردة. ورأيت أيضًا شيئًا من (القضب) أي الفصة، والحنطة، والشعير، والذرة، وبعض أشجار البلس (أي التين)، والأثل، وغيره من الأشجار غير المثمرة. ومعظم هذه النباتات والأشجار في هذه الجهة تنمو عقرًا، أي بعلية فلا تَشرب إلا من ماء الأمطار. وصلنا إلى الدار عند الغروب، وذهبنا إلى مسجد القرية للصلاة فوجدت بالقرب منه خزانا وبئرًا، فتوضأنا وصلينا. وبعد تأدية فريضة الصلاة عدنا إلى البيت فتناولنا القشر (أي قشر البُن المغلي)، وجلسنا هنيهة نتحدث، ثم جاءنا العشاء فلم أتمكن من الأكل إلا قليلا، وبعد العشاء سمرنا إلى ساعة متأخرة من الليل ثم قمنا للنوم، ولكن لم تغمض لنا جفن.

أما أصحابي فكان سبب امتناع النوم عنهم كثرة ما خزنوه من القات وأكلوه من الطعام، وأما أنا فكنت أفكر بمأْرِب وبلقيس، وسليمان - عليه السلام -، ومضى قسم طويل من الليل وأنا على هذه الحال ولم أنم إلا قُبيل بزوغ الفجر مدة يسيرة.

وبعد صلاة الصبح مشينا يوم الاثنين الموافق 27 من كانون الثاني من قرية القمعة، وهبطنا في طريق ضيقة وعرة إلى قرية (آل الوزير)[1]، وقد بنى هؤلاء السادة ومنهم السيد علي الوزير أمير جيش تعز، والسيد عبد الله الوزير عامل تهامة والحديدة وغيرهما من آل الوزير بيوتا فخمة يصح أن يقال أنها سرايات على طراز بيوت صنعاء، ولكنها أكبر منها وأجمل. وآل الوزير أسرة كريمة في اليمن، منيعة الجانب، ورجالها محبوبون من الجميع.

وتكثر في هذه القرية الكرمة، وقد صنعوا لها عرائش من الحجارة الطويلة، والتين، والقات، والأثل، والقضب، والبر، والشعير. وفي الحقيقة جميع وادي السر مغروس بهذه الأشجار والنباتات، وقراه متصلة بعضها ببعض من أوله في قرية القمعة، إلى قرب آخره في قرية (قاع الصلاحي). ويوجد بين هذه القرى الكثيرة بعض القرى اليهودية، ويصنع اليهود ههنا الأدوات الفخارية، ويتعاطون جميع الأشغال اليدوية من بناء، ونجارة، وحدادة..الخ. وهيأتهم تدل على أنهم من رجال القبائل، وتكثر في هذا الوادي الآبار كثرة عجيبة، ويختلف عمقها من 12 إلى 15 مترًا، وماؤها كثير وجيد.

ويقع إلى الجهة الشمالية من هذا الوادي جبل (صُرَع)[2]، وهو في أول بلادهم، ويقع إلى جنوب الوادي جبل (اللوز) من أعمال بلاد خولان، وهو مشهور باللوز والبُن والقات، ويليه من جهة الشرق جبل (عطية) المشهور بكثرة المراعي، ولا يَسمح أهله لأحد أن يرعاه إلا بإذن منهم. وتقطن بالقرب منه قبيلة بني عبس.

وقبل أن نصل إلى آخر هذا الوادي شاهدت قرية صغيرة جميع بيوتها مبنية من الطين بشكل يسترعي النظر، لعدم دقته وبساطته، فصورتها. وبعد ما صورتها مشيت فتبعني جمّ غفير من الأولاد، وأخذوا يصيحون على العامل الذي كان ماشيا أمامي بأعلى صوتهم: قف!. وعندما وقف شكوني له قائلين إنني صورت قريتهم، ولا شك أنها أعجبتني، وسوف ننقلها لمأرِب.

فقلت: نعم، إن قريتكم جميلة فما أسمها؟

فقالوا جميعهم: يقال لها (عيال أقير).

---

(1) قرية آل الوزير اسمها: (بيت السيد) وهي قرية مشهورة، من أجمل قرى وادي السر.

(2) في الأصل: صبراع، والصواب ما أثبتناه، وهو جبل وقرية في أعلى السّر في منطقة الشرفة من بني حشيش، شمال شرق صنعاء ما بين نهم وبني حشيش. صفة جزيرة العرب 151، 236، 265-266، مجموع بلدان اليمن وقبائلها2/466، معجم البلدان والقبائل اليمنية 2/902

فقلت: أشكركم، إن شاء الله متى نقلناها إلى مأْرِب ننقلكم أنتم أيضا معها.

فقالوا: لا! لا نريد نحن، سنذهب إلى صنعاء. وأخذ أكبرهم سنا يقص على العامل مشاهداته عندما زار صنعاء قبل بضعة أسابيع.

ومازالوا ماشين معنا مسافة طويلة وهم يسألون العامل عن حقيقة نيتنا بشأن نقل قريتهم!. إلى أن طمأنهم حضرته بأننا سوف لن ننقلها بل نتركها لهم، فشكروه وعادوا أدراجهم فرحين مسرورين.

نقيل شجاع والظبياني

وبعد مسير ساعة من الزمن من قرية عيال أقير وصلنا إلى رأس نقيل يقال له (نقيل شجاع) ويعلوا عن سطح البحر 2500 متر، أي أنه أعلى من صنعاء بنحو 50 متراً.

هبطنا في هذا النقيل نحو ساعة من الزمان، وكانت الطريق وعرة للغاية ولولبية، فاضطررنا أن ننزل عن البغال ونمشي على الأقدام.

وجبل شجاع هذا جبل بركاني عظيم، حجره أسود أصم. وقد أخبرني العامل أن الإمام أحمد بن الحسن الملقب بـ(سَيْل الليل)[1] هو الذي عبَّد هذا الطريق عندما غزا حضرموت قبل ثلاث مائة سنة. وعندما هبطنا النقيل ووصلنا إلى آخره في (وادي حَرِيْبْ) سألني العامل: كم هبطنا من رأس النقيل إلى أسفله؟ فأخرجت من جيبي ميزان العلو ونظرت إليه وقلت: أربعمائة متر، وما كدت أتم عبارتي حتى ظهر أمامنا رجل رثّ الثياب، كبير الهامة، قبيح المنظر، أسود اللون، وصاح بنا:

ما هذا؟ ماذا تفعلون هنا؟، وما شأن الغريب بينكم؟، هذه بلادنا، لا نريد أن يدخلها غريب ولا أن تفعلوا هنا شيئًا!.

---

(1) أحمد بن الحسن بن القاسم بن محمد، من أئمة اليمن يلقب بالمهدي لدين الله. بويع له بالإمامة بعد وفاة عمه المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم سنة 1087 هـ واستمر اتساق ملك اليمن له إلى أن توفي سنة 1092هـ. وكان غزير العلم، له مؤلفات، قال الشوكاني: "وهو من أعظم الأئمة المجاهدين" وفي شرح تحفة المسترشدين أنه أخرج اليهود الذين كانت بيوتهم بصنعاء، وسمر كنيستهم، ثم هدمها وعمر مكانها المسجد المعروف (بمسجَد الجلاء)لقّب بـ(سيل الليل) لأنه كان شجاعا فاتكا. البدر الطالع للشوكاني 43/1، بلوغ المرام للعرشي 68، تاريخ اليمن للواسعي 54، الأعلام 450/1.

فأجابه العامل بهدوء وتؤدة: أنا عامل مأْرِب، وهذا رجل مستَخدم في الجيش عند الإمام، ونحن ذاهبون إلى مأْرِب في خدمة الإمام. فحملق بي طويلا كأنه يريد أن يقرأ في وجهي صحة هذه الأقوال، وكانت نظراته رهيبة ومخيفة، وبندقيته في يده وكأني به لم يعبأ بنا ولا بجميع الجنود التي معنا، وقال لي: هيا قل لي من أين أنت؟

فأدركت حراجة الموقف، وبالنظر لسابق معرفتي بالبدو وأحوالهم، وعلمي أنهم لا يرهبون غير القوة، تجلدت وشددت عزائمي وقلت:

أنا من بلاد الله الواسعة، وذاهب في خدمة الإمام، فاذهب في طريقك ولا تتدخل فيما لا يعنيك.

وهنا خشي العامل من تفاقم الشر مع هذا الرجل، فأتى إليه وقاده بيده وقال: هيا سر في طريقك باسم الله.

فسكت عندما سمع حقيقة أمرنا، وكان يسمع بشدة عاملنا وبأسه فخضع للأمر وسار مكرها وهو يلتفت إلى الوراء ويتمتم كلامًا لم أفهمه.

وقد أدركت في اللحظة التي كنت أكلم هذا الرجل سبب تخوف الإمام من قيامي بهذه السياحة الخطرة، وقدّرت لو أنه كان يوجد مع هذا الرجل بعض رجال من عشيرته أو قبيلته لما انتهى الحال بيننا بسلام. وبعدما ابتعدنا عنه سألت العامل: من هو هذا الرجل؟ فقد أعجبت به وقدّرت رجولته وشجاعته.

فقال: هذا من قبيلة بني ظبيان المشورة بسطوتها وبأسها وشجاعتها، ولم تدخل في طاعة الإمام إلا منذ زمن يسير، وقد أدخلها جلالته في طاعته بالسياسة لا بالحرب لأن عددها عظيم، وبلادها وعرة، ورجالها كما رأيتَ شجعان متوحشون.

فقلت: الله يحفظ الإمام، لا شك أنه يعرف من أين تؤكل الكتف، وكيف يجب أن يعامل الناس والقبائل، ومشينا وقتًا طويلا والعامل يحدثني عن بعض حروب بني ظبيان مع جيرانهم من القبائل.

وادي حَرِيْبْ

وشاهدت في هذا الوادي الذي هبطنا إليه، وأخذنا نسير فيه من أسفل نقيل شجاع، ويقال له: (وادي حَرِيْبْ) كثيرًا من النباتات الغريبة ذات الروائح الزكية، ومنها نبات يقولون له (الضُّرْو) له رائحة (أروماتيكية) تشبه رائحة زيت (التربنتينا)، ويستعمله الأهلون في أمراض الكبد والكلى، وذلك بأخذ شيء من غصونه، فيغلونها ويشربونها، ومنها نبات يسمونه (فُحِيّةٌ)، وله رائحة أروماتيكية زكية، ويطبخونه مع الحلبة، أو يضيفونه إلى اللبن الرائب كالنعناع، ومنها نبات يقولن له (شاه الترنج)، وله رائحة عطرية جميلة. ورأيت شيئا كثيرا من الأشجار غير المثمرة ويقولون لها (العِلْبْ) و(الدَّوْمْ)[1] و(البشر) و(الأثب)، ويصنعون منه الفتيل للبنادق العربية القديمة، و(السُّمُر)، إلى غير ذلك.

ووادي حَرِيْبْ يوجد فيه عدة قرى صغيرة وبعيدة بعضها عن بعض، وقد مررنا أثناء مسيرنا فيه بقرية (البديع الأعلى) و(البديع الأسفل) وغيرهما. ويوجد حول هذه القرى شيء قليل من الأشجار المثمرة كالكرمة والبلس، ويوجد من النباتات شيء يسير من القضب والشعير والحنطة. وبالقرب من البديع الأعلى رأيت غيلاً صغيرًا (أي نبعًا صغيرًا) يقال له (غيل البديع)، وقد شربنا منه، وصلينا عنده، واسترحنا قليلاً بجانبه.

وبعد مسير تسع ساعات وصلنا إلى آخر رحلتنا الثانية، وحطينا رحالنا في قرية (اللكمة). وعند وصولنا إلى القرية رأيت جمهورًا كبيرًا من الرجال تجمعوا في أولها، وما كادت تقع عينهم على العامل حتى نادوا بأعلى صوتهم: يا مرحبًا. وساروا أمامنا إلى أن وصلنا إلى دار كبيرة، فتقدم أحد الرجال من العامل وقال: هيا انزلوا. فحوّلنا عن بغالنا ودخلنا الدار خلفه، وهي حسَب العادة الدور الأول للحيوانات، والدور الثاني للسكن.

وصعدنا الدور الثاني في سلم لولبي مظلم، ودخلنا غرفة مستطيلة فسيحة هي المضافة، ولاحظت أن لها عدة نوافذ، ولكنها صغيرة، فجلس العامل وأصحابي

(1) العلب والدوم: هما شجرة واحدة المعروفة بالسدر، تعرف شجرتها بالعلب، وثمارها بالدوم.

وأخذوا في الحال يدخنون المداعة (النرجيلة)، وأما أنا ففضلت النزول والطواف في القرية وحولها، وأبديت رغبتي هذه لصاحب الدار، فأوفد معي واحدًا من أهل القرية، فطفت فيها قليلاً، ودورها تزيد على العشرة قائمة إلى سفح جبل فوق ضفة الوادي، ورأيت في هذا الجبل عروقًا من (الكوارتز)، وشاهدت بعض الأحجار، وفيها نوع براق من الحديد، وهو ما يسمونه بذهب المجانين. ورأيت حول القرية حقولاً جميلة غرسها أصحابها بُنًّا وشعيرًا وحنطة، ويسقونها من مياه الآبار.

عدت إلى الدار من هذه الدورة كما يسمونها باليمن، أو بالجولة كما نسميها نحن، فوجدت العامل قد أخرج مصباح (اللوكس) الذي جلبه لنا معه ليشعله، لأن وقت الظلام قد دخل، وحيث أنه كان حديث العهد باستعماله كلّفني أن أشعله، وأخذ جمهور الحاضرين من الرجال والأولاد الذين تجمعوا بالمضافة من أهل القرية لتحية الضيوف يراقبون حركاتي ويراقبون ماذا أفعل باللوكس، ولما أشعلته ورأوه يضيء المكان فجأة خافوا كثيرًا، وبعضهم فرّ إلى خارج المضافة، وبعضهم ابتعد عني بعيدًا، وأخذوا يستعيذون من الشيطان الرجيم. وأما صاحب الدار المدعو الشيخ علي الجِحَيزا فقد سبق له ورأى اللوكس في صنعاء لذلك أخذ يخفف روعهم ويدعوهم إلى الدخول ثانية ويفهمهم بأنه ليس سوى مصباح كبير يُولّع بالكاز كغيره من المصابيح، وبعد هنيهة عاد القوم الواحد بعد الآخر وهم ينظرون إليه نظرات ملؤها الخوف والعجب.

وبعد هنيهة جلبوا لنا العشاء، وكان حنطة مسلوقة ومدقوقة دقًّا ناعمًا (تشبه الكبّية الشامية)، ويدعونها الهريش، ووضعوها في وسط المضاف، ودعانا رب البيت للقيام بالطعام، فقمنا وغسلنا أيدنا الواحد تلو الآخر داخل إناء أعد خصيصًا لهذه الغاية، ثم جلسنا حول المائدة، وهي بساط مُدَّ على الأرض ووُضِعت فوقه الهريش، وما كدنا ننتظم بالجلوس حتى جاء رب البيت ومعه بعض الغلمان يحملون مرق اللحم والسمن، وقال بصوت عال: يا مرحبًا، حيّا الله من قد جاء. وصبّ مرق اللحم فوق الهريش، ثم صبّ فوقها السمن، فأخذتُ لقمة من هذا الطعام الذي لم يسبق لي أن أكلته وذقتها بفمي فوجدتها لذيذة للغاية، ولا أعلم هل كانت حقيقة لذيذة إلى هذا الحد أم الجوع هو الذي جعلني أستطعم بها كذلك، ولكن على كلا الحالين أكلت كما يقولون بالخمسة والكف، لأننا ما أكلنا شيئًا وقت الظهر رغبة منا في عدم التوقف لأن مرحلتنا كانت طويلة وبعيدة، وما كدنا ننتهي من أكل

الهريش حتى دخل علينا رب البيت وخلفه بعض الغلمان يحملون عددًا من الذبائح المطبوخة، وطرحها رب البيت أمامنا ثم أخذ يُقطّعها قِطعًا قِطعًا، وعندما انتهى من عمليته مد العامل يده إلى أحد الأطباق ورفع منه قطعتين كبيرتين وأعطاهما إلى رب البيت قائلاً: هذه حصة الطباخات، (أي النساء اللواتي طبخن الذبائح)، وهذه عادة شائعة عند العرب في هذه البلاد، فالذبيحة من حق الضيف، وصاحب البيت يطبخها كاملة ولا يأخذ منها شيئًا، ولذلك يُقدّم الضيف نصيب النساء اللواتي طبخنها قبل أن يأكل منها أحد.

ثم بعد انتهاء هذه المراسيم التي لابد منها صار صاحب البيت يوزّع على الحاضرين اللحم إلى أن وزّعه جميعه، وأخذ القوم - وكان عددهم يزيد على الخمسين - يلتهمون هذه اللحوم، فمنهم من كان يقطّعها بأسنانه، ومنهم من كان يبتلعها بلعًا، ومنهم من كان يمصّ العظم مصًّا، ومنهم من كان يدقّه دقًّا على ركبتيه ليخرج المخيخ من داخله، ودام أكل اللحم على هذا الشكل نحو ربع ساعة من الزمن.

الجباة والمخاوف

بعد الانتهاء من حفلة أكل اللحم غادر المضافة بعض أهل القرية، وأتى دَور القشر فجلبوا لنا منه شيئًا كثيرًا، وأخذ جميع الحاضرون يتقشرون (أي يشربون القشر) ويسمرون إلى ساعة متأخرة من الليل، ودار بيني وبين صاحب الدار حديث طويل عن الهواء ومنافعه، والبرد ومضاره، وكان السبب في ذلك أني جلست بجانب الكّوة الصغيرة وفتحتها وأخذت أستنشق من الهواء الطلق الذي يدخل منها رأسًا فاعترض رب البيت على عملي وقال: هذا مضرٌّ جدًا بالصحة ويجلب البرد، والبرد — الله يدّينا العافية — (أي يعطينا) هو سبب سبعة وسبعين مرضًا.

فقلت: لا. أظن ثمانية وسبعين.

فقال: لا، دين الله هكذا يقولون، وقولهم صحيح.

فقلت له: البرد لا يضرّني لأن بلادنا باردة.

فقال: وأين بلادك؟

فقلت: الشام.

فقال: وهل بردها أشدّ من بردنا؟

فقلت: نعم، إن بردها أشدّ من برد صنعاء لا بردكم، ويهبط عندنا الثلج مرارًا أيام الشتاء، وتتجمد المياه الساكنة. فتعجّب لذلك كثيرًا وسكت.

ولاحظت أن المضافة مملوءة بالكُتّان[1] (أي البق)، فأيقنت أني سوف لن أنام هذه الليلة، فقلت لصاحب البيت: إني أرغب أن أنام فوق السطح، فلم يفهم مني معنى السطح، وبعد محاولة طويلة بشتى الأساليب أفهمته معنى السطح، وأفهمني أنهم يقولون له (الجباة)[2].

فقلت: حسنًا، إني أريد أن أنام فوق الجباة.

فقال: لا، هذا غير ممكن، فالبرد شديد، وهو مُضِرٌّ جدًا، وعاد إلى إلقاء محاضرة عن البرد. فأعدت أقوالي بأنه لا يضرني، وأني لا أقدر أن أنام في المضافة لكثرة الكُتّان.

فقال: وأين كيسك، لمَ لا تنام في الكيس؟!. فأخذ يفهمني منافع النوم بالأكياس، وأنها تقي الإنسان من شرّ البرد، ولا يدخلها الكُتّان ولا النامس (أي البعوض) ولا غيرهما من الحشرات، وقدّم لي كيسًا من عنده.

فقلت: لا يمكنني أن أنام فيه، بل أفضّل النوم على الجباة، فتدخل العامل – حفظه الله – بالأمر وقال له: إن البِكْ معوّد على النوم في الهواء والبرد وهما لا يضرانه، فافرشوا له فوق الجباة كما يريد. ولما سمع صاحب البيت كلام العامل، وهو بمثابة الأمر أذعن له، وصعد أمامي إلى الجباة، فصعدت خلفه، وسررت كثيرًا عندما وجدت أن للسطح سورًا من الطين بني في الجهات الأربع إلى علو متر ونصف تقريبًا، ووجدت فراشًا غليظًا قد مُدَّ إلى الأرض، فخشيت أن يكون مملوءًا بالكُتّان، فقلت لرب البيت: لا لزوم للفراش، واكتفيت بعباءتي (وبطانيتي)، وجُلَّ ما كنت أتمناه هو أن يتركني الناس لأتمتع بخلوة خاصة لنفسي في ربوع الطبيعة الجميلة، ولذلك تناومت عندما مد لي (البطانيات)، فأدرك رب البيت ذلك وقال: لا شكَّ أنكم تعبتم من السفر، وتريدون النوم والاستراحة، وهو ذا نحن نستأذنكم، وأشار إلى بعض رجاله الذين رافقونا إلى الجباة بالنزول، فنزلوا وحمدت الله على نزولهم، فأطلقت لفكري

---

(1) كذا كتبها المؤلف، وصوابها (الكُتَن)، جمع كتنة، بالتاء المخففة.

(2) الجباة: صوابها (الجُبا)، وتجمع على (أجبي) و(أجبية). انظر: المعجم اليمني 119.

العنان هنيهة وإذا بشقيق صاحب البيت المدعو محمد الجحيزا يأتي لعندي وهو يسحب غلامًا من يده ويقول: مسّاكم الله بالخير والعافية.

فقلت مكرها: أسعد الله مساءكم.

فقال: لا بُدَّ أنكم تعرفون دواء لأخي الصغير هذا، (وأشار إلى الغلام).

فقلت: وماذا أصابه؟

فقال: إنه يبرد ويسخن كل يوم، وفي أكثر الأحيان يبدأ البرد معه نحو العصر، ويسخن إلى الليل، ولا تذهب عنه السخونة إلا بعد أن يعرق كثيراً.

فأدركت أن الولد مصاب بالملاريا، فأخرجت بضع حبات من (الكيناء) وأعطيته إياها قائلا له: فليشرب كل يوم ثلاث حبات منها. فشكرني كثيراً على ذلك، وظننت لأول وهلة أنه سيفارقني ويذهب في سبيله، ولكنه لم يفعل، فقلت له: لا شك أن البرد سيضر بالغلام، فخذه إلى الدار.

فقال للغلام: هيا اذهب. فذهب الغلام، وبقي هو جالسًا عندي، فاستعذت بالله من هذه الزيارة غير المرغوبة في مثل هذا الوقت، ولكني تمسكت بالصبر.

فقال: أتريدون الذهاب إلى مأْرِب؟

فقلت: نعم.

فقال: وماذا تفعلون هناك؟

فاحترت في أمري وماذا عساني أن أجيب، فقلت: ذاهبين في خدمة جلالة مولانا الإمام.

فقال: الله يحفظ الإمام، كانت هذه البلاد متوحشة وأهلها دائما يقتتلون ويذبح بعضهم بعضًا ذبح النعاج، ولكن منذ دخلها الإمام صار الذئب (والغنمة) سع بعضهما (أي مثل بعضهما)، الله يحفظ الإمام.

فقلت: آمين.

فقال: ومأْرِب كانت أيضًا حالتها أشرّ من حالة بلادنا، ولكن منذ فتحها ابن السيد[1] أمّن الناس على أنفسهم وأموالهم، ولكن بعدما ذهب العامل سيدي محمد معكم إلى صنعاء تغيرت نفوس الأهلين، لأنه وكّل شقيقه أحمد، وأحمد صغير ولا يعرف مداراة الناس، ويشدد عليهم كثيرًا، ولذلك تجدهم الآن مستاءين، ولكن مادام سيدي محمد قد حضر فلا شك أنه سوف يُحسن إليهم ويستعطفهم ويطيّب نفوسهم.

ما سررت كثيرًا من هذه الأخبار التي تدل على احتمال وقوع ثورة، لأني لا أرغب أن تحصل ثورة وأنا هناك، لا لأني أخشى الثورات وأخاف من الاصطلاء بنيرانها، بل لأني أرغب أن أشاهد الآثار.

تناومت أمام هذا الضيف الثقيل الذي نقل إلى أخبارًا أزعجتني وأبعدتني عن أفكاري الأولى وخيالاتي وأحلامي في هذه البلاد، فشعر بذلك وقال لي: هيا نستأذنكم، صار وقت النوم.

فقلت: بأمان الله وحراسته، وإلى اللقاء صباحًا إن شاء الله.

ذهب محمد في سبيله، وعدت أنا لخيالاتي، وأول ما خطر لي هو عدم رغبة جلالة الإمام للسماح لي بالقيام بهذه الرحلة، وقلت في نفسي: لا شك أن جلالته على كان على صواب في تخوّفه من دخولي هذه البلاد، لأني في الحقيقة كنت ألاحظ أثناء الطريق أن جميع المارة من نساء ورجال وأولاد كانوا لا ينظرون إليّ بعين الرضا، وهاهو ذا محمد شقيق صاحب البيت يُظهر لي ارتيابه من زيارتي ويُفهمني بأن البلاد ليست هادئة، بل مضطربة، وقد يحدث مالا تُحمد عقباه. ظللت وقتًا طويلاً تنتابني أفكار مزعجة ومقلقة، ولكني قد ألَفتُ المغامرات والمخاطر منذ نعومة أظفاري، لذلك كنت أطرد هذه المخاوف بقولي لنفسي: مهما يحصل معي من الأخطار لا أظنه سيبلغ عشر معشار الأخطار التي اجتزتها بحياتي، ولا بد من القيام بهذه الرحلة وإتمامها مهما أدى الأمر.

---

(1) يعني عبد الله الوزير إذ يقولون لآل الوزير بيت السيد. (حاشية المؤلف). قلت: يطلق لقب السيد في اليمن على الهاشميين كافة، وأما (بيت السيد) فهو اسم القرية التي يقطنها آل الوزير في وادي السر، كما ذكرنا فيما سبق.

وبعد قليل استسلمت إلى سلطان الكرى ونمت نوما هادئا إلى طلوع الفجر وقد أنهضني من رقادي البرد لأنه في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل يشتد في هذه البلاد الجبلية النائية، ولكني بقيت متمددًا في مكاني أراقب النجوم والكواكب، وأفكر في الأدوار التي مرت على هذه البلاد في عهد الحميريين وبعدهم، وكم طوت من أناس وشعوب لا يعلم عددها إلا الله، وأفكر في ذاتي فأقول: من أنا؟ ومن أين أتين؟ وإلى أين مصيري؟ ولدى هذه الأفكار والرموز التي حار في حلّها معقل الإنسان رأيت نفسي صغيرًا حقيرًا لا أُدرك من سرّ هذه الحياة لا قليلاً ولا كثيرًا، فوحدّت الله الواحد القهار، وحمدته على هداه إيانا بالدين الحنيف، وشكرته لبعثة النبي محمد ﷺ ونهضت من الفراش فتوضأت وصليت الصبح بقلب مفعم إيمانًا وشكرًا.

الدهون بالسليط والسمن

وبعد صلاة الصبح نزلت إلى المضافة فوجدت السيد محمد العامل جالسًا يتقشر ويدخن مداعته (شيشته)، فتقهويت معه، وجلب لنا رب الدار ما تيسر من الطعام للصبوح (أي للترويقة أو كسر الصفراء)، فتناولناه بشهية زائدة، وأردنا أن نستأذن ونمشي، وإذ برب البيت يأتي ويقول لي: إيه تفضلوا وتدهنوا.

فقلت: وبماذا أتدهن؟

فقال لي العامل: إن العادة في هذه البلاد أنهم يكرمون الضيف العزيز بشتى وسائل الإكرام، وفي جملتها أنهم يدهنونه بالسليط والسمن، ويكحلونه بالكحل، ويزينون عمامته بالرياحين وغيرها من النباتات ذات الرائحة الطيبة.

فقلت لرب البيت: إني أشكرك جزيل الشكر على هذا الإكرام، وحيث أني ما ألفته في حياتي أرجوك أن تعفيني منه، وإني أكتفي بأخذ بعض الغصون من الريحان.

فقال: لا، هذا غير ممكن، لقد جاريناك بعدم أكلك اللحم، وسايرناك في النوم بالجباة...الخ، فصار من الواجب عليك أن تطاوعنا وتدعنا ندهنك بالسليط والسمن كما هي العادة عندنا.

فاعتذرت ثانية، ونظرت إلى العامل مستنجدًا، فغمزني بطرف عينه، فعلمت أن صاحب البيت يداعبني ويمازحني. ومن اللطيف عند اليمانيين عمومًا أنهم يميلون

للمزاح والطرب، ويحبون النكتة كثيرًا بما فيهم حضرة صاحب الجلالة الإمام، فقد سمعته مرارًا يمزح مع بعض كبار رجاله وخواصّه.

في الطريق إلى صرواح[1]

سرنا صباح يوم الثلاثاء الواقع في 28 من كانون الثاني من قرية اللكمة ووُجهتنا (صرواح)، وقد رأيت في الطريق بعض اليهود، فقلت للعامل: هل يوجد يهود في هذه الجهات، أم هؤلاء مسافرون؟

فقال: يوجد يهود ههنا — وأشار إلى قرية قريبة يقال لها (الحرجة) - وهي آخر قراهم في المشرق. وتأملت هيأتهم فرأيتهم لا يفرقون على غيرهم من رجال القبائل بشيء، ولولا طول فوديهم (أي سوالفهم) لما قدر الإنسان أن يفرّق بينهم وبين البدو، وهذا شيء طبيعي، لأنه انقضى على وجودهم في هذه البلاد ألوف من السنين، وقريتهم الحرجة كغيرها من القرى في هذه البلاد مبنية أساساتها من الحجارة، ودورها الأول والثاني والثالث من اللِبن (الطين)، ولكنها أصغر قليلاً من بيوت المسلمين.

وكانت طريقنا تسير في نفس الوادي الذي هبطنا إليه في أسفل نقيل شجاع، ولكنه أخذ يتسع شيئًا فشيئًا، وقد جرف السيل كثيرًا من الأموال (أي الأراضي الزراعية) القائمة إلى جانبيه، وخرّب بعض حقول البُن والحنطة والشعير التي تكثر في أطرافه.

وداومنا المسير شمالاً بشرق في هذا الوادي إلى مسافة ساعة ونصف تقريبًا، وكنا نشاهد في أطراف الجبال مما يعلو السائلة كثيرًا من الأشجار غير المثمرة (كالسمر) (والسدر)، ويقولون له (عِلْبْ) أيضًا، ورأينا في السائلة بعض النباتات ذات الروائح

---

(1) صرواح: مدينة أثرية هامة في سفح جبل هيلان من الجهة الغربية، من أعمال محافظة مأرب، وتقع إلى الغرب منها بنحو 40كم، وشرق صنعاء بنحو 90كم،على خط الطول 45/00، وخط العرض 15/27، كانت صرواح العاصمة القديمة للدولة السبئية في اليمن قبل مأرب، وبعد انتقال عاصمتهم إلى مأرب ظلت محتفظة بمركزها الديني والسياسي، وما تزال بقايا معابدها وقصورها باقية إلى الآن. انظر بالتفصيل: الإكليل للهمداني8/140-152، 10/40-47، صفة جزيرة العرب 102، 110، 302، معجم البلدان: (صرواح)، مجموع بلدان اليمن وقبائلها1/319-322، 2/466، معجم البلدان والقبائل اليمنية 1/904-905، الموسوعة اليمنية 3/1854-1865.

العطرية الجميلة، ويقولون لها (عِنصيفْ) و(حرمل)، ورأينا أيضًا شيئًا كثيرًا من العوسج الذي يحرقونه ويصنعون منه الكحل، وما زلنا نسير شمالاً بشرق إلى أن وصلنا إلى قرية (بني ربيح) حيث قابلنا بالقرب منها شيخان من شيوخها، وبعد تحيتهما للعامل وتقبيل يديه وركبتيه دعوه للضيافة عندهم هذا اليوم، ولكنه اعتذر إليهم فساروا معنا مسافة طويلة، وكانوا ينظرون إليَّ شزرًا ويتكلمون مع الجند عني كلامًا لم أسمعه، ولم يتنازلوا أن يحيوني أو يسلموا عليّ، وبقوا سائرين معنا إلى نقطة يتحول الطريق فيها إلى الشرق تمامًا. وهنا ودّعوا العامل وانصرفوا بعد أن هدوه إلى الطريق.

وقد أدركت في هذين اليومين فائدة وجود العامل معي، واعترفت لنفسي بنفسي بأن جلالة الإمام كان مصيبًا في إصراره عليّ بلزوم السفر برفقة العامل، وبديهي أن رب البيت أدرى بالذي فيه، فجلالة الإمام منذ نعومة أظفاره وهو يحارب القبائل المتوحشة التي ما خضعت لبشر سواه منذ ألوف السنين(؟!)، فهو أدرى بها وبطبيعة حالها أكثر من كل إنسان. وبعد ذهابهما سألت أحد الجنود الذي اشترك معهما في الحديث: ماذا كانا يقولان له؟ فأجابني: أنهما ارتابا في أمري، وتعجّبا من مجيئي إلى هذه البلاد ومن سماح جلالة الإمام لي بالوصول إليها في حين لم يسمح لأحد غيري أن يدخلها.

سارت طريقنا إلى الشرق تمامًا عدة ساعات بين تلال بركانية منخفضة، فيها سيول صغيرة شاهدنا فيها أشجارًا ليست مثمرة، لا تصلح إلا للوقود، وشاهدنا رجمًا (أي كومًا) كبيرًا من الحجارة معترضًا في الطريق، وقال لي العامل: هذا مكان فيه قتيل، ويسميه البدو (رزيم)[1]، وعلى مسافة يسيرة منه رأيت مقبرة كبيرة فتعجبت لأمرها، لأنه لا يوجد بقربها مدينة أو قرية كبيرة! وسألت أحد الرفاق ما السرّ في وجود مثل هذه المقبرة هنا؟

فأجاب أن هذه المقبرة تخصّ قبيلة جهم التي تقطن في بيوت من الشعر بهذه الجهة، وينقلون الأموات إليها من مسافة يومين، لأن أرضها رخيّة وجيدة، أي (طرية أو رخوة)، ولا يفنى فيها الميت حالا، بل يبقى زمنًا طويلاً.

---

(1) الرزيم أو المرزم في العامية اليمنية كل ما يوضع على الشيء لتثبيته ومنعه من الحركة، والمراد بها هنا كرمة من الحجارة توضع على الموضع الذي قُتل به شخص ما، ولم يؤخذ بثاره، وأعتقد أنها من بقايا عادات وخرافات الجاهلية، إذ يعتقدون أن روح القتيل تظل تحوم في المكان حتى يؤخذ له بثاره، فكأنهم بهذه الحجارة (يرزّمون) عليه لمنعه من الحركة. وفي بعض المناطق يتخذون (الرزيم) كمعلم بارز يذكرهم بضرورة الأخذ بالثار، لأن ارتفاعه يقارب المتر. وانظر: المعجم اليمني 350-352.

وكنا بين الحين والآخر ننزل عن ظهور البغال ونمشي على الأقدام تحريكًا لأرجلنا، وبينما كنا ماشين قلت للسيد محمد: إن بلاد اليمن غريبة جدًا، فكأني بها سلسلة واحدة من الجبال من أولها إلى آخرها، وإني أتعجب لعدم وجود سهول متسعة فيها!

فقال: لا تعجب يا صديقي، واسمع القصة الآتية:

فقلت: تفضل.

فقال: لما عجز الترك أيام الدولة العثمانية عن إخضاع اليمن استدعى أحد وُلاتهم العقلاء بعض عظماء صنعاء وسادتها وقال لهم: ما بالكم تسيئون إلى الدولة العليّة في حين تُحسن هي إليكم، وتمنحكم الوظائف، وتبني لكم المدارس والمستشفيات، وتقدم لكم المعاشات ... الخ، إني وأيم الحق احترت في أمركم هذا، فهل لأحد منكم أن يبين لي هذا السر لعلي أتمكن من إصلاح الخطئيات؟.

فأجابه أحدهم: لا تعجب من أمر أهل اليمن ولا تحتر، واستمع إلى ما أقوله لك بانتباه: إن أهل اليمن في سابق الزمن قد حيّروا الله سبحانه وتعالى، فخلق لهم في كل بقعة (أي مكان) جبلاً ليقهرهم، والأفضل لكم أن تسعوا للتفاهم معهم، وأن لا تأخذوهم بالقوة والعنف، فإنهم لن يطيعوكم ما دام فيهم رمق من الحياة.

وفي الحقيقة إني لاحظت أنا شخصيًا هذه الحقائق، ووجدت اليمانيين لا يمكن أن يخضعوا للقوة، بل يقابلون القوة بالقوة ولو هلكوا.

وبينما نحن نسير وإذا بنا نسمع بوقًا من أمامنا فتعجبت من هذا البوق وسألت العامل ما الخبر؟

فقال: إني أرسلت إلى مأْرِب كتابًا وعرّفت به وكيلي بأننا سنحضر في هذا اليوم لكي يرسل لنا قوة من مأْرِب.

فقلت: ليس لنا حاجة إلى قوة إضافية، فجندنا يكفي لمقابلة جيش كبير.

فقال: ليس الغرض مقابلة جيش، بل المقصود الاستقبال، وجلب بعض الحاجات.

فأدركت أن في الأمر سرًا، وأنه لا يريد أن يبوح به، فسكتُّ كأني اقتنعت من هذا الجواب، وداومنا على المسير إلى أن وصلنا إلى الجنود، فوجدت نحو عشرين جنديًا (وجاويشهم)، وجميعهم قد (نيّلوا) ثيابهم، ونفشوا شعورهم، وطلوها بالسليط والسمن، وهيأتهم تدل على النشاط والقوة والبأس.

وبعد أن أدوا التحية العسكرية حسب الأصول تقدموا إلى العامل فردًا فردًا، وقبّلوا يديه وركبتيه، وكان راكبًا على فرسه، فكان يهش لهم ويسألهم عن صحتهم وأحوالهم.

وداومنا المسير عدة ساعات سائرين بين آكام وجبال منخفضة إلى أن وصلنا إلى سهل مدور تحيطه الجبال من جهاته الأربع، فيظهر كأنه بحيرة، ويدعى (قاع صرواح)، وتبلغ مساحته نحو عشرين كيلومترًا مربعًا، ورأيت فيه بعض الأراضي مغروسة ذرة (ودِجرة)[1]، وهو نبات يشبه الفاصولياء الحمراء، وقبل أن نصل إلى آخره شاهدنا خربة صرواح، وهي مدينة حميرية قديمة يسكنها العرب القحطانيون، وما كدنا نُقبل عليها حتى رأينا جموعًا من الأهلين يخرجون منها مسرعين نحونا، ولما أقبلنا عليهم اصطفوا صفًا عسكريًا وحيونا بإطلاق البنادق، والصياح: يا مرحبًا!، ثم أخذوا ينشدون بعض الأناشيد الوطنية على ضرب الطبول، ولما وقف العامل أقبلوا عليه واحدًا بعد واحد فقبّلوا يديه وركبتيه، ثم ساروا أمامنا ينشدون ويرقصون بالبنادق والخناجر إلى أن وصلنا القرية.

وفي الحقيقة تأثرت تأثيرًا عظيمًا من هذا الاستقبال الوطني العربي الصميم، وحييت الاستقلال والحرية في وجوه هؤلاء الناس البسطاء، وفضّلت حالتهم الأولية هذه على حالتنا في البلاد التي وقعت تحت الانتداب، وقد تمكنت من الحصول على بعض أناشيدهم كما يلي، وهي بطبيعة الحال موجهة إلى السيد محمد الهجوة عامل مأرِب. وهي من نظم صالح بن عبد الله العيّال:

سيدي حضر والله يغيّب كل شر	**والجوهرة والسعد فوقه والقبول**
فإن عقدت الشَور فأنتم الخبر	**وانهى المحاضر ما يخليها تطول**

غيره أيضًا من نظم صالح العيّال:

---

(1) الدجرة: هي اللوبيا.

يــــا مرحبًـــا حيـــا بســـيدي　　　مـــا شـــنّت امـــزان[1] الســـحابة

جـــده علـــي ذي[2] هـــزّ مرحـــب　　　بالســـيف فـــي عهـــد الصـــحابة

أما طريقة إلقاء هذا النشيد فإنها رهيبة جدًا تستفز الشعور وتبعث الحماسية في الرؤوس أكثر من حدي الدروز وأهازيج العرب عندنا في سورية، وفي الحقيقة هيأة هؤلاء الناس عندما كانوا ينشدون نشيدهم أصبحت هيأة مرعبة تدل على أقصى درجات البسالة عند الإنسان، والذي كان يزيد في رهبة منظرهم رؤوسهم المنفوشة الشعور، وأجسادهم شبه العارية من اللباس خلا من مئزر في الوسط، أو ثوب (مردّن)، وكانت تفوح منهم رائحة السليط والسمن مزجاة مع رائحة عرق أجسادهم، فتشكّل مزيجا يفوق (الفلور دامور) و(الأودي كولون) برائحته الزكية!!، ويشمّها الإنسان من مسافة عشرين مترًا أو أكثر فيظن نفسه بمعصرة زيت، وبينما كنت أسير وسط هذا الجمع المتحمس كنت أنقل نظري من وجه رجل إلى وجه آخر وأتأمل في هذه الوجوه العربية الصافية الدم التي لم يدخلها دم أجنبي، فكانت هيأتهم قريبة من بعضهم البعض لأنهم جميعًا عائلة واحدة، ودمهم واحد، ويقولون لأهل هذه الجهة عرب جهم، وهم عرب قحطانيو الأصل، وجوههم جميلة سمراء محروقة بالشمس، وأجسامهم معتدلة مفتولة، وقوامهم جميل لا سمنة فيه ولا نحولة، وألبستهم جلود الغنم أو الأثواب الشيت المردّنة، ولكنها من تراكم السليط والغبار أصبحت سوداء لا بيضاء، ونساؤهم أجمل من رجالهم، وقوامهن نحيل كالسمهري، وأجسامهن معتدلة، وصورهن لطيفة، وبشرتهن نحاسية لامعة، وآية الصحة العافية بادية عليهن بأظهر معانيها، وألبستهن الأثواب المردّنة السوداء والزرقاء المزيّنة بالأزرار المعدنية البيضاء، وأكثرهن يتمنطقن بأحزمة من الصوف من شغلهن، فتبرز نهودهن وتبدو أعضاؤهن بشكل يثير الإعجاب والتقدير.

سرنا في وسط هذا الجمع من العرب الأقحاح في أول مدينة من مدن بلقيس الخالدة نشاهد هنا وهنالك بعض بقايا القصور الحميرية العجيبة التي كانت مضرب الأمثال ومحطّ الرجال، وكنت أشاهد العواميد الحجرية المربعة المنقوشة بالكتابة الحميرية بين هذه الأطلال، فأخال نفسي في هذا الموكب الخليط من الجنود ورجال

---

(1) شنّت: هطلت، امزان: جمع مزنة. (المؤلف).

(2) الذي.(المؤلف).

القبائل المدججين بالسلاح أبي رسول سليمان ﷺ إلى صاحبة هذه الديار، وكانت تمر أمام مخيلتي باللحظة الواحدة ألوف من صور التاريخ القديم المدفون تحت سنابك خيولنا فأُسبّح الله الواحد القهار الذي قهر عباده بالموت، وأحمده سبحانه وتعالى إذ أتاح لي أن أرى بعيني رأسي أن هذه الدنيا زوال، و ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن: 26-27].

مدينة صرواح

وصلنا في نهاية مسيرنا إلى بقايا قصر عظيم من قصور حمير في الجهة الجنوبية من المدينة، ودخلناه دخول الفاتحين بين الأناشيد وضرب الطبول، وقد تأثرت تأثرًا عظيمًا من جميع ما شاهدته وسمعته، فنسيت تعب الطريق وعناءه وأخطاره. وقادنا رب هذا القصر، ويدعى صالح بن محمد الجهمي من آل دحيرج إلى داخله، فرأيت فسحة مربعة مساحتها نحو مائتي متر مربع، ويحده من جهاتها الأربع جدران عظيمة مبنية من الحجر البركاني المائل إلى البياض ومنحوتة نحتًا جميلاً ودقيقًا، وقد أقام البدو إلى جانب هذه الجدران غرفًا صغيرة وكبيرة، بعضها معدّة لسكانهم، وبعضها لبهائمهم. فاخترنا الفسحة إلى الجهة الجنوبية، وهنا دخلنا في ممر ضيق من البناء الجديد، وتسلقنا سلّمًا لا يزيد عرض درجاته على الخمسة سنتيمترات(؟)، وعددها 12 درجة إلى الدور الثاني في القصر، وهو مؤلف من غرفة صغيرة واحدة طولها ثلاثة أمتار، وعرضها متر ونصف متر، وقد بناها محمد بن صالح الجهمي فوق جدار القصر القديم، وجعل لها بابًا علوّه أربعون سنتيمترًا، وعرضه عشرون سنتيمترًا، وفتح فيها نافذة واحدة طولها عشرة سنتيمترات، وعرضها خمسة. وبنى أقارب محمد هذا غرفًا كثيرة على هذا الشكل فوق جدران القصر القديمة فشوهوها تشويهًا بشعًا.

وضعنا حوائجنا في هذه الغرفة الصغيرة أنا والعامل والضابط، وجلسنا قليلاً طلبًا للراحة وإذ بجماهير الكُتّان أي (البق) تهاجمني من كل فج عميق، وأخذ السيد محمد والضابط وبعض الرفاق يدخنون مداعتهم في هذه الغرفة الضيقة، فصعد الدخان كالضباب، وكاد يحجبنا بعضنا عن بعض، فرأيت أن الأفضل لي أن أنسحب من هنا بانتظام، وحيث أن الغروب كان قريبًا خرجت من القصر إلى المسجد للوضوء والصلاة، وأمر العامل جاويشًا وخمسة من الجنود أن يرافقوني ففهمت من إرسال هذا

الحرس معي أن ساعة الخطر قد دنت، ولكني لم أعبأ بها، ولا اهتممت لها، وخرجت بين جموع البدو الذين كانوا لا يزالوا واقفين خارج القصر، فشقّ لي الجند الطريق بينهم، فكانوا ينظرون لي بأعين ملؤها الحذر والاحتراس، وسرت إلى المسجد، وهو واقع على مسافة يسيرة إلى جنوبي المدينة. وتبعنا واحد من أقارب رب القصر، وجلب معه دلوًا وحبلاً طويلاً، فأخرج لنا ماء من بئر المسجد، وهي بئر حميرية قديمة عمقها 35 مترًا، وقد أكلت الحبال في جدرانها عدة سنتيمترات. ولا يوجد غير هذه البئر في هذه الأرض فيستقي منها سكان هذه المنطقة ويأتونها من مسافة ست ساعات.

وبعد ما صلينا المغرب خرجنا من المسجد، فتقدم مني رفيقنا البدوي وقال: كيف وجدت هذا الماء؟

فقلت: إنه مالح قليلاً، ولكنه جيد.

فقال: هذا أفضل ماء في هذه البلاد، وهو مبارك، وله حارس من قديم الزمان.

فقلت: وأين هو؟ إني لا أراه هنا الآن!

فقال: لا يمكنك أن تراه، لأنه لا يخرج على الناس إلا قليلاً.

فقلت: وهل هو إنسي أم جني؟

فقال: لا بالله، حنش كبير أسود سع (أي مثل) هذا العمود، وأشار إلى عمود ضخم قائم في جانب المسجد .

فقلت: عجيب عجيب، لو كان عندنا لقتلناه.

فقال: الله الله، لو قتله أحد ينشف البئر حالاً.

فضحكت من هذا المنطق الغريب، ولكني لم أُبدِ اعتراضًا، وعدت إلى القصر مع دخول الظلام، وصعدت توًا إلى غرفتنا في الدور الثاني، فوجدت الرفاق كما تركتهم يدخنون الشيشة ويخزنون القات، وبعد التحية جلست بينهم بصعوبة وأخذت أستمع إلى أحاديثهم وقد بدأها صاحب القصر قائلاً: إنه سمع عن أبيه عن جده أن صرواح مهجَّرة من قديم الزمان.

فقلت: وما معنى مهجَّرة؟

فقال: أي محرمة ومؤمنة، فكل من يدخلها يكون آمنًا، ولا يقع فيها قتل ولا سرقة ولا جريمة من الجرائم، وإذا ارتكب أحد جُرمًا ما فلا يمسونه بسوء مادام بداخلها، ولكنه متى خرج منها فيحق لأهلها أن يجازوه بنسبة جرمه. وضرب لنا مثلاً على ذلك قال: إن واحدًا من الناس سرق قليلاً من الذرة في حياة جدي، فحكموا عليه بأن يؤدي حصانًا بدلاً عن سرقته، ولكنه كان فقيرًا لا يملك حصانًا، فخرج من المدينة خلسة دون أن يؤدي الحصان، فتبعه جد صالح وقتله شر قتلة.

ويُستنتج من هذه القصة أن هذه المدينة كانت حقيقة مهجَّرة[1] (أي مقدسة)، لوجود هيكل من هياكل الآلهة التي كان يعبدها الحميريون كالشمس أو سواها فيها. وآثار البنايات الضخمة والعظيمة موجودة فيها بكثرة، وقد يكون أحدها هيكلاً أو معبدًا أو ما شابه، والله أعلم.

ثم سألت صاحب القصر: كم عدد نفوسكم؟

فقال: نحن وولد عمنا نُعد نحو مائتي مقاتل.

فقلت: وأين هم ولد عمك؟

---

(1) مهجَّرة: من الهجرة، وللهجرة معنيان: لغوي واصطلاحي (عُرفي)، فالهِجْرَة – لغةً– بالكسر والضمّ: الخروجُ من أرضٍ إلى أخرى، فكلُّ مَن فارَقَ بَلَده من بَدويٍّ أو حَضَريٍّ أو سَكَن بَلَداً آخَرَ فهو مُهاجِرٌ والاسمُ منه الهِجْرَة، والاصطلاحي (وهو خاص بأهل اليمن): يطلق على المكان، "وهو كل محل(قرية، أو مدينة) بين محلات القبائل إذا كان مهجَّرا بينهم عما يعتادونه من أسلاف (عادات) القبائل وقواعدهم فيما بينهم، وإنما يكون ذلك للمحلات المأهولة بالعلم والفضل والصلاح، فيمتازون عن أحوال القبائل وأعرافهم، ويكون لهم بذلك التهجير احتراما وتعظيما" فقد رأت القبائل أنها بحاجة إلى وجود أماكن آمنة تتمتع بالحصانة الكاملة من مشاكل القبائل ونزاعاتها وثاراتها..، يستطيع فيها العلماء وطلبة العلم ممارسة نشاطهم العلمي بأمان، وقد اشتق من لفظ الهجرة مصطلح (التهجير)، وهو اتفاق زعماء العشائر والقبائل على جعل القرية أو المدينة التي يأوي إليها العلماء (هجرة)، بإصدارهم وثيقة تسمى (التهجير)، تتضمن تعهدهم لسكان الهجرة من العلماء بحمايتهم ورعايتهم، فيكتسب المكان بعد ذلك حصانة تامة، فلا يدخل الجنود بيوتها، ولا تقام في ساحاتها الألعاب التي تعتمد الطبل والمزمار، ويستثنى أهلها من التجنيد الإجباري الذي قد يفرض على القبيلة عند الحاجة، ويعفون كذلك من الضرائب والمغارم، وإذا لزمهم شيء تحملته عنهم القبيلة، وقد توفر لهم القبيلة والدولة أسباب الرزق بالأوقاف الخاصة بهم وبمدارسهم، وتخصيص الزكاة لهم، وبالمثل قد تهجَّر أسر بعينها من الأسر المشهورة بالعلم والصلاح، وخاصة في المناطق أو المدن التي ليست مهجَّرة، فيكون هؤلاء بمثابة صمام أمان بين القبائل يسعون في الوساطة والصلح بينهم. وقد تضفي القبيلة هذه الميزة (التهجير) على أسواق العامة، وخاصة الأسواق الاسبوعية ليقضي الناس فيها مصالحهم بأمان حتى لا يتعطل النشاط الاقتصادي. وربما كانت صرواح (مهجَّرة) لأحد السببين وليس لوجود هياكل أومعابد قديمة بها كما تبادر إلى ذهن المؤلف. انظر: تاج العروس: (هجر)، هجر العلم ومعاقله في اليمن للقاضي إسماعيل الأكوع، بيروت: دار الفكر المعاصر، 1995م، 1/5-7، الموسوعة اليمنية 4/3062-3064.

فقال: بعضهم في هذه الخربة الثانية الواقعة على مسافة يسيرة إلى الجنوب، وبعضهم بالحصون القائمة في هذا القاع (أي السهل)، وبعضهم في بيوت من الشعر، وهم موزعون بين الجبال والوهاد.

فقلت: وما هي مواردكم للحياة؟

فقال: عندنا الماء والغنم والجمال والبقر والخيل، ونغرس قليلاً من الذرة والشعير والحنطة في قاع صرواح أيام الأمطار.

فقلت: هل تعرف القراءة والكتابة؟

فقال: سامحك الله، من أين لي ذلك، ما كنا نعرف نصلي قبل دخول جلالة الإمام لبلادنا!

فقلت: ألا يوجد بينكم من يقرأ ويكتب؟

فقال: يوجد واحد، أو اثنان فقط!

فقلت: لاحظت أن صاحبك الذي ذهب معي إلى المسجد لم يصلِّ!

فقال: نعم، إن العرب عندنا يصلون قليلاً، ولكن (شنطلب) من جلالة الإمام (أي سنطلب، يستعملون للتسويف الشين بدلاً من السين) أن يرسل لنا مرشدًا ومعلمًا.

فقلت: لا شك أنكم تحسنون بذلك صنعًا.

فقال العامل: نعم، لقد عرضت هذا لجلالة مولانا الإمام، ووافق جلالته على إرسال مرشد ومعلم، ولا شك أنهما سيصلان قريبًا.

فقلت: وكيف حال الأمن عندكم؟

فقال: بظلّ جلالة الإمام صرنا بأمان واطمئنان، وأما قبل ذلك فما كنا نجسر[1] أن نخرج من بيوتنا إلا جماهير غفيرة خشية الغزو والقتل. وانظر إلى دورنا، إننا لا نجسر أن نفعل لها شبابيك كبيرة خشية رمي أعدائنا لنا بالرصاص من الخارج، ولذلك نكتفي بكوّة أو كوّتين صغيرتين، وباب صغير.

---

(١) نجسر: نجرؤ.

وفي الحقيقة إني شاهدت في هذه البلاد أن حجم الشبابيك (أي النوافذ) وعددهما هما إشارتان لوجود الأمن وعدمه. وفي أثناء هذا الحديث دخل علينا رجل ذو لحية كثيفة، وشعر طويل مسترسل على الأكتاف، ومطلي بالزيت والسمن، وقال: السلام عليكم.

فأجبنا: وعليكم السلام ورحمة الله.

فوجه خطابه إلى العامل قائلا: والله ذا الحين وصلت إلى الخربة فعلمت بتشريفكم فأتيت أولاً للسلام، وثانيًا للرجاء أن تضيفونا غدًا، إذ ليس من الحق ولا من أصول الضيافة أن تضيفوا ابن عمي ولا تضيفوني. فنظر العامل إليّ ليأخذ رأيي فأشرت نفيًا، لأني أريد الوصول إلى مأرِب سريعًا.

فقال له: لا يمكنّا أن نقضي كل النهار عندكم، ولكننا سنتناول طعام الغداء ونسير على بركة الله.

فقال: الأمر أمركم، ولكن والله ظلمتونا بهذا العمل يا سيدي.

فأجاب العامل: لا، كفى كفى، فهيء الغداء فقط عندكم غدًا إن شاء الله. فسكت الرجل واستأذن وانصرف.

وبعد خروجه قال لي العامل: هذا هو من أبناء عم صاحبنا ومضيفنا صالح بن محمد الجهمي[1]، ويدعى عبيد بن مسعود بن طعيمان، ويرى أنه من العار عليه أن لا نضيّفه ونضيّف ابن عمه فقط.

فقلت: أمرنا لله، نتناول الطعام كما أشرتم عنده ونسير بإذن الله.

كنت طيلة السهرة أقتل الكُتّان حولي وعلى يدي، وأردت مرارًا أن أترك القوم وأخرج للخارج، ولكني رأيت أن هذا العمل يتنافى مع الذوق السليم، فاحتملت لدغ الكُتّان في سبيل المحافظة على الذوق، وأخيرًا نظرت إلى ساعتي فرأيتها بلغت الثالثة عربية، أي نحو التاسعة إفرنجية.

فقال لي العامل: لا شكل أنك ناعس.

---

(1) كتبها المؤلف: الجهيمي، والصواب: الجهمي، نسبة إلى قبيلة جَهْم، من القبائل اليمنية التي تسكن في صرواح من أعمال مأرب، سبق للمؤلف كتابتها بالرسم الصحيح فيما سبق.

فأتاني الفرج، وقلت للحال: نعم إني ناعس وتعبٌ أيضًا، وسوف أستأذنكم وأترك لكم هذه الغرفة وأنام فوق الجباة (أي السطح) كالأمس.

فقال: الأمر أمرك، افعل ما تريد.

وللحال قلت للجندي المختص بخدمتي، واسمه حسين صالح البيحاني: افرش لي هذه البطانيات يا حسين في الخارج، وتبعته في الحال إلى السطح، وكان السطح بطبيعة الحال ضيقًا للغاية، ولكن يحيطه سور من الجهات الأربع، ففضلته على الغرفة، واستلقيت على ظهري طلبًا للنوم، ولكن الكرى حرم على أجفاني في أول الليل لأن أعصابي كانت متهيجة جدًا مما رأيت وسمعت في هذه البلاد العجيبة. فتارة كنت أفكر في غرابة عادات هؤلاء الناس وكرههم للغريب، وطورًا كانت ترن كلمات القاضي راغب بك في أذني وأتذكر قوله: "إنه لم يدخل أحد هذه البلاد ويخرج منها حيًا"، وأحيانًا يخطر في بالي مقتل المستشرق الألماني (بركار) ورفيقه الماركيز (ديبيوزي) - قنصل إيطاليا في المخاء - في وادي الدور بينما كانا يحاولان الذهاب إلى مأرِب.

وأخيرًا طردت جميع هذه الهواجس وفكرت في قول مضيفنا إن صرواح مهجّرة ولا يمكن للقوم أن يمسوا أحدًا بسوء داخلها. وأخذت أبحث بين النجوم عن نجمة القطب، والدب الأكبر، والدب الأصغر فلم أعثر عليهما، ولكن تحولت أفكاري من الأوهام إلى الحقائق، وصرت أفكر في العصور والأجيال الطويلة التي مرّت على هذه الخرائب وأفكر في أصحابها الذين بنوها وما آلت إليه حالهم فأستعظم عمل الإنسان والآثار التي يتركها بعده وهو ذلك المخلوق الضعيف الذي لا يملك من أمر نفسه شيئًا، وقد سبحت مخيلتي في عالم الخيال والأبديّة حائرة شاردة لا تستقر على حال، ولا تحل لغزًا واحدًا من ألغاز هذا الكون العظيم، وتجاه هذا العجز الظاهر خررت إلى الأرض ساجدًا راكعًا مقرًّا بعزة الله وقدرته، وحامدًا إياه على العقل الذي وهبنا إياه لندرك الغث من السمين، وها أنذا أسجل هذه المذكرات وقلبي مملوء إيمانًا بعظمة الله وقدرته، لا إله إلا هو يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: 53].

بعد أن قضيت وقتًا طويلاً في الهواجس بين صاحٍ ونائم استولى عليَّ سلطان الكرى ونمت نومًا هادئًا إلى آخر الليل، وعندما صحوت من رقادي نحو الصبح

وجدت العامل قد أمر بوقوف حرس يحرسني كل الليل، فشكرته على هذه العناية وهذا الاحتياط في سرّي وقلبي.

نهض العامل وسائر الرفاق فتوضأنا جميعًا وصلينا الصبح حاضرًا، ثم عاد كلّ منّا إلى مكانه، أما العامل والرفاق فقد ناموا ثانية، وأما أنا فبقيت جالسًا إلى أن سطع نور النهار، فوقفت إلى جانب سور السطح وسرحت بصري في قاع صرواح وما يحيط به من الجبال، واستدعيت أحد رجال القرية وأخذت أسأله عن الجبال واحدًا بعد واحد مبتدئًا من الشرق، حيث استلفت نظري جبلان عظيمان يبدوان عن بُعد للناظر أن أحدهما أسود بركاني والآخر أبيض كلسي، فسألت الرجل عن اسمهما؟

فقال: إن الجبل الأسود الممتد من الشرق إلى الغرب والداخل في الجبل الأبيض يُقال له (الأشقري)، والجبل الأبيض الممتد من الجنوب إلى الشمال يقال له (هيلان)[1]، ويكثر فيه البلس، والرمان، والعنب، والذرة، والشعير، والحنطة، وجميع هذه الأشجار والنباتات تنموا عَقَرًا، (أي بَعْلِية). وأما الجبال التي في الجهة الغربية فيقال لها (المِحجزَة).

شكرت الرجل على معلوماته هذه وصرفته، وصرت أراقب أهل القصر وهم يخرجون (الطروش) من زرائبها ويسرّحونها مع الأولاد إلى القاع والجبال، وشاهدت النساء منهمكات بعجن الدقيق، وغلي القشر للضيوف، وإعداد طعام الصبوح (أي الفطور)، وبينما أنا منهمك بمراقبة هذه الأمور وإذا بصبية حسناء تخرج من كنّتها وتجلس على السطح القريب مني وتأخذ في غزل الصوف بمغزل يدوي، وقد أعجبني منظرها، فأخذت آلة التصوير أريد تصويرها، وما كدت أفتح الآلة وأديرها نحوها لألتقط صورتها حتى شعرت بي في اللحظة الأخيرة فشردت للحال صائحة مستغيثة، فما كان مني إلا أن وجهت آلة التصوير نحوها ونحو الذين خرجوا لنجدتها وأفهمتهم أن هذه آلة صماء لا يحصل منها ضرر لأحد، فضحك الجمهور منها ولم يعبئوا بصراخها.

---

(1) هيلان: جبل عال منيف يمتد من حنوب (نهم) إلى غربي مارب، ويقع شرقي صرواح بنحو 60كم، تسكنه قبيلة جهم، وهو من المناطق الغنية بالآثار القديمة. انظر: الإكليل للهمداني 84/8، 159، 186، 70/10، 116، 123،صفة جزيرة العرب، له أيضا 81، 110، 125، معجم البلدان: (هيلان)، مجموع بلدان اليمن وقبائلها 106/1، 200، 760/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية1839/2.

وبعد هنيهة خرج العامل من غرفة النوم فتناولنا القشر والصبوح (أي طعام الصباح)، ونزلنا من معقلنا في الدور الثاني إلى باحة القصر فجاء الناس زرافات زرافات يقبّلون يديّ العامل وركبتيه ويهنئونه بسلامة الوصول، وأما أنا فانتهزت هذه الفرصة ودخلت في كثير من غرف الدور الأرضي للقصر فوجدت فيها أحجارًا كثيرة صغيرة وكبيرة عليها نقوش حميرية كثيرة، فنقلت بعضها ثم خرجنا من القصر إلى الخارج وأخذنا نفحص بقاياه القائمة إلى اليوم، فدهشت كثيرًا من انتظام بنائها، ومن الرسوم والنقوش المختلفة المرسومة والمكتوبة حول جدرانه في الجهات الأربع، ولا شك عندي أن هذا القصر كان من القصور المشهورة في اليمن، وقد قرأت في "الإكليل" بعض الأشعار التي يصف بها ناظمها حال هذا القصر كما وصلت إلى مسامعه يوم وضع قصيدته، وهي من نظم عامر بن أحمد بن يزيد القشيبي[1]، وهاهي بنصها:

والبهاليـــل مـــن ســـلالة خـــولا	ن أولـو العـزم والفعـال الأريـبِ[2]
ملكـوا الملـك ألـف شـهر ومـدّوا	فـوق صـرواح بيـت ريـح الجنـوبِ
فـــإذا دار دارت الـــريح فيـــه	مســـتديرًا بســـمكه المنصـــوبِ
بتخاشـــيب ركبـــت فيـــه أزواج[3]	يـــتلألا بأحســـن التخشـــيبِ
فتـــرى القصـــر مســـتديرًا لجنبيـــ	ـــه برخـــام يـــدور بالتثقيـــبِ

لقد شاهدت هذا القصر قائمًا إلى هذا التاريخ، وبابه كما يذكر الشاعر في الجنوب، وعلى جدرانه الجنوبي والشرقي والشمالي توجد نقوش حميرية، وبناؤه الباقي إلى هذا اليوم مستدير كما يذكر الشاعر، وبناء جميع القصور الباقية في صرواح مستدير، ولكن الرخام المثقوب الذي يشير إليه الشاعر لا وجود له في هذه الأيام، ولا شك أن البدو قد كسّروه وبنوا به بيوتهم كما هي عادتهم.

ويظهر من هذه الأبيات أن أهل صرواح كانوا يعتنون بتهوية بيوتهم، وهم محقون في ذلك لأن صرواح حارة وخصوصًا أيام الصيف، فلا بد والحالة هذه من

---

(1) في المطبوع: القشبي، والصواب: القشيبي، نسبق إلى قبيلة قُشَيْب، من قبائل خولان ابن عامر (خولان صعدة) ولهم بقية الآن في أسافل رازح من بلاد صعدة. انظر: الإكليل 2/167-168، والأبيات في الإكليل 8/148.

(2) في المطبوع: الأديب، بالدال، والتصويب من الإكليل، والأريب: الماهر والداهية.

(3) في الإكليل: أزراج، بالراء مكان الواو.

استعمال بعض الأساليب التي تخفف من حرارة الجو، ويُفهم من هذه الأبيات أنهم كانوا يحركون الريح في قصورهم (بتخاشيب) رُكِّبت فيها أزواجًا، وأظن هذا الوصف يطابق كل المطابقة المروحة الكهربائية أو ما يشابهها التي نستعملها نحن في هذا العصر.

وجاء في الإكليل في الجزء الثامن عن صرواح ما يأتي[1]:

"من مآثر اليمن صرواح، وهي ما بين مأرِب وصنعاء، ولا يقاس بصرواح شيء من هذه المحافد (أي محافد اليمن وقصورها التي ذكرها واحدًا بعد واحد)، غير أن صوتها بعيد في أشعار العرب، وبقد بقي منها شيء قائم، وخولان تقول إن سعد بن خولان لما خرج من مأرِب تملك بها، وقد ذكرها شعراؤهم. أنشدني جعفر بن كافور المراني[2] لقس[3] بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن الدغّاء[4] بن النمر بن النمر بن وائلة بن الطمان[5] بن عوف [بن زيد] مناة بن يقدم بن أفصى بن دعمي دعمي بن إياد، يذكر ملوك اليمن ومواضعها شعرًا[6]:

قد كنت أسمع بالزمان ولا أرى	**أن الزمان يطيق نتف جناح**
فأراه أسرع فيّ حتى أصبحت	**بيضا متون عوارضي ومساحي[7]**
وأنا القريعة بيضة في قومه[8]	**هيهات كم ناوحت من أرواح**

---

(1) النص في الإكليل 8/140-143.

(2) في الإكليل: المداني، بالدال، وقال القاضي محمد بن علي الأكوع في تعليقه على الإكليل: جعفر المداني من بني عبد المدان الحارثيين النجرانيين، وهو من شيوخ الهمدني مؤلف الإكليل.

(3) في المطبوع: لقيس، وكذلك في المطبوع من الإكليل، مصدر المؤلف، والصواب: قس (بدون ياء)، وهو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، من بني إياد: أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم، في الجاهلية. كان أسقف نجران، ويقال: إنه أول عربي خطب متوكئا على سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه: " أما بعد ". وكان يفد على قيصر الروم، زائرا، فيكرمه ويعظمه. وهو معدود في المعمرين، طالت حياته وأدركه النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة، ورآه في عكاظ، وسئل عنه بعد ذلك، فقال: يحشر أمة وحده، (توفي نحو سنة 23 قبل الهجرة).

(4) في الإكليل: ابن أيدعان.

(5) في الإكليل: ابن الطمثان.

(6) القصيدة في الإكليل 8/141-142، كتاب شرح قصيدة الدامغة للهمداني (مؤلف الإكليل)، تحقيق محمد محمد بن علي الأكوع، القاهرة: (د.ن)، 1978م، ص336-337، كتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث (د.ت)، ص127-128، ملوك حمير وأقيال اليمن لنشوان الحميري، بيروت: دار العودة، 1986م، ص109-111.

(7) كذا في كتاب التيجان وشرح الدامغة، وفي الإكليل وملوك حمير: وصفاحي.

(8) في كتاب التيجان وملوك حمير: وأنا الكبير بسنه في قومه.

صافحت ذا جدن وأدرك مولدي ... عمرو بن هند يتقى[1] بالرّاح

والقيل ذي يزن رأيت مكانه ... قد كان حرّم عنه شرب الراح

وسمعت بالملك بن قطرة[2] قاعدًا ... بالحنو بين دكادك وبطاح

ورأيت بالحنوين حنوا منعجًا ... حلف الندى شمرا أبا الصباح

والفارسي بذي الجنبية زرته[3] ... في نعمة وغضارة وطماح

وجذيمة الوضاح خبّرني أبي ... عنه فيا لجذيمة[4] الوضاح

برك الزمان على ابن هاتك عرشه[5] ... وعلى أذينة سالب الأرواح

وعلى الذي كانت بموكل داره ... يعطي[6] الجياد وكل أجرد شاحِي

وعلى الملوك النازلين بمأرب ... من كل أبيض ماجد نفّاح

وعلى الذي ملأ البلاد بخيله ... شهران مثل شقيقه المصباح

وعلى الذي لبثت بتدمر برهة ... وعلى أبي عمرو أخي صرواح

وملوك ناعط قد سمعت حديثهم ... طرقوا بقاصمة الظهور رداح

وإذا عددت معاشرًا لم أحصهم ... من حاملٍ ثقلا ومن جحجاح

أفبعد أملاك فنوا من حميرٍ ... نرجوا الفلاح ولات حين فلاح

وقال علقمة[7]:

---

(1) في المطبوع: تبقى، والمثبت عن الإكليل وشرح الدامغة، وفي ملوك حمير: عمرو بن شمر إذ سُقي بالراح.

(2) كذا في شرح الدامغة، وفي الإكليل: ابن قطن.

(3) في الإكليل وشرح الدامغة: والقارسي بذي الخنينة زرته.

(4) في المطبوع: فتى بجذيمة، والمثبت عن الإكليل وشرح الدامغة.

(5) في المطبوع: برك على أنحاء هاتك عرشه، والمثبت عن الإكليل وشرح الدامغة.

(6) في المطبوع: بعض، والمثبت عن المصدرين السابقين.

(7) هو علقمة بن ذي جدن الحميري، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وعمر طويلا حتى نهاية القرن الأول الهجري، كرّس شعره لرثاء حمير والإشادة بحضارتها ومفاخرها، حتى لقب "علقمة النواحة"، والبيت في الإكليل 142/8.

مــــن يـــأمن الحـــدثان بعـــ ـــد ملــوك صـــرواح ومـــاربِ

وقال عمرو بن النعمان، أخو سعد بن سعد خولان[1]:

لبلقيس كـان الملـك فـي أرض مـارب وراثـــة أجـــداد كـــرامِ المعـــاطسِ

لقـد أوتيـت مـن كـل شـيء وأعطيـت من الملك ما لم يعط عمرو بن خالسِ

فأورثـــه عمـــرو النـــدى ابـــن أذينـــة وخـــولان فـــي أعــلا رفيــع المجــالسِ

فمــد علــى صــرواح ثــوبي[2] مهابــة فأورثهـــا ســـعدًا زمـــام الفـــوارسِ

أقـــام بهـــا ســـبعين حـــولاً محرّمًـــا جبايـــة خـــرج بـــين رطـــب ويـــابسِ

فأورثَتهـــا ســـعد بنيـــه ولـــم يكـــن كمثـــل بنيـــه عنـــد طعـــن الخـــوالسِ

لنـا الفخـر فيهـا والصـميمة فـي العُـلا وحسن جنابٍ [بل][3] وطيب المغارسِ

أبونـــا لـــذي داخ العـــراق بخيلـــه ورابــت لــه مــا بــين حمــص وفــارسِ

وقال سعد بن عمرو، أخو بني مالك بن زيد بن أسامة بن زيد بن الربيعة[4]:

فمـن مثلنـا فـي النـاس إذ بـان سبقنا دواويـن فـي صـرواح تُبنـى وتنشـرُ

أقمنـا بهـا والنـاس عنهـا تفرقـوا فأنجـد قـوم فـي الـبلاد وغـوروا[5]

إلينـا جميـع النـاس تهـوى وفـودهم وكـان لنـا فيهـا العزيـز المجمهـرُ

وصـرواح كانـت دار جـدي ووالـدي وفــي يَحْـبُسٍ[6] منـا ملـوك تجبَّـرُ

---

(1) الأبيات في الإكليل 8/142-143.
(2) في المطبوع: توتى، تصحيف. والمثبت عن الإكليل.
(3) زيادة عن الإكليل.
(4) الأبيات في الإكليل 8/143-144.
(5) في المطبوع: وأوغر، والمثبت عن الإكليل، والغور: السهل المنبسط، والمراد به تهامة.
(6) في المطبوع: عش، ويحبس: اسم منطقة قريبة من صرواح، كما أفاد القاضي محمد الأكوع في تعليقه تعليقه على الإكليل.

طفنا حول هذا القصر ونقلت النقوش المكتوبة عليه، ثم أخذنا نجول بين خرائب المدينة فاحصين مدققين، فوجدنا أن القسم الأعظم منها مدفون تحت الأنقاض، ولكن يبدو منه أربعة أو خمسة قصور فخيمة، بعضها بالشمال، وبعضها بالغرب، وهي مبنية بناءً متقنًا.

وقد أشار لنا البدو إلى واحد منها في الجهة الشمالية قائلين إنه حُكي لهم، والله أعلم، أن هذا القصر كان لبلقيس، وكان فيه عرشها: واسمه إلى هذا اليوم: "قصر بلقيس"، ولكني أرى أن هذه النظرية بعيدة عن الصحة لأسباب كثيرة:

أولها وأهمها: أن عاصمة هذه البلاد كانت في مأْرِب.

وثانيها: أنه بالرغم من فخامة هذا البناء وضخامته وبقاء قسم كبير من جدرانه ومعالمه سليمة إلى هذا الوقت فلم أجد فيه أو حوله نقوشًا حميرية، فلو كان حقيقة للملكة وكان عرشها فيها لكتبوا عليه كتابات كثيرة كما هي العادة في مثل هذه الظروف والأحوال، وتأملت كثيرًا في بقاياه فوجدته مقسومًا إلى قسمين: شمالي وجنوبي، ويقوم بينهما ممر ضيق عرضه نحو متر وربع متر، ورأيت في الجهة الجنوبية أنقاض سلّم واسع مبني من الحجر الكبير البركاني المائل إلى البياض، ويظهر أن الباب كان في هذه الجهة، وشاهدنا في الخربة كثيرًا من بقايا العمدان الحجرية الكبيرة، بعضها قائم إلى هذا اليوم، وبعضها محطّم وساقط إلى الأرض، ويوجد على أكثرها نقوش حميرية متعددة، ويتبادر لي أنه كان يوجد بالقرب من هذه الأعمدة معبد للشمس، وليس هذه الأعمدة إلا بقايا الممرين التي توصل إليه كما هي الحالة في هيكل بلقيس بمدينة مأرِب مما سيدركه القارئ بعد قليل.

ويوجد أيضًا في الجهة الغربية بناء آخر عظيم يشبه بعض الشبه ما يسمونه قصر بلقيس المارّ ذكره من حيث ضخامة البناء وإتقانه، ولم يبق منه غير الجدران الخارجية، وقد بنى البدو فوقها عششًا صغيرة على نمط العِشّة التي مرّ ذكرها لسكانهم، ولكني شهدت فيه خزانًا صغيرًا للماء طوله نحو مترين ونصف متر، وعرضه نحو متر واحد، وبينما كنا نتجول في هذا القصر جاء بعض شبان القرية وحيوا العامل

ثم استأذنوا أن يرقصوا أمامنا فأذن لهم وصاروا يرقصون أزواجًا أزواجًا على ضرب الطبل رقصًا رشيقًا يشبه من بعض نواحيه رقص الفالس عند الفرنجة[1].

بعد اختتام حفلة الرقص سرنا من هذه الخربة مشيًا على الأقدام إلى الخربة الثانية لنتناول طعام الغداء على مائدة شيخها الذي دعانا في الليل، وسار أمامنا أهل الخربة الأولى يرقصون وينشدون أناشيد مختلفة، وأُثبت ههنا نشيدًا منها لما فيه من الإشارة إلى تصويري لعرش بلقيس، وفي الحق أن ذلك يدل على نباهة البدوي وذكائه ومقدرته على شقّ الأسماء لأشياء لا يعرفها ولم يرها من قبل:

سيدي محمد بن حسين أدَّى الحِكم ... تنقل تصاوير اليمن وأهل الهنودِ

قد صوروا بلقيس بالشنتة رسم ... والأرض با تفنى وربي بالوجودِ

وبديهي أن البدوي الذي نظم هذين البيتين ما رأى في حياته آلة التصوير ولا سمع باسمها، ولكنه رآها في يدي موضوعة داخل "شنتتها" فأطلق عليها اسم "شنتة" للحال، ونظم أبياته في ساعته. سرنا في هذا الموكب إلى منتصف الطريق بين الخربتين، وهنا وافتنا جموع الخربة الثانية، ويقال لهم آل طُعيمان[2]، وكان يتقدمهم شيخهم عبيد بن مسعود بن طُعيمان، فتقدموا من السيد محمد فردًا فردًا وقبلوا يديه وركبتيه، ثم ساروا أمامنا ينشدون النشيد التالي من نظم الشيخ محمد بن محسن بن طُعيمان:

حيّا بعاملنا ومن جاء معه ... ما حنحن الراعد وما شن السحاب

إحنا على رأيه ومملوكين له ... ونِمْضي امرهْ في غواء[3] وصاب

---

(1) تُعرف هذه الرقصة في اليمن بـ(البَرَعْ).

(2) كتبها المؤلف: ضعيمان، بالضاد المعجمة، والصواب: طعيمان، بالطاء المهملة، كما سبق له أن رسمها من قبل، وآل طعيمان من مشايخ قبيلة جهم الخولانية في صرواح. انظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية 958/1.

(3) كذا رسمها المؤلف، ولعلها (عوجاء)، وصاب: أي (صائب) واقتضت ذلك ضرورة الشعر. والقبائل تستخدم هذا المصطلح (عوجاء وصائب) للتأكيد على الطاعة المطلقة للزعماء أو المشايخ، أي أنها تطيعهم في (الخطأ والصواب) دون نقاش. وقد جر هذا السلوك والتقليد القبلي على اليمن الصاب والعلقم، فمعظم الحروب والفتن شبه المتصلة التي وقعت في اليمن – وما تزال– كانت من نتائج هذا التقليد الأعمى، والنعرة الجاهلية، وأغلب تلك المصائب كان نتيجة الأرمر الهوجاء (العوجاء).

وعندما سمع جنودنا هذه الأناشيد أخذتهم الحماسة أيضًا فأنشدوا زاملهم، أي نشيدهم المعروف على ضرب البوق وهو:

يا طير يا عازم على أرض الله وبلغ سلام بلغ سلامي للإمام ذي[1] هزّ الجبال

وعندما سمعت هذه الأناشيد المثيرة للنفس شعرت أن كل شعرة من شعر رأسي وقفت على طرفها فكادت ترمي العقال والكوفية عنه، وطرت بذاكرتي إلى أيام الثورة السورية عندما كنا نلتهب بلظاها، فحيّيتُ أشبال الشام وأسود بني معروف، وكادت الدموع تنهمل من عيني مدرارًا، وشعرت بهذه اللحظة بين دموع الفرح والسرور بلذة غريبة لا تدانيها لذة، ألا وهي لذة الاستقلال والحرية، ومن غريب المصادفات أنني لما كنت أفكر في هذه الساعة بأهلي ووطني وأبكي على حريتهم واستقلالهم كانوا يتسابقون في بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها في مدنها وعواصمها وسواحلها وقراها إلى بذل نفوسهم رخيصة على مذابح الحرية والاستقلال، فحيّا الله أهل الشام صغارهم وكبارهم، شبّانهم وشاباتهم، وليثقوا أن أمة شعارها المفاداة والتضحية لا بد أن تنال مُناها رغم أنف المنافقين والخائنين والمستعمرين.

وصلنا الخربة على ضرب الطبول والأبواق وإنشاد الأناشيد، ودخلنا إلى دار عبيد بن مسعود، وهي دار من البناء الجديد، وصعدنا إلى غرفة أسمح لنفسي أن أسميها بالدور الثاني بالرغم من أنها هي الغرفة الوحيدة في هذا الدور، وبابها صغير ارتفاعه 45 سنتيمترًا، وأما النوافذ فلا أثر لها أبدًا، بل هناك كوات صغيرة لا يتجاوز قطرها ثلاثة سنتيمترات، وأما سقف هذه الغرفة فمصنوعة من العيدان الرقيقة والنباتات، وفي الحق أني خلت نفسي في غرفة من غرف الأطفال الصغار التي يبنونها للتسلية في أوقات فراغهم!

وبعد أن جلسنا قليلاً وشربنا القشر حسب العادة خرجت إلى السطح وتأملت هذه الخربة فوجدتها مبنية من الحجارة، وأكثر أحجارها منقولة من البنايات القديمة الحميرية وعليها نقوش كثيرة، ثم نزلت من السطح وخرجت خارج الدار يصحبني نفر من الجند، فطِفتُ حقول الذرة وكانت يانعة مع أن الفصل فصل شتاء والبرد هنا على أشده، ولكن شتاء هذه البلاد يعادل صيف سورية، والغريب أن الذرة والحنطة والشعير تنموا عقرًا من غير سقي، ويكفيها أن تشرب مرة واحدة لتؤتي أُكُلها، وقد

---

(1) ذي: أي الذي هز الجبال إشارة إلى ولي العهد أحمد سيف الإسلام (المؤلف).

رأيت سكة الحراثة، وهي صغيرة جدًا لا يزيد طولها على سبعة سنتيمترات، وروى لي البعض أن مزروعاتهم هنا تُعطي أُكُلها إذا جاءتها الأمطار مرتين في الموسم الواحد عوضًا عن المرة الواحدة.

عدت إلى الدار بعد هذا الطواف اليسير، وما كاد يستقر بي الجلوس حتى جاء الطعام، وكان مؤلفًا من حلبة وهريش ولحم، وقد جلبوا الحلبة والهريش أولاً ثم جاء دور اللحم أخيرًا، فوزعه رب البيت على المجتمعين فأكلوا هنيئًا مريئًا ثم مسحوا زفرة أيديهم. وبعد الفراغ من الطعام ردد القوم لصاحب الدار قولهم: "كثر خيّرهم، ويخلف عليهم". ثم جلسنا لنتقهوى وأخذ العامل وصحبه يدخنون المداعة، وقال لي العامل: إن هؤلاء العرب كرماء جدًا، ويحسبون حساب ضيوفهم قبل نفوسهم، وتجد الواحد منهم مهما كان فقيرًا، يقدم لضيفه كل ما يستطيع تقديمه، ويحرم نفسه من اللحم ويقدّمه للضيف، وفي سنوات المحل تجدهم يبيتون على الطوى، ويخزنون الزاد والطعام لضيوفهم ولا يمسونه مهما كان الحال.

فقلت: إني آمنت بذلك أمس واليوم لأني شهدت مضيفنا يوم أمس يذبح ثلاثة كباش، واليوم عندما خرجت إلى الدار رأيت خمسة كباش مذبوحة وملقاة على الأرض، وهذا شيء مشهور عند العرب، فلا يقدر أن يجاريهم فيه أحد.

وقد تضايقت من الجلوس في الغرفة، فخرجت ثانية وأخذت أطوف بين بيوت هذه القرية، فرأيت بعض النساء يغزلن شعر الماعز وصوف الغنم وإلى جانبهن بضعة رجال يحبكون الغزل على أنوال خشبية بسيطة شدوها إلى الأرض، فيصنعون منه ما يسمونه (دُقَى) وبجاد وفراش (أي شقاق لبيوت الشعر)، وبسطا للجلوس، ورأيت في القرية بعض النساء يضعن على وجوههن نصف برقع أسود مزيّن بالأزرار البيضاء، ويضعن في أعناقهن عقودًا من الودع والخرز الملون، وفي معصمهن أساور من المخْلَص (أي من الفضة)، وفي أرجلهن خلاخيل من المخلص أيضًا، فسألت أحد الرجال أين يصيغون هذه الحليّ من المخلص؟ فأجابني: في مأرِب. وقد استلفت نظري بعض الأساور، لأني رأيت في مصر وسورية بعض نساء الفرنج يلبسن مثلها تقريبًا.

وبينما كنت عائدًا إلى الدار رأيت العامل قد خرج، وخرج القوم خلفه وأخذوا يقبلون يديه وركبتيه وهو يردّ تحيتهم بلطف ووداعة، وفي الحق هذه عادة غريبة عند هؤلاء العرب الصناديد، وأنا واثق أنهم لا يقبلون يدي العامل تزلفًا إليه أو خوفًا منه،

لأنهم قوم لا يفهمون معنى الزلفى، ولا يهابون الموت أو يرهبون الردى، وما دفعهم لهذه المظاهر سوى احترامهم لنسب هذا السيد الشريف الذي ينتمي لسيد البشر محمد بن عبد الله ﷺ ولكني ألوم السادة ومن حذا حذوهم في إعطاء يدهم لغيرهم لتقبيلها، وأخصّ السادة باللوم لأن سيّد البشر جدهم الأعظم صلوات الله عليه كان يكره هذه العادة وينهى عنها، وجدير بهم أن يحذوا حذوه.

المرحلة الأخيرة إلى مأْرِب

في نحو الساعة السابعة، أي الواحدة بعد الظهر في يوم الأربعاء الموافق 29 كانون الثاني ركبنا من خربة صرواح، وهي آخر مرحلة من مراحلنا قاصدين مأْرِب، ودعا العامل شيخ (جبل هيلان) المدعو: صالح بن سعيد الظمأ ليرافقنا في الطريق لأنه خبير بأراضي هذه البلاد وأسمائها. وسرنا باسم الله جنوبا بشرق مسافة يسيرة، ثم تحولت طريقنا إلى الشرق تمامًا، ورأيت إلى جنوبنا سلاسل جبال بركانية عظيمة آخذة بعضها برقاب بعض، فسألت الشيخ صالح عن اسمها؟

فقال لي: القريبة منا (العجارم)، والتي تليها جبال بني ظبيان.

ومياه السيول في هذه الجبال تنضمّ إلى مياه السيول التي تأتي إلى صرواح وتسيل جميعها في سائلة واحدة يقال لها: (سائلة مَلح) إلى أن تصب في السيل العام الذي يذهب إلى مأْرِب. وكأني بالشيخ صالح أدرك ما هو القصد من رحلتي، فكنت إذا سألته سؤالا مما له علاقة بالسيول والمياه والسد..الخ، كان يجيبني عليه أجوبه مطولة مفيدة.

سارت طريقنا شرقًا بوادٍ فسيح بين جبال واطية بركانية مسافة ساعة، ويقولون له (قاع الحقيل)، وخرجنا من هذا القاع فدخلنا مكانا يقال له: (المحفى)، وهو في الحقيقة تتمة للقاع، ولكنهم فرقوه عنه وسموه (المحفى) لأن أرجل المخلوقات التي تمشي فيه تحفى وتهرأ لكثرة ما فيه من أحجار، وهذه الأحجار هي نتيجة موجة بركانية رقيقة طغت على هذا السهل، ولما بردت تركت هذه الأحجار البركانية الصغيرة السوداء خلفها.

وقد رأينا في هذا القاع وما يحيط به من الجبال والوديان أعشابًا كثيرة وطروشًا عظيمة، وأعطاني صالح بن سعيد عشبة يقال لها (زقيقاء)، وهي ذات زهر جميل له رائحة عطرية ذكية. وفي الحق أن معظم الأعشاب هنا لها رائحة ذكية.

ودامت الأراضي على هذا الشكل إلى أن وصلنا إلى قرب سائلة (ذنة)، وقد رأيت بعض الكُتّاب الأقدمين والمجددين يكتبونها (أذنه) وهذا خطأ[1]، فأهل البلاد يقولون لها: (ذنة) وليس أذنه، ولهذه السائلة أهمية عظيمة لأنها هي مجمع السيول لجزء كبير من سيول بلاد اليمن، وتصب فيها جميع السيول التي تأتي من جهة الغرب، أي من ذمار ويريم وجهران وبلاد الحدا وبلاد خولان وبلاد مراد وقيفة، وتصب فيها أيضًا السيول التي تأتي من الشمال من بلاد جهم، ويقال لها سيل (القطوطة)[2]، وتصبّ فيها أيضًا السيول التي تأتي من الجنوب، ويقال لها سيل (الجوبة)[3]، وتجتمع جميع مياه هذه السيول في شبه بحيرة كبيرة مساحتها عشرات الكيلومترات، تحيط بها الجبال والوديان من جميع الجهات، وهي مرتفعة من جهة الشمال والغرب والجنوب، ومنخفضة من جهة الشرق حيث تصب في وادٍ ضيق بين جبلين يقال لهما (جبل بلق الأيمن وبلق الأيسر)، وهما في الحقيقة جبل واحد، ولكن السيول قد افتتحت فيه واديًا ضيقًا فقسمته إلى جبلين. ويسمى فم هذا الوادي بـ (باب الضيقة)، وكأني بهم سموه ضيقة لضيقه إذ لا يبلغ عرضه أكثر من مائتي متر، وهو أول مجرى من مجاري الماء لخزان سد مأْرِب الحقيقي، لأنه لا يجوز لنا مجازًا بأن ندّعي أن شبه البحيرة الكبيرة التي تجتمع فيها السيول من الجهات الثلاث يسمى خزانًا أيضًا، وقد خصصت فصلاً خاصًا لبحث هذا الخزان والسد، وسيأتي ذكره قريبا.

(1) قلت: أذنة هو الصواب، والعامة عادة تتخفف من الهمزة عند النطق في أغلب أسماء المواضع ومنه هذا الاسم. ووادي أذنة هو أعظم أودية اليمن الشرقية، وتشمل روافده أكبر مساحة بين روافد أودية اليمن الأخرى، وقدر مساحة مساقط الوادي بنحو عشرة آلاف كيلو متر مربع، وتقع صرواح على ضفاف الواي، ويصب في سد مارب.

(2) القطوطة: كذا رسمها المؤلف، ولا يعرف واد في تلك المنطقة بهذا الاسم.

(3) سيل الجوبة، أو وادي الجوبة: واد يقع إلى الجنوب الغربي من مدينة مأرب على بعد نحو (32 كيلومتراً)، وهذا الوادي يتجه من الجنوب ويصب إلى رملة السبعتين، يمتد طوله نحو (20 كيلومتراً)، بينما يتراوح عرضه بين (1-8 كيلومتر)، أما جوانبه فهي مكونة من قمم جبلية منعزلة وجروف شديدة الانحدار، الأمر الذي جعلها مجدبة وخالية من الأشجار.

وقد وصلنا إلى باب الضيقة ليلاً منهوكين من التعب، فرأينا من الأفضل لنا أن نقضي ليلتنا ههنا بالقرب من الماء بين شجر الأثل الجميل الذي يكثر بهذا الوادي، فوضعنا أحمالنا ومدّوا لنا وسائدنا فوق الرمال، وأخذ الجند يجلبون لنا من الحطب كميات وافرة استعدادًا للاصطلاء بالليل، ثم توضأنا وصلينا وجلسنا بعيدًا عن النار التي أوقدها الجند، ولكن العامل – حفظه الله –كان يبرد كثيرًا، وبالرغم من أنه كان يلبس عدة أثواب بعضها فوق بعض، ويلبس فوقها جميعًا فروة من فراء اليمن ويسمونها (كركًا) شكا من البرد وأمر بإشعال النار بالقرب منا، فقلت: لا، أبعدها عني واجلبها بقربك فقط. فقال: حسنًا. ومن الغريب في أهل اليمن أنهم يخافون من البرد كثيرًا.

قضينا سهرتنا على نور القمر والنار، ثم أخذ الرفاق يستعدون للنوم، فخلعوا جميع ثيابهم ودخلوا في أكياسهم، وبعد برهة وجيزة صاروا يغطون في النوم غطيطًا. والنوم بالأكياس عادت منتشرة في جميع اليمن من أقصاها إلى أقصاها، وقبل هذه الرحلة لم أدرك سرها، وأما في هذه الرحلة فأيقنت بفائدتها من وجهين على الأقل: الأول: أنها تحول دون لدغ البعوض والكُتّان الموجود في كل مكان. والوجه الثاني: أنها تحصر حرارة جسم الإنسان داخل كيسه فيبقى طول ليله دافئًا، وأما من ضررها من جهة التنفس فلا شك فيه، ولكن يظهر أن القوم قد اعتادوا على هذه الحال.

على أبواب مأْرِب وسدها العظيم

نام القوم طول ليلهم إلا أنا فلم يغمض لي جفن إلا قليلاً، فكيف أنام وأنا على باب سد مأْرِب وعلى قاب قوسين أو أدنى من مدينة بلقيس العظيمة؟ وما برحت منذ عشر سنوات أحلم بهذه الزيارة وتتشوق نفسي إليها، وكنت كل الليل أتخيل تخيلات غريبة وارسم في ذهني صورًا عجيبة للسد ومجاريه، ومأْرِب وقصورها، وبلقيس وعرشها، و. و...الخ). وودت لو كان لي جناح الهدهد فأسبق الرفاق لمأْرِب، وما كاد ينبثق الفجر حتى أيقظت الرفاق من نومهم، فأخذوا يخرجون من أكياسهم واحدًا بعد واحد، وكان منظرهم مضحكًا للغاية، وبعد هنيهة نهض العامل وأمر بإشعال النيران فأشعلوها في الحال وأخذنا نستدفئ حولها. وقد شعرت في هذه الساعة ببرد يسير يتسرب إلى جسمي فأشرت إلى الخادم حسين أن يصنع لي شاهيًا

فصنع، فشربنا الشاهي "واصطبحنا" (أي أكلنا الصبوح) وصلينا وانبعثنا على بركة الله، وكانت على طريقنا تسير في نفس سائلة (ذنة) التي يزداد عرضها كلما سرنا لجهة الشرق إلى أن يبلغ في منتصفها نحو 500 متر، وهي تشكل ههنا شبه دائرة، ثم تعود فتأخذ في الضيق إلى أن تصل إلى آخر الوادي بين الجبلين إلى نقطة قال لي دليلنا صالح سعيد أن اسمها "مربط الدِّم" (أي الهر)، وهي المكان الذي بنوا فيه السد، وقد أطلقوا عليها اسم مربط الدِم على رواية صالح سعيد لأن أهل مأْرِب عندما شعروا بأن السد سوف يخرب ويكون سبب خرابه الجرذان ربطوا عددًا كبيرًا من القطط إلى جانب السد ليحولوا دون ظهور الفئران، ولذلك سموا المكان بمربط الدِم.

وقد طالعت في كتب عربية كثيرة وفي بعض الكتب الفرنجية أن من جملة أسباب خراب السد هو ظهور الجرذان حوله وثقبها فيه ثقوبًا كثيرة لسكناها، وإني أثبت ههنا قصة طريفة عن كيفية خرابه اطّلعت عليها في أحد الكتب القديمة ليرى القارئ صعوبة الحصول على معلومات صحيحة في هذا الخصوص.

جاء في الجزء الأول من "حياة الحيوان" للعلامة الشيخ كمال الدين الدميري بحث مطول عن سد مأْرِب في الصفحة 258، وقد لخصّتُ منه ما يلي:

"ذكر بعض المفسرين أن الخلد هو الذي خرب سد مأْرِب وذلك أن قوم سبأ كانت لهم جنتان (بستانان) عن يمين من يأتيها وشماله. قال الله تعالى لهم: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾. أي على ما أنعم به عليكم، وكانت بلدتها طيبة لا يُرى فيها برغوث، ولا بعوض، ولا عقرب، ولا حية، ولا ذباب، وكان الركب يأتون وفي ثيابهم القمل وغيره، فإذا وصلوا إلى بلادهم ماتت، وكان الإنسان يدخل البستان والمكتل على رأسه فيخرج وقد امتلأ من أنواع الفواكه من غير أن يتناول منها شيئًا بيده، فبعث الله لهم ثلاثة عشر نبيًا فدعوهم إلى الله وذكّروهم نعمه عليهم وأنذروهم عقابه فأعرضوا وقالوا: "ما نعرف لله علينا من نعمة"، وكان لهم سدّ بنته بلقيس لما ملكتهم، وبنت دونه بركة فيها اثنتا عشر مخرجا على عدد أنهارهم، فكان الماء يقسم بينهم على ذلك، فلما كان من شأنها مع سليمان عليه الصلاة والسلام ما كان مكثوا مدة بعدها ثم طغوا وبغوا وكفروا، فسلّط الله عليه جرذا أعمى يقال له الخلد، فنقب السد من أسفله، فهلكت أشجارهم وخربت أرضهم.

وكانوا يزعمون في عملهم وكهانتهم أن سدهم ذلك تخربه فأرة، فلم يتركوا فرجة بين حَجَرَين إلا ربطوا عندها هرة، فلما جاء الوقت الذي أراد الله تعالى أقبلت فأرة حمراء إلى هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة فدخلت في الفرجة التي كانت عندها وحفرت، فلما جاء السيل وَجد خللاً فدخل فيه حتى قلع السد وفاض على أموالهم (أي أراضيهم) فأغرقها ودفن بيوتهم بالرمل.

ورُوي عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – ووهب وغيرهما أنهم قالوا: "كان ذلك السد بنته بلقيس، وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء أوديتهم، فأمرت بواديهم فسُدَّ بالعرم، وهو السد بلغة حمير، فسدت بين الجبلين بالصخر والقار، وجعلت له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة ضخمة، وجعلت فيها اثني عشر مخرجا على عدد أنهارهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء، وإذا استغنوا عنه سدوها، فإذا جاء المطر اجتمع إليه ماء أودية اليمن".

ونقل الإمام أبو الفرج بن الجوزي عن الضحاك "أن الجرذ الذي خرب السد كان له مخالب وأنياب من حديد، وأن أول من علم بذلك عمرو بن عامر الأزدي وكان سيدهم، وقد رأى في المنام كأنه انبثق عليه الردم فسال الوادي، فانطلق نحو الردم فرأى الجرذ يحفر بمخالب من حديد ويقرض بأنياب من حديد...الخ".

وفي العرم أقوال كثيرة: قيل هو (المسناة) أي السد "قاله قتادة"، وقيل هو اسم الوادي، "قاله السهيلي". وقيل اسم الخلد الذي خرق السد. وقيل هو السيد الذي لا يُطاق.

وأما مأْرِب، فبسكون الهمزة اسم لقصر كان لهم، وقيل هو اسم لكل ملك كان على سبأ. كما أن تُبّعًا اسم لكل من ولي اليمن والشحر وحضرموت "قاله المسعودي".

واسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، قيل أنه أول من سبى فسمي سبأ، وقيل أنه أول من تتوج من ملوك اليمن.

وفي الحديث: "قال رجل: يا رسول الله أخبرني عن سبأ أكان رجلاً أو امرأة أو أرضًا؟ فقال: كان رجلاً من العرب، وله عشرة أولاد تيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تيامنوا: فكندة والأشعريون والأزد ومذحج وأنمار وحِمير، وأما الذين تشاءموا: فلخم وجذام وعاملة وغسان" انتهى.

أما أنا فأقول: لا شك أن تفاسير هذه الأسماء كما ذكرها الكُتّاب الأقدمون تحتمل الصدق والكذب، ولكن ستظهر الحقيقة إن شاء الله متى تمكنت أن أقف على قراءة الأسانيد[1] الكثيرة التي نقلتها وجلبتها معي من تلك البلاد، وقد نقلت الجميع من أماكن ثابتة معلومة، لا من أحجار مبعثرة هنا وهنالك. فقد نقلت نحو ثلاثين نقشًا من السد وحده، ولا شك أنه يوجد بينها أسماء من بَنَوا هذا السد وعنوا بأمره، لأنه في ظني ليس من عمل ملك واحد، بل من عمل عدة ملوك.

ورأينا عند مربط الدِّم بعض الآثار الباقية من السد، وهي كناية عن مخرج الماء من الجهة الجنوبية، وسيأتي ذكرها بالتفصيل قريبًا لأني درست هذه الخرائب بالتدقيق درسًا وافيًا بعد وصولي إلى مأْرِب. وأما يوم مرورنا بها فاكتفيت بخطفة بصر فقط، ورأيت على مسافة يسيرة إلى شرقي السد آثار بناء مربع ضخم يظهر أنه كان مختصًا بحرّاس السد والماء.

وتابعنا سيرنا فمررنا بما كانوا يسمونه قديمًا الجنة الشمالية، وشاهدنا فيها بقايا مجاري الأنهر القديمة التي كانت تسقيها، وهي مبنية مما يسمونه بـ (القضاض) أي الحجر والسمنت، ومرتبة ترتيبًا هندسيًا بديعًا، وشاهدنا بقايا البساتين، ويختلف حجمها بعضها عن بعض، فمنها الكبير ومنها الصغير ومنها الوسط، وأما توزيع المياه عليها فعلى نمط واحد: أي يجري من الأنهر بقنوات صغيرة وفروع متعددة يختلف اتساعها بنسبة اتساع البستان الذي تسقيه. وأما نوع التربة فمن التراب الأحمر "الدلفاتي" السميك، وفي الوقت الحاضر لم أر بهذه الجنان أشجارًا ولا نباتات، لأن مياه السيول بعد خراب السد أصبحت أوطأ منها فلا تصلها، والأمطار هنا لا تهطل إلا نادرًا، وإن هطلت فرذاذًا، لذلك يعول الزُرّاع على الأراضي القريبة من سائلة (ذنة) فيغرسونها.

وعندما اقتربنا من مأْرِب قابلنا جموع الأهلين آتين للسلام على العامل، وكان سلامهم عليه بإطلاق الرصاص، ولعمر الحق أن هذا أجمل سلام يدل على البأس وعزة النفس، وكانت الجماهير تزداد كلما اقتربنا من المدينة، وكانوا ينتظمون في صف واحد ويسيرون أمامنا وينشدون بعض الأناشيد الوطنية، وقد تمكنت من الحصول على بعضها، وإلى القارئ الكريم خلاصتها:

---

(1) يقصد المؤلف بذلك النقوش التي نقلها أثناء رحلته بالخط المسند، والمسند: معروف، اللغة اليمنية القديمة، وتجمع على مساند، ومسانيد.

يـــا مرحبًـــا بالعامـــل المشـــهور	والأرض قـــد هـــي لـــك مطيعـــة
حيّـــا بعاملنـــا وذي[1] جانـــا معـــه	يـــا ضـــاح[2] وادينـــا فـــي الغـــدرًا الظـــلام
مـــارب يرحّـــب والحكومـــة رحبـــت	والأرض فوق الحيد[3] تضرب لك سلام
يـا مرحبًـا يـا الكبسـي اثنـي عشـر ميـه	يـا مَـرْدِمَ[4] الـوادي وقُفْلـه والسِـراج
يَلعِـد[5] ذي مـروي[6] المشـارق كلهـا	من سطوتك خلاّ المغازي[7] بن عجاج

غيره:

حيّـا بعاملنـا وراعـي الشـام ذي جانامعـه	متوكلـــة وادي ســـبأ بـــأمر الإمـــام
الحمد لله قد سعدنا يوم جتنا الدَّيوله[8]	بجـــاه مولانـــا ســـعدنا يـــا كـــرام

ومن دواعي الأسف أن قراءة هذه الأبيات ليست كسماعها، فهي لا تحتوي على معان وبيان، وأوزانها ليست مضبوطة، ولكن إذا سمعها المرء تنشد من ذلك الجمع المخيف يطرب منها كل الطرب، وتستولي على مشاعره وعواطفه، وتستفز فيه الشجاعة والبطولة، وتعروه رعدة حماسية حتى ولو كان رعديدًا جبانًا.

في مدينة مأْرِب

وصلنا إلى مأْرِب، ودخلناها بين ضرب الطبول والأناشيد، وقد مررنا بأطلال المدينة القديمة، إلا أني لم أنتبه إليها كثيرًا لأني كنت منصرفًا بكليتي إلى مراقبة هذا الجمهور المتحمس لرؤية عامله، وكنت أراقب الناس فردًا فردًا لأفهم هل هذه المظاهر

---

(1) الذي. (تعليق المؤلف)
(2) سراج. (المؤلف)
(3) الحيد: كتبها المؤلف: (الجيد) بالجيم، والصواب ما أثبتناه، والحيد في لهجة المناطق الشرقية من اليمن: الجبل.
(4) المَرْدِم: العارضة من الخشب أو الحجر التي يسقف بها الباب أو النافذة.
(5) يا من نعتد به ونعول عليه. (المؤلف)
(6) ساقي. (المؤلف)
(7) جعل الرجل المشهور بالغزو [مثل ابن عجاج] يتركه. (المؤلف)
(8) الديولة: الدولة.

مظاهر تقليدية فقط، أم هي ناشئة عن شعور حقيقي، فأدركت غايتي عندما ترجلنا عن بغالنا في باب دار الحكومة إذ تزاحم الناس تزاحمًا على العامل منقطع النظير، ووجوههم تطفح بشرًا وفرحًا، وألقوا بأنفسهم عليه، وصاروا يقبلون يديه وركبتيه وما عاد منهم فرد واحد إلا بعدما قبل يده وركبته.

ودخلنا دار الحكومة، وهي واقعة إلى جنوبي المدينة الحديثة وعلى مسافة خمسين مترًا منها، وبناؤها على طراز بناء دور صنعاء، ومؤلفة من ثلاثة أدوار، فصعدنا بادئ الأمر إلى الدور الثالث في درج لولبي مظلم فيه عدة ثقوب صغيرة تستعمل كرمايات عند الحاجة.

وبعد أن غسلنا أيدينا ووجوهنا وتوضأنا وصلينا نزلنا إلى الدور الأول، وفيه صالون كبير قد اتخذه العامل مكتبًا له، وهو مبني بناء لا بأس به، وفيه ولله الحمد نوافذ كبيرة متعددة يدخل منها النور والهواء بصورة كافية للتهوية، دخلنا هذا المكتب وفتحنا نوافذه وجلسنا يهنئ بعضنا بعضًا بسلامة الوصول، وفي الحال امتلأ المكان بالذباب الذي صار يهاجمنا مهاجمة عنيفة، والذباب هنا كثير جدًا على ما فهمت، ويكثر في أيام البرد، ويموت في أيام الحر، وهذا بعكس البلاد الباردة، وقد انزعجت في الحقيقة منه كثيرًا، وأخرجت منديلي وصرت أطرده عن وجهي فما كان من شقيق العامل إلا أن ألقى إليّ بمنشّة كانت بين يديه فدهشت لما وجدتها ذنب ثور! وقد أخذ كل واحد من الحاضرين منشّة من هذا النوع، وأخذ يدفع بها عن نفسه الذباب.

وبعد جلوسنا ههنا نحو ساعة من الزمان جاءنا خادم العامل وقال: إن الغداء جاهز فتفضلوا، وللحال تبعناه إلى الدور الثاني حيث مدّوا سماطًا على الأرض ووضعوا فوقه كثيرًا من الصحون والأطباق، فجلسنا حول السماط وأخذنا نلتهم الطعام التهامًا لأنه كان جيدًا، ولأننا كنا جياعًا، وكان مؤلفًا من الحلبة والمكرونة والأرز واللحم والحلوى المسماة (بنت الصحن)، وهذه أكلة جيدة لم أذقها قبلا، فسألت العامل عن تركيبها. فقال: هي مصنوعة من عجين الحنطة والبيض والسمن والعسل.

وبعد الطعام عدنا إلى مكتب الحكومة، وقد اتخذناه صالونًا لجلوسنا ولاستقبالنا كل المدة التي أقمناها بمأرِب، وأخذ العامل وأخوه وصحبه يدخنون المداعة

ويخزنون القات، ومع أن القات غير موجود هنا فهم يجلبونه من الجبال مع القوافل التي تأتي يوميًا لابتياع الملح. ولكنه في كثير من الأحيان يصل يابسا لطول الوقت فلا يمكنهم مضغه، فيدقونه في أجران خاصة ثم يمضغونه، ولكن هذه المرة كان العامل قد جلب معه كمية كبيرة، وبقيت محافظة على شيء من طراوتها لأنهم حزموها جيدًا، وقد فرح الموظفون بها كثيرًا وأخذوا يخزنون هذا اليوم بشهية زائدة. وأما أنا فوجدت أن أفضل طريقة لي هي الهرب، فاستأذنت بالخروج، وخرجت إلى أطلال المدينة فألقيت عليها نظرة سطحية، وأدركت من أطلالها أنه كان لها سور محيط بها من الجهات الأربع، وقد ألحق العامل بي بعد خروجي نحو عشرة جنود للمحافظة، وفي الحق أن هؤلاء الجنود كانوا يزعجونني ويفسدون عليَّ تأملاتي بأسئلتهم الكثيرة التي تشبه أسئلة الأولاد الصغار، ومن العجيب في اليمن أنه كلما جاءهم رجل غريب يعتقدون أنه مهندس أو حكيم، وقد دُعيت بهذا الاسم، وانتشر خبر مجيئي إلى مأْرِب بعد وصولنا فورًا، وصار الناس يتساءلون لماذا جاء هذا المهندس؟

فبعضهم قال: إن جلالة الإمام أرسلني لكي أفتش على الكنوز والآثار المدفونة.

وبعضهم قال: لا، بل هو مهندس بناء جاء لكي يهندس دارًا للحكومة.

وبعضهم قال: لا، بل هو مهندس طرقات جاء لينظر الطريق ما بين صنعاء ومأْرِب.

وبعضهم قال: لا، بل هو يعرف أين توجد المعادن وخاصة الذهب، وفي استطاعته أن يشم الأرض فيعرف منها أين الذهب موجود. وقد قصَّ علي هذه الأخبار والروايات التي شاعت عني عقيب وصولنا دليلنا الذي جلبناه معنا من صرواح، وقد اتخذته عينا لأعرف ماذا يقال عني وماذا يبيت لي في الخفاء لأكون على بينة من الأمر.

بقيت أتجول برهة بين هذه الأطلال فرآنا جمهور من الأهلين، وأخذوا يراقبون حركاتنا عن بعد لعلهم يقفون على حقيقة أمرنا.

عدنا إلى دار الحكومة وكان المساء قد أمسى، فتوضأنا وصلينا وتعشينا، ودخلنا إلى المكتب فعاد القوم إلى التدخين والتخزين، وعدت إلى التفكير فيما رأيت وما سمعت في ذلك النهار وأخذت أدون هذه المذكرات.

فقال لي العامل: غدًا سنخرج إن شاء الله إلى ما يسمونه محرم بلقيس.

فقلت: وما هو هذا المحرم؟

فقال: يحكون والله أعلم أن بلقيس كانت تخرج إلى خارج المدينة كلما فاجأها الحيض، فتقضي مدته في هذا المحرم ثم تغتسل وتعود إلى المدينة.

فقلت: لا بأس من الخروج إلى هناك غدًا، أما الآن فإني أستودعكم الله سأذهب إلى النوم. وصعدت حالاً إلى الغرفة التي خُصصت لنومي في الدور الثالث، وكانت الساعة نحو الثالثة عربية (أي التاسعة زوالية)، وما كدت أستلقي على ظهري في الفراش حتى أخذت أسمع قرع الطبول في الدور الأول وعقبه مارش الإمام، وفي جميع أنحاء اليمن يقيم الجند في معسكراتهم وثكناتهم في الساعة الثالثة حفلة تدوم نحو ربع ساعة يقرعون الطبول ويختمونها بنشيد الإمام، وهو كما يلي[1]:

عند الشروع أقم نصره يا قايم النصر يا الله

يا الله عليك بالجماله يا جميل العوايد قايم النصر يا الله

وما كاد الجند ينتهون من نشيدهم حتى استسلمت للكرى ونمت نومًا عميقا، ولا أظنني تقلبت في تلك الليلة لا يمنة ولا يسرة لأني كنت تعبًا من السفر ولم أنم في الليلة الماضية إلا يسيرًا، وعند الصبح صحوت من رقادي على قرع الطبول وعلى ذكر الجند التسابيح التالية[2]:

يا الله رضاك يا الله رضاك

وارضا علينا بالرضا يا الله رضاك

يا الله رضاك يا الله رضاك

والعفو والرضا منك يا الله رضاك

واحنا طلبنا عظيم الشأن كريمان يا فاتح ابوابه[3]

---

(1) هذا النوع من النشيد (الزامل) يسمونه (تمسية) لأنه يقال في المساء.

(2) ويسمى هذا النوع من الزامل: (صبحي)، لأنه يقال في االصباح، وله صيغ متعددة تختلف باختلاف المناطق، وتدور كلها حول طلب العفو والمغفرة من الله ورضوانه، وأن يفتح عليهم أبواب الخير.

(3) كذا كتبها المؤلف، ولعلها: كريم أن يفتح لنا ابوابه.

يا الله المطلوب وافتح لنا بابك

يا الله المطلوب وافتح لنا بابك

يا الذي ما تمشي أقدامنا إلا بك

يا الذي ما تمشي أقدامنا إلا بك

سهّل النيات يا عدل يا والي

وهذه أيضًا عادة جميلة في الجيش اليماني، فأينما كان الجنود ينهضون عند الصبح وينشدون التسبيحة المارة الذكر، ولكني بينما كانوا يسبحون ما فهمت كلمة واحدة منها، إنما سألت أحدهم صباحًا ما ذا كنتم تقولون؟ فأعادها على مسامعي فدونتها لفوري بمذكراتي.

وبعد تأدية فرض صلاة الصبح وتناول الصبوح نزلت من غرفة النوم إلى المكتب فجاءني صالح سعيد وأخبرني أن أشراف المدينة في هرج ومرج، يتكلمون عني كثيرًا ولا يرغبون أن أخرج إلى خراباتهم، وفي نيتهم أن يحادثوا العامل بهذا الموضوع.

فقلت له: ومن هم هؤلاء الأشراف؟

فقال: هم سادة من نسل الحسن — رضي الله عنه — وينتسبون إلى آل سعود.

فقلت: وهل تعني جلالة الملك عبد العزيز بن سعود؟

فقال: كلا، ليس لهم صلة أو نسب بالنجدي، بل هم كما قلت لك سادة أشراف.

فقلت: وهل هم كثيرون؟

فقال: كلا، ولكنهم يملكون معظم هذه الأراضي والخرائب، ولهم أبناء عم كثيرون في الجوف.

فقلت: حسنًا. فانصرف الصديق وبقيت في المكتب لوحدي أفكر في أمر هؤلاء الأشراف وإذ بالعامل يدخل، وبعد التحية جلس قائلاً: كيف هِمتكم اليوم؟ ألا نعزم (أي نذهب إلى محرم بلقيس)؟

فقلت: نعم، لا بأس من عزمنا. فأمر بإعداد البغال، ودخل عليه أحد الحجّاب فهمس في أذنه كلمات لم أسمعها.

فقال العامل: لا بالله، فليدخلوا.

فدخل ثلاثة رجال لابسين أثوابًا نظيفة بالنسبة إلى أثواب غيرهم، ومتمنطقين بالجنبيات، وبعد التحية وتقبيل الأيادي مع الرُّكَب همس أحدهم حديثًا بأذن العامل، فنهض العامل وخرج معهم إلى باحة الدار، وبعد عشر دقائق عاد إليّ وهو يتبسم، فأيقنت أن الحديث كان بشأني، وأن هؤلاء الأشخاص من الأشراف.

فقلت: لا شك أن هؤلاء الرجال أتوا موفدين إليك من قِبل الأشراف ليحتجوا على مجيئي إلى هنا.

فقال: وكيف عرفت ذلك؟

فقلت: بلغني أمرهم هذا الصباح.

فأجاب: إن هؤلاء الناس بسطاء وعلى الفطرة، ولم يروا كل مدة حياتهم رجلاً غريبًا يدخل بلادهم، وقد استهجنوا أمرك وجاءوا مستعلمين عن مهمتك ومحتجين على تجوّل صالح سعيد معك بصورة دليل، وقد توهموا أنك جئت لتعيين الحدود بينهم وبين جيرانهم من قبيلة صالح سعيد، فأفهمتهم أنه لا علاقة لك بتحديد الحدود، وأنك رجل مسلم من أعيان الشام، وصديق عزيز على الإمام وموظف من موظفيه أوفدك جلالته لتشاهد هذه البلاد وتأخذ بعض رسومها ليراها جلالته، فلم يعترضوا على ذلك، بل قالوا: إنهم يريدون أن تأخذ معك في تجولاتك أحدهم بصفة دليل، وسمّوا لنا الشريف عبد الله، وتستغني عن صالح سعيد.

فقلت: حسنًا.

فقال: وقد وعدوني أنهم سيحضرون بعد ظهر هذا اليوم مع وفد من شيوخ قبيلة عبيدة ورجالها الأشداء للسلام علينا والتحدث إلينا، فبوسعك أن تتحدث إليهم بعد الظهر لتطمئن نفوسهم.

فقلت: هذا حسن جدًا، إنه لنعم الرأي، والأفضل أن لا نخرج هذا الصباح إلى المحرم بل ننتظر إلى الغد. ولكنه – حفظه الله – رأى أن في عدم خروجنا – وخاصة بعد أن أمر بإحضار بغالنا – مظهرًا من مظاهر الضعف.

فقال: لا بالله، تخرج ولكن لا تأخذ صالح سعيد الظمأ معنا، بل نأخذ معنا الشريف عبد الله.

فقلت: الرأي رأيكم.

وبعد هنيهة خرجت برفقة العامل وأخيه وأحد أبناء عمه الموظف عنده اسمه أحمد بن علي الكبسي، وهو شاب في مقتبل العمر، خفيف الروح للغاية، ولا تفارق النكتة شفتيه، وكان كل مدة إقامتي بمأرِب يُضحكنا كثيراً بنكاته المستحبة. ورافَقَنا حرس كثير من الجند والضباط، وخلت نفسي كأني سائر إلى ساحة حرب لا إلى نزهة ومشاهدة الآثار، وما كدنا نبتعد عن دار الحكومة يسيراً حتى اعترضتنا سائلة (ذنة)، ويبلغ عرضها أمام القرية نحو 320 متراً، ويختلف هذا العرض ببعض الأماكن عن بعض.

ويمكن القول على وجه التقريب أنها لا تقل عن 300 متر، ولا تزيد عن 350 متراً. وينموا فيها الأثل بكثرة عظيمة، ويوجد إلى جانبه في بعض الأماكن قليل من السدر، وقد جاء في القرآن الكريم في سورة سبأ ما يؤيد ذلك:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ* فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ* ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ* وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ* فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ[1]﴾.

بنور هذه الآيات كنت أستهدي، وعلى ضوئها كنت أسير لأن المعلومات التي ذُكِرَت فيها هي جميع ما يمكن للباحث المحقق أن يعول عليه في بحوثه وتحقيقاته عن هذه البلاد، وأما ما ذُكِرَ في الكتب القديمة عن هذه البلاد فلا يعتدّ به، ولا يُعوّل عليه لما فيه من الخلط والخرافات، وقد ثبت لي قوله تعالى:

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

---

(1) سورة: سبأ – الآيات: 15–19

وقد رأيت بعيني رأسي خرائب هاتين الجنتين (أي البستانين) وبقايا الدور التي كانت فيهما، ورأيت أنه لا يوجد فيهما شيء من الأشجار المثمرة وخلافها، وكل ما رأيته فيهما هو الخمط والأثل والسدر، وأما الأثل فإنه موجود بسائلة ذنة بكثرة عظيمة، وإذا دخل المرء يخال نفسه في أحراج كبيرة، ويوجد بين الأثل سدر قليل، أي يوجد بين كل ألف شجرة أثل شجرة سدر واحدة، ويوجد أيضًا في هذه السائلة وإلى جوانبها لمسافات يسيرة الخمط، وهو ما يسمونه بـ "الأراك"، وله ثمر يؤكل، ولونه أحمر يشبه حب العدس، ويجففه الأهلون ويأكلونه كالزبيب، وهو حلو الطعم وطيب الرائحة.

وشهدت أيضًا صدق هذه الآيات من حيث البناء، إذا هاتين الجنتين اللتين تبلغ مساحتهما نحو 80 كيلومترًا مربعًا كانتا كأنهما مدينة واحدة، البستان يلصق البستان، ومن البديهي أن هذه البساتين كانت مأهولة بالسكان، وكان البناء فيها آخذًا بعضه برقاب بعض، ولكن عندما بدّلهم الله بجنتيهم جنتين دمّر جميع هذه البساتين والمساكن والمدن، وصار بين مدينة مأْرِب وأقرب مدينة إليها كصرواح مثلا مسافة عشر ساعات إلى الغرب، وبينها وبين مدينة براقش — وهي إلى الشمال — نحو 11 ساعة، فصدق الله العظيم في جميع هذه الآيات، وصدق رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

ويوجد إلى جنب هذه السائلة — أي فوق ضفتها الشرقية - حقول خصبة تزرع على مياه السيول، وتزرع فيه الذرة والشعير والحنطة والجلجلان (أي السمسم).

سرنا من السائلة إلى الجنوب فمررنا على مسافة كيلومترين منها بمخفر جديد بناه جلالة الإمام بعد دخول جنوده إلى مأْرِب، ويحيط به بعض بيوت الأشراف المبنية من الطين، ولا وجود للنوافذ فيها، وهؤلاء الأشراف كانوا دومًا يحارب بعضهم بعضًا. وعلى مسافة يسيرة من المخفر إلى الجهة الجنوبية أخذت أشاهد بقايا بعض الأبنية وبعض مجاري المياه إلى أن وصلنا إلى محرم بلقيس أو بالأصح (هيكل الشمس)، وسيأتي ذكره بالتفصيل في فصل خاص بعد قليل لأنه من البديهي أنه كان من الصعب جدًا عليّ أن أقف على جميع المعلومات التي أريدها في يوم واحد لذلك زرت المحرم عدة زيارات، وفي كل مرة كنت أدرس منه قسما، وتمكنت أخيرًا من ضم جميع هذه المعلومات بعضها إلى بعض وألّفت منها فصلا واحدا سيأتي ذكره.

وبينما كنت في هذا النهار أنقل بعض النقوش المكتوبة على المحرم جاءني الشريف عبد الله الذي كلم العامل بشأني صباحًا وقال: نحن عاتبون عليك كثيرًا لأنك اصطحبت معك صالح سعيد يوم أمس عندما خرجت لتشاهد خرائب مأرِب، فصالح سعيد هذا رجل غريب عنا وخصم لنا، وبيننا وبين عشيرته اختلاف على الحدود، وقد علمنا أنه كان يكلمك بشأن الحدود وأنك ستعرض ذلك على جلالة مولانا الإمام حين عودتك إلى صنعاء.

فقلت: إنك على خطأ يا هذا، فأنا ما أتيت لأحدد حدودًا، ولا علم لي بالاختلافات التي بينكم وبين عشيرة صالح، ولو كنت أعلم ذلك لما جلبته معي، وما دمتم أنتم موجودين فإني أكون مسرورًا جدًا إذا كان يرافقني منكم كل يوم واحد.

فقال: نحن رهن الإشارة، فأخبرونا كلما أردتم أن تذهبوا إلى مكان لكي نذهب معكم.

فقلت: بارك الله فيكم.

وما كاد يذهب من قبلي الشريف حتى سمعت نشيد بدو آتين من الجهة الشرقية وقد ملئوا الفضاء بأصواتهم وأصوات بنادقهم، وكان بعضهم يركبون الهجن أزواجًا، وبعضهم يركبون الخيل، فقلت لا شك أن الساعة الرهيبة قد دنت، وأن هؤلاء القوم ما جاءوا إلا لقتلي، فأخذت مسدسي بيدي ووقفت إلى جانب أحد العواميد بالجهة المعاكسة لهم، ولكنهم لما وصلوا إلى عندنا ورأوا القوة الكبيرة التي كانت ترافقنا من الجند وأبصروا العامل عن بعد هرعوا إليه وتظاهروا أنهم إنما جاءوا للسلام عليه[1]، والله أعلم.

عدنا للدار من نفس الطريق، وكان الظهر قريبًا فتناولنا طعام الغداء حين وصولنا وأسرعنا بالوضوء، وكان اليوم يوم جمعة فخرجنا للصلاة بالمسجد، والعادة في جميع أطراف اليمن أن يخرج العمال يوم الجمعة للصلاة بموكب رسمي، وكان موكبنا هذا اليوم مؤلفًا من فرقة حرس العامل وجميع موظفي الحكومة، فسرنا على نفير البوق وقرع الطبول من دار الحكومة إلى المسجد نمشي رويدًا رويدًا، ومع أن المسافة لا

(1) قلت: كان من عادات القبائل إذا أتاهم ضيف أو مسؤل كبير، وأيضا عندما يعود المحافظ أو العامل إلى مقر عمله بعد غياب طويل أن يأتوا لتحيته والسلام عليه يمثل هذا الموكب، وقد تأتي جموع كل قبيلة على حدة، وسيذكر المؤلف بعد قليل وفود بعض القبائل للسلام على العامل، أي أنه ليس من بين أهدافهم قتل المؤلف كما توهم.

تستغرق ثلاث دقائق فقد قطعناها في ربع ساعة، وعندما وصلنا إلى قرب المسجد وجدنا ثلة من الجيش مصطفة هنالك ويقابلها جمهور من الرجال والأولاد من الأهلين، فدخلنا بين هذين الصفين فأدوا التحية للعامل، ثم دخلوا بعدنا إلى المسجد. ويدعون هذا المسجد بمسجد سليمان زاعمين أنه من بناءه، ولكن الحقيقة غير ذلك فهو من بناء أحد الشرفاء، ويرجع تاريخ بنائه إلى نحو مائة سنة بحسب تقديري[1]. وقد بناه هذا الشريف بين بعض العمدان القديمة فظهرت هذه العمدان في البناء من جهة القبلة (أي الشمال) فظنّه الناس أنه من بناء سليمان.

وبعد تأدية فرض الصلاة عدنا إلى دار الحكومة في نفس الموكب، وما كاد يستقر بنا المقام حتى جاء رسول للعامل يخبره بأن شيوخ قبيلة عبيدة سيصلون قريبًا للسلام، فأجابه: حسناً. وخرجنا إلى فوق سطح المكتب لنشاهد الشيوخ حين وصولهم، وبعد هنيهة أقبلوا علينا، بعضهم فوق ظهور الصافنات، وبعضهم فوق الرِكاب، وعندما اقتربوا من دار الحكومة ورأونا فوق السطح أخذوا ينشدون أناشيدهم ويطلقون العيارات النارية في الهواء، ويتسابقون على ظهور الجياد، ويلعبون ألعابًا تسر الأبصار، ودامت حفلة لعب الخيل والطراد نحو نصف ساعة، ثم نزل القوم من فوق خيولهم وهجنهم وأقبلوا علينا للسلام، فنزلنا إلى باحة دار الحكومة، فتواردوا علينا الواحد بعد الواحد، وكانوا يقبلون يدي العامل وركبتيه ثم يجلسون أمامنا، ولما اكتمل عددهم أخذ العامل يقدمهم لي مبتدئًا بعميدهم وشيخ مشايخهم علي بن حسن بن معيلي، والشيخ علي بن حسن بن جلال، والشيخ مبخوت بن عوض العرادة، والشيخ صالح بن علي بن جردان، والشيخ أحمد بن سعيد بن غرّيب، والشيخ علي بن سيف بن عقار. ودخل بعدهم الأشراف يتقدمهم عميدهم الشريف الأمير حسين بن عبد الرحمن، والشريف محمد بن عبد الرحمن "عمه"، والشريف قايد بن حسين، والشريف أحمد بن حسين، والشريف عبد الله بن صالح بن حيدر، والشريف عبد الله بن حسين.

---

(1) قلت: زرت موقع هذا المسجد سنة 1978م، وقد أصبح معظمه خرابا، ولا يدل الموجود منه على القدم، ولكنني أعتقد أنه جرى إعادة بنائه عدة مرات لأن أرضية المسجد وكذلك التل الذي كانت عليه مدينة مارب القديمة التي زارها المؤلف رملية رخوة لا يثبت عليها البناء لفترة طويلة، وهذه الرمال المتراكمة كانت تغطي القسم المتبقي من مدينة مارب الأثرية، وأقدم شاهد مادي باق يدل على تاريخ بناء المسجد هو قطعة من الرخام كتب عليها تاريخ بنائه سنة 467 هجرية.

وبعدما جلسوا جميعًا ألقيت فيهم خطابًا شرحت لهم فيه أحوال المسلمين وما أصابهم بعد الحرب العظمى، وقصصت عليهم كيفية استيلاء الأجانب على بلادهم، والمعاملة السيئة التي يعاملونهم بها، وقارنت بين هذا الحكم وحكم الإمام المبني على قواعد الدين الإسلامي والشريعة المحمدية فكانوا يصغون إليّ بانتباه زائد، وإذا أشكل عليهم شيء من كلامي كانوا يطلبون إلى العامل أن يوضحه لهم.

وعندما أتممت حديثي انبرى لي شريف مسن هو عم الأمير، واسمه الشريف محمد بن عبد الرحمن، وقال: يا أخا العرب لا تنظر إلى ثيابنا الرثّة وأطمارنا البالية وتظن أننا جهلاء بُلهاء لا نعرف من أمر الدنيا شيئا، بل اعلم – حفظك الله – أن هذا الفقير إليه تعالى الذي يكلمك. لقد ذهبت إلى صنعاء أيام الدولة العثمانية، وقابلت الولاة والمستشارين واطّلعت على نواياهم نحو بلادنا فما سمحنا لهم بالدخول إليها أبدًا، وهم مسلمون مثلنا، ونحن دائمًا وأبدًا مستعدون أن نهرق آخر نقطة من دمنا في سبيل بلادنا ووطننا، وإني أزيدك علماً بأن هذه البلاد منذ عهد سبأ وحمير إلى العهد الأخير لم يدخلها ملك أو فاتح، ولا دخلت في طاعة أحد، ولكن عندما فسدت حالنا في المدة الأخيرة وقمنا نقتتل، وصار الأخ يذبح أخاه، والعم يذبح ابن أخيه رأينا من المستحسن أن نلتجئ إلى جلالة الإمام لينقذنا من هذه الورطة، فذهبنا إليه خاضعين، وللنجدة طالبين، ولولا علمنا أن جلالته – الله يحفظه – لم يطع دولة أجنبية، ولا أدخل أجنبيًا إلى بلاده، وهو محافظ على الدين والعرض والشرف والشريعة لما استنجدنا به.

ثم قال: واعلم أني قد ذهبت إلى حضرموت وعدن والمحميات، ورأيت بعيني كيف يعامِل الأجنبي المسلمين، وعجبت كثيرًا من خضوع أهل هذه البلاد له، والله إحنا ما نخضع ولن نخضع أبدًا.

فأجبته على هذا الخطاب البديع قائلا: اعلم يا صاحبي أن الأثواب الرثّة والبالية لا تعيب صاحبها، وقد جاء في الأمثال عندنا أن الفرس الأصيل لا يعيبه سرجه، وأنا احترمكم كل الاحترام، وأعلم حق العلم بأن هذه الأثواب تستر تحتها قلوب حية نابضة، ووصيتي إليكم مادمتم قد دخلتم في طاعة الإمام أن تبقوا

محافظين على أوامره ونواهيه عملاً بالآية الكريمة: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم[1]﴾.

وشاء العامل أن يكون هذا الكلام هو مسك الختام فتحرك من مكانه، فأدركت قصده للحال.

فقلت: والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فأجابوا: وعليكم أفضل السلام.

وبادروا في الحال إلى وداع العامل، فقبلوا يديه وركبته حسب العادة، ثم أقبلوا نحوي وأخذوا يسلمون عليّ بيديهم حسب التحية المتعارفة بينهم وهي أن يصافح الرجل الآخر باليد ثم يسحبها بلطف ويحرك شفتيه عن بعد إشارة التقبيل، وهذا هو سلام العرب الصحيح منذ ألوف السنين.

خرج القوم من عندنا وأنا أفكر فيهم مطرقًا إلى الأرض، فقال العامل:

ما بالك ساكتًا لا تتكلم؟ هل أعجبك حديث هؤلاء الرجال؟ وكيف وجدتهم؟

فقلت: إني أفكر فيهم تفكيرًا عميقًا، إني أحببت كل شيء فيهم، إني أحببت هيئاتهم التي تدل على الدم الصافي الذي لم يدخله دم غريب، إني أحببت طلاقة ألسنتهم وفصاحتهم، إني أُعجبت بقلوبهم البيضاء النظيفة التي تدل على الطهارة وحسن النية، وإني أحببت صراحتهم وجرأتهم، وقد أعجبت كثيرًا بسلامهم.

فقال: نعم، لا شك أن هؤلاء الناس لا يزالون محافظين على الفطرة والبساطة.

فقلت: ثق وتأكد أن الخير كل الخير في الفطرة والبساطة، فالذي يتمسك بهما لا يعرف الكذب ولا الاحتيال ولا النميمة، فهنيئًا لهؤلاء القوم بعاداتهم السليمة المجردة عن مظاهر المدنية الفارغة.

قمنا من مكاننا ودخلنا إلى المكتب، فشُرعت المداعات، وأُحضرت القهوة والقات، وأخذ الرفاق – وهم العامل وأخوه ونسيبه السيد أحمد وبعض الموظفين – يحدثوني عن العرب وعاداتهم في هذه الجهات، ومما قالوه: أنهم كرماء وفرسان،

---

(1) سورة النساء – الآية: 59.

ويكرمون الضيف، وإذا وعدوا وفوا، وإذا استجيروا أجاروا، وإن انتدبوا لعمل قاموا به خير القيام، ولا يغدرون، ولا يمكرون، ولا يسرقون، ولا ينهبون، ولكنهم كانوا يقتتلون ويتغازون، ومنذ دخلوا في طاعة الإمام تركوا جميع العادات الرديئة وأخذوا يعودون إلى التمسك بالشريعة الإسلامية، وإلى القيام بجميع الفروض الدينية.

فقلت: وهل يدفعون الضرائب والزكاة بطيب خاطر؟

فأجاب العامل: نعم، إنهم يؤدون ما عليهم من تلقاء أنفسهم دون مطالبة.

وقال السيد أحمد: إنّ لهؤلاء القوم عادات اجتماعية غريبة!

فقلت: وكيف ذلك؟

فقال: إنهم يصطحبون النساء معهم في الحروب، فيحملن الزاد والماء ويتقدمن إلى المهادنة إذا وقعت الغلبة.

فقلت: وكيف يفعلن ذلك؟ ولمن يتركن بيوتهن وأطفالهن؟

فقال: إذا رأت النساء بأن قومهن قد أصيبوا بالفشل وأن خصومهم سيتغلبون عليهم، ففي الحال يطرحن بأنفسهن بين المقاتلين، فإذا رآهم الأعداء على هذه الحال يكفون عن القتال ويعودون من حيث أتوا. وأما بخصوص بيوتهم فالبركة في الكلاب، إنهم يتركون الكلاب لحراستها، وإذا كان لهن أطفال صغار يرضعون فإنهن يحملنهم معهن، وأما إذا كانوا لا يرضعون فإنهن يتركنهم في البيوت بعد ربطهم بالحبال، ويضعون أمامهم طعامًا وماء، وفي أحيان كثيرة يغبن ثلاثة أو أربعة أيام مع رجالهن وأولادهن على هذه الحال. وأما رجالهن إذا ذهبوا إلى الغزو وطال غيابهم وجاعوا فإنهم يأكلون لحم الجمال نيئًا إذا كانت لديهم جمال يمكن الاستغناء عنها، وإذا كان ليس معهم أن يستغنوا عنها فإنهم يعمدون إلى عِرق في أنف البعير فيقطعونه فينزف منه الدم، فيأخذونه في وعاء ويغلونه ويشربونه، وإذا عطشوا فإنهم يشربون الماء المتجمع في كروش الجمال بعد ذبحها، وإذا أدركهم الليل وناموا بين الرمال فإنهم يحفرون حفرًا في هذه الرمال الدافئة من حرارة الشمس ويدخلون إليها فيطمرون أنفسهم إلى رقابهم كسبًا للحرارة المتجمعة في هذه الرمال من حرارة الشمس بالنهار، وإذا وجدوا الحنظل وهم جياع فإنهم يأخذون بذره ويدقونه ويأكلونه.

وبينما نحن في هذا الحديث جاء بعض الأشراف وشيخ مشايخ قبيلة عبيدة: علي بن معيلي، فوجدت الفرصة مناسبة للاستفهام عن القبائل بين صنعاء ومأْرِب.

فسألت شيخ عبيدة: كم عدد نفوسكم؟ فلم يدرك قصدي، وقال العامل: إنهم لا يحصون النفوس ولكن يمكن معرفة عدد الرجال المقاتلين.

فقلت: حسنًا، كم عدد رجال قبيلة عبيدة المقاتلين؟

فأجاب الشيخ: 1500 من الرجاجيل (أي الرجال الذين يعول عليهم).

فقلت: وكم هو عدد الأشراف؟

فقال أميرهم: مائة سيد محارب في مأْرِب، ولهم أقارب وأرحام كثيرة في الجوف.

فقلت: وما هي أسماء القبائل التي مررنا ببلادها من صنعاء إلى مأْرِب، أو كم هو عدد رجالها المقاتلين؟

وبعد بحث طويل بين المجتمِعِين توصلت إلى الحصول على الجدول التالي الذي أبين فيه اسم القبيلة وحدودها وعدد رجالها المقاتلين بالترتيب مبتدئًا بصنعاء:

بنو الحارث	مساكنها في شعوب مما يلي صنعاء، وتمتد أراضيها إلى طرف بلاد بني حشيش في قرية الفرس، وعدد رجالها المقاتلين ثلاثة آلاف.
بنو حشيش	من الفرس إلى بلاد الشرفة، وعدد رجالها المقاتلين أربعة آلاف.
نِهْم	من رأس نقيل شجاع في الشمال إلى الجوف بالشرق، وإلى بني جبر بالجنوب، وعدد رجالها المقاتلين ستة آلاف.
بنو جبر	من أسفل نقيل شجاع إلى بلاد خولان في جهة الجنوب، وإلى أشراف مأْرِب بالشرق، وعدد رجالها المقاتلين ثلاثة آلاف.
الأشراف وعبيدة	إن أراضيهم متصلة ومشتركة فيما بينهم، وتمتد من حدود بني جبر في الغرب إلى حدود قبيلة الكُرَب بالشرق، وعدد رجالها المقالين ألفان.
الكُرب	من حدود عبيدة إلى أطراف حدود قبيلة الصَّيْعر إلى الشرق الجنوبي من مأْرب، وعدد رجالها المقاتلين ثلاثة آلاف.
الصَّيْعر	تمتد أراضيها إلى أراضي (المشقاص) شرقًا بجنوب، وعدد رجالها المقاتلين ثلاثة آلاف.
المشقاص	من الصَّيْعر إلى البحر شرقًا بجنوب.

	وأراضي هذه القبائل الثلاث الأخيرة أي: الكرب والصَّيْعر والمشقاص يحدها من الجنوب بلاد حضرموت، ومن الشمال الربع الخالي. ولم تدخل هذه القبائل في طاعة الإمام إلا منذ سنة ونصف سنة تقريبًا، ولكنهم لم يعطوا رهائن، بل أعطوا وجههم وهذا أعظم من الرهينة في عرف العرب وعاداتهم. ومنذ أعطوا وجههم امتنعوا عن الغزو، وكانوا في أكثر الأحيان يغزون البلاد النجدية. وعددهم 6000
قبيلة مراد	إلى الغرب الجنوبي من مأْرب، وعدد رجالها المقاتلين أربعة آلاف.
حريب بيحان	إلى جنوب مأْرب وعدد رجالها المقاتلين ألفان.
نَهْـد	جنوب الكُرَب، وتحدهم بلاد حضرموت، وعدد رجالهم المقاتلين ألف وخمسمائة.
هِمَام	جنوب الكرب، وتحدهم حضرموت.
دَهَـم	شمال مأْرب بشرق، وعدد رجالها المقاتلين عشرة آلاف.
أشراف الجوف	شرق بشمال من مأْرب، وعددهم خمسمائة.
خولان	غرب مأْرِب، ومنهم بنو ظبيان، وعددهم ستمائة وألف، وأما جميع خولان فعددهم يربو على عشرة آلاف، وهم مؤلفون من عشائر عديدة وأفخاذ كثيرة.

ولم أنته من كتابة أسماء هذه القبائل إلا وشعرت أن روحي قد بلغت التراقي من دخان المدائع (الشيشة) وكثرة الذباب، وكان الوقت قبيل الغروب فاستأذنت القوم وخرجت من المكتب إلى خارج دار الحكومة طلبًا للهواء النقي، فتبعني بعض الجنود والخادم حسين البيحاني، فمشيت وإياهم إلى طرف السائلة، وقال لي أحد الجنود — وكان مصابًا برمد في عينه —: ألا يوجد عندك دواء للعيون؟

فقلت: نعم يوجد عندي، ومتى عدنا للدار سأقطر لك منه إن شاء الله.

فقال: إن شاء الله.

فقلت: يظهر أن الرمد والمرض هنا كثير بسبب الذباب.

فقال الجندي: نعم يا سيدي، إن الرمد هنا كثير بسبب الرياح الشديدة التي تحمل الرمال والأقذار إلى العيون لا بسبب الذباب، وأما المرض فلا وجود له أبدًا. وقد أقمت نحو سنتين في هذه البلاد فما مرضت ولا رأيت مريضًا واحدًا من إخواني

الجنود الذين يبلغ عددهم نحو خمسمائة، ولا رأيت واحدًا من الأهالي سوى امرأة عجوز، ولو قِسنا مأرِب مع صنعاء لوجدنا المرض بصنعاء أكثر، فهنالك كل يوم نرى جنازة أو جنازتين.

فقلت له: ولكن لا تنس أن عدد سكان صنعاء سبعون ألفًا، وعدد سكان مأْرِب سبعمائة.

فقال: نعم هذا صحيح، ولكن المرض هنا غير موجود.

وفي الحقيقة أن الجندي كان على حق إلى حد بعيد فيما يقول، فالأمراض في مأْرِب غير منتشرة، وفي ظني أن ذلك يعود إلى سببين:

الأول: أشعة الشمس المحرقة والهواء الناشف، والثاني: أن الوفيات في الأطفال كثيرة جدًا فلا يعيش إلا القوي الذي عنده مناعة ذاتية لمقاومة جميع أنواع المكروبات، وبديهي أن الذي هذا حاله يقاوم الأمراض كثيرًا.

وما أردت أن أطيل الحديث في حفظ الصحة مع الجندي لأنه لا يتراجع عن آرائه، فرأيت من الأوفق أن أحوّل البحث إلى العاديات، فقلت له:

هل وجدتم شيئًا من العاديات والأصنام في هذه الخرائب؟

فأجاب: نحن الجنود لم نجد أصنامًا، بل بعضنا كانوا يجدون أفصاصًا كلما جاء سيل قوي وجرف بعض التراب من الخرائب، وأما الأهلون بالقديم فقد كانوا يحفرون في هذه الخرائب وفي التراب ويستخرجون أصنامًا ونحاسًا وحديدًا وأحجارًا مُكتّبة، ولكن جلالة الإمام منذ دخل هذه البلاد أمر بمنع الحفر فلا يجسر أحد الآن أن يحفر ولا أن يظهر شيئًا من العاديات لأن الحكومة تصادرها حالاً.

فقلت: حسنًا. وعدت أدراجي إلى دار الحكومة، ولما دخلتها دخل خلفي الخادم حسين البيحاني وقال: لدي أمر مهم أريد أن أطلعك عليه في خلوة.

فقلت: حسنًا. وأخذته وصعدت إلى غرفة النوم وسألته أن يقص عليَّ أمره.

فقال: كنت هذا الصباح ماشيًا في مدينة مأْرِب وإذ بامرأة تدعوني، فقلت لها: ماذا تريدين؟ فقالت: إنها تريد أن تكلمني في مسألة سرية.

فقلت: مرحبًا، فسارت أمامي وسرت خلفها إلى دارها فقالت لي: أَخبَرَني بعض خُبرتك (أي أصحابك) بأنك خادم المهندس.

فقلت لها: نعم، وماذا تريدين منه؟

فقالت: إنها تريد أن تقابلك وتسر لك مسألة مهمة.

فقلت لها: قولي لي وأنا أبلغه ما تريدين.

فرفضت، وقالت: هذا غير ممكن، إني أريد أن أكلمه بنفسي وفي هذا البيت أيضًا.

فقلت: هذا شيء لا يصير، والمهندس لا يجيء إلى هنا.

فقالت: بلّغه ذلك وأرجوه أن يحضر، والمسألة فيها فائدة كبيرة للجميع.

وها أنذا قد بلّغتك الرسالة وما أنا إلا رسول إليك، فإن شئت أن تذهب إليها فأنا رهن إشارتك، وإن شئت أن لا تذهب فالأمر أمرك.

فقلت: ناهي، أبقِ الأمر مكتومًا إلى الغد فسوف ننظر فيه.

ذهب البيحاني وكان المغرب قد أذن، فتوضأت ونزلت إلى المكتب فوجدت الرفاق قد انتهوا من القات والتخزين، فصلينا المغرب، ثم صلينا العشاء جماعة وتعشينا وجلسنا نطالع بعض الصحف التي كنت قد جلبتها معي ونتحدث في السياسة الدولية، ثم انضم إلينا بعض الموظفين كأمير المفرزة، واسمه علي إسماعيل من إب، والقاضي عبد الرحمن اليوسفي من الهجرة، وعلي بن حزام معلم الأولاد، وغيرهم. ودخل أيضًا علينا الجندي الذي رافقني بعد العصر وطلب إلي أن أقطر له في عينه فقطرت فيها، وقطرت أيضًا لأمير المفرزة وللقاضي عبد الرحمن، وكان كلاهما مصابًا بالرمد أيضًا، ومن الغريب أنهم جميعهم شفوا من قطرة واحدة، ويظهر أن السر في ذلك هو مناعتهم الطبيعية من جهة، وعدم استعمالهم للأدوية من جهة ثانية.

وعندما قدّم لي العامل القاضي عبد الرحمن اليوسفي قال: هذا الرجل من الهجرة، وكان الرجل الوحيد في هذا البلاد الذي يعرف القراءة والكتابة قبل دخول جلالة الإمام، وقد درس على أبيه.

فقلت: وماذا تعنون بأنه من الهجرة[1]؟

فقال: يعني هاجر من بلاده الأصلية وتوطّن في هذه البلاد، ودخل على أهلها فلا يُقاتِل ولا يُقاتَل، ويحترم البدو الهجرة كثيرًا ويتمثلون لإرشاداتهم، وفي أحيان كثيرة يتدخلون بين البدو وهم يقتتلون فيمنعون القتال ويصلحون بينهم.

فقلت: لا شك أن وجودهم رحمة، ويا حبذا لو كانوا كثيرين.

فقال القاضي: هم ولله الحمد كثيرون وموزعون بين العرب.

فقلت: وماذا يفعل القاضي في هذه الأيام ؟

فقال العامل: لقد وظفناه كاتبًا على الملح.

فقلت: وأين يقيم الآن؟

فقال: له بيت من القديم في البلد وهو قاطن فيه.

فقلت: وكم عدد سكان المدينة؟ لقد بلغني أنه نحو سبعمائة.

فقال: نعم، لا يزيدون على ذلك.

فقلت: وهل هم أصليون هنا؟

فقال: كلا، إنهم خليط من قبائل متعددة، وأكثرهم تجار ملح.

فقلت: وهل هم زيود أم شوافع؟

فقال: الأكثرية المطلقة من الشوافع، ولكن يوجد بينهم قليل من الزيود.

وأدركت أني قد أكون أكثرت في الأسئلة وأن القوم يريدون أن يتكلموا في بعض شؤون الحكومة الخاصة، وكانت الساعة قد بلغت نحو الثالثة، فاستأذنتهم في الانصراف للنوم وانصرفت. وفي الحقيقة كنت ناعسًا ومتعبًا فصعدت لغرفة النوم وكان أحد الخُدَّام يحمل لي المصباح، فما كدنا ندخل الغرفة حتى استيقظ الذباب من رقاده على نور المصباح، وأزعجني كثيرًا لأنه يهاجم الإنسان بكميات كبيرة، وكان في نيتي أن أكتب شيئًا من المذكرات قبل النوم ولكن الذباب حال دون ذلك، ففضلت أن أطفئ النور وأنام لأتخلص منه، فنفذّتُ هذه الفكرة ولكن النوم ابتعد عن عيوني

---

(1) سبق تعريف الهجرة والتهجير فيما سبق.

وصرت أفكر في مشاهدات هذا النهار وخاصة بالمرأة التي تريد أن تقابل المهندس مقابلة سرية خاصة في بيتها.

فكرت كثيرًا بأمرها لعلي أهتدي إلى حل لغزها فلم أتمكن، وخرجت عن دائرة العقل إلى دائرة الخيال ومرت بذهني ألوف من الأوهام، وفي جملتها أن الأشراف قد نصبوا لي هذه المكيدة ليبطشوا بي ويستريحوا مني لأنهم كما ذكرت سابقًا ما كانوا مسرورين من هذه الزيارة، وتوهمت أيضًا أن هذه حفيدة بلقيس وستهديني إلى كنوز بلقيس وعرشها، وجاءت هذه الأوهام مطابقة لأحلامي بالطريق، وأخيرًا استسلمت للنوم ولم أستيقظ من رقادي إلا عندما أخذ الجنود يتلون تسابيح الصبح، ونمت نومًا هادئًا مستريحًا لأن الله سبحانه وتعالى يبتلي ويعين، ففي الطريق كانت جيوش الكُتّان تهاجمنا وتحرمنا الرقاد، وأما في مأْرِب فلا وجود للكُتّان أبدًا، ولكن الذباب حل محل الكُتّان، فالحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

السر والكنز المخبوء

وبعد الصلاة نزلت إلى المكتب فلم أجد به أحدًا وكنت أول الواصلين، وبعد مدة أخذ الرفاق يتوافدون الواحد بعد الواحد، وأخيرًا جاء العامل، وبعد السلامات والتحيات في مثل هذه الأحوال سألني حضرته إلى أين أريد أن أذهب في هذا النهار.

فقلت له: إني أريد أن أبدأ في أبحاثي بصورة منتظمة وأمسك "الشموط" كما يقولون من رأسه ليهون حل العقد. والشموط هنا السد ومجاري المياه، لذلك أريد أن أبدأ العمل منه.

فقال: لك ما تريد، وأما أنا فالرجاء أن تقيلني من الخروج معك هذا النهار لأني أريد أن أنظر في شؤون الحكومة.

فقلت: حسنًا، وأمرت بجلب البغلة وحرسي الخاص الذي أوفده معي جلالة الإمام من صنعاء، وعندما أتوا خرجت من دار الحكومة وامتطيت البغلة وتوكلت على الله وسرت في طريق السد، وكنت أفكر في الطريقة التي يجب أن أتّبعها في هذا البحث كل مدة الطريق، وفي الحقيقة إني تحيّرت بادئ الأمر كثيرًا لأني كيفما سرت في هذه الأرض – وهي الأرض الواقعة على شمال السد والمتصلة بمدينة مأْرِب –

كنت أرى آثار بناء وخرائب ومجاري مياه، ومن البديهي أن هذه الأراضي هي المشار إليها في القرآن الكريم بالجنة الشمالية، فليس من المستغرب أن تكثر فيها الخرائب.

بحثت ساعات متعددة بين هذه المجاري والخرائب لأرى كيف توزعت وكيف تجري فلم ينفعني بحثي هنا شيئًا، وأخيرًا يمّمت وجهي شطر السد، وقبل أن أصل إليه بمسافة كيلومتر ونصف كيلومتر تقريبًا عثرت على المكان الذي كانت تجري المياه إليه من السد وتنقسم فيه. وكان هذا أول اكتشاف من اكتشافاتي المهمة، فبقيت طيلة نهاري ههنا أقيس مخارج المياه مخرجًا مخرجًا وأعيّن اتجاهاتها وأنقل النقوش الحميرية المكتوبة عليها. ولشدة فرحي أتى الظُهر ولم أشعر به وعرض عليَّ الشريف عبد الله وبعض الجند الطعام، فقلت: لست بحاجة إليه الآن، وواصلت العمل دون طعام أو شراب إلى العصر، فاحتجّ الجنود وقالوا أنهم عطشوا كثيرًا، فعدنا إلى المدينة مارين بطريقنا في منتصف الجنة الشمالية التي كانت تجري فيها الأنهار فتحييها. وقد ظهر لي أنه بعدما دهم سد العرم[1] هذه البلاد وتهدمت من أركانها، وحمل شيئًا كثيرًا من بناياتها وأحجارها إلى حيث لا يعلم مقرها غير الله، عاد فترك خلفه عندما كان يهبط بالتدريج طبقة سميكة من الطمي والتراب الدلفاني الناعم لا يقل سمكها عن المترين، ولكن لا يُستفاد منها في الوقت الحاضر، ولا يوجد فيها لا شجر ولا نبات لأن الله سبحانه وتعالى غضب على أهلها فحوّل جنتهم من جنة كانت تجري فيها الأنهار وفيها من كل فاكهة زوجان، إلى أرض بلقع لا ماء فيها ولا حياة، تنعق على أطلالها البوم والغربان.

سِرنا من مقاسم المياه إلى المدينة مسافة ساعة و45 دقيقة بين هذه الخرائب، وتمتد الجنة الشمالية إلى ما يلي مأرِب مسافة نحو 15 دقيقة، فيكون طولها مسافة مسير ساعتين أي نحو عشرة كيلومترات، وعَرضها مسير ساعة وربع ساعة، أي نحو خمسة كيلومترات، فتكون مساحتها نحو خمسين كيلومترًا مربعًا، ويليها إلى جهة الجنوب الجنة الثانية الواقعة على يمين السد، ومساحتها نحو ثلاثين كيلومترًا مربعًا، فتكون مساحة الجنتين نحو ثمانين كيلومترًا مربعًا.

وصلت إلى دار الحكومة وأنا منهوك من التعب والعطش والجوع، وثيابي ووجهي ورأسي امتلأت بالرمال، فغسلت وتوضأت وصليت، ثم تناولت الطعام،

---

(1) كذا في الأصل والصواب: سيل العرم.

ونزلت إلى المكتب فوجدت العامل وسائر الرفاق يدخنون المداعة ويخزنون القات، فسلمت عليهم وجلست بينهم وقتًا يسيرًا، ثم خرجت قبيل الغروب إلى المدينة واصطحبت معي واحدًا من الجنود والخادم حسين فقط، وقلت لحسين: هيا بنا فلنذهب إلى دار المرأة علّنا نكتشف سرًا مهمًا، وقد قيل في الأمثال الغربية "فتش عن المرأة فهي أصل كل بلاء"، وقد تكون أيضًا أصل بعض الخير، وعسى أن تكون صديقتنا هذه من الفئة الثانية لا الأولى.

قادني حسين إلى الدار، وعندما وصلنا إليها وجدت صاحبتها بالباب فسلمت عليها فردت السلام بأحسن منه، فمدّت يدها مصافحة، وهذه أول مرة أصادف امرأة باليمن تمد يدها إليّ بالسلام! فصافحتها. فقالت: أهلاً ومرحبًا، حيّا الله من قد جاء، هيا تفضل، وأما أنت يا حسين والعسكري فلا تدخلان وانتظرا عندكما لبينما يخرج المهندس.

احترت من هذه الجرأة وصرت أفكر ماذا يكون وراءها؟ ودخلت في أثر المرأة غير مبالٍ بشيء، ودخل خلفي غلام صغير لا يتجاوز سنّه العاشرة، ولما رأته المرأة نهرت فيه وقالت: هيا اخرج يا ولدي إلى عند العسكر، فامتثل الغلام الأمر وصعدَت هي أمامي في سلّم لولبي مظلم إلى الدور الثاني، فصعدت خلفها بصعوبة وكدت أقع مرارًا فأدركت مني ذلك ومسكتني بيدي وقادتني إلى الدور الثاني. وعندما وصلنا إليه قالت: "هوذا! ههنا، ههنا – وأشارت إلى غرف كثيرة صغيرة وكبيرة – نعم ههنا، ههنا الكنز!

فدهشتُ من كلامها وقلت: وأي كنز تعنين يا حرمة؟! وما شأني وشأن الكنوز في بيوت الناس؟

فقالت: لا. هذا البيت بيتي والكنز كنزي، ولا أريد أن يعلم به أحد!

فخطر لي أن هذه المرأة مصابة بمسّ بعقلها وأردت النزول من حيث أتيت، فحالت بيني وبين قصدي بلهجة المستغيث: أتوسل إليك أن لا تكسر بخاطري وأن تنبش لي مكان هذا الكنز.

فقلت: يا حرمة أنا لا أعرف شيئًا عن الكنوز وكفى، أفسحي لي الطريق ! دعيني أعود من حيث أتيت.

فقالت: لا، لا يمكن هذا، أنت تعرف أين الذهب موجود بالشم! هكذا يقول جميع الناس عندنا. واسمع ما أقول لك، كان زوجي رجلاً غنيًا كبيرًا يكنز المال والذهب، وقبل أن تدركه المنية أمرني وأمر جميع أهل البيت أن نخرج إلى الخارج، وأغلق جميع الأبواب وبقي بالبيت وحده، وقال: لا تأتوا إلا حينما أدعوكم، فامتثلنا لأمره لأننا كنا نخشى بأسه وشدته، ومع أنه كان على فراش المرض فبندقيته كانت إلى جانبه، لذلك اضطررنا أن نمتثل للأمر ونخرج، وكان الوقت قبل الظهر فأذّن الظهر ومضى وهو لم يدعنا، وصار العصر وانقضى ولم يدعنا، وأقبلت الشمس على المغيب ولم يدعنا، لذلك قرعنا الباب الخارجي فلم يجاوبنا، شددنا القرع كثيرًا فلم يأبه لنا، وأخيرًا قررنا أن نفتح الباب بالقوة، فعالجناه إلى أن كسرناه، ودخلنا وصعدنا إلى هذا الدور فوجدنا زوجي ممددًا على فراشه وقد مات، فقامت قيامتنا عليه، وفي اليوم التالي واريناه التراب وفتشنا على الذهب الذي كان عنده فلم نعثر عليه، فأدركنا أنه إنما أخرجنا من البيت حتى لا نراه وهو يخفي الذهب، والآن أرجوك أن تشم هذه الجدران وهذه الغرف وتخرج الكنز.

فأكدت لها أني لا أعرف أين يوجد الذهب، ولا أحد في الدنيا يمكنه أن يشم رائحة الذهب. فلم تصدقني وقالت: دين الله إني أعطيك نصفه، وأعطي بيت المال حقه. فأقسمت لها دين الله أني لا أعرف أين هذا الذهب مخبوء، ولو كنت أعرف أين مكانه لهديتها إليه حالاً، فاقتنعت في آخر الأمر بصدق كلامي ونزلت أمامي في السلّم وقادتني كما يقود الناس الأعمى. وما كدت أخرج من الدار حتى حمدت الله وشكرته الذي أنجاني من هذه الورطة، وقصصت القصة على حسين والجندي اللذين كانا ينتظراني بفروغ صبر، ولكن هما أيضًا لاماني على عملي وقالا: ما بش خوف ولو أنك أخرجت هذا الكنز لكنت استفدت وأفدت بيت المال، ولا شك أن جلالة الإمام كان يُسرّ لذلك كثيرًا، وعبثًا حاولت أن أفهمهما أنه ليس بوسعي أن أعرف أين الذهب موجود ولكنهما لم يصدقاني.

عدت إلى دار الحكومة مارًّا وسط مدينة مأْرِب وأنا أتعثر في ثياب الفشل وخيبة الأمل، وهزأت من نفسي عندما كنت بالطريق أفكر ببلقيس وعرشها وكنوزها، وأحلم بالليل أحلامًا غريبة عنها، وهاهي بدت لي في اليقظة حفيدة من أحفاد بلقيس ناهزت العقد الرابع من العمر تهديني إلى الكنز وتطلب إلي أن أكشفه

وأتقاسمه معها وكأني بها تريد أن تجرّبني وتمتحن مقدرتي وعلمي، ولكن خاب ظنها وظني، ولله درّ من قال:

"ما كل ما يتمنى المرء يدركه". وأخبرني الخادم حسين في الطريق أن هذه المرأة غنية، وغنية جدًا بالنسبة إلى أهل مأْرِب، ولها تجارة كبيرة وتتعاطاها بنفسها ولا تعتمد على أحد، وقد دفعَت هذه السنة عشورًا (أي عُشرًا) على أموالها وتجارتها ألف ريال إلى بيت المال، وهذا مبلغ جسيم بالنسبة إلى حالة هذا البلاد وثروتها، ولكن بالرغم من هذا الغنى فهي بخيلة ومقترة على نفسها وأولادها، وأراد الكثيرون أن يتزوجوا منها بعد وفاة زوجها فرفضت. وقد أدركتُ من بخل هذه المرأة شدة حرصها لاكتشاف كنز زوجها، فالغني لا يشبع من طلب المال، وقد قيل في الأمثال: "منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب مال" وهذا القول يصح تمامًا على هذه المرأة البخيلة.

عندما وصلت إلى الدار ودخلت على العامل والأصدقاء بالمكتب سألني العامل: كيف كانت (دورتك)؟ فقصصت عليه حكايتي مع هذه المرأة من أولها إلى آخرها فضحك وضحك القوم ضحكًا شديدًا وهنئوني بهذا الفتح العظيم، ولما كان وقت صلاة المغرب قد حان توضأنا وصلينا، وتعشينا وسهرنا إلى ساعة متأخرة من الليل نبحث أبحاثًا مختلفة، وفي الحقيقة أني لم أشعر بالغربة أو الملل بين هؤلاء السادة الأكارم، وكانوا جميعهم يسعون جهدهم لتسليتي وإرضائي وإكرامي، وإني أسجل لهم ههنا مزيد من الشكر والمنة.

وكنت حسب العادة أول من انسحب من المكتب وصعدت للنوم، فقضيت ليلتي على أحسن حال، وفي الصباح نهضت قبل التسابيح فتوضأت ثم صليت، ونزلت إلى المكتب وكنت أول الواصلين إليه فشربت الشاهي وإذا بالرفاق يتوافدون الواحد بعد الواحد، وجاء العامل اليوم في أول الجميع وسألني أين أريد أن أذهب؟

فقلت: إلى السد، لأني ما أتممت البحث يوم أمس ولا أظن أنه بوسعي أن أتمّه في عدة أيام.

فقال: البيت بيتك، والأهل أهلك، والأرض أرضك، والديار ديارك، فافعل ما بدا لك. فشكرته كثيرًا وطلبت إعداد البغلة والحرس، ولما أتوا خرجت خارج دار

الحكومة وإذا بالشريف عبد الله بن حسين رفيقي ودليلي بالأمس قد حضر لأني أخبرته مقدمًا بأني سأخرج هذا النهار إلى السد ثانية.

سرنا على بركة الله، وكان الملل يعرو الحرس الذي جاء معي من صنعاء، فأخذوا يتساءلون عن يوم عودتنا، فبعضهم كان يقول بعد العيد، والبعض يقول لا، قبل العيد لكي نلحق العيد في صنعاء ونبتاع كباشًا للتضحية ولباسًا للعيال، وكان هذا الكلام موجهًا لي إلا أني تجاهلت ولم أجب لأني ما كنت أعلم في الحقيقة متى سنعود، ثم سأل الواحد منهم الآخر كم اليوم بالشهر العربي — وكنا في اليوم الرابع من شهر شباط سنة 1936 –، فأجابه لا أعلم، لكننا خرجنا من صنعاء في تشرين، وقال للآخر: لا، بل في كانون أول. وأجاب ثالث: لا في كانون الثاني، ووقع بينهم خلاف كبير على الشهر. فقال رابع: لماذا هذا الاختلاف؟ لا فرق كبير بينكم، شهر طالع أو شهر نازل (سع) أي مثل بعض.

لم أتمالك من الضحك عندما سمعت هذه النتيجة اللطيفة، ولكن في الحق أن الجندي الأخير نطق بالصواب، فشهر طالع أو شهر نازل لا قيمة له في اليمن أبدًا، لأن الوقت ليس نقدًا عندهم كما هو عند جميع الأمم.

وفي أثناء الطريق كان بعض الجنود ينادونني "يا عمي" والبعض الآخر "يا أبي". ضحكت جدًا من هذا الأمر وأدركت بأن علامات الكبر قد بدت عليّ، ومن البديهي أن الإنسان لا يرغب أن تظهر عليه علامات الشيخوخة، ولكن الحمد لله وحده، وسبحانه في ملكه، فلا يبقى على ما هو إلا هو.

وبينما نحن سائرون على هذا المنوال وإذا بالشريف عبد الله بن حسين — وهو الذي اختار نفسه كدليلي ورفيقي — يدنو مني ويقول: كيف وجدت بلادنا؟

فقلت: لا شك أنها كانت بلادًا جميلة.

فقال: نعم هي جميلة ومتسعة، ولا يعرف عنها أحد شيئًا، ولم يدخلها أجنبي غير رجل واحد نصراني جلبه سِيدي (أي جده) من صنعاء أيام الترك بعهدته وكفالته ليزور هذه البلاد، ولكن العرب ما كانوا راضين عن هذه الزيارة، وكاد يقع بينهم وبين الأشراف ما لا تُحمد عقباه لأنهم أرادوا أن يقتلوه وهو ضيفنا، وهذا عيب كبير عند العرب، فلو قُتلنا عن آخرنا لا نسمح لأيٍّ كان أن يمس ضيفنا ما دام فينا رمق من الحياة.

فقلت: وما اسم هذا الرجل؟

فقال: (كلازر[1]).

فقلت: وهل بقي عندكم مدة طويلة؟

فقال: نعم، بقي نحو شهر من الزمن، ولكنه ما تمكن أن يخرج إلا قليلاً، وكانوا يلبسونه ثيابًا عربية.

فقلت: وكيف تمكنوا من إعادته إلى صنعاء؟

فقال: أخرجوه في الليل خفية، وسارت معه فرسان كثيرون و"رجاجيل" متعددون منّا يا الأشراف.

فقلت: بارك الله فيكم. وغيرت هذا الحديث وسألته بعض الأسئلة عن السد ومقاسم المياه، فلم يجبني عليها بل أخذ يخبرني بأن جميع هذه البلاد والأراضي التي تليها كلها مُلك للأشراف، وقد أذن جدودهم إلى البدو أن يدخلوها ويرعوا فيها، وما كانت هذه الأمور تهمني، وكنت أحتال عليه فأحوله عنها وأسأله بعض الأسئلة التي تهمني، فكان لا يقدر أن يجيب عليها جوابًا صحيحًا، وفي الحق أنه رجل ثرثار لا يهمه شيء إلا الكلام عن نفسه وعن حروبه مع إخوته وأبناء عمه وانضمام قبيلة عبيدة إلى أبناء عمه ومحاربتها له ولمن بقي مواليًا له من الأشراف. وقد تضايقت كثيرًا من هذه الأحاديث ولكنني كنت مضطرًا أن أصغي إليه وألاطفه وأجامله وأتظاهر بأني مسرور من حديثه.

وأخيرًا وصلنا إلى مقاسم المياه وأتممت المقاييس، ونسخت بقية النقوش، ثم سرنا في مجرى الماء إلى أن وصلنا إلى مخرجه في السد، وقد خصصّت فصلاً بذلك سيجيء ذكره فيما بعد، وقضيت كل هذا النهار هنا كالأمس وأنا أنسخ النقوش وأهتم بأخذ المقاييس.

وفي المساء عدنا إلى الدار بعد أن أنهكنا التعب، وحسب العادة قضينا السهرة في المكتب، وجاء لزيارة العامل الشيخ علي بن حسين البحري شيخ مشايخ بلاد الجوبة الواقعة لغرب مأرِب، وعندما رآني استل خنجره وأراد قتلي قائلاً: من هذا الغريب؟ وماذا يفعل ههنا؟ إننا لا نسمح للغرباء بالقدوم إلى بلادنا!!

---

(1) هو إدورد جلازر Edward Glaser، سبق التعريف به.

فأفهمه شقيق العامل من أنا ولاطفه كثيرًا، وأخذ يتحدث إليه أحاديث كثيرة إلى أن هدأ روعه، فكلمته بدوري وآنسته كثيرًا وقدمت له بعض الحلوى فأكل منها، ولكنها لم ترضه وقال: "هذا عَوف! عَوف! (أي رديء) ونحن لا نأكل غير اللحم اللحم.

فقلت: حسنًا جدًا. وتمكّنت بعد ذلك الصداقة بيننا وصورته، وفي الصباح نزلت مبكرًا إلى المكتب، وجاءني السيد أحمد وقال: أين تريد أن تذهب هذا النهار؟

فقلت: إلى السد أيضًا، وأريد أن أصعد إلى رأس جبل (بلق) لأقيس علوه.

فقال: وأنا خبيرك اليوم (أي رفيقك).

فقلت: حسنًا جدًا. وبعد هنيهة خرجنا بطريقنا إلى السد، وكان السيد أحمد يركب حمارا كثير النهيق فأخذ يزعجنا بالطريق بصوته المنكر، ولما كان السيد أحمد من أصحاب النكات اللطيفة ابتدأ يصرف لنا نكتًا كثيرة، وفي جملتها قال: ألا يوجد دواء للنهيق[1]؟

فقلت: لا أعلم.

ثم سألته إذا كان متزوجًا؟

فقال: الحمد لله لست متزوجًا لأني لا أملك المهر، ولو ملكت المهر لما تزوجت أيضًا لأن النساء طلباتهن كثيرة ولا حدّ لها، وأنا ليس بوسعي أن أقوم بها، ولكن لو وجدت لي زوجة صغيرة مثل الساعة أضعها في جيبي فأخرجها عند الحاجة وأعيدها إلى مكانها بعد قضاء الحاجة لما تأخرت عن هذا الزواج.

فقلت: لا بد أن الكثيرين يشاركونك في هذا الرأي خارج اليمن، وأما في اليمن لا أظن أحدًا يشاركك فيه لأن الرجل يتزوج بامرأتين أو ثلاث أو أربع، فلا يمكنه أن يرضى بواحدة.

فقال: صحيح صحيح. وسمع السيد أحمد واحدا من الجنود يسأل صاحبه: ماذا وجدتم أمس بتنقيبكم في مأرِب؟ عساكم وجدتم ذهبًا أو أفصاصًا؟

---

(1) قلت: نعم يوجد علاج لنهيق الحمير المزعج، فقد كان التجار يصطحبون معهم قارورة من زيت الخردل فإذا أزعجهم أحد الحمير بنهيقه طلوا دبره من ذلك الزيت فلا يقدر الحمار بعد ذلك على النهيق.

فأجاب: كلا لم نعثر على شيء؟

فأجاب ثالث: لا، عثروا على أشياء كثيرة، وإن شاء الله سوف لا نعود من مأرِب إلا وجيوبنا ملأى بالذهب.

فأجابه السيد أحمد: لا بالله، بالكُتّان (أي البق). فضحكنا كثيراً كل الطريق على هذا المنوال.

وعندما وصلتُ إلى السد أخرجت درجة الارتفاع (العلو) من جيبي لأسجل منها الارتفاع ثم نصعد إلى الجبل لأخذ ارتفاعه، ولكن مع الأسف وجدتها تكسّرت فأسفت لذلك أسفًا كثيرًا، ولكني في الوقع نفسه سررت لأنها لم تنكسر قبل وصولنا لمأْرِب.

اضطررنا بعد هذه الكارثة أن نغض الطرف عن الصعود إلى الجبل، وذهبنا هذه المرة إلى مخرج الماء في الجهة الجنوبية، فأخذت المقاييس ونسخت الكتابات الحميرية التي وجدتها، وهي ههنا قليلة بالنسبة إلى مخرج الماء في الجهة الشمالية، ثم بذلت جهدي في تتبع مجرى الماء من السد إلى الجنة اليمنى، وبعد مشقة طويلة تمكنت من إيجاد بعض الآثار الطفيفة التي استدللنا منها على مجرى المياه، ولكن مع الأسف لم نجد في هذه الجهة المقاسم كما وجدناها في الجهة الشمالية، ولكننا وجدنا المجاري بعدما تقسمت، ورأينا مكانًا متّسِعًا بين السد وهذه المجاري وقد خربه السد تخريبًا عظيما فقلب سافله أعلاه، وفي نظري أن هذا المكان كان محل تقسيم المياه، وقد تتبعنا هذه المجاري إلى مسافة بعيدة فوجدناها تصل إلى قرية يقال لها (مِرْوِث)، ويجتازها إلى الجنوب لمسافة طويلة، وشاهدنا ههنا أيضًا آثار البساتين والحدائق القديمة، وفي ظني أن مِرْوِث هي الجنة التي عن يمين السد والتي جاء ذكرها في القرآن الكريم، ومأْرِب هي الجنة اليسرى، وقد جاء في سورة سبأ:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾

وأطلال هذه المدينة البادية للعيان لهذا التاريخ يسيرة، ولكن لا شك أنها كانت مدينة كبيرة، ويُستدل على ذلك من كمية المياه التي تأتيها، ومن الرمال التي ذرتها الرياح عليها فغطتها، وقد خصَّصْتُ لهذا بحثًا مطولاً سيأتي ذكره فيما بعد.

قضيت عدة أيام في مدينة مأْرِب في ضيافة العامل، وكنت كل يوم أخرج إلى السد أو إلى أطلال مِرْوِث باحثًا مدققًا، وفي هذه الأثناء أصبت بمرض "الدوسنطاريا" ولا زمت الفراش نحو خمسة أيام ذقت خلالها الموت أشكالاً وألوانًا في بلدة لا طبيب فيها ولا دواء، ولكني كنت من باب الحيطة أحمل معي بضع "امبولات" (إبر) من الأمتين، فاضطررت أن أطبّب نفسي بنفسي وأعمل الإبر بيدي، وقد بدأ التحسين يظهر عليّ منذ حقنت بالإبرة الثانية، وفي اليوم الخامس تنفست الصعداء وتخلصت من هذا الداء الفتّاك فحمدتُ الله كثيرًا. وبعدما تحسنت صحتي غادرت مأْرِب عائدًا إلى صنعاء عن طريق خولان.

وبعد وصولي إلى مأْرِب أرسلت لحضرة صاحب الجلالة الإمام كتابًا مقتضبًا ذكرت لجلالته فيه شيئًا عن رحلتي وعن اجتماعاتي بشيوخ البدو وكلامي معهم وخطبي فيهم، فأتاني جواب من جلالته، نصفه الأول من خط العلامة الكبير القاضي عبد الكريم المطهّر —الكاتب الأول في الديوان الملكي–، ونصفه الثاني من خط يد جلالة الإمام بالذات، وإني أثبته هاهنا بـ"الزكنوغراف" كما أثبت صورة بعض الغلافات التي أرسلتها من مأْرِب:

وإلى القارئ الكريم حكايتها: لما كان لا يوجد مصلحة بريد في مأْرِب كتبت بعض الرسائل (وفي جملتها رسالة لصاحب الجلالة المرحوم الملك فؤاد الأول، وأرسلتها لجلالته بواسطة كبير الأمناء) ووضعت عليها طوابع بريد يمنية وأرسلتها إلى صنعاء مع نجاب خاص وضعها في دائرة البريد، وقد كتب عامل مأْرِب على الطوابع ما يلي: "لعدم وجود شعبة بريد بمأْرِب صار إرساله (أي الكتاب) مع نجاب ليضعه ببريد صنعاء"

20 ذي القعدة سنة 1354

وأخذت من صاحب السعادة – سعيد ذو الفقار باشا — جوابًا على هذه الرسالة وأنا بصنعاء، وإليك نصه: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد. فقد رفعت إلى المسامع العلية الملكية ما تضمنته رسالتكم التي بعثتم بها من مأْرِب في 18 ذي القعدة مع طوابع البريد الملصقة على غلاف تلك الرسالة فكان لذلك جميل الأثر وحسن القبول لدى حضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المعظم، وإني أتشرف بإبلاغ ذلك إلى حضرتكم مع الشكر السامي".

"يَثَع أَمر باينْ بن اسموعة ينوف حاكم سبأ ثقب الحجر الرخامي في حوض حَبابِض في الجهة الشمالية" (ترجم لي هذه العبارة الدكتور (غلوبز) في برلين، وهو من المستشرقين الواقفين على اللغة الحميرية).

والآن أعود إلى مخرج الماء في الجهة الجنوبية فأقول: إن جدار هذا المخرج مبني من الحجارة البركانية الكبيرة المنحوتة نحتًا جميلاً، وفي نفس العبّارة بلغ طول بعض الحجارة مترين وربع متر، وبغلة العبّارة المشار إليها مبنية بشكل مستغرب، فبعض أحجارها متداخل بعضها في بعض كما يدخل المفتاح في القفل، والبناء متقن إلى حد بعيد ولا يمكن للمرء أن يُدخل بين الحجر والحجر إبرة. ويظهر أنهم كانوا يستعملون في البناء مادة تشبه السمنت تُضع بين الأحجار[1].

والغريب في أمر هذا البناء أنه لا يزال قائمًا إلى هذا اليوم كما كان قبل ألوف السنين حتى كأن البنّائين لم يخرجوا منه إلا منذ بضعة أيام لا منذ بضعة ألوف من السنين!. وقد رأيت في الأحجار المبنية منها أرض العبّارة ثقوبًا كبيرة يظهر لي أنها مكان عمدان حديدية كانت تستعمل كباب متحرك يُفتح ويُغلق بحسب الحاجة إلى المياه.

وتسيل المياه من هذه العبّارة أو المخرج في مسيل خاص بُني في جانب جبل بلق الأيمن إلا أن السيول جرفته أيضًا، غير أني تمكنت بصعوبة زائدة وببذل وقت طويل من تتبع هذا المجرى إلى مسافة يسيرة من العبّارة، ثم غاب عن نظري مرة واحدة، ولكني تتبعت الجهة التي كان يسيل في اتجاهها إلى أن وجدته ثانية بعد أن تقسّم إلى ستة مجارٍ، وأما المكان الذي تقسم فيه هذا التقسيم فغير ظاهر للعيان لأن السيل قد جرفه. وتسيل هذه المجاري الستة متوازية نحو الجنوب والجنوب الشرقي، ويوجد هاهنا — أي على مسافة ساعة وربع من مأْرِب إلى الجنوب الغربي — آثار خرائب مدينة صغيرة يقولون لها (مِرْوِث) وتمتد هذه الخرائب من مِرْوِث إلى مسافة بعيدة في الجهة الجنوبية، ويقولون إنه كان يوجد بالقرب من هذه المدينة وإلى جنوبها مدينة كبيرة يطلقون عليها اسم (مدينة النحاس)، وقد طغت عليها الرمال فغطتها، وإني أعتقد بأن هذا القول صحيح لأني شاهدت مجاري المياه الستة المارّ ذكرها تسيل إلى تلك الجهة، ولا شك أنه كان يوجد هنا حقول وبساتين كثيرة لأن هذه هي

(1) هي مادة القضاض، سبق شرحها في الجزء الأول من الرحلة.

الجهة اليمنى. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾. والذي يحملني على الاعتقاد بوجود مدينة كبيرة في هذه الجهات أمران: أولهما هذه الآية، وثانيهما المياه التي تأتي إلى هذه الجهة، فجميع المياه التي تخرج من العبّارة الجنوبية (واتساع هذه العبّارة 455 سنتيمترًا) تأتي إلى هذه الجهة ومجاريها كما ذكرت لا تزال بادية للعيان إلى يومنا هذا، ومن البديهي أن لا تسيل هذه الكمية العظيمة من الماء إلا إلى مدن ومزروعات، وعليه فإني أعتقد اعتقادًا جازمًا بوجود مدينة كبيرة في هذه الجهة، قد تكون مِرْوِث، وقد تكون مدينة النحاس، أو كلتاهما والله أعلم.

ويظهر تأثير سيل العرم في هذه الجهة بشكل يدهش الأنظار، فبعد أن جرف الأراضي الزراعية الأصلية والمباني وكثيرًا من مجاري المياه عاد فترك خلفه طبقات عظيمة من الرواسب الرملية والترابية تبدو في بعض الأماكن بالقرب من جبل بلق الأيمن كالشعاب والتلال. ومما زاد الطين بلّة أنه بعد تدمير هذه البلاد بالسيول طغت الرمال عليها وغطت قسمًا كبيرًا منها. ويكثر في هذه البلاد الأعاصير والزوابع فتحمل الرمل من مسافات قريبة وتذريه في كل مكان، ولكن بالرغم من ذلك كله فلا تزال بعض الخرائب الحميرية بادية للعيان هنا وهناك بشكل يسترعي النظر ويثبت الاعتقاد الجازم بوجود مدينة أو أكثر في هذه الجهة.

أما اتساع هذه الجنة – أي طولها من الغرب إلى الشرق باستقامة مدينة مأْرِب– فيبلغ نحو ساعة وربع ساعة (أي ستة كيلو مترات تقريبًا)، وعرضها من الجنوب إلى الشمال نحو ساعة (أي خمسة كيلومترات)، فتكون مساحتها نحو 30 كيلومترًا مربعًا، وهذه الجنة تبدو اليوم للباحث أصغر من الجنة الشمالية لأن الرمال كما ذكرت سابقًا قد طغت عليها من الجهة الجنوبية، ولم يبق في وسع المرء أن يحدد المكان الحقيقي الذي كانت تمتد إليه في هذه الجهة، ولذلك فتقديري للمساحة هو نسبي، ولكن يجب أن لا يغرب عن بالنا في الوقت نفسه أن كمية الماء التي تسيل إلى هذه الجنة هي أقل بكثير من كمية الماء التي تسيل إلى الجهة الشمالية، وهذا مما يعزّز النظرية السابقة بأن هذه الجنة هي أصغر من الجنة الشمالية.

وفي الوقت الحاضر يوجد بسائلة ذنة مما يلي السد إلى حدود مأْرِب – أي ضمن الجنتين– أشجار كثيرة من الأثل، ولا يوجد بينها إلا شيء يسير جدًا من

السدر، يعني لا يوجد إلا سدرة واحدة بين الألف أثلة، وهذا مصداق لما جاء في الآية الكريمة بسورة سبأ:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۞ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

وقد شاهدت أيضًا الخمط وهو ينموا نموًّا جيدًا حول مأْرِب وفي الأراضي الواقعة بينها وبين عرش بلقيس، ويطلق عليه أيضًا اسم (الأراك) ويصنعون منه السواك، وله ثمر أحمر يأكله الناس ويشبه حب العدس الصغير الأحمر وطعمه حلو. والخمط تأكله الماعز والغنم والجمال.

وقد شاهدت في سائلة ذنة بالجهة الشرقية على بُعد ثلاثمائة متر تقريبًا من عبّارة الماء الجنوبية أساس بناء قديم مربع، ويُخيّل لي أنه كان مسكنا لحراس سد الماء، ويدعونهم ههنا إلى هذا اليوم (حوامي) الماء، أي حُماته، ويروون عنهم قصصًا غريبة، وفي جملتها أنهم كانوا ينتشرون من السد إلى حضرموت بصورة دوريات وحراس، وكانوا ينقلون الأخبار بسرعة زائدة وذلك بأن ينادي الحارس الواحد على الآخر ويقول له بلّغ فلانًا ما هو كذا وكذا. وقيل -والله أعلم-: أن زوج أحد الملوك ولدت له مولودًا في المساء بمأْرِب بينما كان هو بحضرموت، فلم يصبح الصباح إلا [وقد] علم بولادة زوجه، وذلك عن طريق حوامي الماء الذين نقلوا الخبر في ليلة واحدة رغم أن المسافة بين مأْرِب وحضرموت تبلغ نحو خمسة أيام.

ويوجد بالقرب من خرائب مِرْوِث بعض الحصون الجديدة بناها العرب والشرفاء من أهل مأْرِب لسكناهم، وهم يغرسون حولها إلى جانب السائلة الذرة والشعير والحنطة والجلجلان، ومن العجب العُجاب أن هذه المزروعات تنموا نموًّا عظيمًا إذا شربت ولو مرة واحدة، وذلك من ماء السيل لا من ماء المطر، لأن الأمطار في هذه البلاد لا تهطل إلا نادرًا، وإن هطلت فكميتها يسيرة جدًا، ولذلك يعول الأهلون في زراعتهم على السيل، فإذا جاءهم السيل غرسوا ما أمكنهم غرسه من الأراضي التي حولهم، ولا توجد لديهم أدوات زراعية، وقد رأيت سكّة الحراثة التي يحرثون بها الأرض وهي لا تزيد على بضعة سنتيمترات، وبالرغم من هذا كله يحصدون زرعًا

جيدًا، وقد رأيت شعيرهم أبيض ناصعًا، وهو يشبه حبة الصنوبر بحجمه، وكثيرًا ما يحصدون من غرس واحد موسمين أو أكثر وذلك بنسبة السيول.

وبديهي والحالة هذه أن الحميريين كانوا يجنون فائدة عظيمة من سدّهم، وهو في الحق ليس خزانًا فقط، بل هو أيضًا وسيلة لرفع مستوى المياه في وادي ذنة، أي مستوى الأراضي التي كان يسقيها، وهي أعلى من مجرى السائلة الأصلي في مربط الدِم بنحو تسعة أمتار وسيظهر ذلك للقارئ الكريم بوضوح عند منتهى السد في الجهة الشمالية. وهذه الأراضي تصلح لغرس كل شيء من نبات وشجر مثمر وغير مثمر، وقد رأيت الجند في مأرِب غرسوا بالقرب من بئرها في حديقة صغيرة بسباسًا (فليفلة) وقشمي (فجل) وريحانًا، فنما البسباس كالشجر لا كالنبات، وبلغ طول الواحدة نحو متر تقريبًا، وكذلك الأمر بالريحان والقشمي فقد كان نموها عجيبًا، ولا شك عندي بأن هذه الأراضي تصلح لغرس جميع الأشجار المثمرة وغير المثمرة متى توفر الماء لها، وذلك لأن إقليمها معتدل يميل إلى الحرارة والجفاف أكثر مما يميل إلى البرد والرطوبة، وتعلوا هذه الأراضي عن سطح البحر 1300 متر، وهي أوطأ من صنعاء بمقدار 1155 مترًا.

أما السد بالجهة الشمالية (أي القبليّة) فظاهر للعيان أكثر منه في الجهة الجنوبية، وبعض بقاياه لا تزال واقفة إلى هذا اليوم كأنها مبنية من عهد قريب، وهي كناية عن قطعتين من السد الأصلي وجدارين عظيمين متقاطعين في منتهاه بالجهة الشمالية، وطول القطعة الأولى منهما 35 مترًا، وطول الثانية 20 مترًا، وهما مبنيتان من الحجارة البركانية السوداء والبيضاء الصغيرة (دبش)، لا على زاوية قائمة من الأرض بل على زاوية منفرجة، وبناؤهما مائلاً لا قائماً، ولذلك يبدو السد كأنه تل صغير لا كأنه جدار كبير، وفي الظاهر أنهم بنوه على هذا الشكل لكي يتحمل ضغط الماء أكثر فأكثر، والأغرب من ذلك كله أن هذه الحجارة البركانية الصغيرة (أي الدبش) المبني منها هذا السد العظيم مرصوفة رصفًا كرصف أرض الحدائق عندنا لا مبنية بناء، وهي تشبه في تركيبها ما يسمونه اليوم بالـ(كونكريت) الذي يضعونه في أسس البنايات الحديثة الضخمة، ولكن الأوليّن عوضًا من أن يستعملوا الحصى في (كونكريتهم) استعملوا الحجارة الصغيرة التي يبلغ حجم الواحدة منها حجم جمجمة الإنسان. وقد بذلت جهدي لأرفع حجرًا واحدًا من هذه الأحجار فلم أتمكن لأنها أصبحت جميعها قطعة واحدة (كالبيتون) المصبوب صبًا فنيًا، ويظهر أنهم قد

استعملوا في رصفها على هذا الشكل نوعًا غريبًا من أنواع السمنت الذي كان معروفًا عندهم.

ويقوم إلى جانب هاتين القطعتين الباقيتين من السد بناء حجري ضخم منحوت نحتًا جميلا، وهو كناية عن جدارين متقاطعين، الأول منهما عضادة ضخمة فيها عبّارتان (أي مخرجان للماء) قائمتان الواحدة إلى جانب الأخرى، ويفصل بينهما جدار صغير (أي بغلة) عرضها أربعة أمتار وربع متر. وعرض العبّارة الأولى ثلاثة أمتار، وعرض العبّارة الثانية ثلاثة أمتار ونصف متر. وتعلو هاتان العبّارتان عن مجرى الماء في سائلة السد تسعة أمتار، وقد استرعى نظري في العبّارة الثانية نقش حميري غريب هو كناية عن أربعة حروف كبيرة نافرة نُقشت في جدار العبّارة الأيمن، وإلى القارئ صورته:

أما الجداران المتقاطعان فكلاهما مبني من الحجر البركاني الكبير المنحوت نحتًا متقنًا، والجدار الأول الذي فيه العبّارتان بيضاوي الشكل تقريبًا، وقطره من آخر السد حتى العبّارة الأولى يبلغ 32 مترًا، وهو ممتد من الجنوب إلى الشمال، وسمكه يختلف في بعض الأماكن عن بعضها، وقد بلغَت في بعض الجهات عشرون مترًا.

والجدار الثاني الذي يعارض هذا الجدار يمتد من الغرب إلى الشرق، وطوله 145 مترًا، وبناؤه كبناء الجدار الأول من الحجر البركاني الكبير المنحوت، وينتهي هذا الجدار بجبل بلق غرب العبّارات، وطوله من عبّارة السد إلى الجبل 60 مترًا، وطوله من عبّارة السد إلى أوله في الجهة الشرقية 85 مترًا، وقد شاهدت في قسمه الغربي بعض مجاري الماء وبعض الثقوب المستديرة، ويظهر أنها كانت الأماكن التي تُوضع فيها الأبواب المتحركة لكي تنظم كمية الماء التي يجب أن تدخل في العبّارتين، وعدد هذه الأبواب ستة. ويقوم الباب الأول على زاوية قائمة من عبّارة السد الثانية وعلى مسافة قريبة منها وعرضه 115 سنتيمترًا. والباب الثاني: وعرضه 640 سنتيمترًا. والثالث: 120 سنتيمترًا. والرابع: عرضه 295 سنتيمترًا. والخامس: 342 سنتيمترًا. والسادس: 530 سنتيمترًا.

وتسيل المياه من هذه الأبواب إلى الجهة الشمالية (أي القبليّة)، ولا يوجد بقايا لسائلاتها ولا آثار في الأراضي التي كانت تسقيها لأن سيل العرم قد جرف هذه الأراضي إلى حيث لا يعلم مقرّها إلا الله، ولا يظهر في هذه الجهة أيضًا شيء من

الخرائب الحميرية بل بالعكس تظهر آثار السيول وقد تركت خلفها آكامًا من الرواسب هنا وهنالك. وقد طغى السيل إلى مسافة بعيدة عن السد في أرض جبلية بركانية، وبعد انخفاضه ترك خلفه في هذه الأراضي البركانية السوداء تلالاً كبيرة من الرمل والتراب الأصفر الذي يظهر للباحث من مسافات بعيدة.

ويتبادر إلى ذهني أن أهل سبأ كانوا عندما تشتد السيول أيام المطر وتطغى المياه على السد بكميات كبيرة كانوا يفتحون جميع الأبواب أو بعضها وذلك بنسبة كمية المياه، فتسيل المياه المتراكمة إلى الجهة الشمالية ويخف الضغط عن السد وعن العبّارتين الأصليتين، وبديهي أن هذه الأبواب المتحركة لم تصنع إلا لتصريف المياه الزائدة لا للري لأن المياه اللازمة لري الجنة الشمالية تخرج من العبّارتين المبنيتين على زاوية قائمة من هذه الأبواب وتسيل في سائلة خاصة إلى الجهة الشرقية حيث توجد الجنة الشمالية، وعرض هذه السائلة خلف العبّارتين 28 مترًا ونصف متر، وعلوّها بالميل تسعة أمتار، وعلوّها القائم 780 سنتيمترًا. وبعد أن تجتاز هذه السائلة مسافة 100 متر تقريبًا تضيق فيصبح عرضها 14 مترًا في سطحها، وهي مبنية أيضًا على نفس طريقة السد من الأحجار البركانية الصغيرة المرصوفة رصفًا متينًا، وجداراها مائلان، وقد بلغت عرض المسافة من أعلى نقطة في الجدار الواحد إلى أعلى نقطة في الجدار الثاني 18 مترًا، أي أن عرض السائلة ليس متساويًا في مجراها وفي أعلاها، وذلك بديهي لأن الجدارين، كما قلت سابقًا، مبنيان بناءً مائلاً لا قائمًا، وقد بلغ هذا الميل في كل جدار مترين.

وتجري هذه السائلة إلى مسافة 1165 مترًا من السد شرقًا حيث تقسم تقسيمًا فنيًا جميلاً في مقاسيم خاصة تسيل سبعة منها إلى الشرق والشرق الجنوبي، وسبعة تسيل إلى الشمال، وعدد مجهول يسيل إلى الجنوب، ولم أتمكن من اكتشافه كاملاً لأن السيل خرّبه وترك جزءًا منه هنا وهنالك، وإليك بيانها بالترتيب مبتدئًا من الجنوب إلى الشمال:

المجرى الأول: يسيل إلى الجنوب الشرقي، وعرضه 7 أمتار ونصف متر، وعلو مجراه عن الأرض ثلاثة أمتار و30 سنتيمترًا، وعرض الجدار بينه وبين المجرى الثاني 110 سنتيمترات. وأظن أن هذا المجرى يصل إلى عرش بلقيس.

المجرى الثاني: يسيل إلى الشرق بانحراف جزئي إلى الجنوب، وعرضه 375 سنتيمترًا، وارتفاعه 4 أمتار، وعرض الجدار بينه وبين المجرى الثالث 145 سنتيمترًا.

المجرى الثالث: ويسيل إلى الشرق، وعرضه 145 سنتيمترًا، وارتفاعه متران، وعرض الجدار بينه وبين المجرى الرابع 105 سنتيمترات.

المجرى الرابع: عرضه 315 سنتيمترًا، وجدرانه متهدمة.

المجرى الخامس: عرضه ثلاثة أمتار، وعرض الجدار بينه وبين المجرى السادس 245 سنتيمترًا، وهو مبنيّ من الحجر البركاني الضخم. وبعد هذا المجرى توجد عضادة قوية مبنية من الحجارة الكبيرة وعرضها 612 سنتيمترًا.

المجرى السادس: وعرضه 295 سنتيمترًا، ويسيل شرقًا، وعرض الجدار القائم بينه وبين المجرى السابع 350 سنتيمترًا.

والمجرى السابع: وعرضه 320 سنتيمترًا، ويسيل شرقًا.

وإلى جانب هذه المجاري الشرقية يوجد مجارٍ شمالية (أي قِبلية) مبنية على زاوية قائمة من المجرى الشرقي السابع، وعددها أيضًا سبعة مجارٍ وإليك بيانها بالترتيب:

المجرى الأول: وعرضه 245 سنتيمترًا، وبُنيت إلى جانبه للغرب عضادة قوية جدًا وعرضها 19 مترًا، وارتفاعها في الوقت الحاضر ثلاثة أمتار، ولكن أساساتها مردومة بالرمال، وأظن أنها كانت قبلاً أعلى من ذلك.

المجرى الثاني: وعرضه 11 مترًا.

المجرى الثالث: وعرضه 5 أمتار، ولكن جدرانه متهدمة، إنما مجراه ظاهر.

المجرى الرابع: وعرضه 790 سنتيمترًا، وجدرانه متهدمة.

المجرى الخامس: وعرضه 145 سنتيمترًا، وجدرانه متهدمة.

المجرى السادس: وعرضه 890 سنتيمترًا، وجدرانه متهدمة.

المجرى السابع: وعرضه 155 سنتيمترًا، وجدرانه متهدمة.

وإلى جانب المجاري الشرقية وعلى زاوية قائمة منها يوجد بعض المجاري الجنوبية، ولكن السيل والبدو قد خربوها فلا تظهر في نفس المقاسم، غير أنها تظهر على بُعد مائة متر إلى جنوبي هذه المقاسم، وإني لم أتمكن من ضبط عددها لأن معالم أكثرها قد اندرست، ولم أشاهد غير مجريين باقيين إلى اليوم، ولكن بحسب الظاهر من بناء هذه المقاسم يجب أن تكون سبعة كالمجاري الشرقية والجنوبية والله أعلم.

أما بناء هذه المقاسم والمجاري فعلى شكلين: المجاري الكبيرة مبنية من الحجارة البركانية المنحوتة، والصغيرة مبنية من الأحجار البركانية السوداء، ومحشو بينها شيء من اللِبْن الأسود الكبير المصنوع بقوالب خاصة من الرمل والحصى البركانية الناعمة ونوع من أنواع السمنت، وهذا اللِبْن قوي جدًا، فبالرغم من ألوف السنين التي مضت على صُنعه لا يزال قويًا، وقد أردت أن أكسر قطعة منه فلم أفلح.

ويوجد في جميع مقاسم المياه نقوش حميرية عديدة، ويوجد أيضًا في الجدارين الكبيرين من السد المار ذكرهما نقوش حميرية كثيرة، ويوجد أمام عبّارتي السد في الجهة الشمالية إلى جانب بلق الأيسر عمودان كبيران منبسطان عليهما نقوش كثيرة هي بدون شك تاريخ هذا السد العظيم وكيفية تقسيم مياهه، ولكن واحدًا منهما قد كسره العرب إلى قطعتين، وأما الثاني فلا يزال سليمًا.

وزبدة القول أن السبب في بناء هذا السد هو:

أولاً الاحتفاظ بمياه السيول التي تجري إلى هذه الجهات في فصلي الأمطار – أي بالخريف والصيف– وخزنها إلى أيام الجفاف في الشتاء والربيع.

وثانيا: رفع الماء في سائلة ذنة إلى مستوى الأراضي القائمة حولها وحول مدينة مأْرِب في الجهتين الجنوبية والشمالية لأن هذه الأراضي أعلى من مجرى السائلة عند مربط الدِم، أي عند السد بنحو تسعة أمتار، ولولا هذا السد لا يمكن للمياه أن تصلها.

ويبلغ طول الجنة القبليّة من مربط الدِم — أي من السد في الغرب– إلى ما يلي مدينة مأْرِب بالشرق مسافة ساعتين، أي نحو عشرة كيلومترات تقريبًا، وعرضها من الجنوب إلى الشمال نحو ساعة، أي خمسة كيلومترات، فتكون مساحتها نحو 50

كيلومترًا مربعًا. ومأْرِب قائمة في آخر هذه الجنة الشمالية، ويجري الماء إليها من العبّارتين الشماليتين.

سد الجفينة

روى لي بعض البدو وأنا في مأْرِب بأنه يوجد إلى الشمال الغربي من مدينة مأْرِب جدار كبير لا يعلمون ما هو، ويوجد فيه بعض النقوش الحميرية، فذهبت ذات يوم لزيارة هذا الجدار لأرى ما هو، فكانت دهشتي عظيمة عندما رأيت نفسي أمام سد صغير لم يتخرّب منه إلا جزء يسير، وهو بسيط جدًا في هندسته، ويبعد عن مقاسم المياه للجنة الشمالية نحو 35 دقيقة، وهو واقع إلى جهة الشرق الشمالي. وهذا السد كناية عن جدار طوله نحو 200 متر ممتد من الغرب إلى الشرق، أي بعكس سد مأْرِب الممتد من الجنوب إلى الشمال، وتسيل المياه نحوه من جهتين:

الجهة الأول: من الشمال الغربي في سائلة طبيعية تأتي مياهها من الجبال الغربية الشمالية.

والجهة الثانية: من الجبال الشمالية لمدينة مأْرِب.

وتسيل هذه المياه في سائلة اصطناعية مبنية في أسفل الجبل بشكل معوج، وجدران هذه السائلة وبُنيانها ليس منتظمًا، بل هو مبني من الحجارة البركانية الصغيرة واللِبْن الاصطناعي المعمول من السمنت، وتقسم المياه عند هذا السد إلى أربعة أقسام: قسمان يسيلان إلى الجهة الشمالية، وقسمان يسيلان إلى الجهة الجنوبية. وعرض العبّارات الشرقية كما يلي:

العبّارة الأولى: عرضها 280 سنتيمترًا. والثانية 250 سنتيمترًا.

والعبّارات الجنوبية كما يلي: الأولى 15 مترًا و15 سنتيمترًا، وقد تهدم شيء قليل منها، ولكن أُسسها لا تزال ظاهرة.

والثانية، وعرضها 250 سنتيمترًا. وتسيل مياه هذا السد إلى مدينة مأْرِب وجنّتها.

مَأْرِب

لقد اختلف العلماء والمؤرخون والمفسرون في معنى اسم مدينة مأْرِب (بالهمزة الساكنة)، فمنهم من قال أنها مشتقة من الأرب، ومنهم من قال أنها اسم أحد الملوك الحميريين الذي بنى هذه المدينة، ومنهم من قال أنها مركبّة من كلمتين حميريتيين: ماء ورب، ومعناهما الماء الكثير، وأنا أرجح أن هذا التفسير هو أقرب إلى الصواب من غيره.

وأما أهل البلاد فيلفظونها بدون همزة، وأهل اليمن يكتبونها بدون همزة أيضًا، ولذلك اتبعتهم في كتابتها في هذه الرحلة لأنهم أدرى بدارهم منا ومن غيرنا.

وتقع مدينة مارب على مسافة 165 كيلومترًا إلى الشرق الشمالي من مدينة صنعاء، وتقطع القوافل هذه المسافة في طرق غير معبدة في نحو خمسة أيام. ويحيط بمدينة مأْرب من جهاتها الأربع أرض زراعية كان يطلق عليها قديمًا اسم: الجنتين الشمالية والجنوبية. ويحدها من جهة الغرب جبل بلق وسد العرم، ومن الشمال سلسلة جبال منخفضة متصلة بسلسلة جبال هيلان الشامخة، ومن الشرق رمال الربع الخالي، ومن الجنوب رمال الربع الخالي أيضًا. وتعلو عن سطح البحر 1300 متر، وإقليمها حار وجاف، ولا تهطل فيها الأمطار إلا نادرًا، وإنما ينزل الرذاذ أحيانًا. وتكثر فيها أيام الربيع والصيف الرياح والعواصف الشديدة، ويكثر فيها أيام الشتاء الذباب والكُتّان (أي البق).

وتبدوا أطلال المدينة للقادم إليها من جهة السد — أي من الجهة الغربية — كأنها شبه دائرة، وهذا مما يحمل المرء الغير محقق لأول وهلة على الاعتقاد أنها شبه دائرة، ولكنه متى وصل إليها وشاهد بقاياها يتبدد هذا الوهم ويظهر له سورها الحجري الضخم المبني من الحجارة البركانية المائلة إلى لبياض والمنحوتة نحتًا دقيقًا، ويرتفع هذا السور على وجه الأرض في الوقت الحاضر نحو نصف متر فقط، وهو ليس دائريًا كما قال بعضهم بل مربعًا، ولكن يوجد فيه احديداب ونتوء في أماكن عديدة.

وقد وقع المستشرق الألماني (كلازر) في هذا الخطأ، وهو الرجل الأجنبي الوحيد الذي تمكن من زيارة هذه البلاد، وذكر في كتابه أن مدينة مأْرِب مدوّرة، ونقل بعض أقواله المرحوم جورجي زيدان في كتابه العرب قبل الإسلام. ولا ألوم (كلازر) في خطئه لأنه لم يتمكن كما ذكر لي بعض المتقدمين في السن ممن رأوه عند وصوله إليها أن يطوف ويجول في المدينة وأطرافها كثيرًا لأنه وقع اختلاف شديد بين شيوخ العرب من الشرفاء الذين جلبوه على عهدتهم وبين شيوخ قبيلة عبيدة الشديدي البأس، والذين ما كانوا راضين عن هذه الزيارة، فاضطر الرجل أن يبقى شبه سجين معظم المدة التي قضاها في ضيافة الشرفاء، ولما عاد من رحلته أخرجه الشرفاء من مأْرِب ليلاً، وألبسوه ألبسة بدوية خشية أن يبطش به رجال عبيدة الأشدّاء.

وقد ذكر لي أحدهم أن عدة أشخاص من الفرنجة قُتلوا أثناء محاولتهم الوصول إلى مأْرِب، وذكر لي بعض الخبراء من يمانيين وغير يمانيين أن عدة أشخاص من المستشرقين قُتلوا في اليمن وهم يحاولون الطواف فيه والوصول إلى مأْرِب، وفي طليعتهم المستشرق الألماني (بركار) فقد قتل بوادي الدور بالقرب من مركز العدين أيام الدولة العثمانية، وقُتل معه أيضًا (الماركيز ديبوزي) قنصل إيطاليا في المخا. وقُتل أيضًا مستشرق فرنسوي في طريق مأْرِب وكان يلبس ألبسة عربية، وذلك في زمن الوالي توفيق باشا سنة 1318 رومية. وقُتل أيضًا مستشرق ألماني آخر أيام أحمد فيضي سنة 1320 بينما كان يحاول الوصول إلى مأْرِب. وقُتل أيضًا رجل انكليزي خرج من جهة ميدي ولم يعرف المكان الذي قتل فيه، وعندما سُئلت الدولة العثمانية عنه لم تجب جوابًا مفيدًا لأن هذا الرجل دخل إلى اليمن بدون إذن، وجاء من البحر بسنبك خفيف.

ويرتفع سور المدينة في الوقت الحاضر على ما ذكرت نحو نصف متر، ولما وصلت إليه طفت حوله في جهاته الأربع، وقد عثرت على أسسه بتمامها في الجهة الشمالية والغربية، وأما في الجهة الجنوبية فقد طغى عليه سيل العرم بعد أن هدم السد، ولم يحمل السور فقط، بل حمل أيضًا جزءًا كبيرًا من المدينة. يبلغ عرضه نحو 150 مترًا، وطوله نحو 1500 متر. وكذلك الأمر في الجهة الشرقية، فقد أخذت السيول قسمًا من السور، وأما القسم الباقي فيظهر هنا وهنالك بصورة غير منظّمه، ومما زاد في الطين بلّة أن الأهلين نقلوا شيئًا كثيرًا من أحجار السور وبنوا بها بيوتهم ومدينتهم الحديثة. وهو مبني من الحجارة الضخمة، ويبلغ طول الحجر في بعض

الأماكن أكثر من متر ونصف متر، وعرضه نحو نصف متر، وبناؤه في غاية الضبط، ولا يمكن للإنسان أن يُدخل إبرة بين الحجر والحجر، ويظهر أنهم كانوا يستعملون في بناءهم مادة تشبه السمنت إن لم تكن السمنت بعينه، ويصنعون من هذه المادة أيضًا لِبْنًا قويًا أكبر من اللِبْن الذي نصنعه نحن من السمنت في عصرنا هذا، وقد شاهدت شيئًا كثيرًا منه في مختلف الأبنية وفي بقايا السد نفسه، وهو أسود اللون خشن الملمس لأن الرمل المركب منه هو رمل بركاني خشن لا رمل مائي ناعم. وقد تمكنت بعد بذل جهود جهيدة من أخذ طوله وعرضه في الجهات الأربع، وهذا بيانهما.

يبلغ طول السور الغربي الممتد من الجنوب إلى الشمال نحو 715 مترًا تقريبًا، وأقول تقريبًا لأني لم أتمكن من معرفة النقطة المضبوطة التي كان ينتهي إليها قبل خرابه، ولكني قدرتها تقديرًا من بعض آثار البناء الظاهرة في السائلة إلى هذا اليوم، ومن البديهي أن هذه السائلة لم تكن موجودة أيام حمير، ولكن بعدما خرب السد وتهدم المدينة صارت مياه سيل ذنة التي كانت تصل إلى السد فقط تسيل إلى جنوب المدينة، وافتُتحت سائلة جديدة يبلغ عرضها في الوقت الحاضر 300 متر أمام المدينة، ويزيد هذا العرض إلى 350 مترًا في بعض الأماكن. وقد شاهدت في السور الغربي فرجة كبيرة على جانبيها نقوش حميرية، ويغلب على ظنّي أنها كانت بوابة. ويتصل جدار هذا السور الغربي بجدار السور الشمالي بزاوية قائمة ظاهرة للعيان ظهورًا جليًا، وهذا مما ينفي نظرية (كلازر) بأن المدينة كانت مدورة، إذ من البديهي أنه يتنافى وجود زاوية قائمة مع وجود الدائرة.

ويبلغ طول السور الشمالي الممتد من الغرب إلى الشرق 1740 مترًا، وهو ظاهر بتمامه، وقد شاهدت فيه كثيرًا من النقوش الحميرية، وأظن أن الباب كان قائمًا في منتصف هذه النقوش، ورأيت في أوله من الجهة الغربية والجهة الشرقية تتوأين ظاهرين، وهما بحسب ظني بقايا بناءين مدوّرين كانا يستعملان كمخفرين للحرس المناط به المحافظة على المدينة كما هي العادة في جميع المدن المسوّرة في اليمن، وهذا أيضًا مما حمل (كلازر) على الاعتقاد بأن المدينة مدوّرة.

ويبلغ طول السور الشرقي الممتد من الشمال إلى الجنوب 770 مترًا تقريبًا، ولم أشاهد فيه كتابة حميرية ولا بوابة، ولكن يغلب على ظني أنه كان يوجد ههنا بوابة

أيضًا دون مقبرة المدينة في الشرق خارج السور، وليس من المعقول أنهم إذا أرادوا الخروج لدفن موتاهم أنهم يدورون حول المدينة بالميت لكي يخرجوه إلى المقبرة.

ويبلغ طول السور الجنوبي، وهو لا وجود له في الوقت الحاضر (ولكني خمّنته تخمينًا من بقايا السور الغربي والسور الشرقي وبعض الأساسات الظاهرة في سائلة ذنة) نحو 1500 متر تقريبًا. ولا أعلم إذا كان يوجد فيه بوابة أم لا، إنما يغلب على ظني أنه كان يوجد فيه بوابة أيضًا لأن الجهة الجنوبية هي المخرج إلى ما يسمونه محرم بلقيس، وهو في الحقيقة معبد للشمس. أما (كلازر) فيقول أنه كان للمدينة بابان فقط، ولكني لا أعتقد بصحة هذا القول، بل أرى أنه يوجد للمدينة أربعة أبواب، وقد شاهدت اثنين بعيني، واستدللت على الاثنين الآخرين من وجود المقبرة ووجود حرم بلقيس خارج مدينة مأْرِب.

ومتى اجتاز الإنسان أسوار المدينة ودخل إلى خرائبها وأطلالها لا يمكنه أن يتبين شيئًا من قصورها ومعابدها ومبانيها العظيمة التي ترنّم بها الشعراء قبل الإسلام وخاصة عرش بلقيس وقصر سلحين ومسجد سليمان..الخ) لأن جميع هذه الأبنية أصبح عاليها سافلها، فلا يرى الإنسان كيفما سار غير خرائب متصلة بعضها ببعض، وإنما يتبين بصورة واضحة في منتصفها تقريبًا ميدانا واسعًا بيضاوي الشكل، وهو بدون شك كان سوقها الكبير الذي كانت تأتيه القبائل للبيع والشراء والمقايضة كما هي العادة في جميع بلاد اليمن وجزيرة العرب إلى يومنا هذا.

ويوجد في الجهة الجنوبية من هذا الميدان أو السوق سلسلة من الأعمدة الفخيمة ممتدة إلى مسافة بعيدة، فيظهر منها أنه كان يوجد ههنا بناء عظيم قد يكون معبدًا أو قصرًا لأحد الملوك والأمراء، ويوجد إلى الجهة الشمالية الشرقية من هذا الميدان شيء كثير من الأعمدة المتوسطة الحجم والكثيرة العدد إلى حد يستلفت النظر، وبعضها لا يزال قائمًا، وبعضها مكسّر ومُلقى على الأرض، وعلى كل حال فإن هذه الأعمدة تدل أيضًا أنه كان يوجد ههنا بناء كبير قد يكون دائرة حكومية أو قصرًا أو ما أشبه ذلك، ويقوم إلى سائر أطراف هذا الميدان كثير من الأعمدة موزّعة هنا وهناك، ويظهر أن أطراف هذا الميدان كانت الحي الأنيق في المدينة، ودليلي على ذلك كثرة العمدان الموجودة هنا وقِلّتها في سائر أطراف المدينة. ويظهر في بعض الأماكن أساسات بنايات ضخمة جرف السيل عنها بعض الردم تعلوها آكام من التراب محت مراسمها ومعالمها، فلا يمكن للمرء أن يعرف ما هي ولا كيفية

هندسة بنائها، ولكن لو أُجريت بعض الحفريات ورُفعت هذا الأتربة المتراكمة فلا شك أن كثيرًا من هذه القصور والبنايات الفخمة تظهر للعيان بحالة حسنة كما هو الحال في السد.

وجميع هذه الأبنية مبنية من الحجر البركاني المائل إلى البياض والمنحوت نحتًا جميلاً ودقيقًا، والبناء على غاية من الضبط، ويظهر فيه السمنت أو ما يشبهه في كل مكان، ويظهر أن معظم البناء كان يقوم على أعمدة مربعة ذات أربعة أوجه، ولم أر إلا شيئًا يسيرًا من العمدان المدوّرة. وهذه العمدان والأحجار الكبيرة مقطوعة جميعها من جبل بلق القريب من المدينة. وقد شاهدت في بعض الأماكن أحجارًا من المرمر وعليها نقوش وكتابات، ولا شك أن هذه الحجارة الكبيرة قد نُقلت من أماكن بعيدة عن مأْرِب لأن جبل بلق وما يحيط به من الجبال القريبة لا يوجد فيها مرمر، بل تبعد الجبال التي يوجد فيها المرمر مسافة ثلاثة أو أربعة أيام عن مأْرِب. وقد احترت في كيفية نقلهم لهذه الحجارة الكبيرة من مسافات بعيدة، ولا يُعقل أنهم نقلوها على الحيوانات لأنها ثقيلة جدًا، فقد بلغ طول بعضها ثلاثة أمتار وعرضها مترًا، فلا بد والحالة هذه أنه كان يوجد لديهم بعض الوسائط لنقل الأثقال.

ويوجد في أقصى المدينة من الجهة الشرقية تلّ كبير بنا فوقه الأهلون في الوقت الحاضر مدينتهم على أساسات بناء ضخم ربما كان حصنًا أو معبدًا للشمس في الزمن القديم والله أعلم. ويوجد في أسفل هذا التل من الجهة الغربية مسجد يقولون له في الوقت الحاضر مسجد سليمان، ولكنه في الحقيقة لا يمتُّ لسليمان بنسب، وإنما هو مسجد حديث العهد بناه واحد من الشرفاء منذ وقت قريب لا يتجاوز مائة عام. وقد بنى جداره الشمالي بين بعض الأعمدة الحميرية القديمة فظنّه الناس قديمًا وصاروا يطلقون عليه اسم [مسجد] سليمان ظنًّا منهم أنه بُني أيام الأعمدة، ولكنه على وجه التحقيق لم يُبنَ أيام بناء الأعمدة لأن بناءه حقير وجديد[1].

وتوجد بالقرب من هذا المسجد بئر حميرية قديمة هي بئر القرية الآن وبئر الصادي والغادي، وعمقها 50 مترًا وماؤها جيد، وجدرانها مبنية من الحجر، وقد قُطّعت الحبال جوانبها من كثرة الاستعمال.

---

(1) سبق التعليق على تاريخ بناء المسجد، وانه تهدم وجدد عدة مرات، وأقدم تاريخ معروف لبناء المسجد يرجع لسنة 467 هجرية.

هذه هي الأشياء والخرائب الحميرية التي يشاهدها الإنسان في نفس مدينة مأْرِب، ولكني قرأت في بعض الجرائد والمجلاّت العربية والإفرنجية أوصافًا غريبة لهذه الخرائب لا تتفق مع الحقيقة في شيء. وفي جملتها طالعت في جريدة (الفاريتي) الفرنسوية (Varietés) التي تصدر في القاهرة في عددها المؤرخ 27 مايو سنة 1934 وغيره من الأعداد صورًا خيالية وخارطة وهمية وضعها الطياران (مالرو) و(كورنيليون مولنيير) لمدينة مأْرِب، وذكرا فيها أسماء أماكن وقصور ومساحات وحجرات وأبواب ..الخ) لا تظهر للعيان للمتأمل عن كثب، وإن هي إلا من بنات أفكارهم واختراعهم، وهي بعيدة عن الصحة بُعد الأرض عن السماء، ولا يؤبه لها أو يُعتد بها. وكلما قيل أو يقال عن هذه المدينة إنما هو رجم بالغيب ليس إلا فإذا لم تُرفع الأتربة المتراكمة فوق بقايا البناء فتظهر القصور والمساند فلا يمكن أن يُعرف شيء من حقيقتها، وقد فتشت كثيرًا في هذه الأطلال لعلّي أجد أثرًا لقصر بلقيس أو عرشها فلم أعثر على شيء من ذلك، ولكني وجدت حجرا كبيرًا من المرمر أثناء تفتيشي وعليه بعض الكتابات الحميرية الطويلة ربما تؤدي قراءتها إلى معرفة شيء عن البناء القائم فوق هذا الحجر.

محرم بلقيس

وقد قيل لي أثناء تفتيشي وسؤالي عن قصر بلقيس أنه يوجد مكان قريب من المدينة يقولون له محرم بلقيس، وقد يكون قصرها، فزرته ذات يوم صباحًا وإذا بي أمام معبد للشمس مبني على شكل دائرة، ويبعد عن مأْرِب مسافة 45 دقيقة، أي أربعة كيلومترات، وهو واقع إلى الجنوب الغربي من المدينة، وعلّوه عن سطح البحر 1300 متر. وأول شيء تبيّناه منه هو ثمانية أعمدة مربعة من الحجر البركاني ذات أربعة أوجه، عرض اثنين من وجوهها 74 سنتيمترًا، وعرض الاثنين الآخرين 70 سنتيمترًا، وأما ارتفاعها فغير معلوم لأن قسما كبيرًا منها غائص في الرمال. وأما الظاهر منها فوق الرمال فيبلغ علوّه نحو ثلاثة أمتار، ويظهر أن هذه الأعمدة كانت قائمة في باب المحرم من الجهة الشرقية مقابلة للشمس. ويلي هذه الأعمدة الثمانية إلى الجنوب أربعة أعمدة قائمة على بضعة أمتار من جدار المحرم، وهي أصغر من الأولى ومربعة أيضًا، وعرضها 50 سنتيمترًا و44 سنتيمترًا لكل وجهين، ولا ريب عندي أنه كان يوجد غير هذه الأعمدة أعمدة أخرى، وهذه الأعمدة من الأحجار البركانية البيضاء، والمسافة

بين هذين الصفين من الأعمدة وهي نحو عشرة أمتار كانت بدون شك رواقًا يؤدي إلى المدخل، وخلف هذه الأعمدة الأربعة يوجد فرجة متّسعة هي الباب، ولكني لم أتمكن من قياسه بالضبط لأن جداريه قد تهدّما، وإنما يمكنني أن أقول أن اتساعه كان 12 مترًا على وجه التقريب. ونفس المحرم أو الهيكل مبني بشكل دائرة قطرها من الداخل بدون الجدران 72 مترًا و15 سنتيمترًا، وعرض الجدار 3 أمتار و60 سنتيمترًا، وهي مبنية من الحجارة الكبيرة، وقد بلغ طول بعضها 175 سنتيمترًا، وعرضها 30 سنتيمترًا، ومعظمها من الحجارة الكبيرة المنحوتة نحتًا دقيقًا.

وأما علو المحرم القائم إلى هذا اليوم فيختلف بنسبة الرمال الطافية عليه، وقد بلغ أعلى مكان أربعة أمتار. ويظهر أنه كانت توجد نقوش حميرية حول جميع الجدار، ولكن البدو اقتلعوا كثيرًا من هذه الحجارة الكبيرة المكتبة وكسّروها قطعًا صغيرة ونقلوها إلى أماكن مختلفة فبنوا بها حصونهم ودورهم، وقد شاهدت بعض الشظايا المكسرة هنا وهنالك وعليها بعض الكتابات الحميرية، ورأيت أيضًا شيئًا من الكتابات الحميرية ظاهرة حول الجدار في الجهات الأربع، ففي الجدار من جهة الجنوب رأيت حجرًا واحدًا منقوشًا عليه كتابة حميرية. وأما في الجدار الشمالي فقد رأيت صفّين من النقوش الحميرية، الصف الواحد فوق الآخر، وفي أولهما رسم سيف، وقد وقعت بعض الأحجار من هذه النقوش الممتدة حول الجدار إلى الأرض فكسّرها البدو. ويلي هاذين الصفين صف مفرد ثانٍ يمتد مسافة يسيرة وقد اقتلع البدو معظمه.

(**النقش الأول**): تبع كرب... وتر ويثع أمر باين بن ذامر يدع بن مارم كرس للإله المقاه جميع الجدار المبنى فوق هذه النقوش والسور والبروج.

(**النقش الثاني**): ومما قاله بشأن ابنه عندما نصّبه يكرب مالك وتر قائدًا عامًا، وعندما حكم سبأ والقبائل وحارب كاتبان[1] مدة خمس سنوات، وقد أنقذ المقاه (أي الإله) جميع بلاد سبأ وقبائلها ورجالها الذين قادهم في حرب مدينة "تهارجب" كل سنة للدفاع عن سبأ وقبائلها، وأخيرًا حقق السلم ما بين مأْرِب وكاتبان، ويثع أمر باين وسبأ وضعوا ثقتهم به.

---

(1) كاتبان: كذا رسمها المؤلف، ولعله أخطأ في ترجمتها، أو من ترجمها له، والصواب: قتبان، بالقاف.

وتصل الرمال في الوقت الحاضر إلى جنوب الهيكل وشرقيه، وتمتد منه إلى أن تصل إلى سائلة ذنة فيحملها السيل معه كلما اشتد، ويوجد بين هذه السائلة الواقعة في الوقت الحاضر إلى شمال المحرم- وبين المحرم - نفسه خرائب عديدة، ويكثر فيها الفخار المكسّر، وهو غليظ الحجم وقوي جدًا، ولونه يميل إلى الحمرة، وأهم هذه الخرائب المحيطة بالمحرم هي خربة كبيرة طغى عليها الرمل بكثرة، ولكن لا يزال يبدو منها ستة عمدان مصفوفة صفًا واحدًا وممتدة من الشرق إلى الغرب على خط مستقيم، وهي مربعة ذات أربعة أوجه، اثنان منهما عرض كل منهما 82 سنتيمترًا، واثنان منها 64 سنتيمترًا، وعلوّها في الوقت الحاضر نحو خمسة أمتار، ولا أعلم كم يغوص منها في الرمال، والعمود الأول من جهة الشرق مكسور نصفين، أحدهما واقع إلى الأرض، والثاني قائم إلى جانب رفاقه وعليه بعض النقوش الحميرية، وقد شاهدت بين هذه الخرائب بقايا مجاري المياه آتية من مقاسم المياه في الجهة الشمالية من السد، وتصل هذه المجاري إلى محرم بلقيس. وهذا مما يدل على أن المحرم أو الهيكل وما حوله من البنايات كانت تابعة إلى الجنة الشمالية.

ويغلب على ظني أن قصر بلقيس وعرشها كانا في هذه الجهة، وأعتقد أن هذه العواميد الستة الضخمة هي من بقايا قصر بلقيس المعروف بقصر (سلحين)، وأنا على شبه اليقين بأن هذه الملكة العظيمة ما كانت تقطن مع شعبها في نفس مدينة مأرِب، بل كانت تقطن في هذا القصر بالقرب من الهيكل التي كانت تعبد فيه الشمس، ولكن هذا لا يمنع أنه كانت لها قصور عديدة في نفس المدينة تتردد إليها في بعض الأحيان كما هي عادة الملوك والملكات فإنهم لا يكتفون بقصر واحد، بل يبنون قصورًا كثيرة يقطنون في كل منها مدة من الزمان، وذلك بحسب الأقاليم والفصول، وقد قرأت في غير واحد من الكتب القديمة أن ملوك حِميَر كانوا ينتقلون من جهة إلى أخرى في الشتاء والصيف والخريف والربيع.

هذا ما كان من شأن أطلال هذه المدينة العظيمة.

وأما تاريخها وتاريخ أهلها فلم يتوفّق أحد لدرسهما درسًا صحيحًا، وكل ما وصل إلينا عنهما هو نتف يسيرة جاءت في كتاب (الإكليل) للحسن بن أحمد الهمداني[1]، وهي لا تشفي الغليل ولا يُوثق بها كل الوثوق. وقد تمكن بعض

(1) في المطبوع: لأحمد حسن الهمداني، خطأ، والصواب ما أثبتناه.

المستشرقين من الحصول على شيء يسير من الكتابات الحميرية، بعضها قديم وبعضها جديد زوّرها يهود صنعاء جرًّا للربح، ولكنها لا تكشف الغطاء عن تلك المدينة الحميرية العظيمة.

ولم تستطع منذ آلاف السنين دولة من الدول أن تدخل البلاد السبئية وتفتحها عنوة، وبالرغم من عظمة تركيا وبأسها وإقامتها في اليمن نحو 300 سنة فلم تتمكن في يوم من الأيام من دخول مدينة مأْرِب مع أنها كانت تدفع رواتب وعطاءات إلى أشرافها وشيوخها، وكانت ترجوهم أن يرفعوا العلم العثماني فوقها، فكانوا يأخذون المعاشات ويهزؤون منها، فتارة يرفعون العلم وأحيانًا ينزلونه وذلك حسبما شاءوا وشاءت أهواؤهم.

ومضى على جلالة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن منذ تبوأ العرش مدة طويلة لم يتمكن خلالها من دخول مأْرِب بالرغم من حنكته ودهائه وبأسه وقدرته على إخضاع جميع القبائل، فقد بقي أهل جميع البلاد السبئية محتفظين باستقلالهم وعاداتهم إلى زمن قريب، ولكن عندما دبّت عوامل التفرقة والبغضاء بينهم وصاروا يقتل بعضهم بعضًا بصورة فظيعة، أي صار ابن العم يقتل [ابن] عمّه، والأخ يقتل أخاه، ولم يعد بوسع واحد منهم أن يخرج من حصنه إلا ليلاً، عندئذ تمكن جلالة الإمام من التدخل بينهم، وذلك أن فريقًا منهم التجأ إلى جلالته وطلب معونته إنقاذًا للبلاد والعباد مما هم فيه من التخاذل والشرور، فما كان من جلالته إلا أنه لبّى استغاثتهم وسيّر السيد عبد الله الوزير على رأس قوة عظيمة من الجند النظامي وغير النظامي، فدخل البلاد عنوة بعد أن قاومه الأهلون مقاومة عنيفة قرب السد، وقُتل في هذه المصادمة خلقٌ كثير من كلا الطرفين، ولكن تمكن الوزير في نهاية الأمر من الاستيلاء على مأْرِب وجميع البلاد التي حولها، وما كاد يستقر في المدينة حتى قدمت عليه رجالات العشائر ومشايخها وقدمّوا خضوعهم له، وسلّموا إليه عددًا كثيرًا من الرهائن علامة الطاعة والإذعان. وبنى سيادته في الحال دارًا للحكومة (وقشلاقًا)[1] عسكريًا للجند وعدّة مخافر في المدينة نفسها وفي أطرافها، ومنذ ذلك اليوم إلى عهدنا هذا والأمن مستتب تمام الاستتباب.

---

(1) القشلاق: تركية،كانت تطلق في الأصل على المعسكر الشتوي نسبة إلى (قش) التي تعني الشتاء، وأطلقت فيما بعد على ثكنات الجيش كافة، وهو المقصود هنا، وينطقها أهل اليمن: القشلة، بمعنى المعسكر والقلعة أيضا. المعجم الفارسي الكبير 2095/2، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، لسهيل صابان، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية،(1421هـ/2000م)، ص118.

ومعظم أهل هذه البلاد من سكّان بيوت الشعر، ولكنهم يبنون أحيانًا حصونًا لسكْناهم، وهذه الحصون لا نوافذ لها غير فتحات صغيرة فتحت في بعض الجدران لإطلاق الرصاص منها لا لدخول الهواء، وأبوابها صغيرة للغاية، فلا يمكن للمرء أن يدخلها إلا حبوًا على قوائمه الأربع، وبينما كنت في طريقي من صنعاء إلى مأْرِب لا حظت أنني كلما اقتربت من مأْرِب كنت أرى أن نوافذ البيوت وأبوابها تصغر تدريجًا إلى أن تغيب النوافذ قبل الوصول إلى مأْرِب بمسافة يسيرة دفعة واحدة ولا يبقى غير الأبواب الصغيرة!، ولذلك كنت أقدّر درجة الأمن في البلاد التي أمرّ بها من حجم نوافذها وعددها.

ومن غريب عادات أهل هذه البلاد أنهم لا يترحّمون على الرجل إذا مات حتف أنفه[1]، إنما يترحمون عليه إذا قُتل قتلاً، ولكنهم لا يدفنون القتيل بلحد، بل يطرحون فوقه كومًا عظيمًا من الحجارة في المكان الذي يُقتل فيه دون غسل أو صلاة[2]، وقلّما يموت منهم رجل موتًا طبيعيًا، ويندر أن تنظر رجلاً لا يوجد في جسده عدّة جروح.

ويبلغ عدد سكّان مدينة مأْرِب في الوقت الحاضر نحو 700، بعضهم سادة أشراف ينتسبون إلى آل سعود (غير آل جلالة الملك عبد العزيز)، ويُقال لهم سادة لأنهم حسنيون، وبعضهم خليط من سكّان حضرموت ومن رجال قبائل عديدة، ومعظمهم تجّار ملح يشترون الملح الذي تجلبه عشيرة عبيدة من جبلها (بالصافِر)[3] على بُعد ثلاثة أيام من مأْرِب، ويبيعونه إلى رجال القوافل الذين يأتون من داخلية اليمن لهذه الغاية.

ويوجد أيضًا نفر من الناس يقال لهم (هِجْرَة)[4]، وهؤلاء الناس لا يقاتِلون ولا يقاتَلون لأنهم هاجروا من بلادهم والتجئوا إلى هذه الديار فصاروا دخلاء عليها،

---

(1) من مشاهداتي أنني رأيت في مناطق حاشد السفلى (العصيمات) أن الناس يتأسفون عندما يموت أحد أقاربهم غير مقتول، ويقولون: "ذهب لا قضى ولا سلف".

(2) الحجارة هنا لا توضع على جثة القتيل، بل على موضع قتله إذا لم يؤخذ بثأره، وتسمى: الرزيم أو المرزم، سبق شرحها، أما القتيل فيدفن حسب العادة والشرع.

(3) صافر: غير معرّف، جبل في شرقي مدينة مارب على بعد نحو 85كم، كان يستخرج منه الملح الصخري النقي، وقد اكتشفت تحته الآن كمية كبيرة من النفط والغاز، وظهرت أول بئر استكشافية من النفط فيه سنة 1984م. انظر: مجموع بلدان اليمن وقبائلها 461/2، معجم البلدان والقبائل اليمنية 890/1.

(4) الهجرة: سبق تعريفها.

وكثيرًا ما يصلحون بين المتقاتلين ويوقفون القتال بواسطتهم لأن جميع القبائل تحبهم وتحترمهم.

أما مدينة مأْرِب الحالية، لا بل قرية مأْرِب، فهي كناية عن مائة منزل تقريبًا، أساساتها مبنية من الحجر، ودوْرها الأول والثاني والثالث مبنية من الطين، ويسمونه (خلب) بشكل مضحك غير منتظم، وداخلها مظلم لأن نوافذها صغيرة جدًا، لا يزيد طول أكبرها عن ثمانية سنتيمترات وعرضها ستة سنتيمترات، وغرفها مبنية بدون نظام أو ترتيب، وسقوفها من الخشب والخلب، وتقوم هذه الدور على رابية يبلغ علوّها نحو 50 مترًا، ولا تزال أساسات البناء الحميري ظاهرة فيها، وقد بنى الأهلون بيوتهم فوق هذه الأساسات القديمة.

وتحيط قبلية عبيدة بمدينة مأْرِب وهيكل بلقيس، وهي قبيلة عربية قديمة تدّعي أن نسبها يتصل بصافر الحميري، ولا تزال محافظة على عادات وحشية للغاية، ويبلغ عدد رجالها المحاربين نحو 1500 رجل، جميعهم على الفطرة الطبيعية، ولا يوجد بينهم رجل واحد يعرف القراءة والكتابة، وأكثرهم عراة لا يلبسون سوى أطمار يسترون بها عورتهم، ويرخون شعورهم وذقونهم ويطلونها بزيت السمسم، فتفوح منهم رائحة هذا الزيت الممزوج بعرق أجسادهم إلى مسافات بعيدة، وهم كرماء للغاية، يحسبون حساب ضيفهم قبل أنفسهم، وإذا جاءهم أقل الناس يذبحون له الذبائح ويدهنونه بالزيت والسمن زيادة في إكرامه، وما كنت أتخلص من بين أيديهم إلا بشق الأنفس.

وكان رجال هذه القبيلة يعيشون على الغزو والسلب والنهب قبل دخول جيوش جلالة الإمام إلى مأْرِب، وأما الآن فقد أخذوا يشتغلون بنقل الملح من جبل الصافر إلى مأْرِب وبغرس بعض الأراضي الصالحة للزراعة.

ومن غرائبهم أيضًا أنهم يقولون للشرق (حدرا) لأن أرضهم بالجهة الشرقية منحدرة، ويقولون للغرب (علوًّا) لأن أرضهم في هذه الجهة عالية، ويقولون للجنوب (المشرق)، وللشمال (القبلة)، لأن الكعبة واقعة إلى شمالهم. وقبل دخول جلالة الإمام ما كانوا يعرفون الصلاة ولا الصيام ولا شيئًا من الفروض الإسلامية، ولكن جلالة الإمام اهتم بشأنهم وأرسل مرشدين ومعلّمين، فلقّنوهم أصول الدين وتعاليمه، وبنوا لهم مدرسة للأولاد، وفيها الآن نحو ثلاثين طالبًا.

وقد اجتمعت بشيخ مشايخ هذه القبيلة، ويقال له علي بن حسين بن معيلي، وعندما رآني لأول وهلة نفر مني ووضع يده على جنبيته (سكّينه) هامًّا بقتلي، ولكن العامل أفهمه أني رجل عربي صديق للإمام مسلم مؤمن موحّد بالله فاطمأن قليلاً، ولكنه كان ينظر إلى شزرًا، فآنسته ولاطفته وقطرت له في عينه التي كانت ملتهبة بقطرة كانت معي، ومن الغريب أنها شُفيت في يوم واحد، فجاءني ثاني يوم شاكرًا معتذرًا على ما بدا منه من الجفاء نحوي، فشكرته على هذا العطف، وتمكّنَت بيني وبينه الصداقة فصار يزورني دائمًا. وقد جرى بيني وبينه مرة حديث طويل أُثبته هنا لأنه يدل على عقلية الرجل. وهو طويل القامة، ضخم الجثة، حنطي اللون، أبيض الأسنان، أسود العينين، مفتول الساعدين، جميل الصورة، تدل هيأته على البطولة والشجاعة، ولا تفارق الابتسامة اللطيفة ثغره عندما يتكلم. ولما كانت قبيلة عبيدة تملك ملح جبل الصافر، وهو جبل عظيم من الملح الحلو[1] الجيد، يبعد عن مأْرِب نحو ثلاثة أيام إلى الشرق الجنوبي. بادرني حضرته بالسؤال: هل يوجد ملح في بلادكم؟

فقلت: نعم، يوجد عندنا بالقرب من مدينة دمشق مَملحة.

فقال: وهل هو "حالي"، أي حلو الطعم؟

فقلت: كلا. فيه مرارة يسيرة.

فضحك ضحكة الظافر المفتخر إلى أن بدت نواجذه البيضاء الجميلة وأردف قائلا: وهل هو أبيض كملحنا؟

فقلت: كلا. فيه شيء من السمرة.

فقهقه وقال: لا يوجد ملح في الدنيا مثل ملح جدّنا صافر بن قحطان.

فقلت له مداعبًا: لا بل صافر بن حمير، وليس ابن قحطان.

فأجاب: هو، هو (أي وهو كذلك). وأطرق مفكرًا ثم سألني: وأين تقع بلاد الشام هذه؟

فقلت: ألم تسمع بالشام؟

---

(1) قلت: لا يوجد ملح حلو، كما تبادر إلى ذهن المؤلف من خلال حديثه التالي مع السيخ علي بن حسين بن معيلي، والمقصود بالحالي في حديثه: النقي والجيد.

فقال: كلا.

فقلت: هي إلى شمال الكعبة.

فقال: هل يوجد بيننا وبينكم بحر؟

فقلت: لا يوجد بيننا وبينكم بحر، ويمكننا أن نذهب من هنا إلى الشام برًّا.

فقال: إذًا أنتم شمالي بلاد النجدي (يعني جلالة الملك ابن سعود) ؟

فقلت: نعم.

فقال: وهل أنتم أصحاب وإياه أم قوم؟

فقلت: نحن لا نملك من أمر بلادنا شيئًا، وأصحاب البلاد الحقيقيون هو الفرنسويون، وهم أصحاب كثير مع النجدي.

فقال: ومن هم هؤلاء الذين تعني؟

فأفهمته بصعوبة زائدة من هم الفرنسويون وما هي صداقتهم مع جلالة ابن سعود، فعجب من هذه الصداقة، وقال: كان يجب عليه أن لا يصادقهم وأن يغزوهم كما يغزوا القبائل العربية غير المدينة معه.

فقلت: هذا غير ممكن، لأن الفرنسويون أقوى منه، وعندهم عسكر كثير، وليس بوسع ابن سعود محاربتهم. فسكت، ولكنه لم يقتنع بهذا الجواب غير المنطقي في عرفه.

وبعد قليل قال: إذًا أنتم تحت حكم الفرنسويون؟

فقلت: نعم.

فقال: وكيف حكمهم؟

فقصصت عليه سيرتنا معهم وحروبنا وإياهم، فغضب وقال: ألا يوجد عنكم بدو؟

فقلت: نعم.

فقال: إلى أي القبائل ينتسبون؟

فقلت: إلى الرولة وعنزة وبني صخر وشمّر والحديديين، و، و..

فقال: وهل هم كثيرون؟

فقلت: نعم؟

فقال: نحن نسمع بعنزة، ونعلم أنها قبيلة كبيرة وذات بأس فلماذا لم تحارب معكم الفرنسويون؟

فقلت: لأن شيخها صديق للفرنسويون ولا يحاربوهم، بل يتناول معهم (الزلط) أي الدراهم.

فقال: بخ بخ. وقطب حاجبيه وتمتم بعض الشتائم التي لم أفهمها. ورأى إلى جانبي نورًا كهربائيًا (بيل) فقال: وما هذا؟

فقلت: فانوس كهربائي. وأضأته أمامه فخاف منه وتراجع إلى الوراء، فأطفأته حالاً، فعاد إلى مكانه وأخذه مني بيده وصار يتأمله وأضاءه مرارًا متعجبًا ومتسائلاً كيف يشتعل؟ وما هو سره؟. فلم أتمكن من تفهيمه سر البطاريات والكهرباء وقلت: ذلك أمر عسير لا أعلمه أنا، إنما يعرفه الذين صنعوه.

ثم سألني كم سنة صار لي باليمن في خدمة جلالة الإمام؟

فقلت: نحو 12 سنة، ولكنّي أذهب إلى بلاد مدخل (أي البلاد الخارجية) ثم أعود.

فقال: وكيف وجدتم حكم جلالة الإمام؟

فقلت: لا شك أنه الملك المسلم الوحيد المستقل بذاته وببلاده استقلالاً تامًا لا تصل إليه يد أجنبية من وراء ستار، وهو يحافظ على الإسلام والمسلمين ويرعى رعيته بعين عنايته، ويحكم فيما بينهم وفقًا للشريعة الإسلامية الغراء، ولا بد أنكم شعرتم بتحسن أموركم الدينية والدنيوية منذ دخولكم في طاعته.

فأجاب: أي والله، إننا قبل دخول جلالة الإمام هذه البلاد كنا دائمًا نقتل بعضنا بعضًا، ولا نجسر على الخروج بالنهار خارج قلاعنا أو بيوتنا، ولا نسافر إلا قوافل كبيرة لا تقل القافلة عن مائة رجل، وأما اليوم فالولد أو الحرمة تسافر من

أقصى بلادنا إلى أقصاها فلا يعترضها معترض وهما أمينان على حياتهما وماليهما، والله يحفظ الإمام.

فقلت: يجب أن تبقوا محافظين على هدوئكم وسكينتكم وتطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم عملاً بما أُنزل في الآية الكريمة.

فقال: صحيح صحيح، صواب صواب.

وكنت أحيانًا لا أفهم بعض كلماته، كما أنه كان يشكل عليه فهم بعض كلماتي فأدرك ذلك بذكائه الفطري وقال: نحن عرب ولكننا لا نتفاهم جيدًا، أليست اللغة العربية واحدة في كل الدنيا؟

فقلت: كلا. إن لكل بلاد بعض الاصطلاحات والألفاظ الدخيلة على اللغة العربية الأصلية، وهذا مما يجعل التفاهم بين أبنائها البعيدين بعضهم عن بعض عسرًا.

فقال: ماذا تقولون للحصان؟

فقلت: حصان وفرس.

فقال: وماذا تقولون للجمل؟

فقلت: جمل الركوب نقول له ركاب أو هجين، وجمعه هجن. فقال: تمام.

فقلت: وجمل الحمْل نقول له (رحول).

فلم يدرك هذا اللفظ، وقال: لا بالله جمل. ثم قال: وماذا تسمون ما يوضع فوق الجمل لركوبه؟

فقلت: (حداجه). فلم يفهم ذلك أيضًا وقال: لا بالله (ذهاب).

فقلت له: لا شك أنه يوجد اختلاف في اللغة العربية في جميع أقطار الجزيرة، ذلك لأن العرب لم يحافظوا على لغة القرآن، أي العربية الفصحى، فلو حافظوا عليها لما وُجدت هذه الاختلافات.

فقال: صحيح، ولكن البدو عندنا لا يقرءون ولا يكتبون ولا يعرفون القرآن، ولم يدخلوا في طاعة أحد منذ ألوف السنين إلى أن أدخلهم الإمام أخيرًا في طاعته، والله يحفظ الإمام.

ثم سألته عن الربع الخالي وهل قطعه بزمانه، لأن الصافر جزء منه، ورماله ممتدة إلى مأْرِب (والشيخ علي هو صاحب الصافر ويعلم عن الربع الخالي أكثر من جميع الناس).

فقال: أنا لم أقطعه.

فقلت: سمعت أن بعض عربكم قطعوه.

فقال: نعم. مرة من قديم الزمان ذهب غزو كبير وغاب نحو تسعين يومًا وقطعه، ولكنهم كانوا يحملون ماء كثيرًا، وأخفوه بين الرمال في ذهابهم ليستعينوا به في إيابهم.

فقلت له: اجلب لي واحدًا من هؤلاء الغزاة.

فقال: جميعهم ماتوا. وأضاف أنه لا يمكن قطعه من جهة مأْرِب، بل يمكن ذلك من جهة البحر أو من جهة الجبال. ثم سألني إذا كنت حقيقة مهندسًا أم لا؟

فقلت: كلا.

فقال: ألا تعرف أين الذهب؟

فقلت: كلا.

فقال: ولماذا أتيت إلى هذه البلاد؟

فقلت: إن جلالة الإمام يحب أن يرى هذه البلاد، وقد أمرني أن آخذ له بعض الرسوم ليراها. وطلبت له أن يسمح لي بأخذ رسمه، فقال: مرحبًا. ثم ودعني وانصرف إلى أهله.

تاريخ مأْرِب

جاء في الجزء الثامن من الإكليل عن مأْرِب ما يلي[1]:

"ذكر مأْرِب وهي مسكن سبأ الذي قال الله فيه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

(1) الإكليل للحسن بن أحمد الهمداني 8/95 107.

وهي كثيرة العجائب والجنات عن يمين السد ويساره، وهما اليوم غامرتان، والغامر: العافي[1]، وكذلك السَّامر[2] في كتب أصحاب الشروط[3] في شراء الأرضين بغامرها، بغامرها، وإنما عفتا لما انكسر السد فارتفعتا عن مستوى السيول.

وقال الحسن الهمداني:"وجدت في إحداهما عُرَيق[4] أراك وفي أصله جذع نخلة أسود قد كبَسَت[5] باقيه السوافي[6]، فقال بعض من كان معي: لا أظنه إلا من بقايا بقايا نخل الجنتين، وما أحسب أنه بقي من العصر القديم، وأما مقاسم الماء من مداخل[7] السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس، ورأيت ورأيت بناء أحد الصدفين باقيًا، وهو الذي يخرج منه الماء قائمًا تخاله[8] على أوثق ما ما كان، ولا يتغير شيء إلى أن يشاء الله عز وجل، وإنما وقع الكسر في العرم، وقد بقي من العرم شيء مما يحاذي الجنة اليسرى، ويكون عرض أسفله خمسة عشر ذراعًا. قال تبارك وتعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾. قيل: الخمط الأراك، والأثل الطرفا، والسدر المعروف العرج وهو العلب، وجمعه علوب والواحد علبة، ومن أمثال العرب في الرجل المنيع الجانب:"هو رجل لا يناش عليه ولا يختلف[9] أثله ودومه"، وهو الدوم

---

(1) الغامر والعافي من الأرض: الغير محروث، ووهو ماتسيه العامة في اليمن:(الصَّلَب) بالتحريك، وفي وفي مصر: البور، عن حاشية الإكليل. قلت: جاء في حكاية أبي دلامة مع المنصور العباسي أن المنصور قال: قد أمرنا لك بمائة جريب عامر، ومائة جريب غامر. فقال: وما الغامر يا أمير المؤمنين ؟ قال: الذي لا ينبت، قال: فإني أقطعك عشرة آلاف جريب من فيافي بني أسد. فضحك وأمر له بالجميع عامراً.

(2) في المطبوع: السام، والمثبت عن الإكليل، والسامر (من الأرض أو الإبل): المهمل والمتروك. اللسان: اللسان: (سمر).

(3) أصحاب الشروط: هم المعروفون في اليمن بـ(الأمناء)، وفي البلاد العربية بـ(كتّاب العدل)، وهم الذين الذين يحررون معاملة البيع والشراء وغيرها، فيذكر حدود المبيع ومساربه وسواقيه وغامرها (الميت منها)، وعامرها (المحروث والصالح للزراعة)، ولا زالت هذه العادة سارية المفعول على الآن، عن حاشية الإكليل بتصرف.

(4) عُريق: تصغير عرق.

(5) في المطبوع: كست، والمثبت عن الإكليل، وكبَست: غطت.

(6) السوافي: جمع ساف، التراب والرمل والغبار الذي تحمله الريح. اللسان: (سفو).

(7) في الإكليل: من مذاخر. قلت: مذاخر الشيء: أسفله.

(8) في الإكليل: بحاله، وكان في بعض مخطوطات الإكليل: تخاله، كما نقلها المؤلف.

(9) في الإكليل: يجلف، وهو الصواب، ويجلف: يقشّر ويكشط. ويناش: يحرك.

الدوم وحملة المقل والكبَاث[1]، وبها من الأراك ما ليس ببلد، ومن الحمام المطوق في الأراك ما يجل عن الوصف.

وكان السيل يجمع من أماكن كثيرة ومواضع جمّة باليمن، وقد ذكرناها مع انكسار السد في بعض كتبنا، وفيها يقول الأعشى[2]:

ففـــي ذاك للمؤتســـي أســـوة ومـــأربُ قفـــا عليهـــا العــرِمْ

رخـــام بنـــاه لـــه حِميَـــر إذ جـــاء مـــاؤهم لـــم يـــرم

فـــأروى الحـــروث وأعنـــابهم علـــى ســـاعة مـــاؤهم ينقســـم[3]

فعاشـــوا بـــذلك فـــي غبطـــة فجـــار بهـــم جـــارف[4] منهـــزم

ويقول بعض العلماء أن بانيه لقمان بن عاد [بن] الكِبِر[5]، وبعضهم يقولون: يقولون: بانيه حمير والأزد بن الغوث من عصب كهلان.

وقال أبو الطمحان[6] يذكر مأرِب:

أمـا تـرى[7] مأربـا مـا كـان أحصـنه ومـــا حواليـــه مـــن ســـور وبنيـــان

---

(1) في المطبوع: البلق والكنان، والمثبت عن الإكليل، والمقل: ثمر شجرة السدر المعروف بالنبق، والكَبَاثُ، بالفتح: نضيجُ ثمر الأراك؛ وقيل: هو ما لم يَنْضجْ منه؛ وقيل: هو حَمْلُه إذا كان مُتَفَرِّقاً، واحدته: كَباثةٌ. اللسان: (كبث) و (مقل).

(2) الأبيات في ديوان الأعشى الكبير، تحقيق محمد أحمد قاسم، بيروت: المكتب الإسلامي، 1994م، ص412، سيرة ابن هشام 14/1، الحيوان للجاحظ 458/5، 154/6، 102/7، مروج الذهب للمسعودي، تحقيق شال بلا، بيروت: الجامعة اللبنانية، 1966م، 322/2، الإكليل98/8، شرح القصيدة الدامغة للهمداني 463، معجم البلدان: (مأرب).

(3) رواية الديوان: فأروى الزروع وأعنابها على سعة ماؤهم إذ قُسم.

(4) في المطبوع: فحارمهم حارف، والمثبت عن الديوان والإكليل.

(5) في المطبوع: لقمان بن عاد الكبير، والمثبت عن الإكليل، ومعجم ما استعجم 1171/4.

(6) في المطبوع: أبو الطحان، والصواب ما أثبتناه، وهو أبُو الطَّمَحَان القَيْني:حنظلة بن شرقي، أحد بني بني القين، من قضاعة: شاعر، فارس معمر من مخضرمي الجاهلية والإسلام. عاش في الجاهلية، وكان فيها من عشراء الزبير بن عبد المطلب، وهو ترب له. وأدرك الأسلام وأسلم، ولم ير النبي ﷺوقيل في أسمه ونسبه: ربيعة بن عوف بن غنم بن كنانة بن القين بن جسر. وهو صاحب البيت المشهور، من قصيدة:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل، حتى نظم الجزع ثاقبه

توفي نحو 30 هـ، والبيت في الحيوان للجاحظ 154/6، مروج الذهب للمسعودي، 322/2، الإكليل99/8، شرح القصيدة الدامغة للهمداني 462، معجم البلدان: (مأرب).

(7) في المطبوع: أماتوا، والمثبت عن المصادر السابقة.

(يدل هذا البيت على أن سور مأْرِب كان حصينًا، وكان حواليه بنيان، وقد شاهدت هذا بعيني، ويخيَّل لي أن ظن (غلاستر)[1] بأن مأْرِب كان يحيط بها سور دائري قولٌ هراء، وليست الدائرة التي ظنها أنها السور غير الحصون التي كانت مقامة في هذا السور). هذه مطالعتي أنا (نزيه).

ويقول علقمة:

مـــن يـــأمن الحـــدثان بعـــد ملـــوك صـــرواح ومـــارب

وكان لمأْرِب قصر سلحين والهجر والقشيب.

وقال علقمة: "والذي بنا القشيب ذي يزن".

وقال الهمداني[2]:

بـــل أيـــن مـــن قـــبلهمُ لمـــن ذكـــر أهـل القشيب ذي البهاء[3] والهجرْ

وأهـــل صـــرواح وضـــهر وهكـــر بـــددهم ريـــب الزمـــان عـــن قـــدر

وقال خلف[4]:

لن تدفع الأحراس[5] عن رب مأرب منيّتـــه ومـــا حواليـــه مـــن قصـــر

ترقـــى إليهـــا تـــارة بعـــد هجمـــة بـأمراس كتـان أُمِـرّت إلـى شـزر[6]

وقال السموأل[1]:

---

(1) لعله جلازر (كلازر) الذي نقل عنه المؤلف فيما سبق.

(2) البيتان للهمداني في الإكليل100/8، ودون نسبة في معجم ما استعجم 1171/4-1172.

(3) في المطبوع: الهى، والمثبت عن الإكليل.

(4) البيتان لخلف في الإكليل 100/8، ونسبهما الهمداني في شرح القصيدة الدامغة (ص462-463) لجهم لجهم بن خلف، ومثله في معجم البلدان: (مأرب). قلت: لعله جهم بن خلف المازني الأعرابي، من مازن تميم، له اتصال في النسب بأبي عمرو بن العلاء المازني المقرىء. وكان جهم راوية علاّمة بالغريب والشعر وكان في عصر خلف الأحمر والأصمعي وكان الثلاثة متقاربين في معرفة الشعر. ولجهم شعر مشهور في الحشرات والجوارح من الطير. ترجمته في الفهرست 52، معجم الأدباء 801/2، إنباه الرواة 271/1، الوافي بالوفيات 209/11، بغية الوعاة 289/1.

(5) في معجم البلدان: الأحساب.

(6) في المطبوع: يا من أمر كان أمرت على سير، والمثبت عن المصدرين السابقين، والأمراس: الحبال، الحبال، والشَّزْرُ: فتل الحبال بطريق معاكسة من اليسار إلى اليمن وهو أشد أنواع الفتل، والشَّزْرُ أيضا: الشدّة والصعوبة في الأمر.

إن امــرأ أمـــن الحـــوادث جاهـــل   يرجـــو الخلـــود كضـــارب[2] بقـــداح

مـــن بعـــد عـــاديّ الـــدهور ومـــأرب   ومقـــاول بـــيض الوجـــوه صـــباح

مـــرّت علـــيهم آفـــة فكأنمـــا   عفـــت علـــى آثـــارهم بمتـــاح

وفيه يقول الهمداني:

وجنتـــا مـــأرب مـــن بعـــد ذا مثـــل   والعـــرش فيهـــا وســـد وســـط واديهـــا

مـــا بـــين طـــودين لا دار[3] ولا كثـــب   وجريـــة الســـد طـــول الـــدهر يســـقيها

كأنهـــا حـــين يهـــوى مـــن مثاعبهـــا[4]   كواهـــل الصـــهب إذ دنـــت هواديهـــا

وتـــارة إن تعـــالى المـــاء عاريـــة[5]   جـــدر مجصصـــة نالـــت[6] ســـواريها

تســـقى بهـــا جنتاهـــا ثـــم بعـــدهما   مســـافة الخمـــس موصـــولاً لياليهـــا

تغـــدو النواصـــف بالأطبـــاق تملؤهـــا   مـــن كـــل فاكهـــة بـــالكف تحفيهـــا[7]

ولـــيس يمنـــع نفسًـــا أن توافيهـــا   منهـــا عجائبهـــا إلا ثمانيهـــا[8]

وعرشـــها شـــاهق مـــن فـــوق أعمـــدة   مـــن الرخـــام ســـواقيها تحاذيهـــا

حروفهـــا لنـــواحي البئـــر مرهفـــة   إذ العيـــون بطـــول الســـحب[9] يهميهـــا

فلـــو يقابـــل منهـــا حرفهـــا دقـــلاً   أو لينـــه كـــاد ذاك الحـــرف يبريهـــا

---

(1) الأبيات في ديوان السموأل، صنعة نفطويه، تحقيق واضح الصمد، بيروت: دار الجيل، 1996م، ص 123، الإكليل 101/8. وبعضا في طبقات فحول الشعراء 285/1-286، نسبها لسعية بن غريض، وربيع الأبرار 92/1، والبصائر والذخائر 187/8.

(2) في الإكليل: بضارب، وتابعه المؤلف، والمثبت عن الديوان وطبقات ابن سلام، والبصائر.

(3) في الإكليل: لا باد.

(4) المَثعَبُ: بالفتح، واحد مَثاعِب الحِياض. وانْثعَبَ الماءُ: جَرى في المَثْعَب، ثَعَبَ الماءَ والدَّمَ ونحوَهما يَثْعَبهُ ثَعْباً: فَجَّره، فانْثعَب. اللسان: (ثعب)

(5) في الإكليل: وتارة إذ تعالى الماء غاربه.

(6) الإكليل: مالت.

(7) الإكليل: تجنيها.

(8) الإكليل: إلاّ تمنيها.

(9) الإكليل: السجل.

في طول عشرين بعد العرض كاملة	**حصن بليغ طويل الباع يحويها**
وفوقها مثلها والعرش منتصب	**من فوقها وخرير الريح يدويها**
فليس منظرها إلا لمضطجع	**من علوّها قد يكاد الغيم يخفيها**
من تظل بها أملاك ذي يمن	**تظل تخترق الأرواح تلهيها**
فأخلقت بلباس الدهر جدتها	**تظل صادحة فيها تغفيها**
ولا يحيط بإحداهن ما قدرت	**من بعد خمس حسيسا في كراسيها**
ورأسها قبة كالنجم بيضتها	**ومقنع الرأس كرها من تنائيها**
وحولها الطير وسط الجو عاكفة	**ولابس الحلة الشوهاء يلهيها**

وقال علقمة بن ذي جدن:

ومنا الذي دانت له الأرض كلها	**بمأرب يبني بالرخام ديارا**

وأعمدة العرش السفلى قيام إلى اليوم، لو اجتمع جيل على أن يصرعوا واحدة منها لم يقدروا لأن كل عمود منها نُقر له في الصفا، ثم أُلقم أسفله، ثم صُبَّ بينهما القطر، ويسمى قصر بلقيس سلحين:

قال علقمة بن ذي جدن:

لو رأيت القشيب بعد بهاء	**خاويًا هُدّ بعضه فوق بعض**
وأقاويل مأرب قد تولوا	**بعد عقد الأمور منهم ونقض**

وقال علقمة أيضًا:

أبعد غمدان حين أمسى	**يسفى به المور والرياح**
يا عين سلحين فاندبيه	**إذ هاض من أهله الجناح**

وقال أيضًا:

وقصر سلحين قد عفاه	**ريب الزمان الذي يريب**

تعـــوي الثعالـــب فـــي قراهـــا ... مـــا فـــي مســـاكنها عريـــب

وقال تبّع:

ومـــارب قـــد نُطِّقـــت بالرخـــام ... وفـــي ســـقفها الـــذهب الأحمـــر

ويُقال أن مأْرِب ومريب قبيلتان من العرب العاربة.

وقال علقمة:

أولا تـــرين وكـــل شـــيء للـــبلا ... ســـلحين خاويـــة كـــأن لـــم تعمـــر

وأما قول الناس أن الشياطين كتبت في نقش مساند اليمن بين سلحين: "سلحين تسعة وتسعين خريفًا وابال، وبين صرواح مراح وبنون بوحاضة ابدين وهند وهنيدة وسنعه المجاله بقاعه وتلفما بريده ولولا صارخ بتهامة لأثرنا بالبون علامه".

فإنما هذا الكلام لبعض حمير، وإنما هو: "يبين بينون بحر وبينون وبنوبنين سوفتين وشوافيق برحامه"

ويقول: معنى قوله بيننا بينون نحن وأولادنا وأولاد أولادنا حتى فني منا كثير وبنينا أفيق بعلامة البناء على النصب التعب.

وقال تبّع يصف مأْرِب:

أولـــدتني مـــن الملـــوك ملـــوك ... كـــل قيـــل متـــوج صـــنديد

ونســـاء متوجـــات كبلقـــيس ... وشـــمس أكـــرم بهـــا مـــن جـــدود

ملكـــتهم بلقـــيس عشـــرين عامًـــا ... بـــأولي قـــوة وبـــأس شـــديد

ولهـــا جنتـــان تســـقيهما عينـــان ... فـــارا بســـدها المســـدود

لا تبـــالي أن لا تـــرى الغيـــث فيهـــا ... جاءهـــا الســـيل مـــن مكـــان بعيـــد

عرشـــها طولـــه ثمـــانون باعًـــا ... كللتـــه بجـــوهر وفريـــد

وبـــدر قـــد قيدتـــه ويـــاقو ... ت وبـــالتبر أيّمـــا تقييـــد

فلـــو أن الخلـــود كـــان لحـــي ... باحتيـــال وقـــوة أو عديـــد

أو بملـــك لمـــا هلكنـــا وكنـــا	**مـــن جميـــع الأنـــام أهـــل الخلـــود**

وقـال محمـد بـن خالـد: "كانـت الملوك تسـكنها (أي تسـكن مـأْرِب)، وحينًـا تسكن صنعاء، فإذا أرادوا الخلوة خرجوا إلى المقلاب بغيمان، وحينًا تكون بمأْرِب في قصر سلحين، فإذا حانت خلوتهم خرجوا منه إلى المذوب في غمدان مأْرِب، وحينًا يكونون بظفار في ريدان، فإذا حانت خلوتهم كانوا بأضرعة"[1].

فائدة:

جاء في حاشية على بعض النسخ ما لفْظه: سُئل رسول الله ﷺ عن سبأ: أبلد هو أم رجل أو امرأة، فقال: ((هـو رجل أبو العشرة سكن اليمن منهم ستة، والشام أربعـة، فاليمـانيون كنـدة ومـذحج والأزد وأنمـار وحِمـيَر والأشـعريون، والشـاميون لخـم وجذام وغسان وعاملة)). وفي مسند عن بينون نقش بالحميرية:

بـــين بينـــون بحـــر وبنـــون	**وبنـــو بنـــين ســـوفتين**
وبينـــون قصـــر حميـــري قـــديم	**وثنـــين افيـــو رحامـــه أبـــدين**

ويقول الأعشى في سد مأْرِب[2]:

كفـــى ذاك للمؤتســـي أســـوة	**ومـــأْرِب قفـــا عليهـــا العـــرم**
رخـــام بناهـــا لهـــم حميـــر	**إذا جـــاء مـــاؤهم لـــم يـــرم**
فـــأرووا الحـــروث وأعنـــابهم	**علـــى ســـاعة مـــاؤهم ينقســـم**

ويُقال: أنه يوجد بمأْرِب كنز قد كنزته الفتاة بلقيس وسوف تظهره الجن.

وبهذه المناسبة أقول: ذُكروا لي أنه يوجد جرف في إحدى شعاب جبل بلق الأيمن، وهذا الجرف مسحور، وفيه كنز عظيم قد يكون كنز بلقيس أو غيرها، ولكن لم يتمكن أحد أن يدخله ويصل إلى بابه الأخير – أي السابع – لأن الجن تطفئ السراج، وتظهر تارة بمظهر خشن عظيم، وطورًا بشكل حيوان غريب له أذنان

---

(1) نهاية النقل عن كتاب الإكليل.

(2) سبق ذكر أبيات الأعشى قبل قليل.

كبيرتان، يضع أذنه الواحد تحت رأسه حين ينام، ويضع أذنه الثانية فوق جسده كغطاء، وأحيانًا تظهر بمظهر حيوان عظيم له عنق طويل وشكله مرعب ومخيف، فزرت هذا الجرف بنفسي فوجدت جميع ما كُتب عنه لغوا، وحقيقته أنه مغارة تأوي إليها الخفافيش، وعلى مر السنين ملأتها بزبلها، فصارت تفوح منها الروائح الكريهة، ولا يجسر بدو هذه البلاد على الدخول إليها. وهذا هو الجرف المسحور الذي طالما عللتُ نفسي باكتشافه أثناء الطريق.

الملاحق



محاضرة مستر كراين(*)

عن جزيرة العرب - أو الحجاز واليمن

في جمعية الرابطة الشرقية

لأسباب عديدة قمت في هذا الشتاء برحلة في البحر، الأحمر وقد سبق لي أن زرت قبل هذه المرة (جدة) وأعجبت كثيراً بمناظر البحر، وأني طفت معظم بحار العالم فلم أر له مثيلاً بها، فبينما ترى فيه الزرقة القاتمة تراها تخضر ثم تحمر وتميل إلى لون الذهب، وترى شاطئاً رملياً أصفر ومن ورائه سلاسل طويلة من الجبال الوردية القفراء.

إن طراز الحياة في موانئ البحر الأحمر الصغيرة لا يزال كما كان عليه منذ قرون عديدة، ففي عرض هذا البحر تمخر السفن العظيمة بين السويس وعدن دون أن تحدث أثراً في هذه المواني القديمة التي ما زالت تحتفظ بعاداتها الأولى لعلاقاتها بالحج والحجاج.

إني مولع برؤية الحياة الإسلامية القديمة التي شاهدتها في مصر والشام والقسطنطينية عندما أتيت هذه البلاد منذ خمسين عاماً، ولكن هذه البلاد الآن أضاعت رونقها القديم، وتغير فيها طراز الحياة تغيراً محسوساً، ويقال إن (بخارى) أيضاً أضاعت أسواقها الجميلة القديمة، ولذلك سررت كثيراً منذ أربعة أعوام لما رأيت

(*) مستر تشارلس كراين من أكارم رجال الأمة الأمريكية وتولى مناصب عالية في دولتها نعرف منها أنه كان سفيراً للولايات المتحدة في الصين، وعهدت إليه رئاسة اللجنة الأمريكية التي أرسلت لاستفتاء أهل سورية وغيرهم في مصير بلادهم بعد الحرب بناء على مبادئ صديقة مستر ولسن الذي كان رئيس جمهورية حكومته، وكان صاحب الكلمة العليا لدى دول الحلف البريطاني اللاتيني لأنه هو الذي أنقذ هذه البلاد من بطشة ألمانية الكبرى. ومستر كراين قد طاف أقطار الشرق واختبر المسلمين فأحبهم وعرف فضل دينهم وعرّف به كما يُعلم من محاضرته هذه، وقد آلمت بعض من سمعها من متعصبي أبناء جلدته وإخوان ملتهم، وقد حضرها في نادي جمعية الرابطة الشرقية جمهور منهم ومن المصريين والسوريين وغيرهم، وكان يترجم كلامه بالعربية جعفر ولي باشا المشهور جملة جملة. وما ننشره هنا ترجمة ما كان كتبه لإلقائه ولكنه زاد في أثناء الإلقاء مسائل وإيضاحات أخرى فنشير إلى بعضها في الحواشي. (محرر المنار). قلت: كافة الحواشي والتعليقات على المحاضرة هي لمحرر المنار.

أن جدة لا تزال محتفظة ببهائها الإسلامي القديم، وبحجاجها المحرمين، وبوسائط نقليتها القديمة ألا وهي الجمل والفرس والأتان، وأن أسواقها المعوجة الصغيرة لا تزال ملأى بالتجار الشرقيين يروحون ويغدون فيها، وتنحصر تجارتهم في بعض الأشياء الضرورية وبعض المصنوعات اليدوية.

إن شبه جزيرة العرب هي مهد الأنبياء ومهبط الوحي، ولما كنت أهتم كثيراً بهذه الشؤون شئت أن أتقرب بقدر الإمكان إلى حياة هذه الجزيرة التي كانت تنجب الأنبياء آونة بعد أخرى، ومن البديهي أن البلاد المتمدنة لا تنجب أنبياء .

ومن أهم الأشياء في الجزيرة الآن الحركة الوهابية التي ترمي إلى الرجوع لحياة التقشف كما كانت عليه الحال أيام النبي محمد. نحن في الغرب نقول إن التاريخ لا يعيد نفسه، ولكن لهذه القاعدة شواذ في الصحراء، فالحياة فيها دائماً تعيد نفسها.

يقال إن الدين في العالم منشؤه بعض الشخصيات البارزة التي تضيء كالأنوار مثل بوذا[1] والمسيح ومحمد، وهذه الشخصيات لها حياة خاصة وتعاليم خاصة وأتباع خاصة، ولكنها عندما تختفي يقوم بعدها بعض الأتباع الذين كانوا مقربين إليها كثيراً ويفسرون أعمالها وينشرون أخبارها، وهم المعروفون بالتلاميذ أو الصحابة، ولكن النور الأصلي يضعف عندما ينتقل إليهم، ومن بعدهم تقوم الهيئات الدينية وتنشر أعمال تلك الشخصيات حسب ما يتراءى لها، وبذلك يزداد ضعف النور، ولاشك أن بوذا لو بعث حياً الآن لا يوافق على أن الصينيين واليابانيين يتبعون حياته وتعاليمه وخصوصاً متى شاهد البون الشاسع بين تعاليمه الصحيحة وبين تعاليم كهنوت اللاميين[2] وأنه لا يمكن للمسيح أن يعترف بأن أوروبا الحديثة المعروفة بمسيحيتها والتي يقال أنها تتبع حياته وتعاليمه هي حقيقة مسيحية[3].

لقد أدرك محمد شيئاً من أمر هذا التحريف الذي لعب دوراً مهماً في تاريخ الديانات القديمة على مر الأيام ولذلك حدد أقواله بحديثه وأظهر بصورة واضحة

---

(1) هو زعيم الدين الذي ينتمي إليه مئات الملايين في الهند والشرق الأقصى، والظاهر أنه كان من الأنبياء الذين ضاعت كتبهم فتمكنت الوثنية من أتباعهم.

(2) هم أهل التبت نسبة إلى اللام وهو لقب رئيسهم الديني.

(3) قد خص بالذكر سوء حال أورية بعد الحرب الكبرى إذ صار ... وبين تعاليم المسيح أشد مما كان قبلها كما أنه صرح بأنه رأى في هذا العهد أن الإسلام قد ضعف وضؤل نوره في مصر والشام والآستانة عما كان عهده قبل عشرات السنين في هذه الأمصار. وقوله هذا يؤيده قوله تعالى في المسلمين: ﴿وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ من قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

علاقة المسلم مع خالقه، ولم يترك ميداناً واسعاً لتدخل الهيئات الدينية من بعده، ومع هذا كله رأينا أن الدين الإسلامي عندما ابتعد عن مركزه الأصلي في الصحراء وأخذ يتزاحم مع غيره من الديانات والمدنيات في العجم والصين مثلاً خرج عن الصراط المستقيم، وأضاع شيئاً كثيراً من بساطته وبهائه .

ولما كانت الحياة في نجد بعيدة عن مثل هذا الضغط وبعيدة عن المدنية الحاضرة فلا شك أن هذه البلاد هي المكان الوحيد المعد لحفظ علاقة المسلم الحقيقية بخالقه بصفة لا تشوبها شائبة، وقد ظهر الآن أشياء عديدة تثبت جميعاً أن القاعدة الأساسية في الدين الإسلامي والمسيحي واليهودي هي علاقة الإنسان ... وأصبح الاعتراف بهذه الحقيقة أمراً لازباً لأن البولشفيك ينظمون دعاية عن جميع الديانات وقد وجهوا سهامهم إلى قلب هذه الحقيقية الظاهرة ألا وهي وجود الخالق وتدبيره لهذا الكون، وقد أدرك العالم المسيحي هذا الخطر وأصبح ميلاً إلى ترك الجزئيات والتمسك بالكليات، ويوجد في الغرب أناس كثيرون يعتقدون بوجود الخالق ويسعون لطاعته . ولاشك أن العالم لم يشهد منذ أول التاريخ إلى عهدنا هذا ثورة شديدة على الدين كالثورة التي يديرها البولشفيك .

يوجد بين المسيحيين طائفة صغيرة تقول بالتوحيد وتشابه عقائدهم هذه الديانة من وجوه عديدة العقائد الإسلامية القديمة، وقد ظهر بين أفرادها كثير من العظماء الذين أفادوا العالم فائدة تذكر فتشكر، ففي النمسا مثلاً ظهر بعض أفراد منها للعالم، وشغلوا وظائف سامية، وكانوا موضع إعجاب جميع من عرفهم، وفي أمريكا ظهر أيضاً بعض أتباع هذا المذهب المحترم وكان في مقدمتهم الرئيس (ايليوت) الذي بقي مدة أربعين سنة رئيساً لأعظم جامعة أميركية ألا وهي جامعة (هارفرد) وقد توفي في السنة الماضية عن عمر جاوز اثنين وتسعين عاماً ولاشك أنه كان أحد رجال أمريكا العظام[1] وقد كان يهتم كثيرا برحلاتي إلى البلاد الإسلامية، وشعر أنه من الواجب أن يحصل تعارف بين الموحدين المسيحيين وبين المسلمين، وكنت دائماً عند عودتي أزوره وأطلعه على جميع اختباراتي الحديثة. إنه بقي محافظاً على قواه العقلية إلى آخر دقيقة من حياته، وكان لصوته أعظم وقع على الأميركيين كما أنه

(1) زاد في الإلقاء هنا: ورؤساء المدارس عندنا أجل من رؤساء الجمهورية لأنهم الذين يربون رؤساء الجمهوريات وسائر الرجال العظام.

كان الخادم الأمين لحفظ الضمير الأميركي الحي، وعندما عاد يتكلم في موضوع سياسي أو تهذيبي أو اجتماعي كان يتكلم دون خجل أو وجل.

وقبلما أنشبت المنون أظافرها فيه شعر بدنوا أجله فقلت له: اسمع هذه الصلاة الإسلامية الجميلة وقرأت له: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ ۞ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞اهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ وقد أعجب بهذه الصلاة الوجيزة كثيراً وكانت هي آخر العهد بيننا، وكان صديقي هذا دائماً يتمنى الحج إلى شواطئ البحر الأحمر والتقرب من الحركة الوهابية لأنه هو نفسه كان بعيداً عن الظواهر الدينية الميكانيكية[1] وسأرسل إليكم عندما أعود إلى أمريكا جميع ما قاله عظماء الأمريكيين بشأن هذا الرجل الجليل عند وفاته .

إن بوذا والمسيح عاشا عِيشة روحية ولم يكونا يوماً من الأيام إداريين ولا فكرا أن ينظما الحياة الدينية، وأما محمد فكان نبياً وإدارياً عظيماً، وقد مد الله في أجله إلى أن تمكن من تنظيم الحياة الاجتماعية على أسس دينية، وها هو ذا ابن سعود ينسج اليوم على منواله، ويتبع سننه في كل خطوة بحزم وعزم، وهو يسعى لأن يوفق بين الحياة الاجتماعية وبين الشريعة الغراء. ولست مغالياً إذا قلت لكم إنه لا جنايات في مملكة ابن سعود، وأن البدو الذين مازالوا منذ الأزل يضربون في بلاد الله الواسعة ويغزوا بعضهم بعضاً أخذوا في عهده ينون البيوت الثابتة، ويشتغلون بالأشغال النافعة. ولا شك أن الأمن في الطرقات أصبح مستتباً، والتجارة في البلاد محمية، ومال الحاج مضموناً، وأسعار الحاجيات محددة.

فَلْيَحْيَى ابن سعود

إن الحماسة التي تدعم حركة كحركة ابن سعود الوهابية التي ترمي إلى إرجاع الدين الحنيف كما كان عليه قديماً تتعارض في بعض الأحيان مع العادات الإسلامية الحاضرة، وليس بالعجيب أن نرى (الإخوان) في حماستهم قد هدموا أشياء كثيرة ذات قيمة تاريخية ومعنى ديني للحجاج الذين يحجون إلى هذه البلاد المقدسة وقد

---

(1) يعني بهذا تقاليد الكنيسة النصرانية، وكل من عرف دين الفطرة بعد عن دين الصنعة.

قتلوا أثناء حماستهم بضعة آلاف حاج من اليمن[1] بينما كانوا قادمين إلى مكة بقصد الحج، واعتذروا عن عملهم بأن نيتهم كانت سيئة نحو الإخوان. ومع ذلك لاشك إن الأحوال الآن أحسن من ذي قبل، وإذا مد الله في عمر ابن سعود فالحالة تزداد تقدماً، والروح الاجتماعية تنتشر أكثر فأكثر بين العرب مستمدة نشاطها من بعد ابن سعود من روحه.

نزلت جدة في دار السيد محمد نصيف وهي كأنها مجمع علمي يحتوي على مكتبة عامرة يؤمه جميع أقطاب جدة وأشرافها و السيد محمد نصيف عالم محقق ورجل شريف يزوره جميع من يمر بجدة من العلماء والنبلاء قبل ذهابهم إلى مكة، وقد اجتمعت عنده بأناس كثيرين وتكلمت معهم بصراحة زائدة، وكان جميعهم عنوان اللطف بي والعطف علي، وأفهموني حقيقة سير الحياة بالحجاز في هذه الأيام، وبعد وصولي إلى جدة جاء سمو الأمير فيصل من مكة ورحب بي وتأكد بنفسه أن راحتي مضمونة وقال لي: إن كل شي في جدة تحت أمري .

في الليل كنت أدعوا الكثيرين ليسمعوني الأناشيد الوطنية والغناء العربي القديم والحديث. وكان بين هؤلاء المنشدين شيخان ضريران يترددان دائماً على دار السيد محمد نصيف، وقد أسمعاني مراراً ترتيل القرآن، والحق يقال ترتيلهما كان في غاية الإبداع. لا يسمح الوهابيون لأحد أن يغني غناء عادياً ولا أن يستعمل معازف موسيقية، وقد منعوا الحجاج المصريين من جلب المحمل التي كانت العادة أن يجلبوه مع موسيقى الحج[2] ولكنهم لا يتعرضون لترتيل القرآن، وقد تسامحوا معي في بعض الشؤون ولم يمنعوني من دعوة بعض البدو إلى داري وسماع أناشيدهم، وقد أسمعني أحد أصحاب القوافل بعض الأناشيد التي ينشدها الحداة من رجال القافلة أثناء سيرهم في البادية .

---

(1) السبب الصحيح لهذه الحادثة أ ن الملك حسيناً كان قد أثار في العسير لانتزاعها من ابن السعود والإدريسي وفي أثناء القتال بين ثواره وبين الإخوان وصل حجاج اليمن فظن الإخوان أنهم مدد من الملك حسين لابن عايض الذي أثاره لحربهم فأصلوهم ناراً حامية، ثم حزنوا لما علموا أنهم من اليمن واعتذر ابن السعود للإمام يحيى ورد إليه جميع ما كان قد أخذه الإخوان من جماعته.

(2) الصواب أنهم منعوا حرس المحمل من استصحاب معازف الموسيقى العسكرية فتركوها في جدة وأعادوها معهم إلى مصر عند عودة المحمل.

كان ابن سعود يوم زرت جدة في طرف البادية[1] ولم أتمكن من مقابلته، ولكنه تلطف وأرسل لي عدة برقيات تنم جميعها عن عطفه علي، وقبل سفري ببضع ساعات أخذت وأنا على ظهر الباخرة برقية منه أعرب لي فيها كثرة أشغاله، وأفصح عن أسفه الشديد لعدم تمكنه من مقابلتي، وتمنى لي سفراً سعيداً[2]. والحق يقال إن ابن السعود كالإمام يحيى لا يوجد حوله رجال عاملون يساعدونه في إدارة دفة الحكم فهو يعتمد على نفسه في كل شيء. وقد مضى عليه ثلاث سنوات ولم يزر في خلالها أرض نجد، ولذلك ذهب هذه السنة ليزورها ولينظر في شؤون الإخوان وتنظيم أعمالهم.

السيد أحمد السنوسي:

كان من جملة الأسباب التي حملتني على القيام برحلتي هذه رغبتي في مقابلة صديقي القديم السيد أحمد السنوسي الطائر الصيت الذي تعرفت عليه في بورصة في صيف سنة 1919 وكانت تلك الرحلة التي تعرفت إليه في خلالها من أهم الرحلات التي قمت بها في هذا العالم.

قلت إني قمت برحلات عديدة في هذه الأرض وكنت دائماً أدرس نفسية البشر في أطرافها، وقد أعجبت مراراً ببعض العقول التي لم تبلغها أيدي التهذيب وقابلت كثيراً من أصحاب هذه العقول ولا غرو أن مقابلتهم ساعة عملهم كانت

---

(1) الصواب أنه كان في المدينة المنورة.

(2) جاء في البلاغ 310 من بلاغات مكتب الاستعلامات السوري الذي صدر في 20 يناير سنة 1927 نص البرقيتين اللتين تبودلتا بين مستر كراين وملك الحجاز ابن السعود في رسالته للمكتب من جدة مؤرخة في 10 يناير وهذا نصها:

برقية المستر كراين

اسمح لي صاحب الجلالة قبل أن أبرح بلادكم أن أقدم لجلالتكم عظيم الامتنان لما لاقيته من الحفاوة من قبل نجلكم الكريم ومن قبل رجال حكومتكم الموقرة ولا سيما السيد محمد نصيف وإنني أضرع إليه تعالى أن يوفقكم لتوحيد صفوف شعبكم خاصة والمسلمين عامة.

وعساكم تعطفون على جميع الذين يعملون على إطاعة الله ويراقبون أعمالكم المجيدة باهتمام زائد والذين يعرفون أن لشعبكم الكريم المعتصم من مفاسد العالم بصحرائه الشاسعة خدمات جليلة مقدسة في هذا الدنيا ألا وهي حفظ كيان الدين الصحيح ونشره بين العالم من كل شائبة، وتفضلوا في الختام بقبول فائق الاحترام.

جواب جلالة الملك على برقية المستر كراين

أشكركم على حسن ظنكم بنا وأحيي فيكم هذه العاطفة الشريفة نحو أمتنا ورغبتكم في نجاحها وهذا أكبر دليل على سريرتكم وسمو مبادئكم فالله أسأل أن يعلي الحق ويؤيده، وإني آسف أن الظروف لم تمكننا من مقابلتكم فأتمنى لكم سفراً سعيداً.

نهاية الإبداع وهذه العقول لا تنمو إلا بين أصحاب الفيافي والقفار وكل ذرة لا بل كل خلية من خلايا دماغ هؤلاء الأشخاص هي حية في ذاتها، وحساسة لكل عارض يعرض لها، وسريعة في تنفيذ أحكامها، وحكيمة في استنتاجاتها. وأحمد السنوسي هو أحد أصحاب هذه العقول النيرة، ودليلي على ذلك أنه تمكن في برهة وجيزة من إيجاد مملكة تحيط بها القفار من كل الأطراف. منع الحلفاء عامة والطليان خاصة هذا الزعيم الكبير من العودة إلى بلاده وأهله بعد الحرب العظمى فاضطر أن يذهب من تركية إلى سورية فالصحراء ولا يزال إلى يومنا هذا هائما على وجهه من بلاد إلى بلاد بعيداً عن أهله وعائلته[1] ومع الأسف الشديد لم يهتم به أحد، وهو اليوم في العسير وقد أرسل أحد عماله إلى جدة ليفاوض ابن سعود فرأيت أن أراه لأطلع منه على أخبار السنوسي لأني قلت سابقاً إن من جملة الأسباب التي حملتني على هذه الرحلة هي مقابلة هذا الرجل العظيم، ولكن لم يؤذن لي إن أقابل ذلك الرسول. ويا حبذا لو اهتمت بعض الحكومات الإسلامية بشأن هذا الرجل العظيم ما دام شعبه قد حرم من زعامته وحرم هو من بلاده.

مدينة سواكن

زرت بعض المواني الواقعة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر وكان القصد من هذه الزيارة مشاهدة مدينة (سواكن) القديمة التي اعتاد الحجاج أن يأتوا إليها من قلب أفريقية ليبحروا منها إلى مكة وكانت قديماً بلدة تجارية عظيمة ولكنها اليوم خالية خاوية. ولا تمر بعض السنين عليها حتى تنعق فيها البوم والغربان، وذلك بسبب مزاحمة بور سودان ومصوع لها، ويوجد في سواكن قريتان من القش وأصل سكانها من الحجاج الذين انقطعوا في الطريق ولم يصلوا لا إلى مكة ولا إلى بلادهم، وكانت علامات الفقر الشديد بادية عليهم فلا زراعة ولا صناعة لهم ولا هم يتقنون كأهل الساحل صيد الأسماك.

---

(1) (المنار) كان قد ألقى رحله بمكة المكرمة فأكرم الملك عبد العزيز مثواه ثم سافر إلى عسير حيث آل الإدريسي من ذوي القربى وهو الذي وضع أساس معاهدة مكة المكرمة التي جعلت بلاد عسير وأمراءها تحت حماية ابن السعود.

الكلام على اليمن

من الحديدة إلى صنعاء

ذهبت من مصوع إلى الحديدة ميناء صنعاء وقد أعد لي الإمام جميع أسباب الراحة واستقبلني حاكم الحديدة أحسن استقبال. وهذه البلاد اليمانية الإسلامية العجيبة منزوية عن العالم أكثر من القطب الشمالي ولا يزال طراز الحياة فيها كما كان عليه قبل مئات السنين ولكنه يختلف كثيرا عنه في نجد.

لوجود جبال عالية بين صنعاء والحديدة ركبنا في رحلتنا البغال لأن البغال تسلك حيث لا تسلك الخيل ولا الجمال. وبعد ما انقضى على سفرنا من الحديدة يومان ابتدأنا نشاهد هندسة البناء في اليمن تختلف اختلافا كليا عن هندسة البناء في الحجاز وقد شاهدنا في طريقنا حقول شجر البن في بطون الجبال والوديان.

إن هندسة البناء في جدة ومكة والمدينة متقنة وجميلة، وتدل نوافذها الكثيرة الواسعة وأبوابها الكبيرة التي تفتح وتغلق بسهولة على حب القوم للضيافة، وعلى عراقتهم في المدنية وميلهم إلى ضبط الأمن، بعكس اليمن التي تدل على عزلة قراها وانفرادها في الأماكن العالية الوعرة التي لا يصل الإنسان إليها إلا بصعوبة على خوف اليمانيين من غزو بعضهم بعضا وعلى عدم استتباب الأمن[1] وتشبه أبنية هذه القرى القلاع الحصينة، والدور الأول منها يخصص للحيوانات، والدور الثاني للحبوب والذخيرة، و لا يوجد في هذين الدورين منافذ للنور ولا الهواء، وأما الأدوار الباقية وهي عادة اثنان فما فوق فتخصص للسكن ونوافذها صغيرة جداً لا يكاد يدخل منها الهواء ولا النور، وجميع هذه الأعمال تدل أن تلك الأبنية بنيت على هذا الشكل قصد الدفاع عن النفس.

ومن المعلوم أن القطرين اليمن والحجاز يختلف بعضهما عن بعض اختلافاً عظيماً ففي الحجاز سهول واسعة وصحارى مقفرة، وأما اليمن ففيه الجبال المرتفعة والوديان المنخفضة[2] وتختلف الحياة الاجتماعية فيهما اختلافا عظيما، فالحجاز

---

(1) المنار: إنما كان أكثر خوف أهل اليمن من الترك الذين ظلوا أربعة قرون.

(2) في الحجاز من الجبال والوديان مثل ما في اليمن وإنما الفرق بين القطرين أن اليمن قطر كثير النبات والشجر خلاف الحجاز.

المقدس بنظر المسلمين تأتيه الحجاج من جميع أطراف المعمورة سنويا لقضاء مناسك الحج ولذلك ترى أهل الحجاز مضطرين بحكم الضرورة إلى ضمان راحة الملايين من المسلمين بعكس البلاد اليمانية التي كانت ومازالت مغلقة في وجه جميع سكان الأرض وقلما يأتيها الزوار أو السياح وأهلها يخشى بعضهم من بعض ويخشون الدسائس التي يدسها لهم جيرانهم فلذلك تراهم معتادين شظف العيش ومعتصمين بالقلاع في رؤوس الجبال.

على أن الإمام أعد لي جميع وسائل السفر وكنت أينما حللت بالمساء أجد غرفة معدة لنزولي بها ولكنني اضطررت أحيانا إلى النزول في بعض الخانات القديمة الواقعة على طريق القوافل بين عدن والقدس. ولهذه الخانات أبواب ولكن لا نوافذ لها وفيها ممر طويل وغرفة واسعة خصص قسم منها بالحيوانات والقسم الآخر بالعائلة صاحبة الخان، وبديهي أن كثيراً من الأولاد يولدون في هذه الخانات وقد خطر لي عندما رأيتها أن المسيح ولد في مزود خان كهذه الخانات.

إن المناظر الطبيعية بين الحديدة وصنعاء جميلة للغاية وقد ممرنا بطرقات تعلو تسعة آلاف قدم عن سطح البحر ونزلنا في وديان عميقة حارة، وقد وصلنا إلى صنعاء في الليل على حين غرة، ولما كانت الشوارع لا تضاء بالأنوار وصلنا إلى الدار المعدة لسكنانا بصعوبة شديدة على ما كان من معونة أنوار الجند لنا، وأما الدار التي نزلنا بها فهي مؤلفة من دورين مبنيين بناء حديثاً جيداً وفيها حديقة تبلغ مساحتها أكثر من فدان أرض، وقيل لنا: إن هذه الدار بيعت منذ بضعة أشهر بمبلغ (150) ريال أميركي، أي ثلاثين جنيهاً مصرياً. وقد أخبرنا بعض الجنود الذين رافقونا في الطريق أن الجندي منهم يتناول راتبا يبلغ ريالين ونصف أميركيين في الشهر ويتناول ثلاثة أرغفة من الخبز لا يبلغ وزنها تسعمائة غرام، ولا يأكل الجند تقريباً غير الخبز، ولكن بعضهم يشتركون مع بعض أحياناً ويبتاعون شيئاً من اللحم ويطبخونه لأنفسهم مرة أو مرتين في الأسبوع، ومن العجب العجاب أن يرى الإنسان هذه الجنود رغم تناولها المقادير القليلة من الغذاء تحمل البنادق الثقيلة وتتمنطق بالعتاد الكثير وتركض على أرجلها مسافات شاسعة غير مبالية بالتعب أو شاعرة بالجوع.

زارنا ذات يوم أحد أمناء سر الإمام المدعو محمد راغب بك وهو تركي الأصل ولد في القسطنطينية وترعرع في ضواحي البوسفور قرب المدارس الأمريكية التي لي بها علاقات منذ زمن بعيد وقد حدثني عنها حديثاً طويلاً، ومما قاله: إن بعض أقربائه

درسوا فيها، وهذا كان لحسن حظي إذ أدخلني إلى حالة الوئام مع حضرة الإمام وكان باستطاعته أن يتوسط بيننا بطريق حكيمة.

وفي اليوم الثاني قابلنا الإمام على انفراد في غاية الحفاوة والإكرام، فقال لي: إنه يؤذن لي أن أذهب حيث شئت بتمام الحرية وأن آخذ رسم ما أريد أياً كان ما عدا رسم شخصه، وأنه لم يسمح لأحد غيري قدر ما سمح لي من الحرية في صنعاء.

إن الإمام في أوائل العقد الخامس من عمره قوي البنية نشيط الحركة، ولما كانت ولاية حكمه ضيقة الرقعة كان شديد الرغبة في أن يتولى إدارة شؤونها كلها بيده من جليلها إلى حقيرها. فهو يجلس كل صباح في مجلس يقصده فيه من يشاء ليسأل ما يشاء ويعرض ما لديه من أنواع الشكاوي والدعاوي. وعلاوة على ذلك فإنه يذهب يومياً إلى أحد الأماكن العامة دون حارس ولا تابع من الجند فيصرف فيه نحو ساعة، وقد يكون منفرداً تحت الشمس ولا يرافقه إلا رجل بمظلته الشمسية حيث يستمع الدعاوي وينظر في المعروضات المرفوعة إليه، فهو بذلك جامع في شخصه بين مقامي السلطان والخليفة معاً مستمداً قوة نفوذه من أنه [من] سلالة الإمام علي الصحيح الخلافة.

وأما ساعة ذهابه إلى المسجد يوم الجمعة فتلك ساعة خطيرة الشأن جلالاً وبهاء يشترك في إقامة معالمها الناس أجمعون، لأنه يوم المهرجان كل أسبوع.

وعندما يمر راكباً في العربة عائداً من الصلاة فلأقل إشارة يبديها أحد الشعب يوقف المركبة ليتقبل أي معروض أو يعنى بأي أمر يرى الناس فيه على أتم استعداد لقبوله والخضوع له.

وفي المملكة اليمانية جيش نظامي وجند من المتطوعة وكثيراً ما يشتركان بالإنشاد العسكري يضجان فيه بأصوات خشنة وهو يتضمن أبياتاً يترنمون بها بما أعطوا من قوة وحماسة، ويقال إنها أنشودة قديمة العهد .

ثم إن الإمام وإن أبدى لي حين مقابلته مزيد المجاملة وأباح لي الحديث على غاية الإخلاص، لم ير من الحكمة أن يظهر فرط العناية بي أمام الجمهور، إذ كان من الضروري له أن يحتفظ بمقام الاستقلال العظيم، بل بشيء من الاستخفاف بالأجانب مراعاة للقبائل الحربية المتعصبين في الحدود الشرقية من البلاد، فإن سلطانه وأحكامه نافذة في مملكته نظير ابن السعود لمجيئها عن طريق الدين، وعليها مسحة

من الشدة فيه كأنه يتخذ في السلطة نوع الحكم المتحد المزدوج. لأنه مع كونه زيدي المذهب شخصياً ومدار أحكامه على هذه القاعدة فإن ثلث شعبه[1] على جانب البحر الأحمر من أهل السنة ومنهم عدد معين يشغل بعض المقامات الصغرى في الحكومة.

الضرائب

أهل اليمن من ذوي الفقر الشديد، ولكنهم لانزوائهم في بقعتهم وانحباسهم عن العالم الخارجي لا يشعرون بهذه الحال. وإن المرء ليأخذه العجب كيف يُستطاع في هذه الفاقة أن تفرض الضرائب على اليمنيين وتجبى إلى الحد المؤذن بإقامة حكومة ولاسيما في تجهيز جيش في تلك المملكة كبير. ذلك لا ريب عائد إلى حذق من الإمام فريد.

والظاهر إن معظم واردات الحكومة هو من ضريبة العشر المفروضة على الحاصلات في عامة أنواعها، على أن الناس أباحوا لي أن العشر قد يترقى بعصرهم والتضييق عليهم إلى الربع ! وأنهم لذلك متألمون ناقمون.

المباني

قل أن ترى في مباني اليمن ما يقل عن ست من الطباق (أو الأدوار)، وأما البناء فعلى درجة عظيمة من مخالفات الجمال، ولم أر إلا القليل مما يدل على حسن الذوق سواء أكان في هيئة البناء أو مواده أم في ملابس الناس وغنائهم. وإنما يستثنى من ذلك بناء الجوامع. فإن منها عدداً يبدو فيه شيء من الجمال النسبي على ما فيه من بساطة الهندسة والرسم خلافاً لبناء المنازل. وبعض تلك الجوامع يرجع تاريخ تشييدها إلى عدة قرون، وقد ظننت لأول الأمر أن البنائين أتوا من القسطنطينية لهندستها وبنائها، ولكنهم أكدوا لي أن كلا الأمرين من صنع أهل البلاد أنفسهم.

---

(1) المنار: كذا في نسخة الترجمة التي أخذناها من الرابطة الشرقية، والصواب أن الأكثرية الساحقة من سكان تلك السواحل شافعيون ويندر وجود الزيدية فيها.

تعرفي إلى الناس

لم يكد يستقر بي المقام في صنعاء حتى بادر إلى زيارتي الجم الفقير من أهلها، وكلما أردت أن أدرس وجهاً من وجوه حياة اليمن كان أمري ينتشر بين الطبقات فكان يوافيني واحد أو جماعة ذلك الشأن: فقابلت الرؤساء للبنائين والتجار ورجال العسكرية ولا سيما العلماء وفيهم القاضي الكبير الذي يحمل سمة المسلم التاريخي القديم وبلغ بيننا التعارف مبلغه حتى أقبل لزيارتي المرار العديدة. ولقب (القاضي) في اليمن له معنى خاص فإنه يطلق عادة على طائفة ممتازة من جميع طلاب العلم كما أن كلمة (شيخ) تستعمل كذلك في الشمال .

سبأ وسد مأرب

كنت شديد الرغبة في الرحلة إلى سبأ وعلى الخصوص لمشاهدة السد القديم الذي كان مصدر خصبها وزهوها. إن مؤسس هذه المدينة هو (عبد شمس) الذي ابتدع عبادة البعل أو الشمس ثم أضاف إليها القمر وخمسة كواكب سيارة أخرى فتم بذلك عددها أي السيارات السبع فكان هذا العدد أصل تلك المدينة (سبأ) وقد بنى أيضاً سداً عظيماً بين جبلين بحيث ينشأ به خزان من الماء يحي المدينة وما حولها من الأرجاء ويهب لها الخصب والبناء .

ثم بعد 1500 عام تصدعت جوانب السد فطغى الماء على المدينة وما جاورها من البلاد ودمر كثيراً من القرى ولعل هذه الكارثة كانت أصلاً لحديث (الطوفان) .

وأما الإمام فمع أنه شديد الحرص على إعطائي كل ما أطلب إلا أنه قال لي في شأن هذه الأمنية: إن هذه الرحلة من المستحيلات، ومع أن سبأ لا تبتعد عن صنعاء أكثر من 75 ميلاً فهو لم يتمكن من الذهاب إليها إلا بعد أن أتخذ أشد الاحتياط لما أن قبائل تلك الناحية على أعظم جانب من التعصب (الذميم) يعدون ذواتهم حراس الكنز العظيم المقدس الباقي من آثار تلك العاصمة القديمة فلا يأذنون لأجنبي أن تطأ قدمه أو يقرب منها، ومما قال لي الإمام: إن بعثة ألمانية ذهبت للبحث في تلك الناحية قبل الحرب العالمية فلم يبق البدو على أحد من رجالها .

حفلة استقبال لرجوع ابن الإمام من سفره:

لم ينقض على نزولي صنعاء عدة أيام حتى ورد نبأ بمجيء ابن الإمام ولي عهد إمامته بعد يوم واحد. وكان غائباً عنها ثلاث سنين على رأس فرقة من الجند في القسم الشمالي من البلاد أي (صعدة) حيث يتشعب الطريق إلى شعبتين إحداهما تتجه إلى مكة والأخرى إلى نجد، فكانت عودته بالطبع حادثة ذات شأن .

فخرجت إلى بعد خمسة أميال من المدينة مع أكثر الأهالي ولاسيما الجيش ووقفنا لاستقبال القادم الكريم على أحسن ما يقال في الإجلال والاحتفال مما يدل على سمو مكانة ذلك الشاب عند عامة الشعب ذلك أن الإمام إنما يرتقي سدة الإمامة والحكم بانتخاب العظماء من شيوخ البلاد في اجتماع خاص.

ولما كان ولي عهده في الحكم أحد بنية الأحياء حق له هذا الاحتفاء والإكرام.

وبعد قدوم ذلك الأمير الخطير بأيام زرته فتوسمت فيه مخايل الحزم والعزم ودلائل الجد في الأعمال على شخصية جذابة ولكنها على صورة أضعف من شخصية والده العظيم .

يهود اليمن

إن قسماً يذكر من أهالي صنعاء يهود وهم يسكنون في حي خاص بهم ويقولون إنهم لقرنين مضيا كان يؤذن لهم بالسكن فيها حيث أرادوا. ولكن الحاكم في ذلك الحين أمر بذلك الفصل. وأنهم مع السماح لهم بالطواف أين شاؤا لقضاء الأعمال لم يكن يؤذن لهم بركوب غير الحمير من الدواب.

وقد زرت حي اليهود هناك مراراً عديدة وقابلت ربانيهم في معابدهم فرأيتهم كسائر مواطنيهم من أهل الفاقة ولكنهم بفضل ما أوتوا من الحذق والقبض على أزمة الحرف نراهم أرقى شيئاً من إخوانهم مما ينيلهم شيئاً من عطف الحكام مع ما بينهم وبين المسلمين من بلوى التفرقة المذهبية. وقد تعسر عليك التفرقة بين اليهودي والمسلم العربي لولا فارق من الشعر يتحتم عليه اتخاذه شعاراً له.

ثم إن هناك مسألة تاريخية تتعلق باليهود ولاسيما أول ظهورهم في اليمن، قال لي الإمام والشيوخ: إن اليهود كانوا في اليمن منذ فجر التاريخ ويروى أن (يارم)

يعرب الملك الذي ملك قبل المسيح بألفي سنة فصل العبرية عن العربية على أن الربانيين يقولون إن اليهود أتوا إلى اليمن من أورشليم سنة 200 قبل المسيح تقريباً.

وكنت حيث أذهب في اليمن نحو الجنوب أجد يهوداً حتى في أحقر القرى وأقذرها، وقد كان من بواعث دهشتي أني لقيت في قرية غاية في الفقر مبنية من القش يهودياً مرّ عليه فيها ثلاث سنين في حالة لا بأس بها يشتغل فيها صائغاً، فلم يكن ينجلي لي كيف يمكن وجود سوق للصياغة في مثل تلك القرية من بلاد الدنيا، ولكني فطنت للأمر لما علمت أن اليمنيين مولعون بزينة واحدة تستهوي أفئدتهم وهي الخناجر المنحنية ذات المقابض والأغماد المزينة أو المموهة بصنع الصياغ.

أعمال الإمام العمرانية

لقد وضح أن همّ الإمام الأعظم هو جيشه العزيز. ومع ذلك فهو يقول: إنه كثير العناية والاهتمام بأمر التعليم. والحق أن ذلك على قياس ضئيل محدود وبإصلاح الطرق أيضاً. فقال لي: إنه أصدر الأوامر لكل حاكم مدينة أن يقوم بشغل معين كل سنة يتعلق بإصلاح الطرق التي في نطاق حكمه، ويظهر أن بعض الحكام أتوا شيئاً من هذا الإصلاح مع بناء الجسور (الكباري) وكنا في طريقنا إلى عدن نسلك في الأحايين آثار من طرق قديمة لابد أن تكون قد بنيت بحذق وحسن نظر قبل الإسلام بنحو ألفي سنة على ما قيل. وفي سفرنا نحو الجنوب وعلى إحدى طرق القوافل المستغرقة في القدم الآتية من عدن إلى أورشليم كان من بواعث دهشتنا كثرة ما وجدنا من آثار التجارة فكثيراً ما كنا نمر وسط قافلة صغيرة من الجمال أو الحمير أو البغال وهي تتسلق المسالك العالية الوعرة. والظاهر أن من أسباب تلك التعسيرات في الطرق هو أن يجعلوها صعبة المسالك على الأجانب الذين يقصدون تلك الجهات.

من كلامي في وداع الإمام

في حديثي الأخير مع الإمام قبل الوداع تكلمنا في كثير من الشؤون المتعلقة ببلاده عسى أن أجد شيئاً أستطيع فيه خدمة ما له، فذكر أنه يوجد في اليمن قدر

وافر من المعادن الثمينة وأنه يرغب في الحصول على أهل العلم الواسع في المعدنيات ليقوموا بدرس الموجود فيها.

إنه يعسر جداً على هؤلاء الفقراء أن يزيدوا كثيراً على من عندهم من أدوات الزينة. وكل ما يأتونه من الجهود العميقة في هذا السبيل يؤسف له ويرثى. فإن الجندي هناك شديد الولوع بأن يشكل في وعاء رأسه عِذقاً صغيراً أخضر اللون، وأما الرجال والنساء فلرغبتهم في زيادة التجمل كثيراً ما يلجأ ون إلى النيلة وما تحديهم إلا قليلاً.

إن حاكم (صعدة) السابق المؤتلف الآن مع الإمام أنبأنا أن في (صعدة) وحولها اعتاد الناس من قرون أن يرقصوا نوعين من الرقص يشترك فيهما الرجال والنساء يشبهان نوعين آخرين من رقص أهل الغرب.

يوجد في اليمن نوعان آخران من الشعوب أو القبائل غير اليهود:

(أحدهما) يزعم أنه من سلالة قحطان أو (يقطن) وهو من أخلص الأجناس البشرية، حسن البنية والشكل، وقوي البأس، عادم اللحية، ربعة القوم عريض الجبهة، ويميل جلده إلى اللون النحاسي على اختلاف في المقدار. وآحاد هذه القبيلة يقلون من الملابس بحكم البيئة حتى إن شيوخهم ومقدميهم الذين يذهبون إلى عدن يضطرون اضطراراً إلى زيادة شيء من الملابس المصنوعة لهذا الغرض.

وأما الجنس الثاني: فإنسانه أطول قامة وعليه مسحة من الجمال وتراه على الغالب كامل اللحية كثير الملابس. ولما كانت درجة الحرارة الجوية واحدة في كل من البقعتين نرى أن مذهب الفيلسوف هربرت سبنسر تنجلي حقيقته في حال هذا الشعب "وهو أن الزينة تسبق الاكتساء " وأما هذا الجنس الثاني فيقال إنه من ذرية إسماعيل، وأنه أتى من الشمال وأن دمه ودم اليهود مشتركان.

همة اليمني في العمل

إن اليمني بما يتيسر له من عدة العمل الحاضرة يمكنه زيادة إنتاجه بكده وكدحه في العمل الذي يمتد من شروق الشمس إلى غروبها حالة كون الأمريكي بماله من تفوق العدة والأدوات تقدر قوته قوة أربعين حصاناً أو ما يعادل 250 من قوة

اليمني وتكون نتاج عمله على هذه النسبة. وإن من اعتاد حياة الغرب ليحار في هذا السؤال وهو: كيف يتأتى لشعب كأهل اليمن أن يعيشوا في بيئة كبيئته حيث أحوال الحياة تكاد تكون واحدة للإنسان والحيوان، وكيف يستطيعون تحمل مشاقها وشظفها؟!

لكننا بالرغم من ذلك كله نراهم عائشين مع قلة وسائل العيشة والراحة ونصب العمل دون أن تبدو منهم أمارات الشكوى المؤلمة.

ولقد انقضى على سكان اليمن القرون وهم في هذه الحالة من بؤس العيش وخلوهم من مادة البقاء لا يريدون شيئاً من حالة غيرهم في أمور المعيشة، ومع ذلك تراهم على الجملة قانعين راضين يحمون أرضهم وحكومتهم التي منها وعن يدها تنتج لهم هذه الأحوال.

أما بلاد الغرب فهي مع وجود أسباب الراحة والهناء -حتى لا أقول معدات اللذات والمسرات- ترى الناس لا ينقطعون عن التشكي والتبرم من أحوالهم وهم أبداً على قدم الانفجار والقيام بإيقاد نيران الثورات كلما أتاحت لهم الفرصة وأباحت لهم الأقدار ذلك.

إن سكان الجبال في جميع الأرض معروفون بحب الاستقلال وإيثاره على كل ما سواه من أمور الحياة مشهورون بقوة البدن وشدة البأس على نسبة بيئتهم وشظف حياتها، ومما يحسن ذكره ووقعه على الخواطر: أني لقيت رجلين يمنيين أحدهما يهودي والآخر مسلم زارا أميركا وبعد أن أقاما فيها عدة أعوام غلبهما الحنين إلى تلك الجبال اليمنية والتي ولدا فيها ورضعا لبانها وغذيا بهوائها ومائها وإذ جد بهما الوجد واستحكم الهيام عادا أخيراً إلى تلك الربوع ليقضيا فيها ما كتب لهما من بقية العمر.

ثم إن اليمنيين لم يكونوا يطيقون حكم الأتراك بحال ولا بوجه من الوجوه فلم يحولوا عن الاعتقاد بأن إمامهم هو الخليفة الحقيقي وأن لا خليفة إلا من تحدَّر من ذرية النبي. على أن هناك من ذراريه قوماً يدعون بالأسياد "على ما تعلمون".

الطب والعلاج في اليمن

ليس في اليمن شيء يسمى دواء وطباً حتى إن أحقر عشبة من أعشاب الأرض التي يتداوى بها أحياناً غير معروفة. فإذا أصيب أحدهم بألم لم يجد مفراً من تحمله، وإذا غلبته عادية الداء قضى نحبه بحكم الطبع بلا علاج ولا دواء. على أن هناك عشبه يغلب استعمالها عندهم هي (القات) فقد أُتي بها من بلاد الحبشة أيام أُتي بشجرة القهوة أيضاً. وعلى مقربة من ساحل البحر مدينة أشتهر فيها شجرتان غرستا فيها بادئ الأمر وهما شجرة (القات) وشجرة (القهوة) وقد تمكنت في اليمنيين عادة كعادة الانكليز وهي أنهم في نحو الساعة الرابعة من ظهر كل يوم يجلسون جماعات لتناول (القات) إذ يعدونه ممضوغاً منبهاً، ويزيدونه بهجة ولذة بتعاطي أقداح الحديث كما يتعاطى الندامى كؤوس المدام، ومع ما في هذا النبات من أذى إضعاف الأعصاب فإن كل يمني حتى الجندي العادي على أجره الذي لا يستحق الذكر يجتهد في اقتصاد شيء ما في سبيل تناول (القات). وكأن ذلك يذكرنا بعادة الكوكائين عند أهل الغرب.

عند ولادة الأولاد

إن طريقة ولادة الأم في اليمن شديدة القسوة. فالأمر الوحيد المساعد لها حينئذ هو الإتيان بمن ترقص على بطن المتألمة البائسة مدة المخاض(؟!)، ومع كثرة النسل فإن متوسط الوفيات وافر جداً. وقد قال لي أحد حكام المدن الكبيرة: إنه قد فقد 22 صبياً وهو عدد يستحق الذكر ويستلفت الأنظار حتى في أسرة عادية أمريكية. ومع ذلك فقد أبقت له العناية ثمانية أولاد على حالة حسنة من الصحة.



الملحق الأول

فاتحة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين. أما بعد، فقد كان بودي أن أجعل فاتحة هذه الرحلة في بلاد العربية السعيدة صورة حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين الإمام يحيى بن الإمام محمد حميد الدين، ولكن جلالته -ويا للأسف- لم يأذن لي كما أنه لم يأذن لغيري من الناس الذين زاروا صنعاء اليمن أن يأخذوا صورته، وليس هذه الصور التي نراها لجلالته بين الحين والآخر في الصحف والمجلات إلا صور خيالية وضعتها مخيّلة مخترعيها، وهي لا تشابه جلالته في كثير ولا قليل، ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترك كله، لذلك استعضت عن وضع صورة جلالته بوضع صورة خط يده الشريف، وقد التمست من جلالته أن يحرر لي ذكرى لزيارتي إلى مأرب والبلاد السبئية لتبقى كوثيقة تاريخية على ممر الأيام، وقد تكرم حفظه الله وتوّج لي هذه الوثيقة التاريخية ببعض الأسطر من خط يده الكريمة فجعلتها فاتحة لهذه الرحلة المباركة، وهاأنذا أثبتها بالزنكوغراف في الصفحة التالية.

وقبل أن أبدأ بوصف رحلتي في البلاد العربية السعيدة أرفع إلى حضرة صاحب الجلالة الجالس على عرشها شكري الجزيل على العطف والعناية والرعاية الملكية التي شملني بها كل مدة إقامتي في اليمن.

الملحق الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

"قد أذنا للهمام الأعز نزيه بك عافاه الله بالعزم إلى مارب وما إليها من البلاد السبئية وعزم في حفظ الله، وبلغ ما أمله من ذلك وعرض علينا بعض ما كان غير معلوم لدينا"

6 المحرم سنة 1355.

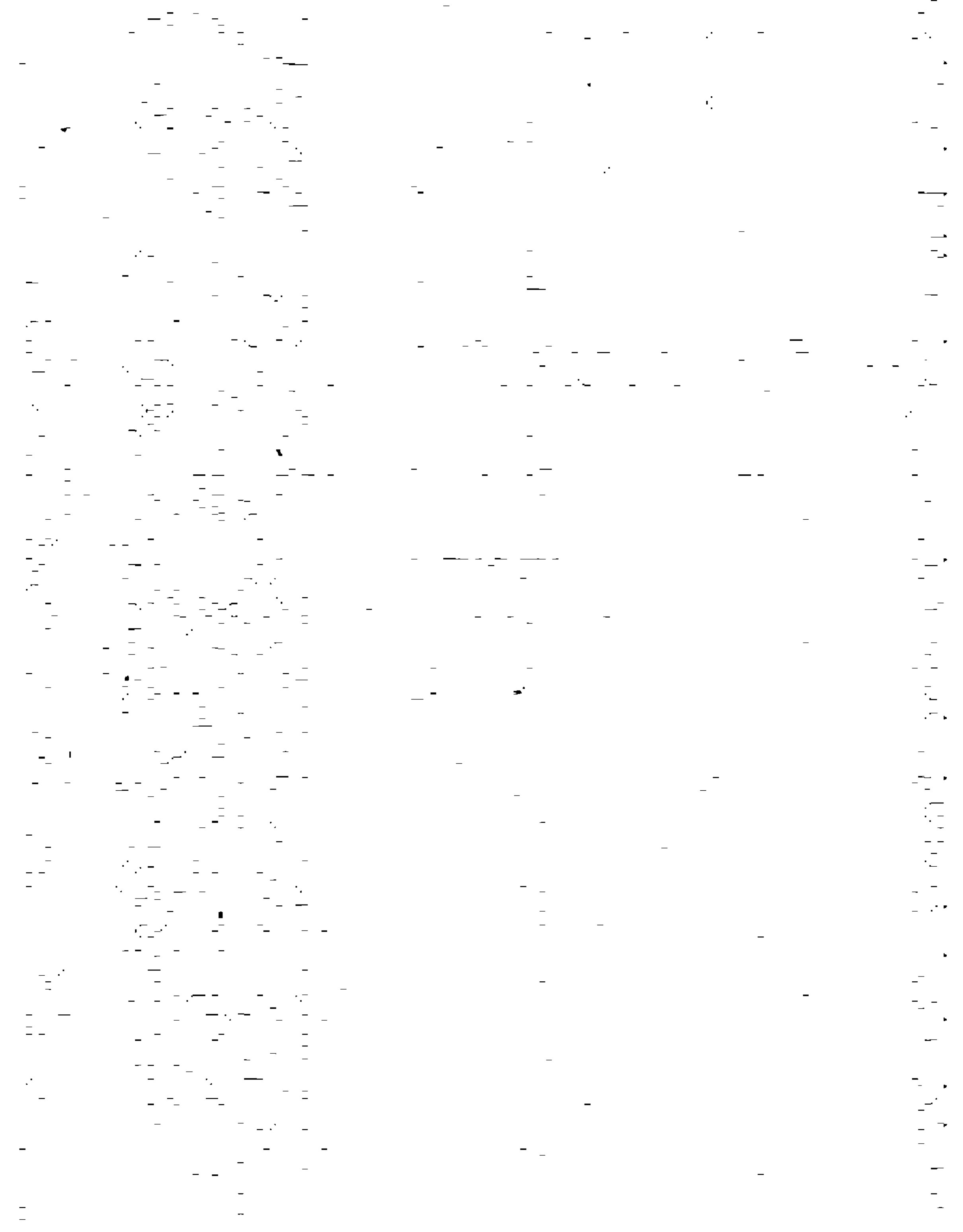
إهداء الكتاب

إلى حضرة والدي صاحب الجلالة أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين الإمام يحيى بن الإمام محمد حميد الدين، وصاحب الفضل والسعادة تقي بك المؤيد العظم.

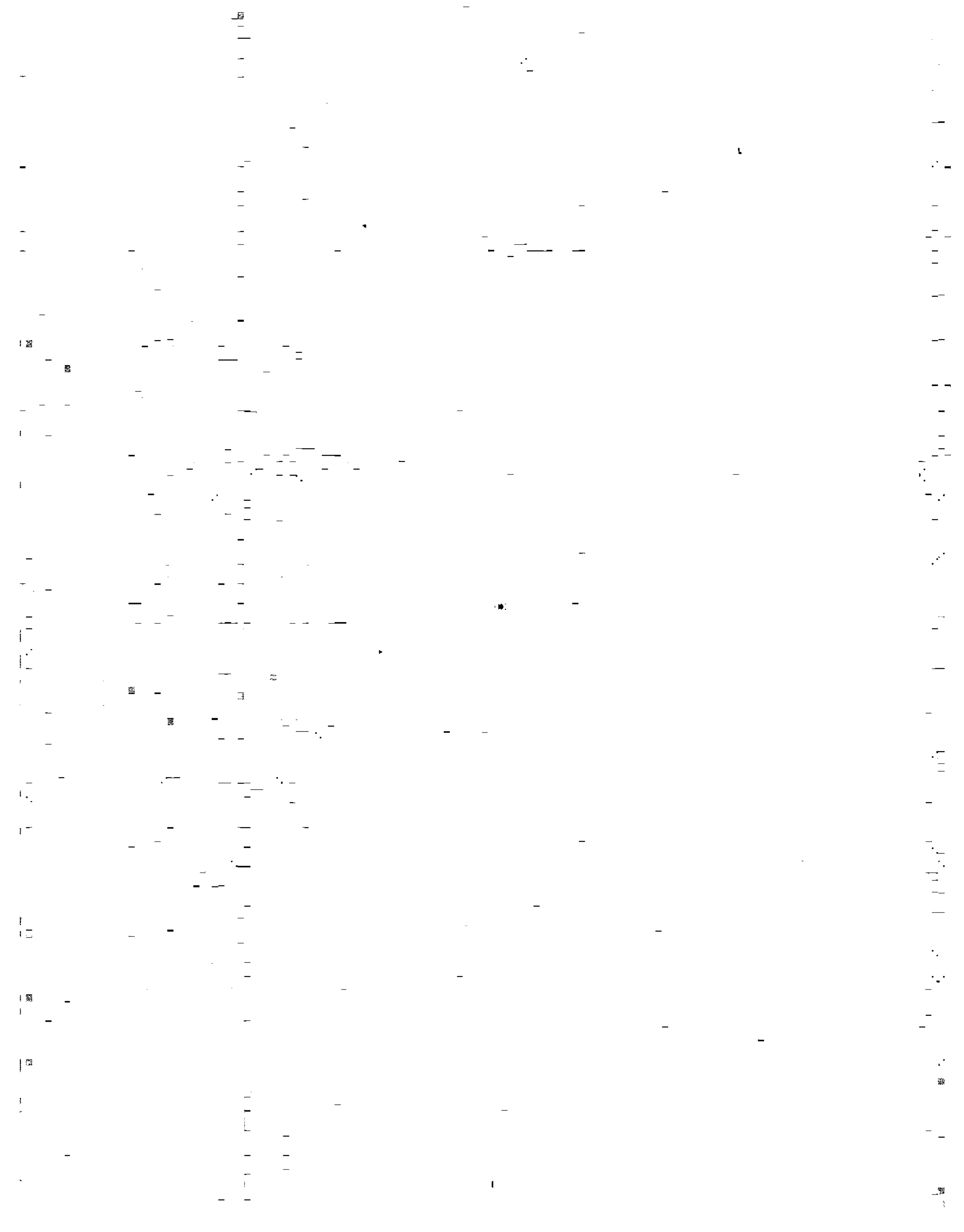
في نفسي شجون زاخرة لا تعرب عنها الكلمات وأي لفظ صدر عنها فأنتما معناه ومغزاه على حد قول الشاعر:

الدهر لفظ وأنت معناه

أجتزي بهذا وأتقدم إلى مقامكما بالتحيات الطيبات المباركات وجزيل الإخلاص والإكبار والإجلال.



الفهارس الكشافة



1

الآيات القرآنية

2
الأشعار

3
أعلام وأقوام وأديان

4

أماكن

5

حيوانات

6
كتب وصحف

7
معالم وآثار

8
منظمات وهيئات ومصطلحات

9
مواد ومعادن

10
نباتات

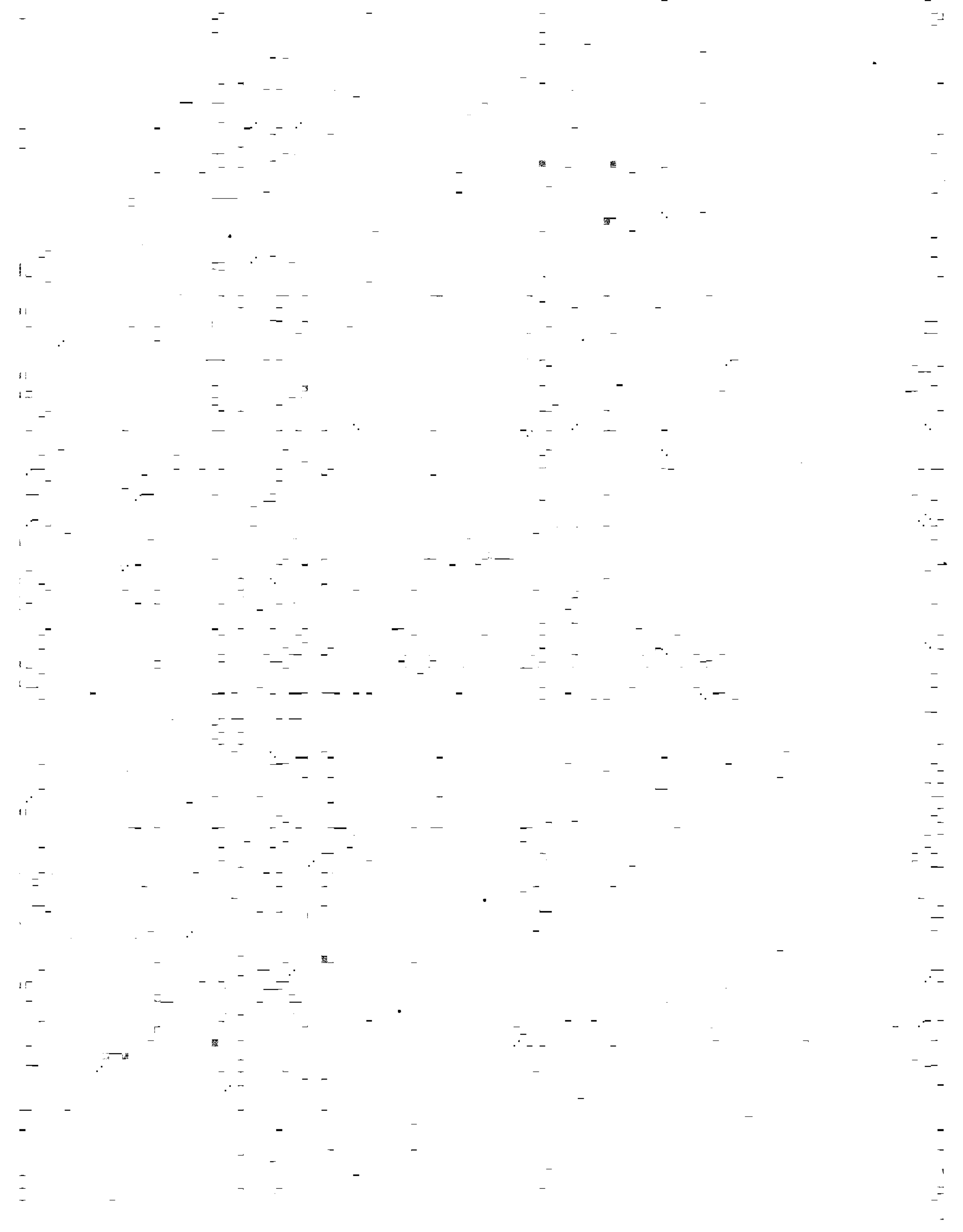
11
وسائل وأدوات

مصادر التحقيق

- أثر الهند في مدينة زبيد، بول بونانفان، مجلة حوليات يمنية، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الإجتماعية (صنعاء)، العدد 2 (2003م).
- الأسرة العظمية، عبد القادر العظم، دمشق: مطبعة الإنشاء، 1960م
- الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت: دار العلم للملايين، ط14، 1999م.
- الإكليل، الحسن بن أحمد الهمداني، تحقيق محمد بن علي الأكوع، بيروت: منشورات المدينة، 1407هـ/1986م.
- البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، للقاضي إسماعيل الأكوع
- بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، للقاضي حسين بن أحمد العرشي، تحقيق الأب انستاس ماري الكرملي، القاهرة: البرتيري، 1939م.
- تاريخ تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، عبد الواسع بن يحيى الواسعي، القاهرة: المكتبة السلفية، 1346هـ
- تاريخ فلسطين الحديث، عبدالوهاب الكيالي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979م.
- تكوين اليمن الحديث: اليمن والإمام يحيى (1904-1948م)، سيد مصطفى سالم، القاهرة: دار الأمين، ط4، 1993م.
- الثورة السورية الوطنية (مذكرات الدكتور عبد الرحمن شهبندر)، تحقيق محمد كامل الخطيب، دمشق: وزارة الثقافة، ط2، 1992م.
- الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، أمين سعيد، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (د.ت).
- خلاصة من تاريخ اليمن قديما وحديثا، للقاضي محمد الحجري، صنعاء: 1944م.
- رِحلة في بلاد العربية السّعيدة مِن مِصر إلى صَنعاء، نزيه مؤيد العظم، القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، 1357هـ/1937م.
- السلوك في طبقات العلماء والملوك، القاضي بهاء الدين الجندي، تحقيق محمد بن علي الأكوع، صنعاء: مكتبة الإرشاد (1993م).
- السياسة الأمريكية والعرب، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، 1982م.

- شرح قصيدة الدامغة، الحسن بن أحمد الهمداني، تحقيق محمد بن علي الأكوع، القاهرة: (د.ن)، 1978م.
- صفة جزيرة العرب، الحسن بن أحمد الهمداني، تحقيق محمد بن علي الأكوع، صنعاء: مكتبة الإرشاد 1410هـ/ 1990م.
- صفحات من الأيام الحمر (مذكرات القائد سعيد العاص)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1988م.
- صفحات من حياة نزيه مؤيد العظم، تحقيق د. دعد الحكيم، دمشق: وزارة الثقافة 2006م.
- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، علي بن حسن الخزرجي، تحقيق محمد بن علي الأكوع، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، وبيروت: دار الآداب، ط2، 1403هـ/1983م.
- القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات، محمد عزت دروزة، بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، 1984م.
- القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق، تأليف البريطاني ج. دي. ف. لودر، ترجمة نزيه المؤيد العظم، دمشق: 1925م.
- كتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث (د.ت).
- كلمات تركية في اللهجة اليمانية، القاضي إسماعيل الأكوع، مجلة المجمع العلمي العراقي، 13[1980م].
- مجموع بلدان اليمن وقبائلها، للقاضي محمد الحجري، تحقيق القاضي إسماعيل الأكوع، ط2، صنعاء: 1416هـ/1996م.
- محاضرة المستر كراين عن جزيرة العرب – أو – الحجاز واليمن في جمعية الرابطة الشرقية، مجلة المنار، م 28، ج3 (شوال 1354هـ/ مايو 1927).
- مخاليف اليمن، للقاضي إسماعيل الأكوع، أبو ظبي: المجمع الثقافي، 2002م
- مذكراتي في نصف قرن، أحمد توفيق باشا، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1936م.
- مروج الذهب للمسعودي، تحقيق شال بلا، بيروت: الجامعة اللبنانية، 1966م.
- مساجد صنعاء، للقاضي محمد الحجري، صنعاء، 1940م.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، تحقيق عبد الله يحيى السريحي، أبو ظبي: المجمع الثقافي (2003م).
- معجم البلدان والقبائل اليمنية، إبراهيم أحمد المقحفي، صنعاء: دار الكلمة، (1422هـ/2002م)

- معجم البلدان، لياقوت الحموي، تحقيق عبد الله يحيى السريحي، أبو ظبي: المجمع الثقافي (2002م)، وبعض أجزائه تحت الطبع
- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (عالية نجد)، سعد بن عبد الله بن جنيدل
- المعجم اليمني، مطهر الإرياني
- معجم ما استعجم، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق مصطفى السقا، بيروت: 1365هـ/ 1945م.
- مكنون السر في تحرير تحارير السر، تأليف يحيى بن محمد المقرائي، تحقيق الأستاذ زيد بن علي الوزير، صنعاء: مركز التراث وابحوث اليمني (2002م).
- ملوك العرب، أمين الريحاني، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر(1980م).
- ملوك حمير وأقيال اليمن، تحقيق علي بن إسماعيل المؤيد، القاهرة:(1968م)
- ملوك شبه الجزيرة العربية، تأليف الكولونيل: هارولد ف. يعقوب (جاكوب)، ترجمة السفير أحمد المضواحي، صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ودار العودة، بيروت (1983م).
- المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية، كارل توشل، ترجمة شكيب الأموي، القاهرة: مكتبة البابي الحلبي، 1955م.
- المملكة، روبرت ليسي، ترجمة دهام الطعاونة، لندن، 1987م.
- من ميسلون إلى الجلاء: (سيرة سياسية)، منير المالكي، دمشق: وزارة الثقافة، 1991م.
- المنار واليمن، الدكتور حسين عبد الله العمري: دمشق: دار الفكر، 1987م
- الموسوعة اليمنية، ط2، مؤسسة العفيف ومركز دراسات الوحدة العربية، (1423هـ/2003م).
- هجر العلم ومعاقله في اليمن للقاضي إسماعيل الأكوع، بيروت: دار الفكر المعاصر، 1995م
- اليمن والغرب، إريك مورو، ترجمة حسين العمري، ط2، دمشق: دار الفكر، 1987م.



ملحق

الفائزون بجوائز ابن بطوطة لأدب الرحلة

2008- 2009

ثلاثة عشر محققاً ودارساً ومؤلفاً عربياً من الجزائر ومصر واليمن والسعودية والعراق وسوريا والمغرب، والأردن يفوزون بـ"جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي" في سنتها السابعة وهي جائزة عربية مرموقة يمنحها سنوياً "المركز العربي للأدب الجغرافي: ارتياد الآفاق" ومقره ابو ظبي ولندن، يرعاه الشاعر محمد احمد السويدي ويشرف على أعماله الشاعر نوري الجراح. وقد اختيرت الأعمال الفائزة من بين أكثر من 130 عملاً تقدمت إلى المسابقة على مدار السنتين المنصرمتين. والفائزون هم: الباحث د. عبد القادر سعود (المغرب)، الباحث د. عبد الحفيظ ملوكي (المغرب)، الباحث الأستاذ ناصر خلاف (الجزائر)، الباحث الأستاذ عبد الله السريحي (اليمن/الإمارات) الباحثة د. نزيهة الجابري (المغرب)، الباحثة د. سميرة انساعد (الجزائر)، الباحث د. عمرو عبد العزيز منير (مصر)، الباحث د. عبد العزيز بن حميد الحميد (المملكة العربية السعودية)، الباحث د. بورايو عبد الحفيظ (الجزائر) الباحثة د. الخامسة علاوي (الجزائر)، الكاتب الروائي سعد القرش (مصر)، الكاتب الروائي وارد بدر السالم (العراق)، النحات والكاتب عاصم الباشا (سوريا/اسبانيا).

لجنة التحكيم

تشكلت لجنة التحكيم من 5 أعضاء من الأساتذة المختصين والأدباء العرب وبلغ عدد المخطوطات المشاركة في دورتيها الأخيرتين حوالي 130 مخطوطاً جاءت من 13 بلداً عربياً، وتوزعت على المخطوطات المحققة للرحلات القديمة والوسيطة، والرحلة العربية المعاصرة والدراسات والرحلة الصحفية واليوميات،. وقد جرت تصفية أولى تم بموجبها استبعاد عدد من الأعمال لم يستجب للشروط العلمية المنصوص عنها بالنسبة إلى التحقيق، واستبعد ما غاب عنه المستوى بالنسبة إلى الجائزة التي تمنحها الدار للرحلة المعاصرة والرحلة الصحفية واليوميات.

وقد نزعت أسماء المشاركين من المخطوطات قبل تسليمها لأعضاء لجنة التحكيم لدواعي السريّة وسلامة الأداء.

وكانت لجنة التحكيم أوصت إدارة الجائزة العام المنصرم 2008، بحجب الجائزة عن بعض الفروع، واقترحت إما الاكتفاء بتوزيع الجوائز على الفروع الفائزة بها، او تأجيل إعلان النتائج للعام القادم (الحالي) ودمج الأعمال المتسابقة معاً للسنتين 2008-2009، وهو ما أخذت به إدارة الجائزة والجهة المانحة لها.

وقد اجتمعت اللجنة على مدار أسبوعين واتخذت القرار النهائي بتسمية الأعمال الفائزة، والتي سبق واختارتها على مرحليتين، وجرى التوافق عليها. وقد برز في خيارات اللجنة أنها أعطت الفرصة في الدرجة الأولى للدراسات في أدب الرحلة، وبالدرجة الثانية لأعمال تحقيق المخطوطات، وفي الدرجة الثالثة لنصوص الرحلة المعاصرة والرحلة الصحافية وأدب اليوميات.

ملحق تعريفي موجز بالنصوص الفائزة بالجائزة

جائزة تحقيق المخطوطات

أُنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب وسيد الأعاجم والأعارب

(1040- 1042هـ) (1630- 1633م)

أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح

حققها وقدّم لها: عبد القادر سعود

تملك هذه الرحلة الحجية أهمية استثنائية لكونها أول رحلة تذكر لنا وتصف منازل ومحطات المسار الصحراوي إلى الحجاز انطلاقا من مدينة مراكش مرورا ببلاد درعة إلى بلاد فزان حيث يتوحد المسار وتلتقي الركاب ويبدأ التشابه بين الرحلات. كما أن في هذه البلاد (فزان) كان الركب المراكشي يلتقي بالركبين الفاسي والسوداني ، وفيها كان الركب المغربي يغادر التراب الوطني فيصبح مضطرا للتفاوض. مع عمال وأمراء البلدان التي يمر منها. لهذا فإن رحلة ابن مليح هذه تعد من المصادر التي تحتوي على معلومات تاريخية هامة تتعلق بالصحراء وعمالها من قبل السعديين من درعة إلى بلاد فزان. كما يمكن اعتبار سلوك الركب المراكشي لهذا الطريق الصعب مراقبة مقصودة للتراب الوطني الصحراوي من لدن السلطان السعدي.

وبالتالي فغن مسار هذه الرحلة غني بالتنوع والجديد الذي قد لا نجده أيضا في المعاجم وكتب البلدان والأقطار، وبانفراد الرحلة بهذا الجديد تبقى من المصادر التي لا يمكن الاستغناء عنها للوقوف على هذا المسار الصحراوي الذي قليلا ما كان يتخذ كطريق لحاج الركب المراكشي الذي تأسس في أيام الدولة السعدية وانقطع بعدها. لهذا ظلت هذه الرحلة القيسية من أهم المصادرالتي تتحدث عن الركب الرسمي الذي كانت تنظمه الدولة خلال الفترة الأخيرة من الحكم السعدي المتمثلة في عهد الوليد بن زيدان.

لقد بذل محقق هذه الرحلة استناداً على نسختها الفريدة المحفوظة بالخزانة العامة المغربية في الرباط جهوداً طيبة في قراءة النص وتحقيقه ودراسته دراسة متأنية أدت االغرض منها من دون حشو ولا إطناب، وقد استحق عن عمله هذا بامتياز جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات.

الرحلة الناصرية

أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي

المتوفى سنة (1129 هـ / 1717 م)

حققها وقدم لها: عبد الحفيظ ملوكي

رحلة حجازية تعود إلى أوائل القرن السابع عشر، قام بها محمد بن ناصر الدرعي، وهو من أصحاب الزوايا في الغرب الإسلامي. والرحلة تمتاز بوفرة المعلومات المستمدة من المعاينة الشخصية والملاحظة المباشرة في قراءة الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي زارها في طريقه من المغرب إلى الديار المقدسة. إن الكاتب يعطينا صورة عن التاريخ الاجتماعي والثقافي والسياسي للمناطق التي شملها خط الرحلة في المغرب والمشرق، فضلا عن ملامح من تفاعل الثقافتين المغربية والمشرقية. والرحلة تشتمل على كمية كبيرة من الشعر، وخاصة ما يدخل في باب المدائح والاخوانيات. وقد بذل محققها جهداً كبيراً في تخريج الأبيات الشعرية والآيات القرآنية وأسماء الأعلام ورصد مصادر الكاتب ومراجعه وموضوعاته. ليمكنه من بعد دراسة لغة النص وموضوعاته وخطوط السفر والشخصيات التي واجهها الرحالة، وتواصل معها في رحلته، وزمن الرحلة وقيمتها كأثر أدبي وتاريخي. وقد فعل ذلك ببراعة المحقق الأديب والباحث الأريب.

فاستحق عن عمله جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات.

مسلية الغريب

عبد الرحمن البغدادي

رحلة إلى أميركا الجنوبية (1864)

حققها وقدم لها: ناصر خلاف (الجزائر)

هذه رحلة من دمشق إلى أميركا مكتوبة أواسط القرن التاسع عشر من قبل فقيه ورحالة دمشقي من أصول عراقية، إنها وثيقة مهمة جداً عن عصرها، وهي بالتأكيد نص فريد من نوعه.

ستغتني به المكتبة العربية لأدب الرحلة. فباستثناء النص الذي كتبه الياس حنا الموصلي عن أميركا في النصف الثاني من القرن السابع عشر، نحن لا نحتفظ برحلة لعربي إلى أميركا ترقى إلى هذا التاريخ، بالمواصفات التي تحملها هذه الرحلة. والمعروف أن جل الرحلات إلى الأميركيتين وضعت في القرن العشرين.

قامت الرحلة من دار السعادة استانبول إلى البحر المحيط، إلى أن وجدت السفينة نفسها وعلى ظهرها الرحالة في البرازيل. ومن هناك تبدأ رحلة صاحبنا في الجغرافية البرازيلية فيصف الريو دي جانيرو وباهية وغيرها من المدن البرازيلية.

تفيدنا الرحلة بمعلومات عن بقايا العبودية في أميركا والاضطهادات التي وقعت على الأفارقة والثورات التي قاموا بها، ويتحدث عن وجود 5 آلاف مسلم في مدينة باهية. وتكاد تكون الرحلة مكرسة لرصد أحوال أفارقة البرازيل، فقد لقي هؤلاء بجذورهم المسلمة تعاطفاً كبيراً من جانب مؤلفنا.

وقد قام المحقق بتحقيق النص، الذي تم العثور عليه في المكتبة الوطنية في كراكاس /فينزويلا، بتكليف من "المركز العربي للأدب الجغرافي: ارتياد الآفاق". وبخروج هذا النص إلى النور يكون قد تم الكشف على نص مجهول سوف يدرس مستقبلاً على أكثر من مستوى لأهميته وفرادته، إن كنص أدبي لا يخلو من طرافة، أو كنص تاريخي.

وقد استحق المحقق على عمله بامتياز جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات.

من مصر إلى صنعاء

رحلة في بلاد اليمن العربية السعيدة (1927)

نزيه مؤيد العظم

حققها وقدم لها عبد الله السريحي

يضيء هذا النص على جغرافية اليمن وتاريخ وأحواله في الربع الأول من القرن العشرين خلال عهد الإمام يحيى. وهو موضوع بقلم مؤلف ينتمي إلى عائلة وطنية دمشقية عريقة كان منفياً في مصر سنة 1926 إبان الثورة السورية الكبرى عندما التقى بشارلس كرين، الثري الأميركي الذي كان ملقباً بصديق الشعوب المظلومة، وطلب مرافقته في رحلة إلى الحجاز واليمن. وهو ما جرى، وكانت ثمرة تلك الرحلة هذا الكتاب القيم الذي قام المحقق، وهو باحث رصين ومعروف من اليمن، بتكليف من "المركز العربي للأدب الجغرافي: ارتياد الآفاق" بإعادة تحقيقه، وتصويب

ما وقع فيه المؤلف من أخطاء تتعلق بتاريخ اليمن. مع الإشارة إلى ذلك في موضوعه. وقد قام بهذه المهمة بجدارة كبيرة استحق عنها جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات.

جائزة الدراسات

الرحلة السفارية من الإئتلاف إلى الاختلاف:

(مساهمة في التأسيس الدبلوماسي المغربي)

د. نزيهة الجابري

تناولت الباحثة في هذه المخطوطة رحلات الرحالة المغاربة في القرن التاسع عشر؛ الصفار والعمراوي والحجوي نموذجا، مبينة أهميتها، وبخاصة في رصد العلاقات الدبلوماسية بين المملكة المغربية وفرنسا في مرحلة هامة من التاريخ المغربي، إثر هزيمتين مما دفع الدولة المغربية إلى انتهاج سياسة" الباب المفتوح ."ومشاهدات الرحالة كانت تدفعهم للمقارنة بين أحوال الأنا وأحوال الآخر، في مستويات عدة كالتعليم والإدارة والتنظيم والتقدم الصناعي، وذلك من خلال رصد مكامن القوة لدى الآخر .وتشير الباحثة إلى اختلاف الدارسين في تصنيف هذه النصوص، مبينة التغييرات الإيجابية الجذرية، في المفاهيم والعقليات، التي حدثت بعد هذه الرحلات، مركزة جهدها المعرفي على النسق اللغوي والتعبيري للرحلة عامة، والسفارية المتسمة بلغتها الدبلوماسية، عل وجه الخصوص في إطار العلاقات الثنائية الرسمية بين الدولة المغربية والأجنبية، وهي فرنسا في هذه النصوص .ولا تنسى الدكتورة جابري أن تبين أن الرحالة المغاربة كانوا من الفقهاء أو المتمتعين بالثقافة الشرعية، ولعلها الميزة العلمية الوحيدة التي كانت بارزة في المجتمع العربي المسلم.

يمتاز هذا البحث بالغوص ببراعة ودقة وأناة في عباب النصوص واستخراج كنوزها المخبوءة واستكشاف ما سكتت عنه الرحالة لأسباب مختلفة. ولهذا استحقت صاحبته عنه "جائزة ابن بطوطة للدراسات".

الرحلات الجزائرية إلى المشرق

دراسة في النشأة والتطور والبنية

د. سميرة انساعد

دراسة محكمة سعت إلى الإجابة عن كثير من التساؤلات، حول الرحلة إلى المشرق، وعن الفترات الأولى من ظهورها في الأدب الجزائري، ومراحل تطورها، والتأليف فيها، وذلك من خلال أشهر ممثلي الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ومدى التنوع الكائن بين أعلام الرحلة، والمصادر التي خلفوها، في ناحية المقصد (المكان/ الرُّحلة)، والغرض من الرحلة، وظروف التأليف، والنشر،... وتمّ الاعتماد على مصادر الرحلة المستقلة، أو على نصوصها المتوفرة في كتب السيرة، أو المذكرات، أو المنشورة في الجرائد، والمجلات.

وقد هدفت الدراسة على الخصوص إلى اكتشاف خصوصيات المضمون، وطبيعة البناء الفني لتلك الرحلات، عن طريق التساؤل عن كيفية التحديد، والوصف الجغرافيين للطرق، والمدن في الرحلات، وعن طبيعة الشخصيات، وهوياتهم، ووظائفهم، وطرائق تصويرها لدى كتاب الرحلة، كما طرحت الدراسة إشكالية التمايز بين زمنين في نصوص الرحلات، وهما زمن الرحلة، وزمن التأليف.

كما بحثت في أبرز إطارين مكانيين في الرحلات، وهما مكان الرحلة، والمكان التاريخي. واستدعى البحث، التساؤل عن مكانة السرد في الرحلات، وأنواع الرؤى المستخدمة فيه، وعن طبيعة اللغة الموظفة في نصوص الرحلة، ومدى تنوعها، وكثافتها.

تضيء فصول هذا الكتاب جوانب من تلك الإشكاليات المطروحة سابقا، انطلاقاً من الوقوف على مفهوم الرحلة في اللغة، والقرآن والسنة، ثم مفهومها في الاصطلاح، وكذلك دواعي الرحلة، وأشهر أنواعها، ومفهوم أدب الرحلة، وأهميته، وتطوره عند العرب حتى القرن العشرين.

ولأهمية هذا البحث وما يترسمه من خلال الرحلات ويضيء عليه من علاقة المغرب بالمشرق عبر ادب الرحلة، واستناداً إلى عشرات المصادر القيمة، استحقت صاحبته عنه بجدارة جائزة ابن بطوطة للدراسات.

مصر والعمران في كتابات الرحالة والموروث الشعبي

خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

د. عمرو عبد العزيز منير

تشكل هذه الدراسة خطوة متقدمة في المجال الذي تبحث فيه فهي تحاول أن يسد نقصاً أكيداً في المكتبة العربية، ولو بصورة جزئية. إنطلاقاً من رؤية ترى في تراث الرحالة وكتاباتهم أحد المصادر المهمة لإلقاء الضوء على الحضارة.

وتندرج هذه الدراسة، التي تغطي فترة خطرة من تاريخ العرب والمسلمين، هي فترة المواجهة ضد المغول والصليبين الكاثوليك في المشرق العربي، في إطار المحاولات الدراسية لما يسمى بـ " التأريخ الحضري " الذي سبقتنا إليه أوروبا، حيث تبين الدراسة الشروط الموضوعية لتقدم عمران مدننا العربية في ظل الحضارة العربية والإسلامية، بما يقدم الدرس والعبرة للعمران الحديث والمعاصر! فالعمران نادراً ما أغفله في نصوصهم أيٌّ من الرحالة المسلمين أو غيرهم.

وعلى الرغم من كثرة الأعمال التي تناولت أدب الرحلات إلا أنه قلما نحت دراسة إلى تناول رؤية الرحالة للعمران في المشرق العربي، ولا يزال المجال فسيحاً لدراسات أخرى تضيف المزيد إلى هذا الشأن، من هنا تأتي أهمية هذه الدراسة كي تحاول أن تملأ فجوات في بنية (المسكوت عنه عمداً أو بدون قصد) في المصادر التاريخية والجغرافية. وهي دراسة تحاول الوقوف على صورة العمران وما ارتبط به من موروث شعبي .

وقد اتخذت الدراسة من (مصر) محوراً بوصفها نموذجاً طيباً يمثل العنصر الثابت – نسبياً – في أركان العملية التاريخية (المكان) كما تأتي تلك الدراسة لاستكمال حلقة من سلسلة حلقات البحث في تاريخ العمران العربي في العصور الإسلامية من خلال رصد التفاعل بين البيئة والإنسان والمجتمع في إطار مشاهدات الرحالة.

وتكافيء اللجنة خصوصا علمية البحث وفق المنهج التاريخي والتحليلي في رصد الأساطير والحكايات الشعبية والخرافية المتصلة بالعمران في كتابات الرحالة والمؤرخين القدامى.

ابن بطوطة وجهوده اللغويّة والجغرافية :

(ألفاظ الأطعمة والأشربة أنموذجاً)

د. عبد العزيز بن حميد الحميد

تيمم هذه الدراسة في نص رحلة ابن بطوطة شطر منطقة ثرية ومغرية للباحث في نص شيخ الرحالين العرب والمسلمين شمس الدين الطنجي.

وحسب بيان الباحث فقد فوجيء خلال بحثه بالعدد الكثير من الألفاظ التي تعبّر عن جوانب الحياة السائدة في مختلف البلاد التي زارها الرحالة، ورأى الباحث لها قيمةً لغويّةً كبيرةً؛ لكونها تعبّر عن المستوى اللغويّ والحضاريّ لها، كما أنّها تقدّم صورةً عن الحياة في بلاد شتى في فترةٍ من القرن الثامن الهجريّ.

وقد جمع الباحث مفردات أهمّ مجالات الحياة التي تحدّث عنها، فوجدها عدداً كبيراً يحتاج إلى دراسة معمقة ومستقلة تكشف عن الأثر اللغويّ لتلك المفردات، وإسهامها في الكشف عن التطوّر المستمرّ للغة العربيّة في جانب الألفاظ والمعاني، فهي تكشف عن عدد وفير من الألفاظ العربيّة المولّدة، أو الدخيلة على العربيّة من إحدى لغات البلاد التي تحدّث عنها الرحالة، كما أنّها تكشف عن معانٍ جديدةٍ عبّر عنها في الرحلة بألفاظٍ عربيّة.

وقد آثر الباحث لكثرة تلك الألفاظ اختيارَ مجال الأطعمة والأشربة، نموذجاً للبحث، لغنى الرحلة بهذا الجانب من الألفاظ. وتكشف هذه الدراسة عما تختلف به الشعوب في عاداتها في الأكل والشرب، والمأكول والمشروب.

من ناحية ثانية تمتاز هذه الدراسة برصدها لأسلوب ابن بطوطة في سرده ووصفه، وقد حرص الباحث على تثبيت الالفاظ المقصودة في سياقاتها، وتوثيق اللفظ، عربيّاً كان أو غير عربيّ؛ بالرجوع إلى الكتب التي تعتني بتلك الألفاظ، سواء كتب الأطعمة والأشربة، أو كتب النبات (الثمار والفاكهة)، ونحوها من مراجع، إلى جانب كتب المعرّبات والدخيل، والمعاجم اللغويّة.

مدينة قسنطينة في أدب الرحلات

بورايو عبد الحفيظ

تحاول هذه الدراسة ببراعة كبيرة إعادة تركيب صورة مدينة قسنطينة الجزائرية التي تعتبر عاصمة الشرق في الجزائر ومدينة العلم وأكثر المدن إغراء للرحالة شرقيين وغربيين عبر التاريخ.

وقد اعتمد الباحث على مجموعة من المصادر الموضوعة باللغة العربية ولغات أخرى، وسلك في بحثه منهجا تاريخيا تحليليا نقديا منطلقا من الرحلات الأساسية الهامة التي قصدت المدينة (أكثر من عشرين رحلة) لتحديد الاتجاهات في رحلات الرحالة والقضايا التي انعكست في كتاباتهم.

وإذا كانت الرحلات العربية إلى المدينة التي تتبعها الباحث كرونولوجيا تبدأ بالإدريسي في القرن الثالث عشر وتنتهي بثلاثة من الأدباء التونسيون في القرن التاسع عشر والعشرين، فإن الرحلات الأجنبية جلها تصور المدينة خلال العصرين التركي والاستعماري الفرنسي وقد حاول الباحث من خلالها إبراز وجهات نظر الرحالة الغربيين التي تكاد تكون صورا مكررة من بعضها.

وقد استعار الباحث من المناهج المختلفة مايتمشّى وطبيعة النصوص الرحلية التي اعتمدتها الدراسة. وقام بمساءلة هذه النصوص ضمن ما تقتضيه السردية وفق إجراءاتها المنهجية للكشف عن الخصائص الأدبية في الرحلات حيث اقتضى البحث.

وقد استحق الباحث عن دراسته القيمة هذه جائزة ابن بطوطة للدراسات

العجائبية في أدب الرحلات

"رحلة ابن فضلان نموذجا"

الخامسة علاوي

تقدم الخامسة علاوي بحثا موثقا وأمينا لمفهوم العجائبية في أدب الرحلة في الثقافة العربية، وهي تستند إلى رحلة ابن فضلان التي تجد فيها نمذجة عالية للمفهوم التي تشتعل عليه. تنحني علاوي بعين الباحثة الأمينة على جل المراجع التراثية المتعلقة بمشروعها من جهة، وعلى غالبية الكتابات العربية المعاصرة عن ابن فضلان من جهة أخرى. ورغم شحة المصادر القديمة عن الرحالة فإنها استطاعت تقديم قراءة موضوعية لرحلته، والتوصّل إلى استنتاجات هادئة من داخل النصوص الواصلة إلينا عن الرحالة وأعماله.

غير أن الأهم من ذلك هو أن الباحثة تضع هذه الرحلة الفريدة في سياق مصطلحات البحث النقدي المعاصر، وتربطها بالواقعية السحرية والإتوبيا والإسكتالوجيا والخيال العلمي وبالخطابات الأيغورية الرمزية وكتب التاريخ والجغرافيا، كما بالمفهومات الني تهتم بها السرديات الحديثة كالفضاء والزمان.

تستنطق الباحثة كذلك السجال الذي دار حول الرحلة والمزاعم بشأنها، أوربياً وعربياً، وتقدّم استنادا على طبعات الرحلة الأساسية وما كتب بشأنها حصيلة متماسكة، لا تخلو من وجهات نظر تستحق النظر والتقدير.

إن فرضية العمل القائمة على أساس إمكانية أن تكون الرحلة حقلا للانشغالات الغرائبية، هي قراءة إضافية لعمل ابن فضلان من بين القراءات المتعددة التي قدمت لها حتى الآن. وللاعتبارت السالفة استحقت عن عملها جائزة ابن بطوطة للدراسات.

جائزة الرحلة المعاصرة

سبع سماوات

(رحلات في ومصر والجزائر والعراق والمغرب وهولندا والهند)

سعد القرش

"لست مولعا بالسفر، ليس خوفا من خطر الموت المرتبط بالحوادث؛ ففي مصر أصبحت النجاة من موت متربص بمواطنين زائدين على حاجة النظام الحاكم أعجوبة نفوز بها كل مساء، حين نعود إلى بيوتنا سالمين. الطرق في مصر شباك لاصطياد الأرواح بيد ملاك الموت. وقد عودت نفسي كل يوم على توقع الموت.. قبل النوم، قبل الذهاب إلى العمل، قبل الانتقال من القاهرة إلى أي مدينة أخرى، قبل السفر إلى الخارج. أستعد للموت وأنا في سلام مع النفس، ومع الآخرين حتى الأعداء أو الذين يتصورون أنهم كذلك؛ فلا تخلو حياة إنسان من عداوات، لكنني لا أكره أعدائي، وإنما أستبعدهم من مجال الرؤية، كأنهم غير موجودين، فلا محبة ولا كراهية: بهذه اللغة السلسة والموحية يكتب سعد القرش يوميات تنقله من مكان إلى آخر ليس فغي القاهرة، وإنما في جغرافيات شتى زارها في أوروبا وآسيا والشمال الإفريقي.

لغة أدبية تدرك خفايا الجمال في السرد، ولكنها لغة معجونة بالمرارة، صريحة ومباشرة مرات كثيرة بينما هي تنقل لنا المشاهد وتصور الحالات وتصوغ المواقف. وحيثما وقعت عين الرحالة على مشهد او حدث أو واقعة أو معلم تحركت غريزة الروائي.

يوميات بارعة في بساطتها والتقاطاتها معاً، كتبت بلغة تقتحم الموضوع أكثر منها لغة توارب. والكاتب لا يضيره مرات أن يخسر القاريء لقاء ممارسته حريته التامة في التعبير عن أفكاره وانطباعاته. وقد استحق صاحبها عنها بجدارة جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة.

الهندوس يطرقون أبواب السماء

رحلة إلى جبال الهمالايا الهندية

وارد بدر السالم

"أكتب وبين أصابعي نمرٌ جريح..." بهذه الكمات يستهل الكاتب يوميات رحلته إلى جبال الهملايا، في نص كل ما فيه يجعلنا نسافر في رحاب المكان بما يرميه على مخيلتنا من ظلال أسطورية. إنه كتاب انطباعات ومشاهدات في أرجاء جبال الهيمالايا والمدن الهندية التي توقف فيها ليرى ديانات الناس وثقافاتهم وغرائب عاداتهم ومعتقداتهم، تحف به دوما الطبيعة ومشاهدها التي صارت إطاراً لرحلته بعجائبيتها وما تُقدم من تلاوين أرضية وسماوية.

في هذه الرحلة هناك صور الطبيعة، سنلتقي الغابات والجبال والرياح والسحاب والضباب والمطر، سنرى مع الكاتب القمم التي يراها الآن وسيصير فوقها بعد قليل ملتوية وملتفة، ونعيش معه حرارة الوديان ورطوبتها وبرودة مياه الأنهار وخضرة الأشجار والثمار الغريبة والقمم الثلجية في الأعالي، سنرى طُرز العمارة المميزة في المعابد والبيوت الفلاحية.

بثلاث أدوات يحقق وارد رحلته، هي: النكتة الهادئة والتعليق الساخر والحوار العامي أحيانا، مما يعطي العمل خفةً ولطفا تتطلبه الرحلات المنبثقة كنظام أصلا من تلك الملاحظات واصطدام الوعي بالَمشاهد والرؤى التي تعرضها عليه الأمكنة. وعمله هذا يشكل إضافة جدية لهذا النوع الأدبي، وتنبيه على حيويته وألفته ومكانته في الكتابة الحديثة. ولهذه الاعتبارات وغيرها حاز على جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة

جائزة اليوميات

الشامي الأخير في غرناطة

(دفتر يوميات)

عاصم الباشا

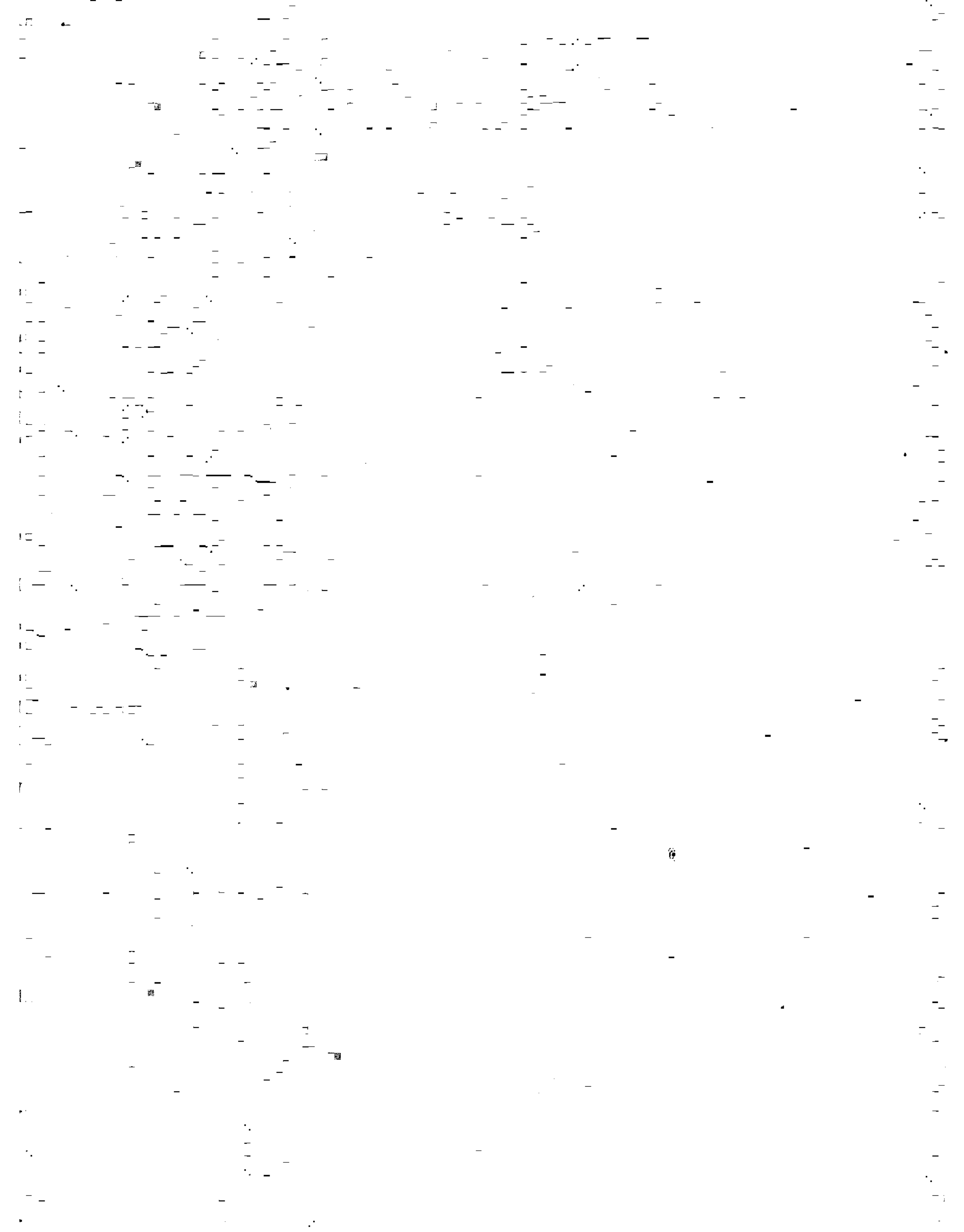
"أقيم في غرناطة، منذ سنوات، التجأت إليها من شرقنا بحثًا عن الهواء. أعبد الحمراء، والبيازين وكل آجرة فيها – أعرفها – والمسجد في قرطبة والمئذنة في أشبيلية والحمام في جيان والحمة وبسطة، تستهويني التواءات الأزقة وبريق العيون السمر... لكنني أرفض أن تحتويني الآثار. أنا الماضي والماضي أنا، وأنا أحيا، إنما هي من جملة التراكم المعرفي، تفصيل في صياغة الهوية، كلما اطردت المعرفة اتسعت رحابة الهوية وقدرتها على التفهم. اثنان يضعان لها الحدود والشروط: الجاهل والمستفيد من الصفقة.". ويضيف: "كل حي متحوّل، والثابت مدعاة للموت. حتى الجثة في حالة صيرورة، ما من ثابت دائم.. وهنا يكمن الفارق." بهذه الكلمات يتحدث في غرناطة عاصم الباشا الفنان النحات والرسام والروائي المولود في بوينيس آيرس لأم أرجنتينية وأب سوري، والذي درس في موسكو ويحمل الجنسية الفرنسية ويقيم في إسبانيا منذ سنوات طويلة. إنه المواطن الأممي خارج مثاقيل الجغرافيا وموازينها المرهفة لكونه ابن القارات الثلاث، ولكن الثقيلة أبداً لكونه المبدع الذي يعبر في فنه وكتابته عن الألم الإنساني.

ليست لدى عاصم الباشا مشكلة هوية مع أنه الأجدر من كثيرين بمثل هذه الإشكالية. إنه ابن العالم، نجد هذا في لوحاته ومنحوتاته التي نال عنها جوائز صينية وعربية وإسبانية وأوروبية مختلفة.

هنا مع هذه اليوميات لهذا الفنان نحن بإزاء نص جريء في لغته صادم في بعض مواقفه، لكنه نص إنساني النزعة أبيقوري المزاج يكتب عاصم الباشا ليحرر اللغة من سلطة الفكر وسلطة الخطاب القمعي وسلطة الاستعمال الاستهلاكي والنفعي للغة. شخص لا يريد من احد شيئاً. سوى مطارحة المزاج للمزاج. لكن هذه المجانية تبدو من جهة أخرى في ذروة شعورها بالمسؤولية عندما يتحدث الفنان عن الفن.

يوميات كتبت بلغة إشراقية هي ديدن الشعراء الكبار والفنانين الكبار والحالمين الكبار.
استحق عنها بجدارة واقتدار جائزة ابن بطوطة لليوميات.

المحتويات





FROM EGYPT TO SANAA
1927

BY NAZEEH M. AL-A' ZM

يضيء هذا النص على جغرافية اليمن وتاريخه وأحواله في الربع الأول من القرن العشرين خلال عهد الإمام يحيى. وهو موضوع بقلم مؤلف ينتمي إلى عائلة وطنية دمشقية عريقة كان منفياً في مصر سنة 1926 إبان الثورة السورية الكبرى عندما التقى بشارلس كرين، الثري الأميركي الذي كان ملقباً بصديق الشعوب المظلومة، وطلب مرافقته في رحلة إلى الحجاز واليمن. وهو ما جرى، وكانت ثمرة تلك الرحلة هذا الكتاب القيم الذي قام المحقق، وهو باحث رصين ومعروف من اليمن، بتكليف من المركز العربي للأدب الجغرافي:ارتياد الآفاق بإعادة تحقيقه، وتصويب ما وقع فيه المؤلف من أخطاء تتعلق بتاريخ اليمن. مع الإشارة إلى ذلك في موضوعه. وقد قام بهذه المهمة بجدارة كبيرة استحق عنها جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات ■





